تاريخ الفكر الإسلامى

دكتور عصام الدين عبد الرءوف الفقى
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة
ت : ٢٧٥٢٧٩٤ ـ ٢٧٥٢٩٨٤


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شُغلتُ بقراءة الحضارة الإسلامية سنوات طويلة، ولم أترك كتابا عربيا أو أجنبيا إلا قرأته، فضلا عن البحوث والدراسات فى هذا المجال.

وخلال قراءاتى، لاحظت أن المسلمين أضافوا إلى الحضارة الإنسانية إضافات كثيرة، ولم يتركوا علما إلا وتناولوه بالبحث والدراسة: العلوم العربية والدينية، والعلوم العلمية، وصنفوا المجلدات فى فروع العلوم المختلفة، وترك المسلمون للبشرية تراثا كبيرا ضخما ملأ مكتبات العالم، وأثَّر الفكر الإسلامى فى حضارة الغرب، فبينما كان المسلمون فى تقدم كبير فى مجال الفكر، كان الأوربيون يعيشون فى ظلام دامس من الجهل، وحينما تطلعوا إلى العلوم الحديثة، استفادوا من كتب العرب وعلومهم، وبنوا نهضتهم الحديثة مستفيدين من تراث العرب.

ولكن العرب لم يحافظوا على ما بلغوه من نهضة فكرية؛ بل تجمدوا فى أواخر العصور الوسطى، واكتفوا بالعلوم التى ورثوها عن أسلافهم دون إضافة الجديد إلى الفكر والعلم، وظلوا فى تخلفهم حتى واجهوا الاستعمار الأوربى الذى استغل ثرواتهم، وجمد نشاطهم فى شتى المجالات.

على أن القرن العشرين شهد نهضة فى العالم الإسلامى، ورأى المفكرون أن أوربا تزداد تقدما، والمسلمون يزدادون تخلفا وتدهورا، فنادوا بضرورة اللحاق بركب الحضارة الغربية مع المحافظة على القديم. والخطوة الأولى لتحقيق ذلك بالتحرر من الاستعمار.

وعلى الرغم مما واجهه الإسلام من تحديات وافدة من الغرب، إلا أنه ظل صامدا أمام هذه التيارات. وأثبت أن الإسلام دين حضارة، ودعوة إلى العلم والفكر والأخذ بأساليب التقدم الإنسانى.

وظهر مفكرون إسلاميون فى العصر الحديث، بعضهم تأثر بالحضارتين الإسلامية والغربية، أى جمعوا خلاصة الفكر العالمى شرقه وغربه.

وفى دراستى للفكر الإسلامى، حرصت على إبراز عوامل نهضة المسلمين الفكرية فى العصور الوسطى، وتكلمت عن أسباب تدهور المسلمين فى مجال الفكر، وهى الحروب الصليبية والغزو المغولى، وسقوط الأندلس، والاستعمار.

قسَّمتُ بحثى إلى خمسة أبواب، تناولت فى **الباب الأول** أسس ومبادئ الإسلام، وأثر الإسلام بين الأمم، كما درست مصادر التشريع فى الفكر الإسلامي.

وكتبت فى **الباب الثانى** عن النظم الإسلامية التى وضعها المسلمون لدولتهم، والتى أدت إلى استمرارها قرونا.

وفى **الباب الثالث** كتبت عن الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية فى الدولة الإسلامية، تناولت فيها الزراعة والصناعة والتجارة، وعناصر السكان، وأثر المرأة المسلمة فى الحياة الاجتماعية، وبعض الاحتفالات الرسمية. وفى **الباب الرابع** تناولت الحياة الفكرية فكتبت عن المراحل التعليمية فى دولة الإسلام والعلوم الدينية والعربية وعلوم الرياضيات والطب والفلك والنبات والحيوان والكيمياء والفيزياء والموسيقا، ودرست إبداعات المسلمين فى الفن، فشيدوا المدن والمساجد والقصور وبرعوا فى الزخرفة والرسوم على الحرير والسجاد والخشب والجلود والخزف والزجاج.

وتناولت فى **الباب الخامس** أزمة الفكر الإسلامى، فكتبت عن عوامل تدهور الفكر الإسلامى وتخلف المسلمين، وتفشى الجهل بينهم، ولكن بعد هذا الجهل والضعف ظهرت دعاوى المفكرين المسلمين إلى التخلص من الاستعمار، والأخذ بأساليب الحياة الحديثة للحاق بركب الحضارة.

وهذا الكتاب راودتنى فكرة تأليفه منذ سنوات طويلة، وشرعت فى التأليف فيه سنوات عديدة، قرأت خلالها الكتب والبحوث العديدة، وحرصت على الاطلاع على كل كتاب أشرت إليه، مثل القانون فى الطب لابن سينا، والمناظر لابن الهيثم؛ لأنه لا يصح الإشارة إلى مفكر دون قراءة كتبه، وهذا خطأ يقع فيه دارسو الحضارة، فلا يمكن معرفة فكر المؤلف إلا من خلال الاطلاع على كتبه ودراساته.

وهذا الكتاب يعطى للقارئ المتخصص والقارئ العام معلومات مفيدة عما بلغه الفكر الإسلامى من تقدم فى العصور الوسطى، والتدهور الذى لحق بالمسلمين فى العصور الحديثة، وعودتهم إلى تراثهم ومحاولتهم ملاحقة تيار الحضارة والفكر.

وأرجو من الله أن أواصل دراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية.

هذا، وبالله التوفيق

د. عصام الدين عبد الرءوف الفقى

مصر الجديدة : ٢/ ١٠/ ١٩٩٦



الباب الأول

أسس ومبادئ الإسلام

أثر الإسلام فى الفكر

انتشار الإسلام بين الأمم

مصادر التشريع فى الفكر الإسلامى

قبل أن نتكلم عن الفكر الإسلامى يجب أن نناقش أساس الفكر الإسلامى وهو الإسلام.

الإسلام هو الدين السماوى الذى اختاره الله لعباده، وأمر رسوله بأن يبشر الناس به، ويدعوهم إليه. ولفظ الإسلام له معان سامية رفيعة، فهو يدل على الموادعة والمحبة والمودة والإخاء، ونبذ الشرور والآثام والرذائل. والإسلام يعنى الإخلاص والتسليم بكل ما أمر الله به، والإذعان والطاعة لخالق الكون والوجود، وأن يكون الإنسان مسالما مع نفسه، ومع غيره، وبذلك يعم الخير وتزداد الطمأنينة بين الناس.

وكتب الله للمؤمنين بدينه الجنة خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام، أى أن السلام والأمن يسودان بين هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات : **﴿إن المؤمنين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين﴾** (الحجر : آية ٤٥،٤٦)، أى ادخلوها بدون خوف أو اضطراب. والجنة لا يسمع فيها أهلها خطايا وإساءات، ولكنهم يسمعون فيها فقط عبارات الموادعة والمحبة والمسالمة : **﴿لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما﴾** (مريم : ٦٢).

والمسلم يعيش بفضل الإسلام فى أمن وأمان **﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾** (سورة طه : ٤٧)، **﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾** (النمل : ٥٩)، وكفل الله لأنبيائه السلام **﴿والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾** (مريم : ٣٣)، **﴿سلام على نوح فى العالمين﴾** (الصافات : ٧٩)، **﴿وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم﴾** (الصافات: ١٠٨،١٠٩)، **﴿وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين﴾** (الصافات : ١٨١ ، ١٨٢).

واتخذ الله السلام اسما له : **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾** (الحشر : ٢٣)، وليلة القدر التى فضلها على سائر الليالى جعلها الله سلاما حتى مطلع الفجر.

ويصف الله المسلم بأنه مسالم إذا تعرض له سفيه وادعه وتجنبه **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾** (الفرقان : ٦٣)، والمسلم لا يعتدى على أخيه المسلم، قال رسول الله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، أى لا يعتدى على أحد بأى مظهر من مظاهر العدوان؛ لذلك فإن الإسلام يدعو إلى المسالمة مع النفس وبين الناس بعضهم بعضا.

ووردت كلمة الإسلام فى القرآن الكريم على الأمم السابقة التى آمنت برسالات الأنبياء، وأطاع أهلها الله ورسوله، أى انقادوا للحق واستسلموا له **﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾** (البقرة : ١٣٣)، **﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾** (المائدة : ١١١).

وانحصر هذا اللفظ، وأصبح يشمل المسلمين فقط من أتباع محمد ﷺ **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾** (آل عمران : ٨٥)، وحدد القرآن الكريم الدين الذى بُشِّر به محمد بأنه الإسلام **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾** (المائدة : ٣)، **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** (الأنعام : ١٢٥).

وفى السور المدنية فى القرآن الكريم ترد كلمة الإسلام مقابلة لكلمة الكفر **﴿ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾** (التوبة : ٧٤)، **﴿قل لا تمنوا علىَّ إسلامكم﴾** (الحجرات : ١٧)، **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾** (البقرة : ١٢٨)، **﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾**، (آل عمران: ١٠٢) إلى آخر الآيات التى توضح أن الدين عند الله الإسلام[١].

ووردت كلمة الإسلام فى القرآن الكريم مرادفة لكلمة الإيمان **﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾**. (الحجرات : ١٧) وهذا يدل على أن الإسلام والإيمان لفظان مترادفان بصفة عامة.

---

(١) البقرة ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ آل عمران ١٩، ٥٢، ٦٤، ٨٠ ـ الأعراف ١٢٦ ـ الزمر ١٢وغيرها.

على أن بعض أهل العلم يرون أن لفظ «إيمان» أخص من لفظ «إسلام»، وفى ذلك يقول الغزالى : إن إطلاق الإسلام بمعنى الاستسلام ظاهر باللسان والجوارح مع إخلاص الإيمان على التصديق بالقلب فقط، وبذلك يكون الإسلام والإيمان مختلفين فى المعنى، والإسلام عبارة عن التسليم بالدين وبالعمل والقول أو بالوراثة، ويكون الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب، فالإيمان أخص من الإسلام **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾** (الحجرات : ١٤).

ويتميز الإسلام بخصائص رئيسية هى : الوحدانية والعالمية والشورى والعمل والمساواة والفكر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعدالة والوسطية والأخلاق.

الوحدانية : المعروف أن الإنسان منذ خُلِقَ وهو فى حيرة من أمره حول مشكلة الألوهية، وعبرت عنها الجماعات البشرية تعبيرات مختلفة، فمنهم من عبد الشمس والقمر والكواكب والنجوم والأصنام والأوثان، ومنهم من قال بوجود إلهين ـ إله النور وإله الظلمة ـ ومنهم من عبد إله الحرب وإله الخمر. وجاءت الديانات السماوية تدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾** (البقرة : ٢١٣).

والديانات السماوية السابقة للإسلام تدعو إلى الوحدانية، ولكن كذَّب الناس دعوة الأنبياء؛ لأن فكرة التوحيد تحتاج إلى فكر فلسفى مجرد حتى يستطيع الناس أن يدركوا أن الله واحد أحد، خالق الكون، ومجرد من الصفات البشرية؛ لذلك انحرف الناس بالديانات السماوية وأشركوا بالله، وأضفوا على الله صفات بشرية، وقالت اليهود : عزير ابن الله، وقالت النصارى : المسيح ابن الله، وعلى ذلك ظلت فكرة التوحيد غامضة مبهمة لدى البشر، ولم يؤمن إلا نفر قليل حتى جاء الإسلام وحرر عقول الناس من هذه المعتقدات البالية، فالله واحد أحد وليس إله قبيلة أو إله العرب، بل رب العالمين، وهو الخالق لا خالق سواه، بيده مقاليد الأمور فى الكون الذى خلقه. وكل المخلوقات مظهر من مظاهر قدرته، خلق

السموات والأرض والكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان بالإضافة إلى ما فى الكون : الشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار وكل مظاهر الطبيعة، ووسعت قدرته كل شيء.

إذن، تميز الإسلام عن سائر الديانات بأنه أوضح بشكل قاطع لا يقبل الشك موضوع الوحدانية، والله واحد لا شريك له، ولو وجد إله مع الله لاختلت الأرض، وتوقفت مسيرة الحياة، والله هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو الكامل ليس كمثله شيء، أى أنه منزّه عن الخصائص البشرية أو أى خصائص نتصورها، والإنسان أقل من أن يتصور القادر الكامل الذى خلق الكون، وخلق الإنسان ويعرف ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

ومن دلائل وحدانية الله وحدة الوجود، وتتجلى فى السمات المشتركة لكل الكائنات الحية، والقوانين الثابتة التى تحكم حركة الحياة، وعلى ذلك فعقيدة الوحدانية واضحة ليس فيها تعقيد، إذ تفصل بين قدرة الله وعظمته، وبين مستوى الإنسان ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ (الشورى: ١١)، ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ (الأنعام : ١٠٣).

وتستهدف الوحدانية المساواة بين الناس فى الاعتبار الإنسانى والبقاء فى المستوى الإنسانى، وفى المشاركة في الحقائق الإنسانية من الصواب والخطأ، والناس سواء فى التكاليف الشرعية أم فى المحاسبة أمام الله.

إن توجيه الإنسان إلى وحدانية الله وعدم الشرك به و عدم السجود لغير الله ترفع من شأن الإنسان وتجنبه الذل والخضوع لزميله فى الإنسانية، وفيها المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فالوحدانية ترفع من كرامة الإنسان وتعززه، لا يخضع لغير خالقه، ولا يعبد غير الله. والوحدانية تهيئ للإنسان التطلع إلى المثل العليا والقيم السامية، الله هو المثل الأعلى، وصفاته هي الكمال والعلم والقدرة والخلق والتدبير والغنى بالذات إلى آخر صفاته. وهذا يؤكد ضرورة تطلع الإنسان إلى صفات الإله الكاملة والترفع عن النقائص الدنيوية.

وبرهن القرآن الكريم على وحدانية الله بالعلم والنظر والفكر والتدبر والتأمل فى مخلوقات الله وما فيها من أسرار القدرة، والكائنات الحية ومظاهر

الكون تخضع لقوانين ثابتة. والله خلق الأسباب والمسببات ونظم الكون بحكمته، وسيره بقدرته، وأبدع نواميسه.

والخلاصة، فالتوحيد يجعل الإنسان مرفوع الرأس، لا يعبد إلا الله خالقه ويقف عند أوامره، والمسلم منتصب القامة أمام كل حى، فلا يحنى ظهره إلا لله.

الشورى : أقر الإسلام الشورى لإصلاح المجتمع، وحرصا على عدم الانفراد بالقرار وصدور قرارات المجتمع من خلال الشورى تجنبا للخطأ؛ لأن الرأى الجماعى ينتج عن تفكير عدد من العقول، ويأتى بعد دراسة جماعية متأنية، أما رأى الفرد فغالبا ما يشتمل على أخطاء، ويؤدى إلى ظلم الجماعات.

وأمر الله رسوله بالشورى فى الأمور التى لا يصدر فيها أمر من السماء **﴿وشاورهم فى الأمر﴾** (آل عمران : ١٥٩)، ووصف القرآن الكريم الأمة الإسلامية فقال تعالى : **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** (الشورى : ٣٨)، وطبق الرسول مبدأ الشورى، ففى غزواته شاور أصحابه بل كان يتنازل عن رأيه بعد إجماع أغلبية الآراء على قرار مشترك، وسار الخلفاء الراشدون على منهج الرسول فى الشورى، وكان أبو بكر الصديق يذهب إلى المسجد ويقول : أشيروا علىَّ أيها الناس. وهكذا كان الخلفاء الراشدون، فى الأمور التى فيها نص من القرآن الكريم أو السنة يلتزمون به، فإن لم يجدوا نصا يستشيرون أهل الحل والعقد، وهم الصحابة أصحاب الرأى والفكر ولهم صحبة كبيرة مع الرسول، وعلم بالدين والأحكام.

وينقسم مجلس الشورى فى عهد الخلفاء الراشدين إلى مجلسين : شورى خاصة، وتضم كبار الصحابة مثل على بن أبى طالب، أخصهم بالشورى لأنه أفقههم، والقسم الثانى : الشورى العامة، وتضم سائر المسلمين فى المسجد، وتختص بتقرير أمر هام كالجهاد وجمع القرآن وتدوين الدواوين، والتقويم الهجرى، ووضع الأرض التى امتلكها المسلمون. ومن أمثلة الشورى أن أبا بكر لما شرع فى إرسال الجيوش لفتح الشام والعراق، جمع المسلمين فى المسجد، وقال: «اعلموا أن رسول الله كان عوَّل على أن يصرف همته إلى الشام.. ألا وإنى عازم على أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام».

فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة، ولما أرسل أبو بكر جيوش فتح الشام، أوصى القائد يزيد بن أبى سفيان : «وشاور أصحابك فى الأمر، واستعمل العدل، وباعد عنك الظلم».

والشورى تربية للأمة على الإدراك الصحيح فى عامة الأمور، وهى التى تتفق مع النظام الحر السليم، وخير للجماعات أن تخطئ فى رأى وهى حرة، من أن يُفرَض عليها آراء فردية صائبة، فإن صوابها يكون مقترنا بإرهاق نفسى وضغط للإرادة، وذلك أشد ضررا فى تكوين الأمم.

والمساواة بين الناس واضحة فى قوله تعالى : **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾** (سبأ : ٢٨)، فالإسلام غير مقصور على جنس دون آخر، وإنما للناس جميعا **﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (الحجرات: ١٣).

وآخى الإسلام بين المسلمين، وبذلك خفف من حدة العصبية التى كانت تفرق بين الناس **﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾** (الحجرات: ١٠)، وقال الرسول ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية»، وقال ﷺ أيضا : «المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم أعلى يدا على من سواهم». وروح المساواة هذه التى وضع أساسها الإسلام، تؤدى إلى وجود مجتمع تسوده الأخوة والمحبة، وينعدم فيه الحقد الطبقى والصراعات العنصرية، فينصرف الناس إلى حياتهم العملية فى محبة واطمئنان.

والإسلام يدعو إلى الفكر والعلم، وأول آية نزلت على الرسول ﷺ : **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾** (العلق : ١ ـ ٥)، وقال تعالى : **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** (الزمر: ٩)، **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** (فاطر: ٢٨)، ويقول الرسول ﷺ : «لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل».

ودعا الإسلام الناس إلى التفكر والتدبر فى خلق الله، وهذا واضح من الآيات القرآنية الكثيرة التى تتحدث عن قدرة الله، وتدعو الناس إلى التأمل والتفكر فيها، والإسلام رفع المستوى الفكرى للمسلم؛ لأن فهم القرآن الكريم وفهم معانيه وإعجازه يحتاج إلى نمو فكرى، وانبثق من الإسلام عدة علوم، وبذلك اتسعت المعرفة عند المسلم من خلال فهم دينه.

وأقبل المسلمون على دراسة علوم القرآن واللغة وسيرة الرسول ومغازيه وبذلك دخل المسلمون فى عصر جديد من العلم والفكر؛ لأنهما طريق الإنسان للوصول إلى الإيمان : **﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾** (يونس: ١٠١) **﴿ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض﴾** (آل عمران: ١٩١)، **﴿وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾** (الروم: ٢٤). وهذا أدى إلى ازدهار العلوم الإسلامية والعلوم العقلية.

وجعل الإسلام العلم أداة لبناء الإنسان، ورفع الله من شأن العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾** (آل عمران : ١٨). وقال الرسول ﷺ: «وفضل العلم خير من فضل العبادة» ، **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** (العنكبوت : ٤٣)، ورغَّب الرسول فى أحاديثه بالعلم فقال : «ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة».

والعلم فى الإسلام ليس فى علوم الدين فقط، بل فى كافة العلوم الأخرى وما يتضمنه القرآن الكريم من إشارات إلى قدرة الله التى وسعت كل شىء، ودعوة الناس إلى التفكر فيها لهى خير دليل على ذلك، ودعا الإسلام إلى معرفة اللغات الأخرى وإلى الرحلة فى طلب العلم، كما ورد عن الرسول ﷺ : «من عرف لغة قوم أمن مكرهم». وقال أيضا ﷺ : «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

وقال بعض أهل العلم من المسلمين: تعلموا العلم، فإن تعلمه خشية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة. يرفع الله به أقواما.

ومن خصائص الإسلام، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، سواء بين الحاكمين والمحكومين **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** (آل عمران: ١٠٤) وميز الإسلام المسلمين عن غيرهم بهذه الميزة **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾**؛ لذلك فواجب المسلم نحو أخيه المسلم الموعظة الحسنة، ونهيه عن الانحدار فى الخطيئة،

وتوجيهه إلى عمل الخير ما وسعه ذلك، «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه» ويجب أن يتم ذلك على مستوى الأسرة أولا، ثم الأصدقاء والزملاء، وعلى مستوى الدولة نحو رعاياها، وهذا ما عبرت عنه الدولة الإسلامية بإنشاء وظيفة المحتسب، ومن اختصاصه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ويقرر الإسلام بذلك إصلاح المجتمع من الفساد، فلا يكون الفرد سلبيا فى المجتمع يرى الخطيئة من زميله أو صديقه أو أخيه ولا يتدخل، بل يجب أن يقدم لأخيه فى الله النصيحة ويحذره من الخطأ والفساد، ويؤدى ذلك إلى وجود مجتمع يتضامن أفراده على فعل الخير ونبذ الشر.

والإسلام دين الوسطية، فقال تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾** (البقرة: ١٤٣) والوسطية بين الروحية والمادية، لم تهمل مطالب الجسد، وفى نفس الوقت اهتمت بتقوية الروح وسموها، والعبادات لتربية الضمير الإنسانى؛ ليأتلف المؤمن مع أخيه، ويتبع ذلك التآلف والتآخى بين أفراد المجتمع، والطاعة واجبة لله ولرسوله ولولى الأمر ما أطاع الله ورسوله؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

والإسلام يأمر بالاعتدال؛ لأن خير الأمور الوسط **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾** (الإسراء: ٢٩)، «إن لبدنك عليك حقا»، أى لا يكلف أحد نفسه فوق طاقتها، فيجب أن يعطى لنفسه قدرا من الراحة، ولا يرهق نفسه إرهاقا قد يضره ويؤذيه.

ويقول الرسول ﷺ : «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»، كل هذا يدل على أن الإسلام يأمر بالاعتدال فى كل حركة من حركات الحياة.

والإسلام يأمر بالعدل، وينهى عن الظلم، ونفى الله عن نفسه صفة الظلم **﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾** (يونس: ٤٤)، **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾** (النساء: ٤٠)، وفى القرآن الكريم ما يشير إلى النهاية السيئة للجبابرة.

والعدل أساس سعادة الفرد والمجتمع، فالعدل مع النفس أى يتخذ الإنسان لنفسه السلوك العادل المتزن فى مسيرة حياته، والعدل مع الغير، أى يعدل فى

علاقته مع الآخرين سواء كانوا رفاقا له فى الحياة أم مرءوسين له. وقادة الجماعة الإسلامية من واجبهم العدل مع الأفراد حتى يسود المجتمع الأمن والطمأنينة ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة: ٨) وأمر الإسلام الحكام بالعدل بين الناس.

والإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق، وإلى الأخذ بالمظاهر الجمالية فى الحياة، والمعروف أن الإسلام لم يأمر بالالتزام بصفة أخلاقية إلا وفيها النفع للفرد والمجتمع، كالصدق والكرم والأمانة... إلخ، ولم ينه عن شىء إلا وفيه ضرر للفرد والمجتمع، كالكذب والخيانة والغدر وعقوق الوالدين والغش والطمع والظلم. كما أن العبادات كلها موجهة إلى التقرب من الله وطاعته، والتقرب من الله يؤدى إلى تقواه وخشيته، ومن يخشى الله يتجنب الخطأ.

والأساس الثانى للفكر الإسلامى هو اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، ولغة الدين الجديد، والتى انتشرت فى معظم بلاد الإسلام بفضل الفتوحات العربية، وهجرة القبائل العربية إلى البلاد الجديدة. واللغة العربية من المرونة بحيث تتسع للتعبير عن العلوم المختلفة. وقد أدى اندماج العرب مع الشعوب التى دخلت فى الإسلام والاستفادة من ثقافات الشعوب ذات الثقافة الواسعة كاليونان أدى ذلك إلى ازدهار الفكر الإسلامى.

* * *

ظهور الإسلام وانتشاره بين الأمم :

قبل الفتح العربى كانت الدولتان العظميان هما : إمبراطورية الفرس وتشمل العراق وإيران وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر وأذربيجان وأرمينيا، وإمبراطورية الروم وتدور حول شرق البحر الأبيض المتوسط وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية، وأوربا مقسمة إلى دول أهمها دولة الفرنجة.

كانت الإمبراطورية الأولى - إمبراطورية فارس - تدين بالوثنية. أما الإمبراطورية الثانية - إمبراطورية الروم - فتدين بالمسيحية. وكانت المسيحية أيضا منتشرة فى سائر أوربا، وتسود الوثنية بلاد الهند والصين.

ولما ظهر الإسلام، وهو دين التوحيد، وحدثت الفتوحات الإسلامية التى كان من نتيجتها سقوط إمبراطورية الفرس،العراق، إيران وأفغانستان وسائر الإمبراطورية، وبلاد ما وراء النهر وأذربيجان وغيرهما فى أيدى العرب المسلمين، وزعزعة أسس العقيدة الوثنية وانتشار الإسلام فيها.

أما إمبراطورية الروم - أو الدولة البيزنطية - حامية حمى المسيحية، فقد فتح العرب مصر والشام وبلاد المغرب، وانتشر الإسلام فى هذه البلاد التى تدور حول الحوض الشرقى للبحر المتوسط.

ومن عوامل انتشار الإسلام فى بلاد الشام، وجود عرب مقيمين فى هذه البلاد قبل الإسلام، وانضموا إلى إخوانهم العرب المجاهدين فى حروب الفتح، وبالتالى دخلوا الإسلام. ومن هذه القبائل : لخم وجذام وغسان وقبيلة بنى كلب، وكان انتشار الإسلام بين عرب الشام أكثر من انتشاره بين سكان الشام الأصليين(١).

وكان للانتصارات الرائعة التى أحرزها العرب فى بلاد الشام أثر كبير فى جعل المسيحيين يعتقدون أن هذه الانتصارات إنما تمت بعون من الله، وأن نجاح المسلمين دليل على صدق دينهم(٢).

كما أدى تدهور حال الكنيسة الشرقية من الناحيتين الخلقية والروحية إلى دخول أهل الشام فى الإسلام، إذ كان المسيحيون منقسمين إلى مذاهب، يضطهد بعضهم بعضا، مما كان له أكبر الأثر فى زعزعة أسس العقيدة الدينية عند المسيحيين، فلم تعد المسيحية الشرقية - التى مزقتها الانقسامات الداخلية، وزعزعت أسسها، ودخل اليأس فى نفوس أهلها بسبب هذه الشكوك - قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى قدم مزايا مادية جليلة، فضلا عن مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل(٣).

وكانت المسيحية فى الشام - بل وفى سائر أقطار الشرق - قد تأثرت بالثقافة اليونانية، فتحولت إلى عقيدة معقدة محفوفة بمذاهب معقدة مليئة بالشكوك، وانتشر الجدل بين رجال الدين وبين المفكرين المسيحيين فى مسائل تمس العقيدة ولا تؤدى إلى نتيجة عملية إلا بث الشكوك فى أسس العقيدة، وكانت الطبقة الأرستقراطية واسعة الثراء تتمتع بامتيازات كثيرة، وانتشر فيها الفساد، والطبقة

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير، جـ ١ ص ٢٧٢.

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٧، ٤٨.

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٩.

الوسطى مثقلة بالضرائب، ولم يكن للأرقاء أمل فى حاضرهم أو مستقبلهم، فأزال الإسلام هذه الانقسامات الدينية وما داخلها من خرافات وفساد وشكوك وأوهام، ودعا الناس إلى فعل الخير ونبذ الرذائل، وأحل الشجاعة والعمل والكفاح والجهاد محل الرهبنة، وآخى بين المؤمنين، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية.

وعلى الرغم من أن تعصب العرب لبنى جنسهم قد أدى فى بادئ الأمر إلى عدم تمتع المسلمين الجدد بالمزايا التى كان يتمتع بها العرب، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة فى المجتمع، وهم على ولائهم للقبائل العربية التى كانوا قد تعودوا فى بادئ الأمر الانضواء تحت لوائها. وفى نهاية القرن الأول الهجرى كان المسلمون من غير العرب يتمتعون بنفس المزايا التى كان يتمتع بها العرب[(١)].

عهد الخليفة عمر بن الخطاب فى مدن الشام إلى رجال مهمتهم تعليم وتفقيه المسلمين الجدد بالدين الجديد، وقراءة القرآن الكريم لهم وشرحه وتفسيره، وتحفيظ من يريد الحفظ حتى يستطيع المسلمون الجدد أداء شعائرهم الدينية أداء سليما، والإلمام بقواعد الدين الجديد[(٢)].

وكان دخول أهل الشام فى الإسلام عن اختيار وإرادة حرة، ويدل كتاب الأمان الذى أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق سنة ١٥هـ، على أن العرب لم يحاولوا نشر الإسلام بحد السيف، كذلك كفل العرب للمسيحيين واليهود الذين بقوا على دينهم الحرية الدينية، وسمحوا لهم بأن يؤدوا شعائرهم وفق مذهبهم اليعقوبى أو النسطورى، ولم يكن ذلك مباحا لهم قبل الفتح الإسلامى؛ لأن الدولة البيزنطية فرضت مذهبها النسطورى على أهل الشام.

ويتضمن خطاب الأمان لأهل دمشق «أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم، لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنون لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية»[(٣)].

---

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ٦٩، ٧٠.

وعلى غرار هذا الأمان، أعطى عمر بن الخطاب أهل القدس، وأعطى القادة المسلمون أهل المدن الشامية، وبذلك ترك المسلمون للمسيحيين واليهود الحرية الدينية، وأبقوا على كنائسهم وأموالهم وممتلكاتهم ودورهم، وأصبحوا ذمة للمسلمين، أى أن المسلمين مسئولون عن حمايتهم والدفاع عنهم، ولم يرغم المسلمون أحدا على الدخول فى الإسلام؛ لأنه لا إكراه فى الدين.

وقد شاهد أهل الشام عمر بن الخطاب وهو ذاهب على برذونه ليتسلم مدينة القدس، وشهدوا سلوكه وتواضعه مع خادمه وفى حياته الخاصة، وشهدوا الصحابة الأجلاء الذين صاحبوا الفتح أو قدموا بعد الفتح، وضربوا أروع الأمثال للمسلم، والمثل العليا التى يجب أن يتحلى بها المسلم، وهاجر الكثير من العرب إلى الشام بعد الفتوح واختلطوا بالسكان الأصليين. كل ذلك كان له أثره فى انتشار الإسلام بين أهل الشام.

وكان لقيام الدولة الأموية فى بلاد الشام، واتخاذها دمشق حاضرة لها وأول خلفائها صحابى جليل هو معاوية بن أبى سفيان الذى كان كاتبا للوحى، وتربى فى ظل الحياة الإسلامية الأولى، وكفل الاستقرار لهذه الدولة، وقضى على الفتن والثورات، ووضع أسس دولة عالمية كبرى، تتوسع فى قارات العالم، وتحرز كل سنة بل كل شهر تقريبا للإسلام نصرا على نصر، وأرضا على أرض، حتى امتدت من الصين شرقا إلى جنوب فرنسا غربا. كل ذلك أدى إلى نشر الإسلام بين أهل الشام.

وما زال الإسلام فى انتشار بين أهل الشام حتى صار منهم القراء والفقهاء والوعاظ، وخير دليل على ذلك كتاب «التاريخ الكبير» لابن عساكر الذى ترجم للعديد من علماء وفقهاء الشام.

* * *

انتشار الإسلام فى مصر:

يرجع الفضل فى ترحيب أهل مصر المسيحيين بالفتوحات الإسلامية إلى كراهية أهل مصر للحكم البيزنطى، لما ألحقه من ظلم وجور بأهل مصر، كما أن البيزنطيين اضطهدوا علماء اللاهوت المصريين المخالفين لهم فى المذهب، فإن اليعاقبة الذين يكونون معظم سكان مصر لقوا صنوف العذاب من حكامهم البيزنطيين المخالفين لهم فى المذهب، ونفى حكام الروم بعض زعماء مصر،

وزجوا بهم فى السجون أو نفوهم أو ألقوا بهم فى النار أو فى النهر، أو قطعوا بعض أطرافهم. لذلك رحب المصريون القبط بالعرب، ورأوا فيهم خير مخلص لهم من نير البيزنطيين وظلمهم.

وقد ضرب العرب أروع المثل فى التسامح مع القبط فى مصر، فكفلوا لهم الحرية الدينية، ولم يرغموهم على الدخول فى الإسلام، وفرضوا عليهم الجزية التى تتناسب مع أحوالهم المادية، وأبقوا على كنائسهم يمارسون عقيدتهم فيها بحرية كاملة.

وفى أعقاب الفتح العربى لمصر دخل المصريون فى الإسلام بأعداد كبيرة وتناقصت الجزية؛ لأن من يدخل فى الإسلام يعفى منها، وقد شكا والى مصر فى نهاية القرن الأول الهجرى من نقص الجزية بسبب الدخول فى الإسلام، وكتب بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه الخليفة: إن الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا، وأمره بإعفاء من يدخل فى الإسلام من أداء الجزية.

ومن الصعب تفسير حماس المصريين للمسيحية فى القرن الرابع الميلادى وتعصبهم الشديد لهذا الدين وتمسكهم به، وتحولهم بسرعة إلى الإسلام، وبنفس الحماس دخل المصريون المسيحية بدون جماعات تبشيرية بعد أن سقط الكثير من الشهداء المسيحيين فى عصر الوثنية - عصر دقلديانوس -، وضحوا بأنفسهم فى سبيل دينهم الجديد. ولكن اضطهاد الحكومة البيزنطية المذهبى أضعف من حماس المصريين لدينهم الجديد، وبحثوا عن الخلاص من هذا الدين، والدخول فى الدين الجديد الذى أتى به العرب فى فتوحاتهم؛ لذلك دخل أهل مصر بسرعة شديدة وبأعداد كبيرة فى الإسلام، تخلصا من دينهم الذى اقترن بالاضطهاد الذى لحق بهم من حكامهم البيزنطيين وفرضوا عليهم عقائد مبهمة غامضة، ووجدوا فى الإسلام عقيدة وحدانية بسيطة واضحة خالية من الجدل الفلسفى والسفسطة اليونانية.

كما أن حياة الزهد والتقشف فى الحياة المسيحية وجدت مثيلا لها فى الإسلام، وأدى فساد الكنيسة والصراع بين رجالها وانتشار الرذائل الأخلاقية بينهم إلى اتجاه الكثير من القبط إلى اعتناق الإسلام الذى يشدد على مكارم الأخلاق ونبذ الرذائل، ولا ننسى أن الإسلام دين الحكام، فكل من يريد أن يقترب من

الحكام وأن يشغل منصبا، يعتنق الإسلام حتى لا يقف عقبة فى سبيل طموحاته، وقد يدخل هؤلاء الإسلام نفاقا، ولكن بمرور الزمن ينشأ أولادهم على الإسلام، ويحسن إسلامهم. ونلاحظ أن البعض دخل الإسلام تخلصا من ضريبة الجزية، أو لشغل وظيفة فى دواوين الدولة حتى لا يجد صعوبة فى عمله.

وكان لظهور الزهاد والمتصوفين فى مصر أثره فى انتشار الإسلام؛ لأن حياة الزهد والتصوف وما ينسب إلى أصحابها من كرامات ومقامات تتمشى مع الذوق المصرى، وتجد استجابة من المصريين. ومن كبار الصوفية الأوائل فى مصر، ذو النون ت ٢٤٥هـ، كان حكيما زاهدا، عاش بين أقباط مصر، وانحدر هو نفسه من أصل نوبى، وتأثر به الناس وخصوصا بعد موته، وحذا حذوه الكثيرون فى الزهد والتصوف، ومما لا شك فيه أن حركة التصوف التى تتناسب مع الرهبنة بل المتأثرة بها أدت إلى إقبال الناس على الإسلام.

وكان لوفود الكثير من العلماء والفقهاء على مصر منذ فجر الإسلام أثره فى انتشار الإسلام، فوفد على مصر الإمام الشافعى، وعقد المناظرات والندوات العلمية فيها حتى وفاته سنة ٢٠٤هـ. كذلك وفد على مصر الكثير من الفقهاء والمفكرين منذ فجر الإسلام، وجلسوا فى جامع عمرو بن العاص يدرسون للناس علوم الإسلام، ويبصرون الناس بشئون دينهم، ويعلمون من يريد الدخول فى الإسلام قواعد الدين.

وفد الإمام الشافعى إلى مصر لأن بها تلاميذ الإمام مالك، وأقام بها الليث ابن سعد، ونشر علمه وفقهه فى مصر. وجدد الشافعى آراءه الفقهية التى نشرها فى بغداد، جددها فى مصر، ونقح ما كتبه فى بغداد فى الفقه فقال: «أنا فى حل ممن يأخذ بكتابى البغدادى» وبذلك نشر الشافعى وغيره من الفقهاء علوم الإسلام فى مصر، وأثر ذلك على قوة الإسلام وتدعيمه بالعلم والفقه، وبالتالى ساعد على انتشاره.

وكثرت رحلات العلماء وطلاب العلم إلى مصر أو عبر مصر إلى المغرب والأندلس وصقلية،أو من الأندلس والمغرب وصقلية إلى العراق والمشرق والحجاز عبر مصر. كل ذلك أدى إلى انتشار علوم الإسلام فى مصر، وازدهار الفكر

الإسلامى يؤدى بالضرورة إلى انتشار الإسلام، وممن وفد على مصر الإمام ابن جرير الطبرى والإمام البخارى والإمام النسائى والشاعر المتنبى.

وفى العصر الفاطمى قويت مصر، وأصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى تضم مصر والشام والمغرب والحجاز واليمن، وصحب قيام الدولة الفاطمية فى القاهرة حركة دعاية كبيرة للمذهب الإسماعيلى والتغيرات التى أحدثوها فى حياة الناس الاجتماعية مثل الموالد والاحتفالات الدينية وما صاحبها من عادات وتقاليد أرسوها فى مصر. وأصبح الجامع الأزهر فى مصر مقرا للدعوة الإسماعيلية يقابله جامع عمرو بن العاص يجلس فيه شيوخ السنة للعلم والدرس، وانتشر طلاب العلم فى مصر، وأصبحت مساجدها ـ عمرو بن العاص وابن طولون والأزهر ـ جامعات يقبل عليها طلاب العلم ويجلس فيها شيوخ العلم، وكل ذلك أدى إلى نشر رسالة الإسلام مدعمة بعلوم العلماء وفقه الفقهاء، وأدى ذلك كله إلى انتشار الإسلام.

ومنذ فجر الإسلام قدم إلى مصر رجال ونساء من آل البيت وأقاموا فيها، وضربوا أروع الأمثال للمسلم الصالح، ونخص بالذكر منهم السيدة زينب التى قدمت إلى مصر بعد حادث كربلاء، وقدمت السيدة نفيسة وجلست فى بيتها تعقد المناظرات العلمية مع الإمام الشافعى، وقد أحبها أهل مصر، وأحبوا آل البيت، وفرح المصريون بالفاطميين فى أول الأمر بعد أن عرفوا أنهم من آل البيت، ولكنهم تشككوا فى مذهبهم المخالف لمذهب أهل السنة والجماعة.

وانتشرت فى مصر المدارس على المذاهب الأربعة، وخصوصا فى عصر الأيوبيين والمماليك، ووجد فيها الطلاب الرعاية، وأقيمت الأوقاف لرعايتهم، وانتشر علماء الدين بذلك فى مصر وكثر حفظة القرآن الكريم. كل ذلك أدى إلى ظهور الإسلام بمظهر القوة؛ لأنه مدعم بالعلم والفكر والمؤلفات القيمة. وأدى ذلك بالضرورة إلى انتشار الإسلام.

ونلاحظ أن القبط فى مصر تمتعوا بتسامح شديد، وبصفة عامة لم يجبروا على الإسلام، بل شغلوا وظائف رئيسية فى مصر، ومنها مناصب رئيسية ووظائف

فى الديوان، وامتلكوا الأراضى الشاسعة والعقارات، وعاشوا فى حرية كاملة، وساهم الخلفاء وكبار رجال الدولة فى احتفالاتهم الدينية.

واتخذت مصر صورة إسلامية رائعة فى العصر الفاطمى، يتمثل فى تغير شامل فى الحياة الاجتماعية وصبغها بالصبغة الدينية، وفى عصر المماليك أقام السلاطين المساجد العظيمة الفخمة، واتخذت مصر شكلا إسلاميا رائعا، وأصبحت القاهرة مدينة الألف مئذنة.

وكان لهجرة القبائل العربية إلى مصر منذ فجر الإسلام وحتى العصر الفاطمى، واستقرارهم فى أنحاء مصر واختلاطهم بالمصريين أثر كبير فى انتشار الإسلام، كما أن العربى منذ أيام عمر بن الخطاب كان يتلقى عطاءً من الدولة حتى يتفرغ للجهاد، ولكن الخليفة المعتصم سرَّح العرب من الجيش، وألغى العطاء، لذلك ساح العرب فى أنحاء مصر يلتمسون الرزق من كل سبيل، وعاشوا فى القرى والمدن، واختلطوا بالمصريين. كل ذلك أدى إلى انتشار الإسلام.

ولم تكن مساجد مصر الكبيرة مراكز علمية لطلاب العلم من العرب فقط. بل لجأ إليها الطلاب المصريون يتفقهون فى الدين واللغة، ويعودون إلى بلادهم، ينشرون معارفهم بين الناس، ومنهم القبط، وأدى ذلك إلى نشر الإسلام.

ودخل بعض الأقباط فى الإسلام؛ حتى يتمتعوا بالمواطنة الإسلامية، التى تعطى لصاحبها الحق فى التجول فى بلاد الدولة الإسلامية الكبرى بحرية كاملة، يعمل ويقيم ويتاجر بحرية كاملة فى الوطن الإسلامى الكبير. وكان الدخول فى الإسلام يعفى الشخص من الجزية ومن جزء من ضريبة الخراج والمتأخرات الضريبية التى عليه. وعلى وجه التحديد كانت سنة ٣٣٩ هـ غالبية أهل مصر فيها من المسلمين، واتخذت مصر صورتها العربية الإسلامية.

وانتشرت الطرق الصوفية فى مصر، ولكل شيخ طريقة، وازداد نفوذهم فى مصر، والتف حولهم العامة، ونسبوا إليهم الكرامات، ولكل شيخ أتباع يأخذون العهد عليه، ويشتركون معه فى الأذكار وقراءة الأوراد والاحتفالات الدينية، وازداد تعلق هؤلاء العامة بشيوخهم بعد الوفاة فأقاموا لهم الأضرحة، ونذروا لهم النذور، واحتفلوا بموالدهم احتفالات كبيرة. كل ذلك أحيا الشعور الدينى، وإن كان على غير أساس سليم، ويتنافى مع عقائد أهل السنة والجماعة السليمة من

الخطأ والانحراف، وأصبح حب الولى عاطفة عند العامة، ولما كانت طبيعة المصريين على اختلاف مللهم تنقاد إلى هذه العواطف، وتنسب إلى الموتى من الصالحين ما ليس فى صفاتهم، فقد تأثر النصارى فى مصر بهذه العادات، وشاركوا المصريين فيها، بل ودخلوا الإسلام متأثرين بالطرق الصوفية.

استغرق الفتح العربى لبلاد المغرب حوالى سبعين عاما، وتم بانتهاء القرن الأول الهجرى، والبربر جنس قوى سليم أبناء عمومة الأيبيريين جنوب أوربا، واختلطت بهم عناصر أفريقية خالصة.

كانت المناطق الساحلية من شمال أفريقيا يسودها النفوذ الرومانى ثم البيزنطى، ودانت بالمسيحية، وإن كانت العقيدة المسيحية غير راسخة فى نفوس أهل هذه البلاد. أما المناطق الداخلية والشرق الأقصى بجباله وتضاريسه الوعرة، فقد سادت الوثنية بين أهل هذه البلاد وهم بدو رعاة سمر الوجوه. أما فى الشمال بيض شقر وسكان جبال أصحاء.

وضعفت المسيحية فى مواجهة حركة المد الإسلامى. ومن الطبيعى أن تتلاشى الوثنية أمام الفتوحات الإسلامية، ومع ذلك كانت مقاومة أهل السواحل - البربر البرانس - الذين زرعوا الأرض وعاشوا مستقرين قرب الساحل وعلى سفوح الجبال الخصبة، ومقاومتهم للإسلام والمسلمين أشد من البربر البتر - أهل المناطق الداخلية الوعرة - ودخول البرانس فى الإسلام أبطأ من دخول البتر البدو[1] الرعاة فى الصحارى والبسائط.

وأشهر من أيد الفتح العربى من هذه القبائل البدوية قبيلة لواتة ونفزاوة ونفوسة وقبيلة زناتة[2].

ومن أسباب انتشار الإسلام فى المغرب المواقف الإيجابية للقادة العرب مع البربر، فحسان بن النعمان كافأ البربر الذين ساعدوه ونصروه فى حركة الفتوح بأن حقق لهم المساواة مع العرب وساوى بينهم وبين العرب فى الحقوق والواجبات، وأشركهم فى فتح باقى بلاد المغرب، وما يترتب على ذلك من الحصول على

---

(١) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص ١٤٢ ، ١٤٣.

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٣٩.

العطـاء ومغانم الفـتح، ولم ينـعموا بمثل ذلـك فى أيام الرومـان الذين عامـلوهم كمواطنين من الدرجة الثانية[1].

ولم يكـتف حسان بـن النعمـان بذلك بل أبـقى الأرض الزراعيـة فى أيدى أصحابـها من البربـر يزرعونها، وأدى ذلـك إلى زوال النفوذ الـرومانى نهائـيا من البـلاد، ودخول البربـر فى الإسلام، واندمـاجهم فى الحـياة الإسلاميـة، وأسس مدينة تونس عـلى مقربة من قرطاجنة، وأقـام بها مسجدا جامعا، وأقيـم بها جامع الزيتونة.

وواصل موسى بن نصـير الذى خلف حسان بن النعمـان فى ولاية المغرب سيـاسته الرامـية إلى استـرضاء البربر، فـولاهم بعض المناصب، وواصل سيـاسة المساواة بينهم وبين العرب، وأنشأ المساجد فى البلاد المختلفة، وزاد الإسلام انتشارا بين البربر، وانـضم البربر فى المغرب الأقـصى إلى الإسلام، وأعـدهم موسى بن نصير لمشروعه الكبير (فتح الأندلس)[2].

وكان اشتراك البربر مع العـرب فى فتح الأندلس جنبا إلى جنب من أسباب انتشار الإسلام وثقافته بين البربر، حتى عم كل بلاد المغرب.

واهتم الخلفـاء بنشر الإسـلام فى بلاد المـغرب، فأرسـل الخـليـفة عمر بن عبد العزيز عددا كبيرا من التابعين أقـاموا فى مسجد القيروان ومساجد مدن المغرب لتفقيه البـربر بالإسلام، وتعليمهم وإرشادهم، وعـاد هؤلاء الطلاب إلى بلادهم، ينشرون الدين ويعلـمونه للناس، وفى نهاية القرن الثانـى الهجرى كان أهل المغرب قد دخلوا فى دين الإسلام[3].

ووجدت الفرق الخارجة على دولة الخلافة فى بلاد المغرب أرضا خصبة لنشر أفكـارهم ومذاهـبهم. ومن بـينهـم فرق الخـوارج والشـيـعة. وأدى قيـام دولة الأدارســة فى المغـرب الأقصـى إلـى ازدياد انتشـار الإسـلام بـين أهـل هــذه البـلاد.

---

(١) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص ١٤٥.

(٢) ابن عذارى : جـ ١ ص ٣٨.

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٤٥.

وعلى الرغم من الأعمال العسكرية العنيفة التى اتخذها موسى بن نصير فى صد ثورات البربر وحركات تمردهم ـ هو وأولاده وقواده ـ إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام، فأقبلوا عليه مطمئنين، ووجدوا فى دولته مكانا واسعا للعمل، وبعد أن كانوا قبائل متفرقة ممزقة مختلفة على بعضها البعض، تعيش على هامش التاريخ، دخلت ميدانه الواسع، وأصبح البربر رجالا فى الجماعة الإسلامية، وبدأ التاريخ الحقيقى لشعب البربر الكبير بعد دخوله فى الإسلام(١).

* * *

انتشار الإسلام فى الأندلس :

بعد الفتح العربى للأندلس، انتشر العرب والبربر فى البلاد، وامتلكوا الأرض الزراعية، واندمجوا مع سكان البلاد الأصليين، وتزوجوا منهم، وأدى ذلك إلى انتشار الإسلام فى الأندلس.

كانت جماعة الأسبان الذين دخلوا الإسلام، دخلوه بسبب سياسة التسامح التى اتبعها الفاتحون مع سكان البلاد الأصليين، ونبذ كثير من الأسبان النصارى دينهم، وأقبلوا على الإسلام، إما للاقتراب من الجهاز الحاكم فى الدولة والحصول على وظائف ومنافع شخصية، أو عن إيمان واقتناع بالدين الجديد الذى حقق المساواة بين المسلمين والأسبان، ودخل كثير من الأسبان بمحض إرادتهم؛ لأن الحكام العرب لم يفرضوا عليهم دينهم لأنه لا إكراه فى الدين، والدخول فى الإسلام يساوى الذمى بالمسلم.

ودخول أهل الذمة فى الإسلام يساوى بينهم وبين العرب فى الحقوق والواجبات؛ لذلك دخل الإسلام فى بادئ الأمر الجماعات المستضعفة من الرقيق والعبيد، فقد كانت أحوالهم من السوء بحيث بدا الإسلام فى نظرهم منقذا لهم مما يقاسونه من ظلم وجور الطبقة الأرستقراطية والحكومة النصرانية المتواطئة معها.

كذلك دخل الإسلام كثير من الزراع وأهل المدن على اختلاف طبقاتهم، فتساووا جميعا فى ظل الإسلام.

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٤.

ولما كان العرب والبربر الذين اشتركوا فى الفتوح قدموا إلى الأندلس بدون زوجاتهم، فقد تزوجوا إسبانيات، وأول من بدأ هذه المحاولة عبد العزيز بن موسى ابن نصير، ونتج عن ذلك جيل جديد فى الأندلس، هم المولدون، يجمعون خلاصة ومزايا العنصرين العربى والإسبانى، ونشأوا بالطبع مسلمين، وأدى ذلك إلى انتشار الإسلام فى الأندلس. وأدى ابتعاد العرب فى الأندلس عن مواطنهم الأصلية إلى استقرارهم فى هذه البلاد واندماجهم مع أهلها، وبالتالى إلى نشر الإسلام فيها. كما أن بعض الفقهاء وأهل العلم ممن لا يستطيع الظهور فى مدن المشرق مثل بغداد لكثرة العلماء البارزين هناك، رحل إلى الأندلس ينشر علمه وفكره، وقد أدى ذلك إلى نشر الإسلام.

وأدى تدهور حكومة القوط السابقة لحكومة المسلمين فى الأندلس وفسادها وانحدارها إلى مستوى ردىء من الخلاعة والمجون، أدى ذلك إلى انصراف المسيحيين المحافظين عنها، وعن رذائلها، ووجدوا فى الإسلام وفضائله ضالتهم المنشودة.

كما أن الفساد تطرق إلى رجال الكنيسة، وجمعوا الثروات الهائلة، وأعفيت ممتلكاتهم من الضرائب، وسخروا الناس فى خدمتهم، وانحدر مستواهم الأخلاقى. كل ذلك جعل المسيحيين ينصرفون عن المسيحية ويعتنقون الإسلام الذى لمسوا فيه الفضيلة والأخلاق القويمة(١).

كما استهوى الأسبان الآداب العربية وما فيها من جمال وتذوق، وأقبلوا على دراستها بشغف شديد، كما درسوا علوم المسلمين التى فاقت علومهم، كل ذلك أدى إلى معرفة مصدر هذه الثقافة الرائعة وهو الإسلام، فأقبلوا عليه(٢).

وعقب موقعة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ والتى أوقفت الزحف الإسلامى فى أوربا، تسربت بعض الجماعات الإسلامية إلى أوربا، واستقر بعضهم فى إيطاليا والبعض فى سويسرا، والبعض فى بلاد أوربية أخرى. ومن المشكوك فيه أن هذه

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ١٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

الجماعات احتفظت بدينها على مر العصور، وربما ذابت فى المجتمع الأوربى واستوطنت، ودانت بغير الإسلام.

وكانت إمبراطورية الفرس إحدى الدولتين العظميين، وتضم شعوبا غير عربية، آرية فى إيران وتركية فى بلاد ما وراء النهر وأفغانستان وأذربيجان، وأرمن - وهم أهل أرمينيا - وسقطت هذه الإمبراطورية الكبيرة فارس وخراسان فى أيدى العرب المسلمين فى سنوات معدودة، بعد مقتل يزدجرد - آخر ملوكهم - سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م، ودخلت شعوب هذه الإمبراطورية الإسلام بسرعة بالغة وأقبلوا عليه إقبالا شديدا؛ لأنهم رأوا فيه الحقيقة التى غابت عنهم منذ قرون، حقيقة الوحدانية، والمثل العليا، وحقيقة الوجود، وكيان الإنسان على ظهر هذه الأرض، ونبذوا دياناتهم الزرادشتية والمانوية والمزدكية. ولكن حز فى نفوسهم سوء معاملة الأمويين لهم، فقد عاملوهم كموال - أى مواطنين من الدرجة الثانية - وحرَّموا عليهم المناصب الكبيرة، على الرغم من أنهم أهل حضارة عريقة، كما أن الإسلام دين المساواة، لم يطبقه عليهم بنو أمية، لذلك ناصروا الدعوة العباسية، ورفعت الدولة العباسية شعار المساواة، وأصبح العرب والفرس على قدم المساواة؛ لذلك وضع الفرس إمكانياتهم الحضارية فى خدمة العرب، وازداد تمسكهم بالإسلام، وشغلوا مناصب هامة فى الدولة العباسية، وأصبح الجيش العباسى يضم فريقا منهم، واشتركوا فى الوزارة ووظائف الدواوين، وساهموا فى الحياة الإسلامية بنصيب كبير، وتركت العائلات المجوسية عبادة النار، ودخلوا فى الإسلام، واستظلوا بظله.

ومن إيران اتسعت سبل الفتح أمام العرب، ففتحوا بلاد ما وراء النهر، وفتحوا إقليم أذربيجان. ولكن فتح أفغانستان تأخر بعض الشىء، ونحن نعلم أن عبد الرحمن بن الأشعث الكندى حينما قام بثورته ضد الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، كان أهل أفغانستان لا يزالون على وثنيتهم.

المهم، رغم حملات قتيبة بن مسلم الباهلى فى بلاد ما وراء النهر وفتحه لهذه البلاد، وإقامة المساجد فى مدنها، إلا أن أهالى هذه البلاد لم يقتنعوا

بالإسلام، بل ارتدوا عنه، وحاربوا كل من دخل الإسلام، حتى أن المسلم اضطر إلى حمل السلاح للدفاع عن نفسه خوفا من مواطنيه المعادين للإسلام، واتخذ الفاتحون حراسا لحماية المسلمين من أعدائهم، ورغَّب الفاتحون المسلمون فى صلاة الجمعة، وترجموا القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية؛ حتى يفهمه الناس.

ولما اعتزم الخليفة المعتصم اتخاذ جند من بلاد ما وراء النهر، كان معظم الترك على الوثنية، وأمر بنشر الإسلام بينهم، وإدخال جنده فى الإسلام[1]. وشيئا فشيئا انتشر الإسلام فى بخارى وسمرقند، وهاجر إليها العلماء والفقهاء، وأقبل أهل ما وراء النهر على الإسلام، وعلى دراسته.

وقامت الدول الطاهرية والصفارية والسامانية فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، وأعادت إلى الأذهان مجد الدولة الفارسية، واستقلال الفرس بحكمهم بعد التبعية لبنى العباس، وشهدت بلاد ما وراء النهر أجمل سنوات تاريخها فى عهد السامانيين، فازدهرت الثقافة الإسلامية فى عصرهم، وعمرت مساجد بخارى وسمرقند بالعلماء وشيوخ العلم وطلابه، وبرز من أهل ما وراء النهر علماء يشد إليهم الرحال من شتى أرجاء الدولة الإسلامية الكبرى[2].

وبرز فى هذه البلاد علماء كبار، مثل : البخارى، ومسلم، وابن سينا، والفارابى وغيرهم كثير.

وإذا عدنا إلى الحديث عن الفرس سكان فارس لوجدنا لهم دورا كبيرا فى إحياء التراث الإسلامى ودراسة اللغة العربية، فكان منهم علماء فى الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف والشعر واللغة والأدب، كذلك انتشر الإسلام فى أذربيجان وإلى حد ما فى أرمينيا.

وقامت دولة القره خانيين فى بلاد ما وراء النهر على أنقاض الدولة السامانية المتداعية، ثم آلت هذه البلاد إلى الدولة الغزنوية.

كما أن سلجوق وقومه تركوا قائد جيش ملك الخزر جنوب روسيا واضطر إلى ترك دياره والهجرة إلى بلاد ما وراء النهر، واعتنق السلاجقة الإسلام، وقوى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٤ ص ٩.

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

الإسلام بفضلهم فى بلاد ما وراء النهر التى كانت تتبع فى ذلك الوقت الدولة الغزنوية.

وفى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم - جنوب بحر قزوين - قامت الدولة الزيارية، ثم قامت الدولة الزيدية، وقد قام شيوخ الزيدية فى هذه البلاد بدور كبير فى نشر الإسلام، وهدا الله على أيديهم أهل الديلم، فدخلوا فى دين الله أفواجا، وقام الديالمة بتكوين دولة كبيرة فى المشرق الإسلامى، وهى الدولة البويهية التى لعبت دورا كبيرا فى الفكر الإسلامى(١).

ظلت أفغانستان يدين الكثير من أهلها بالوثنية حتى قامت فيها الدولة الغزنوية وأول ملوكها البتكين، وأقامها فى غزنة، ومن أبرز سلاطينها سبكتكين ومحمود الغزنوى. ومن القبائل القوية التى عاشت فى أفغانستان فى عصر السلطان محمود الغزنوى الغور، وكانوا وثنيين وأقاموا ملكا لهم، حاضرته فيروزكوه(٢).

انتهز الغور وبعض القبائل الأفغانية فرصة انشغال السلطان محمود بفتوحاته فى بلاد الهند، وشنوا الغارات على الدولة الغزنوية، وعلى جيشها المتجه أو العائد من الهند، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأس السلطان الغزنوى.

لذلك شن السلطان محمود الغزنوى عدة حملات على الغور سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م، وأخضعهم وامتلك قلاعهم ونشر بينهم الإسلام.

وانضم الغور وغيرهم من الأفغان إلى جيوش السلطان محمود الغزنوى الزاحفة على الهند، للمشاركة فى حركة الجهاد الكبرى والحصول على الغنائم، وانتقل بعض شيوخ العلم من خراسان وفارس إلى مدن الدولة الغزنوية فى أفغانستان، مثل : هراة وكابل وغزنة، يفقهون الناس فى الإسلام، ويفد إليهم طلاب العلم من الأفغان لتعلم الدين والثقافة الفارسية، ويعودون إلى بلادهم لنشر معارفهم بين الناس، وأدى ذلك إلى انتشار الإسلام بين الأفغان.

---

(١) عصام الدين الفقى : الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق، ص ٢٢٠.
(٢) المصدر السابق.

وحرص السلطان محمود الغزنوى على تزيين غزنة برجال الفكر، فاستدعى إلى بلاطه كبار أهل العلم فى عصره مثل : البيرونى والبيهقى والفردوسى، وازدهار الفكر الإسلامى يؤدى بالضرورة إلى نشر الإسلام بين الأفغان. وازداد الإسلام انتشارا بقيام دولة الغور فى أفغانستان[1].

كانت بلاد الهند من معاقل الوثنية، ودانت بالهندوكية والبوذية وغيرها من الديانات الوثنية، وكان المجتمع الهندى يعيش فى ظل نظام طبقى فريد فى نوعه، ولا يجوز لأحد أن يتجاوز طبقته، وكل طبقة لها عمل خاص، وطبقات المجتمع أربع، أعلاها : طبقة البراهمة، وهى ـ فى اعتقادهم ـ من نسل الآلهة، وهم جنس نقى، وخيرة البشر، وسادة الخلق، والطبقة الثانية من مناكب براهم ويديه، والثالثة من رجليه، يلى ذلك فى السلم الطبقى أصحاب الحرف مثل الحائك والإسكافى وصياد السمك، وقناص الوحوش والطيور، ولا يسكنون مع الطبقات الأخرى فى حى واحد أو بلدة واحدة، وإنما يسكنون فى ضواحى المدن، وهؤلاء هم المنبوذون، لا يجالسون أفراد الطبقات الأخرى، ولا يأكلون معهم ولا يخالطونهم[2].

لذلك رحبت هذه الطبقة المنبوذة التى تعيش على هامش الحياة بحملات محمد بن القاسم الثقفى، وأعلنوا ترحيبهم بالإسلام دين المساواة[3].

ولما قاد السلطان محمود الغزنوى حملاته السبع عشرة على شمال الهند ٣٦١ ـ ٤١٧ هـ، وانتصرت هذه الحملات على الهنود انتصارا رائعا. تم على أثره فتح إقليم كابلستان والملتان وكشمير، وأخضع إقليم البنجاب، ودخلت كل هذه البلاد فى الإسلام، ووطد خلفاؤه الغزنويون أقدام المسلمين فى هذه البلاد[4].

ولم يدخل الإسلام فى الهند وينتشر بسبب الفتوحات فقط، بل ساهم التجار المسلمون بدور كبير فى نشر الإسلام، وشيدوا المساجد فى بعض مدن الهند.

---

(١) انظر كتاب عصام الدين الفقى : تاريخ الإسلام فى العصر التركى.
(٢) عصام الدين الفقى : بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص ٢٠٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٠.
(٤) عصام الدين الفقى : بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص ٢٤.

وأقبل بعض أمراء الهند على أثر انتصارات المسلمين بقيادة السلطان محمود الغزنوى ومعهم عشرات الألوف من أقوامهم يعلنون دخولهم فى الإسلام.

ورحل الفقهاء والوعاظ والصوفية إلى بلاد الهند بعد الفتوحات الغزنوية، ونشروا الإسلام بين أهلها، وانسجم الهنود مع المتصوفة المسلمين؛ لأن الزهد والتصوف من أبرز صفات الهنود، ولجأ إلى بلاد الهند بعض علماء فارس وبلاد ما وراء النهر؛ فرارا من الاضطهاد الذى لحق بهم[1].

لذلك انتشرت اللغة الفارسية فى الهند، ونشأت اللغة الأوردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية ولغات محلية. ولم تنتشر العربية؛ لعدم هجرة القبائل العربية إلى الهند، والحكام والغزاة الجدد ليسوا عربا.

وقامت دولة الغور فى الهند، وحقق الإسلام أروع انتصاراته فى الهند بقيام سلطنة دهلى الإسلامية، واتسعت أملاك المسلمين فى شبه القارة الهندية، حتى ضمت البنغال والدكن، ثم قامت دولة المماليك والدولة الخلجية، وأدى سقوط بغداد وفارس والعراق فى أيدى المغول إلى هجرة علماء الإسلام فرارا بدينهم إلى الهند، وأنعشوا الحياة الإسلامية فيها. ثم قامت دولة المغول فى الهند، ودخل ملوكها الإسلام، ومن ملوكها بابر الذى ثبت فى الهند أركان الإسلام[2] ومهد الطريق لتوسيع رقعته حتى شمل شبه القارة الهندية كلها، وشيد المساجد الجميلة فى الهند، وفى أيامه أصبحت «أجرا» عاصمة دولته من أجمل بلاد الدنيا.

وواصل خلفاؤه نشر الإسلام فى الهند، ولكن الإنجليز احتلوا الهند، وانتعشت الهندوكية من جديد، وضعف المسلمون أمام الهنادكة وحلفائهم الإنجليز.

* * *

(١) عصام الدين الفقى : بلاد الهند فى العصر الإسلامى.
(٢) حكم بابر سنة ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م.

انتشار الإسلام فى آسيا الصغرى :

اشتبك السلطان السلجوقى ألب أرسلان فى آسيا الصغرى مع رومانوس ـ إمبراطور الدولة البيزنطية ـ فى موقعة ملازكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م انتهت بهزيمة البيزنطيين، وانتصار المسلمين على أعدائهم، وكان من نتيجة هذه المعركة انسحاب الروم من آسيا الصغرى، ودخول هذه البلاد فى حوزة السلاجقة، وانتشر الإسلام بين أهلها، بعد أن كانوا يدينون بالمسيحية، ونتج عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وازداد ضعف الدولة البيزنطية، وانكمشت ممتلكاتها التى آلت إلى المسلمين، حتى سقطت القسطنطبنية نهائيا فى أيدى السلطان العثمانى محمد الفاتح[1].

وواصل السلطان السلجوقى ملكشاه سياسة أبيه فى توطيد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى، وانتزاع الأراضى البيزنطية، وضمها إلى دولة الإسلام جهادا فى سبيل الله، وأسند إلى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل حكم هذه البلاد. ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م. ثم قامت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى، وهى دولة إسلامية عظمى، قوى بها الإسلام، وتوطدت دعائمه فى آسيا الصغرى، وهاجر علماء الإسلام إلى هذه البلاد، فعزَّ بهم الإسلام، وانتشرت علومه وأقبل الطلاب على دراسة علوم الإسلام، وأُنشئت المكتبات ومجالس العلم فى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، وانتقل إليها الفكر الإسلامى من علماء وكتب من العالم العربى.

* * *

انتشار الإسلام فى الصين :

مهدت حملات قتيبة بن مسلم الباهلى على بلاد ما وراء النهر، وفتح كاشغر سنة ٩٦هـ / ٧١٥م السبيل أمام نشر الإسلام فى الصين. كما أن التجار العرب كوَّنوا جالية فى كانتون، وأقاموا بها مسجدا، وكثر المسلمون فيها، واضطربت الأحوال الداخلية فى الصين، واضطر إمبراطور الصين إلى الاستنجاد بالمسلمين فى أواسط آسيا لقمع ثورات بلاده، وقام المسلمون بدور بارز فى إخماد ثورة

(١) عصام الدين الفقى : الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق، ص ١٦٤، ١٦٥.

ثورة سكان الصين. عندئذ خيَّرهم الإمبراطور سو تسنغ بين الإقامة فى بلاده أو العودة إلى ديارهم. فقبل فريق من المسلمين البقاء فى شمال الصين، واختلطوا بأهل الصين، وتزوجوا منهم، ونشأ جيل جديد يجمع بين الدماء العربية الإسلامية والدماء الصينية(١).

ومن بين هؤلاء المسلمين الذين أقاموا فى الصين علماء فى الفقه والحديث، نشروا الإسلام بين أهل الصين، لذلك انتشرت المساجد وكثر عدد المسلمين. ومن أقدم المساجد فى الصين مسجد (جانغ آن) عاصمة الصين فى ذلك العصر، ثم مسجد آخر فى كانتون، وثالث فى بنانكين، والأول كان للجند المسلمين، الذين قدموا لإخماد ثورة الصين. والثانى والثالث للتجار، الذين قدموا إلى الصين عن طريق البحر، وأكثرهم عرب وبعضهم فرس. وأدى ازدهار التجارة الإسلامية وكثرة التجار فى الصين إلى ازدياد عدد المساجد، وبالتالى إلى انتشار الإسلام، وبدأ الإسلام بالمدن الساحلية وتوغل فى الأقاليم الداخلية، وأُنشئ فى بكين وحدها ستة عشر مسجدا، منها ستة شيدها أحد الأمراء يتسع لمائة ألف من المصلين(٢).

وازداد الإسلام انتشارا فى الصين، بعد سيطرة المغول على ولايات كثيرة منها، حتى أن رشيد الدين(٣) يذكر أن ثمان ولايات من اثنى عشرة ولاية كان يحكمها مسلمون.

ونال المسلمون تقدير أهل الصين الذين ساهموا بدور فعال فى طرد المغول من بلاد الصين، كما حظوا بمكانة كبيرة فى الحكومة الصينية التى حكمت الصين بعد طرد المغول.

ولكن تعرض المسلمون للاضطهاد فى عهد مانشو لأنه خشى أن يعمل المسلمون على إعادة أنصارهم من أسرة منغ إلى الحكم، وهلك العديد من المسلمين فى شمال الصين الغربى، وعلى الرغم من هذا الاضطهاد الذى حل بالمسلمين، إلا أن علماء المسلمين، صنفوا كتبا قيمة فى الدراسات الإسلامية.

---

(١) بدر الدين الصينى : العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٨٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٨.
(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ، جـ ٢، ص ٢١٥.

وحُرم المسلمون من امتيازاتهم التجارية، ومن زيارة التجار المسلمين، والسفراء، والمناصب الحكومية[1].

وعلى الرغم مما حل بالمسلمين من الاضطهاد، إلا أن تمسكهم بالإسلام قد ميزهم عن سكان الصين الوثنيين، فحرموا طبقا لشعائر الإسلام على أنفسهم تعاطى المخدرات والمسكرات وتناول الأطعمة الضارة، فقويت أجسامهم، وصحت أبدانهم واستطاعوا تحمل العمل الشاق فى الزراعة والصناعة والتجارة، وبالتالى تحسنت أحوالهم الاقتصادية، كما دعتهم طبيعة المسلم وهى رعاية اليتيم وكفالة الفقراء والمساكين إلى التقاط الأطفال الذين ألقاهم آباؤهم على قارعة الطرق عجزا عن رعايتهم أو لأنهم غير شرعيين، وتربية هؤلاء المساكين ورعايتهم، وتنشئتهم نشأة إسلامية صحيحة، كل ذلك أدى إلى زيادة عدد المسلمين، بينما انتشر الفقر والإدمان والمرض بين سكان الصين الأصليين، وفسدت الحكومة الصينية، وانغمس آل سانشو فى العبث والفجور، وانتشرت الأمراض بين سكان الصين.

ومن أهم عوامل انتشار الإسلام والحفاظ عليه فى الصين انتشار المساجد التى يأوى إليها المسلمون للعبادة، ولتعلم مبادئ وتعاليم الإسلام، وللتعارف، وحل مشاكلهم الاجتماعية والمالية ولتدارس أوضاعهم، وللحفاظ على مكارم الأخلاق التى حث عليها الإسلام، وللحفاظ على وضع المسلمين وخصوصيتهم فى هذا المجتمع الكبير، ومواجهة كل ما يتعرضون له من أزمات[2].

وتسربت اللغتان العربية والفارسية إلى الصين ولكن بشكل محدود، وانتشر المسلمون فى مدن الصين وأقاليمها، ولكن علماء الصين عرفوا اللغة العربية، ودرسوا الفقه والتفسير، وألفوا كتبا فى علوم الإسلام. وانتشرت اللغة العربية فى المدن الساحلية بسبب التجار، وانتشرت فى تركستان الصينية قبل الغزو المغولى بعدة قرون. بل أنشئت فى الصين بعض المدارس العربية، لتعليم المسلمين اللغة العربية وآدابها وعلوم الإسلام.

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٢.

انتشار الإسلام بين المغول :

بعد غزوات المغول المدمرة التى شنها هولاكو على بلاد الإسلام، قامت الدولة الإيلخانية فى العراق وإيران، واضطهدت فى بداية عصرها المسلمين، حتى أن أرغون - رابع إيلخانات المغول (١٢٨٤ - ١٢٩١) - اضطهد المسلمين وأبعدهم عن الوظائف الرئيسية فى بلاده، ولكن مع مرور الزمن انتشر الإسلام بين المغول فى سائر إمبراطوريتهم الواسعة.

وأول من أسلم من أمراء المغول بركه خان، وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى روسيا (١٢٥٦ - ١٢٦٧م)، وحفظ القرآن الكريم ومبادئ الإسلام، واعتنق جنده الإسلام، بل إن كل فارس كان يحمل ضمن أدواته مصحفا وسجادة للصلاة، حتى يؤديها فى وقتها، وحذر جنده من تعاطى المسكرات، وكانت الطبقة المثقفة فى عصره تضم الفقهاء والمحدثين والمفسرين وعلماء الكلام، وكانت مجالسه تضم العلماء والفقهاء[١].

ودخل بركه خان فى حلف مع الظاهر بيبرس - سلطان مصر والشام - لتعزيز حكمه الإسلامى (١٢٦٠ - ١٢٧٧)، ومن أثر هذا التحالف وفود بعض الناس من القبيلة الذهبية إلى مصر لتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم ومبادئ الإسلام، وعادوا إلى بلادهم ينشرون الإسلام فيها.

وأول من اعتنق الإسلام من إيلخانات المغول أحمد تكودار، وبذل جهدا كبيرا فى تحويل المغول إلى الإسلام، وأقبل المغول على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة، وأرسل بنبأ إسلامه إلى السلطان قلاوون فى مصر. ومما يثير دهشة المؤرخين أن هؤلاء المغول الذين اقترفوا كل الجرائم البشعة ضد المسلمين وقتلوا الألوف وخرَّبوا ديارهم وارتكبوا المذابح المروعة ضدهم، إذا بهم فى عهد تكودار ينالون التقدير والاحترام، ويرسل تكودار خطابا إلى السلطان قلاوون يتحدث فيه عن فضل الإسلام وعظمته، وعن الإصلاحات التى أجراها فى خدمة الإسلام[٣] وأهله.

أرسل تكودار إلى علماء الإسلام فى بغداد يخبرهم باعتناقه للإسلام، وأعلن نفسه حاميا لدين الإسلام، وأمر ببناء المساجد فى دولته، وحكم البلاد طبقا

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام.
(٢) الجوزجانى : ص ٤٤٧.
(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب، جـ ٥ ص ٣٧٠.

للشريعة الإسلامية، وعيّن الشيخ كمال الدين عبد الرحمن الرافعى شيخا للإسلام، وولاه الإشراف العام على الأوقاف فى البلاد، وأمر بأن تُصرف شئون الأوقاف إلى مستحقيها، وأثرت هذه الخطوة فى رعايا الدولة من المسلمين، فأحبوه وقدروه، واطمأنوا إليه(١). وكان لاعتناق تكودار الإسلام أثر كبير فى تحسن علاقته مع الدولة المملوكية، وهى الدولة الإسلامية القوية التى تدافع عن الإسلام والعروبة.

وفى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م تولى غازان حكم الدولة الإيلخانية، وأعلن دخوله فى الإسلام، واتخذ من الإسلام دينا رسميا للدولة، واتخذ من الشريعة الإسلامية دستورا لبلاده، وخيَّر البوذيين بين الإسلام أو مغادرة البلاد، فدخل بعضهم الإسلام، وغادر بعضهم البلاد، كما اضطهد المسيحيين واليهود، ودمر كنائسهم، وحولها إلى مساجد، وبذلك عاد المسلمون إلى وضعهم الطبيعى، بعد أن لاقوا الكثير من الاضطهاد على أيدى المغول وأنصارهم المسيحيين.

وبذلك تخلى غازان عن البوذية، وانقطعت صلته ببلاط خاقان المغول الأعظم فى الصين، وأعلن نفسه خاقانا مستقلا عن خاقان المغول(٢)، وكان لإسلام غازان أكبر الأثر فى انتشار الإسلام فى دول المغول المنتشرة فى الشرق الأقصى وفى روسيا، وحل الإسلام محل البوذية فى تلك البلاد(٣).

حكم جغطاى إمبراطورية المغول الوسطى، وفرض على المسلمين قيودا شديدة، وكان من ألد أعداء الإسلام.

وانتشر الإسلام فى الدولة الجغطائية حوالى سنة ١٣٣٦م، وكانت الإمبراطورية الجغطائية قد انقسمت بين أمرائها، ووحدها تغلق تيمور ـ ملك كاشقر ـ واعتنق الإسلام، وحمل أمراء المغول على اعتناقه، ودخل المغول الإسلام بين سكان الحضر فى الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاى، أما البدو فقد بقوا على عقيدتهم حتى القرن الخامس عشر الميلادى.

---

(١) فؤاد الصياد : الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين، ص ١٢٦.

Howorth : vol 2, p. 1015.

(٢) فؤاد الصياد : المصدر السابق، ص ٢٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٥، ٢٥٨.

انتشار الإسلام فى أوربا :

انتشر الإسلام فى الأندلس - كما قلنا - بعد فتح المسلمين لهذه البلاد، وكذلك انتشر بشكل محدود فى شرق أوربا منذ فجر الإسلام، ومحاولات المسلمين فتح القسطنطينية فى العهد الأموى. وتسربت بعض الجماعات الإسلامية من الدعاة والتجار إلى شرق أوربا، ودخل الإسلام فى أقطار شرق أوربا بشكل محدود جدا. وأسلم ملك البلغار وقومه فى عهد الخليفة المقتدر، وأرسل الملك إلى الخليفة المقتدر يطلب مبعوثين يعلمون الناس شرائع الإسلام وأسسه والعبادات، وسأل الخليفة أن يرسل إليه من يبنى فى بلاده مسجدا لأداء الصلوات ومنبرا للوعظ والإرشاد وتفقيه الناس فى الدين، وبناء حصن يتحصن فيه هو والمسلمون من قومه إذا ما هاجمهم أعداء الإسلام.

تأثر الخليفة المقتدر بهذه الرسالة وخصوصا بعد أن علم أن هؤلاء البلغار يؤدون المناسك بخطأ شديد، وأرسل الخليفة سوسن الرسى - مولى نذير الحزمى - وتتضمن البعثة علماء وفقهاء ومعماريين ومقاتلين، وغادرت البعثة بغداد سنة ٣٠٩هـ، ووصلت البعثة إلى بلاد البلغار فى المحرم سنة ٣١٠هـ، وأحسن الملك استقبال البعثة، ونثر على أعضائها القطع الذهبية والهدايا، وأنزلهم فى أماكن خاصة بهم، وخلع رئيس البعثة على الملك العباءة السوداء والعمامة السوداء وهدايا الخليفة، ولبس الملك العباءة والعمامة وقدم رئيس البعثة الهدايا إلى امرأة الملك وأولاده والأمراء، وكتاب أمير المؤمنين، وكتاب الوزير حامد بن العباس، وأسمى ملك البلغار نفسه جعفر بن عبد الله. وألقى خطبة أشاد فيها بتعاليم الإسلام وبملك البلغار واختتمها بالدعوة إلى الملك قائلا : «اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير البلغار، مولى أمير المؤمنين».

قضت السفارة الإسلامية يوما وليلة مع الملك وأولاده وامرأته وحاشيته ومن أسلم من البلغار، وعلموهم معرفة أوقات الصلاة، ففى النهار عن طريق الشمس، وفى المغرب والعشاء عن طريق ساعة الغروب والنجوم والعلامات التى كان يعرف بها المسلمون المواقيت.

وأوضح المبعوثون المسلمون للملك وقومه الحلال والحرام، وشددوا على ضرورة التطهر، ونهوهم عن بعض العادات التى تتعارض مع الإسلام مثل :

خروج الرجال والنساء عراة فى النهر للاستحمام، لا يستتر واحد عن الآخر، وما يترتب على ذلك من انتشار الزنا[1].

ظل الإسلام قائما فى بلاد البلغار حتى ظهرت الدولة العثمانية كدولة عظمى، وزحفت جيوشها المنتصرة فى شرق أوربا، وفتح العثمانيون مدينة بلومذيف فى أرض البلغار سنة ١٣٦٣م أيام السلطان أردخان، ثم فتحوا صوفيا سنة ١٣٨٥، وفى أواخر القرن الرابع عشر كانت بلاد البلغار كلها فى حوزة الأتراك العثمانيين، ومن نتائج الفتح العثمانى لبلاد البلغار، انتشر الإسلام بين البلغار حتى أصبح معظم سكان بلاد البلغار من المسلمين. وساعد على انتشار الإسلام أن فريقا من البلغار من أصل تركى. وفى سنة ١٩٠٨ هاجر بعض البلغار - من أصل تركى - إلى تركيا. وضعف الإسلام بدخول بلغاريا فى نطاق الاتحاد السوفيتى الذى أغلق المساجد والمدارس الإسلامية، وفصل المسلمين من وظائفهم فضعفوا ووهنوا، وغادر فريق منهم بلاد البلغار إلى الولايات المتحدة والعالم الجديد.

بدأ الإسلام ينتشر فى المجر منذ القرن الثالث الهجرى، وانتقل إليها بفضل المسلمين البلغار، الذين وفدوا على بلاد المجر للدعوة إلى الإسلام، ودخل الكثير من المجريين فى الإسلام، وأقيمت المساجد والمدارس الإسلامية وأقبل المجريون المسلمون على حفظ القرآن الكريم، بل وفد بعضهم إلى المشرق الإسلامى للتزود بعلوم الإسلام وشراء الكتب، وأدى ذلك إلى نشر الثقافة الإسلامية فى بلاد المجر، وكانت تعيش مع أوربا فى العصور المظلمة، وعمل فريق من المسلمين بالجندية والصيرفة.

وفى عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى، زحفت جيوشه إلى بلاد المجر فى القرن السادس عشر، وانهزم الجيش المجرى على أيدى العثمانيين فى معركة مبهاج سنة ١٥٢٦م، ودخل العثمانيون مدينة بودابست، واتخذت بودابست طابعا إسلاميا من حيث الأسواق والفنادق والشوارع، ودخلت بلاد المجر فى حوزة الأتراك العثمانيين، وانتشر فيها الإسلام، وكان بها ٧٣ مسجدا منها ٢٢ فى بودابست، وبها مدارس إسلامية ومكتبات.

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٨٥ - ٤٨٨.

على أن الإسلام ضعف فى بلاد المجر بعد سقوط الدولة العثمانية ودخول بلاد المجر فى حوزة الاتحاد السوفيتى.

كذلك دخل الإسلام عن طريق العثمانيين بلاد اليونان وألبانيا، التى دان معظم سكانها بالإسلام، وانتشر الإسلام فى البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود وبلاد اليونان والنمسا وأوكرانيا ورومانيا والقرم.

أما عن جزر البحر المتوسط التى كانت تابعة للدولة البيزنطية، فقد استولى المسلمون على جزيرة صقلية فى عهد الأغالبة - حكام تونس - وانتشر الإسلام والفكر الإسلامى فيها، وامتد الإسلام إلى جزيرة مالطة، على أن روجر الثانى - ملك النورمان - استرد الجزيرة من الفاطميين فى عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، وأدى ذلك إلى ضعف الإسلام فى الجزيرة ومغادرة المسلمين لها.

أما عن جزيرة كريت التى كانت تابعة للدولة البيزنطية، فقد انتقل إليها سكان الربض الذين طردهم الحكم الربضى من الأندلس بعد ثورتهم عليه سنة ١٩٨هـ فانتقلوا إلى فاس، ومنها إلى الإسكندرية، ومنها إلى كريت - التى أسماها العرب أقريطش - وأقاموا دولة إسلامية بها مستقلة عن الحكم البيزنطى، وانتشر الإسلام تبعا لذلك فى كريت سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٥م. واستردها البيزنطيون سنة ٩٦١م، وقل عدد المسلمين تبعا لذلك، وهاجر المسلمون منها.

وعرفت جزيرة قبرص الإسلام منذ عصر مبكر، فقد غزاها الأمويون وسيطروا على بعض أراضيها، على أنها استردت سيطرتها على أراضيها. وفى عصر المماليك تعددت غارات قراصنة قبرص على السواحل المصرية والسورية؛ لذلك أعد السلطان برسباى العدة لغزو قبرص والسيطرة عليها لتأمين السواحل المصرية والسورية. والمعروف أن جزيرة قبرص كالسهم المصوب على سواحل مصر والشام.

أرسل برسباى ثلاث حملات متوالية لغزو قبرص، انتهت بسيطرة المماليك على قبرص وتبعيتها لمصر، وبذلك أمنت السواحل المصرية والشامية والتجار والمدن الساحلية من غارات قراصنة قبرص. وظل الأمر كذلك حتى سقطت دولة المماليك سنة ١٥٧١م، وآلت جزيرة قبرص إلى العثمانيين، وحكموها حكما مباشرا عن

طريق ولاتهم الأتراك ـ وأدى ذلك إلى استقرار جالية تركية فى قبرص تدين بالإسلام، وتسعى إلى نشره فى الجزيرة.

وكانت جزيرة رودس يحكمها الفرسان الإسبتارية، وتعاونوا مع القبارصة فى الدفاع عن بلدهم من الغزو المملوكى. وكان الروادسة يتضامنون مع القبارصة فى غزو السواحل والمدن الإسلامية، وشن الغارات على السفن الإسلامية؛ لذلك غزا السلطان جقمق الجزيرة، ولكن الإسبتارية المتعصبين ضد الإسلام حصنوا بلادهم، واستعانوا بالقوى الأوربية فى الدفاع عن بلدهم؛ لذلك لم يستطع السلطان المملوكى جقمق السيطرة على الجزيرة القوية التحصين، وانتهت المعارك بين الطرفين إلى صلح تعهد فيه الإسبتارية بعدم الاعتداء على السفن والسواحل الإسلامية. وفى ٢٠ ديسمبر ١٥٢٢م استسلمت رودس للسلطان العثمانى سليمان القانونى، وانضمت رودس إلى الدولة العثمانية وأدى ذلك إلى انتشار الإسلام فيها.

انتشار الإسلام بين أفراد القبيلة الذهبية وفى روسيا:

أول من حكم هذه القبيلة أوزبك خان (١٣١٣ ـ ١٣٤٠)، ونشر الإسلام بين أفراد قبيلته بحماس شديد، وبجهوده انتشر الإسلام فى أواسط آسيا، ووجد صعوبة فى نشر الإسلام فى روسيا؛ لأن المسيحية قد قوى شأنها فى نفوس أهلها المسيحيين قبل الغزو المغولى بثلاثة قرون، وفشل خلفاء أوزبك أيضا فى تحويل الروس إلى الإسلام[١].

يرجع الفضل إلى البلغار فى القرن العاشر الميلادى فى نشر الإسلام فى روسيا، وساهم التجار المسلمون بدور كبير فى نشر الإسلام فى هذه البلاد، وكانوا يتاجرون فى الفراء، وسائر السلع التى كانت تجلب لهم من البلدان المختلفة.

والمعروف أن البلغار دخلوا الإسلام حوالى سنة ٩٢١م حين أرسل الخليفة المقتدر إليهم (٩٠٨ ـ ٩٣٢م/ ٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) بعثة من قبله لتعليم البلغار مبادئ الإسلام[٢].

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

وقد حاول البلغار تحويل الروس إلى الإسلام، ولكن ملك روسيا ـ فلاديمر ـ رفض دخول الإسلام، الذى يقرر الختان ويحرم شرب الخمر، ومع ذلك استجاب بعض الروس إلى محاولة البلغار لنشر الإسلام، ولكن بأعداد محدودة. ولم ينتشر الإسلام بين الروس انتشارا كبيرا إلا ابتداءً من سنة ١٩٠٥ حين صدر مرسوم ينص على التسامح الدينى فى كافة أرجاء الإمبراطورية الروسية، وقام المسلمون بدعاية كبيرة لجذب الناس إلى الإسلام، وقدم لمغول مساعدات مادية واجتماعية لكل من دخل فى الإسلام[1].

وبذل تتار القرم جهدا كبيرا لحمل مواليهم على اعتناق الإسلام، وأغروهم بمنحهم الحرية.

وفى لتوانيا، هاجر مسلمون قليلون من التتار إليها، ومن بينهم جند من التتار فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى، وتزوجوا من لتوانيات، ونشأ أبناؤهم على الإسلام، وأدى ذلك إلى نشر الإسلام[2].

وتحول القرغيز فى القرن الثامن عشر إلى الإسلام على أيدى المغول، وانضم القرغيز إلى الروس فى سنة ١٧٣١، وكانت لهم معرفة بالدين الإسلامى، وإن كانت معرفة غامضة وخاطئة، فلم يشيدوا المساجد، ولم يظهر منهم واحد يعلم الناس تعاليم الدين، ولم يلبثوا أن عرفوا تعاليم الإسلام، وشيدوا المساجد وعهدوا إلى معلمين بتعليم الصبية تعاليم الإسلام، فظهر رجال دين يعلمون الناس مبادئ الإسلام ويفقهونهم فى الدين، والواضح أن الدعوة الإسلامية انتقلت إلى بلاد القرغيز عن طريق روسيا[3].

وقد حاولت حكومة روسيا المسيحية تحويل التتار المسلمين إلى المسيحية، وقدموا لهم الإغراءات المختلفة، ولكن المغول تمسكوا بدينهم حتى صدر قرار الحكومة الروسية سنة ١٩٠٥ بحرية الديانة وتمسك المسلمون بدينهم، وظهروا أمام الروس بمظهر قوى؛ لأن المستوى الأخلاقى فى المجتمع الإسلامى كان أكثر رقيا ويرجع ذلك إلى التعاون والتعاضد بين المسلمين وقوة الروابط بينهم، وانتشر

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق : ص ٢٧٦.
(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٧.

الدعاة بين المسلمين لتقوية عقيدتهم أمـام التيارات المسيحية المضادة، وأسلمت قرى بأكملها، وتضـامن المسلمون لنشر الإسلام فى القرى الروسيـة، وأقبل أهل القرى على اعتـناقه، وتمسك المسلمـون بعقيـدتهم فى مواجـهة التـيار المسيـحى المناهض للدعـوة الإسلامـية، والمدعـم من الحكومة، وكـان المسلم يجـد المعونة والعـمل والرعاية من الجماعات الإسـلامية، وفشلت جماعة التبشـير أمام الدعاة المسلمين؛ لذلك انتشر الإسلام فى روسيا انتشارا واسعا.

وفى سـيبـيريا قـدم الدعاة المسلـمون إليـها من بخـارى ينشرون الإسـلام، واستشـهد بعضهم، وبذل التتار جـهدا كبيرا فى حـمل الناس على الإسلام، حتى ترك الكثيـر من أهل سيبيـريا الوثنية، ودخلوا فى الإسلام، وعندمـا تولى كوتشم خان ـ وهو من سـلالة جوجى بن جنكيـز خان ـ خانا على سـيبيـريا سنة ١٥٧٠ أفسح المجال لرجاله لنشر الإسلام فى هذه البلاد[١].

ومما يثير دهشة المؤرخ حقا أن المغول الذين بدأوا تاريخهم بمحاربة المسلمين، وشنوا على الإسـلام والمسلمـين حربا لا هوادة فـيـها ولا رحـمة، ودمـروا المدن الإسلامية، وحولوا البلاد الإسلامية إلى بحار من الدم، ودمروا الحضارة والثقافة فى دولة الإسـلام، إذا بهم يلتحـقون بالإسـلام، وينبذون عـقائدهم البـوذية بل ويدعون إلى الإسلام، ويسعون بخطى واسعة إلى نشره بين الأمم.

على كل حال، انتشر الإسلام انتشـارا واسعا فى بلاد البوذية، ولولا اتساع هذه البلاد لانتشر الإسلام فى كل بلاد البوذية.

انتشـار الإسلام فـى القـارة الأفـريقيـة :

لما فتح العرب مصر، وأكـملوا فتح إقليم الصعيد، عقدوا مـعاهدة اقتصادية مع النوبة، وإن بقيت على مسيحيتها، ولكن العرب، عبروا البحر الأحمر وتعاملوا تجاريا مع أهل الصعيد، كما أن قبائل البجة التى أقامت على مقربة من عيذاب على البحـر الأحمـر وانتشـروا بين أسوان ودنقلة جنوبا واتصلوا بالعـرب الذين رحلوا

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٤.

إليهم فى أسوان عن طريق البحر الأحمر، وهاجروا إلى الصحراء لاستغلال مناجم الذهب فيها. لذلك أدى الاتصال والمصاهرة بين البجاة والعرب إلى دخول البجة فى الإسلام، وانتقل الإسلام إلى النوبة تبعا لذلك. ولم يتمكن العرب من فتح السودان، ولكن انتشر الإسلام فى النوبة، واتخذ طريقه إلى السودان عن طريق أسوان والبجة.

ولما تم فتح المغرب قامت دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ وهى دولة شيعية أقامها إدريس بن عبد الله الذى لجأ إلى المغرب الأقصى فرارا من اضطهاد العباسيين، وهى أول دولة مستقلة تقوم فى المغرب الأقصى.

ثم قامت دولة المرابطين، ووحدت المغربين الأوسط والأقصى، وقامت بدور كبير فى نشر الإسلام على الساحل الأفريقي الغربى وبلاد السوان، وقامت هذه الدولة على أساس الجهاد فى سبيل الله، والدفاع عن الإسلام ونشره(١).

ويرجع انتشار الإسلام فى الصحراء وفى حوض السنغال إلى عبد الله بن ياسين.

استعان يحيى بن إبراهيم - شيخ قبيلة جُدالة إحدى بطون صنهاجة - بعبد الله بن ياسين الذى عُرف بالزهد والورع، وكان البربر لا يلتزمون بتعاليم الدين فى هذه الجهات، فسار عبد الله بن ياسين مع تلاميذه المخلصين إلى جزيرة بنهر السنغال، بنوا بها رباطا اتخذوه مركزا لعبادتهم، وأخذ الدعاة يعلمون الناس شئون دينهم، ويحذرونهم من العصيان والرذائل، ويفقهونهم فى الإسلام، وتجمع المريدون حول عبد الله بن ياسين، وآمنوا بدعوته، وقاموا بنشر الإسلام تحت قيادته، وأطلق عبد الله بن ياسين علي أتباعه اسم «المرابطين»(٢).

قام المرابطون بدور هام فى نشر الإسلام فى القارة الأفريقية، وفى سنة ١٠٧٦ نشر المرابطون الإسلام بين أسرة الفُلانى Fulani على ساحل غينيا، كما ازدهر الإسلام على أيدى تجار الحوصا الذين ينتشرون فى مساحات واسعة شمالى نيجيريا حيث استقر المسلمون بالقرب من سيراليون وسموها بلاد الماندنجو، كما نشر تجار الحوصا الإسلام بين قبائل أشنتى Ashanti فى غانا وفى داهومى(٣).

---

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، ص ١٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٢.

ومن الطبيعى أن يؤدى انتشار الإسلام فى أسوان والنوبة إلى تسربه إلى السودان، فلجأ بعض العرب الموالين للأمويين إلى السودان فرارا من بطش العباسيين، وشيئا فشيئا أعلن صاحب دنقلة ولاءه للإسلام، ولصاحب مصر، وأقام الدعوة لصاحب مصر. وفى سنة ١٣١٩ دانت النوبة بالولاء والطاعة للحكم الإسلامى فى مصر، وانتشر العرب فيها، وخصوصا عرب جهينة الذين انتشروا فى السودان، وانتقلوا إلى بلاد الحبشة ودارفور.

وفى سنة ١٣٨٥ امتد نفوذ بنى كنز من أسوان إلى عيذاب وانتشر الإسلام بين الفونج - وهو جنس زنجى - وانتشر الإسلام عن طريق التجار فى السودان.

وساعدت الرياح الموسمية على تيسير حركة التجار، فكانت تحمل أهل زنجبار إلى سواحل الهند، ثم تحمل أهل الهند إلى سواحل زنجبار عن طريق ساحل جزيرة العرب الجنوبى ومضيق عدن، وقد يسرت حركة الرياح هذه للتجار العرب الانتقال إلى أفريقية والعودة منها وتيسير حركاتهم التجارية.

واشتغل العرب بالتجارة مع المدن فى ساحل شرق أفريقيا ونشأت صلات قوية بين التجار العرب وأهل المدن الأصليين.

أسس دولة المرابطين - كما قلنا - عبد الله بن ياسين (ت ٤٥١هـ / ١٠٥٩م) وتتكون من مجموعات من المجاهدين من قبيلة صنهاجة، وأنشأوا مدينة مراكش ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م.

انقسمت دولة المرابطين إلى قسمين : قسم اتجه شمالا بقيادة يوسف بن تاشفين، وعبر مضيق جبل طارق لإنقاذ الأندلس من النصارى الذين هزموا المسلمين، واستولوا على بلادهم، وسعوا إلى طرد المسلمين نهائيا من الأندلس، ولكن يوسف بن تاشفين هزم النصارى فى واقعة الزلاقة المشهورة سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م.

والقسم الثانى قاده أبو بكر بن عمر، واتجه جنوبا بحذاء ساحل المحيط، ووصل إلى أحواض أنهار السنغال وغمبيا وغينيا، وسعى فريق المرابطين هذا فى نشر الإسلام بين سكان هذه البلاد[1].

---

(١) حسين مؤنس : عالم الإسلام، ص ٥٩.

وأدى هؤلاء المرابطون دورا كبيرا فى نشر الإسلام فى أرض أفريقيا المدارية والاستوائية، وانضم إليهم فى هذا الدور جماعات من الملثمين، وظهرت الجماعات الصوفية، ودورها فى بلاد المغرب يختلف عن دورها فى البلاد الأخرى، فالصوفيون هنا يلتفون حول شيخهم «القطب» ويقيمون الأوراد والأذكار بتوجيه منه، حتى تصفو نفوسهم، وتحظى بالنور الربانى والصفاء الروحى. وكان لهم إلى جانب هذا الدور الروحى دور كبير فى تثبيت الإسلام بين النفوس، وأعدوا أنفسهم للجهاد فى سبيل نشر الإسلام، وتدربوا على حمل السلاح، وأساليب الحرب والقتال، وهذا الجهاد يقرِّب بين الصوفى وربه، فلم تعد مهمته العبادة والعزلة عن العالم بل عليه الجهاد فى سبيل الله أيضا(١).

وهؤلاء الصوفية من سكان الصحراء، يشتغلون بالتجارة وحراسة القوافل، ويعيشون فى شظف من العيش، وقد نظموا حياتهم، حتى يضمنوا لأنفسهم السلامة والأمان على أموالهم.

ولهؤلاء المريدين شيخ وهو القطب، يليه الخليفة، ويعاونه مقدمون ينظمون حياة المريدين، ويكفلون لهم الأمان والاطمئنان، وانتشرت الزوايا فى الواحات والأرياف يرأسها مقدم، وتعقد حلقات الذكر فى الزوايا، ويلتقى الشيخ بمريديه؛ ليدرس معهم خطط الجهاد، بالإضافة إلى عقد الندوات الدينية، ومجالس الوعظ والذكر وقراءة الأوراد(٢).

وهؤلاء الصوفية المتحمسون، اشتغلوا بالتجارة، واجتازت قوافلهم الصحراء الأفريقية، وأنشأوا علاقات تجارية مع الأفارقة ودعوهم إلى الإسلام، وكلما آمن به جماعة أنشأوا زاوية، بحيث انتشرت الزوايا من المغرب عبر الصحراء إلى أفريقية الاستوائية، وأصبحت قواعد ومراكز لنشر الإسلام، وجلس فيها الفقهاء والوعاظ والصوفية ينشرون الإسلام بين الناس حتى دخل دين الله ألوف الأفارقة فى بلاد أفريقية الغربية المدارية والاستوائية حتى حوض النيجر، وأنشأ زعماء هؤلاء الناس الذين دخلوا الإسلام حديثا دولا إسلامية، كان لها دور كبير فى نشر الإسلام فى سائر القارة الأفريقية.

---

(١) حسين مؤنس : عالم الإسلام، ص ٦٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

وعن طريق الصوفيـة انتشر الإسلام فيما يعرف بـ «جمـهورية تشاد» وغرب السودان النيـلى، أى أن كل ما يقع جنوب الـصحراء الكبرى فى أفريـقيا من بلاد الإسلام إنما هو بفضل هؤلاء الصوفية المجاهدين الدعاة(١).

انتشر الإســلام فى بلاد السودان الشاسعـة عن طريق الكنوز الـذين هاجروا من أسوان، أو العرب الذين عـبروا البحر الأحمر وانتقلوا إلى الـسودان للتجارة، وقد ظـهر السودان كـبلد إسـلامى خلال النـصف الثـانى من الـقرن الرابع عـشر الميلادى(٢).

وفى شرق أفريقـيا انتشر الإسلام عن طريـق التجار اليمانيـة أو الحضارمة، وانتشر فى الصومال وتنزانيا.

وساعد على انتشار الإسلام على سواحل الـبحر الأحمر اتخاذ التجار العرب قواعد لحـماية تجارتـهم عبر البـحر الأحمر، واتـخذوا لأنفسهـم قواعد آمنـة على سواحل البحر الأحمر، واحتلوا جزر دهلك تجاه مصوع، ومن هذه القواعد تسرب الإسلام إلى شرق أفريقيا فى القرن العاشر.

بدأ الإسلام ينـتشر فى أرض الحبشة مع بـداية القرن العاشر، وانتـشر على طول سواحل الصومال وبلاد الجلا، حيث نشـأت مستعمرات إسلامية، واستمرت هذه الإمارات الإسلاميـة تقوم فى أرض الحبشة فى الـقرنين الثانى عشـر والثالث عشـر، ومن سواحـل الحبشـة تغلـغل الإسـلام إلى داخلـها، وامتـد جنوبـا إلى موزمبيق(٣).

خضع الملـثمون القاطنون بالـقرب من جبال أطلس للأدارسـة، ودخلوا فى الإسلام فى القرن الثالث الهجرى، وكونوا حلفا قويا بقيادة لمتونة(٤).

قـوى الملثمـون بفـضل توحدهم وتضـامنهم، وتوسـعوا صـوب الجنوب، ونشروا الإسلام بين الزنوج فى غرب أفريقيـا، وواجهوا بذلك مملكة غانا القوية، وانتصروا عليها، وأخضعوا شعب غانا، ولكـن العلاقات بين المسلمين وشعب غانا

---

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى أفريقيا، ص ١٢٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٠.
(٣) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص ٢٠٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٢١١

تدهورت، وتصدى الغانيون للمسلمين، ومع ذلك أدت العلاقات التجارية أو الحربية بين المسلمين والغانيين إلى انتشار الإسلام فى غانة، بل اعتنق ملك غانا وحاشيته ووزراؤه الإسلام[1]، ثم ضعف الملثمون وتفرقوا، ولم يلبث أن أسلم ملوك غانا وأخلصوا للدين الجديد، وتحول أهل غانا إلى الإسلام، وانتشر الدعاة المسلمون بين النيجر والسنغال، ونشروا الإسلام على ضفاف السنغال[2]، وأسلم شعب التكرور، وأسس المسلمون مدينة تنبكت، التى أصبحت مركزا للفكر الإسلامى فى غرب أفريقيا.

ونجحت جهود الدعاة والتجار فقامت دول إسلامية من الزنوج مثل دولة مالى، أو ملى، أسسها شعب الماندنجو، ودولة سنغى، أسستها أسرة من شعب سنغى اختلطت بدماء البربر[3].

وتأثرت شعوب هذه البلاد بالحياة الإسلامية، وأقبلوا على دراسة الفكر الإسلامى فى المساجد، وخرج ملوك سنغى وكانم وبرنو للحج، وفى رحلات الحج زاروا الدول الإسلامية مثل المغرب ومصر، وأرسلوا الطلاب إلى مصر والمغرب للتزود بالفكر الإسلامى، وعادوا إلى بلادهم ينشرون رسالة الإسلام ويعلمون الناس الدين الجديد.

كانت أقوى ولاية فى السودان الغربى هى ولاية ملى أو مالى، وهم من أكثر الزنوج تقدما فى الصناعة والتجارة والتقدم الحضارى، وانتشر الإسلام بينهم عن طريق الماندنجو ودعاتهم النشطين، والماندنجو هم الذين عرَّفوا قبائل الحوصا بالإسلام، وانتشر الإسلام فى كانم، وأصبحت دولة ذات أهمية كبرى، وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر والنوبة، وحكم أول ملوكهم المسلمين إما أواخر القرن الحادى عشر أو أوائل القرن الثانى عشر.

ولعبت قبائل الماندنجو والفولانى والحوصه أدوارا نشطة فى نشر الإسلام.

---

(١) البكرى : المغرب، ص ١٧٠.

(٢) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص ٢١٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٧.

وفى القرن الرابع عشر هاجر العرب التنجور من تونس إلى الجنوب، ووصلوا دارفور، فلقى زعيمهم أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثنى الذى وثق فيه، وعهد إليه بإدارة شئون بلاده، فقسم الأراضى بين الفقراء يزرعونها مقابل ضرائب محدودة لا تثقل كاهلهم، ونشر العدل بين الناس، وضرب بيد من حديد على العابثين وقطاع الطرق، فتحسنت أحوال الناس المعيشية والاجتماعية، ولم يكن للملك وارث فزوجه ابنته، وعهد إليه بالحكم من بعده، وبذل الملك الجديد أحمد وقومه من العرب جهودا كبيرة فى نشر الإسلام، وفى سنة ١٥٩٦ فى عهد الملك سليمان، انتشر الإسلام فى دارفور انتشارا واسعا، وانتشر فى الممالك المجاورة الواقعة بين كردفان وبحيرة تشاد(١).

رفع الإسلام من المستوى المنحط والمتخلف الذى كان يعيش فيه الزنوج، وتعرفوا على المسلمين أهل الحضارة، وارتفع المستوى الأخلاقى لهم بعد أن تعرفوا على المسلمين وحضارتهم وثقافتهم، وكفل الإسلام لهم المساواة مع الجنس العربى الذى يختلف عنهم فى اللون والعادات والتقاليد والمستوى الثقافى والاجتماعى، وتخلوا عن عاداتهم البدائية والوحشية، التى يرفضها الإسلام مثل أكل لحوم البشر، وممارسة حياتهم وهم عراة لا يرتدون الملابس، ويختلطون مع بعضهم البعض دون حدود أخلاقية ولا يعرفون النظافة، لذلك تعلموا من المسلمين ارتداء الملابس، واختلاط الرجل بالمرأة طبقا لشريعة الإسلام، والطهارة والوضوء وكرم الأخلاق، والعادات الطيبة التى نادى بها الإسلام، وشعروا بفخر شديد حين تساووا بالعرب رغم لونهم الأسود، وحُرموا من حقوق المساواة من دول الاستعمار بعد ذلك، ونبذ الزنوج الرذائل التى كانت منتشرة بينهم، لذلك رفع الإسلام المستوى الأخلاقى والثقافى والاجتماعى والعنصرى للزنوج.

* * *

يرجع الفضل فى انتشار الإسلام فى الملايو وأندونيسيا إلى الدعاة المسلمين فى جزر الهند الشرقية، رغم ما واجهوه من صعاب، وقد حمل التجار العرب - فى القرون الأولى للهجرة - الإسلام إلى هذه الجزر، وبدأت تجارتهم مع سيلان فى القرن الثانى من الهجرة، وأسسوا مراكز تجارية فى جزر الملايو، ووفد الدعاة

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٩.

إلى تلك الجزر من جنوب الهند، كما وفد على هذه البلاد التجار من الصين واليمن وفارس، ودخل بعض سلاطين الملايو فى علاقات مع ملوك سلطنة دلهى الإسلامية، واستقر التجار القادمون من الدكن الذين سيطروا على الحركة التجارية فى الهند وجزر الملايو فى الموانئ التجارية الواقعة فى هذه الجزائر، ونشروا الإسلام من قواعدهم[1]، وهؤلاء الوافدون على الملايو من الدعاة والتجار تزوجوا من نساء هذه البلاد، وكان لذلك أثره فى نشأة جيل جديد على الإسلام ونواة للجماعة الإسلامية فى هذه البلاد التى أخذت فى النمو، واشتروا العبيد وأدخلوهم فى الإسلام، وبفضل مقدرتهم استطاعوا أن يتبوأوا مراكز مرموقة فى البلاد التى أقاموا فيها، وأعطاهم التحالف والتضامن فيما بينهم قوة ودعما، ودعوا إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يجبروا أحدا على اعتناقه، ولم يترفعوا على أهل البلاد الأصليين، بل اندمجوا معهم[2].

ويرجع الفضل إلى العرب والهند فى إدخال الإسلام في سومطرة، ومازال الإسلام فى الانتشار حتى ولى العرش جيهان شاه سنة ١٢٠٥م، وهو مؤسس الأسرة الإسلامية بها، واعتنق الكثير من الناس الإسلام على يديه، وظل الإسلام مقصورا على الموانئ التى زارها التجار المسلمون،ولكن تقدم الإسلام فى داخل البلاد كان يسير سيرا بطيئا، وزار ماركبولو[3] سواحل سومطرة سنة ١٢٩٢ وذكر أن معظم سكانها وثنيون والقليل مسلمون وخصوصا سكان المدن.

وقوى الإسلام فى سومطرة بتولية الملك الظاهر المسلم ١٣٤٥م حكم هذه البلاد، واستعان بالقضاة والفقهاء من الهند وفارس، وحارب الوثنيين فى بلاده حتى أدخلهم فى الإسلام. وفى القرن الخامس عشر ساد الإسلام جزيرة سومطرة، ولكن لا يزال فى وسطها وثنيون. ومن سومطرة انتشر الإسلام فى جاوه، ثم انتقل إلى سائر الجزر.

تحولت الملايو إلى الإسلام بفضل التجار والدعاة من الهند والعرب. وفى سنة ١٢٧٦م تحول ملك هذه البلاد إلى الإسلام بفضل داعية عربى قدم من ملقا، وأقنع الملك بدخول الإسلام، وتغيير اسمه إلى محمد شاه[4]، وبنى الملك المساجد

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٠٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٤.
(٣) رحلة ماركبولو : ص ٢٧٩.
(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٤١٢.

فى الجهات المزدحمة بالسكان، وألحق بكل مسجد أربعة وأربعين شخصا على الأقل من السكان تقيم فى المسجد، وتعكف على العبادة حتى تظل المساجد عامرة بالمصلين والعاكفين، وكانت تدق الطبول فى أوقات الصلاة لدعوة الناس إلى الذهاب إلى المساجد للصلاة، وبالمساجد فقهاء يعلمون الناس تعاليم الدين، أقبل عليهم أهل البلاد من كل مكان. وانتشر الدعاة العرب بين الناس ينشرون الإسلام، ونالوا تقدير الحكام والأهالى، وأسلم الكثير من الناس على أيديهم. ومن الملايو انتشر الإسلام فى سائر جزر الملايو.

كذلك انتشر الإسلام فيما يسمى أندونيسيا والفلبين وفيتنام والهند الصينية عموما على أيدى الدعاة من العرب والفرس والهنود الذين تدفقوا على هذه البلاد منذ القرن العاشر الميلادى[1].

* * *

انتشار اللغة العربية :

اللغة العربية هى لغة شبه الجزيرة العربية، وهى لغة أدب وشعر، وقوى شأن هذه اللغة بنزول الدعوة الإسلامية على محمد بن عبد الله ﷺ وهو من صميم قريش - التى هى من أفضل القبائل العربية - ونزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين. والشعائر الإسلامية لابد وأن تؤدى باللغة العربية؛ لذلك قوى شأن اللغة العربية، لغة القرآن الكريم ولغة الدين الإسلامى.

ولما فتح العرب الشام ومصر والعراق وفارس والمغرب والأندلس انتشرت اللغة العربية بصفة خاصة فى مصر والعراق والشام والمغرب والأندلس للأسباب الآتية :

١ - كانت اللغة العربية معروفة فى الشام والعراق، ففى الشام كانت توجد مملكة الغساسنة، وفى العراق مملكة المناذرة، فضلا عن أن بعض العرب كانوا يقيمون فى هذه البلاد.

٢ - حركة التبادل التجارى بين الشام ومصر من ناحية، والمشرق من ناحية أخرى عبر الجزيرة العربية، والتى يقوم بها قريش فيما يعرف برحلتى الشتاء والصيف، وأدى ذلك إلى اتصال العرب بأهل مصر والشام فى العمليات التجارية وما يتبع ذلك من صلات اجتماعية واقتصادية.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤١٥.

٣ - اللغة العربية لغة الحاكمين، كل من يريد أن يتولى منصبا هاما فى الدولة أو يتقرب إلى الحكام لابد وأن يتعلم العربية.

٤ - اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الدين. وكل من يريد أن يتفقه فى الدين فعليه بتعلم العربية.

٥ - تعريب الدواوين، وهى الخطوة التى اتخذها عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ بعد أن كانت الدواوين تكتب بلغات السكان(١) المحليين وأدى ذلك إلى أن كل من يريد أن يشغل وظيفة فى دواوين الدولة عليه بتعلم العربية(٢).

٦ - هجرة القبائل العربية إلى هذه البلاد عقب الفتوح وبأعداد كبيرة، واندمجوا مع أهالى هذه البلاد، وتزوجوا منهم، فتعلم الناس منهم العربية، وهاجر نفر من آل بيت رسول الله ﷺ إلى الولايات الإسلامية، وأقبل عليهم الناس، وتعلموا منهم مبادئ الدين واللغة العربية.

٧ - تمصير الأمصار، أنشأ عمر بن الخطاب مدينتا البصرة والكوفة سنة ١٦، ١٧هـ وأنشأ الحجاج بن يوسف الثقفى مدينة واسط فى العراق، وأنشأ المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ، ومصَّر معاوية بن أبى سفيان مدينة دمشق، وأقام عمرو بن العاص مدينة الفسطاط سنة ١٩هـ فى مصر، وشيَّد عقبة بن نافع مدينة القيروان فى تونس سنة ٢١هـ. وهذه المدن الإسلامية الجديدة بها مساجد يجلس فيها رجال العلم وشيوخه يعلمون المسلمين الجدد تعاليم الإسلام واللغة العربية، وأقامت القبائل العربية فى هذه المدن، وهاجر الصحابة والتابعون إلى هذه البلاد، والتف حولهم الناس، وتعلموا منهم العربية.

٨ - لما سرَّح الخليفة المعتصم العرب من الجيش، وألغى العطاء الذى كانوا يتقاضونه نتيجة لذلك ساحوا فى هذه البلاد التى ذكرناها يلتمسون الرزق من كل سبيل من التجارة أو الزراعة أو أى عمل آخر، وأدى ذلك إلى زيادة اندماجهم بالسكان الأصليين، فتعلموا منهم العربية، ولا ننسى قيام الدولة العربية الأموية فى دمشق والدولة العباسية الهاشمية فى بغداد.

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٢١٠.

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب، ص ٤٠٤.

وتغلبت اللغة العربية على اللغات المحلية، ففى مصر زار الخليفة العباسى المأمون (١٩٨هـ - ٢١٧هـ) مصر، وكان يمشى فى بلادها والتراجمة بين يديه من كل جنس. إن اعتناق الناس للإسلام كان أسبق من تعلمهم العربية، وفى القرن الرابع الهجرى أصبحت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى مصر بين المسلمين وغير المسلمين، بل تخلت الكنيسة عن لغتها القبطية وأقامت طقوسها باللغة العربية التى يفهمها الناس، ونجد أن ساويرس - أسقف الأشمونيين - يؤرخ للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية، وقام بترجمة الوثائق اليونانية والقبطية إلى العربية لعدم وجود من يفهم هاتين اللغتين، ومعنى هذا أن اللغة العربية أصبحت لغة المصريين فى أواخر القرن الرابع الهجرى مسلمين وغير مسلمين.

وفى الأندلس انتشرت اللغة العربية حتى بين الذين بقوا على دينهم المسيحى، وسموا بالمستعربين، ولقد أثار إقبال المسيحيين على اللغة العربية وثقافتها حقد القساوسة ورجال الدين الذين كانت لهم أديرة وكنائس فى شتى أنحاء الأندلس، فأخذوا يعيبون على الشباب المسيحى إقباله على قراءة وتعلم اللغة العربية وإهماله اللغة اللاتينية لغة الكتاب المقدس وسير القديسين[1].

على أن بعض البلاد انتشر فيها الإسلام، ولم تنتشر فيها اللغة العربية مثل فارس والهند وآسيا الصغرى، ويمكن تفسير ذلك بوضوح، فالفرس عرفوا اللغة العربية منذ إسلامهم فى فجر الإسلام، ولكنهم اعتزازا بقوميتهم احتفظوا بلغتهم، بل ألف بعضهم باللغة العربية، وتكلموا بها فى المجالات الرسمية مثل الدواوين وقصور الخلفاء والأمراء وغيرها، ولكن أبقوا على لغتهم فظلت سائدة إلى يومنا هذا فى إيران وأفغانستان وآسيا الصغرى وأذربيجان، وبعبارة أخرى فى الإمبراطورية الفارسية القديمة.

وبلاد الهند، دخلوا الإسلام عن طريق الغزنويين الترك وثقافتهم ولغتهم الرسمية، الفارسية، ولم تهاجر إلى الهند قبائل عربية؛ لذلك لم يتكلم فى الهند العربية إلا العلماء والفقهاء الذين اعتزموا دراسة الإسلام من المصادر الأصلية، وعرفها بعض الهنود من التجار العرب، وانتشرت لغة جديدة بعد الإسلام فى الهند هى الأوردية، وهى خلاصة اللغات الفارسية والهندية والعربية.

---

(١) مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٤٥.

وظلت أفغانستان تتكلم الأوردية والفارسية ولغة التوشتو المحلية، وسادت الفارسية فى بلاد ما وراء النهر أو فى آسيا الوسطى، وكذلك فى جورجيا وأذربيجان.

وفى آسيا الصغرى بعد دخولها فى الإسلام على أيدى الأتراك السلاجقة لم يهاجر إليها عرب، لذلك انتشرت فيها اللغة التركية الحديثة، وهى خلاصة اللغات الفارسية والعربية والمحلية.

ونخلص من ذلك إلى أن الإسلام انتشر فى سائر أرجاء الأرض ولم ينتشر بحد السيف كما يدعى البعض، بدليل أن ثلث العالم الإسلامى هو الذى دخل الإسلام بعد الفتوح التى كانت جهادا، ودرءا لخطر أعداء الإسلام من الروم والفرس. والثلثان الآخران دخلوا فى الإسلام عن طريق التجار ورحلاتهم والدعاة ورجال الطرق الصوفية.

ويجب التنبيه إلى أن البلاد التى شهدت حركة الفتوح الإسلامية، لم تُجبر على الدخول فى الإسلام؛ لأنه لا إكراه فى الدين، وكان الفاتحون يخيرون أهل البلاد أثناء فتحها بين الإسلام أو الجزية أو القتال. وبعد فتح هذه البلاد دخل أهل الكتاب من سكان هذه البلاد فى ذمة المسلمين أى فى حمايتهم، وتمتعوا بحقوق المواطنة كاملة، بشرط أداء الجزية، ومارسوا شعائرهم الدينية بحرية كاملة، ومن أسلم تُرفع عنه الجزية.

وبذلك نشأت دولة إسلامية كبرى تضم أقطارا من القارات المعروفة ومسلمين فى شتى أرجاء الأرض يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويقرءون القرآن، ويؤدون الصلاة خمس مرات كل يوم، ويصومون رمضان، ويؤدى بعضهم الحج فى أوقات معينة، ويلتزمون بشريعة السماء. كل ذلك أوجد وحدة دينية بين المسلمين فى أرجاء الأرض، والمؤمنون إخوة.

* * *

المصادر الرئيسية للفكر الإسلامى حددت حياة المسلم وعلاقته بالناس والمجتمع والدولة، كما حددت للجماعة الإسلامية دستورها وأسلوب مسيرتها فى جميع نواحى الحياة الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويمكن تحديد هذه المصادر على النحو الآتى :

١ ـ القرآن الكريم :

القرآن الكريم : هو كتاب الله الذى أنزله على رسوله ﷺ ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا. ولفظ قرآن مشتق من قرأ؛ لأن القرآن الكريم بدأ بأول آية نزلت على الرسول ﷺ ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾ والمصدر من قرأ : قرآن. وقرآن بمعنى مجموع أو مضموم أو مقروء، أو بمعنى بارز أو ظاهر، أى أن القارئ أظهر حروفه وكلماته، وأبرزها بتلاوته وقراءته وفهم معانيه.

والقرآن سُمِّىَ بعدة أسماء، يقال تزيد على الخمسين، منها كتاب : ﴿**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**﴾(١)، وسمى بالفرقان ﴿**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾(٢)، ولفظ الفرقان يفهم منه أنه يفرق بين الحق والباطل.

وسُمى بالذكر؛ لأنه يذكر الإنسان بربه وحقيقة الوجود وأسلوب مسيرته فى الحياة وقدرة الله ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**﴾(٣)، وسُمى بالصحف ﴿**رسول من الله يتلو صحفا مطهرة**﴾(٤)، ويسمى بالتنزيل ﴿**تنزيل من حكيم حميد**﴾(٥)، وسمى بالبيان ﴿**الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان**﴾(٦)، وسمى بكلمات ﴿**واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته**﴾(٧).

يتضمن القرآن الكريم ١١٤ سورة، ويجمع أهل العلم على أن أول آية نزلت على الرسول كانت فى شهر رمضان وفى خلوته فى غار حراء ﴿**اقرأ باسم**

---

(١) سورة إبراهيم : آية ١.
(٢) سورة الفرقان : آية ١.
(٣) سورة آل عمران : آية ٥٨.
(٤) سورة البينة : آية ٢.
(٥) سورة فصلت : آية ٤٢.
(٦) سورة الرحمن : الآيات ١ ـ ٤.
(٧) سورة الكهف : آية ٢٧.

ربك الذى خلق﴾ واستمر نزول القرآن على رسول الله عن طريق الوحى ثلاثة وعشرين عاما سواء فى مكة أم فى المدينة أم فى طريقه إلى المدينة.

ويرى أهل العلم أن آخر آية نزلت على الرسول كانت فى حجة الوداع، حيث اجتمع شمل العرب لأول مرة فى تاريخهم تحت راية الإسلام، ونصر الله رسوله فى دعوته **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**(1)، ويرى بعض العلماء أن هذه الآية لا تدل على دنو أجل الرسول وإنما تدل على نجاح دعوته، ويرجحون أن آخر آية نزلت على الرسول **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا﴾**(2)، وتوفى الرسول بعدها بأيام معدودة.

ينقسم القرآن الكريم إلى سور عددها ١١٤ سورة، وعدد الآيات ٦٦١٦، وعدد كلمات القرآن ٧٧٩٣٩ (٣).

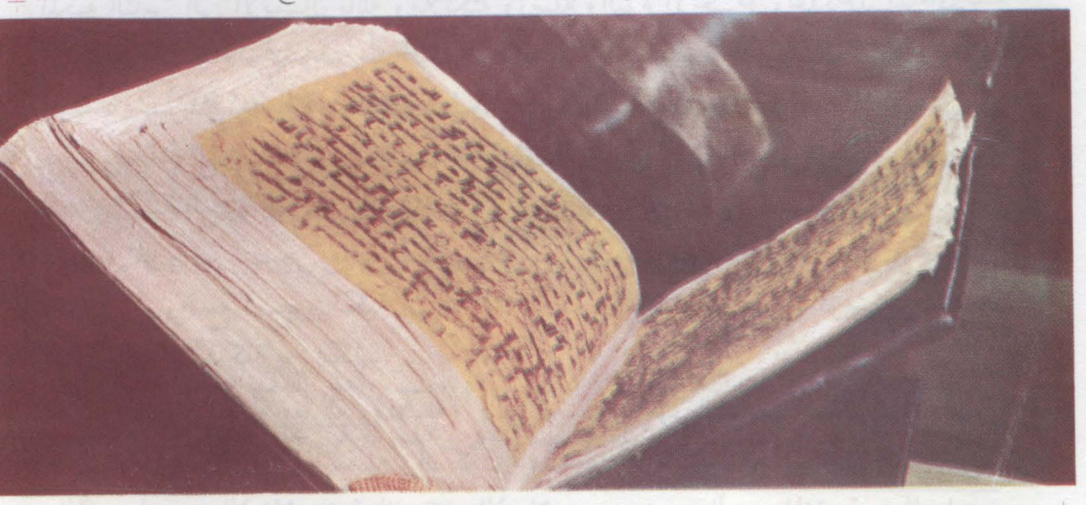
وتنقسم سور القرآن الكريم إلى مكية ومدنية، والمكية نزلت على الرسول وهو فى مكة، وتتضمن تسعة عشر جزءا من ثلاثين جزءا، والأحد عشر جزءا الباقية نزل بالمدينة.

تتناول السور المكية العقيدة، وتتميز بالقصر والحسم والقطع، وتدعو السور المكية الناس إلى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر. وتحدد للناس دين الله وهو الإسلام وتحذرهم من الشرك بالله، وتحدد مفهوم الألوهية، فالله واحد أحد لا شريك له وليس كمثله شيء، خالق الحياة والكون، وهو المثل الأعلى، يخلق الخلق ثم يعيده، وفى السور المكية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته، وتدعو السور المكية الناس إلى نبذ معبوداتهم، والإيمان بالله وحده، وتتضمن السور المكية قصصا تاريخية تتضمن عاقبة المكذبين للرسل وثواب المؤمنين بالله، مثل قوم عاد وثمود. وتوضح السور المكية أن الله أعد الجنة والنعيم للمتقين المؤمنين، وأعد النار والعذاب للكافرين المكذبين.

والسور المدنية مطولة ومفصلة؛ لأنها تختص بأمور الشريعة؛ ذلك أنها نزلت على الرسول ﷺ فى المدينة بعد أن كوّن فيها مجتمعا مستقرا من المؤمنين المهاجرين والأنصار دينه الإسلام، وقائده نبى الإسلام. وحددت السور المدنية متطلبات

(١) سورة المائدة : آية ٣. (٢) سورة البقرة : آية ٢٧٨.
(٣) صلاح رسلان : القرآن الحكيم، ص ١٠٧. ـ السيوطى : الإتقان، جـ١، ص ٢٣.

رسالة الرسول ﷺ : تعتبر هذه الرسالة من بين تسع رسائل للرسول ﷺ. كتبت هذه الرسالة فى تاريخ ٦٢٧م. من قبل الرسول ﷺ إلى المقوقس ـ رئيس الدولة القبطية فى مصر ـ لغرض قبوله الدين الإسلامى. وعثر بارتلى ـ الفرنسى الأصل ـ على هذه الرسالة فى إحدى الكنائس بين أوراق إنجيل القبطى سنة ١٨٥٠م. وبعد أن عرفت أنها رسالة الرسول ﷺ سلمت إلى السلطان عبد المجيد، وغلفت بإطار ذهبى، وأدخلت بين الأمانات المقدسة من طرف السلطان المذكور. وأن وسط هذه الرسالة تلف بمرور الزمن، وفى جانب الرسالة نشاهد ورقة توضح محتويات الرسالة.



المصحف الكريم المكتوب على جلد الغزال : يروى أن هذا المصحف الكريم يعود إلى الخليفة عثمان ـ رضى الله عنه ـ ويعتبر أول مصحف، وأن الخليفة عثمان استشهد أثناء قراءة هذا المصحف الكريم، وتوجد لطخة دماء الخليفة عثمان فوق هذا المصحف، لذلك اعتبر مصحفا مقدسا وحفظ بين الأمانات المقدسة إلى يومنا هذا.

سيوف الرسول ﷺ : نشاهد فى الصورة سيفين للرسول ﷺ موضوعين فوق منضدة مفروشة بقماش حريرى. إن عمد السيف الأول مصنوع من الذهب ومنقوش بالأحجار الكريمة صنعت من قبل السلطان أحمد الأول. وغمد وقبضة

ى الصورة تظهر السيوف العائدة للرسول ﷺ

المجتمع الجديد وهو التشريع الذى يحدد للناس الحلال والحرام، والعقوبات التى يجب إنزالها بالعُصاة، والأسس والقواعد التى يجب اتباعها كالوراثة. وتحدد الجوانب الأخلاقية التى يجب اتباعها والمحظورات التى يجب اجتنابها، والعبادات الواجب أداؤها. وبالجملة، الدستور الذى يجب على الجماعة الإسلامية اتباعه فى تنظيم الأسرة وحمايتها من التدهور، وحددت العقوبات على مرتكبى الجرائم كالقتل والسرقة والزنا، وحماية الفقير واليتامى، ومنع الاستغلال فى المعاملات المالية كالاحتكار والغش والربا. وأشارت الآيات المدنية إلى الأحداث السياسية فى عهد الرسول، مثل غزوات الرسول مع قريش ومع اليهود والمصاعب التى واجهت الرسول فى دعوته.

نزل القرآن ـ كما قلنا ـ بطريق الوحى آيات آيات؛ حتى يكون أقوى أثرا فى تثبيت العقيدة، ولكل آية توقيتها ومناسبتها، مما جعل أثرها فى القلوب قويا راسخا، ويسرت حفظه وفهمه.

كان أغلب العرب لا يقرءون ولا يكتبون، وكان الصحابة يستمعون إلى الرسول ﷺ بعد نزول الآية، فيستظهرونها، ويدوِّنها بعضهم ممن يتقن القراءة والكتابة، وسُمى الواحد منهم «كاتب الوحى»، ومن هؤلاء: على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وكانوا ينقشون الآيات بالطريقة المعروفة فى ذلك العصر على العُسْب والكرانيف وعظام الأكتاف والأضلاع من الأغنام والإبل والرقاع واللخاف وغير ذلك من الوسائل المتاحة فى ذلك العصر. وينسب إلى زيد بن ثابت بأنه راجع القرآن الكريم على الرسول قبل وفاته آية آية، وكان من أكثر الناس حفظا، ولما كان العرب يعتمدون على الحفظ للشعر والأخبار منذ القدم فكان من اليسير عليهم حفظ القرآن الكريم، وكان حفظ الصحابة للقرآن الكريم أهم من الكتابة المنقوشة بالوسائل البدائية التى ذكرناها[1].

ظل القرآن الكريم محفوظا فى صدور الصحابة وفى الصحف التى ذكرناها وأودعها كُتَّاب الوحى عند الرسول، واحتفظوا لأنفسهم بمصاحف خاصة بهم.

وظل الحال كذلك حتى ولى أبو بكر الخلافة، وحدثت حروب الردة وقُتل فيها الكثير من الصحابة وعدد غير قليل من القراء، فخشى أهل المدينة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب من ضياع القرآن بموت الحفظة، وأقنع أبا بكر بضرورة إعادة جمع القرآن، فاستدعى الخليفة أبو بكر، زيد بن ثابت ـ وهو من كتاب

---

(١) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، جـ١، ص ١٦٤ ـ ١٧٠.

الوحى - وكلَّفه بجمع القرآن؛ لأن القرآن المجموع على العُسْب وغيرها غير واضح وغير كاف، وتصعب قراءته والاعتماد عليه. كما أن زيدا خير من يقوم بهذا العمل؛ لأنه شاب قوى الذاكرة، شديد الحفظ، غير متعصب لرأيه، شديد الورع والإيمان. وقدَّر زيد خطورة هذا العمل الذى كلفه به الخليفة، وقال : والله لو كلفونى بنقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن.

جمع زيد بن ثابت الصحف التى نُقش عليها القرآن الكريم - والتى انتقلت إلى أبى بكر بعد وفاة الرسول - وراجعها وكان يجلس على باب المسجد فى المدينة المنورة ومعه[1] عمر بن الخطاب ويدعوان الحفظة لكتاب الله بمساعدتهما فى التأكد من صحة الآيات وضبطها. وبذلك راجع زيد الآيات القرآنية المدونة على العُسْب وغيرها واطمأن إلى صحتها ومطابقتها لما فى صدور الرجال من الحفظة[2].

انتقلت الصحف إلى بيت عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة، ولكنه انشغل بالفتوحات عن متابعة موضوع الصحف القرآنية، ولما ولى عثمان بن عفان ظلت الصحف فى بيت حفصة - أم المؤمنين - وابنة عمر بن الخطاب.

تفرق العرب فى الأمصار - ومن بينهم القرَّاء - فكان كل مصر يقرأ بترتيب معين للسور، واختلفوا فى قراءة بعض السور، وبالإضافة إلى موت الحفظة والصحابة، حذر المسلمون عثمان بن عفان بسوء العاقبة إن ترك الأمر على ما هو عليه، وقالوا له : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. وكان كل فريق من المسلمين يقرأ بقراءته، واختلف القراء فى بعض الألفاظ وفى ترتيب السور والآيات، بل وأسقط البعض آيات من القرآن، وقرأ البعض آيات مشكوك فى صحتها، وقرأ أهل الكوفة بقراءة ابن مسعود، وأهل البصرة بقراءة أبى موسى الأشعرى، وأسموا مصحفه «لباب القلوب». وزادت الشكوك والخلافات بين الجماعات الإسلامية حول قراءة القرآن، وكفَّرت بعض الجماعات البعض الآخر.

هنا تدارك عثمان بن عفان هذا الأمر الخطير الذى كاد أن يؤدى إلى تحريف نص القرآن، فعهد إلى زيد بن ثابت بإعادة جمعه بالاستعانة بكبار الحفظة[3]،

---

(١) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، جـ ٣ ص ٢٠١.

(٢) سيرة ابن هشام : جـ ٢، ص ٣٤٠.

(٣) وهم : زيد بن ثابت - عبد الله بن الزبير - سعيد بن العاص - عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - عبد الله بن العباس - زيد بن أبى بن كعب - كثير بن الأفلح - أنس بن مالك. وهم تسعة، وفى رواية ١٢ (تفسير الطبرى، جـ ١ ص ١).

وراجع زيد السور والآيات، آية آية من الصحف التى جمعها فى عهد أبى بكر على الحفظة. وإذا راجع آية واطمأن إليها أشهد عليها شاهدين ويدونها بلغة قريش التى نزل بها القرآن. وبهذه الطريقة تم جمع القرآن الكريم بأسلوب علمى سليم، وتدوينه بهذه الدقة حفظ القرآن الكريم من التحريف. وتم جمع الآيات فى سورها، واعتمد عثمان بن عفان هذا المصحف، وسُمى مصحف الإمام. نسبة إليه، وهو الذى نقرأه الآن.

أمر عثمان بن عفان بتدوين سبع نسخ، بعث بها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة، وأبقى فى المدينة نسخة واحدة.

أمر عثمان بن عفان سنة ٢٥هـ بحرق كل المصاحف التى بأيدى الناس، ولم يبق إلا على مصحفه(١)؛ حتى لا يقرأ الناس القرآن بالقراءات المختلفة، وتتوحد قراءاتهم وتطابق قراءته للصادر من الحفظة ومن الصحف المجموعة من أيام الرسول ﷺ أى من المصدر الأصلى، وبهذا العمل الكبير حافظ عثمان بن عفان على القرآن الكريم، وجنَّبه كل تحريف أو تبديل أو حذف لبعض الآيات والكلمات(٢). واستخدم المسلمون كافة مصحف عثمان، وقرأوا القرآن منه، وأحرقوا كل ما عندهم من صحف(٣).

ومن الطبيعى أن يعترض بعض الناس على مصحف عثمان، ولكن كبار الصحابة وكتاب الوحى أيدوا عثمان، وتصدوا للمعارضين. وقال على بن أبى طالب : ولو لم يصنه عثمان لصنته، ولو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله.

وجاء تدوين القرآن وقراءته بلغة قريش، وبذلك تم إلغاء قراءات القرآن بلهجات ولغات العرب غير القرشيين التى انتشرت معهم فى البلاد الإسلامية. والمعروف أن لغة قريش كانت معروفة عند سائر العرب الذين كانوا يحجون إلى مكة، وكانت قوافل قريش تجوب الجزيرة العربية فى رحلتى الشتاء والصيف.

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ٢٥هـ.

(٢) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، جـ ١ ص ١٠١.

(٣) ابن أبى داود : المصاحف ص ١٨.

ومصحف عثمان بن عفان يتكون من ١٠٨٧ صفحة من الرق، ومكتوب بمداد بنى داكن، وأسلوب الخط كوفى بسيط، وخال من النقط الحمراء والسوداء، وقد نسخ المسلمون العديد من المصاحف. ويروى أنه فى معركة صفين بين على ومعاوية رفع جند معاوية خمسمائة مصحف مطالبين بتحكيم كتاب الله(١).

قرأ العرب القرآن الكريم الذى نزل بلسانهم قراءة صحيحة، ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية ودخل فى دين الله الكثير من غير العرب، شاع اللحن والخطأ فى قراءة القرآن؛ لذلك أدخل علماء العرب الأسس والقواعد التى تيسر قراءة القرآن الكريم، فأمر والى العراق زياد ابن أبيه أبا الأسود الدؤلى بوضع النحو سنة ٦٧هـ.

جعل أبو الأسود الدؤلى علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة أسفله، والضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وعلامة السكون نقطتين، وكانت هذه النقط تكتب بلون مداد مخالف للون مداد الخط.

والخليل بن أحمد أول من صنف النقط، وأول من وضع الهمزة والتشديد، وألف أبو حاتم السجستانى كتابه عن نقط القرآن، وشكّله، وظهرت العلامات المميزة، وجعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة.

وتطورت كتابة المصحف، ووضع التشكيل، أى الكسرة والضمة والفتحة والشدة التى عليها فتحة، والشدة التى تحتها كسرة. وبذلك أمكن قراءة الكلمة بنقطها المميزة وبتشكيلها الجديد دون صعوبة.

ولما كثر الأعاجم واشتدت الحاجة إلى التمييز بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء، والحاء والجيم والخاء، والفاء والقاف، والصاد والضاد. وفى عهد الوليد بن عبد الملك قام نصر بن عاصم بوضع النقط وميز الحروف بها بنفس مداد الخط؛ لأن نقط الحرف جزء منه(٢)، وعلى سبيل المثال : باء نقطة واحدة وتاء

---

(١) سعاد ماهر : مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى، ص ١٢٣، ١٣٠.

(٢) أبو داود : المصاحف. ص ١١٤.

نقتطان، وج نقطة واحـدة و ح بلا نقط، وخاء نقطة فـوق، وهكذا. وهذا حدث في العهد الأموى، أى فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى[1].

والكتابة كـانت على الرق، أى الجلد، وبالقلم المأخـوذ من القصب ويشـبه القلم البسط، وكتبوا على الخشب وعلى العظام وعلى قطع الخـزف والأحجـار والنسيج المصنوع من الكتان ويسمى بالقباطى؛ لأنه مصنوع فى مصـر، ثم عرفوا ورق البردى من مصر. وبعد ذلك استخدم المسلمون الورق المأخوذ من الكاغد[2] وهو أجود أنواع الورق. وبعـد ذلك تطورت كتابة المصحف بخطوط جـديدة وبها زخارف رائعة ومجلدة تجليدا فاخرا عليه نقوش بماء الذهب.

والقرآن الكريم فـيه إعجاز، فـمن الناحية الأدبية رفع المستوى الأدبى عند العرب، واعترف المعـاصرون حتى المكذبين بأنه من عمل ساحر، وتركـيبه اللفظى يتبع سلم موسيقى بحيث من يحسن ترتيله وتجـويده يستطيع أن يقرأه بنغمة مقبولة للسامعين. وقد تجد قارئا للقـرآن صوته مميز وجميل فى تلاوة القرآن الكريم ولكنه إذا غنى فلا يجـذب صوته أحدا؛ لأن السلم الموسـيقى للآيات القرآنية والتـركيب اللفظى للآيات يجمِّل صوت القارئ مقبولا ما دامت تلاوته سليمة وصحيحة.

ومن الناحية العلمية فالقرآن الكريم حـينما يتعرض لجوانب علمية من خلال آيات القـدرة، فإن الجانب العـلمى للآية يكون سليمـا وقد لا يفـهمه أهـل القرن الأول، إنما يُفهم بعد ذلك بقرون، تمشيا مع التـقدم العلمى وظهور نظريات عملية جديدة ﴿**والخيل والبـغال والحميـر لتركبوها وزينة ويخلق مـالا تعلمون**﴾[3] عرف العـرب هذه الوسـائل البـدائية فى المواصـلات، ولكنهم لـم يفهـمـوا باقى الآية ﴿**ويخلق مـا لا تعلمـون**﴾ من وسائل المواصـلات الحديثـة كالسيـارات والطائرات ونحو ذلك. والآيات التى تتـضمن إعجـازا قد تحتاج إلى تـفاصيل كثيرة. ولكن ينبغى عدم تحميل القرآن مـا لا يحتمل، ونقول الطب فى القرآن الكريم، والزراعة فى القرآن الكريـم، والكيميـاء، والصيدلة.. إلخ؛ لأن الـقرآن كتـاب يدعو إلى الإسلام وليس كتابا فى الفلك أو الكيـمياء أو الطب.. إلخ. ولكنه إذا أشار إلى

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى، جـ ١٢، ص ٢٧٩ ـ ٣٠٠.

(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ٤٠.

(٣) سورة النحل : آية ٨.

قدرة الله بقدرة علمية فإنها تكون صحيحة تماما ومتمشية مع العلم الحديث، وأحدث النظريات والاكتشافات العلمية.

حرص الأوربيون على ترجمة القرآن الكريم لفهم معانيه وتشويه ما جاء فيه، وتُرجم القرآن الكريم إلى حوالى ١٢٠ ترجمة وتعددت طبعات كل ترجمة، وأهم هذه الترجمات : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية. ولا يمكن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية، ولكن يقصد بالترجمة ترجمة معانيه فقط؛ لأن القرآن الكريم فى تركيبه اللغوى والموسيقى والأدبى انفرد بمميزات لا يتمتع بها نص أدبى قبله ولا بعده فى أى لغة من اللغات.

ولقد تناول المستشرقون القرآن الكريم بالدراسة، وعملوا فهارس له بمناهج مختلفة، ومن أبرز هذه الفهارس : فهرس الأستاذ فلوجل الألمانى «نجوم الفرقان فى أطراف القرآن»، واعتمد عليه الأستاذ فؤاد عبد الباقى فى كتابه «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» وهو من أقيم وأجل الكتب والذى يعتمد عليه قارئ العربية فى الوصول إلى الآية القرآنية الصحيحة.

والقرآن الكريم هو مصدرنا الأول فى التشريع، فالفقيه أو القاضى إذا وجد نصا فى القرآن الكريم حول موضوع أو قضية معينة فعليه الالتزام به أولا وقبل أى شىء آخر.

والمصدر الثانى للتشريع هو السنة، وتتضمن أقوال الرسول وأفعاله **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**[1] واتفق الفقهاء على أن كل حكم ثبت بكتاب الله أو سنة رسوله يكون واجب الاتباع بالإجماع.

والمصدر الثالث للتشريع هو الاجتهاد، بمعنى أخذ الحكم من ظواهر النصوص، فإن عرف المجتهد النصوص عامها وخاصها، مطلقها ومقيدها، ناسخها ومنسوخها، وغير ذلك مما يتوقف عليه استنباط الأحكام من الألفاظ. ثم استنبط كان عمله هذا اجتهادا.

وأخذ الحكم من معقول النص، وذلك أنه إذا كان للحكم علة مصرح بها فى النص أو استنبطها الفقيه، وكان محل الحادثة الجديدة مشتمل على تلك العلة المصرح بها أو المستنبطة، وكان النص لا يشملها فإن المجتهد يتخذ من ذلك وسيلة لاجتهاده.

---

(١) سورة الحشر : آية ٧.

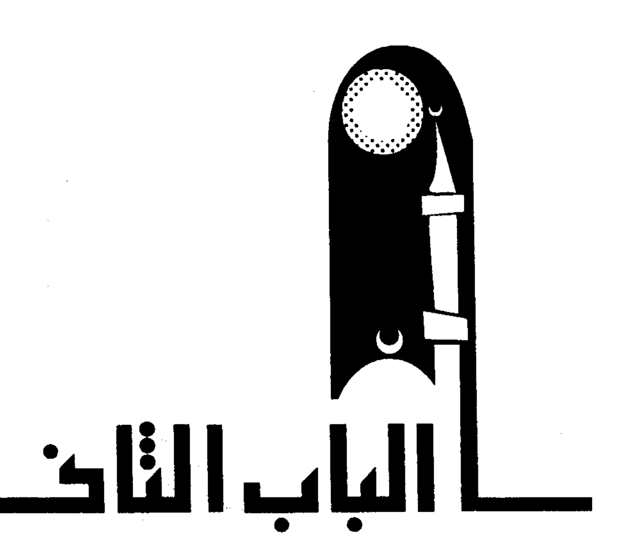
والمصدر الرابع هو الإجماع، والإجماع هو اتفاق المجتهدين من أمة الإسلام على حكم شرعى، وأركانه هى أن يكون الاتفاق من المجتهدين. أما العوام فإنه لا عدة باتفاقهم ولا بخلافهم فى الأحكام الشرعية؛ لأنهم ليسوا من أهل النظر فى مدارك الأحكام، ولا فهم الحجة والبرهان. وإذا خالف أحد المجتهدين رأى الجماعة لا ينعقد الإجماع مهما كثر عدد المتفقين؛ لأن المخالف قد يكون على صواب. ويرى جمهور الفقهاء أنه لابد للإجماع من سند (دليل) لأن أهل الإجماع ليس لهم الاستقلال بإثبات الأحكام، لأنه لو وقع الإجماع من غير سند، لاقتضى إحداث شرع جديد بعد وفاة الرسول ﷺ؛ لأن القول فى دين الله لا يجوز بغير دليل، فوجب أن يكون للإجماع مستند، وفائدة الإجماع مع وجود السند أن يمنع الخلاف، ويصير الحكم قاطعا، والسند هو كتاب الله وسنة رسوله، وقال الرسول ﷺ : «لا تجتمع أمتى على ضلالة»، وقال : «يد الله مع الجماعة»، و«من شذ شذ إلى النار»، و «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن»[1].

والمصدر الأخير للتشريع هو القياس، والقياس حجة شرعية فى المسائل العملية وليس الاعتقادية، فإذا لم يوجد فى الواقعة نص ولا إجماع بعد كتاب الله وسنة رسوله، وثبت أنها تساوى واقعة أخرى، ورد نص على حكمها فى علة هذا الحكم، فإنها تقاس عليها، ويحكم فيها بحكمها، ويكون هذا حكما شرعيا، والقياس لابد منه؛ لأن القرآن والسنة لم يحددا كل واقعة من الوقائع اللامتناهية للناس، فالنصوص لا تكفى. ويتبع القياس أركانا وهى : **الأصل** وهو الواقعة التى ثبت فيها الحكم بنص أو إجماع، **والفرع** وهو الحادثة التى لم يرد فى حكمها نص ولا إجماع، ويراد إلحاقها بالأصل فى حكمه، وحكم الأصل وهو الحكم الشرعى الثابت للأصل ويراد إثباته للفرع بطريق القياس. **والعلة** وهى الوصف الذى بُنى عليه حكم الأصل، وهو موجود فى الفرع ويراد تسويتها فى الحكم.

والقياس المخالف لنص أو إجماع لا يكون صحيحا، وأن تكون علة الحكم موجودة فيه، وأن يكون مساويا للأصل فى علة الحكم؛ لأن التساوى فى العلة هو الطريق إلى إثبات حكم الأصل للفرع؛ لذلك يجب أن يكون حكم الأصل حكما شرعيا ثابتا من خلال النصوص والإجماع.

* * *

(١) الطبرانى : إرشاد الفحول، ص ٧٨.



النظم الإسلامية

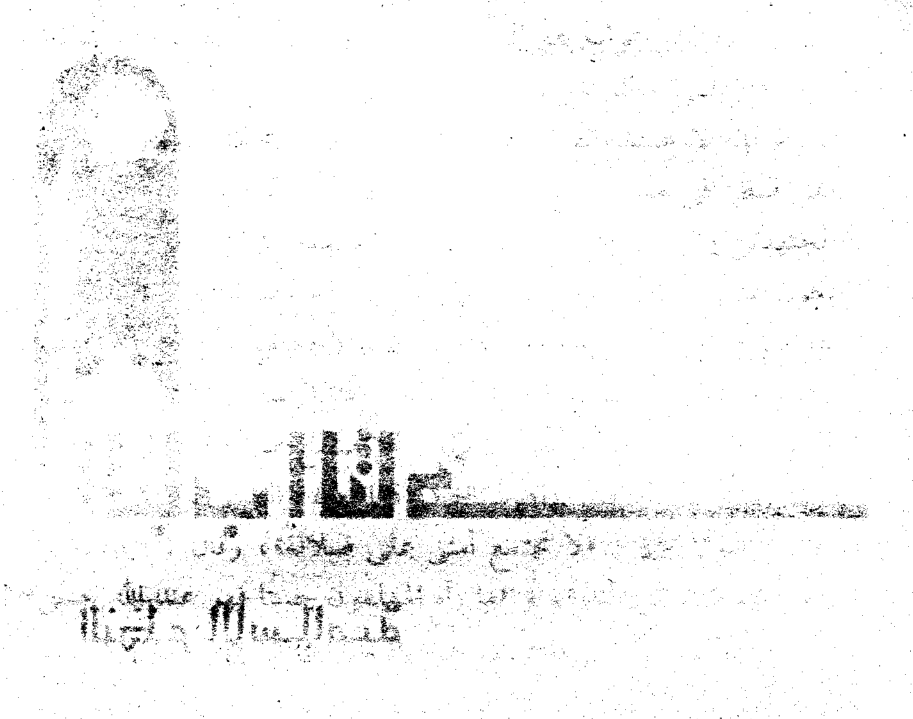
١ - النظام السياسى.

٢ - النظام الإدارى.

البريد - الشرطة.

٣ - النظام القضائى - الحسبة.

٤ - النظام الحربى.



النظام السياسى

الخلافة

لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، واستقبله أهلها من الأوس والخزرج أحسن استقبال، ونصروه، وأعلنوا دخولهم فى الإسلام، أتيحت له الفرصة لإقامة مجتمع جديد مسلم بين قوم آمنوا به ونصروه، وأصبح هذا المجتمع يتكون من المهاجرين الذين هاجروا مع الرسول وتركوا أموالهم وديارهم، والأنصار من الأوس والخزرج، واليهود وهم قبائل تقيم فى يثرب.

وضع الرسول ﷺ لهذا المجتمع الجديد ميثاق المؤاخاة؛ ليضمن للمهاجرين الحياة الحرة الكريمة، وليمنع عن المدينة أذى اليهود. وميثاق المؤاخاة يتمشى مع روح الإسلام التى تدعو المسلم أن يقف إلى جانب أخيه المسلم فى الشدائد، وهؤلاء المهاجرون لا مال عندهم ولا عمل لهم، ولا يمكن لمجتمع أن يستقر إلا إذا كفلت لأهله لقمة العيش. من هنا كان ميثاق المؤاخاة عبارة عن مؤاخاة الأنصارى لواحد من المهاجرين فى المعيشة والسكن والعمل، ويرث كل منهما الآخر؛ وبذلك تيسرت سبل المعيشة أمام أهل المدينة والمهاجرين منهم بصفة خاصة، وهذا يمكنهم من العمل فى خدمة الدعوة الإسلامية. وأما عن اليهود فبمقتضى الميثاق لا يرغم المسلمون اليهود على اعتناق الإسلام ولا يعتدون عليهم، وهم آمنون على أملاكهم وديارهم، وعليهم فى مقابل ذلك عدم الاعتداء على المسلمين أو النيل من دينهم[١].

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ ٤، ص ٣٤٠.

وتولى الرسول ﷺ حكم المدينة المنورة، وهى حكومة مثالية لم يسبق لها مثيل، فالحاكم نبى مرسل من الله، يوحى إليه، ونزلت عليه الآيات التى تتضمن الشريعة التى تمكنه من قيادة هذا المجتمع الجديد واستقراره، وفى المسائل التى لم يرد فيها نص أمره الله بمشورة أصحابه ﴿وشاورهم فى الأمر﴾[1] أو يجتهد بما يراه مناسبا لصلاح مجتمعه.

اتسعت هذه الدولة تدريجيا، حتى نصر الله دينه، وتم فتح مكة سنة ٨هـ، وسقطت قلعة الوثنية الكبرى فى جزيرة العرب، وعلى أثر ذلك أقبل العرب على دخول الإسلام أفواجا، أى عامى ٩، ١٠ هـ حين أقبلت وفود القبائل العربية على الرسول فى المدينة معلنين إسلامهم، وأدى الرسول ﷺ حجة الوداع سنة ١٠ هـ فى جمع يضم ما يقرب من مائة ألف شخص - وهم معظم سكان شبه جزيرة العرب، وتوفى الرسول ﷺ فى أوائل سنة ١١ هـ بعد أن وضع نواة وأسس دولة الإسلام التى بدأت من المدينة المنورة[2]، وضمت إليها البلاد العربية فى الجزيرة حتى اتسعت وشملت الجزيرة العربية كلها - وما زالت هذه الدولة الإسلامية فى اتساع - كما رأينا - حتى شملت قارات العالم المعروفة فى العصور الوسطى، وهى دولة لم يسبق لها مثيل، فشريعتها نزلت من السماء، وأكملها الرسول ﷺ بالحديث والسنة، وتتميز بأنها تحرص على تكوين مجتمع يسوده مكارم الأخلاق، ويمنع منعا مطلقا الرذائل والمفاسد التى تضر بالمجتمع وتؤخر مسيرته. ومن المسلمين المواطنين فى هذه الدولة الكبيرة انتشر الإسلام فى ربوع العالم، وتكون مجتمع إسلامى له عاداته وتقاليده المنبثقة من تعاليم الإسلام.

لما توفى الرسول ﷺ تعرض المسلمون لمشكلة كبيرة، وهى مَن يقوم بسد الفراغ الذى تركه الرسول ﷺ، أو مَن يخلف الرسول فى حكم المسلمين، وكان المرشحان للقيام بهذا العمل الكبير هما أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب. وفى سقيفة بنى ساعدة حاول الأنصار أن يكون حكم المسلمين لرجل من بينهم على اعتبار أنهم نصروا الرسول ﷺ وآووه، ولكن المهاجرين أقنعوا الأنصار بأحقية أبى

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ ٤، ص ٣٤ - ٣٤٥

بكر في الخلافة لسبقه في الإسلام، ولهجرته مع الرسول ﷺ دون سواه، وهو ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ ولتضحيته في سبيل الدعوة الإسلامية، ولأن الرسول عهد إليه بإمامة المسلمين في الصلاة أثناء مرضه(1). والرسول لم يحدد من يخلفه، وانتهى الجدال والنقاش بمبايعة أبي بكر، وفي المسجد النبوي بالمدينة بايعه الناس جميعا، وألقى خطابة حدد فيها سياسته التي سيحكم بها المسلمين، وتعهد بأن يواصل سيرة الرسول في العدل والمحافظة على الدين، وقال «إني قد وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»(2).

واعترض على بيعة أبي بكر بعض الأنصار وشيوخ بني هاشم الذين اعتقدوا أن علي بن أبي طالب أحق بالخلافة لأن له نفس السبق في الإسلام، ولكن عليا - حرصا على وحدة المسلمين - لم يخرج على الجماعة، وإنما بايع أبا بكر بعد وفاة زوجته فاطمة بنت محمد ﷺ.

وبذلك نشأ نظام حكم جديد عند العرب والمسلمين، وأُطلق على أبي بكر لقب خليفة، أي الذي يخلف الرسول في المحافظة على الدين، وتطبيق أحكامه، وتبصير الناس بشئون دينهم، والدفاع عن الدين وحمايته، ويباشر الخليفة كذلك الشئون الدنيوية للناس، على اعتبار أنها مستمدة من الدين.

وفي ذلك يقول ابن خلدون : «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة من صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»(3).

---

(1) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦٠.
(2) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٢ - ٥.
(3) مقدمة ابن خلدون : ص ١٦٦.

ولما شعر أبو بكر بدنو أجله، أطل على المسلمين فى المسجد ورشح لهم عمر ابن الخطاب، فقالوا . سمعنا وأطعنا، واستطلع آراء المسلمين، فوجد إجماعا على عمر بن الخطاب لقوته، ولأن العصر عصر فتوح، والدولة فى مرحلة بناء، تحتاج إلى شخصية قوية لها سبق فى الإسلام مثل عمر بن الخطاب، وتوفى أبو بكر، وبايع المسلمون عمر بن الخطاب، وأعز الله به الإسلام، وقاد الأمة الإسلامية نحو حركة الفتوح الكبرى، ونشر العدل وأقام دولة إسلامية قوية على أسس سليمة، وهو أول من لُقب «أمير المؤمنين» بالإضافة إلى لقب خليفة أى خليفة خليفة الرسول، ومنعا للتكرار أصبح اللقب خليفة فقط لكل من يتولى هذا الأمر، والأمير هو قائد الجيش عند العرب، ومن ألقاب الخليفة : الإمام، وهو إمام الصلاة، وإمامة الصلاة من أرفع المهام، وكان يقوم بها الرسول ﷺ، والمفروض أن يقوم الخليفة بإمامة الصلاة[1].

ولما طعن عمر بن الخطاب عهد بالحكم من بعده إلى لجنة تتكون من ستة من كبار الصحابة ممن بشروا بالجنة، ولهم سبق فى الإسلام، وعهد إليهم باختيار واحد منهم، وكان المرشح الأول هو على بن أبى طالب، ولكن ظهرت نوايا سيئة ضده، أبرزت الصراع بين بنى أمية وبنى هاشم. على كل حال بايع المسلمون عثمان بن عفان على الرغم من أحقية على بن أبى طالب بالخلافة سواء لما لعلى من سبق فى الإسلام، وقرابة للرسول، وقوة وشجاعة، ومقدرة ضرورية لهذا المنصب الكبير، وهى شروط قد لا تتوافر فى عثمان بن عفان[2].

وهذا الاختيار الذى لم تتوافر فيه العدالة، كان له أكبر الأثر فيما واجهته الدولة الإسلامية من فتن وثورات فى عهد عثمان بن عفان الذى لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة، وأغفل الشورى، وأهمل الأخذ برأى أهل الحل والعقد، واعتمد على بنى أمية، ومنهم غير المنصف، وأدت الفتن التى حدثت ضد عثمان بن عفان إلى مقتله[3].

---

(1) سيرة ابن هشام، جـ ٣، ص ٤٧٣.

(2) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٣هـ.

(3) المصدر السابق، حوادث سنة ٣٥ هـ.

وبوفاة عثمان بن عفان، ذهب شيوخ المهاجرين والأنصار إلى على بن أبى طالب يبايعونه بالخلافة، ولكنه لم يحظ بإجماع المسلمين، ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة كانت الدولة الإسلامية مضطربة وتسودها الفتن، ووضع الأمويون العقبات أمام على بن أبى طالب، وقضى عهده فى صراع مع معارضيه، وانتهى الأمر بمقتله سنة ٤١هـ. وبوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين، لأنهم وُلُّوا فعدلوا، ولهم سبق فى الإسلام وعلم بأصوله من خلال صلاتهم الوثيقة بصاحب الرسالة وبشرهم الرسول بالجنة، وهم من أكثر حكام المسلمين عملا بتعاليم الإسلام، وتطبيقا لمبادئه وتعاليمه.

وبذلك ظهر نظام جديد فى حكم الدولة الإسلامية أساسه الشورى والبيعة، فالخليفة يتولى بمبايعة المسلمين، والخليفة يبايعه المسلمون فى المسجد، ويلقى خطبة يحدد فيه سياسته، ويجلس فى المسجد للنظر فى مصالح المسلمين والشورى، والخليفة ينظر فى خلافات الناس ويقيم الحدود، وينظر فى أحوال الرعية، ويقود حركة الجهاد، ويبصر الناس بشئون دينهم، ويصلى بالناس، ويقود الحجيج، ويجمع الزكاة ويوزعها طبقا للشرع، وينظر فى أمور الناس الدنيوية وعليه تحصين الثغور، وحماية أموال الناس وممتلكاتهم ونسائهم وأطفالهم، ونشر الإسلام وحماية المسلمين ونصر الإسلام **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾**[١].

هذه هى المسئوليات الكبيرة للخليفة، لذلك كانت الشروط الواجب توافرها فى الخليفة هى : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس، فالعلم بالدين ضرورى حتى يستطيع أن يجتهد ويستنبط الأحكام، والكفاية حتى يكون قادرا على إقامة العدل والحدود، بصيرا بالحروب والإعداد لها ولمصاعبها وأهوالها، وفى استطاعته إعداد الجيوش وتعبئة المسلمين، وأن يكون صاحب رأى وتدبير حتى يتمكن من مباشرة مهامه ومسئولياته، يضاف إلى ذلك سلامة الحواس التى تعوق عن العمل كالعمى. وإمام الأمة ـ الخليفة ـ يجب أن يكون قدوة للمسلمين، حسن

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص ٥. والآية من سورة ص : آية ٢٦.

السمعة، لايرتكب المحظورات، ولا يقدم على المنكرات، ولا ينقاد إلى الشهوة أو الهوى[1].

والخلافة فى أسس تكوينها ترفض نظام الوراثة، وهذا يتمشى مع تقاليد القبيلة العربية، فكان العرب يختارون شيخ القبيلة على أساس الكفاءة والشجاعة والسن، وليس على أساس الوراثة، وهذا واضح فى اختيار الخلفاء الراشدين، فأساس الحكم فى عصر الراشدين هو الإجماع والبيعة وإن كانت حُددت فى قريش.

وفى سنة ٤١هـ حدث تطور كبير فى نظام الخلافة، فقد بايع المسلمون معاوية بن أبى سفيان خليفة، بعد مقتل على بن أبى طالب، وتنازل الحسن بن على عن الخلافة، وكان معاوية فى الحقيقة خير من يحكم المسلمين في هذه الفترة المضطربة، فلديه من الخبرة والحنكة والمقدرة والدهاء ما يمكنه من التصدى للمشاكل التى واجهت دولة الإسلام، ونقل معاوية حاضرة الدولة إلى دمشق، ونقل إليها الدواوين وبيت المال؛ لأنه عاش فى دمشق فترة طويلة، أثناء ولايته على الشام، وارتبط بأهل الشام بروابط الود، كما أنهم أطاعوه.

حدث تغيير شديد فى نظام الخلافة فى عهد معاوية، فبينما كان الخلفاء الراشدون يعيشون فى زهد ويختلطون بالناس، ويتخذون من المسجد مركزا ومقرا لهم، ولم تتغير حياتهم عما كانت عليه قبل الخلافة[2]، إذا بالخليفة معاوية يعيش فى ترف ونعيم، ويحتجب عن الناس، ويصلى والحرس بين يديه، ويعيش فى قصر فخم هو قصر الخضراء، زينه بأبهى معالم الزينة، وتشبه بملوك الروم فى المظهر والملبس، وكان يقول : أنا أول الملوك، وأغفل الشورى والجلوس بين الناس فى المسجد، وأصبحت الخلافة ملكا استبداديا، بل أدخل بدعة أثارت شيوخ العرب وعامتهم وهى نظام الوراثة، فقد بايع لابنه يزيد بالخلافة من بعده وعارض هذا الاتجاه أهل الحجاز[3].

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١٦٥.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ٤١هـ.

(٣) حسن إبراهيم حسن النظم الإسلامية، ص ٣٧.

واستمر النظام الوراثى فى الدولة الأموية، ومن عيوبه تولية خلفاء لا يؤهلهم إلى هذا العمل الكبير سوى الوراثة فقط، وكانوا سببا فى التعجيل بزوال الدولة الأموية.

والتطور الذى حدث فى الخلافة من حيث الاحتجاب عن الرعية والحياة فى القصور الفخمة، والظهور بمظهر الترف والنعيم، تمشى مع طبيعة التطور الذى شاهدته الدولة والثراء التى تمتعت به، وانتقال الدولة من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن مجتمع البادية فى الحجاز إلى مجتمع الشام المتحضر، واحتجاب الخليفة عن الرعية له ما يبرره، فللخلفاء الأمويين أعداء مثل الخوارج والشيعة والموالى.

ومع ذلك فقد شهد العرب أحلى أيامهم وأعظم انتصاراتهم فى عهد بنى أمية، فكانت الجيوش العربية تجوب بلاد العالم ظافرة منتصرة، ووصلت إلى الصين عبورا ببلاد ما وراء النهر، واجتازت بلاد المغرب والأندلس، واقتربت من باريس، وسيطرت على بعض جزر البحر المتوسط، واعتمد الأمويون على العرب فى إدارة دولتهم وفى حروبهم، وبذلك أحيت فى العرب طاقاتهم الكامنة التى أيقظها الإسلام وأزال ما كان فيها من شوائب الجهالة والجاهلية.

بقى نظام الخلافة على ما هو عليه، بعد انتقال الحكم من بنى أمية إلى بنى العباس، نظاما وراثيا استبداديا، فالخليفة يشرف على جميع شئون الدولة السياسية والحربية والإدارية والمالية والدينية، وظلت الخلافة مسئولة عن حفظ الدين وسياسة الدنيا. ولكن الخلافة العباسية اختلفت عن الخلافة الأموية فى ممارستها للسلطة، ذلك أن الصفة الدينية، تأكدت بوضوح ضمن مهام الخليفة العباسى؛ لأن العباسيين اعتبروا أنفسهم ورثة رسول الله، إذ هم من سلالة العباس بن عبد المطلب - عم رسول الله - وهو الوريث الشرعى للرسول الذى لم يعقب وارثا ذكرا، ولقب العباسيون شيوخهم - الدعاة - الإمام الداعية - وتحول آخر إمام داعية، وهو أبو العباس إلى خليفة.

كان الخليفة العباسى حاكما زمنيا، وزعيما روحيا للدولة العباسية، والرئيس الفعلى لحكومة دينية. ويعتبر الخليفة المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية،

وهو الذى أرسى قواعدها وتقاليدها التى استمرت خمسة قرون، ولقد أدرك المنصور سلطته وسلطانه بقوله : «أنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه، أعمل بمشيئته وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه. .»[1]، ويتضح من ذلك مدى ما أسبغه المنصور على الخلافة من سلطان مطلق يستمده - كما يقول - من الله وهو المتصرف فى شئون رعاياه الدينية والدنيوية.

واستمر الدعاة للدعوة العباسية ينشرون الدعوة فى مجالس الخميس فى أقطار الدولة العباسية، وأدى ذلك إلى تثبيت سلطانهم، وأصبح واجب الدعاة بعد انتقال الخلافة إلى العباسيين ترسيخ إيمان الناس بالدعوة العباسية والخلافة وسياستها، والكشف عن أعداء الخلافة العباسية، وإحباط مؤامراتهم ودسائسهم، ومراقبة ولاة الدولة وعمالها وأحوال الرعية، وإشاعة الطمأنينة بينهم.

وعلى هذا فالخلافة العباسية تيوقراطية، أساس السيادة فيها للخليفة العباسى، الذى هو حامى حمى الدين، والخليفة العباسى الذى هو إمام المسلمين حرص على الاستعانة بالفقهاء فى تطبيق أحكام الدين مثل القاضى أبى يوسف قاضى قضاة الدولة العباسية الذى وضع للخليفة الرشيد كتابا حدد فيه السياسة المالية التى يجب على الخليفة اتباعها.

حرص الخلفاء العباسيون الأوائل على تركيز السلطة فى أيديهم، ومقاومة النزعات الاستقلالية، إذا كان حكمهم مركزيا مباشرا، فالخليفة يشرف إشرافا كاملا على كافة شئون الدولة، ولما أسس المنصور مدينة بغداد، نقل إليها بيت المال وأنشأ الدواوين بجوار قصره، وكان يشرف على الدواوين ويراقب سير العمل فيها.

وكان الخليفة كثيرا ما يقود الجيوش بنفسه، ويرشح من يراه مناسبا لولاية عهده، وإن كان العهد لأكثر من واحد أثار نزاعا كبيرا بين الأخوة، لأن الأخ الأكبر يحاول أن ينتزع حق أخيه فى ولاية العهد ونقل ولاية العهد إلى ابنه، وهذا حدث بالنسبة للهادى والرشيد، والأمين والمأمون[2].

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ١٥٦هـ.

(٢) لمزيد من التفاصيل اقرأ كتابنا : الدولة العباسية.

والخلافة وراثية أحيانا يعهد الخليفة لابنه بولاية العهد وأحيانا لأخيه، فلم تكن هناك قاعدة ثابتة بولاية العهد.

والخلاصة أن الخلافة فى العصر العباسى الأول تبدأ من سنة ١٣٢ هـ وتنتهى سنة ٢٣٢هـ، وتتميز بالسلطان المطلق للخليفة، وتتركز فى يديه جميع السلطات السياسية والعسكرية والمالية والدينية، وإذا كانت قد حدثت انقسامات فى البيت الحاكم حول ولاية العهد، إلا أنها لم تؤثر على هيبة البيت العباسى، وعلى ولاء الرعايا للخلافة، ومكانتها فى قلوب المسلمين.

استعان الخليفة المعتصم بالترك، وجلبهم من بلاد ما وراء النهر، بعد أن أثار الفرس والعرب القلاقل فى الدولة العباسية، وعُرف عن الترك الشجاعة وقوة البأس، وجعل المعتصم جيشه من الترك، ولم يكن هناك خطر منهم فى عهد الخليفة المعتصم[1] القوى البأس، ولكن ظهر خطرهم فى بداية العصر العباسى الثانى، أى سنة ٢٣٢ هـ حين شغلوا وظائف قيادية فى الجيش وحكم الولايات، وطغى نفوذهم على نفوذ الخليفة، وشيئا فشيئا خضع الخليفة للترك، وضعف سلطانه، وأصبح الخلفاء العباسيون فى العصر العباسى الثانى ألعوبة فى أيدى الترك يولونهم ويعزلونهم أو يقتلونهم، وكانوا يولون الخليفة الضعيف حتى ينفذ سياستهم، فإذا اعترض عليهم قتلوه أو عزلوه، والمعروف أن الترك يكرهون العرب والفرس، وفى خلاف مع بعضهم البعض، مما جعل الدولة الإسلامية مسرحا للفتن والاضطرابات، ولما خشى الفرس بأس الخليفة المتوكل قتلوه سنة ٤٤٧ هـ، وقتلوا الخليفة المستعين، وطالبوا المعتز بالرواتب، فلما عجز عن أدائها سجنوه[2].

تغير مظهر الخلافة فى العصر العباسى الثانى، فاحتجب الخليفة عن الرعية، وأصبح من الصعب مقابلته، ويقف الناس على بابه أياما طلبا للمقابلة، ومن يحظ بهذا الشرف ينال الرضا والبركة، فإذا دخل على الخليفة يقبل الأرض بين يديه،

---

(١) عصام الدين الفقى : الحواضر الإسلامية، ص ١٧٦.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ٤٤٧ هـ.

وعاش الخلفاء فى القصور الفخمة، وتشبهوا بالأكاسرة واتخذوا الحراس، وتزيوا بالأزياء الفارسية، واتخذوا المراسم الفارسية فى القصور والأجهزة الحكومية، وأضفى الخلفاء على أنفسهم هالة من القدسية والجبروت، وتلقبوا بلقب إمام لما له من صفة دينية، وتغنوا بنسبهم للرسول وخصوصا فى المناسبات الرسمية حيث كان الخليفة يرتدى بردة الرسول حتى يؤكد صفته الدينية للرعية[1].

* * *

وشارات الخلافة هى : بردة الرسول ـ التى ذكرناها ـ وتوارثها الخلفاء، ويرتديها الخليفة فى المناسبات الرسمية، ولهذه البردة قصة. كان كعب بن زهير قد هجا الرسول ﷺ، ثم هداه الله إلى الإسلام، وأقبل على الرسول معتذرا طالبا العفو، مادحا الرسول بقصيدة جاء فيها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة	لا يشتكى قصر منها ولا طول
ولا يغرنك ما منت وما وعدت	إن الأمانى والأحلام تضليل

وتدرج فى القصيدة التى يبدأها العرب عادة بالغزل ثم مدح الرسول ﷺ بقوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى	والعفو عند رسول الله مأمول

فعفا عنه الرسول ﷺ وقبل إسلامه، بل خلع عليه بردته[2]، وظلت البردة عند آل كعب حتى اشتراها منهم معاوية. فتوارثها الخلفاء، وحافظوا عليها، وكانوا يرتدونها فى المناسبات الرسمية.

ومن شارات الخلافة القضيب وهو سيف رسول الله ﷺ، وتوارثه الخلفاء حتى نهاية عصر الخلافة. أما الخاتم، فقد آل من الرسول إلى أبى بكر، ومنه إلى

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ص ٢٨٨

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة، جـ ٤، ص ٢٤.

عمر بن الخطاب، فعثمان بن عفان الذى سقط منه فى بئر بالمدينة، فتطير عثمان، فأقنعه الناس أن يتخذ خاتما آخر، وكان لكل خليفة خاتم يختم به رسائل ومكاتبات الدولة، والطراز وهو نقش اسم الخليفة على ملابسه الرسمية فى دار الطراز التى تطرز الملابس الرسمية بخيوط ذهبية.

ومن أهم شارات الخلافة الدعوة للخليفة فى خطبة الجمعة ونقش اسم الخليفة على العملة.

* * *

نعود إلى الحديث عن حال الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى، تولى الخلفاء الضعاف حكم الدولة العباسية، ولما ولى الخليفة المقتدر، اشتغل باللهو، وترك أمور الدولة للحاشية والقادة الترك، وكثرت الفتن والثورات؛ لأنه ترك شئون الدولة للحاشية والنساء ورجال القصر.

لما ازدادت الخلافة ضعفا أنشأ الخليفة منصب أمير الأمراء، ويقبض على السلطتين المدنية والعسكرية، ويتولى هذا المنصب فى الغالب قائد تركى، ولكن هذا المنصب لم ينظم الأوضاع الإدارية فى الدولة بسبب التنافس المرير بين القادة حول هذا المنصب، وكان الخليفة يولى هذا المنصب لمن دخل بغداد شاهرا سيفه(١).

وأدى ضعف الخلافة العباسية إلى قوة الولاة، لأن الخليفة لم يعد قادرا على حكم دولته المترامية الأطراف حكما مركزيا شاملا، لذلك قوى حكام الولايات، وشعروا بقوتهم، واستقلوا عن الخلافة،وحكموا ولاياتهم حكما مستقلا. وبذلك انقسمت الدولة العباسية إلى دول مستقلة، ولا يربطها بالخلافة العباسية إلا رباط الشرعية فى دولة الإسلام الكبرى، فالدولة الإسلامية فى نظر المسلمين دولة واحدة حاكمها الشرعى هو الخليفة العباسى، وكل حاكم فى أى ولاية لا يكتسب

---

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ١١٤.

الشرعيــة إلا من صاحبها، الخليــفة العباسى - إمــام المسلمين - ووريث رسول الله ﷺ وحامى حمى المسلمين أينما وجدوا، لذلك اعـترف بسيادته المسلمون فى بلاد العالم. ومن مـظاهر هذا الاعتراف، إقـامة الدعـوة للخليفة فى خطـبة الجمـعة، ونقش اسمه على العملة، وإصدار تفـويض من الخليفة إلى الوالى بحكم ولايته، ونقش اسم الخليفـة على الملابس الرسميـة التى يرتديها الوالى، إذن فقد الخليــفة صفته السياسية، وبقيت له الصفة الشرعية.

وشهدت الخلافة العباسبة أشد أيام ضعفها فى أيام بنى بويه، فلما دخل معز الدولة البـويـهى بغـداد، اسـتـبـد بـالأمـور دون الخليـفـة، وحـدَّ مـن سلطاته واختصــاصاته، فاستعــان الخليفة بالحمدانيـين لتخليصه من أعدائه البـويهيين. ولما علم معز الدولة البويهى، قبض على الخليفة وعزله سنة ٣٣٤هـ[١]، وبويع الخليفة المطيع بالله سنة ٣٣٨هـ[٢].

استبد معز الدولة البويهى بالملك دون الخلـيفة ولم يعد للخليفة المطيع سوى الاسم فقط، وفضَّل الإبقـاء على الخلافة العباسـية السنية المعارضة لمذهبـه الشيعى عن الإذعـان للخليفـة الفاطمى فى مـصر، لأنه فى ظل خليـفة ضـعيف يسـتطيع السيطرة على الدولة، وهذا ما لا يحدث للخليفـة الفاطمى القوى رغم انتمائه إلى مذهبه الشيعى.

وشهدت الخـلافة العباسيــة أسوأ أيامها فى ظل سيطرة بنى بويه فـشاركوهم مظاهر سيادتها مثل ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه[٣] على العملة.

* * *

وعلى الرغم مما تعرضت له الخـلافة، ظلت مهيبة الجـانب فى نظر المسلمين وظلت مظهـرا من مظاهر وحدة المسلمـين فى مشارق الأرض ومـغاربهـا، فملوك وسلاطين وأمـراء الدولة الإسلامية مـهما بلغت بهم القـوة فى دار الإسلام - التى تضم المسلمين فى أنحـاء العالم - يكتسـبون الشرعيــة من الخليفة، أى لا يعتـبرون

(١) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٣٤هـ.
(٢) المصدر السابق، حوادث سنة ٣٣٨هـ.
(٣) البيرونى الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ١٣٢

حكمهم شرعيا إلا بتقليد من الخليفة صاحب الحق الشرعى فى حكم الدولة الإسلامية، كما أن الرعايا ينظرون إلى الحاكم الذى لا يصله تقليد من الخليفة نظرة شك وريبة ويعتبرونه مغتصبا لحق لا يملكه، لذلك تفننوا فى إرسال الأموال والهدايا إلى الخليفة حتى يحصلوا على التقليد. ويوم الحصول على التقليد، يقيم الحاكم الاحتفالات والزينات؛ لأن حكمه اصطبغ بالصبغة الشرعية.

ولكن فى سنة ٢٩٦هـ أقام الشيعة دولتهم الفاطمية فى المغرب، ولم يلبث أن نقل المعز لدين الله الفاطمى دولته الجديدة إلى القاهرة، واتسعت الدولة الفاطمية حتى شملت مصر والشام والمغرب واليمن والحجاز، وأعلن المعز الفاطمى نفسه خليفة وأصبحت هناك خلافتان : الخلافة التقليدية السنية فى بغداد، والخلافة الشيعية الجديدة فى القاهرة[1]، وبذلك حدث انقسام بين المسلمين إلى سنة وشيعة، كل فريق له دولته وخلافته.

شجع الانقسام فى الخلافة الأمويين فى الأندلس المعادين أصلا للخلافة العباسية التى اغتصبت الحكم من أجدادهم الأمويين فى دمشق، فأقام الأمويون خلافة جديدة سنة ٣١٦هـ[2] أعلنها عبد الرحمن الناصر فى قرطبة، وبذلك أصبح هناك ثلاث خلافات : العباسية فى بغداد، والفاطمية فى القاهرة، والأموية فى قرطبة.

على أن الخلافة الأموية فى قرطبة سقطت سنة ٤١٦هـ، وسقطت الخلافة الفاطمية فى القاهرة سنة ٥٦٧هـ، وبقيت الخلافة العباسية صامدة تمثل وحدة المسلمين، وتتصدى لكل التحديات التى تعرضت لها، وأثبتت أنها قامت على أسس ودعائم ثابتة من الشرعية.

وكان السلاطين الأقوياء يقدرون للخلافة العباسية هيبتها، فكان السلطان محمود الغزنوى يكتب للخليفة العباسى عن انتصاراته على عدو الله فى الهند، ويخاطبه على أنه عبد للخليفة، وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبى مع الخليفة،

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٣٦٢هـ.

(٢) ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جـ ٢، ص ٧ ٣

وكان الخليفة يمنح السلاطين والأمراء الألقاب، ويتوسط فى فض النزاع بين الأمراء والحكام.

ولما آل الأمر إلى السلاجقة سيطروا بدورهم على الخلافة، ولكن وضع الخلافة العباسية فى عصر السلاجقة كان أفضل من بنى بويه، فالسلاجقة سنة يتفقون مع إمام السنة الأكبر - وهو الخليفة - فى المذهب؛ لذلك انتعشت الخلافة، واسترد بعض الخلفاء نفوذهم، ومما قوى من نفوذ الخلافة صلات المصاهرة التى كانت تربط الخلفاء بالسلاطين السلاجقة.

وبالغ الخلفاء فى الاحتجاب عن الناس، حتى قيل إن الخليفة كان لا يظهر للناس إلا مرة واحدة فى السنة، على أن السلاجقة حرصوا على عدم السماح للخلفاء بالتدخل فى شئون دولتهم وسعوا إلى إضعافهم، وطرد السلطان السلجوقى ملكشاه الخليفة المقتدى من بغداد حينما حاول ذلك.

وظلت الخلافة فى ضعف شديد حتى أصبح نفوذ الخلافة لا يتجاوز العراق بل بغداد، وأثبتت الخلافة عجزها عن المهمة التى قامت من أجلها، وهى حماية المسلمين، والزود عن ديار الإسلام، فلم يكن لها دور يذكر فى الحروب الصليبية إلا إصدار البيانات للدعوة إلى الجهاد أو تهنئة القادة المنتصرين.

وذهب المنكوبون من ويلات أعداء الإسلام يستغيثون بالخلافة فلا مغيث، ويستنصرونها فلا ناصر، فلم يعد لها حول ولا طول، ولم يعد للمسلمين المنكوبين حام يدرأ عنهم ويلات البؤس والقهر.

وقامت الدولة الخوارزمية بعد سقوط الدولة السلجوقية، ونظر إليها الخليفة العباسى الناصر (ت ٦٢٢هـ) نظرة شك، واتهم جلال الدين منكبرتى الخليفة العباسى الناصر بتحريض المغول عليه وشن الغارات على بعض أراضى الدولة العباسية. وشهدت هذه الفترة صراعا مريرا بين الخوارزميين والعباسيين. وقُتل جلال الدين منكبرتى سنة ٦١٧هـ.

وتربص المغول بالخلافة العباسية، وعجزت الخلافة العباسية عن درء خطر المغول عن الدولة الخوارزمية، وطرد الصليبيين من مدن الشام، والحكام المسلمون ازدادوا ضعفا وانقساما على أنفسهم، والخلافة العباسية عاجزة تماما عن التصدى لكل الأخطار التى أحاطت بدولة الإسلام.

وازداد نفوذ رجال القصر فى بغداد حتى أنهم ولوا الخليفة المستعصم حتى يسيطروا عليه وعلى دولته المتداعية[1]، وانتهى الأمر بزوال الخلافة العباسية على أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية فى بغداد.

على أن زوال الخلافة العباسية أصاب المسلمين بالخوف والهلع، واعتقدوا أن زوال الخلافة إيذان باقتراب الساعة وزوال الدهر وفناء العصر؛ لأنهم لا يتصورون عالما إسلاميا بلا خلافة، أو مسلمين بلا خليفة، فأصيب المسلمون بالإحباط واليأس والقنوط، وبحثوا عن وسائل جديدة لإحياء الخلافة العباسية.

على أن السلاطين والأمراء فى البلاد الإسلامية أراد بعضهم إحياء الخلافة العباسية حتى يكسبوا حكمهم الصفة الشرعية، ويظهروا أمام رعاياهم بمظهر قوى مدعم من الخليفة، وكان سلاطين المماليك فى مصر والشام فى أشد الحاجة إلى سند قوى لأنهم أصلا من الرقيق، وفى حاجة إلى خليفة يعزز مركزهم أمام رعاياهم، وعبر عن ذلك السلطان الظاهر بيبرس، فاستدعى من دمشق أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر، وجماعة من الأعراب، فروا من بطش المغول، استدعاهم إلى مصر واستقبله استقبالا رسميا، ومعه كبار رجال الدولة، وصحبه إلى قلعة الجبل، وعقد مجلسا فى قاعة الأعمدة حضره القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة، ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام، وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، كما شهد العربان الذين قدموا إلى مصر مع الإمام أحمد[2].

وفى المجلس أقر العربان أمام قاضى القضاة بصحة نسب أحمد لبنى العباس، وأقر بذلك بعض القضاة الذين قدموا معه من بغداد، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم، وحكم بصحة نسبه، وبايعه بالخلافة، ولُقب بالمستنصر بالله[3]، وفى هذا الاجتماع تُلى تفويض الخليفة العباسى الظاهر بيبرس بالسلطنة، ثم بايع بيبرس الخليفة العباسى «على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٧٣٧.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ١ ص ٩٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٩٩ وما بعدها.

[illegible] يفة، وصيغ [illegible] العهد والوصايا [illegible] إلى [illegible]
[illegible] والتقفية [illegible] مطابقة الكلام [illegible] (١).

القاضي الفاضل [illegible] هـ من أبرز الكتاب في [illegible] شغل بعده
[illegible] الديوانية، و[illegible] منصب في [illegible] انفرد به.

[illegible] الكتاب [illegible] العماد الأصفهاني [illegible] والرسائل القيمة
[illegible] أصفهان، ورحل إلى الشام وبغداد [illegible] محمود بن زنكي
ـ صاحب دمشق ـ كاتبا ومدرسا في المدرسة [illegible] ثم صار كاتبا في دولة
صلاح الدين الأيوبي. وله من المصنفات «خريدة القصر وجريدة أهل العصر»
و«الفتح [illegible]» و«البرق الشامي»، وله قصائد طوال، ت ٥٧٨هـ(٢).

[illegible] القاضي عبد الرحيم بن علي [illegible] فكان أعظم كتاب [illegible]
[illegible] وأسندتم إليه قرباه وكان القاضي الفاضل [illegible] كبير في
أحداث [illegible] استوزره السلطان صلاح الدين وكان يقول عنه: «لا تظنوا أني
ملكت [illegible] بسيوفكم، بل بقلم الفاضل [illegible] القاضي الفاضل سنة
٥٩٦هـ [illegible]

[illegible] القراءات [illegible] وسمع الحديث وبرع في الفقه والعلوم، وصنف
[illegible] من المصنفات أهمها كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وهو يعد
أعظم [illegible] في تاريخ [illegible] الدين [illegible]

الكتاب [illegible] ضياء الدين بن الأثير [illegible]
صلاح [illegible] وبعد أن التحق بعدد من الأعمال في [illegible]
أيوب [illegible] إلى الموصل [illegible] وطنه الأصلي ـ وشغل وظيفة كاتب للإنشاء لناصر
الدين محمود ابن الملك الظاهر(٥)، وترجع شهرة ضياء الدين إلى روعة أسلوبه،
ومن أهم كتبه: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» وهو مجلد قيم في فن
[illegible] وتصدى لمؤاخذته الأديب ابن أبي حديد المدائني [illegible] جمع هذه المؤاخذات
«الفلك الدائر على المثل السائر» وللضياء [illegible] كتاب «الوشي
[illegible] المنظوم» [illegible] بعض المتخصصين [illegible] (٦).

(١) [illegible] الأدب العباسي جـ ١ ص ٤٨٦ ـ ٥٥٤.
(٢) [illegible] جـ ١٣ ص [illegible] ، ٣١.
(٣) [illegible]: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٥٦، ١٥٧.
(٤) [illegible] جـ ٤ ص ٨٧، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٥٨، ١٥٩.
(٥) [illegible] الفقر [illegible] الجزيرة ص ٢٥١.
(٦) [illegible] الجزيرة ص ٢٦٣.

وجمع سلاطين آل عثمان السلطتين الدينية والزمنية، ولكنهم حرصوا على أن يلقبوا بلقب خليفة، بالإضافة إلى لقب سلطان منذ القرن الثامن عشر، بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، وغزت الدول المسيحية أراضيها، فاعتزوا بهذا اللقب حتى يحتفظوا أمام رعاياهم ببعض السيادة الروحية، وبالتالى السياسية، على العالم الإسلامى، ويؤدى ذلك إلى عرقلة مشاريع الدول الاستعمارية فى البلاد الإسلامية التابعة للدولة العثمانية. وسقطت الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى عقب هزيمتها، وألغى مجلس الثورة بقيادة كمال أتاتورك الخلافة، وتحولت تركيا إلى دولة علمانية سنة ١٩٢٤.

وبذلك سقطت الخلافة رغم ما تعرضت له من تقلبات طوال العصور، إلا أنها كانت رمزا لوحدة المسلمين، ووحدت العالم الإسلامى. وإذا كنا ندعو إلى إقامة وحدات إقليمية لتقوية الروابط الاقتصادية والسياسية بين الدول التى تجمعها مصالح مشتركة، فإن الخلافة بشىء من الإصلاح والدعم وتقوية الروابط بين المسلمين والدول الإسلامية، من الممكن تطويرها وخلق كيان إسلامى يضم المسلمين فى وحدة اقتصادية وعسكرية وسياسية ودينية، تمكنهم من حل مشاكلهم والصمود أمام التيارات المعادية للإسلام، وأمام القوى التى تتصدى بكل قوة وخبث للنيل من المسلمين.

ابتدع المسلمون بعد أن قوى شأنهم وازداد قدرهم بالإسلام نظما لإدارة شئون دولتهم التى تتسع تدريجيا، فوضعوا النظام السياسى لحكم دولتهم الكبيرة، ويشمل الخلافة والوزارة، وابتدعوا نظما إدارية لإدارة شئون دولتهم، ونظما قضائية وعسكرية. تدل هذه النظم التى أتقنت إدارة شئون المسلمين على مدى ما بلغه المسلمون من تقدم فكرى فى شئون الإدارة والحكم والمال والسياسة.

* * *

من الطبيعى ألا يحكم الخليفة بدون أعـوان ومساعدين؛ لذلك نرى الرسول ﷺ والخلفـاء الراشدين والأمـويين يتـخذون لهم أعـوانا دون أن يسمـوا وزراء، ويسندون إليهم مهام شئون الحكم والإدارة.

وأول من اتخذ وزراء فى دولة الإسلام العبـاسيون، ويقول ابن خلدون[1]: «الوزارة أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فهى مأخوذة إما من المؤازرة أى المعاونة، أو الوزر وهو الثقل».

لما قامت الدولة العباسية، واستـفحل الملك، وعظمت مراتبه، اتخذ الخلفاء العباسـيون وزراء يقومون بمهام رسـمية محددة لهم، فى ظل التنظيم البـيروقراطى الجديد.

وكان الوزير قائما مـقام الخليفة فى كل الشئون، فـينظر فى الشئون الإدارية والمالية والعسكرية، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة، ويوقع على ما يرفع إليه من أوراق، إذ كان يجب على الوزير أن يكـون متعدد المواهب، سـياسيا حـاذقا، وأديبـا كاتبـا ماهرا، وجنديا بارعـا، ويباشـر نيابة عن الخليـفة كـافة أمـور الدولة الإدارية والمالية والسياسية والعسكرية، ولـم تتخذ الدولة العباسية مبدأ تعدد الوزراء بتعدد الأعمـال، فالوزير الفضل بن سهل جمع بين السلطتـين المدنية والعسكرية، أى السيف والقلم، ولذلك سُمى بذى الرياستين[2].

وكان الخليفة يكتب لمن يرشـحه لتولى الوزارة كتابا يكلفه فيـه بهذه المهمة، ويحدد له السياسة التى يجب عليه اتباعـها، ويتضح ذلك من كتاب الخليفة المأمون للفضل بن سـهل حين أسند إليه الوزارة سنة ١٩٦هـ، جاء فيه : «ولا تـتقدمك مـرتبة أحـد ما أمـرتك به من العـمل لله ونبيـه، والقـيام بصـلاح دولة أنت ولى بقيامها، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله، وجعلته كفيلا على عهدى»[3].

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٧.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٩٦هـ.

(٣) المصدر السابق، حوادث سنة ١٩٦هـ.

وللوزراء أعوان متخصصون فى إدارة شئون الدولة، وهؤلاء الأعوان هم : الكتاب، وهم من رجال الأدب ولهم علم بفن التوقيعات على رسائل الوزير، وهى قطع أدبية تمثل ثقافة العصر، ويعاون الوزير رجال المال والإدارة والحرب وخبراء السلاح وخبراء الاقتصاد فى الزراعة والصناعة والتجارة ورجال الشرطة والبريد وخبراء الفن المعمارى.

والوزارة نوعان : وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، فوزير التفويض يباشر الحسبة والنظر فى المظالم، وليس ذلك لوزير التنفيذ، ويجوز لوزير التفويض أن يباشر شئون الولايات، وليس ذلك لوزير التنفيذ، ويجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى إدارة أموال الدولة، وليس ذلك لوزير التنفيذ، وبالجملة كان وزير التفويض ينوب عن الخليفة فى مباشرة جميع شئون الدولة، أما وزير التنفيذ فكان يباشر إدارة شئون الدولة بتوجيه من الخليفة، ويرجع إليه فى كل قرار يزمع اتخاذه[1].

ومن أشهر وزراء التفويض فى العصر العباسى الأول : يحيى بن خالد البرمكى، والفضل بن سهل، ووزارة التفويض تسلب الخليفة كل اختصاصاته، وتجعله صورة فقط، ومن هنا لم يقبل الخلفاء الإبقاء على وزارة التفويض، فنكل الرشيد بالبرامكة، وتخلص المأمون من الفضل بن سهل.

ومعظم وزراء العصر العباسى الأول من الفرس، بعضهم يميل إلى التشيع، والبعض يريد تحويل الدولة العباسية إلى النفوذ الفارسى؛ لذلك تعرض الكثير منهم للقتل والمصادرة.

ضعفت الوزارة فى العصر العباسى الثانى بضعف الخلفاء، وصودرت الإقطاعات التى كانوا يعيشون من ريعها، وحُددت لهم مرتبات، ومُنع الوزير من الجلوس فى دار الوزارة الملحقة بدار الخلافة، وأصبح مجلسه فى دار الحاجب، وهذا دليل على ضعف نفوذه[2].

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية، ص ١٢٨.

وكانت المناصب الوزارية وراثية فى ذلك العصر، فتولى أربعة وزراء من آل خاقان الوزارة فى سبعين عاما، وكذلك أربعة من بنى الفرات فى خمسين عاما، وكان بنو وهب - وهم من نصارى العراق - اكتسبوا خبرة بأعمال الدواوين، وتولى بعضهم أعمال الوزارة[1].

ولما ولى المقتدر الخلافة، استوزر على بن الفرات سنة ٢٦٩هـ، وقد تقلد الوزارة ثلاث مرات، ثم قُبض عليه وكان لبنى الفرات ما كان للبرامكة وبنى سهل وبنى وهب من النفوذ والمكانة وبُعد الصيت[2].

ومن أشهر وزراء ذلك العصر، الوزير على بن عيسى الذى استطاع أن يقرب بين العباسيين والقرامطة، وكان هذا الوزير من كبار الكتاب، اشتهر بالورع والزهد، وكان عالما بالقرآن ومعانيه، كثير الصدقات والبر بالرعية، ومصلحا ضابطا للدواوين، واستتب الأمن فى عهده، وانتشر العدل، على أن هذا الوزير لم يبق فى الحكم طويلا؛ لأن الخليفة المقتدر وقع تحت تأثير الحاشية والنساء، فعزله عن الوزارة، وخلفه حامد بن العباس، وكان قليل الخبرة بشئون الحكم والإدارة فضم إليه الخليفة على بن عيسى نائبا له، فضبط شئون البلاد وأصبحت أمور الوزارة فى يده دون حامد بن العباس[3]، واقتصرت مهمة حامد بن العباس فى الجلوس على دست الوزارة دون عمل، بينما على بن عيسى يدير شئون البلاد، وفى ذلك يقول الشاعر:

أعجب من كل ما رأينا	أن وزيرين فى بلاد
هذا سواد بلا وزير	وذا وزير بلا سواد[4]

ساءت أحوال البلاد بسبب ضعف الوزراء، وتدخل رجال القصر فى تولية الوزراء وعزلهم، حتى ولى الوزارة فى عهد المقتدر اثنى عشر وزيرا، وتعرضوا للعزل والمصادرة، ولم يلبث أن تدخل الأمراء الترك فى تولية الوزراء، وأصبحت

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦.

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٢١٨ - ٢٢٠.

(٤) عريب بن سعد صلة تاريخ الطبرى ص ٥١.

الوزارة فى العصر العباسى الثانى نكبة تحل على من يتولاها. إذ انحصرت مهمة الوزير فى إشباع نهم أمير الأمراء فى الحصول على الأموال، وكثيرا ما صودر الوزراء وقتلوا وسُجنوا وقطعت أطرافهم لعجزهم عن الوفاء بمطالب أمير الأمراء ولذلك حرص وزراء ذلك العصر على الوفاء بمطالب أمير الأمراء دفاعا عن حياتهم، وإبقاءً على مناصبهم وأموالهم على حساب الرعية[1].

وكان الوزير يتولى المنصب بالرشوة، فدفع ابن مقلة للخليفة خمسمائة ألف دينار لتولى الوزارة للمرة الثالثة[2]، وإذا ولى الوزارة يعزل موظفى العهد السابق، ويولى أقاربه وأعوانه.

وزير لا يحل من الرقاع	يولى ثم يُعزل بعد ساعة
ويدنى من يعجل منه مالا	ويبعد من توسل بالشفاعة
إذا أهل الرشا صاروا إليه	أحظى القوم أوفرهم بضاعة

تولى الوزير ابن مقلة الوزارة ثلاث مرات، وقطعت يده، وكان يبكى ويقول: خدمت الخلافة بها ثلاث مرات، وكتبت القرآن بها ثلاث مرات، وتُقطع كما تُقطع أيدى اللصوص»[3].

وعُرف عن وزراء العصر العباسى الثانى أنهم من رجال الإدارة والشئون المدنية، ونزهوا رجال الدين عن مناصب الوزارة، حتى لا يتعرضوا لما فى شئون الحكم من أمور قد توقعهم فى خطايا وآثام[4].

أدى منصب أمير الأمراء إلى ازدياد ضعف الوزراء فشمل اختصاص أمير الأمراء اختصاص الوزير، وأصبح بيده كافة السلطات فى الدولة، واقتصر عمل الوزير على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواسم مرتديا السواد.

ومن الرسوم المتبعة فى تولية من يقع عليه الاختيار فى هذا المنصب، صدور مرسوم من الخليفة إلى المرشح للوزارة يحمله أميران، ويتوجه المرشح للخلافة إلى قصر الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد ويستقبله الخليفة، وينتقل إلى حجرة فى القصر حيث يرتدى الخلعة، وهى ثياب رسمية يرتديها الخليفة، ثم يعود إلى مقابلة

(١) المصدر السابق، ص ٨٧، ٨٨.

(٢) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية، ص ١٢٩.

(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٢، ٤٣.

الخليفة، حيث يوجه إليه تعليماته، والواجبات التى يجب عليه الالتزام بأدائها، ويقلده سيفا، ويعقد له اللواء، ويخرج الوزير بقوس محلى بالذهب إلى دار الوزارة، وبين يديه كبار رجال القصر والحجاب وخدم الخليفة والحرس، فإذا جلس على دست الوزارة، قدم له الناس على اختلاف مراتبهم التهانى(١).

ثم يُقرأ عليه سجل التعيين، ثم تقدم إليه الهدايا من الخليفة وهى ثياب وعطور وأثاث ونحو ذلك، ومرسوم التعيين يحدد واجبات الوزير نحو الرعية، ووصايا الخليفة له بالعدل بين الناس وحسن إدارة الدولة، وضبط الأجهزة الإدارية والمالية.

وفور استلام الوزير منصبه والانتهاء من استقبال المهنئين، يرسل إلى سائر الولايات فى الأطراف يخبرها بإسناد الوزارة إليه، ويرسل بذلك أيضا إلى سائر الإدارات.

وكان الخليفة يمنح وزراءه الألقاب مثل : عميد الدولة، الناصر لدين الله.. إلخ. وكان للوزير حاشية وحراس، ويجلس فى دار خاصة به، هى دار الوزير، وبين يديه غلمان مسلحون لحراسته، وكان الوزير يذهب لمقابلة الخليفة من وقت لآخر ومشاورته فى بعض مهام الدولة، وفقا لمراسم خاصة فى الاستقبال(٢).

ولما سيطر البويهيون على الدولة العباسية، اتخذوا لهم وزراء، والمعروف أن وزراء بنى بويه علماء ومن رجال الفكر، ومن بينهم ابن العميد، وزير ركن الدولة، وقد علا شأنه كثيرا وأصبح مرموقا فى الدولة، ويرجع إليه الفضل فى توليته عضد الدولة بعد أبيه، وتقسيم ولايات الدولة بين أبنائه فخر الدولة ومؤيد الدولة وعضد الدولة مع إطاعة وتنفيذ أوامر عضد الدولة(٣).

وولى محمد بن الحسن المهلبى الوزارة لمعز الدولة، وقد حظى بمكانة عالية (ت ٣٥٢هـ)(٤).

---

(١) ابن الصابئ : رسوم دار الخلافة، ص ٧٧.
(٢) المصدر السابق، ٧٦ ـ ٧٩.
صفاء حافظ : نظم الحكم فى الدولة العباسية، ص ٤٨ ـ ٥٠.
(٣) خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٢٠.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

ومن أبرز وزراء بنى بويه الصاحب إسماعيل بن عباد، كان وحيد عصره وزمانه فى العلم والفضيلة، وكان صائب الرأى والتدبير، تولى الوزارة لمؤيد الدولة البويهى الذى كان حاكما على بعض ولايات العراق، وبفضله ولى فخر الدولة بعد ركن الدولة، وفوض الوزارة لابن عباد، وأصبح صاحب الأمر والنهى فى إدارة شئون الملك والمال. وأخضع طبرستان وجرجان، وضمهما لملك فخر الدولة، ونصح السلطان قبل وفاته ٣٨٥هـ بألا يأخذ برأى المغرضين وأهل الفتنة، ولا ينحرف عن جادة الصواب، وقال عنه الثعالبى : «إنه كان صدر المشرق وغرة الزمان وينبوع العدل والإحسان».

ومن وزراء العصر البويهى ابن بقية، كان وزيرا لعضد الدولة، ولكن عضد الدولة نقم عليه وصلبه على شاطئ دجلة.

لما سيطر السلاجقة على الخلافة العباسية، سيطروا على الخليفة والوزير، حتى أن الخليفة المقتدى عزل وزيره عميد الملك لتحقيق رغبات السلاجقة[١]. وعزل وزيره أبا شجاع بعد أن طلب منه السلطان ملكشاه ذلك[٢].

ومن وزراء الخليفة المسترشد أنوشروان خالد بن القاشانى، ومن وزراء الخليفة الناصر، مؤيد الدين القُمى، وكان أديبا حاذقا فى السياسة وإدارة الحكم، وتآمر عليه رجال القصر وقتلوه حتى يكون لهم نفوذ في الحكم والسياسة[٣].

واستوزر المنتصر بالله نصير الدين محمد بن الناقد، وخلفه مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمى، الذى يسر للمغول دخول بغداد وارتكب خيانة عظمى فى دينه ووطنه.

ومن وزراء الدولة الغزنوية أحمد حسن الميمندى، ورغم ازدياد نفوذه فى الدولة، فقد قبض عليه السلطان محمود الغزنوى وصادر أمواله سنة ٤١٢هـ بسبب استغلال نفوذه[٤].

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٢٦١.

(٢) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة، ص ٣٣ ـ ٣٦.

(٣) خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٠٤

(٤) تاريخ البيهقى، ص ٦٤

ومن الوزراء الكبار أحمد عبد الصمد وعبد الرازق بن أحمد حسن الميمندى(١).

ومن أشهر وزراء الدولة العباسية الوزير نظام الملك، ولى الوزارة للسلطان ألب أرسلان ثم ملكشاه من بعده، وسيطر على ملكشاه، وفوضه حكم الدولة كلها، وأصبح الحاكم الفعلى لإمبراطورية مترامية الأطراف، وحكم هذه الدولة بالعدل والحزم والحكمة، وقام بإصلاحات عديدة، تحسنت بفضلها أحوال الناس، مثل تعديل مواعيد جباية الخراج، بحيث تتمشى مع مواعيد جنى المحصول، وحقق المعيشة الطيبة لجنده من خلال الإقطاعات التى أقطعها لهم، واهتم برعاية العلماء وطلاب العلم، وأسس المدرسة النظامية فى بغداد، وعلى غرارها أنشأ مدارس أخرى فى أنحاء الدولة، وكان سنيا متشددا، لذلك تتبع الإسماعيلية ونكل بهم، وعمَّ الرخاء والأمن والسلام ربوع الدولة، وصنف كتابا فى السياسة يسمى «سياسة نامة» وهو مرجع هائل فى سياسة الرعية والعلاقات الدولية(٢).

ساءت العلاقات بين ملكشاه ونظام الملك بسبب تدخل نظام الملك فى ولاية العهد، فعزله ملكشاه ولم يلبث أن اغتال بعض الإسماعيلية نظام الملك سنة ٤٨٥هـ(٣).

* * *

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول وزارة تنفيذ، أى أن الوزير يرجع إلى الخليفة فى كل شئون الدولة، ولا ينفرد بمباشرة أمر من الأمور إلا بعد الرجوع إلى الخليفة، وكان الوزراء من رجال المال، ومن وزراء العصر الفاطمى الأول، الوزير يعقوب بن كلس كان يجلس للمظالم بعد صلاة الصبح من كل يوم، وضعف شأن الوزير بعد ابن كلس، حتى أصبح يطلق على الوزارة اسم «الوساطة». ومن وزراء ذلك العصر أو الوسطاء على بن جعفر بن فلاح الذى لُقب وزير الوزراء، ذا الرئاستين، وعلى بن أحمد الجرجرائى، وصدقة بن يوسف الفلاحى(٤).

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٦٧.

(٢) عصام الدين الفقى الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق.

(٣) خواندمير دستور الوزراء، ص ٣٥٨.

(٤) محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية، ص ١٤٢ ، ١٤٣

وازداد نفوذ الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى، فاستدعى الخليفة المستنصر بدر الدين الجمالى - والى عكا - لإنقاذ مصر من التدهور الذى حل بها، وفوضه أمور الدولة كلها، بمعنى أنه أصبح وزير تفويض، وخلفه ابنه الأفضل بن بدر الجمالى فى الوزارة. وقبض على شئون الدولة السياسية والعسكرية والمالية والإدارية، وأصبح الخليفة مسلوب السلطة فى عهده وكان لا يولى إلا الخليفة الضعيف حتى يكون ألعوبة فى يده.

وظل نفوذ الوزراء فى ازدياد حتى وليها شاور وضرغام فى أواخر العصر الفاطمى، واستعان شاور بنور الدين محمود - سلطان الشام - ضد خصمه ضرغام، على حين استعان ضرغام بالصليبيين، وانتهى هذا النزاع بدخول صلاح الدين الأيوبى مصر، وأعاد مصر إلى حوزة الدولة العباسية.

وفى مصر المملوكية، حل منصب نائب السلطان محل منصب الوزير، وفى الأندلس كان الحاجب هو رئيس الوزراء ويعمل معه عدد من المعاونين يشرفون على الخطط، مثل خطة البريد، وخطة الشرطة، وخطة النظر فى الثغور، وخطة الجيش، ويسمى الواحد منهم حاجبا.

* * *

الكُتَّاب :

يضم الجهاز السياسى فى الدولة الإسلامية : الخليفة والوزير والكاتب والحاجب. والكاتب يلى الوزير فى الأهمية، وقد يصل إلى منصب وزير إذا برزت مكانته. وطائفة الكُتَّاب من أهل البلاغة والفكر والأدب والعلم والتاريخ والجغرافيا وعلم الكلام، ولهذه الطائفة منزلة رفيعة فى المجتمع، ولابن قتيبة كتاب يسمى «أدب الكاتب» يذكر أن طائفة الكتاب شغفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة والكون ومعالمه، إذ كان الكتاب من عوامل نشر الثقافة الرفيعة؛ لأن رسائلهم ومؤلفاتهم رفعت المستوى الفكرى فى المجتمع الإسلامى، وقال رجل

لابنه : «يا بنى تـزىَّ بزى الكتّـاب، فإن فيهم أدب الملـوك، وتواضع السوقة»[1]، وقيل : عقول الرجال فى أطراف أقلامها[2].

وكتّاب الدولة يـشرفون على المكاتبـات الرسمية فى دواوين الدولـة، ومنهم كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجنـد، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضى. ومهمة كـاتب الرسائل كتـابة الرسائل السـلطانية والمراسـم التى تصدر معـتمدة من الخليفة بعد مراجعتها وختمها ثم يعـلنها. وكان يجلس مع الخليفة أو قاضى القضاة أو أمير الأمراء للنظر فى المظالم، وتدوين الأحكام وختمها بخاتم الخليفة[3].

وكاتب الرسائل له مكـانته بين الملوك والسلاطين والأمراء، ويكتب الرسائل باسم الخليفة ونيابة عنه.

وطبقة الكتـاب من أرفع طبقات المجتمع، والكاتب قـد يلى الوزارة، لذلك يختار لهذا المنصب أهل المروءة والمكانة المـرموقة فى المجتمع وأهل العلم والبلاغة؛ لأنه معرض للنظـر فى أصول العلم فى مجالس الملوك،ويـجب أن يكون ذا معرفة بوزن العملـة والحساب والأحكام الشرعية، والـفقه والطب والكيمـياء، فضلا عن وجـوب تحلـى الكـاتـب بمكـارم الأخـلاق، ويجـب أن يكـون ذا درايـة بأسـرار البلاغة،وفـن المراسلات، وكان كاتب الرسـائل فى دول المشرق الإسلامـى يسمى الدويدار[4].

قلنا: إن الـكاتب قد يلى الوزارة، مثـل أبو الوزير، الذى كان كاتبـا، وعيَّنه الخليفة المتوكل وزيرا، بعد أن كان كاتبـا، واتخذ الخليفة المقتدر بن الفرات وزيرا، بعد أن كان كاتـبا، وكثيرا ما كان الخلفاء يـعتمدون على الكتاب فـى قيادة الجيوش مثل : محمد بن سليمان الكاتب الذى تخلص من الحسين[5] بن زكرويه القرمطى، كما قضى على الدولة الطولونية[6]، وولى ابن العـميد الوزارة لبنى بـويه، بعد أن كان كاتبا، وكذلك الصاحب إسماعيل بن عباد الذى كان كاتبا ثم ولى الوزارة.

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار، جـ ١ ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق : ص ٤٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨.

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٢٩٤.

(٦) المصدر السابق، حوادث سنة ٢٩٢.

ومن أبرز كتاب الرسائل فى العصر العباسى محمد بن عبد الملك الزيات فى عهد الخليفة الواثق، وهو الذى كتب البيعة بولاية العهد للمتوكل[1].

والعصر العباسى الأول، عصر علم وأدب وفكر، وانعكس ذلك على جماعة الكتاب، لذلك شهد ذلك العصر جماعة من الكتاب بلغوا مقدرة كبيرة فى فن الكتابة، وتركوا مؤلفات قيمة، ومنهم يحيى بن خالد البرمكى، والفضل بن الربيع فى عصر هارون الرشيد والفضل والحسن ابنا سهل، وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون، وأحمد بن المدبر والحسن بن وهب فى عهدى المعتصم والواثق[2].

ووضع عبد الحميد بن يحيى الكاتب منهج الكتابة لمن وليها بعده، وكتب الرسائل إلى الكتاب، جاء فيها : «جعلكم الله فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم.. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون.. والكاتب يجب أن يكون حليما فى موضع الحلم، مقداما فى موضع الإقدام، مؤثرا للعدل والعفاف والإنصاف، كتوما للأسرار وفيا عند الشدائد.. قد نظر فى[3] فن من فنون العلم فأحكمه، يعرف بحسن أدبه وقوة ذاكرته، وعاقبة ما يصدر عنه، يعد لكل أمر عدته وعتاده، وينصح عبد الحميد الكاتب الكتاب بالتفقه فى الدين وصنوف الآداب، والمقدرة اللغوية والإنشائية وإجادة الخط ورواية الشعر، ومعرفة غريب المعانى وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، وعليهم بالتزود بعلم الحساب، فإنه قوام كتّاب الخراج ويدعونهم إلى تجنب المطامع الدنيوية والرذائل الخلقية لأنها تفسد الكتاب[4]. وقد بُدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد؛ لأن لهما منهجا فى الكتابة من حيث السجع والديباجة والأسلوب لا يقارن بمن جاء بعدهما.

ومن أبرز كتاب الدولة الإسلامية : الجاحظ، نشأ فى البصرة من عامة الناس، وكوّن نفسه فيها تكوينا علميا، من خلال تردده على مجالس العلماء، وعلى دكاكين الوراقين، وكان واسع الاطلاع، وكتب العديد من الكتب مثل «البيان والتبيين» و«الحيوان» وكلها دوائر معارف، لأنه تكلم فيها عن عادات الناس

---

(١) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية، ص ١٤١.
(٢) شوقى ضيف : الأدب العباسى، جـ ١ ص ٥٨٦.
(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٨، ٢٤٩.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٠.

وأزيائهم ومستوى المعيشة، ووصف طوائف الناس وأخلاقهم وثقافتهم وخصائصهم مثل المعلمين والتجار والنساء والقيان، وتتضمن كتبه أشعارا ونوادر وحكما عقلية، كتبها بأسلوب غنى بصياغته. أهدى كتابه «الحيوان» إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فأعطاه خمسة آلاف دينار، وأهدى كتابه «الزرع والنخيل» إلى إبراهيم بن العباس الصولى، فأعطاه خمسة آلاف دينار[1].

والجاحظ فى كتاباته ينقل القارئ من نادرة إلى وصف لأحد معاصريه إلى آيات الله والأحاديث النبوية، وينقلنا إلى شعر أو معلومة كلامية أو معلومة عن الفلك، أو أقوال بعض العلماء والحكماء إلى وصف لعادات المجوس، إلى معارف عامة متنوعة مفيدة للقارئ ومثقفة له، وتولى ديوان الإنشاء فى بغداد فترة محدودة[2].

ومن كبار كتاب العصر ابن قتيبة ـ الذى أشرنا إليه ـ وله الكثير من الكتب، فهو يحمل على الجاحظ وعلماء الكلام والمعتزلة والفلاسفة، وله كتب فى الفقه ودلائل النبوة وغريب القرآن وغريب الحديث، وتتضمن كتبه مختارات من الأدب الفارسى مع مقتطفات من الآداب العربية، ومختارات من الثقافات اليونانية والهندية. ويتجلى ذلك فى كتابه «عيون الأخبار».

تدور كتب ابن قتيبة على تحبيب اللغة العربية وآدابها إلى الدارسين، ومن أقواله : «من أراد أن يكون عالما فليتخصص فى فن واحد، ومن أراد أن يكون أديبا فعليه أن يتوسع فى سائر العلوم».

تطور فن الكتابة فى الدولة الإسلامية، وكل من تثبت كفاءته يرقى إلى أعلى المناصب فى دواوين الدولة، وقد يصبح واليا أو وزيرا أو رئيسا لبعض الدواوين. وأقبل الناس على طلب التعيين فى وظيفة كاتب حتى ينالوا الشهرة والجاه والرخاء. ولكن لا يمكن لأحد أن يلتحق بهذه الوظيفة إلا بعد اجتياز امتحان عسير.

والكاتب يخاطب الرعية، لذلك يجب أن يكون أسلوبه واضح فيه جمال فنى وديباجة قوية، وأسلوب قوى سليم، وعبارة قوية، وعليه أن يحسن كتابة نداءات الخليفة أو الوزير إلى الرعية، وكتابة الكتب التى يرسلها الخليفة أو الوزير إلى الولاة والعمال، وعليه أن يكون عارفا بصيغ القرارات الرسمية والرسائل

---

(١) كرد على : أعلام الإسلام، ص ٨٦.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء، جـ٤، ص ٢٢٥.

والجهاد في سبيل ...

بين الدولة من ...

أن الخليفة المستكفي ...

من السلطان المتوكل ...

التي خطبة الجمعة ...

وحدثهم بإحياء الخلافة ...

وفي ٤ شعبان ...

تفويضا أكسبه قيد أمر ...

والحكم .

كانت مهمة الخليفة ...

مثل تفويض ...

والظهور مع السلطان ...

العلماء ، وكان بعض ...

من الخليفة بالحكم ...

وأحيانا لا يتجاوز ...

قرها الذي نشأته ...

شرابها في القاهرة ...

بعد اقتلاعها من ...

مرحلة من ...

تنسجم مع هذا القسم ...

ظلت الخلافة ...

سنة ١٥١٧ ، ...

إلى ولاية عثمانية ...

الأستانة .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

ومن أبرز وأعلم الكتاب أبو العباس القلقشندى، برع فى القصة والأدب، وكتب فى الإنشاء، وعمل فى قوانين الإنشاء أربع مجلدات، وتوفى سنة ٨٢١هـ، وُلد فى قلقشندة مدينة من مركز طوخ بالقليوبية قرب القاهرة، عُرف بالبر ومحبة أهل العلم، يسعهم بخلقه وعلمه وماله، وهو من أصل عربى، وكان لأهله الرئاسة على هذا الإقليم، تربى تربية علمية سليمة، ثم رحل إلى الإسكندرية وأقام بها مدة من عمره فى طلب العلم على مشهورى العلماء فى زمانه، واشتغل فى أثناء ذلك بفنون اللغة العربية والأدب، وأجازه شيوخه بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى ورواية كتب الفقه والأدب، وجلس لتدريس الفقه، وأتاح له التدريس فى الفقه وضع بعض الكتب، واختير للعمل فى ديوان الإنشاء سنة ٧٩١هـ حيث ألف كتابه «صبح الأعشى» وهو أهم كتبه.

يتضمن كتاب «صبح الأعشى» فى المقدمة آداب مهنة الكتابة والتعريف بديوان الإنشاء وثقافة كاتب الإنشاء وثقافة الكاتب الجغرافية والتاريخية، وخصوصا وصف مصر : نيلها وأقسامها الإدارية، والموازين والمكاييل والعملة وأحوال مصر الاجتماعية فى عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك، ووصف الديار الشامية، والمملكة الحجازية، وكتب عن الثقافة الديوانية،وكيفية كتابة الملخصات والمقدمات والخواتيم فى المكاتبات، وتحرير المكاتبات، والأصول العامة للكتابة، ومصطلحات الكتابة العربية، وكتب عن الولاية على البلدان والبيعة والوصايا الدينية والمسامحات والإطلاقات وفى الإقطاع والقطائع، وكتب عن الإيمان، وكتب الأمان، وعقود أهل الذمة، وكتب الهدنة، والكتب غير الديوانية.

الحاجب :

لم تكن مهمة الحاجب إدخال الناس على الخليفة حسب مراتبهم فقط، بل كان بحكم قربه من الخليفة يستشيره فى مهام الأمور، وكان الحاجب لا يسمح لأى فرد بمقابلة الخليفة، إنما يسمح فقط لمن له أمر هام عند الخليفة، واتخذ العباسيون بيوتا ملحقة بالقرب من قصورهم، يقيم فيها ذوى الحاجات، حتى يسمح لهم بالدخول.

على أن الخليفة الرشيد أمر حاجبه، الفضل بن الربيع ألا يمنع الناس من الدخول عليه، وأدى اقتراب الحاجب من الخليفة إلى ازدياد نفوذه فى الدولة، وبالتالى تدخله فى تولية الوزراء وعزلهم، وقد يخشى الحاجب على نفوذه من

ازدياد نفوذ الوزير، فيوقع بينه وبين الخليفة، كما حدث لنصر الحاجب الذى تسبب فى عزل ونكبة الوزير ابن الفرات فى عهد الخليفة المقتدر. كما أن أبا ياقوت الحاجب تسبب فى عزل الوزير ابن مقلة[1].

وذكر الخليفة الواثق، أنه يريد حاجبا سمحا، محببا إليه وإلى الناس، حلو الكلام، حسن المظهر.

وازداد نفوذ الحاجب نصر وابنه محمد وقادا الجيوش لقمع الاضطرابات الداخلية، ولإخضاع أعداء الدولة مثل القرامطة.

وازداد نفوذ حجاب القصر فى أواخر عصر الدولة العباسية، وكانوا يتولون فى القصر وظائف مختلفة، مثل أستاذدار، والمشرف على القصر، والدويدار، الذى ينقل أوامر ورسوم الخليفة إلى الرعية والمسئولين، ويعرض عليه البريد.

وكان الحجاب فى القصر يتنافسون حول السيطرة على الخليفة وعلى شئون الحكم، ومن هنا ساءت علاقتهم بالوزراء، وتآمروا على الوزير القمى لقوة بأسه، وتحديده لنفوذهم، وتخلصوا منه، وكانوا وراء تعيين المستعصم بالخلافة، بدلا من أخيه القوى «الخفاجى» ، والمستعصم فيه ضعف ولين، وظل التنافس بينهم قائما، ووضعوا العراقيل فى وجه الوزير مؤيد الدين بن العلقمى، وظلوا فى تنافسهم وخلافاتهم، والمغول فى طريقهم إلى بغداد، وانتهى الأمر بسقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية.

قال أمير لحاجبه: «إنك عين أنظر بها، وقد وليتك بابى وانظر إلى الرعية بعينى، واحملهم على قدر منازلهم»، وقيل : حاجب الحاكم حارس عرضه[2].

وواجه أصحاب الحاجات مشاكل كثيرة من الحجاب الذين منعوهم أو أخروهم عن الوصول إلى السلطان، وقال القائل :

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنوات، ٣١٢، ٣١٨، ٣٢٤.

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار، جـ ١ ص ٨٢.

سأترك بابا أنت تملك إذنه ... وإن كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بواب الجنان تركتها ... وحولت رجلى مسرعا نحو مالك

وقال أبو العتاهية فى نفس المعنى(١) :

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالم ... سأصرف وجهى حيث تبقى المكارم
متى ينجح الغادى إليك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم

وقال أعرابى حاول الدخول على السلطان ومنعه الحاجب(٢) :

أدخلت قبلى قوما لم يكن لهم ... من قبل أن يلجوا الأبواب قدامى
لو عد بيت وبيت كنت أكرمهم ... بيتا وأبعدهم من منزل الذام
فقد جعلت إذا ما حاجتى نزلت ... بباب دارك أدلوها بأقوام

* * *

النظام الإدارى :

يعتبر عمر بن الخطاب المؤسس الحقيقى للنظام الإدارى فى الدولة الإسلامية.

انقسمت الدولة الإسلامية إلى ولايات، يحكم كل ولاية والٍ مسئول أمام الخلافة مباشرة، ويتمتع بنفس سلطات الخليفة الدينية والسياسية والعسكرية. فمن واجبه إمامة الناس فى الصلاة وتبصيرهم بشئون دينهم، ونشر العدل، والنظر فى المظالم، وإدارة شئون البلاد وجباية الضرائب، والإنفاق على مرافق الولاية، مثل إصلاح الطرق ووسائل الرى والزراعة، ودفع رواتب الموظفين، وحفظ الأمن والنظام فى الولاية، والدفاع عن حدودها، وإرسال الأموال الفائضة عن نفقات الولاية إلى الحاضرة المركزية دمشق فى عصر الأمويين، وبغداد فى العصر العباسى، وتنفيذ قرارات وتعليمات وتوصيات الخليفة وإبلاغه بكل ما يجرى فى الولاية(٣).

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٨٥.
(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٩٢.
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص ٣١.

وكان الخلفاء يختارون لمنصب الوالى كل من تؤهله كفاءته لذلك، وفى العهد الأموى كان الذى يتولى هذا المنصب من العرب، أما العباسيون فكانوا يعينون الوالى القدير سواء كان عربيا أم أعجميا، وحرصوا على ألا يستمر الوالى فى ولايته مدة طويلة، حتى لا يستقل بالولاية، وحرصوا على أن يستقل القضاء عن الوالى، فالذى يعين القاضى فى الولاية قاضى القضاة فى الحاضرة المركزية، والقاضى فى الولاية يعين ولاة من قبله فى الأقاليم.

ولما كان الوالى لا يستطيع أن يحكم الولاية بشكل مباشر؛ لصعوبة المواصلات، وبعد المسافات، وتعقيد وبدائية وسائل المواصلات فى ذلك العصر، ووصول الخبر بعد وقت طويل، لذلك قُسِّمت الولاية إلى أقسام إدارية حكم كل إقليم حاكم مسئول أمام الوالى، ويتمتع بنفس سلطات وصلاحيات الوالى.

ومن الطبيعى أن يكون لدى الوالى عدد من الموظفين فى المجالات المختلفة[١].

والولاية على البلدان ـ كما حددها الماوردى[٢] ـ نوعان : إمارة استكفاء وإمارة استيلاء. أما إمارة الاستكفاء، فشتمل على عمل محدود ونظر معهود. ويعهد إليه الخليفة بأمور محددة هى اختصاصه فى الولاية، وتتضمن النظر فى تدبير الجيوش، وترتيبهم فى النواحى والمعسكرات، وتقدير أرزاقهم، وجباية الخراج، وقبض الصدقات، وتوزيعها على مستحقيها، وحماية الدين، والذب عن الحريم، ومراعاة الدين وحمايته من أهل البدع والضلالات، وإقامة الحدود، حق الله، وحق الناس، والإمامة فى الصلاة، سواء فى الجُمَع أم الصلوات الخمس، وقد ينيب من يقوم مقامه، وعليه تسيير الحجيج آمنا من ولايته، وانتظار عودته، وتعيين بعثة من الوعاظ والفقهاء والأطباء والإداريين يشرفون على شئون الحج، وأموال الحجيج[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٣ ـ ٣٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٥.

أما والى الاستيلاء وهو أن يستولى أحد الأمراء بالولاية وهو المسئول عن ولايته تماما، فلا يجوز للخليفة عزله، ومهمته تدبير الجيش وسياسة الرعية، والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام والجباية الخراج والصدقات، وليس له إقامة الحدود؛ لأنها من الأمور الخارجة عن اختصاصه، وليس له الحق فى النظر فى المظالم أو تسيير الحجيج، ومن حقه أن يستوزر وزيرا[1].

أما الإمارة الخاصة، فهى أن يقلد الخليفة الأمير الولاية، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها، وحراسة الأحكام الدينية، فيكون الأمير باستيلائه على الولاية مستبدا بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذا لأحكام الدين.

كان الوالى ينفرد بالسلطة فى ولايته أحيانا، وأحيانا أخرى يشاركه العامل، وهو عامل الخراج، الذى يختص بالشئون المالية فى الولاية، وينفق على الولاية من الضرائب التى يجمعها من الناس وعلى المرافق العامة، ويرسل الفائض إلى الحاضرة المركزية. وكان كل من الوالى والعامل عين على صاحبه، فإذا ساءت العلاقات بينهما، انعكس ذلك على أهل الولاية وبالعكس.

وفى أوائل العصر العباسى الثانى، بعد أن سيطر الترك على الولايات، فضل بعض الولاة البقاء فى الحاضرة المركزية، وإرسال نواب عنهم، فكان يارجوخ واليا على مصر، وأحمد بن طولون نائبا عنه، ولم يلبث أن ولى أحمد بن طولون حكم مصر[2]. ونفس الشيء بالنسبة لمحمد بن طغج الإخشيد[3]، وكان حكام الأقاليم فى الولاية إذا ضعف الوالى قوى نفوذهم، وكثيرا ما توصل بعضهم إلى مؤسس لدولة مستقلة قوية، فكان يعقوب بن الليث الصفار حاكما لإقليم سجستان، وانتهز فرصة ضعف الدولة الطاهرية واستعان به الأمير الطاهرى لحفظ الأمن فى بلاده والتصدى للمفسدين، ولم يلبث أن استولى على الإقليم وأملاك الطاهريين، وكون دولة على حساب الدولة الطاهرية المتداعية[4]، وكان نصر

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية، ص ٣٥.
(٢) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١٠٠
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٣٣٤هـ.
(٤) عصام الفقى : الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق، ص٩.

ابن أحمد الساماني حاكما على مدينة بخارى وانتهز فرصة ضعف الدولة الصفارية، وسيطر على بلاد ما وراء النهر وإقليم خراسان، وكون الدولة السامانية القوية[1].

سُميت أقاليم الولايات بتسميات مختلفة، ففى مصر سُمى الإقليم كورة، وفى الشام سُمى جُند، وفى العراق وفارس سُمى رُستاق، وفى اليمن مخلاف، وكل إقليم يحكمه عامل مسئول أمام الوالى، وله اختصاصاته فى إدارة الإقليم، وإمامة الناس فى الصلاة، وحماية الدين، والمحافظة على أمن الإقليم، وإصلاح مرافقه، وإدارة الإقليم بالعدل والحكمة.

انحصرت الأعمال الإدارية فى الدولة الإسلامية فى عدد من الدواوين وهى:

١ ـ **ديوان الجند**: ويختص بالشئون العسكرية، وبه سجلات بأسماء الجند وجنسياتهم وقبائلهم، وكميات الأسلحة وأنواعها، وميزانية الجيش والمعسكرات فى الدولة الإسلامية. وفيه الخطط العسكرية والخرائط التى تتضمن المسالك من بلد إلى بلد وإلى الحدود، أى إلى الثغور والعواصم،والملاحظ أن الجيش حتى عهد الخليفة المعتصم كان قوامه من العرب وكانوا يتقاضون عطاءً مقابل الاستعداد للغزو والجهاد والتفرغ له، ولما كثرت الحروب بين العرب والفرس وغيرهم، سَرَّح الخليفة المعتصم العرب من الجيش، واستبدل بهم جندا من الترك، جلبهم من بلاد ما وراء النهر، لما عُرف عنهم من الشجاعة وحسن المظهر وقوة البأس، ونقلهم إلى معسكرات خاصة فى مدينة سامرا، وتعلموا العربية، واعتنقوا الإسلام[2].

٢ ـ **ديوان المصادرات**: ويختص بالأموال المصادرة، وتُسجل فى نسختين تودع نسخة فى الديوان، ونسخة ترسل إلى الوزير المختص.

٣ ـ **ديوان الرسائل**: ويختص بالرسائل الرسمية والعقود، وكان صاحب ديوان الرسائل من أبرز موظفى الدولة، وله كاتب يرتب الكتب التى ينظرها مجلس المظالم، فإذا روجعت عرضت على الخليفة، وهناك كتاب آخرون مختصون بمكاتبات موظفى الدولة وعمالها، وآخرون مكلفون بكتابة المنشورات،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣.

(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ ٤، ص ٩.

وكتب التقليد والعهود والمواثيق، وآخرون يختصون بالكتب التى تُرسل إلى الولايات، وآخرون لمراجعة هذه الكتب، والخطاطون ومهمتهم نسخ هذه الكتب بعد مراجعتها وصياغتها، وأرشيف يتولاه الخازن لإيداع نسخة فى الديوان، وإرسال نسخة إلى الجهة المختصة، وينظم الموضوعات التى ترد إلى الديوان، ويحتفظ بسجلات التقارير والمنشورات وألقاب الولاة وكبار رجال الدولة، وأسلوب مخاطبتهم، ويحتفظ بسجلات للأحداث الكبرى فى البلاد، والمكاتبات التى ترد إلى الديوان بلغة غير عربية، يقوم المترجمون فى الديوان بترجمتها[1].

وكانت الرسائل تبدأ عادة بحمد الله والصلاة على نبيه، وتُكتب بعبارات أدبية رائعة، لذلك كان يتولى هذا الديوان أدباء وعلماء على مستوى رفيع.

٤ ـ **ديوان التوقيع** : وكانت تقدم إليه مطالب ذوى الحاجات فيرفعها صاحب هذا الديوان إلى الجهة المختصة، ويتلقى الرد عليها ويرفعها إلى صاحبها بعد كتابة توقيعه عليها، وكانت هذه التوقيعات أو التعليقات تتم بإيجاز شديد وبعبارات أدبية رائعة، كان الناس يقبلون على قراءتها بشغف شديد، مثل توقيع جعفر بن يحيى البرمكى الذى كان يلى هذا الديوان.

٥ ـ **ديوان الخاتم** : وقد أنشأه معاوية بن أبى سفيان لمنع التزوير، ويقوم هذا الديوان بختم الرسائل وتشميعها.

٦ ـ **ديوان الفض** : يقوم بفض الرسائل، ورفعها إلى جهة الاختصاص، ثم انتقل عمل هذا الديوان إلى الوزراء[2].

* * *

البريد

من الأمور التى واجهها إنسان العصور الوسطى، صعوبة المواصلات، وبطء الاتصال بينه وبين البلاد الأخرى، وهذا ما واجه الخلفاء الأمويون، ثم العباسيون؛ لأن حكم دولة مترامية الأطراف حكما مركزيا من دمشق ثم بغداد، دولة تقع فى

---

(١) حسن محمود العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ١٤٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦٤.

ثلاث قارات، وتضم ولايات واسعة تمثل اليوم دولا كبيرة متسعة المساحة؛ لذلك اتخذت الحكومات الإسلامية أسرع وسيلة ممكنة، وهى البريد، فربطوا مدينة بغداد - حاضرة العباسيين - بشبكة من المواصلات تربطها بسائر الولايات، ومهدوا الطرق التى تربطها بالولايات، وأقاموا بالطرق محطات بريدية مزودة بوسائل الراحة، وبها حصان مستريح، وهذه هى المحطة البريدية، وبين المحطة البريدية والمحطة التى تليها مسافة يستطيع الحصان أن يعبرها بسرعة وعليه صاحب البريد، وفى المحطة البريدية يستبدل العامل حصانه الذى أجهده الطريق بحصان مستريح حتى يصل إلى الولاية التى كلفه الخليفة بالذهاب إليها، وهكذا ينطلق عمال البريد من الحاضرة المركزية إلى الولايات كل يوم، ويعودون إلى الحاضرة فى أسرع وقت ممكن.

ومهمة عامل البريد هى جمع الأخبار عن الولاية - الأسعار - الأمن - جباية الأموال دون ظلم - إصلاح المرافق - الحكم بالعدل - العمل بتعاليم الدين، وعليه أن يوصل قرارات الخليفة والوزير إلى الوالى، وردود الوالى إلى الخليفة والوزير، ويقدم تقريرا مفصلا إلى الخليفة. وكان الخليفة المنصور يصر على أن يأتيه عمال البريد يوميا بالأخبار عن الولايات، وكان يسمح لعامل البريد أن يوقظه من نومه إذا حضر متأخرا، وبذلك كان الخلفاء على علم تام بما يجرى فى الولايات وبأسرع طريقة ممكنة بالنسبة للوسائل المتاحة فى تلك العصور(١).

وفى القرن الرابع الهجرى اتخذ المسلمون الجمازات لنقل البريد، وهى جمال بلخية ذات سنامين سريعة العدو وتجر عربات(٢).

واستخدم المسلمون الحمام الزاجل، وأول استعمال له فى البريد كان فى الموصل، واستعانوا به فى نقل الرسائل أثناء غارات القرامطة لبلاد الإسلام، وانتشرت أبراج الحمام الزاجل فى جميع أنحاء البلاد، وترجع أهميته إلى سرعته، فكان يطير لمدة ثلاث عشرة ساعة بدون انقطاع، بسرعة كيلو متر فى الدقيقة، ويحمل الرسالة وينقل الرسائل ويعود إلى وطنه مهما بعدت المسافة، ومن مساوئ

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ١٥٨هـ.
(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية، جـ ٢، ص ٣٥٦.

نقل الرسائل بالحمام الزاجل أن العدو يمكن أن يسقط الطائر، ويعرف الرسالة، ويكتب رسالة مضللة إلى الجهة التى ستتلقى الرسالة.

وتغلب المسلمون على هذا، وكتبوا رسائلهم بلغة أشبه بالشفرة فى يومنا هذا، لا يفهمها إلا الجهة المتلقية للرسالة[١].

وكان البريد يقوم بأدوار هامة فى أثناء الفتن والاضطرابات الداخلية، كما حدث حين خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد وهو فى خراسان، فقطع البريد عن المأمون، وانقطعت عنه الأخبار، كما استطاع المهدى أن ينظم طرق البريد بين الحجاز وبغداد حتى يعلم أولا بأول ثورات العلويين، وحينما ثار الزط فى البصرة نظم المعتصم سكك البريد، بحيث تصله الأخبار بسرعة واستطاع بذلك القضاء على ثورتهم[٢].

وصاحب البريد يجب أن يكون ثقة متحفظا، كاتما للسر وسائر العورات، ويجب أن يتحلى بالصدق، حتى تكون أخباره موثوق فيها، ودقيقة وغير مضللة[٣].

* * *

الشرطة :

كان عمر بن الخطاب يقوم بالعسس ليلا، أى يتفقد أحوال الرعية، ويطمئن على المسلمين، ونظم على بن أبى طالب الشرطة، وحدد اختصاصها معاوية بن أبى سفيان، وفى العصر العباسى كان لها أهمية خاصة، فهى تحافظ على الأمن والنظام، وتمنع الاضطرابات الداخلية، وتضرب بقوة على أيدى المفسدين وقطاع الطرق الذين انتشروا على أطراف المدن وفى البوادى، وانتشرت الأهواء، وكثر العصاة والخارجين على الدين بسبب التيارات الواردة على الدولة، مثل الزندقة وغيرها، والحركات الهدامة كالبابية والمقنعية والقرامطة، وكثرت الأخلاط فى الدولة من أجناس وشعوب متباينة.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، ص ٧٣٥.

(٢) حسن محمود : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٣ ـ ٩.

وكان صاحب الشرطة من أهل العصبيـة والأسر العريقة، ويعمل تحت إمرته طائفـة من الجند، يحافظون علـى النظام، وله دور يؤدى واجبـه منه، وهو يشبـه وزير الداخلية الآن، يعيِّن عمال الشرطـة فى الولايات، ويمثلونه فى حفظ الأمن والنظام.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء، فتقوم الـشرطة بتنفيذ أحكام القضاء، وأصبح من اختــصاصها إقـامة العقـوبات على المفـسدين للأمـن فى جرائم لا تحـتاج إلى القضاء، وتحتاج إلى التـعزير، ثم انضمت إلى المحتسب فى تتبـع الجرائم، وتنفيذ أحكام المحتسب التعزيرية وأحكام القضاة أيضا.

* * *

القضاء فى الإسلام

شدد الإسلام على نشر العدالة، وحكم الناس بالعدل : **﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾** (المائـدة :٨) ووضع الإسلام الـشريعة لفـض النزاع بين الـناس، ووضع الحدود لمنـع الناس من الـتمادى فى البـاطل، والرسول هـو أول قاض للجـماعة الإسلامية ونفذ شريـعة الله فى الحكم بين الناس، ومن حقه الـتشريع إذا لم يجد نصا فى كتاب الله، وحث الرسول معاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن على العمل بكتاب الله وسـنة رسوله والاجتهاد والقـياس، وولى عمر بن الخطاب الـقضاء فى عهد أبى بكر، ولما ولى الخلافة تشدد فى مراقبة القضاة، وسيرهـم فى الناس سيرة حسنـة، والحكم بالعدل، ودعـاهم فى كتابـه المشهور إلى الـقضاة بالعلـم بمصادر التشريـع والفهم، والابتعـاد عن مواطن الشبـهات، والعزلة عن الـناس، حتى لا يحكم طبقا لعلاقته بالناس «البيِّنـة على من ادعى واليمين على من أنكر» ـ «الفهم الفهم».

وعُرف القضاة فى عـصر الراشدين والأمويين بالعدل والنـزاهة، حتى حكم أحد القضاة ضـد الخليفة عمر بن عبد الـعزيز فى نزاع على قطعة أرض بـينه وبين رجل يـهودى، واستقـل القاضـى عن الوالى، وكـان الخليفـة يعيـنه مباشـرة فى الولاية، أى كان مساويا للوالى.

شهد القضاء تطورا كبيرا فى العصر العباسي من حيث تطور التشريع، وكان القاضى قبل هذا العصر يجتهد إذا لم يجد نصاً من القرآن الكريم والحديث أو السنة، وراجت الثقافات الفارسية واليونانية والهندية، واندمجت بالثقافة العربية مكونة ثقافة وفكرا إسلاميا قويا، وازدهرت العلوم والفنون، ومن بينها علم الفقه، ودُونت أحكام السنة، ووضع الإمام الشافعى علم أصول الفقه، وظهرت المذاهب الفقهية فى هذا العصر، ومن أهم هذه المذاهب مذهب الإمام أبى حنيفة، وهو أول من رتب أبواب الفقه، واستنبط أحكاما لحوادث لم تقع معتمدا فى الغالب على القياس، لذلك فالإمام أبو حنيفة إمام أهل الرأى والقياس.

ومن أئمة المذاهب الإمام مالك، وكان يعتمد على الحديث أكثر من أبى حنيفة، وثالث هؤلاء الأئمة الشافعى جمع بين أهل الحديث والرأى، ورابع هؤلاء الأئمة الإمام أحمد بن حنبل، وكان يعتمد على الحديث أكثر من اعتماده على الرأى. هذه هى المذاهب الأربعة التى شكلت أسس وقواعد التشريع الإسلامى فى العصر العباسى.

وكان قاضى القضاة يعين القضاة على الولايات، والقاضى على الولاية يعين قضاة على النواحى، وإليه ترجع السلطة القضائية فى الولاية كلها، ولعل منشأ هذا أن الخصومات كانت قليلة، والقضاء أشبه بالإفتاء، فكان كل قاض يفتى ويحكم بالمذهب الذى يعتنقه هو وأهل ولايته، وكان فى الغالب على مذهبهم، وكان القاضى فى العراق يحكم طبقا لمذهب أبى حنيفة وفى المغرب والأندلس مذهب مالك، وفى الشام ومصر مذهب الشافعى، وقد ينيب القاضى عنه نائبا يحكم بين متخاصمين على غير مذهبه.

وكان كبار أئمة الفقه يرفضون منصب القضاء مثل القاضى أبو حنيفة والإمام مالك حتى لا يقفا إلى جانب حاكم قد يظلم الرعية، وكثيرا ما نقض الخلفاء العباسيون عهودا وقع عليها القضاة، بل وأفتى القضاة بجواز نقضها. وقد استحدث العباسيون منصب قاضى القضاة ـ وهو يشبه وزير العدل فى أيامنا ـ ومن اختصاصه تعيين القضاة فى الولايات، وتفقد أعمالهم فى الدولة الإسلامية.

وأول قاضى قضاة فى الإسلام هو القاضى أبو يوسف، حيث ولى القضاء فى عصر الخليفة الرشيد.

ولم تكن مهمة القاضى فى عهد العباسيين الفصل فى الخصوم فقط، بل النظر فى الدعاوى والأوقاف، وتنصيب الأولياء، ولتيسير القاضى فى الولايات أصبح فى كل ولاية أربعة قضاة على المذاهب الأربعة يلجأ المتخاصمان إلى القاضى الذى يدين بمذهبهما.

ومن أهم الدعائم التى يعتمد عليها القاضى هى الشهادة، وشهادة العدول، وحرص القضاة على التأكد من سيرة الشهود ونزاهتهم، وكان بعض القضاة يتحرى بنفسه عن الشهود ويكتب قائمة بأسماء الشهود العدول، والشهود غير الموثوق بهم، حتى لا يضلل القاضى فى حكمه.

كذلك تأثر القضاة فى هذا العصر بالسياسة، لأن الخلفاء العباسيين أرادوا أن يضفوا على أعمالهم الصفة الشرعية، فسعوا إلى إرغام القضاة على السير وفق أهوائهم، والفتيا لتحقيق رغباتهم، حتى امتنع كبار الفقهاء عن تولى القضاء حتى لا يضطرهم الخليفة للإفتاء بما لا يرضى الله، لذلك اعتذر الإمام مالك بن أنس، وكذلك أبو حنيفة عن تولى منصب القضاء فى عهد المنصور، وقال : «ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب»، وقد يضاف إليه الحسبة والشرطة والمظالم ودار الضرب وبيت المال.

ومن اختصاص القاضى الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد فى المسجد الكبير، والدعاء فى صلاة الاستسقاء.

وفى العصر العباسى الثانى تطرق الفساد إلى القضاء كما تطرق إلى أجهزة الحكم، فكان القاضى يلى منصبه بالرشوة ويحكم لصالح من دفع.

وكان لقاضى القضاة فى بغداد ديوان يعرف بديوان قاضى القضاة، ومن أشهر موظفى هذا الديوان الكاتب والحاجب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحكم وأعوانه، واقتضى تطور نظام القضاء فى هذا العصر التحرى عن الشهود، وكان القاضى يرتدى السواد شعار العباسيين، ويغطى رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة، وتلبس مع الطيلسان.

أما القضايا التى بين المسلمين وأهل الذمة فيفصل فيها قضاة مسلمون، وأما القضايا التى بين أفراد من أهل الذمة فيفصل فيها الشيوخ من أهل ملتهم.

ومن شروط ولاية القضاء أن يكون رجلا حرا لم يصدر ضده حكم، وأن يكون صحيح التمييز، يتوصل بذكائه إلى ما أشكل، وفصل ما أغفل، وأن يكون مسلما ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ (النساء : ١٤١) والعدالة، وهو أن يكون صادق اللهُجة ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم متوقيا المآثم، بعيدا عن الريب، مأمونا فى الرضا والغضب، والسلامة فى السمع والبصر، ليستطيع إثبات الحقوق دون خطأ، ويفرق الطالب والمطلوب، ويميز المضر المنكر ليتميز له الحق من الباطل، ويجب أن يكون عالما بالأحكام الشرعية، عالما بالفقه وأصوله مجتهدا فى استنباط الأحكام[١].

ديوان المظالم :

وإذا تظلم بعض الأفراد من حكم القاضى أو من قرار أصدره الوالى جاز لهم الالتجاء إلى ديوان المظالم ورفع الشكوى إليه، لذلك فالناظر فيها يجب أن يكون جليل القدر عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، وأن يكون نافذ الأمر، لذلك فوالى المظالم إما أن يكون الخليفة أو ولى العهد أو الوزير حتى يكون حكمه نافذا على القاضى، ولا تأخذه فى الحق لومة لائم، وجلس للمظالم من خلفاء بنى العباس المهدى والهادى والرشيد والمأمون والمهتدى، وتعقد محكمة المظالم عادة وبها خمس هيئات:

١ ـ **الحماة والأعوان** : لمنع اللجوء إلى العنف، أو الحيلولة بين بعض الأفراد الذين يحاولون الفرار من المحكمة.

٢ ـ **الحكام** : ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من أحكام لتطبيقها، والعلم بما يجرى بين الخصوم للإلمام بشتى جوانب الحكم، وكل ما على المتخاصمين من أحكام.

٣ ـ **الفقهاء** : وكانوا المرجع الذى يرجع إليهم صاحب ديوان المظالم قبل إصدار حكمه.

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ ٣.

٤ ـ **الكُتّاب** : ويقومون بتدوين أقوال الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق وتدوين الأحكام.

٥ ـ **الشهود** : ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل.

وكان والى المظالم ينظر فى القضايا والتظلمات التى يقيمها الأفراد ضد الولاة إذا ظلموهم، وعمال الخراج إذا بالغوا فى جمع الأموال، وعمال الدواوين إذا لم يعدلوا فى تقدير ما عليهم من ضرائب، والعمال والجند فى تأخر أرزاقهم، والقاضى والمحتسب إذا عجز عن تنفيذ أحكامه، أو بالجملة شكوى المسئولين إذا خالفوا أحكام الشرع فى أعمالهم، وتعرضوا للناس بالظلم والجور، وبذلك فإن وظيفة قاضى المظالم هى إرساء قواعد العدالة وتطبيقها وإنصاف المظلومين من الرعية وتطبيق أحكام الإسلام[1].

والقاضى يتعرض دائما لأشد أنواع القضايا تأثيرا فى المجتمع وهى الجرائم، وهى محظورات شرعية، ولها أحكام حددها المشرع الحكيم.

والحدود زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب الجرائم المخلة بالمجتمع، فجعل هذه الحدود ردعا لذوى الجهالات من ألم العقوبة وخيفة من نكال الفضيحة، ليكون ما خطر من محارمه ممنوعا، وما أمر به من فروضه متبوعا فيسود السلام والأمن والطمأنينة بين المسلمين **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[2] يعنى فى استنقاذهم من الجهالة وإرشادهم إلى الهدى، وكفهم عن المعاصى وحثهم على الطاعة. والزواجر حد وتعزير. أما الحد فهو حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين؛ لأن مرتكب الجرائم لم يلتزم بما أمر الله به، كما أساء إلى حقوق الغير واعتدى على حرماته، وقد حدد المشرع العقوبات ضد مرتكبى الجرائم : السرقة والقتل والزنا وقطع الطريق، وهى الحدود، وهى واضحة فى القرآن الكريم، وطبقها الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ ٣.

(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧.

وأما التعـزير فهو تأديب عـلى ذنوب لم تشرع فيـها الحدود، ويختلـف فيها حكمه باختلاف حاله، وحال فاعله. فـهو تأديب وإصلاح وزجر، يختلف بحسب اختلاف الذنب، ويجوز الشفاعة فى الـتعزير ولا يجوز فى الحد لأنه من أمر الله، والتعزير قد يكـون ضربا بالعصا أو السجن يوما أو بـعض يوم أو شهرا أو أكثر أو نفيا حسب نوع العمل الذى قام به أو غرامة مالية.

المحتسب :

الحسبة هى أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، قال تعالى : ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾[1].

والمحتسب هو المسئول فى الدولة العباسية عن تنفيذ كل ما ورد فى هذه الآية، أى محـاربة المنكرات والمفاسد، والسعى إلى الـعمل الطيب ليحل محـل الأعـمال التى لا تتمشى مع تعاليم الإسلام. والمحـتسب يقيم فى بغداد، وفى كل ولاية من قبله محتسـب، وكل محتسب له أعوان، وله أن يعزر ويعاقب عـلى المنكرات التى تدخل فى حدود اختصاصه، وهى منكرات ظاهرة لا تتجاوز إلى الحدود.

وعليـه مراقبة المسـاجد من حيث نظـافتها وإقامـة الشعائر والأذان والخـطبة والدروس الدينية، ومراقبة طهارة دورات المياه ونظافتها[2].

ويشرف المحتسب على الأسواق؛ لمنع الغش فى الموازين والمكاييل والمقاييس والسلع المعروضة، ويراقب الأسعار، كما يراقب السلع الغذائية ويفحصها، ويتأكد من سلامتـها وعدم غشها، ويراقب المـطاعم ويتأكد من نظـافتها ونظافة الطـباخين وخلوهم من الأمراض، وعليه أن يمنع أصحاب البنايات من التعدى على الطريق، ويمنع ركاب الخيول من الجرى بسرعة فى الشوارع، مما قد يتسبب فى ضرر لبعض المارة أو موتهم، وعليه أن يتفقد الكتاتيب لمـنع معلمى الصبيان من ضرب التلاميذ ضربا مبرحـا، وعليه أن يمنع النـاس من الإخلال بآداب الطريق كالـسب والقذف والتشـاجر والمعاكـسات بين الرجـال والنساء، ومـا قد يحدث مـن إخلال بالآداب العامة، وعليه منع المرأة من الخروج فى الـشارع سافرة، ويمنع الناس من الإفطار فى شهر رمضان أو عدم الصلاة إذا نودى بها[3].

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٤.

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية.

(٣) ابن الأخوة : نهاية القربة فى طلب الحسبة

ومن واجب المحتسب زيارة البيمارستانات للتأكد من نظافتها وحسن معاملة المرضى ورعايتهم. وعليه أن يراقب المخازن والمعاصر ومصانع الحلويات، وعليه أن يراعى الآداب العامة فى الحمامات وعدم الغش فى العملة، ومن حقه التعزير لمعاقبة المخالفين.

وعلى المحتسب أيضا أن يتابع حركة تجار الرقيق، ويراجع دفاتر تاجر الرقيق للتأكد من أن الرقيق المعروض للبيع غير مسروق أو مخطوف، ويتأكد من خلو المواشى المعروضة للبيع من الأمراض، ويتأكد من دفاتر التاجر بأنها غير مسروقة.

والحسبة عموما، منها ما يتعلق بحقوق الله تعالى، والثانى بحقوق الآدميين، والثالث مشترك بينهما.

وحقوق الله تعالى مثل ترك الجمعة أو خطأ المؤذن أو خطيب الجمعة فى قراءات القرآن أو الأذان، أو ذكر أحاديث غير صحيحة، وأحكام غير واردة أو الإفطار علنا فى شهر رمضان أو التجارة واللهو فى وقت صلاة الجمعة.

وحقوق الآدميين مثل إعادة تعمير سور المدينة إذا حل به الخراب، أو البيوت إذا تهدمت، وعليه بعمارة المساجد إذا خربت. وكل هذه النفقات من بيت المال، وعليه أن يعطى نفقة لابن السبيل،وعليه أن يعيد الحقوق إذا تعطلت، والديون إذا أُخِّرت، وإذا جاهر رجل بشرب الخمر عليه أن يعاقبه إذا كان مسلما، وعليه أن يمنع الجار من التعدى على جاره أو حريم جاره.

وعلى الصناع إتقان عملهم وعدم الغش فى الصنعة، ويراقب الحاكة والصاغة والقصابين، ويتأكد من إتقان عملهم دون إجحاف بالناس. وعليه أن يمنع أصحاب المواشى من تحميلها ما لا تطيق، وعليه أن يمنع أصحاب السفن من تحميلها فوق طاقتها، والتفريق بين الرجال والنساء داخل السفينة.

ويأمر المحتسب أصحاب الحمامات بنظافتها وإصلاحها وتغيير مائها وتطهيرها بالمواد المطهرة مرارا طوال اليوم، وأن يدلكوا البلاط والأحواض جيدا، ويستعمل البخور مرتين فى اليوم(٢).

---

(١) ابن الإخوة : نهاية القربة.

(٢) انظر ابن الإخوة : نهاية القربة.

والخلاصة: إن المحتسب يمنع كل مظاهر الفساد فى المجتمع، ويحافظ على حقوق الأفراد من تعديات الغير، ويمنع الناس من ارتكاب الحرمات، وما يخالف تعاليم الدين وقواعد الآداب العامة، والمحافظة على النظافة والطهارة.

النظام الحربى:

نظم الرسول حركة الجهاد التى فرضها الإسلام، واهتم بتنظيم فرق الجيش وحسن إعدادها للقتال ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص**﴾[1] وكانت المبارزة هى الأسلوب المتبع فى القتال، وتطور فن القتال فى عهد الخلفاء الراشدين، حتى حارب المسلمون دولا كبرى تفوق جيوشهم جيوش المسلمين، ولكن بحسن الإعداد ودقة الخطط أحرز المسلمون على أعدائهم انتصارات هائلة، وفى العصر الأموى توالت انتصارات المسلمين، ففتحوا بلاد المغرب والأندلس وبلاد ما وراء النهر والهند وغيرها، واستفاد المسلمون من أعدائهم فى السلاح.

وزاد عدد أفراد الجيش العباسى حتى بلغ ١٢٥ ألف جندى فى بعض الفترات، وكان الجيش يتكون من العرب والمتطوعين والمرتزقة. والجندى يتقاضى راتبا شهريا قدره عشرون درهما.

والجيش يتكون من أقسام : الفرسان، وهم من العرب، ويتسلحون بالرماح، والمشاة من الخراسانيين. وفى أواخر العصر العباسى الأول انضم إلى الجيش العباسى عنصر جديد هو الترك، وأصبح الترك أشد قوة من العرب والفرس، ولم يلبث أن أصبح قوام الجيش العباسى من الترك.

وكان العباسيون يمدون الجيش بحاجته من الأسلحة، فالجيش يتألف من الفرسان والرجالة، الفرسان يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح، ويتسلح الرجالة بالدروع والأقواس والسهام والحراب.

وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية، وبخاصة فى عهد المنصور، الذى اهتم بالجيش،وكان يحب أن يعرض جنده وهو

---

(١) سورة الصف آية ٤.

جالس على عرشه لابسا خوذته، فكانت الجنود تصف أمامه فى ثلاثة أقسام عرب الشمال، وعرب الجنوب، والخراسانيين.

وكان للجيش جهاز المخابرات من الرجال والنساء، يذهب الشخص إلى بلاد العدو متنكرا فى زى الأطباء أو التجار لجمع الأخبار ومعرفة أحوال العدو.

ولما كانت حدود الدولة العباسية مع الدولة البيزنطية غير آمنة؛ لأن الروم يتحينون الفرص لشن الغارات على بلاد الإسلام، لذلك أقام العباسيون تحصينات قوية على الحدود، وهى الثغور مثل حد سورية المتاخم لآسيا الصغرى الذى تعددت فيه الحروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية، وهذه الثغور طرسوس وأذنه والمصيصة ومرعش وملطية، وحصنها المنصور وشحنها بالمقاتلة والمتطوعة، وأمدهم بالأسلحة وانهالت عليهم التبرعات من أهل الخير والصلاح(١).

وأنشأ الخليفة الرشيد ولاية جديدة سميت ولاية الثغور، أعدها إعدادا عسكريا خاصا لمواجهة العدو، وأقام فيها التحصينات والقلاع لدرء خطر العدو ومواجهته، ومنح الجند أرضا زراعية بهذه المناطق لزراعتها والانتفاع بها حتى يستقروا فى الثغور راضين مطمئنين بأرزاقهم، وبذلك عمرت هذه الثغور رغم الحروب المتعددة.

انتهز العباسيون الأوائل فرصة ضعف الدولة البيزنطية فى عصر إيرين، وشنوا غارات منظمة وفى أوقات محددة على الدولة البيزنطية، وكانت بعض الغارات الإسلامية تحدث فى فصلى الربيع والصيف، عندما تكون الخيول قد استردت قوتها بعد أن أكلت علف الربيع، وشن المسلمون غارات أخرى تسمى الشواتى فى حالات قليلة، لا يتوغل فيها المسلمون فى أراضى الدولة البيزنطية إلا فيما ندر حتى لا يتعرض الجيش للبرد الشديد.

وانضم إلى الجيش العباسى عناصر أخرى كالديلم والأكراد والسودانيون، ولكن الترك كان لهم السيطرة على الجيش فى معظم فترات العصر العباسى الثانى، وكانت أرزاقهم فى القرن الرابع الهجرى عبارة عن إقطاعات يعيشون من ريعها.

---

(١) حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٦.

ومن أهم أسلحة الجيش السيوف والخناجر والرماح والقوس وتستخدم كلها فى الطعن، ومن أعظم آلات الحرب المنجنيق، ويستخدم فى دك الحصون والأسوار وقذفها بالحجارة، والمواد القابلة للاشتعال، وهو يشبه مدفعية الميدان الثقيلة فى عصرنا الحالى[1].

وتعد الدبابة من بين أسلحة الهجوم، والدبابة هى آلة من الخشب المغلف بالجلود المنقوعة بالخل، وتتركب على عجلات، يصعد الجند إلى أعلاها للنزول على القلاع والأسوار العالية، وتستخدم لهدم أسوار العدو، وإحداث ثغرات فى أسفل الأسوار ليتيسر فتح مدن العدو[2].

وهناك الكباش، وسُميت بذلك؛ لأن رأسها رأس كبش يدفعها الجند لإحداث ثغرات فى أسوار العدو[3].

وعرف المسلمون الأسلحة الوقائية كالترس الذى يقى الجسم من ضربات العدو، وهو مصنوع من الخشب أو الحديد، والدروع من أهم الأسلحة الوقائية.

ومن شروط الانضمام إلى الجيش، وتقاضى عطاء الجند والتسجيل فى الديوان، البلوغ والحرية والإسلام، والسلامة من الآفات المانعة من القتال، فإن قلت كفاءته فُصل من الجندية.

ويرتب الجند فى الديوان حسب القبائل والأجناس حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها وكل جنس عن غيره، لذلك يضم الديوان عربًا وفرسًا وتركًا ومغاربةً وزنوجًا، ومن أهم ما عرفه المسلمون فى القتال استخدام الفيل، وهو دبابة العصر القديم، واستخدمها الغزنويون فى فتوحات الهند، وتحتاج إلى تدريب خاص، وحسن استعمال، وأحسن المسلمون استخدام الخيل وخصوصا فى العصر السلجوقى، حيث كان السلاجقة بحكم بيئتهم مدربين على استخدام الخيول،

(١) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية، جـ١، ص ٢٠١.

(٢) عطية القوصى : الحضارة الإسلامية، ص ٧٢.

(٣) أحمد عبد الرازق : المصدر السابق، ص ١٤٨.

وعرف الخوارزميون الخيول، وأتقنوا استخدامها، وكان المغول خير من استعمل الخيول فى غزواتهم، وكذلك المماليك فى مصر. وهى خيول خفيفة الحركة، تتآلف مع صاحبها، وأجرى الحسن الرماح تجاربه فى بلاد الشام واخترع البارود الذى أحدث تطورا هائلا فى الحرب.

كان لابد أن يهتم المسلمون بصناعة أسطول لمواجهة الخطر البيزنطى فى البحر المتوسط، وأنشأ المسلمون فى المدن الساحلية مصانع لصناعة السفن الحربية، وعرفت مصر صناعة السفن النيلية منذ عصر قديم، وشُحنت سفن الأسطول بالأسلحة.

اهتم الخليفة الرشيد بإقامة أسطول يعطى للمسلمين السيادة على البحر المتوسط، ويؤمن السواحل المطلة عليه من الخطر البيزنطى، فشحن السواحل بالمقاتلة، ورتب الأموال لتحقيق غايته، وأكد السيطرة العباسية على قبرص، وتم فتح جزيرة إقريطش (كريت) وبذلك عادت السيادة البحرية على شرق البحر المتوسط، لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والأندلسيين الذين سيطروا على القسم الغربى من البحر المتوسط، كما تم فتح جزيرة صقلية. وكانت الإسكندرية تزود جند الأسطول العباسى بالأسلحة والمعدات، كما أن دمياط كانت تصنع السفن من الأخشاب التى ترد عليها من جزيرة كريت.

ومن هذه الجزيرة انطلق الأسطول العباسى إلى جزر بحر الأرخبيل وسواحل الروم، وبذلك استعادت البحرية الإسلامية قوتها فى حوض البحر المتوسط[(١)].

ورجال البحرية على مراتب تبدأ من القائد حتى عمال السفن، وتنقسم سفن الأسطول إلى نوعين : البحرية وسفن الأسطول، وتشحن بالسلاح والمقاتلة وآلات الحرب.

وتعددت أنواع قطع الأسطول الحربى وهى :

الشوانى البحرية، وتعرف بالأغربة والغربان، وهى أهم قطع الأسطول ولها قلاع.

---

(١) سالم   البحرية الإسلامية، جـ ٢، ص ٣٧ ـ ٤.

والحرابى : وهى أصغر من الشوانى حجما، والطرائد جمع طريدة، وكانت تتسع لأربعين فرسا، وتشحن أيضا بالأسلحة والمعدات والمقاتلة، والمسطحات وكانت تحمل الأسلحة والمعدات. ومراكب الغيطانى والعجزى، وكانت تحمل كميات هائلة من الأسلحة والمؤن والمعدات[1]، وكان المقاتلون البحريون يستعملون أسلحة حديدية من اللتوت والدبابيس والمستوفيات، وهذه أسلحة فتاكة تستخدم فى تدمير سفن العدو وخوذات المقاتلين، واستخدموا السيوف والرماح والفئوس والأقواس والنشاب واستخدموا الكلاليب لجذب سفن العدو إليها والعبور من خلال سلالم خشبية أو حبال، والنفط البحرى، وبه مواد قابلة للاشتعال من الكبريت والنفط وغيره تطلق على سفن العدو وهى شديدة الاشتعال ولا تنطفئ بسهولة حتى لو لامست الماء، وكثيرا ما يقذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب لإحراق سفن العدو، ويتخذ المحاربون دروعا لحمايتهم من حديد أو خشب يكسى بالجلود المغطاة بالدهن والأصباغ.

وكان الأسطول يزود عادة بالمواد الغذائية من قمح وفواكه وكسوة وأدوية وأغطية وما يحتاجه البحارة فى رحلاتهم الطويلة[2].

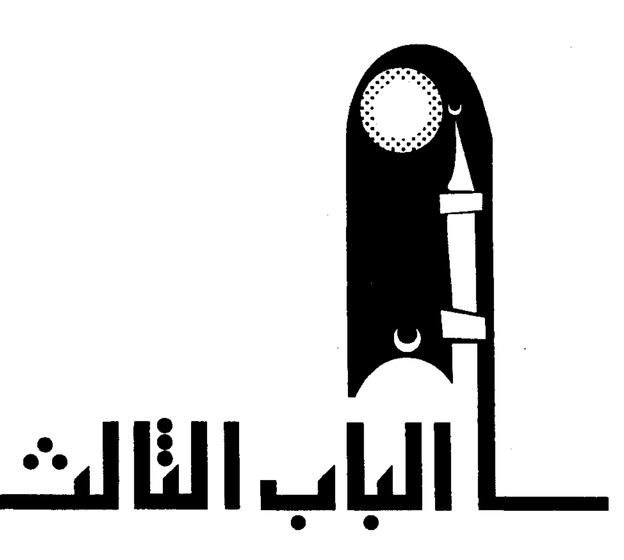
وكان الأسطول يتضمن بالإضافة إلى المقاتلة شيوخ ووعاظ لحث الناس على الجهاد، وأطباء وصناع وبحارة لتوجيه السفن للوجهة الصحيحة.

والخلاصة أن المسلمين استخدموا من الأسلحة والأدوات القتالية والأساليب الحربية ما يكفل لدولتهم الاستقرار والتصدى للأعداء، واستفادوا من تجارب الأمم الأخرى، وأضافوا إليها خلاصة تجاربهم، وأحرزت جيوشهم القوية الانتصارات الرائعة،وكونوا دولا قوية أظهرت الإسلام كأكبر قوة فى العالم، وتصدوا للقوى الصاعدة كالصليبيين والمغول، وهذا يدل على أن المسلم فى العصور الوسطى مخترع ومجرب ومفكر فى العلم والإدارة والقضاء والحرب والسياسة.

* * *

(١) المصدر السابق، ص ١٣١ ـ ١٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤ ـ ١٤٤



الباب الثالث

الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية

أولا : الحياة الاقتصادية :

الزراعة - الصناعة - التجارة - المعاملات المالية

ثانيا : الحياة الاجتماعية :

عناصر السكان - المرأة المسلمة وأثرها فى الحياة الاجتماعية - طبقات المجتمع - الاحتفالات الرسمية - المؤسسات الاجتماعية.

أولا : الحياة الاقتصادية
الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة

الزراعة :

من الطبيعى أن تزدهر الزراعة فى الدولة الإسلامية؛ لأنها تضم أقطارا أو ولايات متباينة فى درجة حرارتها أو مختلفة فى نوعية تربتها وفى مواسم أمطارها. وعُنى المسئولون باستغلال الأنهار، وإقامة القنوات التى تستمد مياهها من الأنهار، لتوصيل الماء إلى الجهات البعيدة، ولا ننسى أن الدولة الإسلامية تضم أقطارا عريقة فى الزراعة، بل من أسبق بلاد العالم معرفة بالزراعة، لموقعها على ضفاف الأنهار مثل العراق ومصر، واكتسب أهلها خبرة كبيرة فى الزراعة.

وفى الدولة العباسية استخدم الأسلوب العلمى فى الزراعة، ودرسوا الوسائل التى تؤدى إلى خصوبة الأرض، وأنواع النباتات، ونوعية التربة التى تصلح لكل نبات، ورُشحت المستنقعات بنظام دقيق[1].

وفى إقليم مرو بخراسان أقام المسئولون ديوان الماء، ينظم حركة الرى فى خراسان، ويعمل فى هذا الديوان أكثر من عشرة آلاف رجل، وأُقيم سد جنوب مرو، يشرف عليه أربعمائة غواص يعملون ليلا ونهارا[2].

وكانت الأقاليم التى تقع شرقى فارس تكثر فيها النهيرات والجداول التى ينحدر ماؤها من المرتفعات بعد سقوط الأمطار، لذلك اقتضت الضرورة جمع مياهها من جوف الأرض، وذلك بإنشاء قنوات فى جوف الأرض عليها قناطر، مثل نيسابور التى كانت تجرى قنواتها تحت الأرض وكان بها الكثير من مجارى المياه، بعضها يستخدم فى رى البساتين والبعض الآخر يستخدم فى مد البيوت بالماء[3].

وكانت الأرض فى جنوب العراق مالحة وتحتاج إلى إزالة الطبقة المالحة من عليها، حتى يمكن زراعتها، واستخدم ملاك الأراضى الزنوج المجلوبين من الصومال وزنجبار فى استصلاح الأراضى[4].

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، ص ٣٦٤.
(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم، ص ٤٥.
(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضاة الإسلامية فى الشرق، ص ١٣٠.
(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٣٣١.

تنوعت المحاصيل الزراعية فى الدولة الإسلامية، وأصبحت الدولة الإسلامية تنتج جميع الحبوب التى تحتاجها بل وتزيد عن حاجتها، كما أنتجت الخضراوات وأنوع الفواكه.

ومن عوامل استقرار الزراعة، نظام ملكية الأرض الذى قرره الخلفاء الأوائل فى الدولة الإسلامية، فلم يقسم عمر بن الخطاب الأراضى الزراعية الواسعة التى آلت إلى المسلمين بعد الفتح؛ لأنه أراد أن تكون موردا ماليا ثابتا للمسلمين فى عهده ومن بعده، وقال : لولا ما أخشاه ألا يجد المسلمون شيئا بعده لما تركت قرية إلا قسمتها بين المسلمين[1].

ترك عمر بن الخطاب الأرض بأيدى أهلها، ورفض تقسيم الأرض بين الفاتحين، بل وقفها على المسلمين، وتركها بأيدى أهلها يزرعونها ويؤدون خراجا عنها، ومن أسلم منهم يُعفى من الخراج وتصبح أرض عشر[2]، وعلى ذلك لم يُسمح للمسلمين بشراء أرض زراعية من أهالى البلاد حتى لا ينصرف الفاتحون عن القتال، وينشغلوا عن الفتح والجهاد، مما يؤدى إلى فتور الروح العسكرية[3].

ومع ذلك امتلك العرب أرضا هجرها أهلها بعد الفتح أو كانت ملكا للروم وتركوها، وكانوا يؤدون عنها العشر، ومن بين هذه الأراضى أراض واسعة آلت إلى أمراء البيت الأموى أو المقربين إليه، وحاول عمر بن عبد العزيز إعادة الأرض إلى أصحابها، ولكن لم يمهله الأجل[4]. وهذه الأراضى الواسعة التى آلت إلى البيت الأموى وأنصاره صادرها العباسيون، وامتلكوها، وأقطع العباسيون بعض هذه الأراضى التى آلت إليهم إلى بعض قادة الدولة[5].

وبذلك بدأ نظام الإقطاع فى الدولة الإسلامية، وصاحب الإقطاع يجد صعوبة فى زراعة أرضه، لذلك كان بعضهم يقطع بعض المزارعين جزءا من أرضه، ويمدهم بما يحتاجون إليه من موارد وأدوات زراعية، وييسر لهم سبل

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٥.

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق، جـ ١، ص ٥٩٣.

(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٥٩٧.

(٤) المصدر السابق : ص ٥٩٦ ، ٥٩٧.

(٥) اليعقوبى : البلدان، ص ٢٥٩.

الرى، ويمنحهم جزءا من المحصول، ويقوم المقطع بأداء الخراج عن الأرض المقطعة بواقع العشر فقط وتظل الأرض ملكا له يتوارثها ورثته من بعده[1].

وقد يحدث أحيانا أن يرغب ملاك الأراضى الزراعية فى الإفلات من عبء الخراج العادى، فدونوا ضياعهم مع ضياع كبار ملاك الأراضى الزراعية الأقوياء، فكانوا يدفعون عنها العشر فقط، كما هو الحال فى الإقطاعات، على أن هذا التصرف لم يمنعهم من ممارسة حقوق ملكياتهم الزراعية، فظلوا يتبايعونها ويتوارثونها، وإن كانت بأسماء كبار الملاك المدونة مع ضياعهم[2].

شاع نظام الضمان على جباية الخراج، فكان على الضامن أن يقدم للحكومة مبلغا معينا من المال سبق أن اتفق مع الحكومة عليه، وإذا ما أخل الضامن بالتزامه، فإن الحكومة تفرض عليه عقوبات، وقد ألحق الضمان ضررا كبيرا بأهل الخراج من المزارعين وبالأرض، لأن الضامن كان يلجأ فى بعض الأحيان إلى استخدام العنف للحصول على المال المحدد بالضمان، فيسلمه إلى الحكومة، فضلا عن الربع الذى يحرص على جمعه من أهل الخراج فيضر ذلك بهم، فيخربوا ما عمروا[3].

شاع نظام الإقطاع فى الدولة الإسلامية، أى أن صاحب الأرض المقطعة يلتزم بتقديم الخراج عنها، وإذا أهملها أو أخل بالتزامه تئول الأرض إلى الدولة، وكان كبار الموظفين يحصلون على إقطاعات بدلا من الرواتب، ويؤخذ الإقطاع من المقطع فى حالة عزله من منصبه، وتئول إلى من يحل محله.

وأسوأ أنواع الإقطاع الإقطاع العسكرى، وقد ظهر هذا النظام مع ازدياد نفوذ الترك، وأدى إقطاع الأراضى للترك إلى خراب الأراضى الزراعية؛ لأن أصحابها يبحثون عن الربح فقط، ولا يقدمون للفلاحين ما تحتاجه الأرض من خدمات، ولم يك لديهم خبرة بالزراعة، وإنما وكلوا عنهم من يباشر الأرض، وهؤلاء يريدون جمع أموال لأنفسهم ولسيدهم صاحب الإقطاع، والفلاح هو

(١) أبو يوسف : الخراج، ص ٣٣.

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب، ص ١١٨.

(٣) أبو يوسف : الخراج، ص ٦٠.

الذى يدفع كل هذه المتطلبات التى أثقلت كاهله، ومن ثم تركوا الأرض الزراعية أو أهملوا زراعتها، وبذلك أدى نظام الإقطاع إلى تدهور الزراعة وخراب الأرض.

كذلك تنوعت وازدهرت الثروة الحيوانية فى الدولة الإسلامية وجُلبت إلى الشام ومصر البقر والجاموس والإبل من خراسان، وجُلب الجاموس من الهند حينما غزاها محمد بن القاسم الثقفى فى عهد الوليد بن عبد الملك، وانتشر فى الشام ومصر(١).

تعرضت الزراعة للتدهور، وتبع ذلك حدوث مجاعات بسبب قلة الأمطار وانخفاض منسوب مياه الأنهار، ففى مصر تدهورت الزراعة فى عهد كافور الإخشيدى، وتشاءم الناس من لونه الأسود وعهده الذى يشبه لونه. وحدثت مجاعة فى مصر سنة ٤٥٧هـ بسبب انخفاض ماء النيل، استمرت سبع سنين وتعرف بالشدة العظمى، كما حدثت مجاعات فى عصر سلاطين المماليك للسبب نفسه(٢).

وتدهورت الزراعة فى دولة الإسلام بسبب الحروب الصليبية التى اضطر الفلاحون بسببها إلى هجر قراهم الزراعية، كما أن الغزو المغولى المدمر لإيران وبلاد ما وراء النهر والعراق والشام أدى كذلك إلى تدهور الزراعة، وقد زار ماركبولو البلاد الإسلامية وتحدث عن خراب الأرض الزراعية بسبب غارات المغول الوحشية.

* * *

الصناعة :

من الطبيعى أن تتقدم الصناعة فى الدولة الإسلامية بسبب وفرة المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات، ووفرة الأيدى العاملة، والخبرة التى اكتسبها العمال الصناعيون من الأجيال السابقة، واتصال البلاد الإسلامية ببلاد لها صناعات مميزة كالهند والصين.

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١١٢ ـ ١١٤.
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ٢.

ازدهرت فى بلاد الشام صناعة الزجاج والخزف والحرير، وكان يضرب المثل بالزجاج السورى لرقته وصفائه، واتخذ صناع الزجاج طرازا خاصا بهم فى زخرفة الزجاج، حتى كانت سوريا تصدر الزجاج الملون إلى البلاد الأخرى(١).

وازدهرت فى سوريا صناعة الخزف الأسود والأحمر، وله بريق معدنى، كما ازدهرت صناعة الزهريات وكثر إنتاجها حتى أصبحت من مستلزمات البيوت(٢).

وتقدمت صناعة الخزف فى الدولة الإسلامية بسبب الاتصال بالصين عن طريق التجارة أو السفارات، وعرف المسلمون عنهم الصناعات الخزفية المزينة بالنقوش والزخارف، وأما الفخار الصينى الأصل الذى نقل المسلمون صناعته من الصين، غير قابل للكسر، كما عرف المسلمون عن الصين نوعا من الأباريق، يتضمن نقوشا وله فم قصير مستقيم ومقبض.

واستطاع الصانع المسلم أن يحاكى الصناعة الصينية فى الفخار وفى الخزف فى الألوان والأشكال والزخرفة والنقوش.

وتقدمت فى سوريا أيضا صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها وخاصة المنسوجات الحريرية(٣).

وكثرت فى بغداد المصانع لصناعة الصابون والدهون والعطور وأنواع الزيوت والورق، وجلبوا الصناع من البلاد الإسلامية، وازدهرت هذه الصناعات كذلك فى الشام ومصر. وقيل إن فى بغداد أربعة آلاف معمل لصناعة الزجاج والخزف، وكان لكل صناعة سوق خاص(٤)، وانتشرت صناعة الخزف فى مصر وكثر إنتاجه حتى أن البقالين كانوا يضعون بضاعتهم فى أوان من الخزف.

وكانت تصنع فى بغداد الصناعات الحديدية والخشبية، وخصوصا السفن والقوارب.

---

(١) الثعالبى : لطائف المعارف، ص ١٥٧.

(٢) زكى حسن : فنون الإسلام، ص ٣٤٥.

(٣) بدر الدين الصينى : العلاقات بين العرب والصين، ص ٤٥٢.

(٤) اليعقوبى : البلدان، ص ٢٦٤.

كذلك ازدهرت صناعة السكر فى خوزستان وأصبهان، ثم زرع قصب السكر فى مصر فى القرن الثالث الهجرى، وانتقلت زراعته إلى العراق، ومن ثم أقيمت مصانع لإنتاج السكر فى مصر والعراق، وكان السكر ضروريا فى مصر وخصوصا فى العصر الفاطمى حيث كثرت الاحتفالات الدينية التى من مظاهرها المأكولات السكرية[1].

ومن أهم الصناعات صناعة الورق المستعمل فى الكتابة، وكان المسلمون يكتبون على البردى حتى عرفوا الكاغد.

عرف المسلمون سر صناعة الورق من الصين، وقد كثرت فيها أشجار الكاغد التى يصنع من قشورها الورق، فعمت هذه الصناعة بلاد الصين، ولما فتح المسلمون بلاد ما وراء النهر نقلوا هذه الصناعة إلى سمرقند ثم انتشرت فى البلاد الإسلامية الأخرى[2].

كذلك ازدهرت فى الدولة الإسلامية صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها، وكانت شرق فارس تصنع الثياب القطنية أو على الأخص الطيالس، وصُنع فى فارس وفى صعيد مصر المنسوجات الصوفية، وصنعت ثياب الدبيقى والقصب والثياب الرقيقة، وأدى تعرض شجر التوت ودودة القز فى بلاد ما وراء النهر إلى ازدهار صناعة الحرير، واقتبس العرب صناعة الحرير من الصين، وتعلموها من بعض الأسرى الصينيين، وعرفوها عن طريق تبادل السفارات بين المسلمين وبلاد الصين وعن طريق التجار، لذلك ازدهرت صناعة الحرير والديباج، وأقيمت فى مصر دار الكسوة لعمل كسوة الكعبة وعمل ثياب لرجال الدولة يهديها الخليفة لهم فى المناسبات الرسمية، وشهدت مصر دار الديباج فى عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى[3].

وازدهرت فى أرمينية وأصبهان صناعة البسط، وصُنع الكتان فى فارس وفى كازرون على وجه التحديد، وعُرف عن البسط الأرمينية بأنها من أجود أنواع البسط[4].

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه، ص ٤١٣.

(٢) بدر الدين الصينى : العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٤٤.

(٣) خطط المقريزى : جـ ١، ص ٤٦٤.

(٤) متز : الحضارة الإسلامية، جـ ٢، ص ٣٠١ ـ ٣٠٥.

وأدى ازدهار الثروة المعدنية فى الدولة الإسلامية إلى ازدهار الصناعات المعدنية، فازدهرت صناعة النحاس فى بخارى، واستخراج الذهب من وادى العلاقى بمصر، وكان الحديد يستخرج من كرمان وكابل وفرغانة، لذلك تقدمت الصناعات الحديدية فى هذه البلاد، واستخرجت الفضة من خراسان، وبالتالى الصناعة المستمدة منه[١].

ومن الخليج استخرج اللؤلؤ والمرجان والياقوت، وكان العقيق يستخرج من اليمن وهو زينة النساء فى العصور الوسطى.

وكثرت الأحجار الكريمة فى مصر وبلاد المغرب، ومنها البلُّور المزخرف، ويصنع منه المصابيح البلورية المزدانة بالنقوش والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتزدان الجوامع والقصور بهذه المصابيح[٢].

وتنوعت الصناعات الخشبية لكثرة الغابات فى خراسان وطبرستان ويصنع من الأخشاب أثاث المنازل والأدوات الخشبية.

كذلك ازدهرت صناعة السفن الحربية والتجارية فى الموانى مثل الإسكندرية وصور وعكا وطرابلس الشام وتونس وغيرها.

وكان المسلمون يحاربون بالسيوف والنشاب والأقواس والرماح ويتخذون الدروع لحمايتهم، واستطاع المسلمون إقامة المصانع الحربية لصناعة هذه الأدوات وتوفيرها للحرب والقتال، وأقام المسلمون دور الصناعة فى المدن الساحلية لصناعة السفن، والأسلحة البحرية، وأدوات الملاحة.

وازدهرت فى مصر صناعة منتجات قصب السكر، وصناعة الأدوات القاطعة كالأمواس والمقصات، وأنتجت مصر الملابس الموشاة بالذهب والحرير العتابى المموج[٣].

واشتهرت قرى دمياط وتنيس بصناعة المنسوجات الموشاة بخيوط الحرير والذهب والأقمشة الكتانية والقصى والبوقلمون وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، وكانت العراق تستورد منسوجاتها المميزة من تنيس[٤].

---

(١) المصدر السابق : جـ ٢، ص ٢٩٦.
(٢) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١٣٩.
(٣) متز : الحضارة الإسلامية، ص ٢٩٩، ٣٠٠.
(٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٦.

التجارة :

ازدهرت التجارة فى الدولة الإسلامية؛ لأنها دولة كبيرة مترامية الأطراف، وتزدهر فيها الثروات الزراعية والمعدنية، وبها فائض كبير فى إنتاجها، كما أن طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب تمر بأراضيها، لذلك يمكن أن تحصل على السلع التى تحتاجها، وأدى وقوع بلاد الإسلام على البحرين الأبيض والأحمر والخليج ووجود طرق القوافل بها إلى اتصالها بالمراكز التجارية فى العالم، وسهولة وإمكانية التبادل السلعى بينها وبين دول العالم.

وتنقسم التجارة إلى داخلية وخارجية :

التجارة الداخلية : مركزها الأسواق، وعرف العرب السوق قبل الإسلام، مثل سوق عكاظ، وفى الدولة الإسلامية أقيمت الأسواق فى كل مدينة، وكل سوق يتضمن عددا من الحوانيت، والأسواق مغطاة، وانفردت كل سلعة معينة بسوق منفرد، وتُعقد الأسواق فى يوم محدد من الأسبوع، وتستمر حركة التجارة منذ الصباح الباكر حتى المساء.

وتميزت بعض المدن الإسلامية بنشاطها التجارى لأهمية موقعها وازدهار السلع فيها، مثل مدينة البصرة، فهى تقع على الطرق البحرية والتجارية المؤدية إلى العراق والجزيرة العربية والهند والصين، لذلك ازدهرت التجارة فى أسواقها، وعُرف تجارها بالمهارة والنشاط فى كل بقاع الأرض للحصول على ما يلزم أسواقهم من سلع. ويقول ابن الفقيه الهمدانى[١] : إذا ذهب إنسان إلى السوس الأقصى أو فرغانة القصوى، فلابد أن يرى بصريا أو حميريا.

ومن المدن التجارية الهامة بغداد، شيد الخليفة المنصور بها سوقا فى أطراف المدينة تسمى الكرخ، ورتب كل أهل تجارة موقعا يبيعون فيه سلعهم، وجعل القصابين فى آخر السوق، لأن فى أيديهم الحديد[٢].

كانت بغداد ملتقى الطرق التجارية، وسكنها أناس من مختلف البلدان، واستقروا بها، فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف، فاجتمع

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه، ص ٥٦.

(٢) البلدان، ص ٥١.

بها ما ليس فى مدينة أخرى، وأدى موقعها التجارى الممتاز إلى أن التجارة كانت تأتيها برا وبحرا بأيسر السبل، حتى اجتمعت بها بضائع المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام، فتأتيها التجارة من الهند والسند والصين والتبت وبلاد ما وراء النهر والترك والخزر والحبشة وسائر البلدان[1].

واختار المنصور بغداد حاضرة لدولته بسبب موقعها التجارى فتأتيها من دجلة تجارات واسعة من البصرة والأبلة والأهواز وفارس وعُمان والبحرين واليمامة، وما يتصل بذلك. كذلك تأتيها التجارة من الموصل وديار بكر وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية مما يُحمل فى السفن فى دجلة، ويأتى من مصر والرقة والشام والثغور والمغرب مما يُحمل عبر الفرات[2].

وأدى توسط مدينة دمشق فى بلاد الشام إلى ارتباطها بالطرق التجارية فى داخل هذه البلاد، وكان الحجاج يمرون بمدينة دمشق فى طريقهم إلى بلاد الحجاز، ويقيمون فيها بعض الوقت، وكذلك أثناء عودتهم من رحلة الحج، وكانت تروج فيها التجارة فى موسم الحج.

وحرص تجار دمشق على توفير السلع التى يحتاجها الحجاج من سوق دمشق الكبير[3].

وكانت الفسطاط محور النشاط التجارى فى مصر، فتقع على ملتقى النيلين، لذلك تتصل بالوجهين القبلى والبحرى بحكم موقعها، وترسو بها السفن المحملة بالبضائع الآتية من النيل شمالا وجنوبا، ويجد التجار ما يحتاجونه من سلع سواء المصرية أم الآتية من المغرب والعراق والشام وبلاد الروم عن طريق البحر أو القوافل، ونشطت حركة التجارة فى أسواق الفسطاط، ويجد فيها الناس مختلف السلع[4].

وأُنشئت الخانات والوكالات والفنادق لراحة التجار بها أماكن للإقامة، ومطبخ لإعداد الطعام ومخابز ومخازن للبضائع وغرف لراحة التجار، وأماكن لراحة ورعى الدواب، وهذه المؤسسات مؤمنة تماما من الدولة.

---

(١) عصام الدين الفقى : الحواضر الإسلامية، ص ١٣٩.
(٢) اليعقوبى : البلدان، ص ٣٣٤.
(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ ٢، ص ٢٥٠.
(٤) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١٤٥.

وكان لكل سوق مراقب يتبع المحتسب، يتابع حركة البيع والشراء ولا يقبل عرض السلع المغشوشة أو التالفة، ويمنع التلاعب فى الأسعار، ويتابع صحة الموازين والمكاييل والمقاييس.

التجارة الخارجية :

ازدهرت التجارة مع الصين فكانت المراكب التجارية تنقل البضائع من البصرة إلى الصين، وتمر بعُمان ومسقط وهرمز وأبلة والبحرين والخليج، وكان حرير الصين يحمل إلى سيلان ثم إلى عدن(١).

وكان لميناء عدن أهمية كبيرة؛ لأن التجارة كانت تبحر منها إلى السند والهند والصين، وتأتى من الصين أنواع البضائع مثل الحديد والمسك والكاغد والفخار والكافور والدارصينى وغيرها(٢).

وكانت المراكب القادمة إلى الصين ترسو فى ملابار وسيلان ومآبد وسومطرة وجاوه، وأما المدن الصينية التى كانت مفتوحة للتجار العرب، كانتون ومانغ جو، وكانت جزيرة سيلان أفضل مركز لحركة التبادل التجارى بين العرب والصين، وكل مرفأ من مرافئ الصين نهر عظيم يصلح لرسو السفن(٣).

وكانت الحركة التجارية من الخليج العربى إلى الهند والعراق والصين تضم عددا كبيرا من التجار وقدرا كبيرا من السلع، وأكثر السفن الصينية تحمل من سيراف، وأن البضائع قد تحمل من البصرة وعُمان وغيرهما إلى الصين(٤).

وتمر المراكب بصحارى عُمان إلى الهند، وتقصد إلى كولم، وتواصل المراكب مسيرتها حتى تصل إلى خانقو فى الصين(٥).

وسيطر العرب بعد الفتوح على التجارة فى الخليج وفى البحر الأبيض والبحر الأحمر، على أن مراكب الصين كما يقول سليمان السيرافى فى سيراف

---

(١) بدر الدين الصينى : العلاقة بين العرب والصين، ص ١٠٩.
(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٦١.
(٣) بدر الدين الصينى، ص ١١٠.
(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٤٩.
(٥) بدر الدين الصينى : العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٩٢.

كانت أكثر من مراكب العرب، وإن كان لدى السيرافيين سفنا تنتقل بين سواحل الهند والعراق من جهة، وبين خليج العرب والبحر الأحمر من جهة أخرى، ومما يدل على تفوق الصين التجارى فى سيراف وجود فلوس صينية فى سيراف، ويمكن القول بأن الصينيين كان لهم سيطرة بحرية على الخليج، وكان السفر إلى كانتون على مراكب صينية[1].

وكانت هرمز مرفأ عظيما على الخليج، ويجيء إليه التجار من مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر وسائر بلاد المشرق حيث يقطن أناس على شواطئ البحر، ويأتون بالمتاجر من الصين وجاوه والبنغال وسيلان وجزر مالديف وملابار والحبشة وزنجبار وبلاد الهند وعدن وجدة وينبع، والتجار يأتون من أنحاء العالم ويفرغون دون عناء بضائعهم ويستبدلونها ببضائع أخرى بنفس الثمن.

ومن بين المراسى التى ترسو فيها المراكب الصينية «مآبد» فى جنوب الهند فى مواجهة جزيرة سيلان.

والطريق البرى بين الصين والعراق كان يمر بتركستان وما وراء النهر والمدن التى بهذا الطريق هى كاشفر وفرغانة وبخارى وسمرقند، ومدينة صفل كان لها مكانة تجارية قبل الإسلام، ولكن ضعفت مكانتها بعد الإسلام وانتقل مركز الثقل إلى بخارى وسمرقند، وازدادت مكانة بلاد ما وراء النهر التجارية وخصوصا فى عهد السامانيين والغزنويين[2].

التجارة مع الهند:

مدينة منجرور من المليبار ينزل بها معظم التجار المسلمين من فارس واليمن للتجارة، ويقصد تجار اليمن مدينة قاليقوط وتجار فارس أيضا.

كانت المراكب الإسلامية تسير بمحاذاة ساحل الخليج العربى وساحل الهند حتى مليبار، وكانت السفن الإسلامية تذهب إلى السند وفى الديبل والملتان بصفة خاصة، وتعود محملة بمنتجاتها من التوابل والمنسوجات والمعادن[3].

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٣، ١١٤.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠، ١٢١
(٣) متز: الحضارة الإسلامية، جـ ٢ ص ٣٦٥

وقد ازدحم المحيط الهندى بتجار آسيا وخصوصا العرب، الذين تقدمت رحلاتهم التجارية إلى جنوب الهند وسيلان، وأنشأ العرب محطات تجارية فى قاليقوط وساحل المليبار وملقا. وقد لعب تجار العرب دورا كبيرا فى تبادل السلع بين الهند وأوربا، وذلك بفضل نشاطهم التجارى فى الخليج والبحر الأحمر والمحيط الهندى، وكانت السفن الهندية تصل إلى شرق القارة الأفريقية، وإلى ساحل بلاد العرب(١).

ظهر النشاط التجارى فى ثغور الهند منذ فجر الإسلام وينقل التجار العرب بضائعهم من البصرة وعُمان إلى سيراف إلى مسقط ثم إلى الهند.

وذكر المسعودى أن القوافل الإسلامية كانت تواصل رحلاتها بين خراسان والسند والهند مرورا بزابلتان (فى أفغانستان الحالية) التى تزدهر فيها بضائع الهند، وتروج بصفة خاصة فى كابل وغزنة. وكان العرب يقبلون على أسواق البنجاب، وأدى هذا النشاط التجارى إلى رواج تجارة الهند فى موانى البحر الأحمر مثل عدن(٢).

ويجلب التجار العرب من الهند الدر والعنبر والأحجار الكريمة ومعادن الذهب والعاج والخيزران والعود والكافور والقرنفل والصندل والياقوت والبلُّور، ومن مليبار الفلفل الأسود، ومن كجرات الرصاص، ومن السند القصب والخيزران والأوانى الخزفية والهيل والعود والكافور(٣).

وازداد إقبال العرب على السيوف الهندية وأسموها بالهندى والمهند والهندوانى، ولا تزال أسماء البهارات تحمل الاسم الهندى، ونقل العرب فى مصر وسوريا والعراق إلى بلادهم ثمار النارنج والليمون وزرعوها(٤).

وتنتج الهند التنبول والعود والماس من كشمير والمسك من بلاد التبت، ويجلب من الهند خواتم الزبرجد فى علب جميلة، وكان تجار العرب يحملون الخيول وماء الورد والتمر.

---

(١) البيرونى : تاريخ الهند، ص ٢٠٦.

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ٧١.

(٤) بزرك عجائب الهند، ص ١٢٨

وأدت سيطرة الغزنويين على شمال الهند إلى توغل التجار العرب بتجارتهم فى داخل الهند، وكانت السفن العربية تتعرض لغارات القراصنة الهنود المتمركزين فى جزيرة سومطرة[1].

وكانت أحجار الزمرد فى الساحل الشرقى للهند تصدر إلى الغرب عن طريق التجار العرب، وكانت الهند تصنع وتصدر أنياب الفيل، وكانت القوافل تنقل البضائع من منطقة السند داخل بلاد الفرس عن طريق سجستان، وإلى الشمال كانت قوافل البنجاب تحمل كميات كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان الشاهقة، وتأتى بها إلى كابل وغزنة، وأصبحا من أهم مراكز التجارة بين الهند وبلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس وروسيا. وهناك تتجه القوافل من ناحية إلى الغرب من خراسان، ومن ناحية أخرى إلى الشمال صوب بخارى، وكانت توابل الهند تنتشر فى هذه البقاع، وكانت سيلان تصدر اللؤلؤ[2].

روَّج التجار العرب التجارة فى الهند، ولقوا كل رعاية من حكامها وانتشرت المحطات التجارية العربية على سواحل الهند وفى مدنها الداخلية.

وكان ميناء كجرات من أهم المدن الهندية المواجهة لخليج عمان والساحل العربى، لذلك لعب دورا كبيرا فى الحركة التجارية بين الهند والعرب وكانت كجرات تصدر للعرب الزنجبيل والفلفل[3].

وكان للتجار العرب علاقات تجارية مع الهند الصينية وجزر الملايو ونشأت علاقات تجارية بين الجمهوريات الإيطالية والبلاد الإسلامية الواقعة على ساحل البحر المتوسط، ونشأت علاقات تجارية كذلك مع صقلية وأسبانيا، وأقامت الدولة الفاطمية للتجار الأجانب الفنادق والقياسر والوكالات يقيمون فيها، بل وسمحوا لهم بإقامة كنيسة يؤدون فيها شعائرهم الدينية بحرية كاملة.

وأدى قيام دولة المرابطين إلى رواج التجارة بين المغرب وجنوب الصحراء، فكانوا يبادلون السلع التى يشترونها بالذهب، مما أدى إلى ثراء وإنعاش الحركة التجارية مع بلاد المغرب.

---

(١) بزرك : عجائب الهند، ص ١٣٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٤.
(٣) عصام الدين الفقى : بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص ٢٣٦.

تمركزت حركة التجارة الخارجية فى بعض الموانى مثل أنطاكية والإسكندرية على البحر المتوسط، وجدة والقلزم وعدن على البحر الأحمر، وعيذاب على ساحل البحر الأحمر الغربى، وسيراف من موانى الخليج.

الطرق التجارية :

أدى اتساع الدولة الإسلامية وتوسط موقعها فى العالم إلى مرور التجارة العالمية بأراضيها، وأهم هذه الطرق :

١ - الطريق البحرى من بروفانس عبر البحر الأبيض إلى الإسكندرية، ومنها تحمل البضائع على القوافل إلى القلزم عبر البحر الأحمر وتمر بعدن، ومنها إلى الهند والصين، وتنقل تجارة أوربا إلى الشرق الأقصى وتعود بتجارة الشرق الأقصى إلى أوربا، ويشرف على هذه التجارة تجار يهود.

٢ - الطريق التجارى بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين، ومنه تنقل التجارة إلى بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر إلى الصين[١].

٣ - الطريق التجارى الذى يسير من مصب نهر السند نحو فارس مارا بولاية سجستان، وإلى الشمال من هذا الطريق كانت القوافل تنقل من البنجاب البضائع إلى كابل وغزنة، ومن هناك تسير القوافل نحو خراسان غربا وبخارى شمالا.

٤ - الطريق البرى من غرب أوروبا عبر الأندلس وبلاد المغرب إلى مصر إلى بلاد الشام إلى العراق إلى فارس والهند والصين[٢].

والخلاصة أن المسلمين سيطروا على التجارة العالمية وكانت الإسكندرية وبغداد تحددان أسعار السلع للعالم كله، وسيطر العرب على طرق التجارة البحرية والبرية، وانتشرت جالياتهم من التجار فى أنحاء العالم. وأصبحت المراكب الإسلامية والقوافل تحمل التجار فى أنحاء العالم، وأدى التجار دورا كبيرا فى نشر

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٠.

الإسلام فى العالم، وفى ازدهار الحياة الاقتصادية فى البلاد التى مروا بها، وهذه الرحلات التجارية كانت تضم بالإضافة إلى التجار علماء وفقهاء ورحالة، أدوا دورا كبيرا فى البلاد التى أقاموا فيها فى نشر الثقافة الإسلامية، فكانوا رسل حضارة، وساهموا فى ترويج الفكر الإسلامى ونشره فى بلاد العالم.

الإدارة المالية :

حرصت الدولة الإسلامية على إقامة بيت للمال يقوم بصيانته وحفظه لصالح الجماعة الإسلامية، ويحقق التوازن بين موارد الدولة ومصروفاتها والموارد الأساسية لبيت المال، شرعية، أى قُررت بنص القرآن الكريم أو باجتهاد الخلفاء والفقهاء، وأضاف الحكام بعد ذلك ضرائب على المسلمين غير شرعية. والموارد الأساسية لبيت المال هى :

١ ـ **الخراج** : وهو الضريبة على الأرض الزراعية التى يزرعها أصحابها الأصليون من أهل الذمة؛ لأن عمر بن الخطاب ـ كما أسلفنا ـ أبقى الأرض فى أيديهم، ويراعى فى تقدير الخراج نوع التربة وطريقة رى الأرض ونوع الزرع، ومساحة الأرض وكمية إنتاجها. وإذا اعتنق صاحب الأرض الإسلام تصبح أرضه أرض عشرية[١].

٢ ـ **الجزية** : وهى ضريبة على كل أهل الذمة، وواجبة على الرجال دون النساء والصبيان، وحددها عمر بن الخطاب على الموسر ٤٨ درهما والمتوسط ٢٤ والطبقة الدنيا ١٢ ، وفى البلاد التى تتعامل بالدينار ٤ ، ٢ ، ١ ، وتؤخذ الجزية مرة واحدة فى السنة فى أول كل سنة هجرية، ولا تؤخذ من البائس الذى يُتصدق عليه ولا من ذوى العاهات وفقراء الرهبان، والشيخ الفانى الذى لا قدرة له على العمل، وهذه ضريبة شرعية ورد ذكرها فى القرآن الكريم[٢].

٣ ـ **الضرائب التى تفرض على التجار**، وتقدر بنحو ١/٢٠ على بضائع التجار إن كانوا فى داخل الدولة الإسلامية، بشرط أن تزيد قيمة التجارة على عشرين دينارا أو مائتى درهم، وعُشر قيمة بضائع التجار القادمين من خارج الدولة الإسلامية، إن زادت على الحد الذى ذكرناه.

---

(١) أبو يوسف : الخراج، ص ١٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٨.

كذلك فُرضت ضرائب على الأسواق وعلى الأوزان والمكاييل والطواحين، وعلى سك النقود بنسبة ١٪ عما يضرب من دنانير ودراهم، وشكلت المصادرات موردا ماليا كبيرا للدولة[1]، وكانت الدولة الإسلامية يرد إليها الكثير من الأموال حتى بلغت ميزانيتها قدرا كبيرا يذكره الجهشيارى، والدولة تنفق على الحروب وعلى إعداد الجيش ورواتب الجند والولاة والقضاة والعمال وعلى إقامة المشروعات لإصلاح الزراعة والرى والطرق، وإقامة المرافق العامة كالمساجد والمارستانات وإنشاء العمائر والقصور، وهبات الشعراء والأدباء وطبقت الدولة الإسلامية ضريبة الزكاة يؤديها الأغنياء للفقراء. والزكاة فرض من فروض الإسلام لإصلاح أحوال المجتمع، وتطهير النفوس، ومنع الحقد والحسد بين طبقات المجتمع[2].

المعاملات المالية :

النقود :

تعامل المسلمون منذ فجر تاريخهم بالدينار والدرهم، ويؤكد ذلك ما ورد فى القرآن الكريم : ﴿**وشروه بثمن بخس دراهم معدودة**﴾ (سورة يوسف : آية ٢٠)، ﴿**ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك**﴾ (سورة آل عمران : آية ٧٥).

وتسمى النقود الإسلامية السكة، وهى الختم على الدنانير والدراهم بطابع حديد ينقش فى صور أو كلمات مقلوبة على الدينار والدرهم، فيخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، ولفظ سكة كان اسما للطابع، وهى الحديدة المتخذة لذلك، وأصبح ضرب العملة فى غاية الأهمية، لأنه يميز بين العملة السليمة والعملة المغشوشة[3].

أقر أبو بكر وخليفته عمر بن الخطاب الدنانير الهرقلية أو الرومية التى كانت مستعملة فى البلاد التى آلت إلى المسلمين قبل الفتح العربى، وكان الدينار قطعة من الذهب يزن مثقالا، والمثقال من الذهب وزنه ٤,٢٣ جراما، ولم تكن قيمة الدنانير ثابتة بل كانت تختلف من عشرة دراهم إلى ثلاثة عشر إلى خمسة عشر درهما، وقد تزيد على ذلك[4].

---

(١) اليعقوبى : البلدان، ص ١٢٢.

(٢) الوزراء والكتاب، ص ٢٥٨، ٢٨٢ وما بعدها.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦١.

(٤) الكرملى : النقود العربية وعلم النميات، ص ٨٩، ٩٠.

ظلت الدنانير الرومية بعد الفتح العربى على شكلها الرومى بكتابتها ونقوشها، فكان ينقش عليها اسم الإمبراطور أو الملك الذى ضربه.

ضرب معاوية بن أبى سفيان دنانير عليها تمثال متقلد سيفا ولم يقبل المسيحيون هذه الدنانير، لأنه لم يكن عليها الصليب، ورفض المسلمون التعامل بها، لأنها كانت ناقصة الوزن[1].

تأثرت العلاقات التجارية بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية بسبب المنازعات السياسية بينهما، وقل تبعا لذلك النقد المتداول بين الدولتين، فرأى عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) أن يسك عملة جديدة ليحقق الاستقلال الاقتصادى لدولته، وكانت النقود فى ذلك الوقت مختلفة الأوزان، ولم يكن لها مقياس ثابت فى جميع أرجاء الدولة[2]، مما جعل الدولة تواجه صعوبة كبيرة عند قيامها باستيفاء حقوقها من الضرائب، إذ كان الناس يؤدونها بالعملة الأقل وزنا، ويحتفظون بالعملة الجديدة، وأثر ذلك على ضريبة الخراج[3].

يذكر البلاذرى أن من بين الأسباب التى حملت الخليفة عبد الملك بن مروان على سك العملة الجديدة، أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من مصر ويأتى الدولة العربية من قبل الروم الدنانير، وكانت القراطيس يُكتب عليها عبارات مسيحية[4]، فأمر عبد الملك بن مروان باستبدالها بعبارات إسلامية تتضمن **﴿قل هو الله أحد﴾** وغيرها من ذكر الله، فكتب إليه إمبراطور الروم: «إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه» فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وأمر بسك عملة جديدة[5].

وهناك أسباب أخرى حملت الخليفة على سك الدنانير الإسلامية، وهى سياسة التعريب التى انتهجها فعرب الدواوين، وسك العملة تأكيدا لاستقلال دولته وقوتها، وتعزيزاً لشخصيتها.

---

(١) المصدر السابق، ص ٩١.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة، ص ٥٢.
(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٤٧٠.
(٤) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب، ص ١٨٢.
(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٤٧٠.

أنشأ عبد الملك بن مروان دارا لضرب الدنانير الذهبية فى دمشق، وأسماها بالدمشقية[1]، وكان نقش هذه الدنانير الآية الكريمة : ﴿**قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد**﴾ (سورة الإخلاص). وفى وسط أحد الوجهين وحوليهما «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وعلى الآخر فى الوسط «لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له» وحول ذلك اسم الله، وضُرب هذا الدينار فى دمشق سنة كذا[2].

روعى فى سك العملة أن يكون الذهب خالصا، وكان وزن الدينار الدمشقى الذى ضربه عبد الملك ٤,٢٥ جراما (٦٦ حبة)،أما وزن الدينار البيزنطى فكان ٤,٣٣ جراما،أى أن الدينار الدمشقى يزيد بنسبة ٢٪ ذهبا عن الدينار البيزنطى، مما جعل الروم يميلون إلى التعامل به، والأمر الجدير بالاعتبار فى هذا الدينار هو وزنه لا قيمته الاسمية[3].

نجحت محاولة عبد الملك بن مروان فى ضرب دنانير عربية جديدة فى الدولة الأموية، وبلغت الوحدة فى الوزن والحجم والجمال الفنى درجات كبيرة من النجاح، وكانت النسبة بين الدينار والدرهم فى الوزن ١٠ : ١[4].

ولما كانت العملة الذهبية لا تساعد على تبسيط الكثير من العمليات التجارية الصغيرة التى لا غنى للناس عنها فى حياتهم اليومية، لذلك اتخذ المسلمون المقايضة فى عملياتهم اليومية.

والخلاصة أن أقدم دينار إسلامى ضربه عبد الملك بن مروان يرجع تاريخه إلى سنة ٧٦هـ، وعُثر على هذا الدينار فى المتاحف الأوربية، وضُرب على الطراز البيزنطى، وفيه صورة تمثل الخليفة متقلدا سيفا، وفيه تاريخ الضرب بحروف كوفية، ثم ضرب عبد الملك الدنانير على النمط نفسه سنة ٧٧هـ[5].

وفى سنة ٧٧هـ أحدث عبد الملك بن مروان ضرب الدينار على الطراز الإسلامى، لا يحمل إلا كتابات كوفية، ولم يضع الأمويون أسماءهم ولا أسماء أحد من أبنائهم وقوادهم، وكان عبد الملك بن مروان أول من نقش كلمة «دينار»

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٢) الكرملى : النقود العربية، ص ٩٢.

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة، ص ٥٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٣ ـ ٥٥.

(٥) رأفت النبراوى دراسات فى النقود الإسلامية ص ٧٦.

على النقود الذهبية سنة ٧٦هـ، وكـان هناك ربع وثلث ونصف دينار، ولم يضرب الأمويون أضعافا للدينار[١].

فى شرق الدولة الإسلامـية كانت الدراهم هى العملة السـائدة، وفى غربها مثل مصر والشام استعملت الدنانير، ونقص وزن الدرهم عما كان عليه فى العصر الأموى، وحرص العبـاسيون على نقش أسمائهـم على العملة التى بـدأوا بضربها منذ فـجر دولتهم، ونـقص وزن الدرهم حبـة ثم حبتـين وثلاث حبات فـى عهد الرشيد سنة ١٧٨هـ، وأخذت الـدراهم فى النقصان[٢]، ونقص وزن العـملة يدل على تدهور الوضع الاقتصادى، وتثبيته يدل على تحسن الوضع الاقتصادى.

ونقـصت الدنـانير الـهاشمـية التى ضـربها المـنصور نـصف حبـة، وضرب العباسيـون مضاعفات للعملـة، قيمة الواحد دينارين، وضُـرب دينار وزن الواحد مائـة دينار ودينـار، وعلى كل ديـنار من أحد جـانبيـه، وضربه جعـفر بن يحـيى البرمكى.

وأصـفر مـن دار الملـــوك يـلوح عـلى وجـهه جـعفـر

وفى الجانب الآخر

يـزيد عـلى مـائة واحـدا إذا ناله معسـر ييســـر[٣]

واستعمل الناس فى مـعاملاتهم اليومية البسيطة ربـع أو ثلث أو نصف دينار أو أجـزاء من العملة الفـضـية مـثل القيـراط والحبـة والدانق واسـتعـمل الفلوس النحاسية[٤].

وكانت النقود تضرب فى دار ضرب النـقود، ولا يجوز أن تُضرب فى غيرها منعا للغش والتزييف، وكان الخليفة ينقش اسمه واسم ولده أو ولديه[٥].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٧.

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب، ص ٢٣٨.

(٣) المقريزى : شذور العقود، ص ٨.

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب، ص ٢٤١.

(٥) عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية، ص ٤٣٨.

ظهرت بيوت مالية فى الدولة الإسلامية تقوم مقام البنوك من تقديم القروض، وإيداع الودائع، والتوسط بين الناس ودار الضرب، والاتجار بالمعادن النفيسة والنقود والسندات الممثلة للنقود، وهذه البيوت المالية يمتلكها الجهابذة، وتسند إليهم مهمة جباية الخراج، وتوكل إليهم مهمة العمل فى بيت المال لخبرتهم المالية الواسعة(١).

أدى ازدهار التجارة فى الدولة الإسلامية وكثرة الأموال إلى اتخاذ أساليب جديدة فى المعاملات المالية تيسر المعاملات المالية للناس، فاستعملت السفاتج وهى جمع سفتجة وهى حوالة خطاب يشمل قيمة معينة للسفتجة، فكان العميل يدفع النقود للصراف، ويعطيه بقيمتها سفتجة، يصرفها من البلد التى سيسافر إليها، واستخدم التجار هذه الوسيلة ليأمنوا على أموالهم من أخطار الطرق.

والصك أشبه بالشيك يثبت فيه قيمة الاستحقاق وموعد استحقاق صرفه، وكان الجهابذة يصرفون الصكوك لأصحاب الأموال المودعة لديهم نظير مبلغ معين من المال، ويشهد على الصك عادة رجلان ثم يُختم، وأحيانا يوقع عليه ضامن يتعهد بدفع قيمة الشيك فى حال عجز المدين عن دفع قيمته(٢).

* * *

ثانيا : الحياة الاجتماعية

عناصر السكان :

اشتملت الدولة الإسلامية على عناصر متعددة، وكان لكل عنصر أثره فى الحياة الاجتماعية، وأدى تفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض إلى تكوين أجيال جديدة فيها مزيج من هذه العناصر، ومن أبرز هذه العناصر :

أ ـ العرب : هم أصل الدولة الإسلامية، فهم العنصر الأساسى فيها، لأنهم نشروا الإسلام بجهودهم، ومصروا الأمصار ونشروا اللغة العربية ـ لغة الإسلام ـ ونشروا الدين الجديد بين الناس، وفقهوا الناس فى الدين، وجلسوا فى المساجد فى مختلف بلاد الإسلام ينشرون الدين الجديد، ويفقهون الناس فى الإسلام.

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب، ص ١٠.

(٢) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى، ص ١٢٣، ١٢٤.

على أن الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس لم يعاملوا العرب كما كان الحال عليه فى عهد بنى أمية الذين جعلوا من العرب طبقة أرستقراطية حاكمة، وما عداهم من الشعوب الأخرى موالى.

لذلك شعر العرب بأن الفرس تفوقوا عليهم وانتزعوا مكانتهم التى كانوا عليها فى عهد بنى أمية، وعبروا عن ذلك ببعض الثورات مثل ثورة السفيانى وثورة الأمين ضد المأمون، والدول المستقلة التى أقاموها فى العصر العباسى الثانى مثل الدولة الحمدانية ودولة بنى مرداس.

وساهم العرب فى الفكر الإسلامى الذى ازدهر فى العصر العباسى، فبرز منهم الإمام مالك بن أنس والإمام الشافعى وفيلسوف العرب الكندى وإسحق بن حنين، وحنين بن إسحاق. ومن الشعراء البارزين المتنبى.

وكان العرب ـ كما شرع عمر بن الخطاب ـ يتفرغون للجهاد مقابل عطاء، وكان قوام الجيش منهم، وظل الجيش الإسلامى يضم فى معظمه رجالا من العرب، حتى ولى المعتصم الخلافة فحذف العرب من الديوان، واستبعدهم من الجيش، وكوّن جيشا من الترك، لذلك تفرق العرب فى سائر بلاد الإسلام يلتمسون الرزق من كل سبيل، فاشتغلوا بالتجارة والزراعة، واختلطوا بسكان البلاد من غير العرب، وتزوجوا منهم، مما أدى إلى انتشار اللغة العربية والإسلام، وبعض البدو عاش على حافة الصحراء وفى أطراف المدن يتعرضون للقوافل ويقطعون الطرق، وعلى الرغم مما حدث للعرب من التفرق والبعد عن سياسة الدولة إلا أنهم اعتزوا بعروبتهم، فالرسول ﷺ عربى قرشى، والخليفة هاشمى.

ب ـ **الفرس**: كان الأميون يعاملون الفرس على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأسموهم موالى، وقد أغضبت هذه السياسة الفرس، لأنهم أهل حضارة وأصحاب فكر وثقافة وتاريخ عريق، لذلك سعوا إلى إقامة الدولة العباسية التى رفعت شعار المساواة بين الشعوب، وهذا يتمشى مع تعاليم الإسلام، وقامت الدولة العباسية «أعجمية خراسانية» كما يقول الجاحظ، وارتفع شأن الفرس فى الدولة العباسية، وشغلوا المناصب الكبيرة فى الدولة، وأصبح البلاط العباسى كسرويا وتشبه الخلفاء العباسيون بالفرس فى حياتهم وفى مراسمهم، ولكن الفرس

لم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يمارسوا ما نالوه من امتيازات فى العصر العباسى على حساب العرب، فتعرضوا لهم، وأساءوا إليهم، وقد استاء الخلفاء العباسيون من ذلك، وانتقموا من زعماء الفرس الذين نالوا من العرب، كما حدث بالنسبة لأبى مسلم الخراسانى، وحاول الفرس إدخال نحلهم القديمة فى دولة الإسلام ليحدثوا بلبلة فى دين الله، فظهرت حركات الراوندية والمقنعية والبابية، ولكن فشلت حركاتهم، وتصدى لهم الخلفاء العباسيون ونكلوا بهم.

وأدخلوا إلى المسلمين عقيدة الزندقة، وتدعو إلى الإباحية، وتسخر من تأدية فرائض الإسلام، وأفسدوا الشباب بعقيدتهم، وقد نكل بهم الخلفاء العباسيون، ولم يتركوا زنديقا إلا قتلوه.

ومن ناحية أخرى أراد الفرس تحويل الخلافة إليهم، فاعتنقوا التشيع، وحاولوا إقامة حكما علويا بدلا من الحكم العباسى.

وقد استبعدهم الخليفة المعتصم من الجيش، ولكنهم لم يضعفوا، فلما منعت الخلافة فى العصر العباسى الثانى أقاموا دولا مستقلة فى بلادهم الفارسية، لا يربطها بالخلافة إلا الاسم مثل الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية والزيارية.

على أن الفرس أفادوا الحضارة الإسلامية بمقدرتهم الفكرية الرائعة، فكان منهم كبار علماء النحو واللغة والأدب مثل ابن المقفع وسيبويه وابن قتيبة الدينورى ومنهم المؤرخون مثل الطبرى والبلاذرى، ومن الفقهاء أبو حنيفة، ومن علماء الحديث البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، ومن الجغرافيين الإصطخرى وابن خرداذبة، ومن رجال الطب والكيمياء والفيزياء ابن سينا والرازى وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم والفارابى والخوارزمى، وغيرهم كثير ممن تركوا تراثا إسلاميا رائعا فى مختلف العلوم والفنون.

إن ما بلغه الفرس من تقدم فكرى يرجع إلى الإسلام الذى أحيا فيهم طاقاتهم الكامنة، وتربى الفرس فى الحياة الإسلامية، وتثقفوا بثقافة الإسلام، مما أدى إلى تقدمهم الفكرى، وللإنصاف لابد أن نضيف إلى ذلك إمكانياتهم الفكرية التى تتصل بتاريخهم العريق.

جـ - الترك : عرفت الدولة الإسلامية الترك منذ عهد الخليفة المأمون، ولما ولى المعتصم رأى أن العرب والفرس يثيرون القلاقل والاضطرابات، كما حدث

فى الفتنة بين الأمين والمأمون، وفى أثناء حملة المعتصم إلى عمورية، لذلك كوّن جيشا من الترك، وجلبهم من بلاد ما وراء النهر، واطمأن إلى شجاعتهم وقوة بأسهم، وأقام لهم معسكرات لتدريبهم وعُنى بهندامهم، فألبسهم أنواع الديباج[1].

ولكن الترك مثيرون للشغب، وكثيرو العدوان، فأساءوا إلى أهل بغداد، وألحقوا الضر والأذى والهلاك لكثير من الناس، فنقل المعتصم حاضرة دولته إلى سامرا ونقل إليها جنده الترك استجابة لشكاوى أهل بغداد[2].

ولما ضعفت الدولة العباسية فى العصر الثانى، استبد الأتراك بالخلافة والحكم، فسيطروا على الخلافة، وأصبح الخليفة ألعوبة فى أيديهم يقتلونه أو يولونه أو يعزلونه، ولا يبقون إلا على الخليفة الضعيف حتى ينفذوا السياسة التى يريدون تنفيذها، وتولوا المناصب الكبيرة فى الجيش، وبسيطرتهم على الجيش سيطروا على الدولة تماما، وتولوا حكم الولايات، وسيطروا عليها، واستقلوا بالولايات عن الحكم المركزى، وأقاموا دولا مثل الطولونية والإخشيدية والغزنوية والسلجوقية التى سيطرت على مساحات شاسعة من قارة آسيا، وأقاموا الدولة الخوارزمية التى تصدت للمغول.

على أن الترك تسيطر عليهم وعلى تصرفاتهم الروح العسكرية، وما فيها من خشونة وغلظة، لكنهم ليسوا أهل حضارة، فلم يكن لهم عطاء حضارى أو فكرى كالعرب والفرس، وانتشروا فى البلاد الإسلامية بأعداد كبيرة، واختلطوا بالشعوب، وقد أوجدوا نظام الحجاب بالنسبة للمرأة، وشاع الزواج فى الدولة العباسية من التركيات لجمالهن وأناقتهن.

د ـ عناصر أخرى :

وضمت الدولة الإسلامية عناصر أخرى مثل المصريين الأقباط وهم أهل حضارة عريقة، ودخلوا فى الإسلام تدريجيا، وأهل الشام، أما البربر سكان بلاد المغرب فظلوا يعارضون الحكم العباسى ويحاولون الاستقلال عنه، وانضموا للحركات المعارضة كالشيعة والخوارج.

---

(١) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢٦٦.

(٢) ابن طباطبا الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٢١١

ومن عناصر السكان السريان - سكان شمال سورية وبلاد الجزيرة، وقد نقلوا التراث اليونانى من مكتبات الإسكندرية إلى اللغة العربية فى نيسابور وأنطاكية والرها ونصيبيين وكثر نشاطهم العلمى فى هذه البلاد.

أما الروم فقد تكاثروا فى الدولة الإسلامية بسبب الحروب بين الدولة الإسلامية ودولة الروم أدت إلى وقوع أسرى من الروم، ونالوا حريتهم، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى، وتعلموا العربية، وأقام الخلفاء لهم فى بغداد «درب الروم» وبه كنيسة، وفى مصر أقام لهم أحمد بن طولون قطيعة فى مدينته القطائع، وبرز منهم شعراء وأدباء ومفكرون مثل : ابن جنى عالم النحو، والشاعر ابن الرومى.

اندمجت هذه العناصر مع بعضها البعض عن طريق المصاهرة، مُشَكِّلَةً الجماعة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى، وفقد العنصر العربى - الذى كان له التفوق فى هذه الدولة الكبرى - نقاوته وتفوقه على هذه العناصر، وأصبح العرب قلة بالنسبة للجماعات الإسلامية الكبيرة فى دار الإسلام، ولم نعد نجد العنصر العربى النقى إلا فى بلاد اليمن، وحتى فى الحجاز فقد العنصر العربى نقاوته، فقد هاجر الكثير من المسلمين من عناصر مختلفة إلى بلاد الحجاز، وفى المدينة بصفة خاصة لمجاورة قبر الرسول أو العيش فى البلد الأمين بجوار الكعبة فى مكة أو قبر الرسول فى المدينة المنورة.

وهذا الاندماج بين العناصر التى ذكرناها أوجد مجتمعا قويا هو خلاصة مميزات هذه العناصر، وهو مجتمع إسلامى فى دولة إسلامية عالمية، تضم خلاصة العناصر التى أشرنا إليها، وهذا يفسر الازدهار الحضارى والتقدم الفكرى الذى أحرزه المسلمون فى تاريخهم الوسيط.

الرقيق :

من عناصر السكان المغلوبة على أمرها التى فُرض عليها البؤس والشقاء الرقيق، وقد انتشروا فى الدولة الإسلامية بسبب توالى الفتوح، والأسرى من بين غنائم الحرب، وكانوا يوزعون على المقاتلين، حتى أن الرجل العربى كان يمتلك ما بين عشرة إلى مائة، وكان خالد بن يزيد بن معاوية يمتلك أربعمائة[1].

---

(١) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢، ص ٢٩.

كان الأرقاء يختلفون فى أجناسهم وأشكالهم وألوانهم، ولم يكونوا جميعا من الأسرى، بل كان بعضهم يشترى من أسواق النخاسة وكان العرب يشترونهم لزراعة الأرض أو للخدمة فى بيوتهم(١).

كانت الدولة تمتلك رقيقا خاصا، يسمى رقيق الخمس، وهو حصتها من أسرى الحروب الذين لم يسرحوا أو يوزعوا على الجند المحاربين، وقد تكاثر هذا النوع من الأسرى فى العهد الأموى بسبب كثرة الفتوحات.

وكان هناك نوعان من الأرقاء هما الخصيان والجوارى. أما الخصيان فقد شاع استخدامهم، وللخصاء أسباب أهمها استخدامهم فى دور النساء، وكان تجار الرقيق يخصون الأرقاء ويبيعونهم بأثمان عالية.

وكان مصدر الجوارى فى الإسلام سبى الفتوح، وكان مصير هذه السبايا إما الخدمة فى القصور والدور أو البيع أو الإهداء(٢).

وكانت الجوارى اللائى يتقن الغناء تباع بأسعار مرتفعة، وكان لبعض الجوارى شأن كبير فى قصر الخلافة، وكانت حبابة فى العهد الأموى تجيد الغناء، وازداد نفوذها فى عهد يزيد بن عبد الملك، حتى كانت تتدخل فى تولية وعزل الولاة(٣).

شاع استخدام الجوارى عند المسلمين، واتخاذهن أمهات أولاد، أى أمًّا لمن ينجبونهم من الأطفال، بل إن بعض العرب كانوا يفضلون الإماء من الجوارى على العربيات الحرائر، وإن كانت السرية أقل منزلة من الزوجة(٤).

ومما أدى إلى زيادة الأرقاء فى الدولة الإسلامية أن بعض البلاد التى سيطر عليها المسلمون كانوا يؤدون إتاوة من الرقيق.

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ١٣١.
(٢) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٨، ص ٢٤٣.
(٣) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٢٥.
(٤) المبرد : الكامل، جـ ٢، ص ١٠١.

امتلأت القصور والدور فى الدولة الإسلامية بالرقيق من أجناس مختلفة، منها الأبيض والأسود والأصفر، تختلف فى لغاتها وعاداتها وتقاليدها، ولم ينظر الناس إلى الأرقاء نظرة امتهان أو ازدراء بدليل أن كثيرا منهم كانوا أبناء جوارى، وقعن فى أيدى آبائهن عن طريق الأسر أو الاسترقاق، بل إن بعض كبار رجال الدولة كانوا يتزوجون الإماء من غير العرب، ويفضلونهن على العربيات الحرائر[1].

وقد ينجب الرجل أولادا بعضهم من حرائر، والبعض الآخر من جوارى، فيفاخر أولاد الحرة على أولاد الجارية، ويشعر ابن الجارية أنه أقل منزلة من ابن الحرة[2].

وإذا أنجبت الجارية أو الأمة تتاح لها الفرصة للانتقال إلى مرتبة أعلى من مرتبة الرقيق، وتسمى أم ولد، وتصبح أحسن وضعا من وضع الأمة، لا يجوز لسيدها أن يبيعها أو يهبها، إنما تبقى حلاله، وإذا توفى سيدها صارت حرة، ينطبق عليها أحكام الميراث، والطفل الذى يولد من أمة يصبح حرا[3].

انتشرت تجارة الرقيق فى المدن الإسلامية، وكان فى بغداد محلة تسمى دار الرقيق، وسُمى تجار الرقيق بالنخاسين، وكان يفد إليهم الشعراء والأغنياء لابتياع الجوارى الحسان، والنخاس ينادى لمن حوله من الراغبين ويصف جواريه، ويتحدث عن ميزة كل واحدة، وكن يلبسن الملابس الفاخرة، ويتعطرن، ويظهرن بأحسن مظهر، وكانت الدولة تعهد إلى عامل من قبلها لمباشرة تجارة الرقيق يسمى «قيِّم الرقيق»[4].

وأحسن أنواع الرقيق : الترك أو الصقالبة أو البلغار، وهن بيض جميلات حسان، وكانت سمرقند أكبر مراكز تجارة الرقيق الأبيض، وكان تجار بلاد ما وراء النهر يتخذون من تربية الرقيق الأبيض وتهذيبه تجارة يمارسونها.

---

(١) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق جـ ٢، ص ٢٤٣.

(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ ١١، ص ١٩٩.

(٤) متز : الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٢٧٧.

وكان لكل نوع من أنواع الرقيق صفات خاصة، فالهنديات عرفن بالطاعة والهدوء وإتقان مباشرة الشئون المنزلية والأعمال اليدوية، واشتهر مولدات المدينة بالمرح واللهو، وعُرفت السودانيات بالميل إلى الطرب واللهو، والمغربيات والتركيات بالميل إلى الشئون المنزلية والزوجية، والعبد الرومى يجيد تدبير المنزل، ويحب النظام والفنون الجميلة، والترك والأرمن عُرف عنهم الخشونة؛ لذلك كانت الأعمال العسكرية هى أفضل مجالاتهم، وكثرت جرائم أهل السند مع ساداتهم، فقل إقبال الناس على شرائهم، ومن ثم رخصت أسعارهم[1].

ونبغ من أبناء الأرقاء أدباء وقادة كبار، منهم على بن العباس بن جريج، وهو الشاعر ابن الرومى - نابغة عصره فى الشعر - وأبو الفتح بن جنى من علماء النحو، ومن كبار القادة العسكريين مؤنس الخادم وجوهر الصقلى - قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى - وفاتح مصر ومؤسس مدينة القاهرة (٣٥٨ - ٣٦٢هـ)، ومن حكام الولايات كافور الإخشيدى الذى حكم مصر وسبكتكين - مؤسس الدولة الغزنوية.

وأدى تعدد أجناس وألوان الجوارى إلى التسرى بهن و إدخال عاداتهن فى الدولة الإسلامية، ونشأت أجيال تحمل ألوانا وصفات وخصائص شعوب مختلفة تنتمى إليها الجوارى المجلوبة.

وعظم شأن الأرقاء - كما قلنا - فى الدولة الإسلامية، الذين انخرطوا فى سلك الجيش واعتمد الأيوبيون على المماليك فى الجندية، وارتفع شأن قادتهم وسيطروا على الجيش، بل وأقاموا دولا مثل دولة المماليك فى الهند، ودولة المماليك فى مصر والشام (١٢٤٨ - ١٥١٧م).

على أن الرقيق كثيرا ما تعرضوا لظلم سادتهم مثل الزنوج الذين جُلبوا من شرق أفريقية، وعاملهم سادتهم معاملة ظالمة جائرة، فكانوا يعملون فى زراعة الأرض بأجور قليلة، فثاروا ثورة كبيرة ضد سادتهم ثورة مظلومين ضد سادتهم الظلمة، وهاجموا البصرة والقرى، ونشروا الخراب والدمار فى البلاد واسترقوا سادتهم، وهزموا جيوش الدولة العباسية مرارا، وظلت ثورتهم أربعة عشر عاما،

---

(١) عصام الفقى : الحواضر الإسلامية، ص ١٨٩.

حتى هزمهم الموفق طلحة ـ أخو الخليفة المعتمد ـ سنة ٢٧٠هـ، وبذلك انتهت ثورة العبيد بعد أن أقلقت الدولة العباسية، وكلفتها الكثير من الأموال.

نصح الإسلام بحسن معاملة الأرقاء، والعمل على تحريرهم، وللعتق أسباب كثيرة منها إظهار العبد التقوى أو دخوله فى الإسلام أو فداء عن يمين أو وفاء بنذر أو التماسا للثواب أو شكرا لله على نعمه.

انتشرت أسواق العبيد ـ كما قلنا ـ فى الدولة الإسلامية، وكان سماسرة العبيد والجوارى يتحدثون عن حسن ما عندهم من رق، ومن حق المشترى فحص دفاتر تاجر الرقيق لمعرفة مصدر العبد أو الجارية، حتى لا يكون حرا فى الأصل أو مسروقا، ومن حقه فحص الجارية أو العبد مع تجنب حرمات الجسد، وعلى التاجر أو السمسار أن يصف عبيده تماما، ويصدق حتى لا يكون العبد مريضا أو مشوها أو به عيب[١].

أهل الذمة :

ومن عناصر السكان أهل الذمة، وهم المسيحيون واليهود ممن بقوا على دينهم، وصاروا ذمة للمسلمين أى فى حمايتهم، وأبقى المسلمون لهم حرية العبادة، وكفلوا لهم ممارسة حياتهم فى طمأنينة، ولكى يجبرهم المسلمون على اعتناق الإسلام، وبقيت لهم كنائسهم، واحتفلوا بأعيادهم، وشاركهم المسلمون هذه الاحتفالات، وشغلوا وظائف هامة فى الدولة مثل الطب، وعملوا بالترجمة والصناعة والتجارة، بل وصل بعضهم إلى منصب وزير.

* * *

المرأة المسلمة وأثرها فى الحياة الاجتماعية :

رفع الإسلام من مكانة المرأة، ونقلها من ذل الجاهلية ومن العبودية التى كانت ترزح تحت نيرها إلى حياة نعمت فيها بالعزة والكرامة. وساوى الإسلام بينها وبين الرجل فى الحقوق والواجبات، وكان الزواج قبل الإسلام يخضع لنظام مجحف بالمرأة، فالرجل يتزوج المرأة كرها دون أخذ رأيها، ولا يمهر لها مهرا، ويطلقها دون حقوق لها، وانتشر الفساد والعلاقات غير المشروعة، كانت المرأة

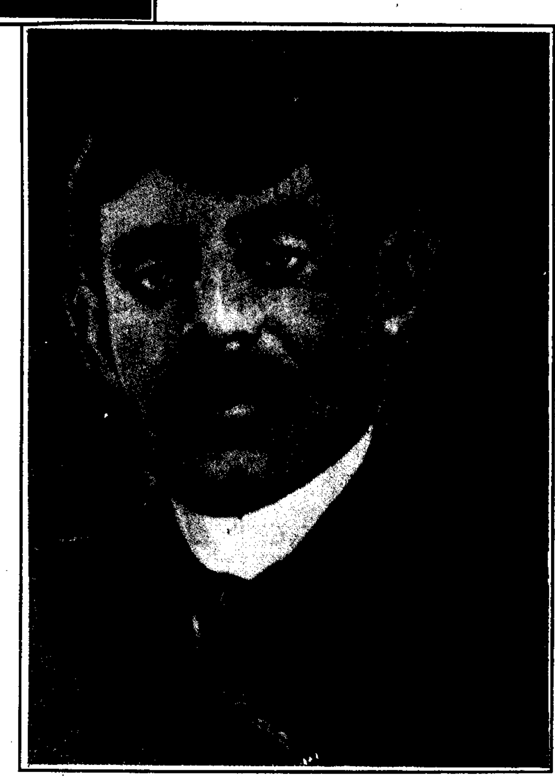
---

(١) ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص ١٥٢، ١٥٣.



هدى شعراوى

قادت الجمعيات النسائية،
ودعت إلى تحرير المرأة



قاسم أمين

أول من دعا إلى تحرير المرأة

ضحيتها، وترتب على ذلك اختلاط الأنساب وشيوع الفساد والبغاء، فمنع الإسلام العلاقات الفاسدة ووضع نظاما دقيقا ومحكما للزواج، يحفظ فيه الرجل والمرأة من الانحراف ويكفل التناسل بطريق حلال مشروع.

جاءت الشريعة الإسلامية لتضع الرجل والمرأة فى منهاج واحد، وسوّت بينهما فى الحقوق والواجبات، قال تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾[1].

عدلت الشريعة الإسلامية من وضع المرأة، فمنعت ما كانت تتعرض له النساء من قسوة الرجل، وحررت إنسانية المرأة روحا وجسدا، وأتاحت لها فرصة التزود بالعلم والمعرفة، وكفلت لها حقوقها المالية وربطتها برسالة الأمة ودعوتها العامة، فالمرأة فى السلم والحرب عنصر فعال، وفى مجال تعاليم الإسلام لا يقل وعى المرأة عن الرجل بأمور الدين والدنيا معا.

ولقد بين القرآن الكريم المساواة بين الرجل والمرأة، والتباين بينهما يكون بالأعمال، قال تعالى : ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾[2] والقرآن الكريم رسم الخطوط العامة التى يشترك فيها الرجل والمرأة، والتى يتضح منها أن وضع المرأة بصفة عامة هو من نوع وضع الرجل، وأن الوضعين يشكلان الوضع العام للحياة فى مسئولياتها وواجباتها وحقوقها[3].

الرجل والمرأة متساويان فى التكاليف الشرعية وفى الثواب والعقاب، والمرأة لها حق الميراث وإن كان نصف الرجل، والمرأة تستقل فى ملكيتها الخاصة، ومن حقها أن تنمى ثروتها وتحتفظ بها لنفسها دون تدخل الزوج، والرجل عليه واجب الإنفاق على المرأة، ومن حقها الموافقة على الزوج، ومن حقها طلب الطلاق إذا وجدت صعوبة فى استمرار الحياة الزوجية، وفى الآية الكريمة ما يدل على أن الإسلام ينصف المرأة ويعطيها الحق فى المطالبة بحسن المعاملة : ﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾[4]. كل هذه حقوق كفلها الإسلام للمرأة، ومن حقها الاحتفاظ باسمها واسم أسرتها وليس إلحاق اسمها باسم زوجها.

---

(١) سورة النساء : الآية ١.
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩٥.
(٣) انظر مكانة المرأة فى الإسلام. د عبد المجيد أبو زيد.
(٤) سورة المجادلة : آية رقم ١.

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات﴾[1]، ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله﴾[2]، ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[3] كل هذه التكاليف الشرعية يتساوى فيها الرجل والمرأة سواء بسواء.

تمتعت المرأة المسلمة بقسط وافر من الحرية، ولم تظهر مشكلة الحجاب فى عهد الراشدين، وظهرت مشكلة الحجاب بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى، وخاصة الترك.

وكانت النساء يسمعن خطب الخلفاء والفقهاء، ويتعلمن الفقه والتفسير ويعلمن أولادهن، ودرسن علوم الدين والشعر والأدب، أى ثقافة العصر.

وكانت أم الدرداء تلقى دروسا فى مسجد دمشق، وبلغ من علو مكانتها أن عبد الملك بن مروان كان يحضر مجالسها، بل كانت توجه النصائح الدينية له، ومن أشهر نساء بنى أمية أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، فقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة، وكان الوليد بن عبد الملك زوجها يستشيرها فى أمور الدولة، وهى التى دفعته إلى كثير من الأعمال الجليلة التى قام بها، وكان عمها عبد الملك ابن مروان لا يرد لها طلبا[4].

واستخدمت أم البنين نفوذها فى خير الناس ورفاهيتهم، ولقنت الحجاج بن يوسف درسا قاسيا فيما ارتكبه من أخطاء وعنف نحو أهل العراق[5].

ومن أشهر نساء بنى مروان : فاطمة بنت مروان، وكان الأمراء الأمويون يختصمون إليها فى خلافاتهم، وحاولت أن تطلب من عمر بن عبد العزيز التساهل فى سياسته نحو أهل بيته[6].

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٥.

(٣) سورة المائدة : آية رقم ٣٨.

(٢) سورة النور : آية رقم ٢

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ٩، ص ٦٦، جـ١، ص ٤١.

(٥) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٠٩ ، ١١٠.

(٦) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٩، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦.

وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللائى نبغن فى الأدب وأيام العرب والنجوم، وفدت إلى هشام بن عبد الملك، فدعا شيوخ بنى أمية إلى السمر عنده فى وجود عائشة، فما تذاكروا شيئا من أيام العرب وأخبارهم وأشعارهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته، فأمر لها هشام بمائة ألف درهم[1].

وكانت المصاهرة عند العرب بمثابة التحالف، فارتفع شأن بنى كلب فى بلاد الشام بزواج معاوية منهم، وارتفعت مكانة بنى مخزوم فى عهد هشام بن عبد الملك بسبب زواجه منهم، وكان يفضلهم فى قضاء الحاجات وزاد فى عطائهم، بل كان ينسب إليهم أحيانا[2]، وكان يزيد بن عبد الملك ينسب أحيانا إلى أمه فيقال يزيد بن عاتكة[3]، وهذا يدل على تقدير المرأة فى الإسلام.

وكان العرب يفضلون الزواج بقرشيات، وإن لم يتيسر عربيات[4] ويبدأ الزواج بالخطبة، ودفع الصداق الذى يختلف بحسب ثروة الزوجين ونسب الزوجة، وفى استطاعة عامة الناس التزوج بصداق يقل عن دينار، وقد يسر الرسول ذلك حتى لا يؤدى الصداق إلى عرقلة الزواج.

وفُرض الحجاب على المرأة الحرة، أما الجوارى فلم يُفرض عليهن الحجاب إلا بعد الإنجاب، وكن يقمن بالغناء فى بيوت تجار الرقيق ويحضر الرجال لسماعهن وهن غير محجبات، وحرص الرجال على تعليم الجوارى، ولم يحرصوا على تعليم الحرائر، على أن الحجاب الذى فُرض على المرأة الحرة فى العصر العباسى لم يمنعها من ممارسة نشاطها فى الحياة العامة.

وكانت الخيزران ـ زوج الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد ـ أتيحت لها الفرصة لإظهار مواهبها وفرض إرادتها[5]، وتدخلت فى شئون السياسة والحكم، وهيأ لها الخليفة المهدى ذلك، وزودها بالثقافة الأدبية من بعض نساء البيت

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ ١١، ص ١٨٩ ، ١٩٠.
(٢) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية، ص ١٢٦ ، ١٢٧.
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف، ص ١٩٦.
(٤) الثعالبى : لطائف المعارف، ص ٥١.
(٥) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢ ص ٢٤٨.

العباسى. وكانت مواكب ذوى الحاجات لا تخلو من بابها، ولكن الهادى ـ ابنها ـ استاء من تدخل أمه الخيزران فى شئون السياسة والدولة، وأمرها بعدم استقبال ذوى الحاجات، ونصحها بترك التدخل فى شئون الدولة، والتفرغ للعبادة(١).

ولكن الخيزران أصرت على التدخل فى شئون الدولة، وتصدت لابنها الهادى الذى اعتزم تنحية أخيه الرشيد عن ولاية العهد، وإسنادها إلى ابنه، وأحبطت محاولة ابنها، وتولى الرشيد الخلافة، فلم يمنعها من مزاولة نشاطها السياسى.

ولم يمنع المهدى ابنته علية من مزاولة هوايتها الفنية، وكانت مولعة بالشعر والغناء والأدب، وبلغت فى الغناء درجة كبيرة من الإتقان، وكانت واسعة الاطلاع، تراسل بالشعر، وتوفيت سنة ٢١٠هـ(٢).

ومن أشهر نساء العصر العباسى السيدة زبيدة ـ زوج الرشيد ـ التى ساهمت مع زوجها مساهمة كبيرة فى إصلاح أحوال البلاد، وتخفيف أعباء الحياة عن الناس، سقت أهل مكة الماء، وشقت عين زبيدة، ولها إصلاحات جليلة فى المدينة المنورة، ومهدت طريق الحج بين بغداد ومكة، وأقامت فيه الآبار والمنازل(٣).

وعُرف عنها الخير والبر بالفقراء والمساكين، وحرصت على تعليم أولادها وجواريها علوم الدين، وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم، وتأمر جواريها فى أوقات معينة من اليوم بقراءة القرآن.

لعبت السيدة زبيدة دورا كبيرا فى تطور الحياة السياسية فى بغداد، فلما سيطر البرامكة والفرس عموما على شئون الدولة فى عهد الرشيد تزعمت الحزب العربى لإضعاف شأن الفرس وإعادة النفوذ إلى الحزب العربى، فحرضت زوجها الرشيد على أخذ البيعة بولاية العهد لابنهما الأمين قبل المأمون، على الرغم من أن الأمين أصغر من المأمون، والأمين يمثل الحزب العربى، وبفضلها برزت شخصية الفضل بن الربيع وتخلص الرشيد من البرامكة، وولى الأمين الخلافة،

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٧٠هـ.
(٢) الأصفهانى : الأغانى، جـ ١٠، ص ١٦٢.
(٣) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ٥٥٦.

وبذلك استعاد الحزب العربى نفوذه، ولكن المأمون بمساعدة الفرس انتزع الخلافة من الأمين، وهُزم الحزب العربى، وانتصر الحزب الفارسى[1].

وكانت السيدة زبيدة تحيا حياة مترفة فى قصرها المنيف، وتمتلك ثروة ضخمة، وضعف نفوذها بعد تولية الأمين، ولم تظهر فى الحياة العامة إلا فى مناسبة زواج المأمون من بوران بنت الوزير الحسن بن سهل وعفا عنها، وكان لا يرد لها طلبا[2].

وكانت السيدة زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس تتمتع بنفوذ كبير، وكان بنو العباس يعظمونها، وإليها ينسب الزينبيون وهى التى أقنعت المأمون بالعودة إلى لبس السواد - شعار آبائه وأجداده - بدلا من الخضار شعار العلويين.

وكانت عائشة بنت الرشيد من أفضل نساء عصرها، تشجع القراء والأدباء، وتجزل الصلات لهم، وكذلك عالية بنت الرشيد كانت من الشعراء، وكان أبوها يعتمد عليها فى مهام أموره، ويفضى إليها بأسراره[3].

أما العباسة بنت الرشيد، فكانت أديبة فاضلة، وكان يشركها فى مجلسه.

ظلت للمرأة مكانة مرموقة فى الدولة الإسلامية، فوفدت على مصر نساء من الأشراف، كن موضع تكريم وتقدير من الحكام ومن الناس، فوفدت السيدة زينب على مصر بعد مأساة كربلاء، وكانت السيدة نفيسة ورعة عالمة بشئون الدين، وكانت تناظر الإمام الشافعى فى الفقه، وأقر بأنه استفاد كثيرا من علمها، وست الملك أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، لها حرسها وخدمها الذين يعرفون بالقصرية وكان لها قصرا ودارا وبستانا، وكانت لنساء القصر خادمات ينقلن تعليمات الخليفة إليهن.

ومما يدل على مكانة المرأة فى دار الإسلام من أن بعضهن تولين ملك بعض البلاد الإسلامية مثل الملكة أسماء، وهى أول ملكة فى تاريخ اليمن يُخطب لها على المنابر بعد زوجها على الصليحى، وتولت الملك أروى مع زوجها الملك المكرم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ١٠.

(٢) ابن الساعى : نساء الخلفاء، ص ٧٠.

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ١٩٠.

حكم اليمن، ولما مات زوجها انفردت بحكم اليمن، وحكمته حكما مستنيرا، ورفعت مستوى المعيشة لدى الناس ومهدت الطرق لتيسير سبل التجارة، وأنشأت المدارس والمساجد، وحكمت اليمن من (٤٩٢ ـ ٥٣٢ هـ)، ولقد وحدت بلاد اليمن فى فترة حكمها، ومما يدل على الأثر الطيب الذى تركته فى نفوس أهل اليمن أن قبرها فى ذى جبلة لا يزال يُزار حتى اليوم(١).

وانفردت «علم» بحكم الدولة النجاحية، وحكمت باسم ابنها فاتك، وكذلك بعد مقتل الملك الناصر الأيوبى فى اليمن سنة ٦١١ تحملت أمه مسئولية الحكم، وأعادت الهدوء والسكينة إلى البلاد(٢).

وفى بلاد الهند عهد التمش إلى ابنته رضية بتولى ملك سلطنة دلهى الإسلامية، وواجهت السلطانة رضية معارضة شديدة، ولكنها أظهرت مقدرة وكفاءة فى سحق المناوئين، وأعادت الهدوء والسكينة إلى البلاد، وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال فى تصرفاتها وأعمالها حتى تضفى على نفسها الرهبة أمام الناس، فتزيت بزى الرجال، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها، وكانت تركب الفيل وهى تقود جيشها، لكنها أساءت إلى سمعتها حينما تزوجت من رجل حبشى، يعمل أميرا للخيل، وتجددت الثورات ضدها، وانتهى مصيرها إلى القتل(٣).

على أن رضية كانت سلطانة عادلة، شجعت العلوم والآداب، وكانت تتجول فى الأسواق فى زى الرجال ت ٦٣٤هـ.

وفى مصر حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، وغزا الصليبيون مصر بقيادة لويس التاسع، ولكن الملك الأيوبى توفى أثناء معركة المنصورة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، فكتمت شجرة الدر خبر موت زوجها حتى لا يفت ذلك فى عضد الجند، واستمرت المعركة، واستدعت ابنه توران شاه لقيادة المعركة، وانتهت بانتصار المصريين، وحكمت شجرة الدر مصر سنة ١٢٥٠ ثمانين يوما؛ لأن الخليفة

---

(١) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٥.

(٣) عصام الدين الفقى : الهند فى العصر الإسلامى، ص ٧١.

العباسى رفض الاعتراف بحكم امرأة، وسخر المماليك والناس من حكم المرأة لمصر، فتزوجت قائد الجيش عز الدين أيبك التركمانى وتولى حكم مصر، ولكن حدثت منافسة بين الملك وزوجه الطموح، فقد كانت شديدة الغيرة من زوجته أم على فضلا عن رغبتها فى التدخل فى شئون الحكم، ودبرت شجرة الدر مقتله سنة ١٢٥٧، فقبض عليها المماليك، وقتلوها، وقد أظهرت جدارة وكفاءة وحسن تدبير للأمور.

وساهمت النساء المسلمات بنصيب فى الفكر الإسلامى المزدهر فى دولة الإسلام، فشمس الدين الذهبى يترجم لثمانية وثمانين امرأة شاعرات ومحدثات وطبيبات وأديبات، ويترجم ابن عساكر كذلك لعدد كبير من النساء منهم طبيبات، وذكر عددا من النساء تعلم منهن، والسخاوى يخصص جزءا من كتابه «الضوء اللامع» للنساء البارزات فى الدولة الإسلامية فى العلوم والسياسة والاجتماع.

طبقات المجتمع :

المجتمع فى العصر الإسلامى مجتمع طبقى، يتكون من ثلاث طبقات : الطبقة الأرستقراطية، وتضم الخليفة والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، وكانوا يعيشون عيشة ترف ونعيم، وقصورهم واسعة فخمة، تضم مئات الجوارى والغلمان، وبها الحدائق الغناء، وقاعات ذات قباب وأروقة، واتخذ الخلفاء ومن يلوذ بهم فى سامرا أو بغداد القصور المنيفة، مثل قصور الخليفة المتوكل العروس والجعفرى والبرج والتاج[1].

وكانت دار الوزير ابن الفرات أشبه بمدينة كاملة، وتضم مطابخ توزع الطعام على موظفى ورجال القصر والمحتاجين من عامة الناس[2]، واتخذ أحمد بن طولون فى مدينته القطائع - حاضرة مصر - قصرا فخما يضم الحدائق الغناء والبحيرات الجميلة.

واتخذ ابنه خمارويه حديقة بها النباتات النادرة والأزهار الرائعة والرياحين وأصناف الشجر وأنواع الورد، وغرس فيها الزعفران المختلف الألوان، وبنى فيه

---

(١) جميل نحلة المدور : حضارة الإسلام فى دار السلام، ص ١٧٣.

(٢) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، ص ١٩٥.

برجا من خشب الساج، وكان يسكن القصر سنة واحدة، ويركب الحصان شهرا واحدا، ويرتدى الثوب يوما واحدا، وكان لعضد الدولة البويهى قصر يتكون من ٣٦٠ غرفة، أى أن عدد حجراته يساوى عدد أيام السنة، وكان يجلس فى كل يوم فى حجرة منها، والأمثلة على الترف والإسراف والبذخ والنعيم لهذه الطبقة كثيرة جدا.

والطبقة الثانية فى هذا المجتمع تشمل العلماء والتجار والأدباء والشعراء، وهذه الطبقة رغم إمكانياتها العقلية والشخصية لا تجد المال إلا إذا تقربت إلى الطبقة الأرستقراطية التى تحتكر الثروة.

أما الطبقة الثالثة، فهم الكادحون من العمال والفلاحين والصناع وأصحاب الحرف، يعملون بكل نشاط لكسب قوت يومهم، وعمال الخراج يأخذون منهم الكثير مما كسبوا، وقد لا يجد الواحد من هذه الطبقة قوت يومه، بعد أن أثقلت الحكومة كاهله بالضرائب، فيهجر عمله أو زراعته،ويعيش على حافة المدن وفى البوادى لقطع الطريق، والاعتداء على القوافل ونهبها، وسرقة بيوت الأغنياء أو أولادهم، وبعض هؤلاء المساكين يفر من الدنيا ويلجأ إلى الله، وينقطع إلى العبادة، ويعيش فى الزوايا على الوقف والصدقات، لا أمل له فى الحياة، وإنما غايته الله والحياة الآخرة.

وكل طبقة من هذه الطبقات تؤدى دورها فى المجتمع الإسلامى، فالفقهاء والعلماء والقراء لهم وضعهم الأدبى فى المجتمع، ويقدرهم الناس، ويجلسون فى المساجد، ويلتف حولهم طلاب العلم، أما الشعراء فيحبهم الناس ويلتفون حولهم، ويتتبعون أشعارهم وينشدونها فى كل مناسبة، وطلاب العلم يتجمعون فى المساجد للدراسة والتعلم من شيوخهم، والتجار يتركزون فى الأسواق، ومنهم تجار الجملة الذين يصدرون بضاعتهم إلى البلاد المختلفة عبر القوافل أو السفن، ويوزعونها على تجار التجزئة فى الأسواق، وكل مجموعة من التجار لسلعة معينة لهم سوق خاص بهم، ولهم رئيس يسمى أحيانا شاه بندر التجار، ويدافع عنهم، ويحل مشاكلهم، ويتكلم باسمهم أمام الهيئة الحاكمة.

أما الصناع والحرفيون من الحدادين والنجارين وعمال البناء والصناع، فلكل مجموعة منهم رئيس يباشر شئونهم.

وكرد فعل لأساليب الترف التى انغمس فيها الأغنياء، والضعف الذى حل بالمسلمين بسبب الحروب الصليبية، والغزو المغولى، وسقوط الأندلس، لجأ بعض الناس إلى الزهد والاعتكاف فى الخانقاوات والزوايا، ولكل مجموعة من هؤلاء قطب أو ولى يلتفون حوله ويتبعون طريقه ويأخذون العهد عليه، ويتلون الأوردة ويقيمون حلقات الذكر برعايته. ووحدت هذه الطرق بين أفرادها، ولبسوا خرقة الصوفية، وإذا مات شيخهم يقيمون له ضريحا، وينسبون إليه الكرامات، ويحتفلون بمولده، وقد عارض الفقهاء ادعاءات الصوفية فى الأولياء، وحديثهم عن الكرامات.

وعلى هامش الحياة فى المجتمع الإسلامى، عاش الفلاحون فى قراهم ينتجون الزرع، ويؤدون ضريبة الأرض، ويعيشون حياة شاقة صعبة فى استغلال الأرض وريها، وفى أداء الضريبة القاسية، التى قد لا تبقى لهم ما يكفيهم أو ما يوازى جهدهم الكبير، ويتعرضون لقسوة عمال الخراج فى جباية ضريبة الأرض، والدولة لا تُعنى بمشاكلهم، ولا تحاول حل مشاكل الرى والزراعة، ويقضون حياتهم فى جهد ومشقة حتى يطويهم الزمان وتزول عنهم الحياة.

كذلك أدى الإفراط فى الترف إلى ظهور حقد طبقى فى المجتمع، وظهور عناصر تحاول أن تثأر لنفسها ولأوضاعها الاجتماعية السيئة، فظهرت طائفة الشطار والعيارين فى بغداد أولا، آذوا الناس إيذاءً شديدا، وأظهروا الفسق وقطع الطريق، وأخذوا النساء والغلمان علانية من الطرق، ولا يردون ما أخذوه إلا بعد أداء قدر كبير من المال، واشتد نهبهم للقرى والمدن، ولم يستطع حاكم بغداد إخضاعهم، فاعتمد الناس على أنفسهم فى التصدى لهم[١].

وهذه الفئة من العامة، أطلق عليهم العيارون والشطار، وثاروا ضد الحكام والأغنياء، وضمت أجناسا مختلفة من العرب والفرس والترك وغيرهم، وأرباب الحرف، ونظموا شئونهم تنظيما عسكريا، فلكل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير.

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق الأوسط، ص ١٨٨.

بدأ ظهور هذه الطائفة حينما حاصر جيش المأمون بغداد فى عهد الأمين ودافعوا عن الحضارة الإسلامية، كما دافعوا عنها فى الفتنة بين المستعين والمعتز، وأدى دخولها فى الحروب الأهلية إلى قوتها العسكرية واكتساب مهارة فى شئون الحرب والقتال، وتطور أمرها إلى احتراف السرقة وقطع الطريق ونهب أموال الأغنياء، ونهب دكاكين التجار وبضائعهم، وانضم إليهم العناصر الناقمة على المجتمع، حتى اشتد خطرها فى العراق، ومن يقرأ تاريخ القرنين الرابع والخامس الهجريين لابن الأثير يلاحظ غارات العيارين المتلاحقة فى بلاد العراق، وبذلت الدولة كل طاقاتها فى التصدى لهم(١).

وعلى غرارهم نشأت فرقة الأحداث فى الشام والحرافيش فى مصر، وهذه المليشيات الشعبية انحرفت عن أهدافها، وهو المحافظة على الأمن والنظام فى المدن وحماية الممتلكات والنساء، واحترفوا السرقة والاعتداء على الأغنياء وانضم إليهم العاطلون والرعاع.

وكان العيارون يقاتلون عراة وفى أوساطهم المآزر. أما الشطار فلهم مئزر يعرف بمئزرة الشطار ولهم مبادئ، وهى عدم الاعتداء على الفقير بل إعطاء ما سرقوه من الأغنياء إلى الفقراء وذوى الحاجات.

الاحتفالات الرسمية :

احتفلت الدولة الإسلامية بعيدى الفطر والأضحى بمظاهر الفرح والسرور، ففى العيدين المذكورين يتخذ الاحتفال فى الثغور والعواصم طابعا خاصا؛ لأن أهلها مجاهدون وتتدفق التبرعات على المجاهدين، ويقبل عليهم الفقهاء والوعاظ لتبصيرهم بالدين ويرسل إليهم الخليفة والأمراء الهدايا وعبارات التشجيع، وفى البلاد الإسلامية يرتدى الناس الملابس الجديدة، ويتزاورون، ويتصافحون، وينسون خلافاتهم ويصالح المتخاصمون بعضهم بعضا، عملا بتعاليم الإسلام(٢).

وفى مصر الفاطمية اتخذ الاحتفال بالعيدين مظاهر خاصة، منها فى عيد الفطر تقديم الخليفة الحلل للموظفين والنقود الذهبية والفضية، وفى عيد الأضحى

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم، جـ ١، ص ٢٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١٩٠.

يقام سماط كبير يعقبه احتفالات كبيرة، ويركب الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات.

واحتفل العباسيون بمولد الرسول ابتداء من القرن الرابع الهجرى، وبموالد على بن أبى طالب والخليفة القائم والحسن والحسين ومولد السيدة فاطمة الزهراء، واحتفل المصريون بعيد وفاء النيل وبليالى الوقود الأربع، وهى أول ونصف شهرى رجب وشعبان، وتضاء القاهرة بالقناديل وتتخذ أبهى مظاهر الزينة، ويفد الناس إلى الجامع الأزهر، حيث يضاء بالقناديل، ويعقد فى صحنه القضاة والعلماء والفقهاء والوعاظ[1].

وأخذ المسلمون عن الفرس الاحتفال بالنيروز والمهرجان، والنيروز هو بداية الربيع، والمهرجان بداية الشتاء، وتبادل الناس فيه الهدايا، وفى مصر احتفل الناس بالنيروز وهو بداية فصل الربيع ونسميه شم النسيم.

وكان المصريون يحتفلون بيوم عاشوراء فى العصر الفاطمى بمظاهر الحزن، ولما عادت مصر إلى السنة فى العصر الأيوبى، احتُفِل بيوم عاشوراء بطبق من الحلوى، وكان المصريون عادة يحتفلون فى مناسباتهم الدينية بتقديم الحلوى وتناولها[2].

وكان الخلفاء العباسيون والفاطميون يخرجون إلى المسجد فى مواكب تضم الأمراء والوزراء والعلماء، وفى مظاهر غاية فى الروعة والبهاء.

أما عن الحياة اليومية فى المدينة الإسلامية، فتبدأ عادة بعد صلاة الفجر، حيث يأوى الناس إلى الحمام للتطهر أو إلى أحواض الماء للوضوء، وبعد صلاة الفجر وظهور الشمس يندفع الرجال إلى أعمالهم، ففى المساجد يجلس الشيوخ وحولهم الطلاب للعلم والدرس، وتنشط الحركة فى الأسواق، ويبدأ تبادل السلع والحديث بين التجار والمشترين حول أخبار المدينة وأخبار الناس والمستجدات، ويذهب عمال الدواوين إلى أعمالهم، ويذهب الحرفيون والصناع إلى معاملهم

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٠ ، ١٩١.

(٢) لمزيد من التفاصيل اقرأ : خطط المقريزى، جـ ١، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧. واقرأ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ ٣، ص ١٢ ، ٥٦٣.

ومصانعهم، ويتجول المحتسب فى أنحاء المدينة لتأدية واجبه فى ضبط الحركة فى الأسواق، ومنع الفساد، وتُفتح أبواب المدينة للقادمين والمغادرين، ويمارس الأطباء عملهم فى البيمارستانات، ويتعبد الصوفية فى زواياهم، ويجتمع الناس فى كل صلاة، وتستمر الحركة فى المدينة حتى صلاة العشاء، وبعد العشاء يأوى كل فرد إلى منزله ويعم المدينة الظلام الدامس، وتغلق أبواب الحارات وأبواب المدينة، ويراقب الجند من فوق أبراج المدينة ما قد تتعرض له المدينة من هجمات العدو، أما فى القرية فالفلاح يستيقظ مع صلاة الفجر، وبعد الصلاة يؤدى واجبه فى أرضه الزراعية حتى المساء، حيث يعم الظلام القرية، ويأوى كل فرد إلى فراشه.

جمع الإسلام هذه الأمة الكبيرة التى تقيم فى ثلاث قارات، وفى مساحات شاسعة من العالم على الفضيلة والتمسك بمكارم الأخلاق، ووحد بين المسلمين جميعا، فالأذان يؤذن خمس مرات فى اليوم تعقبه الصلاة، والمسلمون يصلون فى المسجد خلف إمام واحد، والمسلمون يصومون شهر رمضان، ويذهب بعضهم للحج فى كل عام وفى وقت محدد، ويحتفلون بالأعياد، عيد الفطر وعيد الأضحى فى كل مكان فى دار الإسلام، وتضمهم دولة الخلافة، وهى دولة الإسلام التى تضم المسلمين فى كل أنحاء الأرض، والمسلم يحرص على قراءة كتاب الله وحديث الرسول أو على الأقل الاستماع إلى آيات الله، ويلتزم المسلم بأخلاق ومثل عليا، ويخشى من الرذائل التى نهى عنها الإسلام، ومن يرتكبها فهو فى نظر الجماعة الإسلامية ضال وعقابه فى الدنيا والآخرة. والمسلم فى معاملاته بصفة عامة يخشى الله، كل هذا رفع من المستوى الأخلاقى للمسلمين، ووحد بينهم، وفى الشدائد التى لحقت بالمسلمين كالحروب الصليبية أو الغزو المغولى، كان المسلمون الفارون من ويلات الغزو يجدون ترحيبا من إخوانهم الذين هاجروا إليهم، وكان المسلم يطوف أرجاء دولته الواسعة فى أمن وطمأنينة، يقيم فى المساجد والزوايا والأربطة، ويجد الرعاية، وقد يعمل لأن الوطن الإسلامى الكبير وطنه، وهو مواطن مسلم، فالمسلمون فى وطنهم الكبير يشعرون بالوحدة بين أبناء دينهم، ويتمثلون بقيم الإسلام فى كل مكان.

وكل مجتمع لابد وأن يواجه انحرافات، لأن ذلك من طبيعة البشر، فانتشرت بعض الرذائل فى المجتمع الإسلامى، مثل شرب الخمر، وهذا واضح

فى شعر أبى نواس وكانت فى بغداد والقاهرة وبعض المدن حانات للخمر يأوى إليها المدمنون، ومنع الحاكم بأمر الله الفاطمى فى مصر زراعة الكروم حتى لا يصنع منه خمر[1].

وفسدت النساء فى بعض الأحيان، وحينما تغزل بشار بن برد بالنساء غزلا واضحا ومكشوفا أقبلت عليه النساء وتغنت بشعره، كما أن الحاكم بأمر الله فى مصر منع خروج النساء فى شوارع القاهرة بسبب بعض المساوئ الخلقية[2].

وأدت كثرة الجوارى والغلمان إلى انتشار الزنا بين الجوارى والغلمان، لأن القصور قد تضم الألوف أو المئات من الجنسين، والرقابة غير ممكنة لاتساع القصور، ويعيش الرق ناقما على حياته وعلى مستقبله، فيؤدى ذلك إلى انحرافه، وانتشر الشذوذ الجنسى بسبب كثرة الغلمان حتى فضلهم بعض الرجال على نسائه، وتغنى أبو نواس وشعراء الأندلس بالغلمان.

المؤسسات الاجتماعية :

عرف المجتمع فى الدولة الإسلامية الرعاية الاجتماعية، وأنشئت لذلك مؤسسات لرعاية الفقراء واليتامى، وكانت الزكاة توزع على ذوى الحاجات طبقا للشرع، واتخذ أهل الخير أوقافا للإنفاق على هذه المؤسسات، وكان الأغنياء يقدمون للفقراء الأموال والأطعمة والملابس.

وأسست الدولة البيمارستانات لعلاج المرضى ورعايتهم بالمجان، وكان للمجانين دور لعلاجهم، ويرافقهم من يعنى بهم، ويتجول بهم فى الحدائق والبساتين حتى تطمئن نفوسهم، وانتشرت السبل والسقايات لتوفير ماء الشرب للإنسان والحيوان، وكان بعض الناس ـ وهم السقاءون ـ يوزعون الماء على الناس فى الشوارع والمساجد والأسواق والبيوت، ويشترط فى السقاء النظافة، ونظافة آنيته التى يقدم فيها الماء.

وانتشرت الحمامات فى الدولة الإسلامية، والبيوت ليس فيها حمامات، والحمامات خارج البيوت، ومن أروع هذه الحمامات حمامات بغداد. وصف ابن

---

(١) المقريزى : الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٨.

بطوطة أحد حمامات بغداد وصفا يمكن الإلمام منه بشكل الحمامات فى العصور الوسطى؛ فذكر أنها مطلية بطلاء حسن، وفى كل حمام خلوات كثيرة، كل خلوة مفروشة بالرخام، مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض، والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع، وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجرى فيه الماء الحار والآخر يجرى فيه الماء البارد، يدخل الإنسان الخلوة منفردا، وفى زاوية كل خلوة حوض آخر للاغتسال، ويعطى من يدخل الحمام ثلاث فوط، إحداها ينزل بها عند دخوله، والأخرى عند خروجه، والثالثة ينشف بها الماء عن جسده[1].

وتضمنت الحمامات الصابون والعطور والمواد المطهرة، وتنظف بماء يتضمن مواد مطهرة، ويخلع من يريد الاستحمام ملابسه، وينتقل إلى غرفة أدفأ، ثم إلى غرفة التدليك والبخار، وبعد الاستحمام ينتقل إلى غرفة أقل حرارة حتى يصل إلى غرفة الملابس، ويستريح فى غرفة خاصة بعض الوقت، ولا يخرج إلا بعد أن يهدأ جسمه من حرارة الماء والبخار[2]، وينبغى على صاحب الحمام أن ينظفه بالماء الطاهر وعليه أن يدلك البلاط جيدا والحوض والفساقى والقدور من القاذورات التى قد تتجمع فيه، وعليه أن ينظف أنابيب وبلاعات الماء مما قد يعلق بها، وعليه أن يستعمل البخور مرتين فى اليوم.

ولا يدخل الحمام مجذوم ولا أبرص، وعلى صاحب الحمام أن يكون لديه مآزر نظيفة يؤجرها للناس، وعليه أن يفتح الحمام وقت السحر حتى يتطهر الناس، وعلى المزين فى الحمام أن يستعمل الأمواس الحادة، وأن يكون المزين خفيف الظل، رشيقا بصيرا بالحلاقة[3].

وكانت هناك حمامات للنساء، ويجد النساء فى الذهاب إلى الحمامات فرصة لمغادرة بيوتهن، والالتقاء والتحدث مع بعضهن البعض، والتعرف على البنات الصالحات للزواج.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٦.

(٢) سعيد عاشور : الحضارة الإسلامية، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(٣) ابن الأخوة : نهاية القربة، ص ١٥٤ ـ ١٥٧.

وهناك مؤسسات لرعاية الغرباء مثل الأربطة والخانقاوات والزوايا، ويجدون فيها الرعاية والمأكل والإقامة.

وأول من أسس الخانقاه فى مصر صلاح الدين الأيوبى، أسس لهم دارا ووقفها عليهم سنة ٥٦٩م، وولى عليهم شيخا، وقرر لها أوقافا للنفقة على روادها من الصوفية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كان للفقراء، ومن أراد السفر يعطى أجر سفره، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا، وبنى لهم حماما بجوارهم، وتعددت الخانقاوات، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالورع والتقوى وترجى بركتهم، ولكل خانقاه شيخ يباشر شئون الخانقاه والصوفية فيه. وفى يوم الجمعة لهم مراسم خاصة، يخرج شيخ الخانقاه، وبين يديه خدام الخانقاه، والصوفية يمشون خلفه بسكون ووقار إلى المسجد الحاكمى فيدخلون إلى مقصورة خُصصت لهم، ويقرءون القرآن حتى يؤذن المؤذنون، وبعد صلاة الجمعة يقرأ قارئ من الصوفية آى الذكر الحكيم، ويدعون للسلطان صلاح الدين ويعودون إلى الخانقاه[1].

وتعددت الخانقاوات، كل لها وقف، وصوفية ينقطعون إلى العبادة والذكر، وللخانقاه خدم يقدمون لكل صوفى طعامه صباح مساء، ولكل صوفى كسوة الصيف وكسوة الشتاء، ومرتب من ٢٠ إلى ٣٠ درهما. ولهم الحلاوة من السكر، والصابون لغسل ثيابهم، والأجرة لدخول الحمام وهم عزاب، وللمتزوجين زوايا خاصة، ويجب عليهم حضور الصلوات الخمس فى المسجد، والمبيت فى الخانقاه، والاجتماع داخله، ولكل واحد سجادة خاصة به، وإذا صلوا الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك، ويقرأ بعد الصلاة كل صوفى جزءا من القرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القراء، والقادم إلى الخانقاه يسمح له الخادم بالدخول بعد التأكد من أنه صوفى، ومن أى الخانقاوات قدم ويصافح الشيخ[2].

وشهدت الدولة الإسلامية الرباطات، وشرائط سكان الربط قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وحبس النفس عن المخالفات، ومواصلة الليل

---

(١) خطط المقريزى، جـ ٣، ص ٤٠٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٧.

والنهار بالعبادة، والاشتغال بحفظ الأوقات، وملازمة الأوراد، وانتظار الصلوات، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا[1].

والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم، وانتشرت الربط فى المدن الإسلامية وانتشرت الزوايا فى المدن والقرى الإسلامية، لها أوقاف للإنفاق على العاكفين والمتعبدين فيها[2].

مجالس الوعظ والقصص :

انتشرت المجالس الدينية، وتضم القصاصين والوعاظ فى المساجد، والأماكن العامة، وأقبل عليها بشغف كبير، وكانت ثقافة القصاص والوعاظ قوية فى بعض الحالات، وضحلة فى حالات أخرى.

يذكر الجاحظ من القصاص البلغاء أبا بكر الهذلى، كان خطيبا صاحب أخبار وآثار. ومن القصاص مسلم بن جندب، وكان قاص مسجد النبى، وكان إماما وقارئا، وكان عمر بن عبد العزيز يعجب بقراءته للقرآن الكريم، ومن القصاص موسى بن يسار الأسوارى، وكانت فصاحته بالفارسية تساوى فصاحته فى العربية، وفى مجلسه يجلس العرب على يمينه والفرس على يساره، ويقرأ الآية القرآنية ويفسرها للعرب بالعربية، ثم ينظر إلى الفرس، ويفسر لهم الآية بالفارسية.

ومن القصاص أبو على الأسوارى، قص ست وثلاثين سنة، بدأ بسورة البقرة واختتم القرآن قبل موته، وكان حافظا للسير، ولوجوه التأويلات، وربما فسر الآية فى عدة أسابيع، ويروى ما حفظه من أحاديث عن الآية الواحدة وكان يقص ألوان القصص، وعنده فن فى عرض القصة[3]، ويذكر الجاحظ غير هؤلاء من القصاص الذين حفظوا القرآن الكريم والحديث النبوى، وتفقهوا فى التفسير، وفنون الأدب والقصص، والقصص تدور حول قصص الأنبياء، والقصص المستجدة من القرآن الكريم مثل تصوير أحوال يوم القيامة والبعث.

وكان بعض القصاص والوعاظ على عكس ذلك، يروون القصص الخيالية والحكايات الأسطورية، والأحاديث الضعيفة، ويدخلون الإسرائيليات فى تفسيرهم للقرآن الكريم، وانجذب العامة لأحاديثهم، والتفوا حولهم.

---

(١) خطط المقريزى، جـ٣، ص ٤٢٣.

(٢) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٤٢٨.

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ١، ص ٣٦٣، ٣٦٤.



الشيخ أحمد حسن الباقورى

الواعظ والمفكر الإسلامى الكبير

لذلك أمر الخليفة العباسى القادر سنة ٤٠٨هـ بوقف مجالس القصصين، التى أفسدت عقول العامة، وأضعفت عقيدتهم، كما أن الخليفة المعتضد من قبل ذلك منع القصاص من الجلوس فى المساجد والأماكن العامة.

وكان الوعاظ يعظون الناس فى المساجد، ولما ضعف مستواهم الدينى والفكرى ضعف مستوى الناس فى الدين، وكان بعضهم يعظ الناس فى المسجد نظير أجر وأساءوا إلى المجتمع بمحاولة التدخل فى الخلاف المذهبى بين الناس سُنَّة أو شيعة، على أن الخليفة القادر - على الرغم من حرصه على رفع مستوى الوعاظ - إلا أنه استخدمهم فى تأييد السنة، والنيل من الشيعة. وعقد الوعاظ والقصاص مجالسهم خارج المساجد، لذلك زاد إقبال الناس على مجالسهم، ومنعت الدولة الوعاظ والقصاص من الوعظ، إذا ضعف مستواهم الثقافى أو انحرفوا عن مهمتهم، وحدد الخليفة القادر مهمتهم وقصرها على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٢].

وأصبح من المقرر أن يكون من يقوم بالوعظ عالما بالدين متحليا بالفضيلة والورع ومكارم الأخلاق، عالما بأحكام الشريعة وعلوم القرآن والحديث، وعنده ثقافة أدبية كبيرة، وأخبار الصالحين وحكايات المتقدمين، ويؤدى امتحانا فى ذلك،

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم، جـ ٨، ص ٨٩.

ولا يؤذن لمن لا يجتاز الامتحان بنجاح مزاولة المهنة، وإذا زاولها عوقب وعُزر[1].

كان الوعاظ فى فجر الإسلام علماء فقهاء، وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص، ثم تعرض الجهال للوعظ، وتعلق بهم العوام والنساء، فلم يتشاغلوا بالعلم، وأقبلوا على القصص، وما يعجب الجهلة، وتنوعت البدع فى هذا الفن، وتجنب مجالسهم أهل العلم وطلابه.

وكان قوم منهم يضعون أحاديث رسول الله ﷺ للترغيب والترهيب، وربما قصدوا من ذلك حث الناس على الخير وكفهم عن الشر، وهذا افتئات على الشريعة، وقال الرسول ﷺ : «من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»، وحرصوا على أن يحكوا للناس ما يسعد النفوس، ويطرب القلوب، وتفننوا فى وعظهم، كانوا ينشدون الأشعار الرائعة الغزلية فى العشق، ويتأثر العامة بأقوالهم، فيضل القاص، ويضل العوام، ويحكون للناس روايات تزيدهم خشوعا، وتثير عواطفهم بالبكاء والألم، والقاص له طرقه فى إثارة العوام، فيقرأ شعره بنغم معين، والقارئ يطرب، والقاص ينشد الغزل، مع تصفيق بيديه وإيقاع برجليه، فيثار الناس ويسعدون بهذا المجلس، وأقوال هذا القاص[2].

ومنهم من ينشد أشعار النوح على الموتى، ويصف ما يجرى لهم من البلاء، ويذكر الغربة ومن مات غريبا فتبكى النساء، ويصير المكان كالمأتم.

ومنهم من يتكلم عن الزهد والتصوف، ويستشهد بأشعار العشق، ويقصد أن يكثر الصياح فى مجلسه، ولو على كلام فاسد، ومنهم من يزوق عبارة لا معنى منها، وينحصر كلامهم فى قصص الأنبياء وقليلا ما يذكرون الفرائض، ولا ينهون عن ذنب كالسرقة والزنى ووجوب الصلاة فى مواعيدها والصدق والأمانة إلخ[3].

وقد يكون الوعظ صادقا قاصدا للنصيحة، ومن القصاص من يخلط فى مجلسه الرجال والنساء، وترى النساء يكثرن الصياح متأثرين بقصص القصاص، ولا ينكرون ذلك حتى تتعلق بهم النفوس.

---

(١) ابن الأخوة : نهاية القربة فى طلب الحسبة.

(٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.

وتحدث ابن جبير عن الوعظ فى القاهرة، يرتدى الخطيب أو الواعظ قباء أسود وعمامة سوداء عليها طيلسان، ويصعد المنبر ومعه سيف، يضرب به على المنبر حتى يستمع إليه الناس وينصتوا، ويدعو للصحابة والتابعين وزوجات الرسول ولعميه حمزة والعباس.

ويخطب بعبارات تخشع لها القلوب وتدمع العيون، ويرحب به الناس بعد الخطبة(١).

يتخذ الوعظ فى بغداد تقاليد معينة، ومنها مجلس الشيخ رضى الدين القزوينى - رئيس الشافعية - وفقيه المدرسة النظامية، ومجلسه فى المدرسة المذكورة بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، فيصعد المنبر، ويقرأ القراء أمامه بعض آى الذكر الحكيم على كراسى موضوعة، وقرأوا بأصوات جميلة وبترتيل جيد ثم خطب الإمام المذكور خطبة يتجلى فيها فن الخطابة، والثقافة الواسعة، وفسر القرآن الكريم بأسلوب واضح، وقرأ بعض الأحاديث، وأبرز معانيها، ثم انهال عليه المستمعون بالأسئلة، فأجاب على كل منها، وتأثر الحاضرون بوعظه، بل بكوا بين يديه، وأعلن العصاة توبتهم إلى الله(٢).

ومن كبار الوعاظ صدر الدين الخُجندى، تتجلى فى وعظه سعة اطلاعه على مختلف العلوم، وهو من كبار شيوخ الشافعية(٣).

ومن كبار الوعاظ جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى، وهو رئيس الحنابلة، ومجلسه يوم السبت، يصعد إلى المنبر، ويبتدئ القرآة بتلاوة القرآن الكريم، ويزيد عددهم على العشرين قارئا، فيتلو اثنين أو ثلاث آيات، ثم يتلوهم ثلاثة آخرون، ويتناوب القراء الآيات من سور مختلفة، فإذا فرغوا بدأ الإمام فى وعظه، مفسرا الآيات التى تُليت آية آية، وعنده المقدرة على ترتيب الآيات كما تُليت أمامه، وتعلو أصوات الناس بالتقدير والثناء عليه، والبعض يبكى متأثرا بحلاوة كلامه، وأسلوب وعظه.

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ٥١، ٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

وكان مجلس وعظ ابن الجوزى يضم الألوف من مختلف المستويات، ووعظ الخليفة المستضىء بقوله : يا أمير المؤمنين إذا بلغنى عن عامل أنه يظلم ولم أغيره فأنا الظالم، وكان يوسف لا يشبع زمن القحط، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة، والله ما ذاق عمر سمنا ولا سمينا حتى يخصب الناس، فبكى المستضىء، وتصدق بمال كثير، وأطلق المحابيس وكسى خلقا من الفقراء(١).

وشاهد ابن بطوطة مجلس وعظ ابن تيمية، وكان يعظ أهل دمشق على المنابر، وأهل دمشق يعظمونه، ومن جملة كلامه فى الوعظ : إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولى هذا، ونزل درجة من درجات المنبر، فعارضه أحد الفقهاء، فضربه العامة من أنصار ابن تيمية، وتصدى لهم أنصار الفقيه المعارض لابن تيمية، واشتبك الطرفان فى معركة كبيرة(٢).

الفنادق والقياسر :

ومن مؤسسات المدن الإسلامية فنادق للجاليات الأجنبية من التجار الأوروبيين يحفظون فيها بضائعهم إما فى داخل المدينة أو خارجها، ويحتوى كذلك على كنيسة صغيرة يقيم فيها التجار شعائرهم الدينية، وبها فرن يصنعون فيه الخبز على حسب عاداتهم، ومكان يصرح لهم فيه بشرب النبيذ، وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على تنظيم الإقامة فى الفندق، ويمثلهم أمام السلطات الحاكمة، ويطلق على هذا الشخص اسم الفندقى.

وأقيمت فى مصر الوكالات وهى كالفنادق ينزلها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامى.

وبالإضافة إلى ذلك وجدت أبنية أخرى تسمى القياسر، وهى مجموعة من المبانى العامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن، وكان فى بعض القياسر مساجد للتجار المسلمين، وفوقها مبان يقيم فيها التجار والصناع بأجر. ووجدت الخانات(٣) كذلك يقيم فيها الوافدون على المدينة بأجر، فيستأجر القادم غرفة يقيم فيها فترة مؤقتة حتى تنتهى مهمته فى المدينة.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ١١٢، ١١٣.

(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ١٦٠، ١٦١.

أنواع التسلية :

شغف المسلمون منذ فجر تاريخهم بالصيد والخروج فى رحلات طويلة لأجل ذلك، كما شغفوا بسباق الخيل، وأجريت الاحتفالات العامة فى حلبات السباق، وكان يشترك فى السباق أحيانا أربعة آلاف فرس، وكان الناس يختارون أفضل الخيول للسباق، وكان العرب يدرسون أنساب الخيل، ويحافظون على نقاوة الخيل العربى، ويعنون به[1]، ولهشام بن عبد الملك فرس مشهور يسمى الزائد.

وكان الخلفاء الأمويون يخرجون إلى حلبات السباق، ويقيم السباق، فمن حاز قصب السبق أجازوه، وهى قصبة مغروسة فى نهاية السباق، يقتلعها الفائز بالسباق[2]، وأنفق الأمويون الأموال فى تربية الخيل والعناية بها، واشتركت الأميرات فى السباق، وكان للوليد بن يزيد فارس يسمى السندى، وكثرت فى بلاد الشام حلبات السباق، وقصور الصيد[1].

واهتم الخليفة المعتصم بالصيد، فكان يقيم على ضفاف دجلة حائطا مرتفعا يتخذه مرافقوه أداة لنصب كمين لضحاياهم من حيوانات الصيد، فإذا اتجه الحيوان خلف الحائط يحاصرونه، ويصطادونه، فإما يأسرونه وإما يستولون عليه.

وكان الناس يستخدمون فى الصيد السهم والقوس ثم البندق بعد ذلك ـ وهى كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص يلقونها على حيوانات الصيد ـ وانتشر الصيد بالبندق بين الناس حتى أمر الخليفة العباسى الناصر لدين الله، ألا يخرج للصيد بالبندق إلا كل من أقسم يمين الولاء للفتوة.

وانتشرت رياضة الصولجة بين الناس، حتى النساء كن يمارسن هذه الرياضة، وانتشرت هذه الرياضة فى مصر فى العصر الطولونى.

وشغف الشباب فى العصر العباسى بالمصارعة، وانتشرت السباحة فى نهر دجلة، وأثبت فيها الشباب مهارة وتفوقا وفنا رائعا[2].

واهتم الخلفاء العباسيون باقتناء الحيوانات، فكان المنصور يقتنى الفيلة، واقتنى الرشيد النمور والفهود، وكان عضد الدولة البويهى يقتنى الأسود ويظهرها

---

(١) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٢) أمين أنور الخولى : الرياضة والحضارة الإسلامية، ص ٢٥١.

للناس ترويعا لهم، وكان أحمد بن طولون يربى السباع ويعنى بها ويقتنيها فى دار خصصها لها، وكان يطلقها للحركة والمشى فى ميادين واسعة[1].

وكان النساء فى العصر العباسى يمارسن الرمى بالقوس والسهم[2].

ومن الألعاب المفضلة : المبارزة بالسيوف واللعب بالحراب والرماح ومسابقات الجرى.

ولعبة الصولجان تؤدى على ظهور الخيل بالعصا وهى المضرب الذى يتم به ضرب الكرة، وهى عصا فى نهايتها ما يشبه المطرقة مصنوع من خشب، والكرة المستعملة فى حجم البرتقالة، يتقاذفها اللاعبون من فوق خيولهم، وكان الفريق يتكون من ٦ أو ١٢ حسب كل بلد، وأول من لعبها الخليفة الرشيد.

وقد عرف المسلمون فى العصر العباسى اللعب بالكرة يتقاذفونها لتحقيق الهدف (الجول) والكرة المستعملة فى اللعب من الحجارة أو الطين أو بعض قطع القماش أو من مطاط طبيعى، وتكسى الكرة فى بعض الأحيان بالجلد أو فراء الأرانب وأسموها الطابة والأكرة[3].

وعرف المسلمون نوعا من الرياضة أشبه بالهوكى، وهو أن يمسك كل من اللاعبين مضربا.

قضى المسلمون أوقات فراغهم فى الاستماع إلى القصص القصيرة والنوادر الشيقة، ولعب الشطرنج والنرد.

ومن أهم وسائل التسلية الاستماع إلى الموشحات التى عرفها المسلمون من الأندلس، وهى مناجاة لله والنفس وإعلان التوبة إلى الله، والندم على الخطايا والآثام التى ربما وقع فيها الإنسان، ومدح الرسول، وهى أشعار سهلة، وتخصص المنشدون فى الإنشاد الدينى، وأقيمت الحفلات الدينية وبعض حفلات الزواج، وينشد فيها المنشدون بأصوات جميلة، وأقبل عليهم الناس.

وعرف المسلمون الأزجال وهى شعر عامى تذوقه الناس، بل ربما تجد فيه تعبير أدق من تعبير الشعر باللغة الفصحى، وكان المغنون يغنون بالزجل ويتذوقه العوام، ويتضمن سير الأبطال وقصص عن الحب،وهو خير معبر عن عواطف الإنسان.

---

(١) ، (٢) المصدر السابق ص ٢٥٥، ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٠.

ووُجدت صنعة اشتغل بها حفاظ الأزجال والأشعار والموشحات، فكان الرجل ومعه عدد من أتباعه يتجولون فى القرى والمدن ويغنى، والكورس الذى معه يرد عليه، يغنى بفضل أهل القرية، وصاحب البيت الذى يقف ببابه، ويمدح الرسول، وفى نهاية احتفاله الذى التف حوله الناس بإعجاب وتقدير، يقدم الناس له الهدايا وألوان الطعام والحبوب، وسمى الأديب الأدباتى، وقد أخذ الأوروبيون هذا الفن من العرب فيما يسمى بفن الترابيدور.

الموسيقا والغناء :

كانت مجالس الخلفاء والوزراء والشعراء وكبار رجال الدولة تضم الندماء والمغنين، فالندماء يقصون النوادر الأدبية، ويروون الأشعار، أما المغنون فيؤدون أغانيهم، وقد يكون النديم مغنيا مثل إسحاق بن إبراهيم الموصلى.

وصناعة الغناء هى تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع للأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع كل صوت منها توقيعا عند قطعه، فيكون نغمة ثم تؤلف هذه النغم بعضها مع بعض على نسب متعارفة، فيلذ سماعها بسبب هذا التناسب، وما يحدث عنه من تآلف هذه الأصوات.

انتشر الغناء فى العصر العباسى، وأقبل الناس عليه، وضمت الدولة العباسية الكثير من المغنين والموسيقيين، وأقبلوا على بغداد لعرض أغانيهم، ونال الغناء تقدير الخلفاء، على أن الخليفة المنصور انشغل عن اللهو والطرب بإدارة شئون الدولة والقضاء على أعدائها، ولم يظهر للمغنين، ولم يعقد مجالس للغناء والطرب.

وكان للخلفاء والأمراء فى الدولة الإسلامية ندماء من أهل البلاغة والفصاحة يحدثونهم عن أيام العرب ونوادرهم، وينشدون الأشعار، ويروون لهم قصص الأدباء وطرائفهم، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة.

جعل الرشيد للمغنين مراتب ودرجات، فكان إبراهيم الموصلى وابن جامع وزلزل فى الطبقة الأولى، والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال، والطبقة

الثالثة أصحاب المعازف والطنابير، وإن أجاد أحد المغنين والموسيقيين بمحله رفعه الرشيد إلى المرتبة الأعلى، وقد أثر الفرس فى تقدم الغناء فى الدولة الإسلامية[١].

ومن أشهر المغنين والموسيقيين فى الدولة الإسلامية إبراهيم الموصلى، نبغ فى الموسيقا والغناء، وأعجب به الكثير من الناس، وكان شاعرا مرهف الحس، وقيل: إن إبراهيم بستان فيه جميع الثمار والرياحين[٢].

ولم يكن الناس يعلمون الجوارى الغناء، وأول من علمهن إبراهيم الموصلى، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن، وكان يضع اللحن ويكرره لتستوى له أجزاؤه، وجواريه يضربن عليه، صنع إبراهيم الموصلى تسعمائة لحن، تفوق فى ثلاثة منها على جميع الموسيقيين المعاصرين والسابقين عليه[٣].

واشتهر إسحاق بن إبراهيم الموصلى بالغناء والموسيقا واستفاد من خبرة أبيه، وكان على جانب كبير من المقدرة العلمية والأدبية، وكان شاعرا مجيدا، ولم يكن له نظير فى الموسيقا والغناء، وهو إمام أهل صناعته ورأسهم ومعلمهم، وهو الذى صحح طرق الغناء وميزه وصنفه تصنيفا لم يقدر عليه أحد قبله، وصنف كتابا فى الألحان رتب فيه جميع طرقه، وجمع الغناء القديم، وأضاف إليه الغناء الحديث بما فى ذلك أقوال إقليدس وغيره من أهل العلم بالموسيقا، ومن أقواله أن الإيقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر، والمغنى الحاذق من تمكن من أنفاسه، وتلطف فى اختلاسه، وتفرع فى أجناسه[٤].

تتلمذ فى مدرسة إبراهيم وإسحاق الموصلى الموسيقية كثير من هواة الغناء، مثل علوية، كان مغنيا حاذقا صانعا متقنا، وعُرفت ألحانه بالجودة وحسن السبك[٥].

وكذلك نبغ محمد الزف، وكان إسحاق الموصلى يرفع من قدره ويبرزه فى مجالس الغناء[٦].

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٥، ص ١٦٩.
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ ٤، ص ١٠٨.
(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٥، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩.
(٤) ابن خرداذبة : مختارات من كتاب اللهو والملاهى، ص ٥٥.
(٥) الأصفهانى : الأغانى، جـ ١٤، ص ١٧٨.
(٦) المصدر السابق، جـ٥، ص ٤٠٧.

وكان إسحاق الموصلى يضع الألحان للمغنيات - وأكثرهن من الجوارى - نظير قدر من المال.

كذلك حرص كبار رجال الدولة على عقد مجالس الغناء، وتقريب المغنين لهم أسوة بالخلفاء، فكان جعفر بن يحيى البرمكى - وزير الرشيد - له ظرف وأدب وحسن غناء وضرب بالطبل، ويعقد فى قصره مجالس الغناء والطرب.

واحترف بعض أفراد البيت الغناء مثل إبراهيم بن المهدى، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات، وأحسنهم صوتا، وشغف الناس بغنائه، وكان يحتفظ بدفاترللغناء[1]، وكان صالح بن الرشيد يحتفظ بدفاتر للغناء، ويطرحها على جواريه وغلمانه لغناء ما يستجيده منها[2]، وكان عبد الله بن موسى الهادى من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء[3] واشتهر بالغناء بعض أميرات البيت العباسى مثل علية بنت المهدى، تقول الشعر الجيد وتلحنه أحسن تلحين.

ومن أفضل المغنين فى العصر العباسى الأول عبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع، كان مغنيا ماهرا. وبرز من الجوارى المغنيات عاتكة، وكان المغنون يغنون من ألحانها، وكانت تتقن الضرب بالعود، وعلمت مملوكها مخارق الغناء، ودربته على استعمال العود.

وكان الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة بل وكبار النساء يعقدون مجالس الغناء، يغنى فيه المغنون، وتغنى الجوارى بأجمل الألحان.

وعلى المستوى الشعبى كانت مجالس الغناء تعقد فى الحدائق العامة وعلى الزوارق السابحة فى نهر دجلة.

إذن عرف المسلمون النوتة الموسيقية التى تبرز الألحان المتنوعة، وقد كتب عنها الأصفهانى تفصيلا منها مقام حجاز؛ لأن الغناء ازدهر فى الحجاز فى صدر الإسلام بسبب كثرة الجوارى من البلاد المختلفة، ومنها مقام نهاوند نسبة إلى الفرس الذين أثَّروا فى الغناء تأثيرا كبيرا[4].

---

(١) المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١١.
(٢) المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٧٧.
(٣) المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٩٤.
(٤) المصدر السابق، جـ ٦، ص ٣١، جـ ١٠ ص ١٦٢.



طالبا علم من العراق يستمعان إلى الأستاذ فى دراسة الصيد له

أسد وبعض الحيوانات من كتاب «كليلة ودمنة»

سعاد ماهر : الفنون الإسلامية

وكان زرياب عبدا لإسحاق الموصلى، وغنى فى مجلس الرشيد، فأطربه، فخشى إسحاق أن ينتزع زرياب مكانته عند الرشيد، فطلب منه مغادرة العراق، فرحل إلى الأندلس، ووضع بها ألحانه المشهورة التى أثرت فى الموسيقا الغربية بل وفى موسيقا الجاز الأمريكية، وهو الذى ابتكر الغناء الجماعى، وأنشأ أول فرقة موسيقية يغنى فيها المنشدون على نظام الكورس، وأضاف إلى العود وترا خامسا.

وانتشرت الموسيقا والأغانى فى سائر بلاد الإسلام، حيث كانت تقام الأفراح والحفلات الغنائية التى تتجلى فيها أفضل الألحان، وأجمل الأغانى.

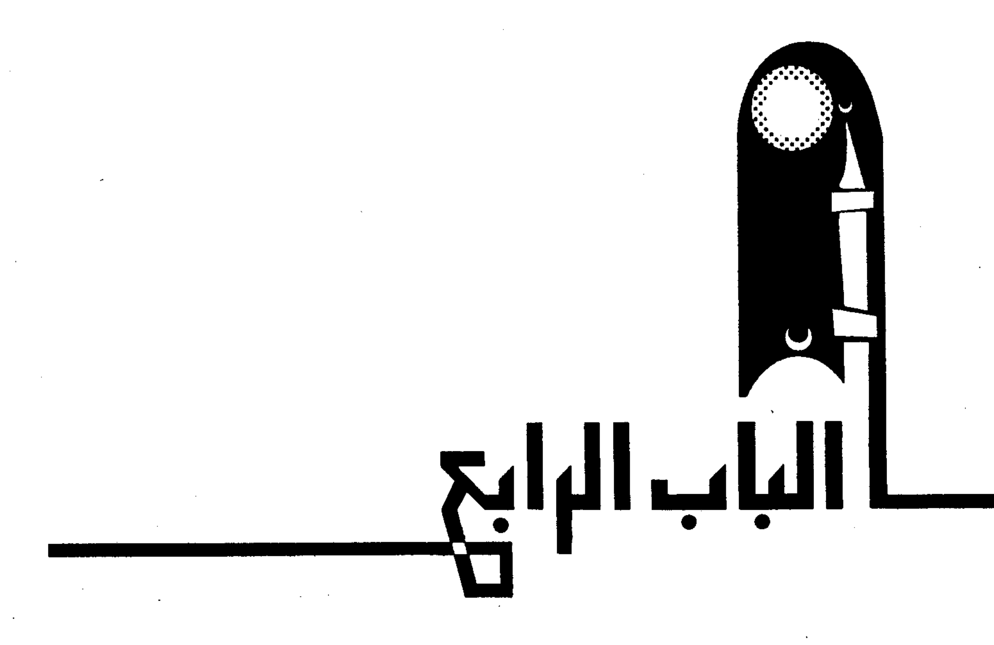
وكان فى بعض المدن الإسلامية حى يقيم فيه المغنون والمغنيات، ولهم رئيس ينظم حفلات غنائية يحضر الناس للاستماع إليها، أو يذهب الناس إليه للاتفاق على إقامة الحفلات الغنائية، وكان بغزنة - حاضرة الدولة الغزنوية - حى يسمى شادى آباد، يقدم فيه المغنون ألحانهم، ويستمتع الناس فيه بألوان الموسيقا والغناء(١). ومن أشهر مطربات غزنة ستى زرين، كانت مقربة إلى السلطان مسعود الغزنوى، وعهد إليها بمنصب الحجابة فى قصره(٢)، والآلات المستعملة فى الموسيقا العود والقيثارة، أى الآلات الوترية التى تعزف بالقوس والربابة والناى والصفارة والزمارة والبوق والدفوف والأرغانون أو الأرغن والدولاب، وهو الأرغن الكبير بخلاف الأرغن الصغير(٣).

---

(١) تاريخ البيهقى، ص ٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢٠.

(٣) حسين مؤنس : عالم الإسلام، ص ٤٢٦.



الباب الرابع

مظاهر الفكر الإسلامى

أسباب ازدهار الحياة الفكرية
فى العصور الوسطى عند المسلمين

أقام المسلمون دولتهم على أسس سليمة ودعائم قوية، فالإسلام ذين هذه الدولة، ودعا المسلم إلى التفكر والتأمل فى ملك الله، وفى نفسه وفيما وراءه ووراء الطبيعة، والتدبر والعلم والمعرفة، قال تعالى : **﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** (الزمر : ٩)، وخص الله العالم بالفضل وميزه عن الجاهلوقال تعالى : **﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾**، وأوحى الله إلى إبراهيم : أنى عليم، **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** (سورة محمد : آية ١٠)، **﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم﴾** (سورة غافر، الآيات ٢٠ - ٢١)، وقال رسول الله ﷺ : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا». وقال بعض الأدباء : العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف. وقال بعض البلغاء : تعلم العلم، فإنه يقومك ويسودك صغيرا، ويقدِّمك ويسودك كبيرا[1].

ورغَّبت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الحكماء المسلمين فى طلب العلم، لذلك أقبل المسلمون على طلب العلم وتحصيل المعرفة بشغف شديد، وواصلوا العمل به والتأليف حتى أضافوا إلى عالم الفكر إضافات عظيمة، وتركوا لنا تراثا فكريا ثريا من أجل ما خلفته لنا الحضارات الإنسانية.

وبذلك فإن الإسلام يوجه العقل البشرى إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب، ومعرفة الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قديرا، وأن ذلك الصانع واحد، لوحدة النظام فى الأكوان، ونبه العقل البشرى إلى التأمل فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتوجيه الرياح التى تثير السحاب، فينزل من السحاب مطرا يحيى الأرض بعد موتها، وينبت

---

(١) الماوردى : أدب الدنيا والدين، ص ٢٥.

النبات والشجر وفى ذلك قوت للإنسان والحيوان، فضلا عن الماء الذى يروى الكائنات الحية[1].

وأطلق الله للإنسان العقل، ليصل بقدر ما يستطيع إلى أسرار الكون : ﴿ومن آياته خلق السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[2] فالإسلام يعتمد على الدليل العقلى فى إثبات حقيقته، ومن هنا يجب أن نتحدث عن الإسلام كأهم أسباب ازدهار الفكر الإسلامى.

وتضافرت عدة عوامل أدت إلى ازدهار الحركة الفكرية فى دولة الإسلام الكبرى، أقصد الدولتين الأموية والعباسية، والثانية شملت مساحات شاسعة فى أسيا وأفريقيا.

ومن هذه العوامل أن العباسيين تطلعوا إلى الاستفادة من ثقافات الشعوب الأخرى مثل الفرس والهنود واليونان، وأخذوا منهم ما يحتاجونه من علوم وفنون، وما يتناسب مع عقيدتهم وخصوصا الفرس؛ لأن الدولة العباسية قامت فى محيط فارس، وبمساعدة الفرس، واعتنق الفرس الإسلام وحسن إسلامهم، واطمأنوا إلى العباسيين الذين رفعوا شعار المساواة بينهم وبين العرب بعكس بنى أمية، ووضع الفرس كل إمكانياتهم العلمية فى خدمة الفكر الإسلامى، لذلك أصبحت الثقافة الإسلامية خلاصة ثقافات متعددة عربية وفارسية وهندية ويونانية، ونضيف إلى ذلك ثقافات الشعوب التى اندمجت فى الدولة العباسية مثل مصر والشام والعراق واليمن.

ومن أسباب ازدهار الحركة الفكرية أن أهل الذمة عاشوا عيشة راضية فى كنف دولة الإسلام، وتمتعوا بالتسامح والعدل، ومارسوا حياتهم الطبيعية، وأدوا شعائرهم الدينية بحرية كاملة، وقدر الخلفاء والوزراء والمسئولون فى الدولة ذوى المواهب منهم من العلماء فساهموا بكل طاقاتهم فى النهضة الفكرية، وكان لمعرفتهم باللغات الأجنبية - وخصوصا السريانية واليونانية - أثره فى اعتماد الخلفاء عليهم فى حركة الترجمة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وأدى ذلك إلى جعل الفكر اليونانى فى متناول المسلمين.

ومن خلال قراءتنا للنصوص التاريخية نلاحظ أن الكثير من الخلفاء والأمراء والوزراء يوجهون الرعية إلى طلب العلم، من ذلك ما كتبه الرشيد إلى ولاته :

---

(١) محمد عبده : الإسلام بين العلم والمدنية، ص ٩٧.
(٢)سورة الروم، آية : ٢٢.

انظروا من جمع القرآن، وأقبل على طلب العلم، وعمَّر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه فى ألف دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث، وتفقه فى العلم، فاكتبوه فى أربعة آلاف دينار من العطاء، واسمعوا قول فضلاء عصركم وعلماء دهركم وأطيعوا الله ورسوله وأولى الأمر منكم وهم أهل العلم.

ومن أسباب ازدهار الحركة الفكرية توافر استعمال الورق فى الكتابة، بعد أن دخلت سمرقند فى حوزة الدولة الإسلامية، وينمو بها شجر الكاغد الذى يستخدم من لبه الورق، وانتشرت مصانع الورق فى المدن الإسلامية، وأدى ذلك إلى سهولة التأليف، والإقبال على التدوين وإنتاج الكتب.

ومن أسباب النهضة الفكرية تحسن الأحوال المعيشية للناس، لذلك لم يجد طلاب العلم صعوبة فى الرحيل من بلد لآخر لطلب العلم، والإقامة فى بلد ما للاستزادة من العلم.

وساعد على تقدم الحركة الفكرية أن أمة الإسلام دولة واحدة، هى دار الإسلام، فالمسلم أينما حل وارتحل فهو مواطن فى هذه الدولة الكبرى لا نقول شامى أو مصرى أو عراقى أو فارسى أو يمنى وإنما نقول مسلم ومن حقه التنقل فى الولايات الإسلامية لطلب العلم، والعمل فى هذه الولايات، ومن هنا كثر التنقل فى طلب العلم بين المدن الإسلامية سواء من الطلاب أم من العلماء، وأدى ذلك إلى الاستفادة وزيادة التحصيل، فالرحلة لابد منها فى طلب العلم واكتساب الفوائد.

وأدى اتصال العلماء بعضهم ببعض عن طريق الرحلة إلى تبادل المعرفة بينهم، واستفادة كل عالم من زملائه، وأدى تبادل المعرفة والكتب والزيارات والمناقشات إلى النهوض بالحركة الفكرية وازدهارها، ووحدة المعرفة والثقافة فى الدولة الإسلامية الكبرى.

ومن أسباب ازدهار الحركة الفكرية انتشار المجالس العلمية التى تضم العلماء والشعراء والأدباء فى القصور والمساجد ودكاكين الوراقين، وحرص الخلفاء على عقد ندوات علمية ومجالس للمناظرة فى موضوعات مختلفة من العلم، ويحضر كل مناظرة فى موضوع معين كالفقه أو الحديث أو الشعر أو الأدب أو علم الكلام العلماء المتخصصون فى هذه الفروع، وأدت هذه المناظرات إلى رواج الحركة

الفكرية؛ لأن العلماء يحرصون فى مجلس المناظرة على بحث الموضوع المعروض للمناقشة بحثا عميقا حتى يظهر العالم أمام الخليفة وكبار رجال الدولة والعلماء بمظهر لائق يكسبه مكانة مرموقة بين أهل العلم ورجاله، وأدت الخلافات فى الرأى بين العلماء إلى إثراء الحركة الفكرية وازدهارها، وشجعت العلماء على مواصلة البحث والدرس، وإعداد أنفسهم إعدادا جيدا فى مجالس المناظرة.

ونضيف إلى ذلك شعار المساواة الذى رفعه العباسيون، أى أن شعوب الدولة الإسلامية الكبرى على قدم المساواة لا فرق بين عربى أو أعجمى إلا بالتقوى، وهذه المساواة ربطت شعوب الدولة بالحكومة برباط قوى، مما أدى إلى محاولة كل شعب إظهار إمكانياته ومقدرته بإخلاص، ووضع ثقافته فى خدمة دولة الإسلام الكبرى، كما فعل الفرس.

وكان العلماء والأدباء الموهوبون ينالون التقدير الكافى من الخلفاء ورجال الدولة، ويحصلون على المال الوفير، ويعيشون فى رخاء ونعيم، وأدى ذلك إلى محاولة طلاب العلم الاستزادة حتى يعرضوا بضاعتهم على رجال الدولة من أهل الثراء وينالون فى مقابلها التقدير والعرفان.

وأدت حركة الترجمة التى نشطت فى العصر العباسى الأول إلى ازدهار الحركة الفكرية؛ لأنها تضمنت نقل التراث اليونانى والفارسى إلى العربية، وأدى ذلك إلى جعل العلوم العلمية أو التجريبية فى متناول المسلمين استفادوا منها، وأضافوا إليها خلاصة خبراتهم.

المراحل التعليمية عند المسلمين :

أدى الشغف الشديد عند المسلمين فى حب العلم إلى أن أقبل الطلاب على طلب العلم بأعداد كبيرة، وانقسم التعليم إلى مرحلتين: المرحلة الأولى وهى أشبه بالتعليم الابتدائى، ومقرها الكُتَّاب، يتعلم فيه التلاميذ القراءة والكتابة والحساب بعد حفظ القرآن الكريم وهو المهمة الرئيسية للكُتَّاب، ودراسة قدر من الفقه وحفظ الأشعار والحديث وأمثال العرب، ويتولى التعليم فى الكتاب معلم الصبيان الذى يفتح الكتاب ويعده لتعليم الصبيان، ويتقاضى من أولياء الأمور أجورا نظير مهمته، وقد سخر الجاحظ من المعلمين وقال فى أمثال العامة : «أحمق من معلم كتاب»

وقال بعض الحكماء : «لا تستشير معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء»[1].

ولكن هذا القول لا يقلل من أهمية الرسالة السامية التى يقدمها المعلمون للنشء، وقد رد الجاحظ نفسه على هذه المزاعم بقوله : والمعلمون عندى على ضربين، منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك، مثل على بن حمزة الكسائى ومنهم الفقهاء والقراء والشعراء والوعاظ والخطباء مثل الكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبى رباح وحسين المعلم وأبى سعيد المعلم[2].

وذكر الجاحظ أن من بين معلمى الصبيان فى البصرة من رجال العلم، وكان الحجاج بن يوسف الثقفى معلما فى الطائف، وكان ابن المقفع معلما مقدما فى البلاغة والترجمة واختراع المعانى[3]، وروى أن أحق الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل، وانتشرت الكتاتيب فى القرى والمدن، وكان معلم الكتاب يتقاضى أجرا ضئيلا يتكون من الخبز وبعض أصناف الطعام على حين المؤدب لأولاد الطبقة الأرستقراطية من الأمراء والوزراء والقادة يتقاضى أجرا كبيرا، ييسر له سبل الحياة الرغدة، وكان التعليم على ألواح من الخشب.

والحفظ مكروه فى التعليم إنما لابد من استنباط المعانى للوصول إلى اليقين[4].

وكان التلاميذ فى الكتاب يتعرضون للضرب الشديد، حتى أن إسحاق الموصلى تعرض للضرب والحبس من قبل معلمه فهرب إلى الموصل[5]، وكان المحتسب يزور الكتاتيب ويتأكد من حسن معاملة المعلم لتلاميذه، ويعاقبه إذا لاحظ أنه يضربهم ضربا مبرحا، ولا يحافظ على التلاميذ، ولا يحفظهم القرآن حفظا سليما، ولا يؤدى واجبه تماما.

التعليم فى الكتاب إذًا لأبناء العامة، أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فلهم تعليم خاص، إذ كان آباؤهم يعهدون إلى بعض الأدباء بتعليم أبنائهم، ويتبين من

(١) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٥١.
(٣) رسائل الجاحظ، جـ ٣، ص ٤٤.
(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٥) الأغانى، جـ ٥، ص ١٥٧.

توجيهاتهم إلى المعلمين المنهج الدراسى المتبع فى ذلك الوقت لتعليم الناشئة، وهو حفظ القرآن الكريم أولا، ورواية الشعر ودراسة الفقه والحديث، وأمثال العرب وخطبهم، وتعليمهم مكارم الأخلاق، فأوصى عبد الملك بن مروان مؤدب ولده أن يعلمهم الصدق، كما يعلمهم القرآن، ويجنبهم مخالطة السفلة، ويحفظهم الأشعار، وقال الحجاج لمؤدب ولده : علمهم السباحة، كما تعلمهم الكتابة[1].

وقال الرشيد لمؤدب ولده الأمين : أقرئه القرآن، وعرِّفه الآثار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا فى وقته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن عليك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت قلبه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ، وعليك بالرفق به فإن لم يأت بالرفق فخذه بالغلظة[2]. وكان الفراء - وهو من أعلم الكوفيين بالنحو واللغة وفنون الأدب - يؤدب ولدى المأمون[3].

تكلمنا عن المرحلة الأولى للتعليم، وهى أشبه بالتعليم الابتدائى، وكان السواد الأعظم من الصبية يقنعون بهذا القدر من التعلم، وينصرفون إلى العمل وإلى مشاغل الحياة العملية، ولكن بعض هؤلاء الصبية يرغب فى التزود من العلم فى مراحل أعلى من المرحلة الابتدائية، وكانت المساجد الجامعة فى المدن الإسلامية هى مقر هذا النوع من التعليم، وضمت المساجد حلقات دراسية، يقوم بالتدريس فيها شيخ متخصص فى فرع من فروع العلم، ويعقد مجلسه العلمى فى وقت معين من اليوم ويحيط به الطلبة، ولا يقبل منهم فى حلقته إلا من اختبره، ولمس فيه الجدية والمقدرة على الانتظام فى حلقته، ومن هنا كانت المساجد أشبه بالجامعات يدرس فيها مختلف التخصصات، فهناك حلقة للفقه، وحلقة للتفسير، وحلقة للحديث، والطالب يتردد على الحلقة التى تتناسب مع ميوله والدولة لا تتدخل فى هذه الدراسة، واقتصر تدخلها على التأكد من عدم تعارض ما يجرى فى هذه الدراسة من مناقشات مع الدين وسياسة الدولة العامة، والشيخ قد يؤدى

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار، جـ ٢، ص ١٦٧.

(٢) المسعودى : مروج الذهب، جـ ٢، ص ٢٧٨.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٥، ص ٥٢٥.

مهمته دون أجر ابتغاء مرضاة الله، وكان أبو حنيفة يعمل بزازا وفى نفس الوقت يعمل بالتدريس[١]، وكان الطالب يعمل ويدرس فى نفس الوقت.

وهذه الحلقات فى معظمها تدور حول علوم الدين واللغة وإذا أراد الطالب أن يتوسع فى علم درسه على شيخه فى الحلقة، رحل إلى بلد آخر بها شيخ يسمع أنه أكثر علما، ليستزيد ويستفيد منه. وقد برز من هذه الحلقات شيوخ كبار منهم القاضى أبو يوسف[٢].



علم وفن وانكباب على العلم عند المسلمين

---

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ٢٤١.
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٥، ص ٥٢.

وأثبتت هذه الحلقات وما يدور فيها من مناقشات حرية الفكر الذى عاش فى كنفه العلماء وطلاب العلم، فضمت شيوخا تتمشى آراؤهم مع أفكار المعتزلة ـ على الرغم من معارضة بعض الخلفاء لها. وضمت شيوخا اختلفوا فى المذاهب الإسلامية، كالحنابلة والشافعية والمالكية وأتباع مذهب الإمام أبى حنيفة، وضمت شيوخا من الشيعة والأشاعرة والمرجئة، حتى أن جامع عمرو بن العاص فى القاهرة كان شيوخه وعلماؤه يدرسون طبقا للمذهب السنى، على حين اقتصر الجامع الأزهر على تدريس الفقه الشيعى ونشر أفكار وآراء الشيعة الإسماعيلية، ومعظم شيوخ فارس كانوا من الشيعة والمعتزلة والمتكلمين، وهذا الخلاف المذهبى أثرى الحياة الفكرية الدينية، وأبرز الكثير من المؤلفات فى مذاهب مختلفة.

وكان العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين المدن الإسلامية طلبا للعلم، حتى إذا استقر بهم المقام فى بلد ما، صنفوا المصنفات القيمة، وقد شُغف بعض طلاب العلم بلقاء أهل العلم والاستفادة منهم، حتى قضوا سنوات طويلة فى التنقل بين المدن لطلب العلم، وحرصوا على التعلم والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الشيوخ، وقد ذكر أن أبا القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى من رجال القرن الثالث الهجرى ظل ثلاثة وثلاثين سنة يتنقل بين المدن الإسلامية للاستماع إلى شيوخ العلم حتى أنه استمع إلى ألف شيخ، وقيل إن أبا القاسم بن دباغ تنقل بين مصر والشام طلبا للعلم حوالى سنة ٣٤٥هـ، واستمر على ذلك خمسة عشر عاما، وبلغ عدد شيوخه ٢٣٦ شيخا، وبلغ عدد شيوخ الإمام شمس الدين الذهبى ـ صاحب كتاب تاريخ الإسلام ـ ألف وأربعمائة شيخ.

لما كان التعليم فى المساجد، وانعقاد حلقات الدرس فيها طوال اليوم، وما يجرى فى الحلقات من مناقشات ومحاضرات قد تزعج المصلين والعاكفين والمتعبدين والمتفرغين لقراءة القرآن، لذلك أسس الوزير السلجوقى نظام الملك المدارس، لتختص بالناحية التعليمية، وتخفف عن المساجد، وسُميت المدارس التى أسسها هذا الوزير بالنظامية، وأسس مدرسة فى بغداد وأخرى فى نيسابور، وأسس مدارس أخرى فى المدن الإسلامية على غرار النظامية ببغداد وخصوصا فى بلخ

وأصفهان والبصرة وحرّان(١)، وهذه المدارس تقوم بمهمة التعليم العالى، بمعنى أن الطالب الذى يسمح له بدخولها، قد نال حظا من العلم، وقد خُصصت حجرات فى هذه المدارس يقيم فيها الطلاب، ولهذه المدارس وقف يُنفق جزء منه على الطلاب.

وأشهر هذه المدارس نظامية بغداد، لكثرة عائداتها والمكانة الرفيعة لأساتذتها، وكثرة الطلاب النوابغ الذى تخرجوا منها، وأصبحوا علماء وشيوخا لهم مكانتهم العلمية الرفيعة فى الدولة الإسلامية.

ووجه نظام الملك اهتماما كبيرا بنظامية بغداد حتى أنه أنفق على بنائها مائتى ألف دينار، وكتب اسمه فى أعلاها، وبنى الأسواق فى أطرافها، وحدد لها وقفا كبيرا لتغطية نفقاتها، واشترى الضياع والحمامات والمخازن والدكاكين، ووقفها عليها، وبلغت نفقات الأساتذة والطلاب خمسة عشر ألف دينار فى السنة، وكانت نظامية بغداد تضم ستة آلاف طالب يدرسون علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو والصرف(٢) واللغة والأدب وغيرها من العلوم، وقيل : ما من طالب يدرس فى النظامية إلا وفتح الله عليه.

وتتضمن النظامية مكتبة كبيرة يشرف عليها خازن الكتب، وهو المشرف على المكتبة، وتضم المدرسة معلمين ينقسمون حسب درجاتهم إلى ثلاث فئات : فئة المدرسين ولكل مدرسة نائبان، وفئة المعيدين الذين يعيدون إعطاء الدروس وتكرارها وشرحها للطلاب، وفئة ثالثة بمثابة الوعاظ، وكان المدرس يلبس العباءة السوداء، ويجلس على كرسى مرتفع بالنسبة للطلاب(٣).

وهناك حرص شديد على حسن اختيار علماء النظامية، لذلك كان المدرسون والوعاظ وخزنة الكتب من أعظم علماء زمانهم. وفى سنة ٦٠٧ هـ عُين عطا

---

(١) سعيد نفيس : المدرسة النظامية فى بغداد، ص ٦٩ ، ٧٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٨١ ـ ٨٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٩.

ملك الجوينى حاكما على بغداد، واحترقت السوق التى تقع فى النظامية، فأمر عطا ملك بتجديد بناء السوق من أوقاف النظامية.

ومن أشهر أساتذة المدرسة النظامية حجة الإسلام الإمام الغزالى، ودرَّس فيها أربع سنوات ٤٨٤ ـ ٤٨٨ هـ ، واعتزل التدريس بعد ذلك، وتفرغ للعبادة.

وتعرضت النظامية لبعض الحرائق حتى حل بها الخراب والدمار، ولم تترك سوى أنقاضا(١).

وفى سنة ٦٢٥ هـ شرع الخليفة المستنصر فى بناء مدرسة كبيرة، وأتم بناءها سنة ٦٣١هـ، وخصصها لأصحاب المذاهب الأربعة، وكانت المستنصرية أكبر وأحدث بناءً(٢).

وقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة فى المستنصرية إيوان ومسجد مستقل، وقاعة للتدريس، ويجلس الشيخ تحت قبة خشبية يدرس للطلاب، وعن يمينه وشماله معيدان يشرحان ما قاله، ويرتدى الشيخ عباءة سوداء وعمامة، وبُنى داخل المدرسة حمام ودار للوضوء.

وبلغ وقف المستنصرية فى العام أكثر من سبعة وثلاثين ألف مثقال، وتضم مكتبتها مائة وستين حملا من الكتب النفيسة، وبلغ عدد فقهائها ٢٤٨ رجلا على المذاهب الأربعة، وبها أربعة مدرسون وشيخ حديث وشيخ نحو وطبيب، وشيخ فرائض، وبها مطبخ كبير للطلاب والأساتذة والموظفين، ووقفها قرى ورباع تدر ربحا كبيرا(٣).

وفى مصر والشام أسس الأيوبيون والمماليك العديد من المدارس، وبذلك انتشرت المدارس فى المدن الإسلامية، على أن انتشار المدارس لم يمنع من استمرار حلقات الدرس فى المساجد الكبرى كالحرمين الشريفين، والمسجد الأقصى والجامع

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٧ ، ٨٨.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٧٣٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٣٢ ، ٧٣٣.

الأموى فى دمشق، وجامع عمرو بن العاص والجامع الأزهر، وجامع الزيتونة فى تونس وغير ذلك من المساجد.

وبذلك وجد طلاب العلم مجالا واسعا للدراسة والبحث، والفرصة متاحة أمام الطلاب لتلقى العلم والتخصص فى المجال الذى يروق لهم حتى يصلوا إلى درجة تؤهلهم للتأليف والتصنيف.

وقد أحصى المقريزى سبعة وسبعين مدرسة فى مصر نخص منها بالذكر المدرسة الفاضلية، بناها القاضى الفاضل - وزير صلاح الدين - فى سنة ٥٨٠هـ، ووقفها على طائفتى الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة لقراءة القرآن، ووقف بهذه المدرسة كتبا كثيرة فى سائر العلوم، يقال مائة ألف مجلد، وذهبت كلها لأن الغلاء الذى حدث فى مصر تسبب فى مجاعة كبرى سنة ٦٩٤هـ فى عهد السلطان الملك العادل كتبغا المنصورى، فصار الطلبة يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى فُقدت معظم كتب المدرسة[١].

أُسست المدارس فى اليمن فى عصر بنى أيوب، يدرس فيها فقه الشافعى وفقه الحنفية، وكانت الدراسة تبدأ ببداية العام الهجرى أى فى أول المحرم، وتستمر ثمانية أشهر حتى أواخر جمادى الآخرة، ثم يحصل الطالب على أجازة فى شهر رجب تتوقف فيه الدراسة، وكان الطلاب يقضون الأجازة فى قراءة صحيح البخارى، وفى اليمن الأعلى فى قراءة الفرائض. وتتوقف الدراسة نهائيا فى شهرى شعبان ورمضان وحتى نهاية عيد الفطر حيث يعود الطلبة من بلادهم، وتستأنف الدراسة فى شهرى شوال وذى القعدة، وتتوقف الدراسة ثانية فى شهر ذى الحجة، أى أن مدة الدراسة ثمانية أشهر يتفرغ الطلاب للمذاكرة شهرا واحدا ويحصلون على أجازة لمدة ثلاثة أشهر[٢].

شيد السلطان الأمير نور بن عمر مدرسة فى تعز ومدرسة فى عدن وثلاث مدارس فى زبيد تعرف بالمنصوريات، ولكل مدرسة مدرس ومعيد وإمام ومؤذن

(١) المقريزى : الخطط، جـ ٤، ص ٣١٦.

(٢) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٣٢٦.

ومعلم وأيتام يحفظون القرآن الكريـم، ووقف على كل مدرسة أوقافا، تغطى كل النفقات من مرتبات المدرسين والعـمال الذين يجلبون الماء إلى المدرسة، ومال ينفق على الأيتام المحدد عددهم فى الوقف، وهكذا اسـتمر إنشاء المدارس فى اليمن بل شيدت بعض نساء البيت الحاكم مدارس لها أوقاف(١).

وهكذا انتشرت المدارس فى كـافة أنحاء البلاد الإسلامية تـؤدى رسالتها فى خدمة الدين واللغة والعلوم الأخرى، ويتخرج منها طلاب على مستوى فكرى جيد يواصلون تأدية رسالة الفكر الإسلامى.

الكتب والمكتبات:

اشـتدت الحـاجة إلى الورق المهـيأ للكتـابة حتى يـتمكن العلمـاء من تأليف وتصنيف الكتب، وفى صـدر الإسـلام كان تدوين بعـض المعلومات عن الحـديث وأقوال السلف يتم فى أوراق غير صالحـة للحفظ ودون تجليد أو نسخ جيد، وهذه المدونات على شكل صحف، ضـاع الكثير منها، وبدأت حركـة التدوين فى القرن الثانى الهجرى أو فى أواخر عهد بنى أمية(٢).

وساعد على ظهور حركة التـدوين ورق البردى الذى كان يُجلب من مصر، وكان فى بغداد درب يسمى «القراطيس» وكانت خزانة المنصور تحوى قدرا كبيرا من هذه القراطيس، وأمر عماله بالمحافظة عليـه خشية أن يُقطع ورق البردى عن بغداد فتصعب الكتابة، وهذا الورق - أى ورق البـردى - كان يستعمل فى الدواوين وفى المعامـلات الرسميـة، أما الفرس وبعض الولايات الإسـلامية فكانوا يكتـبون على الجلود والرق حتى ولى الفضل بن يحـيى الوزارة فأدخل صناعة الورق المأخوذ من شجر الكاغد الذى ينمو فى سمرقند، وكتب فيه رسائل الخليفة وصكوكه، واتخذه الناس فى مكاتباتهم ورسائلهم(٣)، وانتقلت صناعة الـورق المأخوذ من الكاغد من

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد، ص ٨٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤١.

(٣) اليعقوبى : البدان، ص ٢٣٥.

سمرقند إلى بغداد، ويذكر الثعالبى أن كواغيد سمرقند خير أنواع الورق؛ لأنها أنعم وأحسن وأرق، وأُنشئ أول مصنع فى بغداد لصناعة الورق سنة ١٧٨هـ.

وتقدم فى بغداد فن الوراقة، ويقصد به نسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها، وكل ما يتعلق بإخراج الكتاب، وكان الوراقون يبيعون هذه الكتب فى دكاكينهم، والمهتمون بالثقافة يترددون على هذه الدكاكين للقراءة أولشراء ما يلزمهم من الكتب والمصنفات، وكان ببغداد نحو مائة وراق[١]، ودكاكينهم أشبه بالمكتبات العامة فى يومنا هذا، والوراق وهو الناشر فى هذه الأيام من ذوى الدراية والمعرفة راوية عارف بالأنساب والمناظرات مثل علان الشعوبى ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون[٢].

والمعروف أن ابن النديم كان وراقا، واستفاد من هذه المهنة فى معرفة الكتب ومؤلفيها وأنواعها، لذلك ألف كتابا رائعا وهو «الفهرست»[٣].

وكان ابن الهيثم وراقا ينسخ الكتب فى الجامع الأزهر ويبيعها لعشاق الكتب أمام الجامع، وكان المقدسى ـ صاحب كتاب «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» ـ يلتمس العيش من كل سبيل فى المدن التى ينزل بها، فاشتغل بتجليد الكتب فى مدينة عدن. وكان أبو حيان التوحيدى ـ صاحب كتاب «الإمتاع والمؤانسة» ـ وراقا ينسخ الكتب بخط جميل، والنقل الصحيح وتزويق ما يكتب وسلامته من التصحيف والتحريف، وقدم الصاحب إسماعيل بن عباد رسائله إليه لينسخها، وكان يقنع بالقليل على حد قوله، ويقول: بارت البضائع وغارت البدائع وكسد سوق العلم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم[٤]. واشتغل ياقوت الحموى بالوراقة، وأفادته جولاته الكثيرة فى الدولة الإسلامية إلى الاطلاع على الكتب الكثيرة، وشُغف بها حتى ألف كتابين من روائع الكتب هما: «معجم البلدان» و«معجم الأدباء».

---

(١) اليعقوبى: البلدان، ص ٢٣٥.
(٢) ابن النديم: الفهرست، ص ١٧٤.
(٣) ياقوت: معجم الأدباء، جـ ١٨، ص ١٧.
(٤) المصدر السابق، ص ١٨.

والوراقون من رجال الفكر، بعضهم شعراء وأدباء، ولكل مؤلف وراق، ينسخ وينشر كتبه، فللجاحظ وراق يسمى زكريا بن يحيى، ولغيره من الأدباء وراقون، وهناك دلال الكتب وسمسار الكتب، وبعض الوراقين عُرف عنه الغش والتزوير، كان ينسب الكتاب إلى غير صاحبه أو لمؤلف مشهور حتى يضمن رواج الكتاب[1]، لذلك فعلى كل من يحقق مخطوطا أن يتأكد أولا من نسبة الكتاب إلى صاحبه. ودكاكين الوراقين تعقد فيها عادة الندوات والمناظرات الأدبية، يجتمع فيها العلماء والأدباء لمناقشة قضايا علمية أو أدبية، وفى استطاعة عاشق الكتب أن يقضى ليله فى دكان الوراق نظير أجر للقراءة والاطلاع، وكان الجاحظ يبيت فى دكاكين الوراقين، وسقطت عليه الكتب فمات سنة ٢٥٥هـ. وفى استطاعة من لا يجد مالا لشراء أمهات الكتب الغالية الثمن أن ينسخ هذه الكتب أو يعهد لخطاط بنسخها[2].

وبدأ المسلمون فى التأليف، مثل: ابن المقفع الذى ترجم من الفارسية إلى العربية، ووضع عبد الحميد الكاتب منهجا فى الكتابة، وقال : القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والعلم بحر لؤلؤه الحكمة. ودونت أشعار جرير والفرزدق والأخطل، ودون «موطأ الإمام مالك بن أنس»، وترجم خالد بن يزيد بن معاوية كتب اليونان فى الكيمياء وغيرها.

ويرتبط بازدهار الفكر الإسلامى فى الدولة الإسلامية الكبرى الحرص على اقتناء الكتب، وتكوين المكتبات الخاصة فى البيوت والتى تضم مئات بل آلاف المجلدات، وقضوا أوقاتهم بين الكتب، يشتغلون بالاطلاع عليها والاستفادة منها.

وامتلأت بيوت العلماء بالكتب، فأبو عمرو أعلم الناس بالعربية والقرآن والشعر وبأيام العرب وبأيام الناس، وملأت كتبه بيتا له إلى قريب من السقف، إلا أنه أحرقها حتى لا تشغله عن ذكر الله، وإذا احتاج إلى معلومة لا يجد إلا ما حفظه بقلبه، وفيه يقول الفرزدق :

ما زلت أفتح أبوابا وأغلقها — حتى أتيت أبا عمرو بن عمار[3].

---

(١) ماهر حمادة : تاريخ المكتبات فى الإسلام، ص ٧٨، ٧٩، ١٢١.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، حوادث سنة ٥٥٥.

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٢١.

وخلف محمد بن عمرو الواقدى بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا، كل قمطر منها حمل جملين، وله غلامان يكتبان له ليلا ونهارا، وكان ليحيى بن خالد بن برمك مكتبة عظيمة، وكان يحتفظ بثلاث نسخ من كل كتاب.

وللوزير الفتح بن خاقان - وزير المتوكل - مكتبة كبيرة يحضر لقراءة كتبها فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة(١).

وأضاف على بن يحيى المنجم إلى مكتبة ابن خاقان كتبا فى الحكمة، وأنشأ هو أيضا مكتبة لكتب الحكمة فى قرية قرب بغداد، وسمح للناس على اختلاف طبقاتهم بالتردد على هذه المكتبة والاطلاع على ما فيها(٢).

ومن مكتبات بغداد مكتبة إسحاق بن سليمان العباسى، وتمتلئ بالكتب والدفاتر والأقلام والمساطر والمحابر والقماطير.

وكان لأبى بكر الصولى (ت ٣٣٥هـ) بيت عظيم مملوء كتبا، وكان لدى إسحاق الموصلى مكتبة تضم مائة ألف مجلد، قال الأصمعى : لما خرجنا مع الخليفة الرشيد إلى الرقة كان برفقته إسحاق الموصلى، ويحمل ثمانية عشر صندوقا مملوءة كتبا، وقال عنده أضعاف ذلك(٣). وأنفق أحد أثرياء أصفهان ثلاثمائة ألف درهم فى شراء كتب له، وكان لدى أحد أمراء البويهيين خمسة عشر ألف مجلد.

وأسس جعفر بن محمد الموصلى مكتبة كبيرة، أباح القراءة فيها لكل من يتردد عليها بل ويعطى للقارئ الأوراق والأقلام ليكتب ما يريد، ويعقد فيها ندوات شعرية وأدبية، ويقص على الحاضرين نوادر وطرائف وأشعار وشيئا من الفقه والتفسير(٤).

وحينما زار ابن سينا نوح بن نصر السامانى لعلاجه وجد عنده مكتبة فى عدة حجرات تحتوى على صناديق كثيرة، تضم كتبا بلغات متعددة، وفى موضوعات مختلفة، وتضم فهارس لها تقع فى مجلدات(٥).

---

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ١٤٤.
(٢) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٥، ص ١٥٧.
(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٥، ص ٢٩٢.
(٤) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٨، ص ٢٨١.
(٥) خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٢٦.

ومن المكتبات الكبيرة، مكتبة الوزير ابن العميد، وكان يعتز بها، ويزودها بكل كتاب جديد في كل علم وفن، وكان خازنها والمشرف عليها الوزير ابن مسكويه، وضمت المكتبة مختلف المعارف، وكانت تحمل على مائة جمل[1].

وقد أخذ عنه تلميذه الصاحب بن عباد حب اقتناء الكتب، والشغف بالقراءة والاطلاع، وكانت خزانة كتبه تحمل على أربعمائة جمل، وكان لا يفارق الكتب في حله وترحاله[2].

وكان لعضد الدولة البويهى مكتبة فى شيراز، طار صيتها فى الآفاق، وجمع فيها من الكتب الشىء الكثير، والمكتبة منظمة الأثاث، مصنفة الكتب، بها ثلاثة خزان يتناوبون العمل فيها والإشراف عليها، ولكل خزانة فهرس، ييسر سبل الاطلاع للقارئ، وعلى أبواب الخزائن فراشون لا يأذنون لأحد بالدخول إلا لخاصة القوم[3].

وبضاحية من ضواحى بغداد مكتبتان، الأولى مكتبة سابور بن أردشير - وزير بهاء الدولة - وتسمى دار العلم، وهى مكتبة عامة لطلاب العلم والقراءة وأسسها حوالى سنة ٣٨٢[4]، وعدد كتبها حوالى عشرة آلاف مجلد، منها مصحف بخط ابن مقلة[5]، ووفد عليها طلاب العلم والعلماء من الآفاق، وحرص كل عالم على إيداع نسخة من مؤلفاته فى هذه المكتبة، ووقف صاحب المكتبة عليها وقفا كبيرا للإنفاق عليها من نسخ وتدوين وتزويد وتجليد وإشراف وخدمات، وقد وفد على هذه المكتبة أبو العلاء المعرى، وتحدث عن العلماء والأدباء الذين التقى بهم فى هذه المكتبة، وعن الكتب التى قرأها[6]، ويرد ذكرها فى سقط الزند وشروحه، وأحرقت سنة ٤٥١هـ[7].

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام، جـ ٢، ص ٢٢٦.
(٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٢٨٥.
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٤٤٩.
(٤) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ٩، ص ٣٥٥.
(٥) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٧٧.
(٦) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٥ ، ٦.
(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٤٥١هـ.

وشاهد ياقوت الحموى فى رحلاته فى خراسان مكتبات هائلة وخصوصا فى مرو، شجعته على الاستقرار فيها للقراءة والاطلاع، ومنها مكتبة ملحقة بالمسجد تسمى العزيزية، نسبة إلى عزيز الدين أبو بكر الزنجانى - قاضى السلطان سنجر - وتضم مكتبته اثنى عشر ألف مجلد، وأشاد ياقوت بمكتبة الوزير نظام الملك، وقال: «وكنت أرتع فيها، وأقتبس من فوائدها، وأنسانى حبها كل بلد، وألهانى عن الأهل والولد»، وقد جمع ياقوت مادته العلمية عن مؤلفاته من هذه المكتبة.

وشاهد ياقوت فى ساوة مكتبة عامة عظيمة وأنشأ أبو على بن سوار - أحد رجال حاشية عضد الدولة البويهى - مكتبة عظيمة فى البصرة، وجعل أجرا لمن يتردد عليها ويستفيد منها(١).

ولما فتح السلطان محمود الغزنوى مدينة الرى استولى على ما فيها من كتب، وتضم ما يوازى مائة حمل، وأحرق ما فيها من كتب الإسماعيلية والمعتزلة والفلسفة والنجوم. وألحق السلطان محمود الغزنوى بالمسجد الجامع فى غزنة - حاضرة ملكه - مدرسة تضم حجراتها من بساط الأرض إلى سقوفها، تصانيف الأئمة الماضين(٢) من علوم الأولين والآخرين من خزائن الملوك السابقين.

واستمر الشغف باقتناء الكتب فى الدولة العباسية، وفى أواخر العصر العباسى، وشيد آخر وزراء الدولة العباسية مؤيد الدين العلقمى مكتبة كبيرة افتتحها سنة ٦٤٤هـ، وضمت كتبا كثيرة فى فروع العلم وقال عنها الشاعر :

رأيت الخزانة قد شيدت	بكتب لها المنظر الهائل
عقول الشيوخ بها ألفت	ومحصوله ذاك والحاصل(٣)

ومن المكتبات المشهورة فى دولة الإسلام مكتبة بنى عمار فى طرابلس فى القرن الخامس الهجرى، واهتم بنو عمار بتزويد هذه المكتبة بنفائس الكتب وخصوصا الكتب على المذهب الإسماعيلى، والنساخ يعملون فيها ليلا ونهارا، ولهم وكلاء يجوبون البلاد الإسلامية لشراء الكتب والمخطوطات النادرة، وعدد

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٤٢١هـ.
(٢) العتبى : تاريخ اليمينى، جـ ٢، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣.
(٣) ابن القوطى : الحوادث الجامعة، ص ٢٠٨.

النساخ يصل إلى مائة وثمانين ناسخا، وبها الكتب المجلدة والمزخرفة والمحلاة بالذهب والفضة بالخطوط المنسوبة لكبار الخطاطين، وفيها عدد كبير جدا من الكتب بخط مؤلفيها، وحوت جميع أنواع وفروع المعرفة الإنسانية من طب وفلك ونجوم وأدب وفلسفة وتاريخ، وقيل إن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد(١).

ونضيف إلى المكتبات سالفة الذكر المكتبات الكبرى التى أسسها الخلفاء، وأهم هذه المكتبات مكتبة دار الحكمة فى بغداد، وسُميت خزانة الحكمة، وخزانة كتب الحكمة ويحيط الغموض بتأسيس هذا البيت، وكل ما نعرفه أن الخليفة المنصور نقل الخزائن إلى بغداد بعد تشييدها، وجمع فيها الكتب من أنحاء مملكته، وأضاف إليها المصنفات التى صنِّفت فى عهده، والتى شجع أصحابها على التأليف، ولما ولى الرشيد أضاف إلى بيت الحكمة كثيرا من الكتب، وأضاف البرامكة إلى هذه الخزائن الكثير من الكتب وخصوصا الفارسية، وفى أواخر عهد الرشيد ضمت خزانة بيت الحكمة كثيرا من الكتب بلغات متعددة منها العربية والفارسية واليونانية والسريانية وبعض اللغات الهندية(٢).

وازدهر بيت الحكمة فى عهد الخليفة المأمون لميله إلى الفلسفة والعلوم العقلية، وأنفق أموالا طائلة فى نقل الكتب إلى بيت الحكمة من الدولة البيزنطية وغيرها، ويعمل فى بيت الحكمة علماء تنوعت ثقافتهم ومعارفهم، فسهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة للمأمون كان حكيما شاعرا، وهو فارسى شعوبى متعصب ضد العرب، وله عدة كتب(٣).

وازداد عدد الكتب فى عهد الخليفة المأمون، فبالإضافة إلى تزويدها بالكتب اليونانية طلب المأمون من يحيى بن بطريق إحضار كتب لاتينية إلى بغداد.

وكان العلماء فى الدولة الإسلامية يودعون نسخا من مؤلفاتهم فى بيت الحكمة، على أن بيت الحكمة ضعف شأنه فى عهد الخليفة المعتصم لعدم اهتمامه بالفكر والثقافة(٤).

---

(١) ماهر حمادة : تاريخ المكتبات فى الإسلام، ص ١٣٣.
(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ٣٤١.
(٣) المصدر السابق : ص ١٧٤.
(٤) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء، جـ ١، ص ٢٨٠.

ويلحق ببيت الحكمة علماء لهم رواتب محددة، وتنوعت اختصاصاتهم ومن بين هؤلاء العلماء علماء فى الفلك؛ ذلك لأن المأمون ألحق ببيت الحكمة مرصدا لإصلاح آلات الرصد، وصاحب بيت الحكمة يشرف على العاملين فيه، وعليه أن يباشر ترتيب الكتب وفهرستها وتصنيفها، وضم بيت الحكمة عدة طوائف، طائفة النساخ، وطائفة المترجمين، وطائفة المفسرين، وطائفة المنجمين، وطائفة الكتبة، وطائفة المجلدين، وكان الناسخ ينسخ ما يطلب منه نظير أجر، وعليه أن يرتب أوراق كل نسخة بعد جمعها وإصلاح ما قد يكون فيها من أخطاء[١].

وكان الخليفة يعين المترجمين فى بيت الحكمة، ويعين لهم رئيسا يتفقد أعمالهم، ويراجعها ويصححها مثل يوحنا بن ماسويه كان نصرانيا سريانيا، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة التى وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم التى فتحها المسلمون، وعينه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا يكتبون بين يديه، وظل يباشر مهامه حتى أيام المأمون، وقام بالترجمة أيضا يوحنا بن البطريق وحنين ابن إسحاق[٢].

وبذلك ساهم بيت الحكمة فى ترجمة كتب فى علوم مختلفة وبلغات متعددة إلى العربية، وكان على المترجم أن يملى كتابه على عدد من الكتاب أو النساخ، حتى تتعدد نسخ الكتاب الواحد وتجلد هذه الكتب، وتودع نسخ منها فى بيت الحكمة، حيث تتاح الفرصة للقراء للاطلاع عليها، والاستفادة منها[٣].

وأسس الحاكم بأمر الله الفاطمى دار الحكمة فى مصر، نسبة إلى مجالس الدعوة الشيعية التى كانت تسمى بمجالس الحكمة، وزودها بدار العلم التى حوت مكتبة كبيرة، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب فى سائر فروع العلم كالفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والنجوم والفلك والكيمياء.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٢١.

(٢) القفطى : إخبار العلماء بأخبار العلماء، ص ٣٨٠.

(٣) ابن النديم : الفهرست، ص ١٠.

ولكن هذه المكتبة ومكاتب الوزراء نهبت فى الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر، وبيعت بأبخس الأثمان أو حُرقت أو أُلقيت فى النيل.

وأقبل الطلاب على دور العلم للقراءة فى مكتبتها الكبيرة، ووجدوا فيها ما يحتاجون من أوراق وأقلام وحبر، وعلى الرغم من التلف الذى حل بها أيام الشدة المستنصرية إلا أن خزائن القصر الداخلية ظلت مملوءة بالكتب، وظل الخلفاء فى العصر الفاطمى الثانى يزودون المكتبة بما تحتاجه من كتب، حتى إن العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين، ترك مكتبة كبيرة تضم مئات المجلدات.

ولما زالت الدولة الفاطمية تعرضت المكتبة مرة أخرى للسلب والنهب على أيدى الأكراد الذين لا يقدرون العلم، وفى سنة ٦٩١هـ وقع بها حريق أتلف ما بها من كتب، ونهب الغلمان ما بقى منها، وباعها السماسرة والدلالون بثمن بخس، واشترى بعض طلاب العلم أوراقا محروقة بها مادة قيمة للاستفادة منها[١]، وحُملت بعض هذه الكتب إلى سائر الأقطار وما لم يحرق منها غطته الرياح بالتراب، فصارت تلالا شاهدها المقريزى وتسمى تلال التراب[٢].

وفى الأندلس أنشأ الحاكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) فى قصره بالزهراء مكتبة تضم أربعمائة ألف مجلد، وروى أنه قرأ معظم هذه الكتب بدليل ما عليها من تعليقات بخط يده، وأنفق الأموال الضخمة فى شراء نفائس الكتب والمصنفات، ومن الكتب التى اشتراها كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى، اشتراها بألف دينار، وتعرضت هذه المكتبة للنهب والحرق حين حاصر - واضح - مولى الحاجب المنصور بن أبى عامر قرطبة، ونهب البربر الكتب وأحرقوها أو باعوها[٣].

وظل اهتمام الخلفاء بإنشاء المكتبات حتى أواخر أيام بنى العباس، فالخليفة الناصر أعاد إلى المكتبة النظامية ما فقدته من كتب، وضم إلى مكتبتها آلاف المجلدات، وشيد رباطا فى ضواحى بغداد، يسمى الرباط الظاهرى، يضم مكتبة

---

(١) المقريزى : الخطط، جـ ٣، ص ٤٦.

(٢) المقريزى : الخطط، جـ ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) عصام الدين عبد الرءوف : تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

كبيرة فيها صنوف المعرفة(١)، واعتمد على بعض العلماء فى تزويدها بالكتب وأسس الخليفة المستعصم آخر خلفاء الدولة العباسية ـ خزانتين للكتب، كان يجلس فيهما للقراءة والاطلاع، وزين جدران الخزانتين بأشعار نظمها شعراء القصر.

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارها
تجلو عروسا من غرائب حسنها ... در الفضائل والعلوم نثارها

ومن المكتبات التى شيدها الإسماعيلية فى آلموت مكتبة كبيرة دمرها هولاكو وهو زاحف بجيوشه إلى بغداد، وتحدث عطا ملك جوينى عن هذه المكتبة أثناء مرافقته هولاكو لتدمير قلاع الإسماعيلية، وذكر أنه أقنع هولاكو بعدم تدمير المكتبة، وبها المصاحف ونفائس الكتب، وكتبا فى التاريخ والنجوم والفلك والطب والفقه والحديث والتفسير، وأمر هولاكو بحرق كتب المذهب الإسماعيلى، وسير شيوخهم(٢)، ومن أهمها كتاب «سر كزشب سيدنا» الذى يتضمن شرح أقوال الحسن الصباح وخلفائه.

وضمت المساجد والرباطات والمارستانات مكتبات يطلع عليها أهل العلم، ولبعضها أوقاف للإنفاق عليها، وعلى عمالها وحراستها، وتزويدها وصيانتها، وبعض كبار رجال الدولة أوقف كتبه لطلاب العلم بعد وفاته مثل عضد الدولة ونظام الملك.

والأمر الجدير بالملاحظة أن الكثير من المكتبات سواء مكتبات الخلفاء أو المكتبات الخاصة تعرض للتلف والحريق، فحينما غزا هولاكو بغداد أحرق كل ما فيها من كتب،وتعرضت المدن الإسلامية أثناء الغزو المغولى لنفس المصير، بل إن بعض العلماء كان يحرق كتبه حتى لا تشغل الناس بالقراءة أو حتى لا ينتفع بها أحد بعدهم. ومن هؤلاء الأديب أبو حيان التوحيدى. وأحرق بعض القادة كتب الإسماعيلية والمعتزلة والجهمية والمشبهة وغيرهم، فالخليفة المستنجد أحرق كتب ابن سينا فى الفلسفة وكتب إخوان الصفا(٣)، والسلطان محمود الغزنوى أحرق الكتب الخاصة بالمعتزلة والشيعة والعقائد المتطرفة(٤).

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٩١هـ.
(٢) تاريخ جهانشكشاى، جـ ٢، ص ١٠٠.
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٤٤هـ.
(٤) عصام الدين الفقى : تاريخ الإسلام فى العصر التركى، ص ٩١.

ومما كتبه أبو حيان التوحيدى عن إحراق الكتب ما يدل على أن بعض العلماء أقدم على هذا العمل، فذكر أن داود الطائى من الفقهاء العابدين، ألقى بكتبه فى البحر، وقال ذلنا العلم فى أول الأمر، ثم كاد يضلنا فى الثانى، وفعل ذلك أبو سليمان الدارائى، وسفيان الثورى، مزق ألف جزء وطيرها مع الريح، وأبو سعيد السيرافى شيخ العلماء أوصى ابنه بإحراقها إذا أضلته عن دينه، وأُتلفت كتب الفاطميين، وتضم آلاف المجلدات[1].

وبذلك فُقد مئات الألوف من الكتب والمجلدات التى ملأت مكتبات دار الإسلام، ومع هذا الكم الكبير - الذى فُقد - بقى التراث الإسلامى مشتملا على الكثير من الكتب والمجلدات الضخمة التى ملأت مكتبات العالم. على كل حال ازدهر الفكر الإسلامى بفضل انتشار الكتب وتداولها بين المسلمين فى كل مكان من القرية إلى المدينة واتسع مجال العلم والاطلاع والتعلم سواء فى القرية فى الكتاتيب أو فى المدن فى المساجد والمدارس، ويجب أن نشير إلى مكتبة دار الحكمة بالقاهرة بها من كل كتاب عدة نسخ، وعلى كل باب من خزائن الكتب ورقة بعناوين الكتب التى فى الخزانة، وما فيها من المصاحف فى أعلى الكتب، والخزانة تحتوى على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وللمكتبة فراشان وناسخان بالإضافة إلى المشرف على المكتبة. وقيل إنها من عجائب الدنيا، ومن أكبر المكتبات فى ديار الإسلام وفيها مصاحف بخط ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من كبار الخطاطين، وقيل إن عدد ما فيها من كتب بلغ مائة وعشرين ألف مجلد[2].

وتتضمن هذه المكتبة أمهات الكتب مثل كتاب العين للخليل بن أحمد، وزادت نسخ الكتاب على مائة، منها نسخة بخط الخليل نفسه، وبالمكتبة عشرون نسخة من تاريخ الطبرى، ومائة نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دريد، وبلغ عدد خزائن المكتبة أربعون خزانة. وبها مصاحف محلاة بالذهب والفضة، والخليفة ينفق عن سعة فى شراء الكتب من سائر بلاد الإسلام، فلما عُرض عليه كتاب «تاريخ الأمم والملوك» للطبرى بمائة دينار لم يرفض شراءه[3].

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٥، ص ٢١ - ٢٣.
(٢) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ١٢٨.
(٣) المصدر السابق، ص ١٢٩.

وبرزت فى اليمن طائفة النساخ يعملون بنسخ الكتب، حتى تتعدد نسخ الكتاب الواحد، فيكون فى متناول الدارسين وطلاب العلم. وكان العلماء يوصون بالكتب لورثتهم أو لطلابهم، وتتضمن الوصايا المحافظة على الكتب وعدم التفريط فيها[١].

ويقول الجاحظ : ولولا الكتاب لاختلت أخبار الماضين، وانقطعت آثار الغائبين، وإنما اللسان الشاهد لك والقلم الغائب عنك والماضى قبلك والغابر بعدك، فصار نفعه أعم[٢].

ورغم كثرة طلاب العلم وتنقلهم فى المدن، وكثرة العلماء ومؤلفاتهم، وانتشار الكتب - كما قلنا - وقوافل الجمال المحملة بالكتب والتى كانت تتنقل من مدينة إلى مدينة، إلا أن نسبة الأمية كانت كبيرة جدا، وكثر العوام الذين لا يقرءون ولا يكتبون، واقتصرت حياتهم على السعى إلى طلب الرزق دون فكر أو علم، وماتوا وطواهم الزمن، وتجاهلوا العلم، فنسيتهم الدنيا.

انتشرت المكتبات فى اليمن، مثل مكتبة مسجد الأشاعر التى أوقف الفقيه محمد بن عبد الله الحضرمى كتبها للقراءة، واشترى الشيخ محمد الشكيل الطوسى العديد من الكتب، وكون مكتبة فى بلده، أوقفها لصالح طلاب العلم.

وكانت مكتبة الملك المظفر تضم أمهات الكتب، وكان يضبطها بخط يده، وكان الملك المظفر يأذن لكبار رجال الدولة وأهل العلم بالاستفادة من مكتبته.

ومن أهم مكتبات اليمن مكتبة الملك المؤيد، وكان بها نساخ ينسخون الكتب حتى تتعدد نسخ الكتاب الواحد، وترفع إلى خزائنه بعد تصحيحها وتجليدها، وقد ضمت مكتبة هذا الملك الرسولى نحوا من مائة ألف مجلد، وحرص على أن يزود مكتبته بالكتب التى يراها ضرورية، فاشترى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى بمائتى دينار[٣].

تعددت المكتبات فى بيوت العلماء، ومن أهمها مكتبة أحمد بن محمد الشكيل (ت ٦٥٤هـ)، كان ينسخ بنفسه عدة كتب من مكتبته، ومن المكتبات

---

(١) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٣٢٠.
(٢) رسائل الجاحظ، جـ٣، ص ٤٤.
(٣) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٣١٩.

الخاصة مكتبة عبد الله بن العباس الحجاجى (ت ٦٧٠هـ)، وتضمنت مكتبته أكثر من خمسة آلاف مجلد، وتضمنت مكتبة أبى الخير منصور الشماخى.

أقبل المفكرون على العلم والتأليف والتصنيف بشغف شديد، فالقاضى محمد بن الطيب بن محمد بن أبى بكر الباقلانى، كان يكتب كل ليلة خمسا وثلاثين ورقة من تصنيفه، وأحصيت الأوراق التى كتبها فى سنى عمره، فبلغت عشر ورقات فى اليوم، وكذلك كان الحال للعديد من مفكرى الإسلام مثل الطبرى وابن سينا وابن الجوزى والسيوطى وغيرهم، لا يمر يوم دون أن يكتبوا عددا من الأوراق.

تقسيم العلوم :

قسم ابن خلدون العلوم التى تناولها المسلمون إلى علوم نقلية وعلوم عقلية. أما العلوم النقلية فهى من العلوم المنقولة عن السلف، ليس فيها مجال للابتكار والاختراع، وإنما مهمة الباحث شرحها وتفسيرها وحسن عرضها، والكشف عن جوانب الغموض فيها، مثل علوم الدين كالتفسير والفقه والحديث، وعلوم اللغة كالنحو والصرف والشعر، ويضاف إليها علم الكلام.

أما العلوم العقلية ففيها مجال للابتكار والاختراع والتجديد والإضافة مثل علوم التاريخ والجغرافيا والطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء وغيرها.

علوم الدين :

القرآن الكريم كتاب علم، أقبل المسلمون على دراسته واستخراج العلوم المنبثقة منه، مثل التوحيد والتجويد والقراءة والتفسير، واستخرجوا منه الأحكام، وهذا هو علم الفقه، والقواعد المنظمة لهذه الأحكام، وهذا هو علم أصول الفقه.

وعلم التوحيد يهتم بدراسة الآيات الكريمة التى تثبت وحدانية الله، وعلم التجويد يهتم بقراءة القرآن الكريم القراءة الصحيحة طبقا لأحكام القراءة وإجادة نطق الكلمات القرآنية، وأسلوب التوقف عند كل لفظ وآية[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٥١.

أما علم القراءات فهو علم يتصل بقراءة القرآن الكريم، ولقد كان للقراءات سبع طرق، كل طريقة تستند فى قراءتها إلى أحاديث اطمأن شيخها إلى صحتها، ودعا أصحابه إلى القراءة بطريقته. ومن أشهر القراء فى العصر العباسى الكسائى (ت ١٧٩هـ)، وهو من القراء السبعة، وكان يتنقل فى البلدان، ويقرأ بقراءة حمزة، ثم اختار لنفسه قراءة، فأقرأ الناس بها، وذلك فى خلافة الرشيد، وألف العلماء فى قراءته كتبا من بينها كتاب «ما خالف الكسائى فيه» لأبى جعفر بن المغيرة، وللكسائى عدة كتب من بينها كتاب «معانى القرآن» وكتاب «مختصر النحو» وكتاب «القراءات»، وكتاب «النوادر الكبير» و «النوادر الأوسط» و«النوادر الأصغر» وكتاب «مقطوع القرآن وموصوله».

أدى انتشار الإسلام فى الأمصار الإسلامية إلى تباين فى نطق بعض ألفاظ القرآن الكريم، مع عدم الإخلال بوحدة المعنى، ومن أهم هذه القراءات سبع قراءات، وكل قراءة لها سند خاص، لذلك فثبت صحة قراءاتهم، وزادت هذه القراءات إلى عشرة أو أكثر، ولكن بقيت القراءات السبع هى القراءات السليمة الصحيحة المعتمدة عن الفقهاء والقراء.

وهؤلاء القراء السبعة : ابن عامر (ت ١١٨هـ)[١] - ابن كثير (ت ١٢٠)[٢] - وعاصم بن أبى النجود (ت ١٢٧هـ)[٣] - ونافع بن عبد الرحمن (ت ١٦٩هـ)[٤] - وأبو عمرو المازنى البصرى (ت ١٥٤ هـ) [٥] - وحمزة بن هبيب الكوفى (ت ١٥٤هـ)[٦] - وأبو الحسن على الكسائى (ت ١٨٩هـ)[٧].

وكان شيخ القراء أبو عمرو حفص بن سليمان.

أما علم الفرائض، وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهم الفريضة، أى تقسيم التركة طبقا للشرع، ويحتاج إلى حساب دقيق لتوزيع التركة على الورثة

---

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ٤٤.
(٢) اليافعى : مرآة الجنان، جـ ١، ص ٢٥٧.
(٣) ابن النديم : الفهرست، ص ٣٠ - ٣١.
(٤) اليافعى : مرآة الجنان، جـ١، ص ٢٧١.
(٥) اليافعى : مرآة الجنان، جـ ١، ص ٣٢١.
(٦) ابن النديم : الفهرست، ص ٣٢.
(٧) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٣، ص ١٦٧ وما بعدها.

توزيعا عادلا، وللعلماء الشافعية والحنفية والحنابلة تآليف كثيرة فى المواريث تشهد باتساع علمهم فى الفقه والحساب، وهو علم هام لأن هدفه الوصول إلى الحقوق فى الوراثات بوجوه صحيحة يقينية، ومن المصنفين فيها من يحتاج إلى التعمق فى علم الحساب كالجبر والمقابلة، وفرض المسائل التى قد يحتاجها الناس[1].

علم التفسير :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جُمَلا جُمَلا، وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع، ومنها ما هو فى العقائد الإيمانية، ومنها ما هو أحكام الجوارح، ومنها ما ينسخ آية أو حكما، وكان الرسول يبين المجمل ويميز بين الناسخ والمنسوخ ويعرفه أصحابه، وعرفوا سبب نزول الآيات، ونقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول توضيحه لآيات الله ما زال متناقلا جيلا بعد جيل حتى صارت المعارف علوما، ودُونت الكتب الكثيرة فى التفسير واعتمد أصحاب هذه الكتب على روايات الصحابة والتابعين[2]، ويشترط فى المفسر للقرآن الكريم العلم الكامل بالروايات التى نُقلت عن الرسول فى تفسير القرآن، ومعرفة الأحكام، والمقدرة على فهم اللغة والألفاظ التى وردت فى القرآن واستعمالاتها عند العرب، والفهم الواسع لأسباب التنزيل يضاف إلى ذلك إشراقة إيمانية ييسر بها الله له فهمه لمعانى القرآن، فليس لدى كل مُلِمٍّ باللغة والدين مقدرة على التفسير من غير أن يفتح الله له فهم معانى كتابه الكريم.

وانقسم المفسرون فى مناهجهم فى التفسير إلى قسمين : التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى. أصحاب التفسير بالمأثور ينقلون رواياتهم فى التفسير من آراء السلف من الصحابة والتابعين دون تعليق أو مناقشة أو إبداء للرأى أو إبراز فكرة جديدة.

أما أصحاب التفسير بالرأى فيعبرون عن آرائهم فى الروايات المنقولة عن السلف، ويجتهدون فى تفسير الآيات، ويناقشون الروايات المنقولة عن السلف ويعلقون تعليقات جميلة على روايات التفسير.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص ٤٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥٣.

واعتمد المفسرون فى معرفة أخبار الأمم القديمة وقصص الأولين على معلومات أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام، وعندهم معلومات عن هذه الأمم فى كتبهم فى الإنجيل والتوراة. وبذلك امتلأت كتب التفاسير بهذه الروايات التى يكثر فيها الأساطير أو الإسرائيليات، ونقلها أصحاب التفسير بالمأثور دون مناقشة.

على أن التفسير اتخذ فى بدايته شكل تفسير بعض السور والآيات دون تنظيم أو مراعاة لترتيب السور، ثم انتظم التفسير بعد ذلك.

وأول من فسر القرآن الكريم «الفرَّاء» الذى كان يجلس فى المسجد، والقارئ يقرأ الآية والفراء يفسرها، وينتقل من آية إلى آية. والفراء أول من فسر القرآن الكريم بترتيب سوره وآياته، وفسره بهذا المنهج الذى وضعه لنفسه فى أربعة أجزاء بتكليف من الحسن بن سهل - وزير الخليفة المأمون[1].

وظهرت منذ بداية القرن الثانى الهجرى مصنفات كثيرة فى التفسير، ولكنها فُقدت، نخص بالذكر منها تفسير مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ)، ونال تفسيره تقدير فقهاء وعلماء بغداد[2].

ومن التفاسير التى فُقدت، تفسير ابن إسحاق واعتمد فيه على روايات وهب ابن منبه وكعب الأحبار[3]، مما أدى إلى اختلاط رواياته بالإسرائيليات؛ لأن مصادرها فى الرواية أساطير مروية عن اليهود[4].

على أن أهم وأفضل وأقدم تفسير وصل إلينا هو تفسير ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ)، ويقع فى ثلاثين مجلدا، ويأخذ بالمأثور عن الرسول والصحابة والتابعين، ويحرص على الأخذ بالرواية الصحيحة، ولا يوافق على آراء المفسرين من أصحاب الرأى، لأنهم يقعون فى أخطاء كثيرة، وظهر فى تفسيره ثقافته الواسعة فى الدين واللغة والتاريخ، ويتضح من كتاباته معرفته بآراء المتكلمين، وخاصة المعتزلة، وتأثر بمذهب علماء الحديث فى الكلام عن القدر، والدقة فى الإسناد، جريا على طريقة علماء عصره، وحرص على الأخذ بروايات رجال موثوق بهم، ونقد من لم يثق به[5].

---

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ١٠٠.
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠.
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣٤٦.
(٤) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن، ص ٩٨ ، ٩٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٩٩ ، ١٠٠.

وسلسلة إسناده التى ترجع إلى الصحابة والتابعين، روايات موثوق بصحتها دائما، وروى فى ذلك حديثا عن الرسول ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وكان يروى ذكر الشيوخ الذين استند إليهم، واستبعاد رواية من لم يثق به، وقد مكنته مقدرته اللغوية على فهم المعنى الصحيح للكلمة، والتمييز بين معانى الكلمات، وكان يكثر من الاعتماد على الحديث، ورواية الحديث وتدوينه شاعت فى عصره، وكثيرا ما استشهد بالشعر لبيان ما أشكل عليه من معانى الكلمات، وكان عالما للقراءات مؤلفا فيها، وذكر فى تفسيره ما ارتضاه من قراءة، وكان يلجأ إلى إعراب الكلمة نحويا لتحديد معناها بدقة.

وحرص على مناقشة آراء الفقهاء، وهو فقيه له مذهب ـ المذهب الجريرى ـ نسبة إليه، وكان يناقش آراء المتكلمين، ويدلى برأيه فى كل الآراء التى يتعرض لها. لذلك فإن تفسير الطبرى دائرة معارف إسلامية لغوية، تتضمن علوما فى الفقه واللغة والشعر والكلام والنحو والقراءات والتفسير وغيرها[١].

أما أصحاب التفسير بالرأى فيحكمون العقل، ويرفضون الخرافات، والتصورات المخالفة لطبائع الأشياء التى تأثر بها الكثير من الناس. ومن أشهر هذه التفاسير تفسير أبى بكر الأصم (ت ٢٤٠هـ)[٢]، وشُغف المعتزلة والإسماعيلية بهذا النوع من التفسير؛ لأن المعتزلة يحكمون العقل فى كل شىء، ويرفضون كل رأى يتنافى مع العقل والمنطق، فمثلا نزّهوا الله تعالى عن الصفات البشرية، ولجأوا فى ذلك إلى الاجتهاد فى التفسير بحيث يتمشى مع أفكارهم. ومن مفسرى المعتزلة أبو مسلم بحر الأصفهانى (ت ٣٢٢هـ)، ويقع تفسيره فى أربعة عشر مجلدا، وابن جرير الأسدى (ت ٣٨٧هـ). أما عبد السلام القزوينى (ت ٤٨٣هـ)[٣] فقد فسر القرآن الكريم تفسيرا مطولا، وفسر الفاتحة وحدها فى سبعة مجلدات[٤]، ويرجع السبب فى عدم تداول تفسيره بين الناس إلى ضخامته، ومخالفته لأفكار

---

(١) أحمد الحوفى : الطبرى، ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن، ص ١٠٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ ٣، ص ٣٤٣.

(٤) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن، ص ١١٠ ، ١١١.

السنة فى بعض تفاسيره، ومن التفاسير تفسير الإمام العلوى المعروف علم الهدى المرتضى أبى القاسم على بن الطاهر (ت ٤٣٦هـ) وتتجلى فى تفسيره آراء المعتزلة(١).

وخلف بن أحمد اهتم بالتفسير، وجمع العلماء، ففسروا وصنفوا القرآن الكريم، لم يغادروا فيه حرفا من أقوال المفسرين أو تأويل المتأولين، وأتبع ذلك بوجوه القراءات وعلل النحو والصرف وعلامات التذكير والتأنيث وأثبتها بما رواه الثقات من الحديث، وأنفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونته على جمعه وتصنيفه عشرين ألف دينار، وأودع نسخها فى المدرسة الصابونية فى نيسابور ويقع تفسيره فى مائة مجلد(٢).

ولجأ الباطنية إلى التأويل فى التفسير، فخرجوا وانحرفوا عن أسس الإسلام الصحيح، لأنهم أولوا الآيات لصالح مذهبهم.

ومن المفسرين ابن متويه (ت ٤٦٨هـ)، ومن مؤلفاته «التفسير الكبير» وهو من أقوى كتب التفسير، وله كتاب «البسيط» و «الوسيط» وهذه الكتب الثلاثة نالت تقدير العلماء وخصوصا الإمام الغزالى الذى اعتمد عليها.

ومن شيوخ التفسير أبو القاسم محمد بن عمر الخوارزمى الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ)، كان يرفض الإسرائيليات، وهو من أئمة المعتزلة، وهذا واضح فى تفسيره، وهو إمام عصره فى التفسير والحديث واللغة، يرحل إليه الطلاب من جميع البلاد للتزود بالعلم، ومن مؤلفاته كتاب «الكشاف» فى تفسير القرآن الكريم.

ومن المفسرين أبو عبد الله القرطبى، كان ورعا زاهدا وتفرغ للعلم، ومن مؤلفاته «الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان»، وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والحكايات، وأثبت بدلا منها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وله كتاب «الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار فى أفضل الأذكار» وكتاب «التذكرة بأمور الآخرة» وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة»، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبى ﷺ وله رسائل كثيرة فى الزهد والدين.

---

(١) المصدر السابق، ص ١١١.

(٢) براون : تاريخ الأدب الفارسى، جـ ٢، ص ٣٠٢.

واستقر به المقام فى منية ابن خصيب (مدينة المنيا الحالية)، وتوفى بها سنة ٦٧١هـ. وكتب ابن تيمية فى سجنه كتابا فى التفسير يقع فى عشر مجلدات.

وتعددت كتب التفاسير منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا، وهى تختلف حسب مذهب وآراء المؤلف وثقافته.

ولما كان القرآن الكريم يخاطب الناس جميعا فى كل زمان ومكان، وتتمشى آياته مع التطور الطبيعى للبشر، فإن فهم أهل القرن الأول له يختلف عن فهم أهل القرون التالية، وفى النهضة الحديثة والتقدم العلمى الكبير الذى يعيش فيه إنسان اليوم، ظهرت نظريات جديدة واختراعات حديثة، ووجد المفسرون فى هذا التقدم مجالا لإعادة النظر فى تفسير أهل القرون السابقة، ففهموا معانى بعض الآيات على ضوء الفكر الإنسانى الحديث، ومن هنا اختلف المفسرون فى آرائهم وتفسيرهم من عصر إلى عصر، وفى مستهل القرن العشرين ظهر تفسير المنار الذى بدأه الإمام محمد عبده وأكمله تلميذه رشيد الدين رضا، وظهر تفسير الشيخ محمود شلتوت وهو تفسير يربط الآيات بعضها ببعض ويتجلى فيه الفهم العميق لمعانى القرآن الكريم، ولكنه لم يتمه. وظهر تفسير سيد قطب وهو تفسير قيم إلا أن صاحبه غير متخصص فى علوم الدين وإنما هو مجتهد، ثم ساعدت الوسائل الحديثة على ظهور تفسير الشعراوى الذى يشرح فيه للناس شرح المعلم الآيات ومعانيها ويحلل الكلمة لغويا، ويطابق بين النظريات الحديثة والآيات القرآنية فى فهم وعمق، وقد أفاد تفسيره عامة الناس الذين لا يحاولون القراءة ولكنهم يجلسون أمام التلفزيون وتأتيهم المعلومة بشكل ميسر وبلغة سهلة؛ لذلك فقد أفاد الناس من تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى أكثر من التفسيرات السابقة.

الفقه

اشتدت الحاجة إلى الفقه فى العصر العباسى الأول، لأنه ينظم المعاملات، ويضع التشريعات التى تنظم حياة الأفراد وعلاقتهم بعضهم ببعض من ناحية، وعلاقاتهم بالدولة من ناحية أخرى، فضلا عن أنه يوضح التعاليم التى يجب أن يتبعها الناس فى شئون دينهم.

عُنى خلفاء الدولة الإسلامية بالفقه، واعتمدوا على الفقهاء فى وضع قواعده، وأخذ بعض الفقهاء بالرأى، وأخذ آخرون بالمأثور ويمثل أبو حنيفة النعمان المذهب الأول.

أبو حنيفة :

هو النعمان بن ثابت، جده من أسرى كابل، ونشأ أبوه ثابت مسلما فى الكوفة وكان على اتصال بعلى بن أبى طالب، ونشأ أبو حنيفة بالكوفة وقضى أكثر حياته بها (ت ١٥٠هـ)، وتثقف بثقافة عصره من حفظ القرآن الكريم وعلوم الدين واللغة وعلم الكلام، واشتغل بالتجارة مع أسرته، ولما بلغ من العلم درجة كبيرة، ودرس الفقه وعلم الكلام، وانشغل فى دراسته للفقه باستخراج الأحكام من الكتاب والسنة، وتتبع أقوال السلف الصالح، ودرس أوجه اختلافهم، وأوجه اتفاقهم، واتصل بالشيعة وفرقها فى الكوفة، وروى عن جعفر الصادق، واتصل بالزيدية والإمامية[١]، وفى دراساته المختلفة اتصل ودرس آراء عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وهم من أكثر الناس فهما للقرآن والسنة[٢].

وقد هيأت له ثقافته الواسعة مقدرة على المناظرة ولا يغلق باب الحوار حتى مع الملحدين، وإنما يحاورهم بالدليل وقد هدى الله الكثير من الناس على يديه[٣].

وكان يدرس لتلاميذه فى المسجد، ويفيدهم بعلمه ويؤثرهم حتى كان يقول لهم : أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى.

فأبو حنيفة فقيه جليل القدر، مستقل فى تفكيره لا يأخذ بفكرة أو رأى إلا إذا اقتنع عقله بها، وشغل أهل عصره لأنه أتاهم بمذهب فى التفكير جديد فى نوعه، وأغضب المتمسكين بالنصوص، واتهموه بالانحراف عن الدين، لأنه وضع قواعد جديدة للاستنباط فى الفقه الإسلامى، ويحد الحدود فيها.

---

(١) أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٣٣٨.
(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦.
(٣) أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٣٥٤.

واتبع فى منهجه منهجا سليما، وهو الأخذ بكتاب الله، فإن لم يجد فسنة الرسول، فإن لم يجد فبأقوال الصحابة، فإن لم يجد يقرأ آراء المجتهدين من التابعين، فإن شاء أخذ منها، وإن لم يوافق عليها يجتهد كما اجتهدوا.

وفى المسائل المعروضة عليه يفتى فيها، ويفترض مسائل قد يسأل الناس عنها فى المستقبل ويضع الإجابة عليها، وكان يعتمد على القياس فى أحكامه، ويعتمد على العرف فى كثير من المسائل، وكان يقبل الحديث بحذر شديد ويتحرى عنه وعن رجاله، ولا يروى الخبر عن الرسول إلا إذا رواه ثقات[1].

انتشر المذهب الحنفى انتشارا كبيرا فى الدولة الإسلامية لكثرة تلاميذ أبى حنيفة وعنايتهم بنشر آرائه، وبيان الأسس التى قام عليها فقهه، وعنوا باستنباط علل الأحكام وتطبيقها، ونظرا لأن المذهب يقوم على استنباط علل الأحكام التى قامت عليها فروع المذهب، فقد نشأت بين الجماعات الإسلامية أعراف مختلفة، وتتولد فيها أحداث تقتضى تخريجات كثيرة، ومن أسباب انتشاره أنه المذهب الرسمى للدولة العباسية مثل العراق وبلاد ما وراء النهر.

ولقد اندثرت كتب الفقه التى صنفها الإمام أبو حنيفة وذكرها ابن النديم، ودونها القاضى أبو يوسف (ت ١٨٣ هـ) ـ أبرز تلاميذه ـ ومحمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ).

والإمام أبو حنيفة أول من استعمل القياس فى الفقه، وسُمى بالإمام الأعظم تقديرا لجهوده، وحمل تلميذه أبو يوسف تعاليمه، وأبو حنيفة وُفق له الفقه، فإذا سُئل فيه تفتح وسال كالوادى، وقيل مَن أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال على أبى حنيفة[2].

وكان يتحرى الدقة فى الحديث فلا يروى منه إلا إذا رواه جماعة ثقات، وأجمع الفقهاء على الأخذ به.

اندثرت كتب الفقه التى صنفها أبو حنيفة، ذكرها ابن النديم[3]، ومن أبرز تلاميذه ـ كما قلنا ـ أبو يوسف، ولأبى يوسف من كتب الفقه ـ الزكاة ـ الصيام ـ

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ٥، ص ٤٠٥ ـ ٤١٥.
(٢) الذهبى : سير اعلام النبلاء، جـ ٦، ص ٣٠٩ ـ ٤٠٣.
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٥، ص ٣٩.
(٤) ابن النديم : الفهرست، ص ٢٨٥.

الفرائض - الحدود - الرد على مالك بن أنس، وكتاب الجامع الذى ألفه ليحيى بن خالد، وتناول فيه اختلاف الآراء فى الفقه[1]، وولى أبو يوسف قاضى قضاة الدولة العباسية. لذلك كان من شروط من يلى منصبا أو عملا أن يكون على مذهب أبى حنيفة[2].

ومن أشهر الفقهاء من أصحاب الرأى البشر بن الوليد ولى القضاء للمأمون، ومن تلاميذه محمد بن الحسن، وله عدة مصنفات فى الفقه، ترجع أهميتها إلى أنه أول من دوَّن ما أورده الفقهاء من آراء وأقوال. ومن هنا تفوق على من سبق من الفقهاء حتى على أبى يوسف نفسه، الذى حاول إبعاده عن بغداد. والمعروف أن محمد بن الحسن اتصل بالإمام مالك وروى عنه وروايته للموطأ من أهم الروايات لأنه أوضح فيها الخلاف بين أهل الحجاز وأهل العراق فى الفقه. وأخذ الشافعى عن محمد بن الحسن فى بغداد، وله من الكتب كتاب المبسوط فى الفقه، وكانت بينه وبين الشافعى مناظرات فى الفقه[3].

ومن الفقهاء، أسد بن الفرات الذى تعلم فقه أبى حنيفة فى بغداد، وعاد إلى مصر، واتصل ببعض فقهاء المالكية وأخذ عنهم آراء الإمام مالك، وعاد إلى القيروان، ونشر آراء الإمام مالك بها فى مقالات سُميت بالأسدية، وتوفى غازيا فى صقلية[4].

ومن **كبار أئمة الفقه الإمام مالك بن أنس**، وهو عربى يمنى درس علوم الدين واللغة فى المدينة المنورة، روى عن الصحابة والتابعين ودرس الفقه. جلس مالك للدرس ورواية الحديث، بعد أن تزود من زاد المدينة المنورة، واستوثق لنفسه، وأخذ على نفسه عهدا بأن يفيد طلاب العلم بعلمه، وأن ينقل إلى الناس أحاديث الرسول، كما استمع إليها من أهل الثقة، وأفتى للناس فى الموضوعات التى أشكلت عليهم، وقضى نصف قرن يجلس فى المسجد للدرس فى وقت معين، وكان يجلس فى مجلس عمر بن الخطاب، ويقيم فى بيت عبد الله بن مسعود، حتى يعيش فى جوهم بفكره ورأيه[5].

---

(١) الفهرست : ص ٢٨٥.
(٢) الجاحظ : الحيوان، جـ ١، ص ٤٣.
(٣) المالكى : رياض النفوس، ص ١٦٠.
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٢٧٧.
(٥) أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٣٧٧.

وكان يقسم دروسه إلى نوعين، نوع يدرس فيه الحديث، ونوع يجيب فيه على المسائل التى تُعرض عليه، ولما مرض نقل درسه إلى بيته، على كل حال لم ينقطع عن الدرس طوال حياته، وكان يبتعد عن الجدل، لأن الجدل فى دين الله قد يبعد الناس عن العقيدة ويفسدها[1]، وكان يقول : الجدال فى دين الله يذهب بنور العلم من قلب العبد، وعلى الرغم من تعرضه لبطش المنصور، ورفض منصب القضاء، ولم يرض عن اضطهاد العلويين، إلا أن المنصور عاد وعرف فضله وعلمه وقدره[2]. ولما انتشرت الأحاديث غير الصحيحة فى الدولة الإسلامية، طلب منه الخليفة المنصور وضع كتاب فى الحديث الصحيح، فوضع كتابه «الموطأ»، وكان معظم تلاميذه من الأندلس والمغرب وأفريقية والحجاز ومصر، وانتشر مذهبه فى هذه البلاد، ودوَّن تلاميذه كتاب «الموطأ» كما دونوا فقهه وفتاويه، وتوفى إمام دار الهجرة سنة ١٧٩هـ[3].

أما ثالث الأئمة الكبار فهو الإمام الشافعى . فهو محمد بن إدريس بن عباس ابن شافع بن هاشم بن عبد المطلب، وُلد فى غزة، ورحل فى طلب العلم، وانتقل إلى الجزيرة العربية، وفى البادية عاش فترة من الوقت، وحفظ أشعارهم، وصحح لغته من أقوالهم.

ولما بلغ قدرا من العلم، ذهب إلى الإمام مالك فى المدينة المنورة، ليزداد علما، وأعطاه والى مكة كتابا إلى والى المدينة لييسر له سبل لقاء الإمام مالك، وبهذه الوسيلة تم اللقاء، وفى أول لقاء تنبأ الإمام مالك بمواهب الشافعى - الذى كان فى العشرين من عمره -.

لزم الشافعى الإمام مالك، وخلال ملازمته شيخه، يرحل إلى الصحراء، ويختلط بالبدو. والإمام الشافعى جمع بين أقوال أهل الرأى وآراء أهل الحديث، وهو أول من تكلم فى أصول الفقه، وأول من وضع أسسه ومبادئه[4]، كثير المناقب جم المفاخر، منقطع القرين، درس علوم القرآن دراسة وافية شاملة، وألم

---

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ٢٥١.

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ ٨، ص ٤٨ وما بعدها.

(٣) أبو نعيم : حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣١٦ - ٣٥٥.

(٤) المالكى : رياض النفوس، ص ١٦٠.

بأقوال الصحابة والتابعين، وآراء الفقهاء والعلوم العربية، وقال عنه أحمد بن حنبل: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى، وقال عن الشافعى: إنه كالشمس للدنيا والعافية للبدن[1].

وفى رحلات الشافعى إلى البلاد الإسلامية، رحل إلى اليمن، وتقلد فيها بعض الأعمال، فنشر العدل، وساوى بين الناس، ولكنه لم يرض بظلم الحكام، فتعرض للوالى بالنقد الشديد واستنكر المظالم التى ألحقها باليمانية، ونصحه بأن يسلك فى الناس مسلكا ينطوى على العدل والمساواة. فغضب الوالى، وتوجس خيفة من بقاء الشافعى فى اليمن، فقد يحرك الناس ضده، وأرسل إلى الخليفة الرشيد، يحرضه ويحذره من الشافعى الذى ينحاز إلى العلويين ويثيرهم ضده، فاستدعى الرشيد الشافعى إلى بغداد، ولولا شفاعة العلماء له، وطلاقة لسانه، وقوة حجته لقتله[2].

أوتى الشافعى علم القرآن الكريم، ففقه معانيه وأدرك كثيرا من أسراره ومراميه، وكان فى التفسير كشاهد تنزيل وأوتى علم الحديث، فروى أحاديث أهل الحجاز، وروى أحاديث مالك، وقرأ عليه الموطأ، وضبط قواعد الفقه[3]، ووضع ضوابط القياس، وضوابط النسخ، وكان قويا فى إدراكه العلمى، وصاحب ذاكرة واعية حافظة، حاضر البديهة، تنثال عليه المعانى فى وقت الحاجة إليها[4]، نافذ البصيرة قوى البيان عميق الفكرة[5].

وصنف الشافعى كتبا فى العراق تتضمن مذهبه، فلما قدم إلى مصر، نسخ كتبه التى بالعراق، وصنف بدلا منها كتبا جديدة رواها عنه تلاميذه، وهذا يدل على مرونة فكر الشافعى وقابليته للتطور، فسعة اطلاع العالم تكشف له عن جوانب جديدة تصحح فكره السابق أو تعدله أو تضيف إليه[6].

وفكر الشافعى خلاصة أفكار من سبقه من العلماء مثل الإمام مالك بن أنس فى الحجاز والإمام أبى حنيفة فى العراق، ومحمد بن الحسن الذى قال عنه:

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٢٧٧.
(٢) أبو زهرة : الإمام الشافعى، ص ١١٢.
(٣) الإسنوى : طبقات الشافعية، جـ ١، ص ١٨ ـ ٢٠.
(٤) أبو نعيم : حلية الأولياء، جـ ٩، ص ٦١ ـ ٦٣.
(٥) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ص ٥ وما بعدها.
(٦) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٨٠.

حـصلت مـنه على وقـر جـمل مـن العلم. وبذلك جـمع بـين أهل الرأى وأهل الحديث، ولكنه يتـخذ موقفا مـستقلا من شيـوخه فيؤيد أو يرفض آراء شـيوخه، ووضع قواعد الاستنباط، وهى ما سُمى أصول الفقه(١).

ومن أقـواله : من نظر إلى اللغة رق طبـعه، ومن نظـر فى الحسـاب جزل رأيه، ومن لـم يصن نفسه لم ينفعه علمه(٢).

وترك الشافعى فى بغداد تـلاميذ، نشروا فقهه وشرحـوه، منهم سليمان بن داود بن علـى بن خلف، وهو مـن أهل فـارس، وهو أول من ألف فى مـناقب الشافعى، وأقام فى بغداد يعلم الطلاب فقـه الإمام الشافعى، وله من الكتب كتاب «الرايات» وكتاب «طسم وجديس»، وكتاب «فضائل الأنصار»(٣).

ومن تلامـيذ الشـافعى ومـريديه إبراهيم بن خـالد بن إليـاس الكلبى، نقل أقواله القديمة، وكان أحد الفقهـاء الأعلام، له مصنفات قيمة فى الأحكام، جمع فيها بين الحديث والفقه، وأول اشتغاله بمذهب أهل الرأى حتى تردد على الشافعى فى العراق، ولم يزل على ذلك حتى وفاته سنة ٢٤٦هـ.

تعددت المؤلفـات عن فقه الإمـام الشافعى، ومن أبرز شـيوخ الشافعـية فى نيسابور، أحمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٨٥هـ)، صنف ما يقرب من ألف كتاب، وهو أول من جمع تصانيف الشافعى فى عشر مجلدات، ومن أهم مؤلفاته «السنن الكبير» و«السنن الصغير» و«دلائل النبوة» و«السنن والآثار» و«مناقب الشافعى».

وكان من أهل الزهد، وقيل ما من شافـعى إلا والشافعى له فضل عليه، إلا أحمد البـيهقى فإن له على الشافـعي مكرمة إذ كان من أكثر الناس دراسـة وشرحا وتحليلا لمذهب الشافعى(٤).

وظهرت مذاهب أخرى اندثرت ولم تستمر مثل المذهب الجريرى الذى وضعه ابن جرير الطبرى، ولا يختلف كثيرا عن مـذهب الإمام الشافعى، ومذهب سفيان الثورى(٥) (ت ١٦١هـ).

---

(١) أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٤١٦.
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٢٧٧.
(٣) ابن النديم : الفهرست، ص ١٤٦.
(٤) براون : تاريخ الأدب الفارسى، جـ ٢، ص ٢٨١.
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٦١هـ.



علم وفن وانكباب على العلم عند المسلمين

وللشيعة آراؤهم فى الفقه تختلف تماما عن آراء أهل السنة، لأنهم يعتمدون على آراء الأئمة من آل البيت فقط ويرفضون الآراء الأخرى.

ترك الشافعى فكرا وعلما ومذهبا انتشر فى كثير من بلدان الإسلام، ومن أقواله فى التزود بالعلم : من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر فى الفقه عظم قدره وازداد فكره وكثر علمه.

أما الإمام أحمد بن حنبل، ولد فى بغداد، ودرس فيها، وقضى حياته بها، وبعد أن درس علوم عصره، وهو فى ريعان شبابه، آثر أن يكون محدثا يروى الحديث، واتجه إلى الفقه الجامع بين الرواية والدراية، وأخذ عن أبى يوسف - قاضى القضاة - وأخذ عن شيوخ الحديث فى عصره، ورحل إلى البصرة وإلى بلاد الحجاز والكوفة واليمن. ولم يكتف بالنقل من الكتب إنما كان ينقل الروايات شفاهة.

وواجه صعابا كثيرة فى التنقل لطلب الحديث، وفى تنقله بين الأقاليم، كان يحمل كتبه وأوراقه على ظهره، لذلك كثرت مدوناته من الحديث فى عصر بدأ تدوين الفقه والحديث، وفقه الإمام أحمد بن حنبل يجمع أحاديث الرسول وفتاوى الصحابة وقضاياهم وفتاوى التابعين، وهذه الروايات رغم أنها سنن مأثورة إلا أنها فقه عميق[١]. وكان يعقد حلقات درسه فى المسجد وفى بيته[٢].

وتعرض أحمد بن حنبل لمحنة خلق القرآن التى أمر الخليفة المأمون الناس بالقول بخلق القرآن، وأنه ليس بالقديم تمشيا مع آراء المعتزلة لأن القرآن نزل طبقا للحوادث، فمثلا غزوة بدر والهجرة نزلت آيات عنهما، وهكذا، أما غيرهم مثل ابن حنبل فكان يقول بأن القرآن قديم قدم الله، وأمر المأمون ثم المعتصم الناس بالقول بخلق القرآن، ومن لا يقول بذلك يتعرض للعقاب، فرفض الإمام أحمد القول بخلق القرآن، وتعرض للتنكيل والتعذيب، وأدلى برأيه بقوة ولم يخش بطش الخلافة، وفى سجنه عرض عليه تلاميذه أن يقول تقية حتى ينجو من العقاب الذى قد لا يحتمله، فرفض وقال: إذا كان العالم يقول تقية فما يقول الجاهل؟

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٥٤ ، ٤٥٥.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١، ص ٣٤١ - ٣٤٧.

وما زال يصر على رأيه حتى نال إعجاب مخالفيه فأفرج عنه الخليفة، وحاول استرضاءه، فأرسل إليه مالا، فوزعه على الفقراء والمساكين[1]، وكان يقنع بقليل المال، ويتعفف عن أموال الخلفاء ـ كما رأينا ـ ويكتفى بالمورد الضئيل الذى يأتيه من عقار ورثه عن أبيه[2].

ومن صفاته حفظه القوى للحديث وسنة أصحاب الرسول وفتاويهم، ويستطيع استنباط ما حفظ، فالإمام أحمد رجل سنة حافظ لها، وجاءه الفقه عن طريقها، وكان يكره المجادلات الفقهية التى تمس العقيدة[3]، منها الرأى فى الإيمان والقضاء والقدر وأفعال الإنسان، وخلق القرآن.

وخلف أحمد كتاب «المسند» وهو مجموعة من الأحاديث التى رواها الإمام أحمد، وجمع هذه الأحاديث التى اطمأن إليها طوال حياته، ولكنه لم يرتبها، وجمعها فى أوراق أملاها على طلابه وتلاميذه، وكان فقهه أقرب إلى الحديث، وكان يكره القياس، ويفضل عنه قول الصحابى[4].

وفقه الإمام أحمد يقيد الاجتهاد والاستنباط، ومن أسباب عدم انتشار مذهب الحنابلة مثل المذاهب السابقة، تشدد الحنابلة، وتمسكهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكروتطبيق هذا المبدأ بعنف وقوة، فآذوا الناس، وأساءوا إليهم كثيرا.

ومن المذاهب التى انتشرت فى الدولة الإسلامية، المذهب الزيدى، نسبة إلى الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، كان زيد فقيها راوية للحديث، التقى بواصل بن عطاء وأخذ عنه آراءه فى الاعتزال فى البصرة ـ موطن الفرق الإسلامية ـ حتى إن مذهب المعتزلة هو فى جملته مذهب الزيدية، ومن أصول مذهب الاعتزال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والزيدية تعتقد ـ كما يرى الشيعة ـ بانفراد أبناء على بعلم نظرى ضرورى من غير تعلم، كما كانوا يحتفظون بعلم مكتوم يأخذه بعضهم عن بعض، وهم يرفضون التقية، ومن مذهبهم الأذان : بحىَّ على خير العمل[5].

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ ١١، ص ١٧٧ وما بعدها.
(٢) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٤٨٧.
(٣) أبو نعيم : حلية الأولياء، جـ ٩، ص ١٦١ ـ ٢٣٣.
(٤) ابن أبى يعلى : طبقات الحنابلة، جـ ١، ص ٤ ـ ٢١.
(٥) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٨٤.

ومذهب الزيدية فى الفقه يعتبر مذهبا خامسا بعد المذاهب الأربعة، يجب أن تتوافر فى الإمام أن يكون من أولاد فاطمة، سواء كان من أولاد الحسن أم أولاد الحسين، وواجب الإمام أن يخرج داعيا لنفسه شاهرا سيفه، وأجاز هذا المذهب خروج إمامين فى وقت واحد، ومن ثم انضم الأئمة من أولاد الحسن وأولاد الحسين إلى الإمامة الزيدية.

وتقول الزيدية يجب أن يطاع المفضول مع وجود الأفضل لتبرير شرعية خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على بن أبى طالب، ورفض الزيدية فكرة الإمام المهدى المستور؛ لأنهم يرون أن الإمام يجب أن يخرج شاهرا سيفه، مطالبا بحق آل البيت فى الإمامة.

ويجب أن يكون الإمام واسع العلم، لذلك كثرت مؤلفات أئمة الزيدية، وقالوا بجواز ظهور عصر بلا إمام، ولا يجوز الصلاة خلف الفاسق، لأن الله يتقبل من المتقين[1].

وقد وُجدت بعض المقتطفات التى نُسبت إلى الإمام زيد، وتتضمن تفاسير لبعض آيات القرآن الكريم،ومسألتى الإمامة والحج، وتشمل بصفة عامة مجملا كاملا للفقه، وكثرة اجتهادات ومؤلفات أئمتهم يفسر التناقض الموجود فى آراء الزيدية.

وانتشر المذهب الزيدى فى بلاد المغرب الأقصى بعد قيام الدولة الإدريسية وفى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم على أيدى الأئمة العلويين، وفى بلاد اليمن على أيدى الأئمة الزيدية الذين وفدوا على اليمن، وأقاموا دولة زيدية باليمن، استمرت عدة قرون.

ومن فقهاء بغداد داود بن على الأصفهانى ـ المعروف بداود الظاهرى ـ درس المذهب الشافعى، وألف فى مناقبه، ثم انفرد بمذهب يعرف بالظاهرى، هو يرفض مذهب أبى حنيفة الذى يأخذ بالقياس، وداود يرفضه تماما، ويرى أن فى القرآن والحديث ما يكفى لاستنباط الأحكام. ويجب التقيد بالنصوص ظاهرا ومعنى، وهاجم القياس، وأحصى أخطاء أهل الاجتهاد والقياس وأصحاب الرأى.

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل، ص ٢١٠.

وكان للمذهب الظاهرى صداه فى بلاد الأندلس بعد أن اعتنقه ابن حزم.

ينتمى ابن حزم إلى أسرة حلت بها النكبات، وعاشت فى بؤس وشقاء، وكوّن ابن حزم نفسه تكوينا علميا قويا، فدرس علوم الدين واللغة، واشتغل بالعلم والدرس وانصرف إلى دراسة الفقه والحديث والجدل والدعوة، والرد والتصدى لأعداء الإسلام، ثم عاد إلى السياسة، وشغل منصب وزير الخليفة المعتمد ـ آخر خلفاء الأمويين فى الأندلس، وهذا آخر عهد ابن حزم بالسياسة، على أن ابن حزم ظل على ولائه للأمويين، الأمر الذى أوقعه فى محن ونكبات[1].

ولما اضطربت الدولة الأموية، ساءت أحوال ابن حزم، فأخذ يتنقل فى البلاد، وينشر آراءه بين الناس، وانتقد المذهب المالكى الذى لا يعتمد على النصوص تماما.

وقد احتدمت المعارك بينه وبين الفقهاء لمعارضته مذهب الإمام مالك والمذاهب السنية الأخرى، وأُحرقت كتبه، واستقر به المقام فى إحدى القرى التى كانت ملكا لأسلافه، واعتكف على الدراسة والتأليف والتدريس لطلاب العلم، ووفد عليه الطلاب من كل مكان، يتعلمون فى ضيعته، وينشرون علمه فى كل مكان. ورغم إحراق كتبه فقد قال إن علمه الذى فى صدره قد بقى. وقد نال شهرة كبيرة كإمام مجدد[2]، وظل يدرس ويعلم حتى سنة ٤٥٦هـ.

تعمق ابن حزم فى علوم متعددة، كان كاتبا أديبا عالما فى الفلسفة والمنطق، له آراء فريدة فى الفلسفة حتى إنه يعارض آراء أرسطو فى المنطق، ويكتب فى التاريخ بكل دقة، ويخلصه من المبالغات والشوائب، ويحقق فى الأنساب بدقة وعمق، وكان حافظا للحديث ومحيطا به، وفوق ذلك فقيها أحيا وجدد علم الظاهر، لأنه المنهاج الذى يتمكن به من بيان أحكام القرآن والسنة، يضاف إلى ذلك أنه عالم بالملل والنحل غير الإسلامية، والفرق الإسلامية، ولا يخوض فى علم العقائد إلا ما كان واضحا ظاهرا، ويهمل الأقوال المعقدة المتأثرة بفلسفة

---

(١) عصام الدين الفقى : تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٨.

اليونان، ويناقش الفلاسفة بالأدلة المنطقية، وبذلك لم يدع ابن حزم فرعا من فروع العلم إلا تناوله بالدرس، وهو من أكثر العلماء تأليفا وتصنيفا فى العلوم الإسلامية[1].

ويرى ابن حزم أنه لا رأى فى الدين، فليس لأحد أن يجتهد برأيه، ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى، لأنه لا يحق لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول الله وما يتوصل إليه الشيوخ من آراء واجتهادات هى أحكامهم وليست حكم الله تعالى، ولا يحل لأحد الحكم بالرأى، وينفى ابن حزم القياس والإجماع من غير نص، ويرفض الاجتهاد بدون نص[2].

وانتشر المذهب الظاهرى لابن حزم فى أنحاء الدولة الإسلامية، وظهر فى الأندلس فقهاء ظاهريون، وازدهر هذا المذهب فى أواخر القرن الخامس الهجرى، وأوائل القرن السادس.

ونختتم كلامنا عن علماء وشيوخ الفقه بالعالم الكبير ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، نشأ وتعلم فى دمشق وتولى التدريس فيها مكان أبيه، واعتنق المذهب الحنبلى وكانت دولة المماليك التى عاش فى كنفها تحكم مصر والشام، وتعرضت بلاد الشام للغزو المغولى، وكان يرى أن مهمة العالم لا تقتصر على إلقاء الدروس، إنما لابد من المشاركة وقيادة المسلمين فى الجهاد ضد أعداء الإسلام، وفعلا خرج مجاهدا ومعه أبناء دمشق، وقادهم فى حرب ضد المغول، آتاه الله ذاكرة واعية، وعُنى بأقوال الصحابة والتابعين المأخوذة من القرآن والحديث، ودرس علوم العربية وآراء الفلاسفة، وأخذ عن الحنابلة مناهضة آراء الأشاعرة، لذلك تعرض فى مصر لعداء شديد من الفقهاء، وزج به فى السجن لهذا السبب، ولكن تعالت الأصوات بإخراجه من السجن، وانصرف إلى الدرس فى المساجد، والخطب على المنابر، حتى كثر مريدوه ومحبوه فى مصر كما كان بالشام.

وحارب الصوفية، وآراء ابن عربى فى وحدة الوجود، هاجم عطاء الله السكندرى - من تلاميذ ابن عربى - وكثرت المجادلات بينه وبين الأشاعرة أو

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٨.

الصوفية حتى سُجن ثانية ثم أفرج عنه، وواصل التدريس ثم عاد إلى الشام، وجاهد، وقاد المسلمين إلى الجهاد.

وتعرض لمحن أخرى حتى مات فى سجنه[1]، وظل فى سجنه يكتب آراءه وفتاويه، وترك تلاميذه ينشرون علمه وفقهه وفتاويه ويدرسونها، وقامت الحركة الوهابية فى بلاد الجزيرة العربية متأثرة بآراء ابن تيمية واعتنقت جماعات إسلامية فى العصر الحديث آراء ابن تيمية.

ومن أبرز تلاميذه شمس الدين الذهبى صاحب المؤلفات الكبيرة.

ويجب أن نشير إلى الفقيه عز الدين بن عبد السلام بن أبى القاسم (ت ٦٦٠هـ) تفقه فى الدين واللغة،وكان حسن المحاضرة، يكثر من الشعر وذكر النوادر، درَّس وأفتى فى دمشق، وبلغ مرتبة الاجتهاد، وقصده طلاب العلم من الآفاق، وتخرج الكثير من الوعاظ والأئمة على يديه، وله تصانيف مفيدة وفتاوى سديدة، وكان إماما ناسكا عابدا، تولى القضاء فى دمشق، وخرج مجاهدا ضد أعداء الإسلام من الصليبيين، وعارض الصالح إسماعيل الأيوبى فى دمشق المتواطئ مع الصليبيين، وسُجن وعزل، وغادر دمشق إلى القاهرة[2]، وارتفعت مكانته بها، وتولى التدريس والقضاء والخطابة فى جامع عمرو بن العاص، عارض وجود المماليك فى حكم مصر لأنهم أرقاء، وأجبرهم على تحرير أنفسهم حتى يحق لهم الحكم.

وفى الشام ومصر أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكان لا يخاف فى الله لومة لائم، وضاق السلاطين المماليك ذرعا بفتاويه التى كشفت عن مظالمهم، وعُزل، ولزم بيته، وكان الطلاب يفدون عليه من كل مكان حتى وفاته[3].

---

(١) أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٥٥٩ وما بعدها.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٢٨.

(٣) الكتبى : فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٥٠، ٣٥١.

علم الحديث :

السنة هى ما أثر عن الرسول ﷺ من أقوال وأعمال، وأقواله هى ما اصطلح على تسميته الحديث، وأفعاله هى السنة، وتوضح السنة حديث الرسول وأفعاله ما أجمله القرآن الكريم، وفيها تكملة للقرآن الكريم والكشف عن أسراره، ولا غنى عنها فى فهم القرآن وأحكام الدين. والمعروف أن الرسول يقول حديثه فى مواقف دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وتتضمن حكما أو شرحا لما ورد فى القرآن الكريم، وإجابة على الأسئلة والاستفسارات العديدة التى تُوجَّه إلى الرسول فى جوانب الحياة المختلفة.

كانت رواية الأحاديث فى أول العهد بالإسلام شفوية دون تدوين، وينقلونها إلى سواهم طوال القرن الأول الهجرى.

روى الصحابة الأحاديث والسنة عن الرسول كما سمعوها أو شاهدوها، ورواها بعدهم التابعون. ولما كانت وسائل التدوين ضعيفة وبدائية، فقد غلب على الحديث الرواية الشفوية، ولكن بعض الصحابة كتب الحديث فى صحف منهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وعلى بن أبى طالب، والزهرى، ومكحول، والحسن البصرى.

والحديث ينقسم إلى قسمين : المتن وهو نص الحديث، والسند وهم الرواة الذين رووا الحديث حتى تنتهى الرواية بالمصدر الأصلى وهو الرسول أو الصحابى الذى روى عنه الحديث مباشرة.

ظل الصحابة يروون الأحاديث التى استنبطوها عن الرسول وينقلونها إلى سواهم فى البلاد الإسلامية طوال القرن الأول الهجرى، ورفض المسلمون تدوين الحديث فى فترة جمع القرآن الكريم حتى لا يختلط الحديث بالقرآن[١].

تعرض الحديث للتحريف بل والوضع شأنه شأن الرواية الشفوية؛ لأن الكلمة المكتوبة هى التى يُكتب لها البقاء.

ومن أسباب ظهور الأحاديث المحرفة أو غير الصحيحة انقسام المسلمين إلى أحزاب سياسية مثل العلويين والأمويين والعباسيين والموالى، والعرب والفرس،

---

(١) سيدة الكاشف : مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٢١.

والعرب اليمانية، وعرب الحجاز. ووضع كل حزب أحاديث فى مميزات حزبه، وعيوب الأحزاب الأخرى المعادية لحزبه.

ومن أسباب الأحاديث الموضوعة ظهور الشعوبية، فالعربى يعتز بعروبته، والفارسى يعتز بقوميته وبتاريخه وحضارته، وأغضبهم عدم مساواة العرب بهم فى حقوق المواطنة، وحاول كل حزب أن يقلل من شأن الحزب الآخر، ويرفع من شأن حزبه بالأحاديث الموضوعة.

كذلك حاول الملاحدة والزنادقة النيل من الإسلام والتقليل من شأن تعاليمه ومبادئه عن طريق وضع أحاديث تبرر أغراضهم.

وأدى ظهور الإسرائيليات - وهى من أقوال المسيحيين واليهود - إلى تأثر المسلمين بها، وأضافوها إلى الإسلام على شكل أحاديث.

ظهور الفرق الإسلامية، والخلاف الشديد بينها حول القضايا الإيمانية، فحاول كل فريق أن يبرر صحة مذهبه بالأحاديث غير الصحيحة، ومن هذه الفرق المعتزلة والجهمية والمشبهة والإسماعيلية والقرامطة وغيرها.

وحاول بعض الصالحين وضع أحاديث لتشجيع المنحرفين عن الدين على التخلص من انحرافهم، وترغيبهم فى الإسلام بالأحاديث الموضوعة.

كثرت المناقشات فى المساجد والأماكن العامة حول قضايا إسلامية، وكل يريد أن يبرر صحة ما ذهب إليه بالحديث الموضوع[١]، ولا ننسى أن الصوفية وضعوا الكثير من الأحاديث لتبرير معتقداتهم.

ظل الحديث يدخل إليه أقوال غير صحيحة، ويتعرض للتحريف، وكثرت الأحاديث الموضوعة، حتى إن بعض العلماء شكوا فى معظم الأحاديث، ورفضوا كل حديث لا يتمشى مع ما جاء فى القرآن الكريم، وخشى عمر بن عبد العزيز أن يندثر الحديث بموت الحفظة من التابعين وتابعى التابعين، فأمر أهل العلم فى بلاد الإسلام بجمع الحديث وتدوينه، وكتب إلى الولاة فى الأمصار الإسلامية يقول: انظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه[٢].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٤٥.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ٩٩هـ.

ظهرت الحاجة إلى تدوين الحديث، وأول تدوين للحديث وصل إلينا «موطأ مالك» هو كتاب صنفه الإمام مالك بن أنس، مشتملا على رواية أهل الحجاز، وجمع فى كتابه الأحاديث التى تأكد من صحتها، وقد عرض كتابه على كبار الفقهاء فى عصره، واستنار بآرائهم، ورُوى أنه قضى فى تأليفه أربعين عاما، وهذبه ونقحه عدة مرات، وتتبع فيه بعض الروايات التى وردت عن الرسول بطريق الصحابة والتابعين، ويجمع العلماء على أن هذا الكتاب فريد فى بابه، وأن أحاديثه صحيحة، وأسانيده وردت جميعها متصلة، وأقبل أهل العلم على شرح الموطأ ودراسته، وظل مصدرا رئيسيا للحديث.

وفى القرن الثالث الهجرى تقدمت وسائل التدوين، وانتشرت صناعة الورق، وشجع ذلك علماء الحديث على تدوين الحديث الصحيح بمنهج علمى يقوم على أساس تمييز الأحاديث الصحيحة عن غيرها وذلك بالاهتمام برواة الحديث، ومعرفة أحوالهم، والاعتماد على بعضهم البعض، وتجريح آخرين. وبذلك ظهر علم الجرح والتعديل الذى يوضح حال الرواة من حيث الثقة فى رواياتهم أو عدم تصديقهم، وأفرد بعض علماء الحديث كتبا خاصة ميزت بين الرواة الموثوق بصحة رواياتهم أو الرواة غير الموثوق بهم، وميزوا بين الأحاديث من حيث الصحة أو عدمها، وبذلك ظهر علم مصطلح الحديث وعلم غريب الحديث، وعلم مختلف الحديث، وقسموا الأحاديث إلى متواترة وغير متواترة وأحاديث حسنة وأخرى ضعيفة من حيث اتصال السند أو عدم اتصاله؛ لذلك تبنى الأئمة الستة جمع الحديث وتدوينه وتصحيحه، وهؤلاء الأئمة هم : البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وأبو داود.

الإمام البخارى (ت ٢٥٦ هـ) إمام المحدثين وشيخ الحفاظ محمد بن إسماعيل وُلد فى بخارى، وألهمه الله حفظ الحديث وهو ابن عشر سنين، وظهرت مواهبه وقدراته على حفظ الحديث الصحيح ومعرفة رواته فى مجالس العلم[1]، وفى المدينة المنورة كتب كتابا عن قضايا الصحابة والتابعين، ثم كتب كتابا فى التاريخ فى مسجد الرسول فى الليالى القمرية، وارتحل فى عدد من البلدان

---

(١) ابن النديم : الفهرست، ص ٢٨٦.

لدراسة الحديث حتى تكونت عنده المقدرة على الحفظ والتمييز بين الحديث الصحيح والحديث السقيم[1]، وقد ظهرت قدراته الكبيرة فى علم الحديث فى المجالس والمناظرات العلمية التى شهدها فى المدن الإسلامية، ونال تقدير علماء عصره وفضلوه على أنفسهم، وكان يتجنب مجالس السلاطين وترك علما نافعا.

ومن أهم مؤلفاته: قضايا الصحابة والتابعين ـ التاريخ الكبير ـ التاريخ الأوسط ـ التاريخ الصغير ـ الأدب المفرد ـ الجامع الكبير ـ والمسند الكبير ـ وكتاب الجامع الصحيح وهو من أجل كتبه نفعا وأعلاها قدرا[2].

ألف البخارى صحيحه بعد أن روى دواوين السنة التى أُلفت فى عصره وقبل عصره، جامعة بين الصحيح والحسن والضعيف، وكان أهل الحديث يروون الأحاديث على علاتها دون دراسة، وليس عندهم المقدرة على التحقيق، لذلك انتشرت وذاعت الأحاديث الضعيفة بين الناس، لذلك جمع البخارى الأحاديث الصحيحة ورتبها على أبواب الفقه، ومكث فى تصنيف هذا الكتاب ستة عشر عاما وجمع ٢٦٠٢ من ستمائة ألف حديث، ولم يخرج فيه إلا ما صح عن الرسول بالسند المتصل الذى توافر فى رجاله العدالة والضبط، وعرض كتابه على كبار علماء عصره مثل أحمد بن حنبل فاستحسنوه وعدد رواته تسعون ألفا[3]. ويتميز صحيح البخارى بأن أحاديثه متصلة بدون انقطاع.

والإمام مسلم بن حجاج القشيرى النيسابورى رحل فى طلب العلم إلى كثير من المدن الإسلامية[4]، وتأثر بشيخه البخارى، وعُرف عنه الحفظ للحديث ودراسة سير الرواة وصنف فى علم الحديث كتبا كثيرة منها كتابه الصحيح وكتاب المسند الكبير على أسماء الرجال، وكتاب الجامع الكبير على الأبواب، وكتاب العلل وكتاب أوهام المحدثين (ت ٢٦١هـ)[5].

والنسائى: أحمد بن شعيب بن على بن بحر النسائى، أحد أئمة الحديث، إمام أهل عصره وقدوتهم فى علم الحديث وخصوصا فى معرفة الجرح والتعديل، رحل إلى كثير من البلدان لجمع الحديث ومعرفة أخبار الرواة، وقد ذكر

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم، جـ ١٢، ص ١١٣ ـ ١١٩.

(٢) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى، جـ ١، ص ٤٧٠ ـ ٤٧٨.

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص ٣٩١ ـ ٤٧١.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٢٤ ـ ٣٣.

(٥) الذهبى : العبر فى أخبار من عبر، جـ ١، ص ٣٧٥. ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ ٣ ص ٣٣.

شيوخ الحديث أن سنن النسائى صحيحة تماما لا يوجد فيها حديث ضعيف (ت ٣٠٣ هـ)[١].

أما أبو داود فهو سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدى السجستانى رحل فى طلب العلم، وأخذ عن أهل العراق والشام ومصر وخراسان[٢]، وأخذ الحديث عن مشايخه البخارى ومسلم وغيرهما، ونال تقدير العلماء، ووصفوه بالحفظ التام والعلم الغزير والفهم الدقيق للحديث، واستطاع جمع أحاديث الأحكام، وتوفى فى البصرة سنة ٢٧٥هـ[٣].

والترمذى محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك السلمى، وهو صاحب الجامع نال ثقة معاصريه، وروى عنه الحديث الكثير من العلماء، وتوفى سنة ٢٧٩هـ.

والسنن لابن ماجة تدل على علمه وعمله وتبحره واطلاعه، ويوجد الحديث المتواتر أى الذى رواه عدد كبير من الصحابة والتابعين يصعب حصرهم ولكنهم معروفون بالصدق، وأكثر ما يكون الحديث المتواتر فى الأمور العملية كبيان كيفية الصلاة والحج ونصاب الزكاة وأحاديث الآحاد وهى الخبر المشهور الذى رُوى فى القرن الأول ثم رواه بعد ذلك قوم لا يحصى عددهم ولا يمكن نسبة الكذب إليهم[٤].

ولكل من كتب الحديث الستة ميزة لها قدرها، فمن أراد التفقه فعليه بصحيح البخارى، ومن أراد قلة التعليقات فعليه بصحيح مسلم، ومن رغب فى زيادة معلوماته فى فن الحديث فعليه بجامع الترمذى، ومن قصد إلى حصر أحاديث الأحكام فبغيته أبو داود فى سننه[٥]، ومن كان يعنيه حسن التبويب فى الفقه فابن ماجة، أما النسائى فقد توافرت لديه أكثر هذه الشروط[٦].

ونشير هنا إلى مسند الإمام أحمد بن حنبل الذى جمع الكثير من الأحاديث الصحيحة، وسلك فى جمعه مسلك شيوخ الحديث، إذ يذكر الصحابى وما رواه

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٣٤ - ٣٦.
(٢) اليافعى : مرآة الجنان، جـ ٢، ص ٢٤٠ - ٢٤١.
(٣) المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٤٣.
(٤) البغدادى : تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ٥٥ - ٥٩.
(٥) ابن الجوزى : المنتظم، جـ ١٢، ص ٢٦٨، ٢٧٠.
(٦) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ ١٣، ص ٢٠٣ - ٢٢١.

من أحاديث، غير ناظر إلى ترتيبها حسب موضوعاتها، وجمع الإمام أحمد ثلاثين ألف حديث.

والجوامع من كتب الحديث تشتمل على جميع أبواب الحديث مثل باب العقائد - باب الرفاق - باب آداب الطعام والشراب - باب التفسير والتاريخ والسير - باب السفر والقيام والقعود - باب الفتن - باب المناقب والمثالب.

والمسانيد جمع مسند، وهو ما تذكر فيه الأحاديث على أسماء الصحابة حسب تاريخهم أو تبعا للأنساب، مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل. وعلماء الحديث يراجعون متن الحديث، ويتأكدون من صحته، ويدرسون سير رواة الحديث، من حيث وجودهم الحقيقى، وحسن سيرهم، والاطمئنان إلى تقواهم وورعهم ودقتهم وعدم خضوعهم للأهواء والأحزاب السياسية والمذاهب الدينية، حتى يصل السند إلى الصحابى الذى روى عن الرسول ﷺ مباشرة، فإذا ما توافرت هذه الشروط : صحة المتن والسند، اعتبر الحديث صحيحا[1].

ولا صحة لما يعتقده البعض من أن الأحاديث التى جمعها الأئمة الستة خالية تماما من الخطأ والوضع، لأن معناها يوضح عدم صحتها، مثل حديث البخارى الذى يروى فيه بأن الذبابة التى تقع فى إناء، يجب وضعها ثانية فى نفس الإناء والشرب منه، لأن فى أحد جناحيها داء وفى الآخر الدواء، فالمعروف أن الذبابة لا تعيش إلا فى القاذورات، وهى ناقلة للميكروبات، وفى حديث للبخارى ومسلم يصفان خلق الله للكون على مراحل استمرت سبعة أيام، وهذا يتعارض مع ما جاء فى القرآن الكريم من أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام. وهذا لا يقلل من أهمية الجهود التى بذلها العلماء الستة فى جمع الحديث وتدوينه بشكل سليم وصحيح.

والخلاصة أن علماء القرن الثالث الهجرى جمعوا الحديث الصحيح وبوبوه حسب الرواة أو حسب أبواب الفقه، وقسموا الحديث إلى درجات حسب الاطمئنان إليه، وهى الصالح والحسن والضعيف والمتروك والمكذوب، وصُنفت أحاديث وفقا لطرق الإسناد متواتر ومشهور وآحاد وغريب.

وفى القرن الخامس الهجرى وما بعده اقتصر هَمُّ علماء الحديث فى جمع ما تفرق من كتب الأولين أو اختصارها بحذف الأسانيد وترتيبها وتهذيبها، غير أن كثيرا منهم انتهج منهج السابقين وكان لهم فى رواية الحديث باع طويل.

---

(١) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى، ص ٤٣.

العلوم اللغوية والأدبية

شهدت مدرستا البصرة والكوفة فى أواخر عهد بنى أمية وأوائل العصر العباسى نشاطا كبيرا فى دراسة علوم اللغة والنحو، وبعد أن اختلط العرب بالأعاجم، فقد العرب فطرتهم اللغوية وتعرض اللسان العربى للخطأ، فدعت الحاجة إلى دراسة علوم اللغة والنحو، ووضع القواعد الثابتة لهما.

فجمع علماء البصرة والكوفة ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وتعاقبت فى ذلك العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع وتقنن قواعد اللغة والشعر، وتزعم الجيل الأول أبو عمرو بن العلاء، (ت ١٥٤هـ)، وأبو زيد الأنصارى، (ت ٢١٤هـ). والأصمعى نشأ فى البصرة، وتتلمذ على علمائها،واستفاد منهم، ثم رحل إلى البادية، وحفظ الكثير من أقوال العرب ونوادرهم وأشعارهم، ورحل إلى بغداد، حيث استقر به المقام هناك[١]، ونال شهرة كبيرة لمقدرته الكبيرة على شغل أوقات الخلفاء وكبار رجال الدولة بالمسامرات الشيقة، واتصل بالرشيد ونادمه، وأخذ الكثير من الأدباء عنه فى اللغة والأدب، ودخل فى كثير من المناظرات مع العلماء والأدباء، وروى الكثير فى مجالس منادمته فى القصور عن حياة العرب الاجتماعية فى أسلوب قصصى تناقله أهل العراق وسائر أهل الأمصار، ورويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة، وصب عنايته على جمع اللغات الشاذة، كما هو واضح فى كتابه «النوادر فى اللغة»[٢].

ومن أبرز لغويى مدرسة الكوفة أبو عبيد، وضع معجما لغويا أعقبه المعاجم الأخرى[٣].

وأول نحاة البصرة أبو الأسود الدؤلى (ت ٦٩هـ) وهو من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم، وروى عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وابن عباس وكان من شيعة على، واستعمله على البصرة بعد ابن عباس، وهو الأصل فى تأسيس علم النحو وعقد أصوله، لمَّا كثرت أخطاء الأعاجم،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٣٢٢.
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام، جـ ٢، ص ٣٠.
(٣) ابن النديم : الفهرست، ص ٩٧.

فرسم أبو الأسود الدؤلى أصول النحو فنقلها النحويون، وفرّعوا منها الفروع، ورسم أبو الأسود من النحو رسوما، ثم جاء بعده ميمون الأقرن فزاد عليه، ثم زاد عليه عنبسة بن معدان المهرى[1].

وأول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن إسحاق الحضرمى (ت ١١٧هـ)، ويعد الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية التى نقحها بعده تلميذه سيبويه فى مصنفه «الكتاب» وهو الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، واستنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد قبله أو بعده.

وأسمى الخليل كتابه «العين» لأنه بدأ بحرف العين، وهذا الكتاب أول محاولة لوضع معجم، لذلك يوجد فى الكتاب بعض التعقيدات، فيوجد صعوبة للكشف عن بعض الكلمات فيه لأن ترتيبه حسب مخارج الحروف وكلمات كتابه خالية من التنقيط الذى لم يعرف فى عصره، مما زاد الأمر صعوبة، لكن تظهر قيمة هذا الكتاب فى أنه أول محاولة لوضع المعجم لمفردات اللغة.

جاء بعده الجوهرى فى القرن الرابع الهجرى، فاخترع النمط الذى جرى عليه فيما بعد القاموس المحيط ولسان العرب وغيرهما من المعاجم التى بلغت درجة كبيرة من الرقى[2].

والخليل هو المؤسس الحقيقى للنحو العربى، والمقيم لقواعده، وهذا الإمام لعلم النحو استنبط علم العروض، وأخرجه إلى الوجود، وله علم بالإيقاع والنغم، وكان رجلا صالحا عاقلا، ومن كتبه «العين فى اللغة» والعروض وكتاب النقط والشكل وكتاب النغم وأكمل تلاميذه كتاب العين[3].

ومن أبرز تلاميذ الخليل فى النحو سيبويه (ت ١٨٠هـ) وهو من أصل فارسى، ولد فى إصطخر بفارس، وعاش فى البصرة، وطلب العلم بها، ولزم سيبويه أستاذه الخليل يأخذ عنه اللغة والنحو، وكان من أفضل تلاميذه.

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى، جـ ١٢، ص ٢٧٩ ـ ٣٠٠.

(٢) سعيد عاشور : الحضارة العربية الإسلامية، ص ٥٧.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٤٨.

انتقل سيبويه إلى بغداد فى عهد الرشيد، ولسيبويه كتاب فى النحو يسمى «الكتاب» ولأهمية هذا الكتاب سماه الناس «قرآن النحو» وكتابه ثمار جهوده وجهود العلماء قبله، والكتاب جامع لأصول النحو وفروعه، ومنذ القرن الثالث يتناول العلماء الكتاب بالشرح والتعليق، وسيبويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر[1].

ومن علماء النحو الكبار، أبو إسحاق الزجاج، له عدة كتب منها كتاب «الأمالى» وكتاب «العروض» وكتاب «القوافى» و«ما ينصرف وما لا ينصرف» وكتاب شرح لنحو سيبويه، وكتاب «النوادر» وإليه ينسب أبو القاسم عبد الرحمن الزجاجى صاحب كتاب «الجمل فى النحو»[2].

ومن علماء النحو أبو سعيد السيرافى من أعلم الناس بنحو البصريين، وشرح كتاب سيبويه فأجاد فيه وله كتاب «ألفات الوصل والقطع» وكتاب «أخبار النحويين البصريين» - «الوصف والابتداء» - «صفة الشعر والبلاغة» - وشرح نحو ابن دريد، وله مؤلفات فى الشعر والعروض، وتوفى فى بغداد سنة ٣٦٨هـ[3].

ومن علماء النحو أبو سعيد ووصلنا كتبه «الإيضاح والتكملة فى النحو» و«الحجة فى القرآن»[4].

ومن الصعب الفصل بين علماء اللغة والنحو والأدب، لأنهم يكتبون فى كل هذه المجالات دون تخصص فى مجال واحد؛ لذلك سندرس علماء النحو والأدب واللغة فى إطار واحد.

لما تم تأسيس مدينة بغداد فى عهد الخليفة المنصور سنة ١٤٥هـ، اجتذبت إليها علماء البصرة والكوفة.

ومن أدباء بغداد أبو عبيدة معمر بن المثنى - وهو من أصل فارسى يهودى - لذلك تنوعت ثقافته، وكان عالما بأيام العرب وأخبارهم وعلومهم وبالثقافة الفارسية، غير أن شعوبيته ظهرت فى مؤلفاته، وقربه إليه الرشيد، وحاول الفرس فى بغداد رفع شأنه، والإقلال من شأن الأصمعى العربى الأصل.

---

(١) كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، جـ ١، ص ٤.
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٤٩، ٥٠.
(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٧٩.
(٤) احمد أمين : ظهر الإسلام، ص ٣٤٣.

ومن ندماء الرشيد الكسائى، وكان مؤدبا لأبنائه نبغ فى اللغة والنحو، وبلغ من تقدير الرشيد له أن رفعه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الندماء[1].

ومن أعلام الأدب فى الإسلام الفراء - تلميذ الكسائى - وقيل لولا الفراء ما كانت اللغة العربية لأنه ضبطها، وخلصها من الأخطاء الكثيرة التى تعرضت لها حيث كان الناس يكتبون فيها على مقدار تفكيرهم وقرائحهم، فشرح الفراء النحو بطريقة واضحة مبسطة، يستفيد منها الخاص والعام، وبالإضافة من تمكنه من الفقه والنحو وأيام العرب وأشعارهم[2].

اتصل الفراء بالخليفة المأمون، فأمره أن يؤلف عن كل ما جمعه من أصول النحو، وما سمع من العرب، وأفرد له حجرات فى قصره ليقيم فيها، وظل سنين فى صومعته حتى انتهى من مؤلفه. وهو الذى حسم الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة، لمقدرته على الحجج والجدل، ويقال إنه كان مثقفا ثقافة فلسفية واسعة، ويستخدم فى كتبه ألفاظا فلسفية[3].

واعتمد الخلفاء العباسيون وأمراؤهم ووزراؤهم على الكوفة فى تأديب أولادهم، ووفد الكوفيون بكثرة على بغداد، وتخيروا ما يناسب مجالس السمر والمنادمة من أقوال؛ لذلك نراهم يتجهون باللغة اتجاها جديدا فيه البساطة والوضوح أكثر مما يفعله البصريون، وانتهى النزاع بين مدرستى الكوفة والبصرة - كما قلنا - إلى اندماجهما فى مدرسة واحدة هى مدرسة بغداد[4].

ظهر فى الدولة الإسلامية أدباء مشهورون مثل ابن المقفع، شاعر فصيح بليغ، وترجم من الفارسية إلى العربية لضلاعته فى اللغتين، وترجم كتاب «كليلة ودمنة» الذى ترجمه من أقاصيص كُتبت باللغة الهندية المعروفة بالسنسكريتية، ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر الأدبية، ويمتاز بقوة الأسلوب ومتانة العبارة، وله كتاب «مزدك» وكتاب «سيرة أنوشروان» وكتاب «الأدب الكبير» واتهم ابن المقفع بالزندقة وقُتل بسبب ذلك سنة ١٤٥هـ[5]، ونُسب إليه أنه نقل كتبا فارسية تتجلى

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ٥، ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق، جـ ٧، ص ٣٨٦.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٥، ص ٢٢٥.

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام، جـ ٢، ص ٣١٢.

(٥) ابن النديم : الفهرست، ص ١٧٩.

فيها العقائد المجوسية من أجل تعريف الناس بالعقائد الوثنية، وتضليلهم تبعا لذلك، وعلى الرغم من هذه الاتهامات كان ابن المقفع مفكرا واسع العلم والثقافة، دارسا لثقافات الهند والفرس واليونان والعرب، وهذا واضح فى مؤلفاته الكثيرة(١).

ومن أدباء ذلك العصر ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦هـ)، شب فى بغداد منتدى الأدب والعلم، وتفرغ للأدب والدرس والتحصيل على علماء الأدب واللغة، حتى صار من كبار الأدباء وحجة فى اللغة والأخبار وأيام الناس وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف. ولقد أجمع العلماء على تقدير قيمة مصنفات ابن قتيبة، وأنها عظيمة القدر جليلة النفع، وأشهر مؤلفاته : عيون الأخبار - طبقات الشعراء - تاريخ ابن قتيبة(٢) - المعارف.

وأما عمرو بن بحر الجاحظ فقد عُرف بحرية الفكر والميل إلى الاعتزال، وُلد فى البصرة، ودرس بها علوم اللغة والأدب والدين، وشُغف بالقراءة حتى قيل إنه لم يقع فى يده كتاب إلا استوفى قراءته، وكان يكترى دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للقراءة، ولم تقتصر ثقافته على العربية، بل تثقف بالثقافتين الفارسية واليونانية أيضا. وكان لتنقلاته الكثيرة فى البلدان أثرها فى معرفته لأحوال الناس، لذلك أعطى صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى عصره. ومن أشهر كتبه: البيان والتبيين - البخلاء - رسائل الجاحظ - كتاب خلق القرآن - وفى المجالات العلمية ألف كتاب الحيوان وكتاب النبات.

وقد أحصى ياقوت كتب ورسائل الجاحظ(٣)، وتدل على مقدرته العظيمة فى العلم والتأليف والتصنيف، ومن الطريف أنه يكتب فى الشىء ونقيضه مثل رسالته فى مدح الكتاب ورسالته فى ذم الكتاب ورسالته فى مدح الوراقين ورسالته فى ذم الوراقين.

والجدير بالذكر أن الجاحظ بحكم طبيعته كأديب وكاتب ويشغله الفكر عن غيره من أمور الحياة، كان لا يطيق الاستمرار فى الوظائف الحكومية، فتقلد وظيفة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٩، ١٨٠.
(٢) انظر مقدمة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.
(٣) معجم الأدباء، جـ ٥، ص ١٠٩.

كاتب في ديوان الرسائل ولكنه تركها بعد فترة قصيرة وهكذا، وكان الجاحظ ملازما للوزير العباسي محمد بن عبد الملك الزيات ومن ندمائه، ومنحرفا عن أحمد بن أبي دؤاد للعداوة الشديدة بين أحمد وابن الزيات ولما قبض على محمد هرب الجاحظ وقال : خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور. يريد ما صنع بمحمد واتخاذه تنور حديد فيه مسامير من صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذب هو فيه[1]، (ت ٢٥٦هـ).

ومن علماء الأدب واللغة محمد بن يزيد بن العباس الأزدي أبو العباس، المبرد، وُلد في البصرة، وطلب العلم في كل المجالات حتى صار إمام العربية في بغداد، ومن أفضل علماء النحو، وكان فصيحا بليغا كثير الأخبار والنوادر فيه طرافة، وله من المصنفات ما يقرب من خمسة وأربعين مصنفا، أشهرها «الكامل للمبرد» وهو كتاب جامع، حوى قواعد نحوية وصرفية وإشارات لغوية وأدبية وتاريخية، ويحتوي كتابه على الشعر الجاهلي والشعر المعاصر له والخطب. وفي أثناء كتابته عن قواعد النحو والصرف، يزيل ملل القارئ بذكر بعض الطرائف والنوادر، وكتاب الكامل فيه سير الخوارج وأشعارهم. واشترك المبرد في الكثير من المناظرات الأدبية. وقد تجلت فيها براعته وفصاحته وقوة بيانه[2] (ت ٢٧٥هـ).

ومن رجال الأدب أحمد بن عبد الله بن سالم المعروف بابن عبد ربه، وهو من بني أمية، وقويت ملكته في الشعر والنثر ونادم الملوك، وعرف آدابهم، وما تطلب ذلك من الولع بالموسيقا وألوان الفن، وكان متفوقا على أهل زمانه في الشعر والنثر، ومعرفة أخبار العرب، وكتابه «العقد الفريد» من الكتب الأدبية الممتعة، ويتضمن الكتاب فصولا بأنواع اللآلئ وتتضمن التوقيعات والخطب وأخبار الكتبة والخلفاء وأيامهم وأيام العرب ووقائعهم والشعر ومنهج دراسته وعلل القوافي والألحان، والنساء وصفاتهن والطفيليين والتحف والهدايا والملح والطعام والشراب وطبائع الحيوان والإنسان وتفاضل البلدان[3]. والكتاب كله عن الشرق

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ٥، ص ٧٦.

(٢) انظر كتاب الكامل للمبرد.

(٣) كرد على : أعلام الإسلام، ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

رغم أنه أندلسى فهو زبدة من أدب العرب. ولما اطلع الصاحب بن عباد قال : هذه بضاعتنا رُدت إلينا[1]، (ت ٣٣٨هـ).

ومن رجال الأدب أبو الفرج الأصفهانى، صاحب كتاب الأغانى، كان عالما بأيام الناس والسير والأنساب، وكان يحفظ الشعر والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم يحفظه غيره، ويحفظ علوم اللغة والنحو والنوادر والسير والمغازى وغيرها من أساليب المنادمة. ويلم بعلوم الطب والبيطرة والنجوم والأشربة والجوارح، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان الظرفاء للشعر[2].

وله العديد من المصنفات أهمها كتاب «الأغانى» ولم يظهر كتاب مثله، جمعه فى خمسين عاما وحمله إلى سيف الدولة الحمدانى فكافأه بألف دينار، وحكى عن الصاحب ابن عباد أنه فى أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالعها، فلما صدر كتاب الأغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه. وله كتب كثيرة من بينها كتاب «مقاتل الطالبيين»، ولم يكن كتاب الأغانى يفارق عضد الدولة البويهى فى سفره ولا فى حضره، وكان جليسه الذى يأنس به، وكتب بخطه نسخة واحدة من هذا الكتاب[3]، (ت ٣٥٦هـ).

ومن الأدباء الكبار أبو حيان التوحيدى، شيرازى أو نيسابورى الأصل، أقام فى بغداد فترة من الزمن، ومضى إلى الرى، وصحب الصاحب إسماعيل بن عباد بعد أن صاحب ابن العميد، فلم يقدراه حق قدره؛ لذلك كتب كتابا فى مثالبهما، نبغ فى علوم متعددة كالنحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك مسلكه فى التأليف، وهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المتحققين، وإمام البلغاء. ولكن يؤخذ عليه سوء ظنه وسوء علاقته بالناس، لذلك فهو ساخط على الناس قليل الرضا بما قسمه الله له، ومن مواقف الناس نحوه يكثر من الذم وذكر المساوئ، وهو بطبيعته زلق اللسان كل ذلك رغم فصاحته[4].

---

(١) اقرأ كتاب : العقد الفريد لابن عبد ربه.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٣٠٧.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء جـ ١٥، ص ٤ ، ٥.

(٤) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٥، ص ٦.

والتوحيدى كثير التحصيل للعلوم والفنون واسع الدراية والرواية، دائم الشكوى من الزمان والناس. ويبكى فى تصانيفه على حرمانه وإساءات الناس له[1].

أبو حيان التوحيدى يعنى بالموضوع كما يعنى بالشكل، وهو حسن الصياغة عالم، وأسلوبه قوى ممتع، له علم كامل بالفلسفة واللغة والأدب والتاريخ والتصوف والسير، خبير بأحوال أهل الزمان، حمله البؤس على التنقل فى الأمصار والاختلاط بالعامة، واتصل بالوزراء كابن العميد والصاحب، وعرف عن أخلاق الناس على مستوياتهم الشىء الكثير، ودون ذلك فى كتبه، ودون ما دار فى مجلس الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى. كما دون فى بعض كتبه ما دار فى بعض المجالس العلمية[2].

ولأبى حيان التوحيدى المصنفات العديدة، منها كتاب «رسالة الصديق والصداقة» - كتاب «الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى» - كتاب «الإمتاع والمؤانسة» - كتاب «الإشارات الإلهية» - كتاب «رياض العارفين» - كتاب «ذم الوزيرين» - «الرسالة فى أخبار الصوفية» - كتاب «المحاضرات والمناظرات».

وبلغ من سوء ظنه بالناس أنه أحرق كتبه قبل وفاته حتى لا ينتفع بها أحد، وكتب فى أواخر أيامه يشكو من صنيع الدهر ويقول : ما أجده من انكسار النشاط وانطواء الانبساط لتعاود العلل وتخاذل الأعضاء، فقد كل البصر وانعقد اللسان وذهب البيان وملك الوسواس وغلب اليأس من جميع الناس، وهو تعالى ملك نواصينا، وبيده الأمر والنهى، واطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر وبيده الكسر والجبر وعلينا الصمت والصبر إلى أن يوارينا اللحد والقبر[3]، (ت ٤٠٠هـ).

ونبغ فى الأدب واللغة أبو بكر محمد بن دريد الأزدى، توفى فى بغداد سنة ٣٢١هـ، رحل من البصرة إلى عمان إلى فارس، وبقى فى بغداد حتى وفاته، وهو من أكبر علماء العربية، ومن تلاميذه أبو على القالى وابن سعيد السيرافى وهو شاعر وقصاص وعالم فى اللغة والنحو والعروض والأنساب.

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٥، ص ٦.

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٢٣٨.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء، جـ ١٥، ص ٢٥.

أما أبو على القالى فهو الذى نشر علوم اللغة العربية وآدابها فى الأندلس، ومن تلاميذه أبو الفرج الأصفهانى.

ومن علماء الأدب أبو بكر الأنبارى، له كتب كثيرة فى القرآن والحديث وفى اللغة، ومن كتبه «الأضداد»، و«شرح المفضليات» وهو من شيوخ أبى الفرج الأصفهانى، ت ٣٢٨هـ.

أما أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى (ت ٤٣٠هـ)، جمع أشتات النثر والنظم، شيخ مؤلفى زمانه، وإمام المصنفين، سار ذكره فى الآفاق وضُربت إليه آباط الإبل، وذاعت دواوينه فى المشارق والمغارب. ومن أشهر كتبه «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر» وهو أكبر كتبه[1] وأفضلها، وفى ذلك يقول القائل:

أبيات أشعار اليتيمة ... أبكار أفكار قديمة
ماتوا وعاشت بعدهم ... فلذاك سُميت اليتيمة

وله أيضا كتاب فى فقه اللغة «سحر البلاغة وسر البراعة» و«مؤنس الوحيد»، وجمع أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم، وفيها دلالة على كثرة اطلاعه[2].

وكان وهو فى بغداد يقصد إليه العلماء وطلاب العلم يسألونه عما أشكل عليهم فى اللغة والنحو والقرآن الكريم، ولقبوه بالإمام وشيخ الإسلام، وقد حكى الثعالبى عن مجالسه الأدبية والأسئلة التى كانت ترد إليه من الآفاق ورده عليها[3].

ومن أعلام الأدب أبو على الفارسى، التحق ببلاط سيف الدولة وعضد الدولة وغيرهما، وكان يروى ما يجرى من مناظرات فى المجالس الأدبية، ومن كتبه المسائل الحلبيات والبغداديات والشيرازيات إلخ، ووصلنا من كتبه «الإيضاح والتكملة فى النحو والحجة فى القراءات»[4].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٧٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٨٠.
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٢، أخبار سنة ٤٣٩هـ.
(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ص ٣٤٣.

شهد الأدب العربى فى تطوره اتجاها طريفا وهو المقامة التى كانت تحتوى على جد القول وهزله ودقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره ونوادر الأدب والحكايات ومحاسن الكتابات والأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية والرسائل والخطب وكلام العرب من لغاتها وأمثالها.

فتح بديع الزمان الهمذانى الطريق للحريرى فى فن المقامات، والمقامات بعيدة عن التوسع فى الخيال والتفنن فى إمتاع القارئ، وهى أشبه بالنكات اللغوية والأدبية[1].

إن أسلوب المقامات أسلوب خاص بدأه الهمذانى وأكمله الحريرى والزمخشرى وواصلهم بعض الأدباء، وهو أسلوب لا يصلح للرسائل والخطب والتأليف. وهذا النوع من الفكاهة والحكاية عادة ما يكون بأسلوب يغلب عليه السجع، وبقيت للمقامات رونقها فى ظل السجع[2].

بدأ المقامات - كما قلنا - بديع الزمان الهمذانى الذى قال عنه الثعالبى : «إنه معجزة همذان وغرة العصر»، كان ينشد القصيدة إذا سمعها مرة واحدة، ويترجم ما يستمع إليه من الأشعار الفارسية إلى العربية مباشرة على الرغم مما فيها من الغرابة، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع، طلب العلم فى المدن الإسلامية واستقر به المقام فى نيسابور ونشر فيها روائعه وأملى بها أربعمائة مقامة فى موضوعات مختلفة، ودخل فى خدمة السلطان محمود الغزنوى، ونشر روائعه فى دولته حتى وفاته سنة ٣٩٨هـ.

أما الحريرى فكان يعمل بصنع الحرير وبيعه، ثم انقطع للعلم والأدب، وبرز فى النحو واللغة والنثر والشعر، وتولى فى البصرة منصب صاحب الخبر، واشتهر بالغنى، وكان منزله محط أنظار العلماء والأدباء، وكُتّاب المقامات.

وحكاياته أو مقاماته تدور حول حيلة تحايلها رجل لكسب شىء من المال عن طريق مقامة صيغت فى أسلوب أدبى طريف، ومقامات البديع بطلها أبو الفتح الإسكندرى، ومقامات الحريرى بطلها أبو زيد السروجى، والبطل يحتال لقبض

---

(١) كرد على : أعلام الأدب، ص ٢٨٢ - ٢٨٥.

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر، ص ٣٩٨.

المال فى كل مقامة، وورد ذكر الساسانيين فى مقامات بديع الزمان الهمذانى، وأوضح لنا الحريرى فى مقاماته المسماة المقامة الساسانية كثيرا من الدوافع الباعثة على التسول فقال : سمعت أن المعايش إمارة وتجارة وزراعة وصناعة، فمارست هذه الأربع وأستنكر هذه المهن التى يصعب على الإنسان ممارستها، وفضل عليها التسول كوسيلة لكسب العيش. إلى أن قال: إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها وشروط النجاح فيها، النشاط والحركة والفطنة والمكر والحيلة «ومن طلب جلب ومن جال نال» وتحتاج إلى سحر البيان والصبر[١].

ومن رجال الأدب ومن علماء النحو أبو إسحاق الزجاج، صنف كتابا فى معانى القرآن، وله كتاب الأمالى، وكتاب الاشتقاق، وكتاب العروض، وكتاب القوافى، وكتاب خلق القرآن، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب شرح كتاب سيبويه، وكتاب النوادر، وإليه ينسب أبوالقاسم عبد الرحمن الزجاجي صاحب كتاب «الجمل فى النحو» وظهر في المشرق وفى نيسابور بالذات، الثعالبي - الذى تحدثنا عنه - الكلمات فى الموضوع الواحد، فى موضوع واحد، وكذلك فعل ابن سيده الأول توفى سنة ٤٢٩هـ، والثانى ٤٥٨هـ، وألف الأول فى فقه اللغة وصنف الثانى المخصص وألف الثعالبى «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر» ذكر فيه تراجم الأدباء، ومختارات من أدبهم مقسما إلى الدول المختلفة والأمصار المتباينة[٢].

ومن أئمة اللغة الأزهرى صاحب كتاب «التهذيب فى عشر مجلدات، وهو من الكتب التى أفاد منها ابن منظور فى كتابه «لسان العرب» لذلك تعتبر كتب تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى (ت ٣٧٠هـ) والمخصص لابن سيده من أمهات الكتب فى اللغة، وكذلك الجوهرى - صاحب الصحاح ومبتكر طريقة المعاجم، جرى عليها مؤلفو القواميس، ووضع كتاب الصحاح إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٨هـ)[٣].

ومن كبار الأدباء الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ)، نشأ فى قرية من قرى خوارزم. درس علوم الدين واللغة، وهو الذى أدخل مذهب المعتزلة فى خوارزم، أحبه

---

(١) احمد امين : ظهر الإسلام، جـ١، ص ١٤٢ ، ١٣٤.
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٤٩ ، ٥٠.
(٣) احمد أمين : ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٢٧١.

شيوخه وتلاميذه، وأشاد العلماء به والشعراء بمكانته، وتفسيره «الكشاف» من أفضل التفاسير، واعتمد عليه أهل العلم فى عصره، وكتابه «أساس البلاغة» من أهم الكتب فى هذا المجال، وكتاب «أطباق الذهب فى المواعظ والخطب».

وتظهر فى كتاباته، السجع على طريقة أهل زمانه، وكتبه فى اللغة مفيدة فى تبويبها وفهرستها، ومفيدة لغة ولفظا وتركيبا، وأفاد من دراساته اللغوية الأعاجم الدارسين للغة العربية(١).

الشعر :

الشعر أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية للأمم المتحضرة التى عرفها التاريخ، والشعراء هم قادة الفكر فى هذه الأمم، تأثروا بحياتهم البدوية، فنشأوا ملائمين لها، وتميزت شخصياتهم فأثروا فيمن حولهم، ثم فى الأحوال التى خلفتهم. وسيطر على البداوة العربية امرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير وغيرهم من الشعراء.

ومن شعراء العرب من نسيتهم الإنسانية، وعاشت بآثارهم عصورا طوالا، ثم تنبهت إلى جحافل هذه الآثار، فأخذت تبحث عن أصحابها(٢).

والشعر ديوان العرب، ونبغ من العرب قبل الإسلام شعراء كبار وكانوا يحفظون الأشعار، والرواة يروونها فور ظهور القصيدة، فتنتشر فى سائر الجزيرة، وينشدها الناس فى كل مكان.

على أن مكانة الشعر اضمحلت فى عهد الرسول ﷺ لأن القرآن الكريم شغل العرب عن الشعر، وتذوقوه عن الشعر، ولكن عادت للشعر مكانته فى العهد الأموى، وبرز شعراء كبار، نخص بالذكر منهم جرير والفرزدق والأخطل، وتنافس هؤلاء الشعراء الثلاثة، وأنشد الناس أشعارهم لجودتها، ومما يجدر ذكره أن الفرزدق هدد رجلا يسمى مربعا بالقتل، فأنشد جرير ـ المنافس له ـ يسخر منه :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

(٢) طه حسين : قادة الفكر، ص ١٣.

وفى العصر العباسى الأول، ازدهر الفكر الإسلامى فى شتى المجالات، وظهر شعراء أجادوا وأبدعوا فى فنون الشعر، ومن أعلام شعراء العصر العباسى الأول، بشار بن برد، فقد بصره منذ طفولته وتردد فى صباه على مربد البصرة[1]، وعلى حلقات المتكلمين ومجالسهم وتأثر بأفكار الفلاسفة، وأعلن زندقته بعد ذلك، تجلى فى أشعاره عدم الإيمان بالله، ونبغ فى شعر الغزل على الرغم من قبح منظره، وتغنت النساء بشعره، وتصور الخليفة المهدى أن بشارا يفسد النساء بغزله الفاضح المكشوف بعد أن تغنت النساء بشعره وأقبلن عليه للاستماع إلى أشعاره، ولما تعقب الخليفة العباسى - المهدى - الزنادقة، أمر بقتل بشار سنة ١٢٨هـ.

وشعر بشار يدل على نبوغه فى هذا الفن، ويقول الأصمعى : بشار خاتمة الشعراء، ولولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم، ومن شعره :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ويقول :

فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

ويقول :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

ومن شعره :

يا عبد حبى لك مستور وكل حب غيره زور
إذا كان هجرى سركم فاهجروا إنى بما سركم مسرور

ومن شعره :

نزل الحب منزلا فى فؤادى وله فيه مجلس ومقام[3]

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٩، ص ٣٢٤.
(٢) المنتدى الأدبى لأهل البصرة ويشبه سوق عكاظ فى الجاهلية.
(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٦، ص ٤٤٦، ٤٤٧، ٢٥٢.

ومن شعره أيضا :

أنا والله أشتهى سحر عينيك ... وأخشى مصارع العشاق

ومنه :

بكيت على من كنت أحظى بقربه ... وحق الذى حاذرت بالأمس إذ ساروا

وقال :

يا عبد حبك شفنى شفا ... والحب داء يورث الحتفا

والحب يخفيه المحب لكى ... لا يستراب به وما يخفى

وقد رسم بشار للشعراء منهجا ساروا عليه، وهو التمسك بالأصول التقليدية للشعر، وتجديد ألوان الشعر[1].

ومن شعراء الدولة العباسية، أبو نواس، نشأ فى البصرة، تردد على علمائها، واستفاد منهم، ودرس نحو سيبويه، وتعلم غريب الألفاظ، أجاد فى جميع أنواع الشعر، وخصوصا فى الخمر والغزل والأطلال، وخالف من سبقه من الشعراء فى بدء القصيدة بالبكاء على الأطلال، وقد أثرت طريقته الشعرية وأساليبه، وتصرفه فى أبواب النظم، واستنباطاته للمعانى فى الشعر، ونال تقدير الخلفاء، وتأثر الكثير من الأدباء بأشعاره.

يتجلى فى شعر أبى نواس ميله إلى الخلاعة والمجون بحكم البيئة التى عاش فيها، ومدح الرشيد، ونال جوائزه، وكان ينفقها فى اللهو وحانات الخمور، وحبسه الرشيد عدة مرات بسبب لهوه واتخذه الأمين نديما له، (ت ١٩٨هـ).

ومن شعر أبى نواس :

أيا من كنت بالبصر ... ة أصفى لهم الودا

ومن كانوا موالىّ ... ومن كنت لهم عبدا

ومن قد كنت أرعاه ... وإن ملَّ وإن صدَّا

شربنا ماء بغداد ... فأنساناكم جدا

فلا ترعوا لنا عهدا ... فما نرعى لكم عهدا

(١) شوقى ضيف : الأدب العباسى، جـ ١، ص ٢٢٥.

ومن شعره فى المجون :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر

ومن شعره :

تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما اسمى لما درت وأين مكانى ما عرفن مكانى

ومن شعره فى رثاء البرامكة :

لم يظهر الدهر إذ توالت فيهم مصيباته دراكا
كانوا يجيرون من يعادى منه فعاداهم لذاكا

يقول أبو نواس فى غلام :

على من كان فى شقوته حب بمن يهوى على جفوته
مجلس يضحك تفاحه فى الرياحين إلى حضرته
ليس يرى خلوتنا ثالث إلا الذى نشرب من قهوته
حتى إذا خلع قناع الحيا ودبت الحمرة فى وجنته

ويقول فى مجلس خمر :

عصابة سوء لا يرى الدهر مثلهم وإن كنت منهم لا بريئا ولا صفرا
إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم يحثوا منها حتى تفوتهم سكرا

ويقول فى مجلس منادمته للأمين :

إذا ما أدركته الظهر صلى ولا عصر عليه ولا عشاء
يصلى هذى فى وقت هذى فكل صلاته أبدا قضاء
وذاك محمد تفديه نفسى وحق له وقل له الفداء[1]

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٢٥، ص ١٨٨، ١٤٧، ٧٣، ٧٤.

وأبو تمام شاعر لطيف الفطنة، دقيق المعانى، وفد على خراسان على أميرها عبد الله بن طاهر فى جمع من الشعراء، نالت تقدير الأمير، ونعى أبو تمام ابنين لعبد الله بن طاهر :

ما زالت الأيام تخبر سائلا — أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا

نجمان شاء الله ألا يطلعا — إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

والبحترى من طىء، تخصص فى المديح، فكان لا يترك وجيها ولا واليا ولا أميرا ولا صاحب خراج إلى مدحه، نال الجوائز الكثيرة بسبب ذلك، وذهب إلى العراق، ومدح آل طاهر، واتصل بالخليفة المتوكل، وكان من ندمائه ومن أفضل شعرائه، واضطربت الدنيا فى وجهه بعد مقتل الخليفة المتوكل، ونجح فى التقرب إلى الخلفاء الذين خلفوا المتوكل ومدحهم، وجمع ثروة كبيرة، وامتلك الضياع الواسعة، ومثل البحترى الذوق المحافظ الذى ساد فى عصره؛ لذلك نال تقدير علماء اللغة والشعر والفكر.

والمديح هو قوام شعر البحترى، مدح الخلفاء من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم وقوادهم وولاتهم وكتابهم. فهو الشاعر الرسمى للدولة، أشاد برجالها، ورفع من شأن العباسيين على حساب أعدائهم العلويين، وكان لديه المقدرة على وصف العمران، وصف قصور الخلفاء بدقة ومهارة[1] (ت ٢٨٥هـ).

الله مكن للخليفة جعفر — ملكا يحسنه الخليفة جعفر

فانعم بيوم الفطر عيدا إنه — يوم أعز من الزمان مشهر

من شعراء ذلك العصر على بن العباسى بن جريج الملقب «ابن الرومى» وهو يونانى الأصل أو رومى، وكان يجاهر بتشيعه، لذلك لم يستقبله الخلفاء، وأعرضوا عنه، وقربه الوزراء وكبار رجال الدولة، ومن موضوعات شعره : الحياة وشرورها، والناس وحرفهم وملابسهم، والموت والأطعمة والأشربة، ومتع الحياة وطبائع الناس، والنساء وأخلاقهن[2].

---

(١) شوقى ضيف : تاريخ الأدب العباسى، جـ ٢، ص ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٥، ٣١٨.

قد قلت إن مدحوا الحياة فأكثروا   للموت ألف فضيلة لا تعرف

فيه أمان لقائه بلقائه   وفراق كل معاشر لا ينصف

وابن الرومى من أفضل شعراء عصره، ويحفل ديوانه بموضوعات ذات معان وأخيلة مبتكرة.

أما الشاعر ابن المعتز، أجاد الشعر وأحسن، وتقدم فى هذا الفن عن أهل عصره، فضلا وأدبا وشعرا وظرفا، وتصرفا فى سائر الآداب، نال شهرة كبيرة فى الأدب والفضائل، وفى شعره رقة ملوكية وغزل الظرفاء، ويتضح فى شعره حياته المترفة بين الخدم والغصون والرياحين، وكان على علم بالألحان والنغم والغناء، وله شعر جيد، يدل على فضله وغزارة علمه. وقال يصف الربيع (آذار) :

حبذا آذار شهر فيه   النور انتشارا

ينقضى الليل إذا جاء   ويمتد النهار

وعلى الأرض اخضرار   واصفرار واحمرار

وقال عن قصر يعيد بناءه :

ألا مَن لنفسى وأحزانها   ودار تداعى بنيانها

أظلُّ نهارى فى شمسها   شقيا معنى ببنيانها

اسود وجهى بتبييضها   وأهدم كيسى بعمرانها

ولما ولى ابن المعتز الخلافة قال :

توحدك بالعز والعلا   فأنت على كل الأنام أمير

تقاتل عنك الترك والخزر كلها   كأنهن أسد لهن زئير

وتعرض ابن المعتز الخليفة لبطش الأتراك (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ) وتجلى ذلك فى شعره، وكان يبكى أيام صباه وما فيها من ترف ونعيم. وتحول أيام العز والرفاهية إلى أيام بؤس وشقاء.

لهفى على دهر الصبى القصير   وغصنه ذى الورق النضير

ومن قوله :

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر[1]

ويقول فى وصف بستان :

وأنهار كالسلاسل فجرت ... لترضع أولاد الرياحين والزهر

جنان وأشجار تلاقت غصونها ... فأورقن بالأثمار والورق الخضر

ترى الطير فى أغصانهن هواتفا ... تنقل من وكر لهن إلى وكر[2]

والفردوسى من أبرز شعراء وأدباء الدولة الغزنوية، واقترن اسمه بالشهنامة التى شرع الدقيقى فى نظمها، واغتاله أحد عبيده ليلا، وعلى ذلك فإن الدقيقى سبق الفردوسى فى نظم الشهنامة، فنظم ألف بيت، وزاد عليها الفردوسى ستين ألفا، ولما قرئت هذه القصص على الناس، أولع بها الحكماء والمفكرون. وبعث الفردوسى هذه القصيدة إلى السلطان محمود الغزنوى التى أتمها بعد خمس وعشرين عاما من الجهد المتواصل وتتضمن أخبار الفرس القدامى ورواياتهم. ولكن السلطان محمود الغزنوى لم يقدر هذا العمل الكبير لما نُسب إليه من تشيع، وأعطاه مكافأة لا تناسب جهده، فغادر غزنة، وأهدى الشهنامة إلى شهريار - أمير طبرستان - ومعه مقدمة فى هجاء السلطان محمود الغزنوى، فأكرمه شهريار، وحذف الأبيات التى تتضمن هجاء السلطان محمود الغزنوى، وأغدق الأموال على الفردوسى[3].

ومن أشهر شعراء العربية أبو الطيب المتنبى، نشأ فى الكوفة، وطلب العلم فى مدن العراق، وانتقل إلى الشام، والتحق ببلاط سيف الدولة الحمدانى، ومدحه.

نال المتنبى شهرة عظيمة فى الدولة الإسلامية، وأعطى لسيف الدولة شهرة بين معاصريه، وخلد اسمه فى التاريخ بروائع أشعاره التى مدحه بها وخصوصا فى

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ ٩، ص ٣٢٢.

(٢) شوقى ضيف : الأدب العباسى، جـ ٢، ص ٣٣٨.

(٣) العروض السمرقندى : جهار مقاله، ص ٥٦.

غزواته للدولة البيزنطية. وسار كلامه فى البدو والحضر، وكانت الليالى تنشده، والأيام تحفظه.

وشعر المتنبى بمكانته الشعرية الكبيرة، وتفوقه على كل شعراء عصره والسابقين له، وتجلى ذلك فى شعره :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لم يسير مشمرا وغنى به من لم يغن مغردا

ومن أجمل وأروع قصائد المتنبى ما قاله فى مدح سيف الدولة الحمدانى، ومدح المتنبى كذلك عددا كبيرا من الأمراء والحكام بأشعار رائعة. وكثرت الوشايات ضد سيف الدولة من حساده فى مجلس سيف الدولة، فاضطر إلى الدفاع عن نفسه بالعتاب والاستعطاف وهجاء الخصوم، ولم يدافع عنه سيف الدولة أو يحميه من حساده، وحاول المتنبى أن يبقى على الود للأمير الحمدانى، واستعطفه برثاء أقاربه ويقول فى مدح الأمير وتأنيب حساده :

أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لامنى فيك السها والفراقد
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد
فإن قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسد

ومن أشعاره الفلسفية :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأننا ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدّر الإحسانا

ويقول المتنبى فى الدهر :

يدفن بعضنا بعضا ويمشى أواخرنا على هام الأوالى

ويقول فى أصحاب الذين أنساهم السلطان عبر الدهر :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم فى محال

ومن الأشعار التي خلدت المتنبي وصفه لانتصارات سيف الدولة على الروم، يقول :

تحارب الأعداء وهى عبيده   وتدخر الأموال وهى غنائمه

ويستكبرون الدهر والدهر دونه   ويستعظمون الموت والموت خادمه

ويقول فى رثاء أم سيف الدولة :

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فضل للهلال

ويقول :

فإن تفُق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال[1]

ولما غضب المتنبى من سيف الدولة، رحل عن حلب، وذهب إلى مصر وكان يحكمها كافور الإخشيدى، وهو عبد حبشى لا يتذوق الشعر، فلم يقدر شعر المتنبى الذى مدحه به، فهجاه، وعاتب شعب مصر الذين ارتضوا بهذا العبد الأسود حاكما عليهم، وغادر مصر بعد أن ترك قصيدة هجا فيها كافور.

قال المتنبى فى هجاء كافور :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا   وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا

أمَيْنا وإخلافا وغدرا وخسَّة   وجُبنا أشخصا لحتَ لى أم مخازيا

تظن ابتساماتى رجاء وغِبطة   وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

ويقول فى هجائه أيضا :

أكلما اغتال عبد السوء سيده   أو خانه فى مصر تمهيد

صار الخصى إمام الآبقين بها   فالحر مستعبد والعبد معبود

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

---

(١) ديوان المتنبى.

ثم يقول :

وتُعجبنى رجـلاك فى النعل إننى   رأيتك ذا نعـل إذا كنت حـافيا

وإنك لا تدرى ألونك أسود من   الجهل أم قد صار أبيض صافيا

ورحل المتنبى إلى الكـوفة - مسقط رأسـه - ولكنهـا لا تناسب طمـوحاته، فرحل إلى بـغداد سنة ٣٥١هـ، ولكن الوضـع فى بغداد غير مناسـب له، بعد أن هجا الوزراء وأظهر تعصبا وانحيازا لسيف الـدولة، فعاش فى بغداد غير مستمتع بما عنده مـن ثروة عريضـة، وعاش فى عزلـة عن النشـاط الأدبى، ومن كبـار رجال الدولة الذين لا يستريحون إليه، ففكر فى العودة إلى حلب ولكن سيف الدولة قد تدهورت دولته، وحلت به بعض الهزائـم من الروم. ثم إن حساده لن يمكنوه من ممارسة نشاطه فـى حلب، وشعر أن نجمه قد أفل، وفكر فى الـعودة إلى الكوفة، واتصل بابن العمـيد وأعطاه بعض المال، وأحسن استقباله، واتـصل بعضد الدولة البـويهى ومـدحه، وكان لـه أعداء لم ينـسوا هجـاءهم له فـى حلب، وعـاد إلى الكوفة، وفى عودته تصدى له بعض الأعراب، وقتلوه، ربما بتحريض من خصومه سنة ٣٥٤هـ، وأنشدوا من شعره أثناء قتاله قائلين :

فالخـيل واللـيل والبيداء تعـرفـنى   والحرب والضرب والقرطاس والقلم

والمتنبى حكيم العرب، ومن كبار المفكرين والمبدعين المسلمين، ذاعت شهرته فى دولة الإسلام، وأنشد الناس شعره فى الأسواق والبيوت والقصور والبساتين.

ومن كبار فـلاسفة الإسلام أبو العـلاء المعرى، وهو من أهل الـشام، رحل إلى العراق، وتردد عـلى مكتباتها، وعاد واسـتقر فى بلده معرة النـعمان، وأطلق على نفسه «رهين المحبسين» أى العمى ولزوم البيت.

كان أبو العلاء ضليعا فى الشعر، عـالما فى اللغة والأدب، له مؤلفات كثيرة، منها «لزوم ما لا يلزم» و«سقط الزند» وشرحه فى كتابه «ضوء الزند»[1]. وله كتاب «الآيات والغصـون» يقارب المائة جزء فى الأدب، وشـرح أبو العلاء شعر المـتنبى،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ١ ص ١١٣.

ولأبى العلاء آراء فلسفية مبتكرة، تتضح فى لزومياته، وتتضمن نقدا أخلاقيا واجتماعيا ودراسة فى السياسة. وله آراء اتُّهم فيها بالإلحاد، وكان بيته كعبة للعلماء والأدباء والطلاب، يفدون إليه من كل مكان للاستزادة من العلم.

حرم على نفسه أكل اللحم، وأبَى الزواج حتى لا يسبب بنسله شقاءً لأحد.

ومن شعر أبى العلاء الذى يمثل فلسفته :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ... دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا ... وبادوا وماتت سنة اللؤماء
وكيف أقضى ساعة بمسرة ... وأعلم أن الموت من غرمائى

ويقول فى الأخلاق :

إذا صاحبت فى أيام بؤس ... فلا تنس المودة فى الرخاء

ويقول :

وقدرة الله حق ليس يعجزها ... حشر لخلق ولا بعث لأموات

ويقول :

لم يبق للظاعنين عين ... تبكى على الأعظم الرُّفات
وكنزك فى الغبراء لابد ضائع ... ولكن لدى الخضراء يُحمى ويُذخر[(١)]

ويقول فى مشكلة الجبر والاختيار :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ... ولكن بأمر سببته المقادر
فقل للغراب الجون إن كان سامعا ... أأنت على تغيير لونك قادر[(٢)]

ويقول :

هون عليك فما الدنيا بدائمة ... وإنما أنت مثل الناس مغرور
والخير والشر ممزوجان ما افترقا ... فكل شهد عليه الصّاب مذرور
وعالم فيه أضداد مقابلة ... غنى وفقر ومكروب ومقرور[(٣)]

---

(١) لزوميات أبى العلاء المعرى، ص ٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٥، ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٢، ٣١٤ ـ مقرور : مسرور.

ويقول عن الدهر :

مـــا أطيب الـعـيـش عند قـــوم	لـــو أنه كـــان لا يـــزول
والدهـــر عـــود بـلا فــــناء	أو جـــذع مـــالـه يـزول

ويقول أبو العلاء :

صـاحِ هذى قـبـورنا تملأ الرحب	فـأين القـبـور من عـهـد عـاد
خفف الوطء ما ءظن أديم الأرض	إلا من هـذه الأجـســـاد

شرح أبو العلاء كتابه «سقط الزند» وسماه ضوء السقط، ويقع كتابه «لزوم ما لا يلزم» فى خمسة أجزاء. وله كتاب سماه «الآيات والغصون» فى الأدب يقع فى مائة جزء[1].

ومن آرائه: الشك للوصول إلى اليقين، ثم قال : ليس فى نفسه جوهر مستقل عن هذه الحياة المادية استقلالا تاما، بل هو بها متأثر ولها خاضع، وكان أبو العلاء سيئ الظن بالماضى ويتشكك فى الديانات، ورفض الكتب الدينية، وجعلها أباطيل ملفقة لا تثبت حقا ولا تنفى باطلا.

جمع أبو العلاء بين الفلسفة النظرية والفلسفة العملية، وجمع بين الفلسفة والعلم، وحرم أكل لحوم الحيوانات، وكان لا يأكل إلا النبات، وأنكر الخمر، وذمها لأنها تتنافى مع الصحة والعقل والدين، وأنكر النبوات، وعارض القرآن وأحكامه، ومع ذلك لم يصبه أذى من الناس ولا من الحكام لأن الناس كانوا مشغولين بتدهور الأوضاع السياسية فى القرن الحادى عشر الميلادى، وعاصر الفاطميين، وتطابقت آراؤه مع آرائهم، لذلك زاره دعاة الفاطميين وأثنوا عليه، وكان يتقرب إلى الحكام بكتابة رسائل تحمل أسماءهم.

أمر أبو العلاء بأن يكتب على قبره قبل وفاته :

هـذا جـنـاءُ أبى علىّ	وما جـنيت على أحـد

على كل حال، أثرى المتنبى وأبو العلاء المعرى الحركة الفكرية فى بلاد الشام خاصة، وفى الدولة الإسلامية عموما بإنتاجهما فى الشعر والأدب والحكمة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ١، ص ١١٣.

بعد هذا العرض السريع لأدباء وشعراء الدولة الإسلامية يتضح لنا أن الأدباء والشعراء فى هذه الدولة كثرت أعدادهم، وكانوا موضع تقدير المجتمع، وبعضهم تقرب إلى الخلفاء والأمراء وحصل على ثروات كبيرة من جراء ذلك. وأدى ازدياد أعدادهم إلى كثرة المجالس الأدبية فى القصور والخلفاء والأمراء والوزراء ودكاكين الوراقين وبيوت العلماء والأدباء، وهذه المجالس فجرت قضايا علمية وأدبية كان لها أثرها فى رفع المستوى العلمى فى المدن الإسلامية حتى أصبحت بفضل هؤلاء العلماء منارات للفكر. وكان عامة الناس يلتفون حول أهل العلم يحاولون الاستفادة منهم، وللشعراء رواة يروون أشعارهم وكانوا محط أنظار الناس، يتتبعونهم، ويحرصون على حضور مجالسهم، وتذوق الشعر والشغف به من صفات المسلمين فى ذلك العصر، وكان الندماء يجالسون الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة وهم يحفظون النوادر الأدبية والأشعار، وعندهم المقدرة على حسن التعبير، وكان القاضى التنوخى ريحانة العلماء، وقد دوَّن ابنه تاريخ الأحداث التى حدثت فى المجالس الأدبية فى كتاب «نشوار المحاضرة»[1]، وكان أبو على الفارسى ممن التحق ببلاط سيف الدولة الحمدانى وعضد الدولة البويهى، وكان يروى ما يجرى من مناظرات فى المجالس الأدبية، كما روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى وأبو حيان التوحيدى وغير هؤلاء هذه المجالس الأدبية التى تدل على ازدهار الفكر الإسلامى وسموه.

ويجب ألا نترك ما يجرى فى المجالس الأدبية قبل الحديث عن مجلس سيف الدولة الحمدانى، كان يجتمع عنده الأدباء والعلماء والشعراء والمفكرون، ومن أبرز الذين اجتمعوا فى مجلسه المتنبى والفارابى والخالديان وأبو فراس الحمدانى، ومن اللغويين والنحويين أبو على الفارسى وابن خالويه وابن جنى، الأول من كبار علماء النحو ـ أقصد أبا على الفارسى ـ ناظر المتنبى فى كثير من المجالس، ولابن جنى آراء مبتكرة فى النحو، وتوثقت صلة ابن جنى بالمتنبى، وعرف كل منهما قدر الآخر، وشرح ابن جنى ديوان المتنبى[2].

ومن مجالس العلم والفكر مجلس أبى سليمان المنطقى ابن بهرام السجستانى، شيخ رجال الفكر فى بغداد، كان مجلسه فى بيته يضم العلماء الذين

(١) الأصفهانى : جـ ١٣، ص ٩٨.

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام، جـ ١، ص ١٨٥.

يثيرون قضايا علمية يدلى فيها العلماء بآرائهم فى قضايا فلسفية وكلامية وأدبية، وتثار فيها قضايا معقدة من بعض الكتب لأرسطو وغيره، ويتناقشون فيها للوصول إلى فهم مبسط لها، وحل ما بها من طلاسم. وذكر أبو حيان التوحيدى[1] بعض ما دار فى هذه المجالس من مناقشات.

أما ابن خالويه فكان من علماء النحو والقرآن والأدب وله مكانة فى مجلس سيف الدولة، وازدادت المنافسة بينه وبين المتنبى حول المكانة المرموقة والكلمة المسموعة فى مجلس سيف الدولة.

وحفل بلاط سيف الدولة بالشعر والمناظرات اللغوية والأدبية، وأمر سيف الدولة غلمانه بكتابة ما كان يجرى فى هذا المجلس من مناظرات أدبية جرت بين العلماء والأدباء الذين وفدوا على مدينة حلب من مختلف بلاد الإسلام. ومما لاشك فيه أن تدوين هذه المناظرات، أضاف إلى الفكر الإسلامى مادة غزيرة ظلت تمثل تراثا ضخما يلجأ للاستفادة منه العلماء والطلاب الذين وفدوا على حلب سنين عددا، ومن بينهم أبو العلاء المعرى[2].

الموشحات والأزجال

عرف المسلمون الموشحات والأزجال من الأندلس، فلما كثر الشعر، وتهذبت فنونه، وتعمقوا فيه، ونوعوا من موضوعاته، استخدم المتأخرون فنا أسموه بالموشح، ينظمونه أكثر أو أقل من سبعة أبيات موزونة وبقافية واحدة، واستظرفه الناس لسهولة تناوله، وأول من اخترع الموشح فى الأندلس مقدم بن عافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه - صاحب كتاب العقد الفريد - وظهر عدد من الوشاحين الكبار مثل الحكيم أبى بكر بن باجه.

ومن موشحات الوزير بن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلما ... فى الكرى أو خلسة المختلس

(١) الإمتاع والمؤانسة : جـ ١، ص ٣٣.

(٢) أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة، جـ ١، ص ١٣٣.

والحيا قد جلل الروض سنى فثغور الزهر فيه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس

فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهى منه بأبهى ملبس

مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير يعد الأثر[1].

وانتشرت الموشحات فى المشرق والمغرب، وصارت الموشحة كالقصيدة الشعرية واستخدمها الصوفية فى مدائحهم وأذكارهم، وقد تأثر الشعر الأوربى الشعبى بالموشحات والأزجال الأندلسية، ويعرف بالشعر البروفنسى الذى كان ينشده المتجولون فى غرب أوربا.

ظهر الزجل نتيجة تقليد الموشحة، واستحسن العامة التواشيح، ونسجوا على منواله، والشبه كبير بين الموشحة والزجل، وخاصة فى الشكل الخارجى والأوزان والقوافى، وكذلك فى بعض الموضوعات. وقد أدى تطور الأغنية الشعبية إلى ظهور الموشحات، وتبع ذلك ظهور الأزجال، وكان ذلك بلغة بسيطة يفهمها العوام من أهل الأندلس وتعبر عن عواطفهم وأحزانهم وأفراحهم وأحاسيسهم، وختام الموشحة قفل يسمى الخرجة.

وتتألف الأزجال من مقطوعات كالموشحات، تشتمل المقطوعة على وحدتين، الأولى تسمى غصن، والثانية تسمى قفل.

ازدهر الزجل فى الأندلس فى القرن السادس الهجرى، ومن أبرز الزجالين ابن قزمان، وهو من أهل قرطبة ت ٥٥٤هـ، كان ابن قزمان يعيش فى بيت جميل، وفى حى مزدحم بالسكان، وكان مولعا بالثياب الجميلة والأنيقة، وهو صاحب ذوق فى اختيار الألوان، ويتجلى ذلك فى أزجاله، وكان مولعا بالشرب واللهو والعبث، ولا يحب حياة الأسرة، لذلك ضاق ذرعا بالمرأة التى تزوجها ومسئولية البيت، فديوان أبى بكر بن قزمان يصور أناقته ولهوه وشرابه وسهراته الخارجية، وإذا تحدث عن البيت يتحدث عن الخادمة السوداء.

كان ابن قزمان لا يستطيع الاستمرار فى الوظائف الحكومية، وإنما يحب عدم التقيد بأى قيد، فهو أديب ينظم الشعر والموشحات ويحفظ النوادر والحكايات، وهو جليس ومسامر، وهذا واضح فى أزجاله :

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٥٨٥، ٢٥٦.

دنـيا هـى كما تراهـا		فاجـتهد واربـح زمـانك
كـل يـوم وكـل ليـلة		لا تخـلى مهـرجـانك
واشـتفى عليه من قبل أن		يجـىء المـوت فى شـانك

وتحـول الزجـل فى الأنـدلس إلـى فن شـعبـى، تظـهر فـيه ألـوان الحيـاة الاجتماعـية، وانتقل من الأنـدلس إلى المغرب إلى سـائر بلاد المشرق. ويعـبر ابن قزمان عن سخطه على الحياة الزوجية بقوله :

يقـبل الـزوج ولا يدر طـيب القبل
ليس يربح القبل والتعنيق غير العشيق

وقبل أن نـختتم كـلامنا عن الزجـل يجب أن نشـير إلى أغنيـة حزينة قـالها مولاى أبو عبد الله آخـر ملوك غرناطة، يبكى ضـياع قصره الملكى حينـما استولى فرديناند وإيزابيلا على مملكته :

الحـمرا حـنيـنه والـقـصور تـبكـى
هلـى ما جرى لمولاى بـو عبد الـلى
هات لـى فرسـى ودرقتـى البـيضـا
وشى نمـشى نـقاتل ونـأخذ الحـمرا
هات لـى فرسـى ودرقتـى الديـدى
وشى نمـشى نقـاتل ونـأخذ أولادى
أولادى فى وادى ياش ومراتى فى (جبل طارق)
يا ستى يام الفتى
أولادى فى وادى ياش ومراتى فى (جبل طارق)
يا ستى يام الفتى[1].

(١) عبد العزيز الأهوانى : الأزجال فى الأندلس.

التقويم الهجرى

لم يكن للعرب تقويم قبل الإسلام، وكذلك فى عهد الرسول والخليفة أبى بكر الصديق وحتى السنة الرابعة من خلافة عمر بن الخطاب أى سنة ١٧هـ، وخلال تلك السنين كانوا يسمون السنة بالأحداث الشهيرة التى تقع فيها ويؤرخون بها مثل عام الفيل، وسُميت السنة الأولى من استقرار الرسول فى المدينة بعد هجرته إليها «الإذن بالرحيل» والثانية سنة الأمر بالقتال؛ أى الجهاد ضد كفار قريش فى بدر.

ظل المسلمون يؤرخون حسب الحوادث حتى لاحظ عمر بن الخطاب ـ بعد اتساع الدولة الإسلامية ـ الحاجة إلى التقويم، ووضع الأحداث التاريخية فى إطارها السليم، ولم يستحسن عمر بن الخطاب تقويم اليهود الذى كان شائعا فى ذلك العصر، ويبدأ بالإسكندر، ورفض تقويم الفرس الذى يبدأ بتولية كل ملك وينتهى بوفاته، ورفض تقويم المسيحيين الذى يبدأ بميلاد المسيح ويتبع السنة الشمسية[1].

عرض عمر بن الخطاب على أهل الشورى رغبته فى عمل تقويم إسلامى وعرض المجتمعون أربع رغبات : مولد الرسول، ومبعثه، وهجرته، ووفاته. وبعد دراسة الاقتراحين الأول والثانى وجد المجتمعون أن مولد الرسول ومبعثه ليس محددا بالسنة تحديدا دقيقا، ورفض المجتمعون تحديد بداية التقويم بوفاة الرسول، لأنه عام حزن للناس، ولا يليق أن يبدأ تاريخ قوم بوفاة نبيهم. ورأوا أن أفضل تاريخ يبدأ بتاريخ هجرة الرسولﷺ لما لهذا الحدث من أعظم الأثر فى نشر الإسلام ونجاح دعوته، ورأوا أن يبدأ بشهر المحرم لأن هلال المحرم هو أول هلال استهله المسلمون بعد الهجرة، كما أنه يأتى بعد انصراف المسلمين من رحلة الحج وهو من الأشهر الحرم. وبذلك بدأ المسلمون يعملون بالتقويم الهجرى منذ سنة ١٧هـ[2].

والتقويم الإسلامى يتمشى مع الشهور القمرية أى السنة القمرية؛ لأن الشهور القمرية تتمشى مع المناسك الإسلامية مثل شهر رمضان وعيد الفطر ومواقيت الحج، قال تعالى **﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره**

---

(١) السيوطى : الشماريخ فى علم التاريخ، ص ١٠.
(٢) السيوطى : الشماريخ فى علم التاريخ، ص ١٥.

منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [يونس : ٥]، والمسيحيون يتبعون السنة الشمسية، أما المسلمون فيتبعون ـ كما رأينا ـ السنة القمرية، والفرق بين الاثنين ١٠٣ سنة هجرية تساوى مائة سنة ميلادية.

وكلمة التاريخ لم يرد ذكرها فى القرآن الكريم، والحديث وأشعار العرب قبل الإسلام، وعرفها المسلمون عن الفرس من كلمة «ماه روز» أى حساب السنين والشهور القمرية، ومنها اشتق العرب كلمة مؤرخ ومنها اشتقت كلمة تاريخ ومؤرخ.

علم التاريخ :

بدأ المسلمون يدونون تاريخهم فى أواخر العهد الأموى، وتصدى لهذا العمل رجال من طبقات الشعب، لم يعيشوا فى كنف الخلفاء، لذلك جاءت مؤلفاتهم فى التاريخ معبرة تعبيرا صادقا عن أحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ومظاهر تطوره.

اتخذ كتاب التاريخ فى صدر الإسلام من حياة الرسول ﷺ وما يتصل بها من غزوات مادة دونوا منها ما سُمى كتب السيرة والمغازى، وجمعوا مادتهم من روايات الإخباريين الذين كانوا يحدثون الناس عن أهم الموضوعات التى تشغل بال المسلمين، ويتشوقون إلى معرفتها، وهى سيرة الرسول ومغازيه.

والمؤرخون الذين صنفوا مؤلفاتهم فى صدر العصر العباسى اتسعت دائرة معارفهم عمن سبقهم، لأن السابقين لهم كانوا يعتمدون على الحديث فقط فى كتاباتهم، أما هؤلاء الذين سنشير إليهم، فقد تكونت عندهم مادة غزيرة ترجع إلى اختلاط العرب بالنصارى واليهود الذين دخلوا فى الإسلام، فضلا عن ظهور طبقة القصاص الذين يحكون سير الرسول وأبطال المسلمين، وبذلك لم يعد الحديث هو المصدر الوحيد للتاريخ، بل تنوعت وتعددت مصادره، وكان على مؤرخى الإسلام أن يضبطوا الحوادث التاريخية ويدونونها ويحسنون عرضها.

ومن أشهر المؤرخين محمد بن إسحق بن يسار، وهو من أصل فارسى، نشأ فى المدينة، وأخذ الحديث عن علمائها، وعُنى بصفة خاصة بجمع الأحاديث التى تتناول سير الرسول ومغازيه. وقال الإمام الشافعى عنه : من أراد أن يتبحر فى

المغازى فهو عيال على ابن إسحق[1]. وبلغ من ثقة الخليفة المنصور به أن عهد إليه بتصنيف كتاب فى التاريخ لابنه المهدى، وبدأ كتابه منذ بداية الخليقة إلى يومه وقام ابن إسحق بهذا العمل الجليل الأول فى نوعه، وقدم الكتاب للمنصور مرفقا بموجز له[2].

اعتمد ابن إسحق فى كتابه المغازى على الأحاديث النبوية التى أخذها عن الرواة فى مصر والمدينة المنورة، والأخبار التى يرددها الإخباريون، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن عبد الملك بن هشام اعتمد عليه فى كتابه عن السيرة، لذلك يمكن الإلمام بسيرة ابن إسحاق بصورة موجزة فى كتاب السيرة لابن هشام، واعتمد على ابن إسحاق كذلك كل من كتب فى سير الرسول ومغازيه فعليه اعتماده وإليه إسناده[3].

ينقسم كتاب ابن إسحق فى المغازى إلى ثلاثة أقسام : المبتدأ والمبعث والمغازى، والمبتدأ يشمل تاريخ العرب قبل الإسلام، واعتمد على القصص والأساطير، وخصوصا ما رواه العلماء اليهود والنصارى، وأشار إلى قبائل العرب البائدة، مثل: عاد وثمود والرسل الذين بعثهم الله لهداية هذه الجماعات ونقل عن التوراة والإنجيل نقلا حرفيا، وبصفة خاصة من وهب بن منبه وعبيد بن شربه، وذكر أيضا عبادة الأصنام عند العرب فى الجاهلية، وقبيلة قريش وشيوخها قبل الإسلام[4].

ويتضمن المبعث بعثة الرسول، واعتمد على أخبار أهل الذمة، وأضاف إلى كتابه معلومات دقيقة، ووثائق على جانب كبير من الأهمية، مثل الوثيقة التى منحها الرسول لأهل المدينة واليهود بها، وتنظيم المجتمع الجديد بالمدينة، أما المغازى فتتضمن غزوات الرسول والسرايا، وجهاد المسلمين فى سبيل الدفاع عن الإسلام ونشره، غير أن المحدثين أخذوا عليه أنه كان لا يلتزم بصحة الأسانيد، لأنهم يشددون فى نسبة كل حديث إلى راويه، ولقد عاب أحمد بن حنبل على ابن إسحق توسعه فى نقل الأخبار، وقال : إنه يجمع كتب الناس ويضعها فى كتابه.

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٤٠٥.
(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد، جـ ١، ص ٢٧١.
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٤٠٥.
(٤) ابن النديم : الفهرست، ص ٩٢.

يأتى بعد ابن إسحق ، محمد بن عمر الواقدى، وكان من أهل المدينة، انتقل إلى بغداد، وولى القضاء بها فى عهد الخليفة المأمون بالرصافة، وكان عالما بالمغازى والسير والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والفقه والأحكام والأخبار (ت ٢٠٧هـ)، وله من الكتب «كتاب التاريخ والمغازى» وأخبار مكة وكتاب الطبقات وفتوح الشام - فتوح العراق مقتل الحسين عليه السلام - كتاب السيرة . . إلخ. روى أخباره عن علماء المدينة مثل مالك بن أنس، وقد استدعاه المهدى إلى بغداد، وأمره بأن يفقه الناس، وأجزل له العطاء، ويقول عنه البغدادى: ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أثره، وسار الركبان بكتبه فى فنون العلم من المغازى والسير والطبقات، وأخبار النبى والأحداث التى كانت فى وقته وبعد وفاته[1].

نبغ الواقدى فى التاريخ واتبع منهجا علميا فى تحقيق الحوادث وضبطها، فكان لا يدع رجلا من أبناء الصحابة أو أبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا وسألهم عما يعلمونه من أحداث التاريخ، واطلع على جميع المدونات والروايات التى جمعها من سابقيه - مؤرخى سير الرسول ومغازيه - وكان لا يقتصر على النقل من الرواة، وإنما ينتقل بنفسه إلى أماكن مغازى الرسول. فالواقدى إذن حرص على تدوين الحدث التاريخى بعد أن تأكد من صحته، وهو أول من رتب التاريخ حسب السنين، ولقد استفاد الطبرى فى تاريخه من مؤلفات الواقدى، وكان ابن إسحق لا يذكر تواريخ الأحداث ولا يلتزم بتسلسلها، الأمر الذى يعقد من الاستفادة منها.

واستفاد كاتبه ابن سعد من كتابه «طبقات الصحابة والتابعين»، وسار على منواله، ولم يبق من كتب الواقدى سوى كتاب «المغازى».

يذكر الواقدى فى أول كتابه شيوخه الذين أخذ عنهم مغازيه بعد مقدمة حدد فيها اليوم الذى هاجر فيه الرسول إلى المدينة المنورة، ثم أورد فصلا عن مغازى الرسول وسراياه، ثم انتهى إلى عرض موجز لغزوات الرسول، وبعد هذه المقدمة تحدث عن كل غزوة من الغزوات - التى أجملها - تفصيلا، والواقدى من أعلم الناس فى عصره بالمغازى والسير، حجة فى التفسير والفقه والحديث[2].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٤٧٠.

(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ١٤٥.

أما محمد بن سعد ـ كاتب الواقدى ـ فقد روى عن أستاذه الواقدى، واعتمد على كتبه ومصنفاته، (ت ٢٣٠هـ)، واشترك مع أستاذه الواقدى فى بعض مؤلفاته، ومن أفضل كتبه كتاب «الطبقات» وقد قدم له بالحديث عن عصر ما قبل الإسلام الأمر الذى تخطاه الواقدى، الذى بدأ بهجرة الرسول ويتضمن الجزء الأول والثانى من كتاب الطبقات لابن سعد موضوع سيرة الرسول ومغازيه. وأفرد الأجزاء الستة الأخرى للصحابة والتابعين، وترجع أهمية طبقات ابن سعد إلى الدقة والصحة فى سلامة الأحداث(١).

ومن مؤرخى الإسلام الهيثم بن عدى، كان عالما بالشعر والأخبار والأنساب والمناقب والآثار، (ت ٢٠٧هـ)، وله من التصانيف كتاب بيوتات قريش ـ كتاب الدولة، بيوتات العرب ـ نزول العرب بخراسان والسواد ـ تاريخ العجم وبنى أمية»(٢).

ومن الرواة على بن محمد المدائنى، من رفاق إسحق بن إبراهيم الموصلى، وله كتب فى أخبار قريش وأخبار الخلفاء والفتوح وأخبار العرب والشعراء. وقد اندثرت كتبه، ولم يعد منها إلا ما رواه الطبرى والبلاذرى والمسعودى وابن عبد ربه عنها، وبالجملة كان المدائنى عالما بأيام الناس وأخبار العرب وأنسابهم وبالفتوح والمغازى ورواية الشعر(٣).

ومن مؤرخى بغداد أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى، اشتغل منذ نعومة أظفاره بتأليف كتاب جامع لتاريخ الدولة الإسلامية، حرص على الحقائق التاريخية، ونجح فى هذا الموقف، ولم يتعصب لخليفة، وإنما التزم الحياد الدقيق ومن مصنفاته ترجمة عهد أردشير من اللغة الفارسية إلى العربية، ولم يقتصر على مجرد الترجمة بل وضعه فى قالب علمى يفيد القارئ، وله كتاب «أنساب الأشراف» ووضع كتابين تحت عنوان الفتوحات، أحدهما كبير والآخر مختصر ولم يصلنا سوى المختصر، ومن تلاميذه ابن النديم صاحب الفهرست.

وكتاب فتوح البلدان للبلاذرى من أهم مصادر الفتوح الإسلامية إن لم يكن أهمها جميعا؛ لأنه التزم بالرواية الصحيحة والدقيقة عن الفتوح، وكان يسافر إلى

---

(١) البغدادى : تاريخ بغداد، جـ ٥، ص ٣٢١.

(٢) ابن النديم : الفهرست، ص ٤٥.

(٣) البغدادى : تاريخ بغداد، جـ ١٢، ص ٥٥.

البلدان التى حدثت فيها المواقع الإسلامية، ويدرس طبيعة هذه البلدان، ويسأل الشيوخ وأبناء الشهداء والعلماء عن تفاصيل هذه المواقع، ولا يدوّن منها إلا ما يطمئن إلى صحتها. وسُمى البلاذرى بهذا الاسم نسبة إلى مادة منبهة كان يتعاطاها فسُمى بهذا الاسم، وقد أصيب بسبب ذلك بمرض عقلى أدى إلى وفاته سنة ٢٧٩هـ.

ومن مؤرخى القرن الثالث الهجرى اليعقوبى، (ت ٢٨٢هـ)، وهو أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، قسم كتابه إلى قسمين : القسم الأول كتب فيه عن قصص الأنبياء ورتبها زمنيا بتعاقب الملوك والأنبياء وغيرهم، ويصف بعد ذلك الأناجيل الأربعة، ويهتم بدراسة التاريخ الثقافى للأمم السابقة كاليونان والرومان والهنود، ثم يبحث فى كتب الحكماء كأرسطو وأبقراط وعرب الجاهلية مستعينا بالمصادر الموثوق بصحتها[1].

أما القسم الثانى فهو تاريخ الإسلام، يتكلم فيه عن على بن أبى طالب وأقواله والأئمة الاثنى عشر وأئمة آل البيت، ويتضح من كتابه ميوله الشيعية.

وحينما يتكلم عن سيرة الرسول، فإنه يتكلم عنها بالشكل التقليدى ـ السير ـ المغازى ـ زوجات الرسول ـ وفاته، ثم ينتقل إلى سير الخلفاء، خليفة بعد خليفة، ويكتب عن طالع كل خليفة، والأحداث التى جرت فى عصره وسير ولاته وقضاته، ويذكر السنة القمرية والسنة السريانية التى تطابقها، ويدقق فى سنى الأحداث، وتوقف عند الخليفة المعتمد، ورتب أحداثه حسب الخلفاء، واليعقوبى مؤرخ وجغرافى ورحالة.

وتطورت الكتابة التاريخية من تاريخ سير الرسول ومغازيه والفتوحات وسير الخلفاء إلى تاريخ الأمم والرسل والملوك، وبدأ هذه الدراسات اليعقوبى ـ كما رأينا ـ والدينورى صاحب كتاب «الأخبار الطوال».

يأتى كتاب «تاريخ الأمم والملوك» للطبرى أبو جعفر محمد بن جرير دليلا على تطور الكتابة التاريخية فى عصره، فلم يعد المؤرخ راويا للقصص والسير، وإنما له منهج يعتمد عليه، وهو التحقق من الرواية الصحيحة والسند الصحيح والمشاهدة إن أمكن، والاعتماد على الوثائق والسجلات، وعلى كتب مترجمة من اللغات الأجنبية[2].

---

(١) أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة، جـ ١، ص ١٣٣.
(٢) مقدمة ابن خلدون : ٥٨٥ ـ ٢٥٦.

وينقسم كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى إلى قسمين : القسم الأول تكلم فيه عن بدء الخلق، وعرض فى هذا القسم للأنبياء نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق وغيرهم، وكتب عن الأمم الغابرة كالفرس والروم والعرب واليهود، وتحدث عن أنبياء بنى إسرائيل، وذكر أخبار سليمان بن داود، وعلاقته ببلقيس وذكر ملوك الروم منذ المسيحية إلى الإسلام، وتحدث عن عاد وثمود وملوك اليمن وعلاقتهم بالأحباش والفرس، ثم ذكر أجداد النبى وطرفا من أخبار الرسول قبل البعثة[1].

أما القسم الثانى فتناول فيه نشأة الرسول ﷺ وحياته وغزواته وأخباره، وكتب عن الخلفاء الراشدين والدولة العباسية حتى سنة ٣٠٢هـ، وتوفى سنة ٣١٠هـ.

اعتمد الطبرى فى كتابه على الرواة كمصدر لمعلوماته، وعرض الروايات عرضا موضوعيا محايدا، وأسند كل رواية إلى صاحبها ولم يفرض على القارئ رواية بعينها، وإنما كانت الرواية الأولى أصح من الروايات الأخرى، وكان يذكر السند الذى أخذ منه روايته متبعا فى ذلك منهج علماء الحديث.

واعتمد فى تاريخه على نظام السنين، يذكر الحوادث التى حدثت فى سنة كذا فى كافة البلاد، ثم ينتقل إلى السنة التى تليها وهكذا، فالحدث الواحد إذن الذى جرى فى عدة سنوات يقطعه على السنين بدلا من ذكره مرة واحدة، الأمر الذى يشتت القارئ، وفى نهاية كل سنة يذكر الأحداث الرئيسية التى حدثت فيها مثل وفاة خليفة أو وزير أو أمير أو شيخ أو ثورة أو كارثة. أما عن تاريخ ما قبل الإسلام فليس من الممكن اتباع هذا النظام، لذلك كان يذكر تاريخ الدولة مرة واحدة، وفى الأحداث التى عاصرها الطبرى لا يذكر اسم الراوى إنما يقول : سمعت عن كذا، حتى لا يوقعه فى حرج.

وسار على منوال الطبرى فى نظام السنين أبو الفدا وابن مسكويه وابن الأثير، وسبق الطبرى فى نظام السنين الهيثم بن عدى، وخالفه اليعقوبى والمسعودى والدينورى وابن خلدون، وتضمن كتاب الأمم والملوك أشعارا وقطعا أدبية رائعة تعبر عن ثقافة الطبرى الواسعة.

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى.

ومن المؤرخين العالميين المسعودى، أبو الحسن على، (ت ٣٤٦هـ)، صاحب كتاب «مـروج الذهب» يبدأ بذكر أحوال العرب قبل الإسـلام وحضارتهم، والأمم القديمة المعروفة لعـصره وحضارتها ونظمها. ويحتل هذا القسـم من كتابه النصف تقريبا، ثم يـتبعه بالتاريخ الإسلامى، ويـبدأ بتاريخ الرسول ورتبه حسـب السنين، وكتب السيرة بشكل موجز لأنه فيما يبدو كتب كتابا تفصيليا عن سيرة الرسول، ثم يتبع ذلك بالكلام عن الخلفاء خليـفة خليفة، وتحدث عن الأحداث التى جرت فى عصر كـل خليفـة، سياسيـة وغير سيـاسية، وتحدث عـن الشعر والأدب وبـعض المعلومات الكلامية والفلسفية وأمراء الحـج ثم ختم كلامه بتلخيص حكم الخلفاء، وذكر سنى حكمهم.

وينفـرد كتاب «مروج الـذهب» للمسـعودى بأنه لا يـقتصر - مثـل مؤرخى عصره - على الحديث عن التاريخ السياسـى، بل يضيف بعض المعلومات الحضارية الطريفة.

ونلاحظ غزارة المادة التاريخية عند مؤرخى الـقرنين الثالث والرابع الهجريين اللذين أشرنا إليهما، ونلاحظ دقتهم فى تحرى المادة التاريخية والحرص على الرواية الصـحيحـة من المـصادر الأصلـية مثـل الوثائـق والمراسم والمـعاهـدات الرسمـية والمراسلات السياسيـة والبيانات الإحصائية من الدواوين، وحقائـق المعلومات التى أفادتـهم فى التـراجم عن الوزراء والـقواد والأمراء والشـيوخ والقضـاة والولاة، وعندهـم المقدرة علـى وصف الحروب والخطـط العسكـرية والأساليـب القتالـية، والأسلحة المستعملة فى الحروب وأخبار الثغور والعواصم.

وساعد الـتدوين وازدهار صـناعة الورق إلى تـيسير التـأليف،كمـا أن حركة الترجمة من الـفارسية واليونانية إلى العـربية وإنشاء بيت الحكمة وانتـشار المكتبات التى تتضمن نسـخا من الكتب المترجمة كل ذلك ساعد المـؤرخ على الحصول على مادة علمية غزيرة توسع دائرة معارفه عـن الأمم الغابرة كاليونان والفرس والسريان وغيرهم. لذلـك فإن مؤرخى القرنين الثالـث والرابع الهجريين أتيـحت لهم فرص التأليـف وخلفوا لنا مادة عـلمية غزيرة عن سيـر الرسول ومغازيه وعن الـفتوحات الإسلامية وتاريخ الخلفاء والتاريخ الإسلامى فى القرون الأربعة الأولى.

ولكن مؤرخى الإسلام لم يتخصصوا فى فرع من فروع المعرفة كالتاريخ بل كان من بينهم الفقهاء والمفسرون كالطبرى، والجغرافى كاليعقوبى.

وتستمر حركة التأليف فى التاريخ، ونلاحظ أن ابن مسكويه - أبو على أحمد بن محمد، (ت ٤٢١هـ) - صاحب كتاب «تجارب الأمم» يجدد منهج الدراسة التاريخية، فيرفض الحشو والخرافات والأساطير التى ملأت كتب التاريخ السابقة لعصره، ويخلص رواياته التاريخية من هذه الزيادات، ولا يكتب إلا الأحداث الصحيحة الواقعية، فكتب عن تاريخ ملوك الفرس وبابل والروم والإغريق، ثم يستمر فى كتابة التاريخ الإسلامى، ويلخص كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى، ولكنه يرفض إسناده ورواياته العديدة ولا يلتزم بنظام الحوليات حتى القرن الثالث، ولكنه يتبع الحوليات بشكل رفيع المستوى حين يكتب عن القرن الرابع الهجرى(١).

ويمثل الصابى طبقة من المؤرخين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى، اهتموا بالنواحى الثقافية، وأوضحوا أن رجال السياسة فى هذا القرن هم ثمرة النهضة الثقافية فى القرن السابق لهم، وركز على النهضة الثقافية فى القرن الذى عاش فيه(٢).

ومن المؤرخين أبو الفرج عبد الرحمن على بن محمد الجوزى، كان علامة عصره فى الحديث والوعظ، صنَّف فى فنون عديدة منها «زاد المسير فى علم التفسير» وألف فى الحديث، ومن كتبه التى تعنينا كتاب «المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم»، (ت ٥٩٧هـ)، وأعاد إلى الأذهان فى كتابه هذا عهد المؤرخين الموسوعيين، وكتابه «المنتظم» يجمع بين الأحداث السياسية والوفيات.

وكان لابن الجوزى نحو ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحو مائتى مجلد، وانفرد بفن الوعظ الذى يتجلى فيه الفصاحة والبلاغة وغوصه على المعانى البديعة، وعنده المقدرة على جمع المعانى فى عبارة وجيزة واضحة سريعة الفهم والإدراك. وقد ألف فى عدة علوم كالتفسير والحديث والحساب والفلك والطب والفقه واللغة والنحو، وما زال يؤرخ عن العالم حتى أصبح تاريخا:

ما زلت تكتب فى التاريخ مجتهدا   حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا

---

(١) روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٠.

يذكر - فى كتابه المنتظم - أحداث كل سنة ثم يذكر وفياتها ويترجم لهم، ويذكر فى كتابه بعض الأحداث التافهة، ويغفل الأحداث الرئيسية، ومن مميزات ابن الجوزى أنه يلخص للأحداث التاريخية لكل سنة لمن لا يريد التفاصيل، ووضع كتاب «شذور العقود» الذى هو تلخيص لكتاب المنتظم. واعتمد فى كتابه على أكثر من مصدر، لذلك انفرد بروايات لم ترد فى بعض كتب التاريخ السابقة له[١].

وسبط ابن الجوزى شمس الدين أبو المظفر يوسف الواعظ، وذاع صيته فى مجالس الوعظ، وصنف تاريخا كبيرا فى أربعين مجلدا أسماه «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» وتوفى فى دمشق[٢] سنة ٦٥٤هـ.

ومن المؤرخين ابن العبرى نصرانى - ألف كتابه «تاريخ مختصر الدول» واهتم بتاريخ الدول متبعا النظام الحولى، ولكنه يمر بسرعة على الأحداث التاريخية ويختصرها، ويذكر سيرة الرسول، ويهتم بصفة خاصة بالحياة الثقافية.

ومن المؤرخين الموسوعيين ابن الأثير صاحب كتاب «الكامل فى التاريخ» وهو من أهم كتب التاريخ الإسلامى. وابن الأثير هو عز الدين أبو الحسن على ابن محمد (ت ٦٣٠هـ)، صنف بالإضافة إلى كتاب «الكامل» كتاب «التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية»، وهو من أهم مصادر تاريخ أتابكة الموصل والجزيرة؛ لأنه عاصر أحداثها، وولى بعض المناصب فى دول الأتابكة، والسفارة لبعض الملوك. ومن أهم كتبه معجم مرتب على حروف الهجاء عن الصحابة يسمى «أسد الغابة فى معرفة الصحابة»، ومن أهم كتبه «الكامل فى التاريخ» ويقع فى اثنى عشر جزءا، اعتمد فى الأجزاء السبعة الأولى على كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى، وألغى الأسانيد، وتعدد الروايات، وكان يذكر الرواية المرجحة دون سواها، واتبع نظام السنين كالطبرى، وفى الأجزاء الأخرى من كتابه أى بعد الجزء السابع - أو بعد حوادث سنة ٣٠٢ هـ حيث توقف الطبرى عن الكتابة - يعتمد على المصادر التاريخية المعروفة كالمسعودى[٣]. وبذلك أعطى صورة واضحة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٤٢.

(٢) المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٤٢.

(٣) عصام الدين عبد الرءوف : بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى.

للعصور التى كتب عنها، وأحيانا ينقد الطبرى الروايات التاريخية غير الصحيحة التى يذكرها فى تاريخه، وينقد بعض الكتب التى ذكرت روايات ضعيفة، ويذكر ابن الأثير فى مقدمة كتابه «شرعت فى تأليف كتاب جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الأمام أبو جعفر الطبرى، فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة، فطالعتها، وأضفت منها إلى ما قرأته من كتاب الطبرى ما ليس فيه، ووضعت كل شيء منها موضعه، على أنى لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة، ممن أعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه».

وكتاب «الكامل فى التاريخ» من أهم مصادرنا فى التاريخ الإسلامى لأنه استفاد من مناهج المؤرخين السابقين له، وحرص على الرواية الصحيحة وتجنب السند والحشو والأساطير والروايات الضعيفة، ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب كمصدر من أهم المصادر عن الفترة التاريخية التى كتب عنها. بل هو أهم مصدر فى الحروب الصليبية، وفضله الأوربيون واعتمدوا عليه لصدقه وأمانته.

ومن كتب الحوليات «المختصر فى أحداث البشر» لأبى الفدا.

وأدى اتساع الدولة الإسلامية إلى ظهور مؤرخين لا يهتمون بالتاريخ العام، إنما يهتمون بتاريخ شعوبهم أو الأقاليم التى نشأوا فيها، ومن هنا ظهر التاريخ المحلى الذى يعبر فيه المؤرخ عن شخصية بلده وشعبه، وإحياء تاريخ هذا الإقليم مثل كتاب «زبدة الحلب فى تاريخ حلب» لابن العديم[١] (ت ٦٦٠هـ) وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وهو من بيت علم، نشأ فى دمشق وتعلم فى بغداد بعلوم عصره، ورحل إلى المدن الإسلامية لطلب العلم، ودرس فى المدرسة النظامية فى بغداد، وتلقى العلم عن ١٣٠٠ شيخ وثمانين امرأة، وتعمق فى دراسة الفقه الشافعى، وأصبح حجة فى الحديث الصحيح، وقد أعرض عن المناصب الدينية كالإمامة والخطابة، وقنع بالقليل من الرزق، وتعفف عن التقرب إلى الحكام، وشيد له نور الدين محمود بن زنكى مدرسة لتعليم الحديث، ظل يدرس بها حتى وفاته سنة ٥٧١هـ، وقويت صلته بنور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى، وعرفا فضله، وتعلما منه الفقه والحديث[٢].

---

(١) كمال الدين أبو القاسم عمر أحمد بن هبة الله بن العديم.

(٢) الوردى : مرآة الجنان، جـ ٤ ص ٣٥.

بلغت تصانيف ابن عساكر أربعين مجلدا، أجلها «تاريخ دمشق»، وهو على نسق «تاريخ بغداد» يروى أخبارها وأخبار المقيمين بها ومن حل بها واجتهاداتهم، وأهداه إلى نور الدين محمود، وله كتاب «تبيين كذب المفترى عليه أبى الحسن الأشعرى» وله دراسات مستفيضة فى الفقه والحديث والتاريخ والأدب والأخبار. وكان لا ينقل من السلف وإنما يعتمد على نفسه وعلى فكره، وهو مجتهد يكره الجمود والتقليد، ويقال: إنه كتب سبعمائة كراسة كل كراسة عشرون ورقة[1].

يجد القارئ فى كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر ترجمة عمن كان لهم شأن فى مجتمع الشام، وكان يخشى أن يمل القارئ من قراءة هذا الكتاب الكبير، فحلاه بالشعر والنوادر المشوقة للقارئ[2]. وقد اختصره أبو شامة (ت ٦٦٥هـ)، وكان يحدث الناس فى مسجد دمشق بمقتطفات من هذا الكتاب، واختصر تاريخ دمشق ابن عبد الدايم المقدسى (ت ٦٨٠هـ)، وسماه «فاكهة المجالس وفكاهة المجالس»، واختصره ابن المكرم وبدر الدين العينى (ت ٨٧٥هـ)، واختصره السيوطى أيضا.

وتاريخ ابن عساكر بالغ الأهمية، بحيث يمكن استخراج عدة كتب منه، وهذا الكتاب الجامع يتضمن معلومات تاريخية هامة إلى جانب بعض الأساطير والخرافات.

وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر من أهم مصادرنا فى تاريخ دمشق وبلاد الشام عموما منذ فجر الإسلام حتى وفاته ٥٧١هـ.

ومن كتب التاريخ المحلى «تاريخ بخارى» للنرشخى، أبو بكر محمد بن جعفر، وهو تاريخ هام عن الدولة السامانية، ومن كتب التاريخ التى اهتمت بتاريخ الدولة الغزنوية كتاب اليمينى لأبى نصر محمد بن عبد الجبار العتبى (ت ٤٨٢هـ)، دخل فى خدمة السلطان سبكتكين والسلطان محمود الغزنوى، وأرخ للسلطان محمود كتابا أسماه «تاريخ اليمينى» وأبرز الوقائع والأحداث التى حدثت فى أيامه. وصاغه فى أسلوب أدبى مسجوع، وتأتى أهمية هذا الكتاب إلى أن العتبى عاصر هذه الأحداث مؤرخا وعاملا فى دواوين الدولة[3].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٣٠٩.
(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ ٢٢، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٧.
(٣) كرد على : الأعلام، ص ٣٠٧ ـ ٣١٢.

ومن مؤرخي الدولة الغزنوية أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي، (ت ٤٧٠هـ)، وهو من بيهق في خراسان، تثقف في نيسابور ثقافة واسعة دينية وأدبية، اشتملت على علوم الحديث والقرآن والآداب العربية، وارتبط بروابط وثيقة برجال العلم والأدب، ومن أبرز كتبه كتابه الذي وضعه عن تاريخ الدولة الغزنوية في عهد السلطان مسعود ويسمى «تاريخ البيهقي» وهو من أهم مصادر هذه الدولة في عهد السلطان مسعود، ويشهد هذا الكتاب بسعة اطلاع مؤلفه وعمق ثقافته وإحاطته الكاملة باللغتين العربية والفارسية.

التحق البيهقي بالعمل في ديوان الرسائل، واعتزل عمله في آخر عهد السلطان عبد الرشيد (٤٤٠ ـ ٤٤٤هـ) واعتكف على القراءة والتأليف حتى وفاته، وكتاب تاريخ البيهقي له نمط خاص، فهو ليس سردا لأحداث التاريخ فقط وإنما توضيح النظم السياسية والإدارية والمالية ورسوم قصر السلطان، ووصف للحياة الاجتماعية في الدولة الغزنوية من عادات وتقاليد ومجالس اجتماعية ووصف للسفارات الدبلوماسية في أيامه، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن البيهقي عاصر الأحداث وعمل في دواوين الدولة، وكان لا يتوقف عند المادة التاريخية، وإنما يبدي رأيه، ورأي الوزير ورئيس الديوان، وينقل صدى الأحداث بالنسبة للرأي العام في الدولة الغزنوية، ودون الرسائل والوثائق الرسمية للدولة ونقلها في كتابه. وتعتبر من أهم الرسائل السياسية في التاريخ الإسلامي. وكان يدون ما يسمعه من الوزير أو من كبار رجال الدولة، ونقل كل هذا في كتابه؛ لذلك فإن تاريخه يعطي صورة صادقة عما جرى في البلاط الغزنوي أيام السلطان مسعود، وعن نظم الحكم في الدولة الغزنوية والسياسة الداخلية والخارجية لهذه الدولة[1]، وترجم هذا الكتاب القيم من الفارسية إلى العربية الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب.

وكتب عن مصر عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، (ت ٢٥٧هـ) «فتوح مصر والمغرب والأندلس»، وابن ميسر (٦٧٧هـ)، والمسبحي، وكتب البكري (ت ٤٨٧هـ) أبو عبيد الله بن عبد العزيز «المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب» وابن عذاري «البيان المغرب في أخبار المغرب» أواخر القرن السابع الهجري.

---

(١) انظر مقدمة تاريخ البيهقي.

وفى العراق كتب أحمد بن طاهر بن طيفور كتاب «تاريخ بغداد» وأكمله ابنه عبد الله، وكتب أبو زكريا الأزدى «تاريخ الموصل» وكتب ابن إسفنديار «تاريخ طبرستان» وكتب شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى (ت ١٠٤٠هـ) «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

وظهر فى تاريخ الإسلام كتب الطبقات، وهى ذات أهمية كبيرة؛ لأنها تنقلنا من التاريخ السياسى إلى دراسة علماء وأدباء العصر الذى يكتب عنه، وقد تخصص هؤلاء العلماء فى الكتابة عن طبقة معينة، ومن بين هذه الكتب طبقات فحول الشعراء لابن المعتز - طبقات الفقهاء - طبقات الشافعية للسبكى - طبقات الصوفية للسلمى - وطبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل - طبقات الحنابلة لابن رجب - اللباب فى الأنساب لابن الأثير - طبقات النحويين للزبيدى.

ومن أهم كتب الطبقات «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٨هـ). تعلم الطب والأدب فى دمشق، وقرأ كتب جالينوس وغيره فى الطب، واشتغل بمداواة المرضى فى المارستان المنصورى.

وأنصف كتابه «عيون الأنباء» كل من ترجم لهم وأحاط بكتبهم ونوادرهم وأعمالهم على اختلاف عصورهم ليستدل على علمهم الغزير، وقال : وإن كثيرا منهم وإن قدمت أزمانهم فإن لهم علينا من النعم فيما صنفوه والمنن فيما قد جمعوه فى كتبهم من علم هذه الصناعة ما هو تفضل المعلم على تلميذه والمحسن إلى من أحسن إليه.

قسم كتابه إلى خمسة عشر بابا : الباب الأول فى كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها، والثانى فى طبقات الأطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب، وهم اليونان والفرس والمسلمون والسريان والنصارى والهنود وأهل الجزيرة والمغرب.

ورتب من ترجم لهم على سنين وفاتهم، ولا تعد هذه الطبقات كتابا فى الطب وفى الأطباء، بل كتاب فى الحكمة والحكماء، فهو كتاب أدب ومحاضرة، كما هو كتاب حكمة وطب، إذ يذكر نوادر الأطباء وطرائف وأشعار وأساليب العلاج والتجربة والأدوية وتطورها، وبراعة المسلمين فى فن العلاج[1].

وكتابه هذا هو مرجعنا فى الطب والأطباء فى الإسلام.

---

(١) كرد على : أعلام الإسلام ٢٣٣ - ٢٣٥.

ومن كتب الطبقات «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لمؤلفه جمال الدين على ابن يوسف القفطى الذى نشأ فى صعيد مصر، وهاجر إلى حلب، وتلقى بها العلم حتى صار عالما وأديبا يناظر العلماء وتعقد فى بيته حلقات العلم والدرس، وفى سنة ٦٣٣ عهد إليه الملك العزيز بالوزارة، وبرزت شخصيته فى الأوساط العلمية والأدبية، والتقى فى عهده بالكثير من العلماء واستعانوا به فى مراجعة كتبهم مثل ياقوت صاحب كتابى معجم الأدباء ومعجم البلدان والعماد للأصفهانى.

وتظهر قيمة كتاب إخبار العلماء بما تضمنه من المعلومات الغزيرة الخاصة بمعارف العرب المسلمين من مؤلفات اليونان وتراث الإغريق الفكرى عموما، والكتاب ترجمة للعلماء والحكماء فى كل فن، واطلع على كتب التراجم والطبقات، وكتب تراجمه وفقا للحروف الأبجدية، (ت ٦٦٧هـ).

ومن أشهر كتب التراجم «الوافى بالوفيات» للصفدى، ابن الفوطى : «الحوادث الجامعة عن أخبار المائة السابعة». ابن حجر العسقلانى : «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة». ومن أهم كتب التراجم «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

طلب ابن خلكان العلم فى إربل ببلاد الجزيرة، ودرس فى الموصل، ورحل فى طلب العلم إلى دمشق وحلب، وانتقل إلى مصر، وولى القضاء بها، ثم عاد إلى الشام، وولى بها القضاء أيضا، ووضع كتابه المشهور «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» واعتمد فى تراجمه على أستاذه ابن المستوفى - آخر وزراء إربل - قبل الغزو المغولى - وصنف أربعة مجلدات فى التاريخ معظمها تراجم، ويقول ابن خلكان عن سبب تأليفه لكتابه: «دعانى إلى جمعه أنى كنت مولعا بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولى النباهة وتواريخ مولدهم ووفياتهم، ومن جمع منهم فى كل عصر، فوقع لى منه على شىء حملنى على الاستزادة، فاطلعت على الكتب المهتمة بهذا الفن، وأخذت من أقوال الأئمة المتقنين له ما لم أجده فى كتاب، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندى على مسودات كثيرة فى سنين عديدة، فاضطررت بعد عناء إلى ترتيب التراجم حسب حروف المعجم، ولم أذكر فى هذا المختصر أحدا من الصحابة أو التابعين إلا جماعة يسيرة». ولم يترجم للخلفاء بل كتب عن العلماء والفقهاء والشعراء ورجال الفكر ومن له شهرة من الناس، وأسمى الكتاب

«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان بما يثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان» (ت ٦٨١هـ)(١).

وكتب المسلمون عن الولاة والوزراء مثل كتاب الجهشيارى «الوزراء والكتاب»، والكندى (ت ٣٥٠هـ) «الولاة والقضاة»، وخواندمير «دستور الوزراء».

والجهشيارى أبو عبد الله محمد بن عيدروس الكوفى، ت ٣٣١هـ ببغداد، يتناول الكتاب الكلام عن أوائل الكتابة وأيام ملوك الفرس والدواوين والكتاب فى أيام الخلفاء الراشدين والأمويين، ثم تناول أخبار وزراء بنى العباس حتى نهاية القرن الثالث الهجرى.

والأخبار التى تناولها الجهشيارى جليلة القدر عظيمة الفائدة، وعرض لأخبار ثمانية عشر خليفة، وكتب عن وزرائهم وكتابهم، وتأتى أهمية هذا الكتاب إلى أن الجهشيارى عاصر حكم هؤلاء الخلفاء ووزرائهم وكتابهم وصنف بصفة خاصة أخبار الخليفة المقتدر فى ألوف من الأوراق(٢).

أما كتاب «دستور الوزراء» للمؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير والمؤلف أديب وعالم ومؤرخ توفى سنة ٩٤٢هـ فى عهد التيموريين، وأدرك قيام دولة المغول فى الهند.

له مؤلفات قيمة، ومن أشهرها موسوعته القيمة «حبيب السير فى أخبار أفراد البشر» وهو من نوع التاريخ العام يبدأ منذ بداية الخليقة حتى سنة ٩٣٠هـ. ويعتبر من أهم الكتب التى صنفت فى تاريخ إيران حتى قيام الدولة الصفوية، ويعتبر كتابه «دستور الوزراء» من أهم الكتب التى صنفت عن الوزراء فى الإسلام فى العصرين العباسى الأول وعصر الدول المستقلة السامانيين والغزنويين والسلاجقة والخوارزميين والمغول والتيموريين(٣).

التزم المؤرخ فى كتابه بالحياد التام فى عرضه للحقائق وينصف فى وضع الإنصاف، وينقد من يستحق النقد(٤).

---

(١) د. عصام الدين الفقى : بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ص ٢١١.
(٢) المسعودى : مروج الذهب، جـ٢، ص ٢٢٤.
(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد : مقدمة كتاب دستور الوزراء، ص ٥.
(٤) المصدر السابق، ص ٥ ، ٦.

وذيَّل بعض المؤرخين للكتب القيمة، أى أكملوها مثل كتاب «صلة تاريخ الطبرى» لعريب بن سعد القرطبى (ت ٣٦٦هـ). وللكتبى محمد بن شاكر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ كتاب «فوات الوفيات»، وصنف ابن القلانسى كتاب «ذيل تاريخ دمشق» ت ٥٥٥هـ، وهو أديب وكاتب، أرخ للحوادث منذ سنة ٤٤٦ هـ إلى وفاته، وتولى رياسة دمشق مرتين، وحصر كل دراساته فى مدينة دمشق.

وحينما نعود إلى الكلام عن المؤرخين الموسوعيين فى العصور الإسلامية المتأخرة نتحدث عن دمشق - مركز العلم والصراع بين المذاهب والفقهاء - ومن العلماء الموسوعيين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى - من أسرة تركمانية الأصل - توارثت أسرته صناعة الذهب لذلك عُرف شيخنا بالذهبى، ووهبته صنعته ثروة كبيرة، تعلم الشيخ القراءات والحديث، ورحل فى طلب العلم في الشام ومصر.

لم ينقطع الذهبى طيلة حياته عن القراءة والدراسة والسماع وظل طول حياته يسمع من أهل العلم والفلسفة والشعر.

ومن أبرز شيوخه ابن تيمية، وكان يقيم الحدود بنفسه، ويحلق شعور الصبيان، ويمنع من تقديم النذور، ويحارب الصوفية، وتسببت صلاته الوثيقة بابن تيمية فى حرمانه من بعض المناصب وتفرغ للتأليف، وشغل بعض الوظائف مثل خطيب فى قرية من قرى غوطة دمشق، وشيخ دار الحديث بدمشق، والتدريس بالمدرسة النفيسية، وتولى رئاسة أكبر دار للحديث فى دمشق، (ت ٧٤٨هـ). ألف فى الحديث وأصول الفقه والعقائد، واختصر أخبار قضاة دمشق وله العديد من المولفات فى علوم الدين واللغة.

وفى التاريخ ألف كتاب «الإعلام بوفيات الأعلام»، «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»، «تذكرة الحفاظ» «دول الإسلام» إلى آخر العديد من المؤلفات الهامة.

وهو عالم موسوعى على غرار ابن عساكر وابن الجوزى والسيوطى.

ابن كثير (٧٠٠ ـ ٧٧٤ هـ = ١٣٠١ ـ ١٣٧٣م) :

النسب : يتفق كلٌّ من ابن حجر العسقلانى، وابن العماد الحنبلى فى سردهما لسلسلة نسب ابن كثير، حيث يقولان: إن ابن كثير هو «عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير»[1]، إلا أنهما يختلفان بعد هذا الاسم، فابن حجر العسقلانى يقول بعد ذلك «القيسى البصروى»،بينما ابن العماد الحنبلى يقول بعد السلسلة السابقة «ابن زرع البصرى ثم الدمشقى».

وأيًّا كان الأمر فلا يوجد اختلاف أو فروق جوهرية بين الكتابين، فلعل ابن حجر ترك ذكر «ابن زرع» اختصارا، أما «القيسى» «البصرى أو البصروى» أو «الدمشقى» فما هى إلا ألقاب لابن كثير لا تعد أجدادا له.

الميلاد : يقول ابن حجر العسقلانى :إن ابن كثير «ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير»[2] ويقول ابن العماد : «ولد سنة سبعمائة»[3] وبالمقارنة بين الرأيين نرى ابن العماد يجزم وبيقين أن سنة ولادة ابن كثير هى سنة ٧٠٠هـ، أما ابن حجر فيضع أمام أعيننا رأيين أقواهما سنة ٧٠٠هـ، أما الرأى الآخر فهو بعد ٧٠٠هـ بيسير. ونحن هنا سنأخذ برأى ابن حجر لأنه المتقدم.

الرحلة العلمية : قدم ابن كثير إلى دمشق وهو ابن سبع سنين[4] طلبا للعلم، وهناك تلقى العلم على يد «ابن الشحنة وابن الزراد وإسحاق الآمدى وابن عساكر والمزى وابن الرضى وطائفة من العلماء، وأجاز له من مصر الدبوسى والوانى والختنى وغيرهم»[5].

وكان ابن كثير فقيها شافعى المذهب[6]، وبالرغم من ذلك إلا أنه تلقى العلم من ابن تيمية المعروف بسلفيته وتبعيته للمذهب الحنبلى، فيقول ابن حجر عن ابن كثير : «وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن بسببه»[7]، كما يقول ابن العماد :

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٣٧٣، ابن العماد : شذرات الذهب، جـ ٦، ص ٢٣١.
(٢) ابن حجر : المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٧٤.
(٣) ابن العماد : المصدر السابق، جـ ٦، ص ٢٣١.
(٤) ابن العماد : نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٥) ابن حجر : المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٧٤.
(٦) ابن العماد، المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٣١.
(٧) ابن حجر : المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٧٤.

«كانت له خصوصية بابن تيمية ومناضلة عنه واتباع له فى كثير من آرائه، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذى»[1].

صفاته : كان ابن كثير كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم فى العربية وينظم نظما وسطا وهو القائل :

تمر بنا الأيام تترى وإنما نساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذى مضى ولا زائل هذا المشيب المكدر[2]

وقد ذكر الذهبى الإمام ابن كثير فقال عنه : «الإمام المحدث المفتى البارع»[3].

مؤلفاته : لابن كثير العديد من المؤلفات[4] من أهمها :

١ ـ اختصار السيرة النبوية [طبع باسم «الفصول فى اختصار سيرة الرسول»].

٢ ـ اختصار علوم الحديث [طبعه الشيخ أحمد محمد شاكر].

٣ ـ البداية والنهاية [طبع عدة طبعات].

٤ ـ تفسير القرآن العظيم [طبع عدة طبعات].

٥ ـ طبقات الشافعية [مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية].

والناظر لهذه المؤلفات وغيرها يرى تعدد المجالات التى كتب فيها ابن كثير [التفسير ـ الحديث ـ السيرة ـ التراجم ـ التاريخ . . إلخ] وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على سعة أفق ابن كثير وتعدد علومه ومعرفته بكثير من فروع المعرفة الإسلامية.

وفاته : توفى الإمام ابن كثير فى شعبان سنة ٧٧٤هـ[5]، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية[6].

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب، جـ٦، ص ٢٣١.
(٢) المصدر السابق، جـ ٦، ص ٢٣١.
(٣) المصدر السابق، جـ ٦، ص ٢٣١.
(٤) المصدران السابقان، نفس الأجزاء والصفحات.
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ ١، ص ٣٧٤.
(٦) ابن العماد : شذرات الذهب، جـ ٦، ص ٢٣١.

كتاب البداية والنهاية :

التعريف بالكتاب : من التاريخ الإسلامى العام، على نسق كتاب «الكامل لابن الأثير» والكتاب يتألف من الموضوعات التالية :

١ ـ البداية : عن مبدأ تاريخ الخليقة والكلام عن العرش والملائكة والجن والأفلاك.

٢ ـ تاريخ ما قبل الإسلام من الأمم والأنبياء.

٣ ـ سيرة الرسول ﷺ ومعجزاته.

٤ ـ التاريخ الإسلامى إلى سنة ٧٦٧هـ.

وعمدته فى هذه الموضوعات على النصوص وأقوال المفسرين والمحدثين والفقهاء.

وقد رتب الحوادث على السنين منذ هجرة الرسول ﷺ واعتنى بالترجمة للأعلام ترجمة موجزة، ولكن لاحظ عليه ابن شيبة بقوله : «وهو ممن جمع بين الحوادث والوفيات وأجود ما فيه السيرة النبوية، وقد أخل بذكر خلائق العلماء».

منهجه : يورد النصوص ويخرجها، ولكنها إذا تضافرت لم يخرجها ـ وإن كانت أسانيدها أو أسانيد بعضها ضعيفة مكتفيا بتعاضدها وهو ـ رحمه الله ـ فى تخريجاته لا يسارع إلى تكذيب الكذب، ما دام يستطيع أن يجد تخريجا ولو باردا.

مصادر الكتاب : من مصادره كتب أحال إليها مثل : الروضتين لأبى شامة، وتاريخ ابن جرير، وسيرة ابن هشام، والصحيحين والسنن الأربع، وسنن البيهقى ومسند أحمد، وتفسير ابن جرير، وتفسير ابن الجوزى، والتاريخ للبخارى، والفصل لابن حزم، وجوامع السيرة لابن حزم، وتاريخ بغداد للخطيب، والجواب الصحيح لابن تيمية، وتاريخ الذهبى، والمنتظم لابن الجوزى، والأحكام السلطانية للماوردى، وأسد الغابة لابن الأثير، والوفيات لابن خلكان، والكامل لابن الأثير.

وأحيانا تكون مصادر ابن كثير فى البداية والنهاية مشافهة من مشايخه وأحيانا يحيل إلى علماء ولا يشير إلى اسم المؤلَف فربما نقل عن مؤلفاتهم مباشرة وربما رجع إلى مؤلفاتهم بالواسطة.

وحينما نتكلم عن المؤرخين الموسوعيين فى القرن الخامس عشر الميلادى نبدأ بذكر شيخهم وعميدهم عبد الرحمن بن خلدون، ولد بتونس، وهو من عائلة تنتمى إلى إقليم حضرموت فى اليمن، واشتغل أفراد أسرته فى إشبيلية بالعلم والسياسة، وبرز منهم كثيرون. درس عالمنا الكبير علوم الدين والأدب واللغة والفلسفة والطبيعة والرياضة، وتولى وظائف قيادية فى شمال أفريقيا فترة ٢٥ سنة (٧٥١ ـ ٧٧٦) وكانت بلاد المغرب العربى مضطربة سياسيا وتدخل فى السياسة، وما يصحبها من انتهازية ومكر ودهاء، أدى ذلك إلى سجنه، ثم رحل إلى الأندلس سنة ٧٧٤ وكانت بلاد الأندلس فى طريقها إلى الانهيار، رحل إلى الأندلس حتى ينال مكانة كبيرة فى غرناطة، بعد أن تضاءل نفوذه فى المغرب، وقد أكرم السلطان الغنى بالله ووزيره ابن الخطيب وفادة ابن خلدون، واختاره السلطان سفيرا له لدى ملك قشتالة لعقد معاهدة صلح بين قشتالة وغرناطة، ونجح ابن خلدون فى مهمته، فبالغ السطان فى تقديره، وعاش ابن خلدون فى غرناطة فى أمن ورعاية مع أسرته. ولكن الأيام لم تدم ابتسامتها لابن خلدون، فقد تغير عليه السلطان ووزيره[1] ابن الخطيب، ويبدو أن ابن الخطيب قد خشى على نفوذه من ابن خلدون لأنه يعرف قدره وبراعته وحنكته السياسية والعلمية، ومكانته التى نالها فى الدولة وتقدير السلطان له، فأوغر صدر السلطان عليه، وفى نفس الوقت تلقى ابن خلدون دعوات من حكام المغرب بالقدوم، وأذن له سلطان غرناطة بالرحيل، وودعه وداعا يليق به، وغمره بصلاته، وغادر ابن خلدون الأندلس بعد أن قضى فيها عامين شهد فيهما تدهور الحكم الإسلامى فى الأندلس[2].

قضى ابن خلدون عشر سنوات فى المغرب، وعاد إلى شغل المناصب السياسية، ولكنه اعتزل السياسة بعد أن أصبح موضع شك الحكام والأمراء، وتفرغ للدراسات الدينية والأدبية والتدريس، ودوّن مؤلفه المشهور «العبر وديوان المبتدأ والخبر» فى قلعة سلامة التى سُجن فيها (٧٧٦ ـ ٧٨٠هـ)، وكتب المقدمة فى خمسة شهور سنة ٧٨٠هـ، ورحل إلى مصر سنة ٧٨٤هـ، فعرف طلاب العلم قدره، وأحاطوا به، وتولى منصب قاضى قضاة المالكية، ونُكب فى أسرته بعد أن

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ ٤، ص ١٤٥ ـ ١٤٩.

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، جـ ٧، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩.

غرقت السفينة التى كانت تقلهم إلى مصر، وعُزل من القضاء بسبب منافسة المنافسين له، فأدى فريضة الحج، وزار بيت المقدس، وقابل تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ وأُعجب به تيمور فعرض عليه الدخول فى خدمته، ولكنه تحايل عليه بأن يأذن له بالسفر إلى مصر لإحضار أسرته، وعاد إلى مصر ونقَّح مقدمته وأهداها إلى السلطان برقوق، وعاد إلى منصب القضاء، ثم تركه، واشتغل بالتدريس فى الجامع الأزهر، وتوفى سنة ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م[١].

وبذلك كانت حياته حافلة بالمغامرات السياسية، والنشاط العلمى والأدبى، مما جعل مقدمته خير معبر عن تطور المجتمعات.

وابن خلدون واضع علم الاجتماع، ومؤسس علم فلسفة التاريخ، فالمؤرخ يهتم بتفاصيل الأحداث، وفيلسوف التاريخ يستخرج من الأحداث نظريات لعوامل تقدم المجتمعات وعوامل انهيارها، وعوامل قوتها وضعفها.

ومن أبرز مؤرخى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م). الذى نشأ فى القاهرة، وطلب العلم، ثم عمل فى ديوان الإنشاء فى القاهرة ثم عمل قاضيا، فإماما لجامع الحاكم بأمر الله ومدرسا للحديث فى المدرسة المؤيدية، وعهد إليه السلطان برقوق منصب المحتسب فى القاهرة والوجه البحرى[٢]، وانتقل إلى دمشق وانصرف إلى طلب العلم، ورفض الوظائف التى عُرضت عليه، وبعد أن أقام فى دمشق عشر سنوات عاد إلى القاهرة، واستقر فى حارته بالجمالية يعلم تلاميذه، ويؤلف ما شاء الله له من الكتب[٣].

أول كتاب قام بتأليفه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» تناول فى كتابه المدن والآثار المصرية والقديمة والوسيطة، ووصفها وصفا دقيقا، فجاء الجزء الأول وصفا لأحوال القاهرة وأخبارها، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة فى العصور الوسطى، ثم أتبع المقريزى هذا الكتاب بكتاب عن الفسطاط، أسماه «عقد جواهر

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب، جـ ٧، ص ٧٦ ، ٧٧.

(٢) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥، ص ١٠.

(٣) ابن حجر العسقلانى : الضوء اللامع، جـ ٢، ص ٢٠١ ـ ٢٠٥.

الأسقاط من أخبار مدينة الفسطاط» وهو تاريخ لمصر الإسلامية فى عصر الولاة، وأتبع المقريزى بعد ذلك كتاب أسماه «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا» وهو تاريخ الدولة الفاطمية. وأكمل سلسلة التأليف فى مصر الإسلامية بكتاب عن الأيوبيين والمماليك أسماه «السلوك لمعرفة دول الملوك» وألف المقريزى كتبا أخرى أهمها «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» وألف فى التاريخ الاقتصادى «كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة» كتب فيه عن أسباب المجاعات والأوبئة التى تحل بالأمم، وعن إهمال الحكام الذى يؤدى إلى هذه الكوارث، وتتبعها حتى وقت تأليفه لهذا الكتاب ١٤٠٥م، وكتب عن دويلات الحبشة الإسلامية، وألف فى الأوزان والأكيال والمقاييس والنقود، ويوضح أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة تأثر المقريزى بشيخه ابن خلدون فى مؤلفاته، وتوفى سنة ١٤٤٢م . ٨٤٥هـ.

ومن مؤرخى ذلك العصر أحمد بن حجر العسقلانى الذى تعلم بعلوم عصره، ورحل فى طلب العلم إلى الحجاز والشام، وعمل بالتدريس والإفتاء، ألف فى الحديث والفقه والتراجم كتابه المشهور «فتح البارى فى شرح صحيح البخارى» ويقع الكتاب فى ثلاثة عشر مجلدا. وكان يوم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب يوم عيد، أقيمت فيه الاحتفالات، وأقبل الحكام والأمراء والناس على هذا الكتاب[1].

عاش ابن حجر شخصية بارزة فى كنف السلاطين المماليك، ولى منصب القضاء عدة مرات، وكان يميل إلى النوادر والأحاديث الشيقة، وعبر عنها بكتابه «إنباء الغُمر بأبناء العمر» وهو من أهم المراجع الأصلية لعصره، يشير فيه إلى أحداث الدولة وسياستها العامة، ويبدأ هذه الأحداث بسنة ميلاده، لذلك فهى تشير إلى تأريخ فترة محدودة عن حياته[2]، (ت ١٤٤٩ م).

أما المؤرخ بدر الدين العينى فكان يعرف اللغة التركية لذلك نال تقدير السلطان برسباى، وكان يقضى معه الأوقات الطويلة يحدثه عن التاريخ والفقه

---

(١)، (٢) السخاوى : الضوء اللامع، جـ ٢، ص ٢٠١ ـ ٢٠٥.

والحديث، ومن أهم كتبه «عقد الجمان فى أخبار أهل الزمان»، شغل القضاء حتى اقتراب وفاته سنة ١٤٥١م[١].

أما أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى، فهو من أبرز المؤرخين فى القرن الخامس عشر الميلادى بعد المقريزى والعينى، وأبوه مملوك رومى وأمه جارية تركية عند السلطان برقوق، وظل تغرى بردى موضع رعاية السلطان برقوق حتى عهد إليه ببعض المناصب الهامة مثل نيابة دمشق، وأسهم فى الدفاع عن بلاد الشام ضد غزو تيمور لنك لها، وتولى نيابة دمشق عدة مرات، وتزوج السلطان فرج بن برقوق من إحدى بناته، وما زال يلى منصب نيابة دمشق - وهو من أرفع المناصب فى دولة المماليك - حتى وفاته سنة ١٤١٢م. ونشأ ابنه أبو المحاسن فى رعاية المماليك، وتعهدوه بالرعاية والتعليم المدنى والعسكرى[٢].

تتلمذ أبو المحاسن على علماء عصره مثل المقريزى والعينى وتتلمذ على شيوخ الشام والحجاز وشُغف بالتاريخ.

واستطاع أبو المحاسن أن يكون على اتصال وثيق بسلاطين المماليك ورجال الدولة، وتقلد بعض المناصب الرفيعة، وجمع مادة غزيرة فى التاريخ والتراجم والشعر العربى والتركى[٣].

وتبلغ مؤلفات أبى المحاسن أكثر من اثنى عشر كتابا، وأعظمها كتابه عن تاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى سنة ١٤٦٧م «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهر»، ويقع فى سبعة مجلدات ضخمة، وله كتاب «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» وهو كتاب حافل بتراجم الملوك والأعيان ورجال الفكر والأدب فى الدولتين المملوكيتين الأولى والثانية[٤]، وبعض ملوك الدول المجاورة من سنة ١٢٥٢ إلى عصره، ورتبه أبو المحاسن ترتيبا أبجديا، وله كتاب آخر يسمى «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور» وهو ذيل لكتاب السلوك للمقريزى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م)[٥].

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥.

(٢) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ ١٠، ص ٣٠٥ - ٣٠٨.

(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب، جـ ٧، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع، جـ ١٠، ص ٣٠٥ - ٣٠٨.

(٥) محمد مصطفى زيادة : مرجع سابق، ص ٣٤.

والسخاوى أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد، عُنى السخاوى بتلخيص الكتب وتذييلها مثل كتاب «التبر المسبوك فى ذيل السلوك» وهو تكملة كتاب المقريزى، وكتبه زمن السلطان قايتباى، وألف كتابا فيه تكملة لكتاب تاريخ الإسلام للذهبى.

ومن أهم كتب السخاوى «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» ويتضمن قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين، وفضله على العلوم الأخرى للمشتغلين بالحكم والسياسة، وله فى التراجم «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وهذا الكتاب يتضمن جزءا ترجم فيه لأعلام النساء، أما تراجمه فذكر فيها مساوئ وأخطاء كثيرة لمن ترجم لهم، (ت ١٤٩٧م)[١].

أما محمد بن أحمد بن إياس، وهو من عائلة كبيرة دخل أبوه وجده فى خدمة سلاطين المماليك، وتولوا المناصب الهامة فيها، وضاقت به سبل الحياة بعد أن ساءت أحوال مصر الاقتصادية زمن السلطان الغورى وصادر إقطاعه، ومن أهم كتبه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وهو كتاب شامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى، ويقع الكتاب فى أحد عشر جزءا، وتوفى سنة ١٥٢٤م، وأعطاه هذا الكتاب مكان الصدارة بين مؤرخى عصره، ومن كتبه فى التاريخ «عقود الجمان فى وقائع الزمان» وهو مختصر لتاريخ مصر، ومن كتبه «نزهة الأمم فى العجائب والحكم» وهو تاريخ مختصر للعالم، ومن كتبه «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار»، وهو كتاب فى آثار مصر الفرعونية والفلك والهيئة وتركيب الكون، وكتابه «بدائع الزهور» من أهم مصادرنا عن دولة المماليك فى عصرها المتأخر ولحوادث الفتح العثمانى لمصر.

لم يكن ابن إياس كغيره من المؤرخين، إنما كان يتوقف عند كل حدث، وينقد، ويحرص على استقصاء الحقائق، وكان لاذعا فى حكمه على الناس[٢].

وآخر هؤلاء المؤرخين جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن جلال الدين الخضيرى الشافعى، ينتهى نسبه إلى أسرة فارسية، واستقر فى أسيوط

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر، ص ٦٠ - ٦٢.

على الأرجح فى زمن الأيوبيين، وظلت أسرة السيوطى تعيش فى أسيوط جيلا بعد جيل، وظهر منهم رجال لهم شأن كبير فى المجتمع الأسيوطى.

أما والد السيوطى كمال الدين أبو بكر فقد هاجر إلى القاهرة قبل مولد صاحبنا بأربعة وعشرين عاما، انقطع لطلب العلم وتولى التدريس فى جامع ابن طولون، وكان يقيم فى الروضة، وتوفى وابنه فى الخامسة من عمره، فكفله أحد شيوخ الصوفية، ودرس علوم اللغة والدين على مائة وخمسين شيخا ذكرهم فى بعض كتبه، وظل يدرس حتى نبغ فى فروع العلم، وجلس للتدريس والفتيا، ورحل إلى بلاد كثيرة فى مصر وغيرها كالشام والحجاز والهند واليمن والمغرب[1] لطلب العلم، وتولى منصب أبيه شيخا للمدرسة الشيخونية بتوصية من شيخه البلقينى، ثم تولى مشيخة الصوفية للسلطان برقوق ثم انتقل إلى مدرسة المشيخة البيبرسية وهى أكبر خوانق القاهرة وأوسعها[2] انتشارا وأوقافا، ولكنه واجه مضايقات ومتاعب من الناس، فانعزل عن الحياة العامة، وزهد فى الدنيا واعتكف في داره علي التأليف والتصنيف وهو في الأربعين من عمره.

وعرض عليه السلطان قنصوه الغورى العودة إلى مشيخته لكنه رفض وآثر الحياة فى عزلة وظل كذلك حتى وفاته ١٥٠٥م[3].

ومن مؤلفات السيوطى فى التاريخ «حسن المحاضرة»، «تاريخ الخلفاء، «الشماريخ فى التاريخ»، «طبقات الحفاظ»، «طبقات اللغويين والنحاة»، «بغية الوعاة»، «تاريخ أسيوط» و «كوكب الروضة» وكتاب «تاريخ السلطان قايتباى»، وكتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وكتاب «حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة» ويقع فى جزءين وهو تاريخ لمصر والقاهرة مع بعض الفصول عن النظم المملوكية وأساليبها وطبقات العلماء والصوفية فى مصر[4].

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب، جـ ٨، ص ٥٢.
(٢) السيوطى : طبقات المفسرين، ص ٢٦.
(٣) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى، ص ٢١.
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة، جـ ١، ص ١٥٧.

أما كتاب تاريخ الخلفاء فتحدث عن الدول المتعاقبة منذ بدء الخليقة، وأبرز سير الخلفاء وأعمالهم فى إيجاز، على أن الشماريخ فى علم التاريخ عبارة عن رسالة صغيرة حول نشأة العام الهجرى، وشرح أصل وتسمية الشهور العربية، وأشهر كتب السيوطى فى التاريخ كتاب «نظم العقبان فى أعيان الأعيان» و«بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة».

وكتاب نظم العقبان جمع السيوطى مائتى سيرة لكبار أعيان العالم الإسلامى من رجال ونساء عاشوا حوالى القرن التاسع للهجرة فى مصر وسورية والحجاز والعراق والأندلس من سلاطين عثمانيين ومغول ورجال السياسة، وترجع أهمية هذه التراجم إلى أنه عاصر أكثرهم، ومعظم هؤلاء الذين ترجم لهم لا نجد لهم تراجم إلا فى كتابه، كما أن كتابه يعطى صورة صادقة لأواخر عصر المماليك من الناحيتين الاجتماعية والأدبية، وكان هذا العصر عصر جمود عقلى وسياسى.

والمؤرخون اليمنيون تأثروا بمذاهبهم الزيدية والشافعية وغيرهما فى كتاباتهم، ومن كتب الزيدية «الحقائق الوردية فى مناقب وتراجم الأئمة الزيدية» صنفها أحمد ابن محمد المحلى، ت ٦٥٢هـ، وكتب الإمام المنصور بالله الحسن بدر الدين (ت ٦٧٠ هـ) كتاب «أنوار اليقين فى فضائل أمير المؤمنين[١].

ومن المؤرخين اليمنيين فى عصر بنى رسول بدر الدين محمد بن حاتم اليامى الهمدانى، صنف كتاب «السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن»، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ اليمن فى عصر بنى أيوب، ومن المؤرخين أبو المحاسن تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليانى، ومن المؤرخين اليمانية الجندى وكتابه السلوك فى طبقات العلماء والملوك، ويتضمن تاريخ اليمن من أحداث عاصرها وتحقق من صحتها، وترجم للشيوخ والعلماء اليمانية، وصنف السلطان الأفضل الرسولى كتاب «نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون».

ومن كبار مؤرخى اليمن فى عصر بنى رسول على بن الحسن بن أبى بكر بن على بن معاس الخزرجى، وألف بتوجيه من الملك الأشرف الرسولى كتاب «العقود اللؤلؤية فى أخبار الدولة الرسولية، وهذا الكتاب من أهم مصادرنا عن التاريخ السياسى والفكرى لدولة بنى رسول.

---

(١) عصام الدين الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، ص ٣٥١.

ومن مؤرخى اليمن الذين كتبوا عن الأقاليم أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد الرازى (ت ٤٦٠هـ)، ومن كتبه «تاريخ صنعاء»، وصنف عمارة اليمنى كتاب «المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد»، وقد دخل فى خدمة الفاطميين فى القاهرة على الرغم من سنيته، وقتل بالقاهرة لاتهامه بالاشتراك فى فتنة ضد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩، وله كتاب «النكت العصرية فى أخبار الديار المصرية[١]».

ويجب أن نشير هنا إلى أبرز مؤرخى الأندلس، ومنهم ابن القوطية القرطبى «تاريخ افتتاح الأندلس» وابن حيان : أبو مروان بن خلف كتاب «المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس» وابن سعيد المغربى - على بن موسى وكتابه «المغرب فى حلى المغرب» وابن عذارى المراكشى أبو عبد الله وكتابه «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»، والبكرى أبو عبيد الله بن عبد العزيز، وكتابه «المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب»، وعبد الواحد بن على المراكشى «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» والمقرى : أحمد بن محمد «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

ومن أبرز مؤرخى الأندلس الموسوعيين لسان الدين بن الخطيب نبغ فى الأدب والشعر والسياسة والتاريخ، نشأ ابن الخطيب فى غرناطة وتعلم بها اللغة والشريعة والأدب، وكانت غرناطة من أعظم مراكز الفكر الإسلامى فى الأندلس، اشتغل فى ديوان الإنشاء، وولى الوزارة، وأنعم عليه السلطان الغنى بالله بلقب ذى الوزارتين لجمعه بين الوزارة والكتابة، ولكنه فقد منصبه بعد وفاة الغنى بالله، وتولية أخيه الأمير إسماعيل، بل زج به فى السجن، وبعد قليل لجأ إلى سلطان المغرب أبى سالم وتوطدت الصلة بين ابن خلدون وابن الخطيب وتبادلا الرسائل السياسية والأدبية الرائعة، وجمعت بين الرجلين صداقة وطيدة، ثم تحولت إلى غيرة بين الرجلين.

وعاش ابن الخطيب فى دولة بنى مرين عيشة مترفة، وكان السلطان يقدره، ويغدق عليه الأموال، ولما عاد مليكه المخلوع إلى عرشه فى غرناطة عاد إلى الأندلس، بعد الاضطرابات التى حدثت فى بلاد المغرب، وأكرم سلطان غرناطة الغنى بالله وفادة ابن الخطيب سنة ٧٦٣هـ، وولاه القيادة والوزارة، وأصبح صاحب القيادة فى الدولة وتخلص من منافسيه.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٨ - ٣١٠.

ضاق ابن الخطيب ذرعا بالعمل السياسى، وتطلع إلى العودة إلى حياة العزلة فى فاس ببلاد المغرب، وبذلك بعد عن حملات خصومه، وكراهية الناس له، وعاش فى حياة زهد وعزلة فى بلاد المغرب، وأكرمه السلطان المرينى عبد العزيز وكانت العلاقات قد ساءت بين الدولتين الأندلسية والمرينية، كما أن سلطان الأندلس قد تغيَّر على ابن الخطيب بعد سعى حساده به، واشترى الدور والضياع فى فاس، ومات سلطان المغرب عبد العزيز، وخلفه ابنه الطفل محمد السعيد، واستاء الناس من ذلك، فوضع ابن الخطيب كتابا فى ذلك أسماه «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام».

أثبت ابن الخطيب فى كتابه أن بعض الملوك فى الإسلام قد ولوا أطفالا وعدلوا بين الناس، وحسنت سيرتهم، وأثبت أن ذلك لا يخالف الدين فى شىء، وكتب فى هذا الكتاب عن تاريخ دولة بنى مرين منذ عهد السلطان عبد العزيز وهو آخر كتبه.

على أن خصوم ابن الخطيب فى الأندلس، ظلوا يواصلون مساعيهم للتخلص من ابن الخطيب، واتهموه بالزندقة والإلحاد، وأولوا بعض عبارات وردت فى كتبه وخصوصا كتاب «التعريف بالحب الشريف» واتهموه بأنه يروج لمذهب الحلول، ويقذف فى الأموات الذين يترجم لهم فى كتابه «الإحاطة فى أخبار غرناطة» واتهموه بأنه يحرض سلطان المغرب على غزو الأندلس، وأصدر السلطان قرارا بإحراق كتبه وأصدر القاضى قرارا بكفره.

وأرسل ملك الأندلس إلى سلطان المغرب يطالبه بتسليم ابن الخطيب لمحاكمته، فقبض سلطان المغرب على ابن الخطيب واعتقله، وقتل فى سجنه، وأحرقت جثته بتحريض من تلميذه ابن زمرك الذى خلفه فى الوزارة سنة ٧٧٦هـ.

كان ابن الخطيب من أبرز رجال الفكر، جمع الرسائل التى كتبها إلى ملوك المغرب، وملوك المسلمين فى كتاب «ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب»، وتعتبر كتب ابن الخطيب التاريخية مثل «الإحاطة فى أخبار غرناطة» من أهم المصادر التاريخية لدولة بنى الأحمر، وتتميز كتاباته التاريخية بأنه يكتب عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنظم وجغرافية الإقليم.

نبغ ابن الخطيب فى مختلف الدراسات، حتى أصبح أعظم شاعر وأجل مؤرخ وأقدر كاتب فى عصره، ومن أهم كتبه التاريخية «الإحاطة فى أخبار غرناطة» وكتاب «اللمحة البدرية فى أخبار الدولة النصرية» «أعمال الإعلام فيمن بويع بعد الاحتلام - والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة» وله دواوين شعر وأرجوزة فى الطب.

ترك ابن الخطيب تراثا فكريا هائلا فى العلوم والآداب، ووضع معظم كتبه فى منفاه فى المغرب حيث كان لديه متسع من الوقت.

وابن الخطيب دائرة معارف، وتتجلى فى مؤلفاته قوة البيان وعمق التفكير وسعة الاطلاع، وكتبه التاريخية ذات أهمية كبيرة، لأنه عاصر الأحداث أو كان قريبا منها، وترجم لنفسه فى كتاب الإحاطة.

ويعتبر ابن الخطيب خلاصة ما وصل إليه الفكر الأندلسى من قوة وازدهار، وفى نفس الوقت تضاءل الفكر الإسلامى فى الأندلس بعد وفاة ابن الخطيب حتى انكمش نهائيا.

ومن مؤرخى مصر الفاطمية أبو الحسن على بن محمد الشابستى، (ت ٣٨٨هـ)، ولى خزانة كتب الخليفة العزيز، وعمل فى بعض الدواوين، ومن أهم كتبه «الديارات» ويتضمن الكتاب وصفا للديارات فى مصر والشام والعراق والجزيرة، وما قيل فيها من أشعار، والمجالس الاجتماعية التى كانت تعقد حولها، ومن مؤرخى العصر الفاطمى الأمير مختار عز الملك المعروف بالمسبحى (ت ٤٢٠هـ)، وكان من ندماء الخليفة الحاكم بأمر الله ومن خاصته، ومن أهم كتبه كتابه «تاريخ مصر» واعتمد على هذا الكتاب مؤرخو مصر الإسلامية الذين أتوا بعده، مثل المقريزى وأبى المحاسن.

ومن كبار المؤرخين أبو عبد الله القضاعى (ت ٤٥٤هـ) وهو من علماء الحديث والفقه على مذهب الإمام الشافعى، ولى القضاء فى عهد الخليفة المستنصر وله عدة كتب منها «مناقب الإمام الشافعى وأخباره» وله كتاب فى خطط مصر يسمى «الخطط والآثار» يتضمن تاريخ مصر والقاهرة فى عصره، واعتمد المقريزى على هذا الكتاب فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

ومن مؤرخى مصر الإسلامية على بن منجب الصيرفى، ولى ديوان الإنشاء للخليفة الآمر، ومن أهم كتبه «قانون ديوان الرسائل» و «الإشارة إلى من نال الوزارة» وترجم لكل من ولى الوزارة منذ عهد العزيز حتى أيامه، (ت ٤٣٠هـ)(١).

والخلاصة أن مؤرخى الإسلام أعطونا مادة غزيرة عن تاريخنا الإسلامى بل وتاريخ العالم، وحفظوا لنا المادة التاريخية فى كتبهم، وتجلى فى هذه الكتب الأمانة والصدق والحياد التام، ومعظم هؤلاء المؤرخين من أبناء الشعب يعبرون بصدق عن أحوال الناس ومتاعبهم، واتبعوا منهجا علميا فى دراساتهم للتاريخ يقوم على الاعتماد على الحقائق والوثائق الرسمية والمكاتبات التى تصدر من الدواوين والإحصاءات والوصف الدقيق والابتعاد بقدر الإمكان عن الحشو والأساطير والخرافات، وذكر المصادر التى اعتمدوا عليها.

---

(١) محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، ص ١٧٩.

علم الجغرافيا

يرجع الاهتمام بالجغرافيا فى الدولة الإسلامية إلى اهتمام المسلمين بالأراضى الأجنبية الذى أثاره التجار والملاحون المسلمون، وإلى عظم مساحة الدولة الإسلامية، وكانت كتب بطليموس من أهم المصادر التى حرص المسلمون على الاستفادة منها، وترجمها الكندى وغيره إلى العربية، واستخدم الخوارزمى هذه المادة لإجراء أبحاثه وأخرج بدوره مؤلفه الكبير «وجه الأرض»(١).

وفى أوائل القرن الثالث الهجرى ظهر الرحالة، ويبدأ الشغف بالرحلة من بلد إلى بلد إما للحج وزيارة قبر الرسول أو لطلب العلم لدى الشيوخ فى المساجد أو للتجارة، وساعد على هذه الرحلات الوحدة التى كانت تجمع شعوب العالم الإسلامى، فدولة الإسلام دولة كبيرة تمتد فى ثلاث قارات، والمسلم مواطن فى هذه الدولة من حقه زيارة أى بلد فيها والإقامة والعمل والتجارة دون قيود. وأدى ذلك كله إلى نشأة جيل من الرحالة، يقضى معظم أيامه متنقلا بين البلاد، ويصف البلاد والأماكن التى يمر بها وصفا دقيقا، وهو يدرك مهمته جيدا ولذلك يصطحب معه أوراقه وأقلامه، ويتحمل مشاق السفر وأهوال الطريق، وينام فى الزوايا والأربطة وفى المساجد، وقد يقضى أياما بلا طعام، كل هذه المصاعب والمغامرات من أجل هدف إسمه لنفسه، وهو الشغف بمعرفة أحوال الناس فى كل البلاد وسجلوا مشاهداتهم، وأمدتنا بمعلومات لا نجدها فى كتب التاريخ؛ لأنها تصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والطرق والبحار والأنهار وخطط المدن وحياة الناس عموما وعاداتهم وتقاليدهم. وكتبوا عن الملوك والحكام والقادة الذين شاهدوهم.

ومن أقدم الرحلات، رحلة ابن فضلان مندوب الخليفة العباسى فى بلاط البلغار فى القرن الثالث للهجرى، نشر ياقوت فى كتابه «معجم البلدان» طرفا منها ٤٣٧ ـ ٤٤٤ هـ.

ومن الرحالة المسلمين ابن خرداذبة الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى، كتب كتابه «المسالك والممالك» ويعتبر من أقدم الكتب العربية فى

---

(١) أنتونى ناتنج: العرب ص ١٧٨.

الجغـرافيا، وهو عـبارة عن دليل يسـتفيـد منه المسافرون فى الاهـتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب دجلة عند الأبلة، ويصل إلى الهند والصين[1].

ابن خـرداذبة هو أبو القاسم عـبيـد الله بن عبـد الله بن خرداذبة، فـارسى الأصل، كـان أبوه حاكـما على طبـرسـتان، ووفق فى إخـضاع الديلم، شُـغف بالموسيقا، وتتلمذ على المغنى الكبير والموسيقى إسحاق الموصلى.

وبلغ مكانة كبيرة عند الخليفة المعتمد بفضل مكانة أبيه، وأصبح من ندمائه، وله عشر مؤلفـات، وأغلبها فى الأدب وتظهر شعوبيـته فى مؤلفاته. وهذا واضح فى كتابه «جمهرة أنساب الفرس» وله بعض الكتب فى الترفيه عن أهل الهوى مثل كتابيه «الشراب» ـ «الملاهى والأسمار»[2].

وتولى وظيـفة صـاحب ديوان البـريد فى بلاد الجـبل، وأهم كتـبـه كتـاب «المسالك والممالك» يبـدأ كتابه بالمعلومات المعـروفة، وصف شكل الأرض، ويذكر قبلة كل بلد، وتكلم عن سواد العـراق ويذكر التقسيم الإدارى للبلاد الـتى وصفها وأنواع الضرائب التى تجبى منها مع ملاحظات عن تاريخها، ويذكر ميزانية كل بلد من خلال دراسة ضرائبها، ويكتب عن ملوك الفرس والروم والترك والصين[3].

والقـسم الثانى من الـكتاب يصف الطرق، ويبـدأ بالطرق التى تخـرج من بغداد، شمالا إلى آسيا الوسـطى وجنوبا إلى الهند، ويصف الطرق مع الاستشهاد بالشعـر، ويكتب عن الجزر والبحار تفـصيلا، ويصف الطريق البـحرى إلى الهند والصين، ويروى القـصص التى قيلت حـول هذ الموضوع، ويصف الفيل ووحـيد القرن، ويتـحدث عن البوذيـة عند ملوك جاوة وعن الطبقـات فى الهند، ويصف الطريق إلى الأندلس ويصف طريق الشمال إلى القوقاز وأذربيجان، ويصف الطرق الخارجـة من مكة والمدينة[4] وجنوب الجـزيرة العربية، ويـذكر المنازل من البـصرة وبغداد إلى الهند والصـين، إحداهما عـبر السويس والبـحر الأحمـر والآخر إلى

---

(١) مقدمة كتاب المسالك والممالك.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ١٦٥.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى جـ ١ ص ١٥٥.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ١٦٥.

أنطاكية والفرات وطريق التجار الروس إلى الجنوب وهو الذى يمر بالفولجا إلى بحر قزوين متجها إلى الجنوب(١).

أما اليعقوبى أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح من موالى المنصور أبوه وجده من كبار عمال البريد، شغل جده وظيفة حاكم أرمينية فنشأ اليعقوبى الجغرافى والمؤرخ فى بغداد، وغادرها إلى أرمينية وخراسان، حيث أقام هناك فترة، وزار الهند وفلسطين، وتمتع برعاية الطولونيين أثناء إقامته فى مصر والمغرب، ووصف البلاد التى مر بها فى كتابه «البلدان».

ويطنب اليعقوبى فى كتابه «البلدان» فى وصف بغداد وسامرا، وحدد فى كتابه الجهات الأصلية الأربع وكتب عن إيران وتركستان وأفغانستان مع تخصيص فصول وصف فيها خراسان وحكامهم وكذلك سجستان ويشمل غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية والثالث يشمل المناطق الجنوبية والشرقية من العراق وشرق الجزيرة العربية والهند والصين، وكتب عن بيزنطة ومصر والنوبة وشمال أفريقيا. واهتم بوصف طرق المواصلات وفى كتابه معلومات عن الخراج والصناعات(٢).

ونلاحظ أن اليعقوبى يتجنب سرد الخرافات والنوادر، ووصفه لخطط بغداد وسامرا من أهم مصادرنا عن هذا الموضوع، ووصف أفريقيا وصفا مبسطا ودقيقا قبل انفصالها عن الفاطميين، وأورد أخبارا قيمة عن الأندلس وغارات التورمان، ووصفه للبلدان يحتل أهمية كبيرة لأنه يرشد الموظفين عن أحوال ومواقع البلدان قبل قدومهم عليها، وأسلوبه فى كتابه سهل ومبسط وواضح وأقل جفاء من كتاب ابن خرداذبة «المسالك والممالك».

وقد روى اليعقوبى فى مقدمته أنه كان يسأل أهل العلم وأهل الفضل عن أحوال كل بلد وتاريخها ورجال العلم فيها وتمصيرها ودخولها فى الإسلام ومساجدها ومرافقها والطرق المؤدية لها وخراجها وأحوال حكامها وعادات وتقاليد شعوبها وأحوالها الاقتصادية، ودوّن ذلك فى أوراق كثيرة، وقام بتهذيبها واختصارها فى كتابه «البلدان»(٣).

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ص ١٥٥ ـ ١٥٧.
(٢) مقدمة كتاب اليعقوبى.
(٣) مقدمة كتاب البلدان لليعقوبى..

ومن الرحالة المسلمين، ناصر خسرو، رحل فى العالم الإسلامى قبل ابن جبير بمائة عام، جال صاحبنا مبتدءا بإيران من مرو مارا بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر، وأقام فى مصر أكثر من ثلاث سنوات وحظى بمكانة مرموقة فى مصر الفاطمية لتشيعه، وأعجب بما رآه من سلطان الفاطميين. ووصف رحلته فى مصر وصفا دقيقا ممتعا، ووصفه لمصر يشغل ثلث كتابه تقريبا «سفرنامه».

عاش ناصر خسرو فى مرحلة شك فى دينه ورغبة فى الوصول إلى الحقيقة إلى أن هداه الله إلى الإيمان فقرر الرحلة إلى بيت المقدس والمسجد الأقصى وزيارة قبر الرسول حتى يرى المكان الذى قضى الرسول فيه حياته داعيا إلى دين الله، وهناك يجد ما يبعده عن شكوكه، ويقرأ القرآن فى هذه البقعة المقدسة الطاهرة حتى يهديه الله إلى دينه[1].

وناصر خسرو مفكر فى علل الكون وحقائق الوجود، واعتزم الرحلة ليخلص نفسه من الوهم والضلال، وغادر بلده فى صحبة أخيه وغلام هندى، وكان يجد صعوبة فى الحصول على القوت فى البلاد التى يحل بها. وحظى بتقدير العلماء والأمراء الذين يعرفون قدره كمفكر وعالم. وكانوا يسهلون له الإقامة والعيش.

وكان فى جولاته يجمع المعلومات عن الأقاليم التى يمر بها فى أوراقه، ونقحها وهذبها جميعا فى كتابه «سفرنامه» بعد عودته إلى خراسان[2].

وقد وجد صعوبات فى حياته فى خراسان التى كان يحكمها السلاجقة السنيين، وتلاحق الشيعة الإسماعيلية. لذلك اختفى عن أعين السلاجقة فى الجبال والبوادى وقد تنكر له أخوه وهجره، وتنكر له أهله.

بدأ رحلته الأولى من خراسان إلى مكة والشام ومصر وكان يصاحب العلماء فى رحلته من خراسان، ويعقد المناظرات وذهب إلى مصر ليتزود بحقيقة المذهب الإسماعيلى بناءً على دعوة من الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، ووصف ناصر

---

(١) كتاب «سفرنامه» لناصر خسرو.

(٢) المصدر السابق.

خسرو مصر وشعبها وحياة الناس وصفا يُعتمد عليه فى دراسة جوانب حضارية هامة من تاريخ مصر(١).

وذهب إلى بلاد الحجاز، وأدى فريضة الحج، وتنقل بين أرجاء الحسا حيث القرامطة والأعراب لنشر الدعوة الإسماعيلية وعاد إلى خراسان سنة ٤٤٤ هـ، وطاف بها داعيا لأنه عُين حجة عليها من قبل الفاطميين، وثار عليه معارضو مذهبه، فهاجر إلى أماكن منعزلة يكتب كتبا ورسائل تتضمن فلسفة مذهبه(٢).

وزار الشام وفلسطين وجزيرة العرب والعراق وإيران وتكلم عن زيارته لمصر وذكر أن الحاكم بأمر الله يمنع النساء من الخروج من بيوتهن، ويحرم على الناس شرب الخمر ويمنع تجفيف العنب حتى لا يُصنع منه خمر. ويجلب ماء للشرب إلى القاهرة من النيل والآبار ينقله السقاءون على الجمال، وفى القاهرة بساتين وأشجار بين القصور تُسقى من ماء الآبار. وكانت بيوت القاهرة عدة طوابق ومن النظافة بحيث تقول «أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الحصى والآجر والحجارة» وهى بعيدة عن بعضها البعض، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر. وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة وبيوت مكونة من سبعة طوابق، ويؤجرون الحجرات لمن يشاء(٣).

ومن الجغرافيين ابن رسته، وهو من أصل فارسى صنف كتاب «الأعلاق النفسية».

ويهتم ابن رسته بالفلك والجغرافيا، ففى مجال الجغرافيا وصف مكة والمدينة والحرمين الشريفين، ووصف العجائب النباتية والحيوانية، ووصف البحار والأنهار والأقاليم الستة وما فيها من المدن المشهورة، ويصف إيران وبلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء وبغداد، ويصف العراق ومصر، ويصف بيزنطة وبلاد الروم والهند. ويتضمن الكتاب قصصا ونوادر كثيرة.

---

(١) يحيى الخشاب: مقدمة كتاب سفرنامه.

(٢) يحيى الخشاب: مقدمة كتاب سفرنامه.

(٣) الرحلة ١١٤ ـ ١١٦.

والمقدسى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (ت ٣٨٧هـ) وقال: رأيت أن أؤلف كتابا عن حياة الناس وكل ما فيها، وصفات البلاد والمدن والطرق والأنهار والبحار والمسالكُ والجبال والسهول، وأتم كتابه بعد أن جال فى البلاد والدخول فى الأقاليم الإسلامية ولقاء العلماء وخدمة الملوك ومجالسة القضاة والدراسة من الفقهاء والأدباء والقراء وعلماء الحديث(١) ومخالطة الزهاد والمتصوفة وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة فى كل بلد والمعاشرة مع كل أحد ودار على التخوم حتى عرفها جيدا ودرس المذاهب واللغات واللهجات وعرف مقادير الخراج فى كل بلد، وصبر على الذل والغربة وقال أنه خدم أهل العلم والدين وأنفق الجهد الكبير فى الوصول إلى حقيقة ما أراد من وصف البلدان، وقد وصف المقدسى المنهج الذى اتبعه وتحرى الحقيقة من الثقات، أو من المشاهدة، وترك الروايات المشكوك فيها أوالتى لا يقبلها العقل، وتجنب النقل من كتب السابقين وقرأ الأوراق والبيانات الموجودة فى الخزائن، واستفاد منها فى معرفة سياسة الدول وأنظمتها(٢) وذكر أنه تحمَّل المشاق والأهوال فى أسفاره وتعرض للسلب والنهب والقتل، وعمل حمالا وخطيبا ومؤذنا فى المساجد، ونساخا ومجلدا للكتب وتاجرا. وكتاب أحسن التقاسيم للمقدسى عظيم القيمة، يتضمن معلومات على جانب كبير من الأهمية عن البلاد التى زارها فى مصر والحجاز والشام والمشرق الإسلامى.

يبدأ المقدسى بمقدمة طويلة ثم يذكر البحار والأنهار ويذكر الأشخاص واختلافها ثم الخصائص فى الأقاليم والمذاهب والذمة والفقهاء ثم جزيرة العرب وإقليم العراق وإقليم الشام وإقليم مصر والمغرب وبلاد المشرق، أى خراسان وبلاد ما وراء النهر(٣).

وقد اتسع مجال أسفاره ولم يسبقه أحد فى هذا المجال ويبدو من كتابه عمق ملاحظته والدقة العلمية لمعلوماته.

وقسم الإصطخرى العالم الإسلامى إلى عشرين إقليما، كمناطق جغرافية واسعة، ويركز على الربع المعمور وأبعاده عن البحار، وصف جزيرة العرب

---

(١) الزركلى: الأعلام جـ ٥ ص ٣١٢.

(٢) انظر كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى.

(٣) انظر كتاب: أحسن التقاسيم.

وبحر فارس والأندلس وصقلية ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران والهند وأرمينية[1] وأذربيجان وبحر الخزر وبلاد ما وراء النهر، وفى كل قطر يصف المدن والمساحات والحدود والثروة الزراعية والصناعية والنشاط التجارى والعملة وعادات الناس وتقاليدهم[2].

ويتبع ابن حوقل منهج الجغرافيين السابقين له، فقد وصف بلاد الإسلام إقليما إقليما، ووصف بلاد الحجاز ووصف الأندلس والمغرب والشام ومصر ووصف بحر الروم وما فيه من جزر والمدن التى تقع عليه وبلاد السند والهند وأذربيجان وجزر بحر الأرخبيل وآسيا الصغرى، ورسم خريطة لذلك، أوضح فيها الطرق والمسالك والصحارى والأنهار والجبال.

وتطورت الكتابة الجغرافية من وصف المشاهدات، أى عمل معاجم لوصف البلدان على حروف المعجم، وهذا واضح فى كتاب «معجم البلدان» لياقوت (ت٦٢٦هـ)[3].

وياقوت رومى وقع فى أسر المسلمين واشتراه عسكر الحموى فى بغداد ونُسب إليه، واشتغل فى تجارة سيده فى رحلات تجارية كبيرة، ولما أعتقه سيده اشتغل وراقا، ومن المال الذى منحه له سيده، اشتغل فى تجارة الكتب، وطاف فى بلاد الشام والعراق والجزيرة وخراسان ومصر وبلاد ما وراء النهر، وشاهد غزو التتار لبعض البلاد الإسلامية، وفقد ثروته أكثر من مرة ولم يطب له المقام فى دمشق، لأنه ناظر الناس وتكلم عن على بن أبى طالب كلاما غير مستساغ، وساعدته رحلاته الكثيرة فى البلاد الإسلامية إلى الالتقاء بالعديد من شيوخ العلم والاستزادة منهم، ونسخ الكتب العديدة واشتغل ببيعها، واطلع على الكثير من الكتب، واتسعت معارفه.

وعاش فى خوارزم وشاهد غزو المغول، وكتب إلى أحد أصدقائه يصف غزواتهم المدمرة، وله كتابان «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» والأول وصف البلاد وصفا جغرافيا، وفى الثانى كتب عن علماء الإسلام ومؤلفاتهم.

---

(١) زكى حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦.

(٢) زكى حسن: المصدر السابق ص ٣٦٧.

(٣) الزركلى: الأعلام جـ ٦ ص ١١١.

وكتاب مُعجم البلدان حرص المؤلف فيه على الإلمام بأخبار البلدان وعمرانها وأحوالها ومرافقها وعاداتها وأخلاق أهلها، ومن خرج منها من المشاهير، وما فيها من كل مفيد.

وقد ذكر أنه استفاد من مكتبات مدينة مرو، وقال إنها كانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد وأكثر بغير وهن.. واقتبس من فوائدها. وكان لا يود مفارقتها لولا الغزو المغولى، وجمع مادة غزيرة من خزائن مرو ومن الرجال الثقات[1].

ومن كبار المفكرين عبد اللطيف البغدادى ت ٦٢٩هـ، كان عالما فى فروع مختلفة، وله حوالى مائة وخمسون كتابا، منها كتاب «الجامع الكبير فى المنطق» و«أخبار مصرالكبير» وله كتب فى المنطق والرد على الفلاسفة - «المشاهدة والاعتبار فى أخبار مصر» ووصف فى هذا الكتاب أحداثا شهدها بنفسه فى مصر والشام، وكان وقته إما فى القراءة أو التأليف أو المناظرة والمناقشة مع العلماء، وعينه صلاح الدين رئيسا لديوان دمشق، وشيخا فى جامع دمشق يدرس للطلاب، وبعد وفاة صلاح الدين عاد إلى مصر مع الملك العزيز، وقام بالتدريس فى الجامع الأزهر من الصباح حتى بعد صلاة العصر، وبعد وفاة الملك العادل الأيوبى، وانقسام البيت الأيوبى على نفسه، عاد الشيخ إلى بلاد الشام ثم رحل إلى دولة سلاجقة الروم، ونال التقدير والإكرام، ونشر رسالته فى العلم والفكر فى هذه البلاد. ولكنه لم يستمر فيها طويلا، إذ عاد إلى حلب، ومنها إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، وقصد بغداد ليقدم للخليفة المستنصر بعض تصانيفه. ولكن وافاه الأجل هناك.

وعبد اللطيف البغدادى عالم ومفكر نبغ فى فروع مختلفة فى علوم الدين واللغة والطب والنجوم. ومن أقواله «ينبغى أن تحاسب نفسك فى كل ليلة، إذا آويت إلى منامك، وتنظر فيما اكتسبت فى يومك من حسنة فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة، فاستغفر الله منها، لا تأخذ العلوم من الكتب، وعليك بالأساتذة فى كل علم تطلب اكتسابه، وإذا قرأت كتابا، فاحرص كل الحرص على أن تستظهره، وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب فُقد، وأنك مستغن عنه. وإياك أن تشتغل بعلمين فى وقت واحد، وإذا تزودت بعلم لا تظن أنك قد اكتفيت منه بل

(١) كرد على: أعلام الإسلام ص ٣٢٤.

تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص، وإذا عرفت علما بلغة معينة، فاعرفه بلغة أخرى للاستزادة»[1].

ينبغى للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم، فيصير بذلك كأنه فى عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم، ونصح بدراسة عميقة فى السيرة النبوية لأننا نتبع سنته.

ويشيد برجال العلم ويقول: إذا تمكن الرجل من العلم، واشتهر به، خاطبه الناس من كل جانب وعُرضت عليه المناصب[2]، وجاءته الدنيا صاغرة.

والذى يهمنا فى دراستنا عن تقدم الفكر الجغرافى عند المسلمين، الكتاب الذى صنفه عبد اللطيف البغدادى عن مصر وآثارها والنيل واقتصاد مصر وعادات أهلها وتقاليدهم وأهداه للملك العادل الأيوبى، وهو كتاب «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة من أرض مصر»[3].

ينقسم الكتاب إلى مقالتين. كل مقال ينقسم إلى فصول الفصل الأول ملاحظات عامة عن مصر طبيعتها وسكانها، والفصل الثانى عن الحيوان والنبات فى مصر وفوائد كل نبات وتاريخ زراعته فى مصر وقدر إنتاجه وعوامل فنائه. وفى الفصل الرابع يصف آثار مصر الفرعونية والقديمة عموما، وهو بذلك أول العلماء العرب اهتماما بالآثار القديمة، ويستنكر إقدام بعض الناس على تخريب هذه الآثار وسرقتها، أو البحث عما قد يكون فيها من كنوز واتباع الأساطير والأوهام البالية فى هذا الصدد. والفصل الخامس يبحث الأبنية والسفن فى نهر النيل والفصل السادس صنوف الطعام والأكلات المفضلة عند المصريين.

أما المقالة الثانية فقد تحدث البغدادى فى الفصل الأول عن النيل، وهاجم المعتقدات السائدة حول فيضانه ومنابعه، وفى الفصلين الأخيرين وصف البغدادى المجاعة التى حدثت فى مصر (٥٩٧ ـ ٥٩٨ هـ) والتى أرغمت الناس على أكل الميتة ولحوم البشر. وقد دفعته مهنته كطبيب إلى متابعة هذه الجثث الملقاة فى الطرق، وتشريحها، واستنباط بعض المعلومات الطبية.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٥.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٦.

والخلاصة أن كتابه وثيقة ناطقة عن حياة مصر الاجتماعية والاقتصادية فى عهده، وجغرافية البلاد وتاريخها، تأثر باليونان كأرسطو، وعارض ابن سينا؛ لأن أكثرالناس هلكوا بكتب ابن سينا»[١].

ومن الرحالة المغاربة ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير ـ وهو من أسرة عربية عريقة ـ وهو شاعر وأديب وكاتب عند بعض أمراء الأندلس، ثم رغب فى الرحلة، فبدأ بالحج فغادر غرناطة برفقة أحد الأطباء، سنة ٥٧٨ هـ[٢]، وسار بمحاذاة الساحل حتى بلغ الإسكندرية، وتوجه إلى القاهرة وعبر النيل إلى صعيد مصر ثم إلى عيذاب، ومنها عبر البحر الأحمر إلى جدة، وانضم إلى القافلة المتجهة إلى مكة المكرمة ثم أدى الحج، واتجه إلى المدينة، ومنها إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل وسامرا فالموصل وحلب ثم دمشق، وكانت سواحل الشام فى أيدى الصليبيين، ثم عبر البحر إلى صقلية فى رحلة شاقة، كادت السفينة تغرق عدة مرات ثم عاد إلى غرناطة بعد رحلة دامت عامين سنة ٥٨١ هـ[٣].

ولما سمع عن انتصارات صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين فى حطين سنة ٥٨٣ هـ، واسترداد بيت المقدس، قرر العودة إلى الشرق لمشاركة المشارقة سعادتهم فى انتصاراتهم، فرحل رحلته الثانية التى استغرقت عامين (٥٨٥ ـ ٥٨٧ هـ) ولا نعرف الكثير عن تفاصيل رحلته الثانية، ولكننا نعرف أنه قام برحلة ثالثة إلى الشرق وهو فى سن الشيخوخة واستغرقت باقى عمره عشر سنوات متنقلا بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلا بالتدريس والأدب، وتوفى فى الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ[٤].

ورحلة ابن جبير تحتل أهمية خاصة فى الدراسات الجغرافية لأنها على شكل يوميات وصف فيها مشاهداته فى البلاد التى مر بها، واعتمد عليه المقريزى

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ٣٤٦ ، ٣٤٧.

(٢) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٦٠ ، ٦١.

(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء جـ ٢٢ ص ٤٥ ، ٤٦.

(٤) انظر رحلة ابن جبير ـ تحقيق حسين نصار.

والبلوى والمقرى وتلميذه الشربينى، ورحلة ابن جبير تصور حياة هذا العصر وخصوصا فى مصر والشام تحت حكم نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى، حيث الخطر الصليبى القائم فى القدس وسواحل الشام، وتعبئة الجهود لدرء الخطر الصليبى. وتتميز الرحلة بدقة الوصف، يتحدث عن مسلمى جزيرة صقلية وحضارتهم المادية والمعنوية. ويعتبر مصدرا رئيسيا وفريدا فى وصف بلاط النورمان، ومما يدل على دقته فى وصف الأحداث، وصفه لجمارك الإسكندرية والسفينة التى كادت أن تغرق أمام سواحل صقلية. وأسلوبه ممتع.

ومن أعظم الرحالة المسلمين، ابن بطوطة. ولد محمد بن بطوطة فى مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م من أسرة كريمة، تولى أفرادها الكثير من المناصب فى القضاء والتدريس والعلوم الشرعية، دفعته رغبته فى الأسفار والرحلات إلى التجول فى العالم الإسلامى لمدة ثمانية وعشرين عاما، ولما تقدمت به السن استقر به المقام فى مدينة فاس، واتصل بسلطانها أبى العنان المرينى وأعجب السلطان بأحاديث ابن بطوطة الشيقة عن رحلاته فى بلاد الإسلام ومشاهداته والنوادر التى قصها له عن البلدان التى زارها، فطلب السلطان من وزيره، ابن جزّى بأن يدون ذكريات ابن بطوطة فى سائر أسفاره فى كتاب. فكان ابن بطوطة يروى للوزير تفاصيل كثيرة وغرائب ونوادر عن الرحلات، وابن جزى يلخصها ويكتبها، وحقق ما فى الكتاب من أشعار، وضبط أسماء البلدان والمواقع والأماكن من كتب الرحالة السابقين أمثال ابن جبير، وراجع الكتاب، وأتقن أسلوبه، وأخرجه باسم «تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وانتهى من إعداد الكتاب سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م وأنهى الكتاب بعبارة أثنى فيها على ابن بطوطة، وعلى السلطان لرعايته للعلم وأهله، وخاصة رحالة هذا العصر وهذه الرحلة الذى طاف بالدنيا، وصورها أحسن تصوير الشيخ ابن بطوطة.

بدأ ابن بطوطة رحلته بالحج، وهدفه رؤية الدنيا والناس فى رحلته والتنقل والمغامرة والتجربة ومعرفة أحوال العالم الذى يعيش فيه، وترك ركب الحج الذى يضمه، ليمضى بعض الوقت فى استطلاعاته على أحوال البلاد وصفات العباد

وطبيعة البلاد التى يعيش فيها، وتحمل المتاعب الكثيرة فى رحلاته، وكان ينام ويستريح فى الزوايا والأربطة التى انتشرت فى العالم الإسلامى، وكان مهيئا لتحمل مشاق السفر، فكان يعيش على طعام بسيط، يقدم له من أهل الخير والصلاح، وساعده على احتمال حياة السفر والتقشف، قوة صحته ومتانة بنيانه، وقد تعرض لكثير من الأمراض نتيجة لهذه الحياة الصعبة، وتقبله لكل ما يقدم له من طعام، إلا أنه كان يمتلك خبرة بالتداوى من الأمراض، وكان بحوزته دائما أعشاب للعلاج. ونجا من الكثير من حالات التسمم ودوار البحر وأمراض الحمى، لأنه يعرف الداء والدواء، وكان يحب الصوفية والزهاد، ويعتقد فى الكرامات، وكان فى رحلاته يتخلف عن الركب لزيارة الأولياء ويلتمس منهم البركة والدعاء، وكان الصوفية فى ذلك العصر منتشرين فى كل بلاد الإسلام، واعتقد فيهم الناس وفى كراماتهم، وكانوا يرتبطون مع بعضهم البعض بروابط وثيقة. وكان ابن بطوطة إذا نزل على أحدهم، وطلب الرحيل إلى مكان ما يوصى الصوفى زميله فى هذا المكان برعاية ابن بطوطة، وهذا يسر لابن بطوطة سبل الرعاية والإقامة فى البلاد التى يحل بها.

بدأ ابن بطوطة رحلته بعد الانهيار الذى حل ببلاد الإسلام بعد الحروب الصليبية والغزو المغولى، وسقوط دولة الإسلام فى الأندلس. ولكن عادت للمسلمين قوتهم فى فترة رحلات ابن بطوطة فقامت دول إسلامية قوية فى المغرب ودولة المماليك فى مصر والشام والدولة العثمانية والدولة الصفوية والدولة الإيلخانية فى الشام والعراق، ودخل بعض ملوكها المغول فى الإسلام، ودولة بنى تغلق فى الهند.

خرج ابن بطوطة من طنجة إلى تونس، وزار الإسكندرية والقاهرة ورحل إلى صعيد مصر، واتجه إلى جدة ومنها إلى غزة والقدس، ولبس خرقة الصوفية، وزار عكا وصور وتجول فى مدن الشام وزار دمشق، واتجه إلى المدينة المنورة، ومنها إلى مكة، وزار العراق وفارس. وزار بغداد والموصل، وعاد إلى مكة، وزار السودان وأفريقيا وأدى فى جولاته الحج عدة مرات، وزار آسيا الصغرى واليمن وبعض بلاد الخليج، وزار بلاد المغول القفجاق وروسيا وسيبيريا وسافر إلى خوارزم ثم ذهب إلى الهند، ودخل فى خدمة السلطان محمد بن تغلق، ورحل إلى الصين

وبلاد الملايو، وزار بلاد الخزر وعـاد إلى الصين وزار بكين، وعـاد إلى بلاده مارا ببغداد ودمشق والقاهرة وعاد إلى المغرب، وزار غرناطة ومالى ثم عاد إلى طنجة.

أقـام ابن بطوطة فى بلاد الهند ثمـانى سنوات، ووصف فى كـتـابه «تحفـة الأنظار» بلاد الهند جغـرافيا وسـياسيا واجـتماعـيا واقتصـاديا، ووصف العادات والتقاليـد والمرأة والنظام الطبقى. واشتغل بالقضـاء والتدريس، ونال تقدير سلطان الهند محمد بن تغلق(١). ويعتبر وصـفه لدولة الإسلام فى الهند «دولة ابن تفلق» من أهم مصـادرنا عن الحيـاة الإسلاميـة فى الهند اجتـماعيـا واقتصـاديا وثقافـيا وسياسيا.

ومن الجغرافـيين والرحالة الكبـار الحسن الوزان أو ليون الإفريقى، ومـسيرة حياته تختلف تماما عن سابقيه، كما أن رحلته اختلفت فى اتجاهها وأسلوبها، وقد نشأ فى غـرناطة قبل سقـوطها سنة ١٤٩٢م، وانتقل مع أهله إلى مـراكش، شأنه شأن الأسـرالتى هاجرت إلى المغـرب بعد سـقوط غـرناطة، ونال حظا كبـيرا من التعليم، وتقلد بعض المناصب الرئيسية، واشتغل سفيرا فى جنوب مراكش لصالح الأسرة الحاكمة فى فـاس وهى أسرة بنى وطاس ـ وهى فرع من فروع بنى مرين ـ وحكم هذه الأسرة يعتـبر فترة انتقـال بين العصور الوسطى والعصـور الحديثة فى المغرب الأقـصى، والمعروف أن هذه الأسرة شـجعت على ازدهار الحيـاة الثقافـية ويرجع الفضل إلى ليـون الإفريقى ـ الحسن الوزان ـ فى وصف مدينة فـاس وحياة أهلها فى مـدونته الكبيرة عـن أسفاره، وزار أفريقـيا ومصر وبلاد العـرب والشام وإيران وأرمينيا ومنطقة تبريز. والجديـر بالذكر أن الحسن الوزان كان فى مصر سنة ١٥١٧، أى فى سنة غزو السلطان سليم الأول لمصر، ودخول مصر والشام وبعض الدول العربية فى حوزة الدولة العثمانية التى ارتفع شأنها، وعظمت قوتها ومكانتها فى العالم، لذلك زار الوزان استنبول التى اجتذبت أنظار العالم، وأقبل عليها كبار رجال العالم الإسلامى(٢).

وقـرر الوزان العودة إلى بلاده ١٥٢٠م، ولكن بـعض القراصنة من جـزيرة صقليـة أسروه، وسلمـوه إلى البابا ليون العـاشر، واضطر تحت ضـغط البابا إلى

---

(١) عصام الدين الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى ص ٢٩٤.
(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

اعتناق المسيحية. وحمل اسمه، فكان هذا البابا مولعا بشئون الشرق، ويراقب قوة الدولة العثمانية الصاعدة. وسمح هذا البابا لليون الأفريقى بأن يدرِّس اللغة العربية وعلوم الشرق فى روما وبولونيا[1].

وفى هذه الحياة الجديدة، ترجم كتابه «أفريقيا» من العربية إلى الإيطالية، ووضع معجما عربيا لاتينيا عبريا، كما وضع كتابا باللاتينية عن مشاهير الإسلام فى الفلسفة والطب ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لأوربا، لأنه يعتبر من أهم وأقدم المصادر عن تاريخ العلوم، ولم يلبث الوزان أن ضاق ذرعا بمعيشته فى أوربا فى ظل هذا الوضع الذى غيَّر فيه دينه، وابتعد عن وطنه فى جو كان أشبه فيه بالأسير المسترق، والبيئة تختلف تماما عن بيئته ووطنه، وعاد إلى أفريقيا سنة ١٥٢٨، وعاد إلى دينه، واستظل بنوره، وتخلص من عقيدته المسيحية المفروضة عليه فرضا، وتوفى فى تونس فى عصر دولة بنى حفص سنة ١٥٥٢م.

وأهم ما يعنينا من رحلة الوزان هو كتابه عن «أفريقيا» وصف فيه الحيوان والإنسان والنبات والمعادن. والملاحظ أنه تجول فى أفريقيا، وشاهدها بلدا بلدا، ودوَّن ما شاهده بنفسه وإذا تعذر عليه شىء، سأل عنه أهل الثقة ممن شاهد هذه المواضع، وجمع أوراقه وصنفها على شكل كتاب فى روما سنة ١٥٢٦[2].

كتب فى كتابه عن سكان أفريقيا من البدو والحضر ووصف مراكش وجبالها ومدنها، ووصف مدن فاس وتلمسان وبجاية وتونس وطرابلس ووصف السودان ومصر، وأفرد فصلا للحيوان والأنهار والأسماك والطيور والمعادن والنباتات، ويذكر صاحب كتاب تاريخ الأدب الجغرافى أن هذا الكتاب هو البحث الوحيد فى جغرافية مراكش المتميز بالأصالة والترتيب الذى ظهر فى أوربا فى القرن السادس عشر. ويتضمن معلومات دقيقة لبعض المواضع الجغرافية[3].

إذن الرحالة المسلمون علماء فى علوم الدين والأدب وبعض العلوم الأخرى، وعندهم المقدرة على تحمل الأسفار وما بها من مشاق وأخطار، والإقامة فى أى مكان، والتغلب على ما قد يقاسونه من جوع وأمراض، وعندهم المقدرة

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ٤٥١.

(٢) المصدر السابق ٤٥٢ ، ٤٥٣.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ٤٥٣.

على وصف مظاهر الطبيعة من الجبال والأنهار والهضاب والوديان ومواقع المدن والقرى، والمسافات بين البلاد، ووصف الحيوانات والنباتات والمعادن والصناعات والزراعات فى البلاد التى مروا بها، هذا فضلا عن المقدرة على وصف الإنسان من حيث العادات والتقاليد وأحوال المجتمع، ووصف مرافق المدن، وحركة الحياة عليها، وهؤلاء الرحالة عندهم المقدرة على التكيف مع المجتمعات المختلفة، وعندهم المقدرة على الوصول إلى الحكام، ووصف الحياة السياسية فى البلاد التى يمرون بها.

وكتب التاريخ الإسلامى كل كتاباتها عن التاريخ السياسى وكأن حركة التاريخ على الأرض من صنع هؤلاء الحكام. ولكن حركة التاريخ هى تفاعل الإنسان مع الزمان مع الأرض، والإنسان الذى يمارس كل نشاطات الحياة هو صانع التاريخ، وصانع الحركة البشرية على هذه الأرض، فالزارع والجندى والصانع والمهنى والحرفى والأديب والعالم والمفكر كل هؤلاء يشكلون مجتمعا هو صانع حركة التاريخ على الأرض التى يعيشون فيها. وفى الزمان الذى يحيون فيه. كل هذه الصور، صورة الحياة على الأرض، بل والأرض نفسها لانعلمها فى تاريخنا الإسلامى إلا من الرحالة، ومن هنا كانت كتب الرحالة من أهم مصادرنا فى التاريخ الحضارى، وقد يقول قائل بأن الرحالة إذا وصف مدينة فإنه يبالغ فى ذكر محاسنها حتى تُفتح أمامه أبواب هذه المدينة مرة أخرى، لذلك فى قراءتنا لهذه الرحلات يجب أن نقرأ بحذر شديد، ونكشف بعض ما قد يكون فى هذه الكتب من مبالغات.

وننتقل الآن إلى جهود المسلمين فى علم الجغرافيا والبحث الجغرافى. وقد بدأ اهتمام المسلمين فى هذا المجال فى عصر مبكر من تاريخ الإسلام، و فى عهد الخليفة المأمون جمع علماء عصره، وأمرهم بوضع خريطة للعالم، فوضعوا له خريطة دقيقة كانت أفضل مما تقدمها من دراسات فى جغرافية العالم على عهد بطليموس وغيره من علماء اليونان ولقد سُميت بالمأمونية. كذلك أمر المأمون سبعين رجلا من علماء الجغرافيا بوضع كتاب فى الجغرافيا، فصنفوا كتابا أفاد منه

ولاة الأقاليم فى الدولة العباسية، إذ كان أشبه بدليل أرشدهم إلى مختلف البلاد والأمم(١).

ومن الأبحاث الجغرافية التى أنجزت فى عهد المأمون قياس محيط الأرض، وقد قام به علماء بغداد، وقدروه بنحو أربعة وعشرين ألف ميل، وقد اختاروا لإجراء تجاربهم مكانين منبسطين فى صحراء سنجار قرب الموصل وأرض الكوفة، ونصبوا الآلات، وقاسوا الارتفاعات والميل والأفق، واستخلصوا أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها $\frac{٢}{٣}$ ٦٦ ميل، وقياس العرب هذا هو أول قياس حقيقى رغم مشقته البالغة، توصل العلماء من خلاله إلى أن الأرض كروية(٢).

وتضمنت مناظرات الخليفة الواثق مناقشات جغرافية هامة، تضمنت نظريات خاصة بالرياح وأنواعها واتجاهاتها، والحرارة والبرودة، وتأثرهما بالتضاريس من حيث الارتفاع والانخفاض والقرب أو البعد من البحر، وفصول السنة.

والرحالة المسلمون الذين تحدثنا عنهم رسموا خرائط للبلاد التى مروا بها، وإن كانت هذه الخرائط بدائية، وغير صحيحة تماما، ولكن الإدريسى رسم أول خريطة للعالم، أقرب ما تكون إلى الحقيقة، ولقى تشجيعا كبيرا من حكام النورمان بعد أن ألف كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وأهداه إلى ملك صقلية - روجر الثانى - ووضع نموذجا للأرض على شكل كرة من الفضة، ونجح الجغرافيون المسلمون فى تقسيم الأرض إلى أقاليم حسب خطوط الطول والعرض. ووصفوا المجتمعات الإسلامية، ومصادر الثروة المعدنية من باطن الأرض، ووصف ابن سينا أسباب الزلازل. ورسم الإدريسى خريطة النيل من منابعه الأصلية المعروفة الآن.

وتوصل الرحالة المسلمون إلى حقيقة كروية الأرض مثل ابن خرداذبة وابن رسته والمسعودى، وقد عبر عن الأرض بأنها الكرة، وأثبت كرويتها من دورانها حول الشمس، فالشمس تشرق من المشرق، ويعم الضوء نصف الكرة الشمالى. ويعم الظلام نصف الكرة الجنوبى، وهى تغرب من الغرب، حيث

---

(١) أنتونى ناتنج: العرب ص ١٧٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٤٧.

يشمل ضوؤها نصف الكرة الجنوبى، ويظلم النصف الشمالى، أى أن نصف الكرة الشمالى يكون نهارا فى حين نصف الكرة الجنوبى يكون ليلا وبالعكس.

والمسلمون وصلوا إلى العالم الجديد قبل كولمبس. وهذا واضح من رحلة الأخوة المغرَّبين الذين أبحروا من لشبونة فى المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) وهم ثمانية رجال أولاد عم، اجتازوا فى رحلة شاقة أكثر من عشرة أيام بحرا غليظ الموج، قليل الضوء حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم، وكلها غنم بلا راع يرعاها، ومنها وصلوا إلى جزيرة بها زراع يزرعون الأرض، وبعد أيام طويلة ومغامرات وصلوا إلى جزر يرجح أنها الجزر الغربية من الشواطئ الأمريكية فى إقليم أمريكا الوسطى. ووصف العلماء المسلمون أسباب تكون الجبال، ووصفوا خصائص البلدان، ووصفوا أقاليم الأرض، ودرسوا خصائص الأجناس والشعوب(١).

تقدم المسلمين فى فن الملاحة

يرتبط بتقدم المسلمين فى فن الملاحة وعلوم البحار، الملاح الكبير ابن ماجد صاحب كتاب «الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد» وهو شهاب الدين أحمد ابن ماجد السعدى النجدى، نسبة إلى إقليم نجد، ويكنى بالمعلم الأول وأسد البحر، وليث الليوث، وهو رابع ثلاثة من رجال البحر المهرة، وهم محمد بن شاذان وسهل بن أبان وليث بن كهلان.

يذكر ابن ماجد فى كتابه البحارة منذ فجر الإسلام حتى يومه. وينحدر ابن ماجد من أسرة كلها من البحارة، وكان أبوه ربانا ويلقب ربان البحرين، أى بحرالعرب وبحر العجم، ودون أبوه تجاربه البحرية فى مجلد ضخم، وأسماه الأرجوزة الحجازية(٢)، وتتضمن أكثر من ألف بيت.

ويذكر ابن ماجد سبب تأليفه لكتاب «الفوائد» ويقول: ألفته لركاب البحر ورؤسائه، وصحح الكتاب الذى سبق كتابه وهو «حاوية الاختصار فى أصول البحار»، وحرص فى هذا الكتاب على توضيح خبرته ودراساته عن فن الملاحة حتى ينتفع به من سيأتى بعده قبل أن تدركه المنية، ويشتمل الكتاب على فوائد كثيرة غوامض وظواهر.

(١) سعيد عاشور: الحضارة الإسلامية ص ٨٠، ٨١.
(٢) أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح ص ١٢، ١٣.

ينحصر نشاط ابن ماجد الملاحى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى، ويغلب على الظن أنه توفى بعد سنة (٩٠٠هـ) بسنوات قليلة، وتولى ابن ماجد قيادة المركب منذ صباه، وكان على علم بمطالع النجوم الملاحية ومغاربها وسنه نحو سبعة وعشرين عاما، ودرس علوم الحساب العربى والهندى والزنجى وحساب أهل جاوة والصين[١].

وينصح ابن ماجد ربابنة البحار بتقوى الله ويقول: «وينبغى أنك إذا ركبت البحر تلتزم الطهارة، فإنك فى السفينة ضيف من أضياف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره» وأوضح فى كتابه أدوات الملاحة وآلاتها التى كانت مستعملة فى عصره، وذكر مصطلحات وكلمات ملاحية من الصعب فهمها. ويذكر أنور عبد العليم أن ابن ماجد كان ملما بلغات كثيرة مثل اللغة السنسكريتية ولغة جاوة ولغة الهند ولغة فارس؛ لأنه خالط الشعوب التى تتكلم هذه اللغات، وضمن كتابه الفوائد المصطلحات الملاحية لهذه الشعوب[٢].

ويعتد ابن ماجد بنفسه، وهذا واضح فى كل صفحات كتابه، ويذكر أنه رابع الليوث من ربابنة البحار، ويذكر أنه تفوق عليهم ويقول مفاخرا بنفسه:

«وألقوا سلاح الجهل لما تحققوا مقالى فى عرب وعجم وديلم»[٣].

يرجع الفضل إلى ابن ماجد فى قيادته لسفينة الملاح فاسكو دى جاما فى ثغر ماليندى فى كينيا الحالية. وكان الساحل الأفريقى فى ذلك العصر عبارة عن ممالك صغيرة يحكمها عرب من اليمن وحضرموت، وتفوق أهل عمان وسيراف فى فنون الملاحة، واستعملوا الإسطرلاب وآلات فلكية دقيقة لرصد حركات الكواكب والنجوم، وتوصلوا إلى استحالة قياس حركات النجوم من على المركب؛ نظرا لحركة الأمواج والرياح، واستخدموا مواقع النجوم للتعرف على الجهات الأصلية.

وفى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى تعرف العرب على البوصلة البحرية من الصين، وهذا واضح من قول أحد الربابنة: «عندما يكون الجو صحوا، فإن الاتجاه

---

(١) انظر كتاب الفوائد فى علوم البحر والقواعد.

(٢) أنور عبد العليم: ابن ماجد ص ١٩.

(٣) أنور عبد العليم: ابن ماجد ص ٢١.

بالنظر إلى النجوم ليلا أو إلى الشمس نهارا، ولكن عندما يغيم الجو يستعين الربابنة بالإبرة التى تشير إلى الجنوب، وفى عرض البحر لا يسقط المطر، وعندما تمطر السماء تكون الأرض قريبة». ويذكر المقريزى أن الملاحين فى بحر الهند كانوا يستدلون على الجهات الأصلية عندما لا يرون النجوم ليلا بهذه الطريقة. وللإشارة إلى القطب الجنوبى دلالة خاصة بالنسبة للملاحة فى المحيط الجنوبى(١) ونقل الأوروبيون البوصلة عن العرب، وتقدم المسلمون فى علم الميقات، واستعملوا المزوله، وذلك لمعرفة أوقات الصلاة، وعرفوا خطوط الطول وتحديد الاتجاه.

ينحدر ابن ماجد من أسرة عمانية اشتغل أفرادها بقيادة السفن فالجد والأب كانا معلمين، وكان أبوه يلقب بربان البرين، أى ساحل البحر الأحمر والبحر العربى، ودون الأب تجاربه الملاحية فى أرجوزة ضخمة تسمى «الأرجوزة الحجازية» التى كانت تضم أكثر من ألفى بيت فى وصف الملاحة على ساحل البحر الأحمر، واستطاع الابن أن يصحح بعض معلومات أبيه، ويضيف تجاربه الشخصية إلى معلومات أبيه.

وأفضل أفراد هذه الأسرة أحمد بن ماجد «ناظم القبلتين» مكة وبيت المقدس، وحاج الحرمين الشريفين، وأسد البحر الزخار وخلف الليوث و «المعلم العربى» رابع الثلاثة رابع الليوث، والحقيقة أن مؤلفاته تستحق منه أن يفخر بنفسه»(٢).

وخلف ابن ماجد مصنفات شعرية كثيرة، غير أن واحدا من مصنفاته كُتب نثرا، ويحمل عنوان «الفوائد فى البحر والقواعد»(٣) وفيه يفصل الكلام على الجانبين العلمى والنظرى والمسائل الملاحية معتمدا على من سبقوه فى هذا المضمار، وعلى تجاربه الشخصية. وميدان هذا الكتاب الرئيسى هو البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندى وأرخبيل الملايو.

والفائدة الأولى من الكتاب يتحدث فيها عن نشأة الملاحة، ويقص بعض الحكايات التى تشبه الأساطير، ويتحدث عن الإبرة الممغنطة. أما الفائدة الثانية ففيما يجب معرفته عن الشئون البحرية «للمعلم» الأصيل، هذا بينما تعرف الفائدة

---

(١) أنور عبد العليم: ابن ماجد ص ٣٩.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى جـ ٢.

(٣) كتاب«الفوائد فى البحر والقواعد»لابن ماجد.

الثالثة بمنازل القمر، والرابعة بمنازل وردة الرياح الاثنين والثلاثين التى تظهر على البوصلة وتسمى بالأخنان ومفردها خن. ومازال ملاحو البحر الأحمر يتبعون نفس التقسيم. وترتبط الرابعة أيضا بطلوع ومغيب نجوم معينة، وتبينها هذه الأخنان(١).

وأما الفائدة الخامسة فتعالج الكلام على الجغرافيين والفلكيين الأول، بينما تخص السادسة الكلام فى الطرق البحرية، والسابعة فى الأرصاد الفلكية، وكانت هذه تتم فى الغالب عن طريق قياس المسافات بين النجم القطبى واثنين من نجوم الدب الأصغر ومن نجوم الدب الأكبر، وهى نفس النجوم التى يهتدى بها ملاحو البحر الأحمر فى يومنا هذا، وكان الإسطرلاب الذى يستعمله ابن ماجد يقاس بالأصابع وليس بالدرجات والأصبع يساوى درجة وسبعا وثلاثين دقيقة.

أما القسم الباقى من كتاب الفوائد فيغلب عليه الجانب العملى التطبيقى. الفائدة الثامنة توضح العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس، والتاسعة تعالج الكلام على السواحل ابتداء من رأس الحد فى الجزيرة العربية. والعاشرة فى الجزر الكبار المعمورات، وهى جزيرة العرب وجزر القمر، وهى سومطرة وجاوة ومدغشقر وفورموزا وسيلان وزنجبار والبحرين وجزيرة ابن جاوان وسقطرة. والفائدة الحادية عشرة توضح المواسم والسفر فى البحر، وفى الفائدة الأخيرة وهى الثانية عشرة يتكلم فيها عن صفة البحر الأحمر وشعابه(٢).

ونظم ابن ماجد دراساته البحرية فى أرجوزات شعرية، تعالج كل واحدة منها الكلام على طريق بحرى معين، وهى مرشدات بحرية، وأهمها أرجوزته الكبرى التى تقع فى ألف بيت «حاوية الاختصار فى أصول علم البحار» وهى تعالج مسائل متفرقة(٣) تتعلق بالملاحة وتوضح مصطلحات فنية خاصة. ولا يقلل ابن ماجد من أهمية دراسات من سبقوه فى عالم البحار ويقول: «لقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا: أنا رابع ثلاثة، وربما فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تقيم فى البلاغة والصحة والفائدة

---

(١) المصد السابق ص ٥٧٤.

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٥.

(٣) ابن ماجد: الفوائد.

والهداية والدلالة بأكثر ما صنفوه، وهم مؤلفون لا مجربون ولم أعلم لهم رابع غيرى وقد وقرتهم بقولى إنى رابعهم»[1].

وابن ماجد أول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة، ووصفه للبحر الأحمر عظيم القيمة، ومعلوماته عن الرياح الموسمية والمحلية وطرق الملاحة الساحلية والبعيدة المدى تتميز بالدقة.

عرف العرب الخرائط والإسطرلاب وهى آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم، ولم يُصنع أفضل مما صنعه العرب.

وجد البرتغاليون صعوبات كثيرة فى الوصول إلى الهند، استمرت عدة سنين، واستعانوا بابن ماجد. ونصحهم بعدم الاقتراب من الساحل الشرقى لأفريقيا، والتوغل فى البحر حتى لا تنالهم الأمواج، ووصلوا إلى الهند بقيادة فاسكو دى جاما بتوجيه من ابن ماجد، وقاد ابن ماجد سفينتهم الضخمة، واستمد البرتغاليون من ابن ماجد معلومات قيمة عن الآلات الملاحية العربية التى هى أفضل من آلاتهم، وتناسب المحيط الهندى، ووجههم إلى ضرورة معرفة الرياح الموسمية وأوقاتها واتجاهاتها، وكانوا يجهلونها تماما، وأمد ابن ماجد فاسكو دى جاما بخريطة كاملة للشواطئ الهندية. وهى خريطة واضحة عليها خطوط الطول والعرض، وكان بحوزة ابن ماجد خريطة عن الهند، ولاحظ البرتغاليون أن البحارة العرب يمرون على هدى النجوم الشمالية والجنوبية، ونجوم خاصة تُعرض فى وسط السماء، وتجرى من الشرق إلى الغرب. وتعلموا من ابن ماجد قياس ارتفاع الشمس، ومما لا شك فيه أن ابن ماجد قدم هذه المعلومات بإخلاص للبرتغاليين دون أن يدرى عواقب هذا العمل الذى سيسبب كارثة بالعالم الإسلامى اقتصادية وسياسية بسبب مطامع البرتغاليين الاستعمارية، وكان ابن ماجد على علم برحلات البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح، ومحاولاتهم الوصول إلى الهند.

ندم ابن ماجد على تقديمه هذه المعلومات إلى البرتغاليين التى أدت إلى كوارث فى العالم الإسلامى، وفى مصر وسورية وموانئ البحر الأحمر

(١) تاريخ الأدب الجغرافى جـ ٢ ص ٢٥١.

والبلاد التى تقع عليه وفى الهند. واكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧، وفى سنة ١٤٩٧م أبحر دى جاما إلى الهند ودار حول الرأس إلى شرق أفريقيا، ووصل إقليم ناتال فى عيد الميلاد، وسُميت بهذا الاسم الذى يعنى عيد الميلاد. ووصل إلى مالیندى فى كينيا، وأمده ملكها بالمرشد العربى ابن ماجد، وأبحر منها إلى قاليقوط[١].

واستخدم ابن ماجد البوصلة البحرية. وبذلك تطور فن الملاحة فى المحيط الهندى بفضل الأدوات التى استخدمها ابن ماجد فى قياسات النجوم والمراحل والدوائر الملاحية واتجاهات الرياح. ومعرفة خصائص الأمواج من ارتفاع أو انخفاض. وهذه الأدوات الملاحية المتقدمة نقلها البرتغاليون من ابن ماجد إلى أوربا[٢].

ويرشد ابن ماجد البحارة بالعلم التام بفنون الملاحة واستخدام آلاتها والمحافظة عليها وصيانتها. وعدم تحميل السفينة أكثر مما تتحمل، وضرورة معاينة المكان المخصص للإبرة المغناطيسية. وقائد السفينة آخر من يغادرها. وهذه التقاليد الملاحية مازال معمولا فى العالم حتى يومنا هذا، وحدد المياه الإقليمية بأربعة أميال عن الساحل وفوق البصر[٣].

والملاحظ أن ابن ماجد بعد أن أمد فاسكو دى جاما بالخرائط والآلات الملاحية، وقاد السفينة إلى الهند، اختفى اسمه ونشاطه فى البحار، مما يدل على أن البرتغاليين بعد أن حصلوا على كل المعلومات المفيدة من ابن ماجد، غدروا به وتخلصوا منه.

واعترفت حكومة البرتغال أخيرا بفضل ابن ماجد على فاسكو دى جاما فى فن الملاحة، وإرشاده فى الوصول إلى الهند، فخلدت ذكراه بإقامة نصب تذكارى له.

---

(١) الندوة العلمية لإحياء التراث العلمى
طارق نافع الحمدانى: ابن ماجد وإرشاد البرتغاليين إلى الهند.
(٢) Legacy of Islam. p. 96.
(٣) أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عن العرب ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

علم الكلام

ومن العلوم التى ازدهرت فى الدولة الإسلامية، علم الكلام وهو يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة والمنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وأساس هذه العقائد الإيمانية يكمن فى التوحيد، ويقدم فى برهان عقلى[١].

وكان أهل الحديث يرون أن مناقشات المتكلمين وآرائهم بدعة؛ لأن الإيمان عندهم هو الطاعة. وقد غالى خصوم المتكلمين؛ ورموهم بالإلحاد والزندقة، وقالوا: علماء الكلام زنادقة[٢]. والحق أن مناقشات المتكلمين أنعشت الحياة الثقافية عند المسلمين ولكن ظهرت مشكلة أثارت جدلا كبيرا بين المتكلمين وأهل الحديث، وهى مسألة القول بخلق القرآن. هل هومخلوق أو قديم؟ ولذلك كانت مهمة المتكلم هو الرد على أهل البدع والضلالات، ودونوا الأدلة العقلية دفاعا عن الدين[٣].

لاقى المتكلمون ـ وقوامهم المعتزلة ـ معارضة شديدة من المسئولين فى الدولة الإسلامية، لأنهم آمنوا بسلطان العقل وتحكيمه فى كل الأمور. وقد استخدموا ما توصلوا إليه من تقدم علمى ـ وخصوصا فى الفلسفة والمنطق ـ فى آرائهم الدينية وهاجموا أهل السنة بشدة وضراوة، وأثاروا قضايا كثيرة فى الإلّهيات والطبيعيات والسياسات، وكان لهم مقدرة كبيرة على الجدال والإقناع والحوار[٤].

أضعف من شأن المتكلمين فى العصر العباسى الأول معارضه الخلفاء العباسيين للاعتزال والمعتزلة، فكان عمرو بن عبيد من أبرز المعتزلة فى عهد المنصور وكان يتجنب المنصور حتى لا يتعرض لبطشه[٥].

كذلك كره الرشيد المعتزلة، فلما أدرك أن الشاعر العتابى من المعتزلة، عظم عليه ذلك وأنكره.

على أن المعتزلة ارتفع شأنهم وانتعشوا فى عهد المأمون، لأنه أيد المعتزلة، واعتنق مبادئها، وسار المعتصم على نهجه، كما أن الواثق كان يؤمن بآراء المعتزلة.

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ١٣٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨.

(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٨٩ ـ ٩٧.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٣٧.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٩٠.

وكان بشر بن المعتمر مؤسس الاعتزال فى الدولة العباسية، يتوارى عن أنظار الرشيد، لأنه اعتزم قتله، وقد تتلمذ على يديه كثيرون مثل أبو موسى المردار، وشماسة ابن الأشرس، وأحمد بن أبى دؤاد، ولهم صلات قوية بالمأمون(١).

أما أبو موسى فيرجع إليه الفضل فى انتشار الاعتزال فى الدولة العباسية، كما كان ورعا زاهدا فصيح اللسان قوى البيان واعظا، وقصاصا موفقا، وله تلميذان ساهما بنصيب كبير فى نشر آراء المعتزلة، يقال لهما الجعفران، وهما جعفر بن مبشر، وجعفر بن حرب، سارا سيرة أستاذهما فى الورع والزهد والتقوى، لذلك كثر أنصار هؤلاء العلماء الثلاثة الذين آمنوا بآرائهم، وعزز هذا الإيمان حسن سيرتهم(٢).

ومن أشهر المتكلمين فى دولة الإسلام، أبو هذيل العلاف الذى يرجع إليه الفضل فى إدخال الفلسفة على مبادئ المتكلمين، وكان واسع الاطلاع، فصيح القول، قوى البيان، يستشهد بالشعر العربى فى مناظراته، درس الفلسفة اليونانية، واستفاد منها فى مناقشاته وإبداء آرائه، وقد جادل الزنادقة والمجوس وضعاف العقيدة. وبلغ من قوة إقناعه وتأثيره أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل(٣).

كما أن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى، كان من الفضلاء فى عصره، وله عدة كتب فى علم الكلام تزيد على المائة، وانفرد بآراء نقلها عن علماء الكلام فى كتبهم(٤).

وكان النظام واسع الأفق، متعدد الثقافات، قوى الحجة، مقنعا، قوى التأثير، تتلمذ على يد أبى الهذيل العلاف، لعب دورا كبيرا فى مناهضة البدع والخرافات التى تفشت بين المسلمين، واتبع الأسلوب العلمى فى إثبات صحة آرائه، ودافع عن الإسلام بالمنطق والبرهان القاطع، وأظهر للملحدين والخارجين على الدين خطأ اتجاهاتهم بالأدلة المقنعة التى يقبلها العقل والمنطق.

والنظام أستاذ الجاحظ، وقد شابه الجاحظ أستاذه فى الاعتماد على العقل، وفى سعة الاطلاع والحرص على التزود بالثقافة ودراسة الفكر اليونانى.

---

(١) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ ٧ ص ١٧٧.
(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٥٧.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٨.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية.

ومن المتكلمين فى بغداد شماسة بن الأبرش إمام أهل الفكر الحر - وفلسفة شماسة تقول بأن الله فعل العالم بطباعه، أى أوجد العالم بذاته لا بإرادته. ويقول: إن كل معارفنا ضرورة لا شأن للصدفة فيها - ومن لا يضطر إلى معرفة الله عن إقناع ومنطق لم يكن مأمورا بالمعرفة، وفى هذا وذاك لبس وغموض يجب أن يزول، أى أن من لا يعرف الله معرفة ضرورية ليس عليه أمر ولا نهى. أى لا يكون مكلفا بل مخلوقا للسخرة، ويكون بهذا الجهل معذورا لا يستحق ثوابا ولا عقابا[١].

والجاحظ كشيخه أبى إسحاق إبراهيم بن سيار النظام من أوائل المعتزلة، الذين درسوا فلسفة اليونان، وكان يستشهد فى أحكامه بالتاريخ وتجاربه، ولا يرضى عن الأحكام القائمة لمجرد النظر[٢].

وكان الجاحظ عالما بالطبيعة والإنسان، وكتابه الحيوان وثيق الصلة بالكلام؛ لأن المؤلف سعى إلى إظهار وحدة الطبيعة، وإلى أن الأجزاء المكونة لها متساوية القيمة فى نظر الرائى[٣].

إذن علماء الكلام من رجال الفكر الإسلامى الذين أثروا الحياة الفكرية الإسلامية، فطهروا الدين من المعتقدات الضالة المضللة التى تشوه الدين، وعرضوه فى أسلوب نقى ممتع لأعداء الدين والمتشككين فى العقيدة[٤].

استهل الخليفة المأمون فى بلاطه عصرا من النقاش المستنير، لم يسمع به من قبل؛ ذلك أن المأمون كان ليبراليا فى الفكر، كريم الأخلاق، وكان يحب مناقشة المسائل الخلافية فى الدين مع العلماء والفقهاء من جميع المدارس الفكرية واعتقد بخلق القرآن، أى أن القرآن نزل على رسوله بحسب الحوادث، وآمن بآراء المعتزلة التى تقول بأن الإنسان وهب إرادة حرة، وأن حياته ليست مقدرة من قبل[٥].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٣.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) أنتونى ناتنج: العرب ص ١٢٢.

حمل المأمون الناس على القول بخلق القرآن[1]، وناهض القائلين بأن القرآن قديم قدم الله تعالى، وفى سنة ٢١٨هـ أمر المأمون عماله بحمل الناس على القول بخلق القرآن وكتب إليهم: «إن من حق الله سبحانه وتعالى وأئمة المسلمين على خلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم، ومواريث النبوة التى أورثهم، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة... ساروا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أُنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أو لم يخلقه الله، ويحدثه ويخترعه، ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة فاستطالوا بذلك على الناس، وعزوا به الجهال، فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكثيفهم عما يعتقدون فى خلق الله والقرآن وأحداثه»[2].

وعلى الرغم من تشدد المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن، فإن بعض العلماء رفضوا رأى الخليفة. وأصروا على أن القرآن قديم، وتعرضوا للأذى بسبب إصرارهم، وأوصى المأمون قبل وفاته، المعتصم بحمل الناس على القول بخلق القرآن، فلما ولى المعتصم الخلافة سار سيرة المأمون فى حمل الناس على عقيدته، على الرغم من ضآلة ثقافته، وإغفاله مجالس المناظرة، ومجالس العلماء[3].

اشتد المعتصم على الرافضين للقول بخلق القرآن عزلهم من وظائفهم، وزج بهم فى السجون، ومن الذين اشتد فى عقابهم، أحمد بن حنبل، فعلى الرغم من أنه تعرض للضرب المؤلم والتعذيب إلا أنه أصر على امتناعه ورفض أن يستجيب لمطلب بعض الذين أشفقوا عليه بأن يقول بخلق القرآن تقية وقال: إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟ وأصر الرجل على امتناعه، حتى أعجب خصومه بقوة عقيدته، وكان أحمد بن حنبل يقول بأن القرآن قديم وليس كمثله شىء ولا يقول بخلق القرآن لأن الله لم يقله ورسوله لم يدع إليه[4].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٢.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨هـ.

(٣) المصدر السابق حوادث سنة ٢٢٧هـ.

(٤) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٢٦٦.

وعلى الرغم من أن الذين عارضوا القول بخلق القرآن تعرضوا للقتل بأمر من المعتصم، إلا أن هذا الخليفة لم يعاقب ابن حنبل بمثل ما عاقب به غيره، لأنه خشى أن يحدث البطش به فتنة من مريديه وتلاميذه وخصوصا بعد أن أعجبوا بصلابته وقوة إيمانه وعقيدته القوية(١).

كما أن المعتصم نفسه أعجب بشجاعته وثباته على ما يعتقد أنه الحق، واكتفى بضربه، ثم أمر بالإفراج عنه؛ وذلك لأن المعتصم عقد مجلسا لمناظرة الإمام أحمد بن حنبل، أظهر فيها ابن حنبل رأيه وقال: القرآن من علم الله. ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله، وكان صوته يعلو على صوت مناظريه، وتغلب حججه حججهم، وفى أثناء هذه المناظرة التى عقدها الخليفة، كان الخليفة يتلطف مع الإمام أحمد، ويعرض العروض السخية على الإمام أحمد مقابل التنازل عن رأيه، ولكن أحمد تمسك بعقيدته، واحتج على مناظريه بقوله تعالى: ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا**﴾(٢) ويقول الله تعالى: ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾(٣) ولما لم يقم لهم معه حجة طلبوا من الخليفة عقابه، وأمر المعتصم بضربه بالسوط، وأعاده إلى بيته، وكان المعتصم يرسل له طبيبا لمعالجته، ويرسل من يطمئنه على صحته حتى عُوفى من آلام الضرب والتعذيب(٤).

بلغ من اهتمام المعتصم بحمل الناس على القول بخلق القرآن أن أمر عماله بتعليم الصبيان ما ذهب إليه.

ظل المسلمون يحملون على القول بخلق القرآن حتى ولى المتوكل الخلافة، وعارض مذهب المعتزلة، وأمر بوقف الكلام والمناقشات فى موضوع خلق القرآن، وفى آراء المعتزلة وأقوالهم أيضا. وبذلك انتهى ما سُمى بمحنة القرآن(٥).

وهذه القضية الجدلية التى أثارها المعتزلة، لو بُحثت بحثا دقيقا، لوجدنا أن آراء المعتزلة فى هذا الموضوع صحيحة تماما؛ لأن القرآن نزل على رسوله طبقا

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١ ص ٣٤١، ٣٤٢.
(٢) مريم: آية ٤٢.
(٣) سورة النساء: آية ١٦٤.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٢ ص ٣٤١، ٣٤٢.
(٥) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٢٦٦.

للحوادث، فمثلا السور المكية نزلت لترغيب الناس فى الإسلام والوحدانية من خلال إبراز قدرة الله، وهجرة الرسول نزلت بها آيات وكذلك غزوات الرسول وبعض المواقف التى حدثت فى حياة الرسول مع توضيح حكم الله فيها. والله خالق ومبدع، ومن باب أولى يخلق آياته ليهدى بها الناس.

ناقش المعتزلة القضايا الإيمانية، وأبدوا آراءهم فيها، وقالوا: الإيمان هو جميع الطاعات، أما المعاصى فهى صغائر وكبائر. والصغائر تُغفر إذا اجتنبت الكبائر ومنها رجل شبه الله بخلقه، ورجل جوره فى حكمه ورجل كذَّب ما أجمع عليه المسلمون عن نبيهم، وقالوا إن من الإيمان ما إن تركه صاحبه فهو كفر[1]، وما إن أهمله صاحبه كالصلاة والصيام فهو فسق وليس كفرا. ومنه ما تركه صغير ليس بفسق ولا كفر كالنوافل، فالإيمان إذن اجتناب ما هو كبير كالقتل والزنى، وهو ما جاء فيه الوعيد أو ما وُضعت فيه الحدود، كحد القتل أو السرقة أو الزنا.

والفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وإنما منزلة بين المنزلتين، فالإيمان جميع الطاعات. ومن عمل كبيرة فهو فاسق لا كافر؛ لأنه مؤمن بتوحيده[2].

والكبيرة كما حددها المعتزلة، كل ما أتى به الوعيد. وكل ما لم يأت وعيد فهو صغير. وقالوا: إن الله يغفر الصغائر إذا اجتُنبت، ويغفر الكبائر تفضلا، أى أن الله حذر من ارتكاب الآثام والفواحش كالقتل والسرقة والزنى، وحذر بالوعيد، وحدد العقوبات لمرتكبى هذه الذنوب، ولا يصح أن نقول بأن مرتكب هذه الكبائر كافر، ولكنه فاسق[3].

ويطلق على المعتزلة أصحاب العدل والتوحيد؛ لأنهم نزهوا الله عن الصفات البشرية، وحكموا على القضايا الإيمانية حكما عادلا يتمشى مع العقل والمنطق، وقالوا: إن الله عالم بذاته، قادر بذاته حى بذاته، وقالوا باستحالة رؤية الله بالأبصار فى دار القرار، ونفوا التشبيه عنه جهة ومكانا وصورة وجسما وانتقالا، وقالوا بتأويل الآيات. وأوَّلوا الآيات التى يفهم منها التشبيه، وسموا هذا النمط توحيدا[4].

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٥.

(٣) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٤٥.

(٤) المصدر السابق.

وصف المفكرون المسلمون الله بالعلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام والسمع والبصر، ووصف البعض هاتين الصفتين عند الله بمثل ما يتصف به الإنسان. على حين أنكر آخرون تشبيه صفات الله هذه بصفات الإنسان. وفسر المعتزلة صفات الله بأنها من صفات الذات، وقالوا إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته، وسلبوا الصفات عن الله الذى ليس كمثله شىء، وأنه منزه عن الزمان والمكان والحركة وما يشبهها. وفى القرآن الكريم ﴿**ليس كمثله شىء**﴾ - ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ - ﴿**فعال لما يريد**﴾ - ﴿**لا يسأل عما يفعل**﴾ فهذه صفات خاصة بذات الله - وأوضح المعتزلة معنى الآية ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾، أى أن الله يساعد الإنسان ويشد من أزره، والآية ﴿**كل شىء هالك إلا وجهه**﴾ ليس معنى ذلك أن لله وجها لأنه لا يرد فى القرآن ما يفيد بملامح وجه الله. ولكن معنى الآية أن من صفات الله الخلود.[1] ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ ومعناها أن الله مالك لهذا الكون وهو المتصرف والمدبر للكون والوجود. ﴿**وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة**﴾ ومعنى الآية اتجاه المؤمنين إلى الله للتأمل فى عظمته وجلاله وقدرته وليس للمشاهدة بعيونهم التى لم يرد ذكرها فى القرآن. ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ وهذه من ذات الله الذى يرحم عباده؛ لأنه الرءوف الرحيم والله ليس بظلام للعبيد.[2]

وعلى ذلك يمكن القول بأن صفات الله التى ورد ذكرها فى القرآن مثل الكرم والعزة والعظمة، ليست كصفات الإنسان، وإنما هى جزء من ذاته العلية، ونضيف إلى ذلك أن الله يخاطب خليفته فى الأرض، وهو الإنسان فيخاطبه بصفات يستطيع فهمها وإدراكها؛ لأنها من صفاته البشرية التى تختلف تماما عن الصفات الإلهية مع تطابق المعنى[3]. وهذا وإن كان يوضح العلاقة بين الإنسان وخالقه، فإن فهم الله يجب أن يكون فى إطار صفاته وتجرده وتنزهه عن صفات البشر، أى أن الله يجب أن يفهم بمعنى يتعالى على النسب والاعتبارات وضروب التشبيه[4]. ولا يمكن أن يكون حكم الإنسان على صفات الله دقيقا أو صحيحا،

---

(١) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٧٧ - ٨٣.
(٢) المصدر السابق ص ٧٧.
(٣) المصدر السابق ص ٧٧.
(٤) المصدر السابق ص ٧٧.

لأن الإنسان محدود فى قدراته العقلية والفكرية إذا قيس بقدرات وقوة خالق الكون، فالناقص لا يمكن أن يتصور الكامل وكل ما يستطيع الإنسان إدراكه فهو محدود بقدراته.

والله عالم بعلمه وقادر بقدرته يتكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، حى بحياة، مريد بإرادة. وهذه الصفات أزلية قائمة بذات الله تعالى وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات المستحيل والجائز والواجب والموجود والمعدوم، وقدرته شملت كل شىء، وإرادته واحدة على كل أمر[1].

وقال المعتزلة: إن الله خالق أفعاله. وقالت الجبرية: إن الإنسان لا يستطيع كسب شىء أو إحداث شىء، أما الأشاعرة فقالوا: إن الإنسان قادر على الكسب، ولا يستطيع إحداث شىء[2]، والعبد قادر على أفعاله. وقالوا: إن الله قادر على الظلم، ولكن لا يفعله. وإذا وُجد شىء على ظهرالأرض فهو من فعل البشر أو قوى الطبيعة، لأن الله لا يفعل إلا خيرا، والجبرية تنفى الفعل عن العبد حقيقة وإضافة، فالإنسان مُسيَّر فى أفعاله[3]. أما المعتزلة فقالوا: إنه مخير. وهو خالق أفعاله بدليل الثواب والعقاب ﴿وهديناه النجدين﴾ ووضع الله الحدود للإنسان، فمن خالف أوامر الله فجزاؤه جهنم. ومن عمل صالحا فله الجنة. وفى القرآن الكريم ما يشير إلى أن الله يحاسب عباده يوم القيامة. ولو كان الإنسان مسيرا لا إرادة له، لساوى الله بينه وبين الحيوان، ولا يحاسبه على أفعاله، **﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾**[4] **﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولاهضما﴾**[5] **﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾**[6] وهذه الآيات وغيرها تدل على أن الإنسان مخير فى أفعاله. ولكن من ناحية أخرى توجد من الآيات ما يدل على أن الإنسان مسير فى أفعاله **﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**[7] يهدى الله من يشاء، **﴿وهديناه النجدين﴾**[8] أى ألهمناه

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٧.

(٢) أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٥٦ ، ١٥٧.

(٣) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٨٦.

(٤) سورة الأنعام آية ١٦٠.

(٥) سورة طه آية ١١٢.

(٦) سورة فصلت آية ٤٦.

(٧) سورة السجدة، آية ١٣.

(٨) سورة البلد، آية ١٠.

معرفة الخير والشر وعلى الإنسان اختيار الطريق الصحيح الذى هو طريق الخير، والذى هو مظهر من مظاهر طاعة الله، ويؤدى إلى سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة. وأرشد الله الإنسان إلى طريق الخير **﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾**[1] فالخير لمن عمل صالحا ومن اتبع الطريق الضال فسيعيش بائسا فى دنياه وآخرته.

وقد أورد الإمامان ابن كثير والطبرى فى تفسيريهما لقوله تعالى: **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾**[2] بقوله تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**[3] وخالفا فى ذلك رأى الزمخشرى الذى يتمشى مع آراء المعتزلة. ويقول المفسران المذكوران «إنما ختم الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق». وهذا عدل من الله تعالى.

قال القرطبى: أجمعت الأمة على أن الله وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم. ويقول الطبرى: إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها وطُبعت على الكفر وأُغلقت على الضلال، فلا يكون للإيمان إليها مسلك. والله يتعامل مع الإنسان بعدله ورحمته وحكمته ويقف العقل الإنسانى قاصرا أمام حكمة الله وتدبيره. فإن الله يطلع على العباد، ويعلم ما فى قلوبهم وسرائر أنفسهم.

والخلاصة: بعد عرض هذه الآراء فإن الإنسان حر فى إرادته ومخير بين الطريقين، طريق الخير أو طريق الشر، ولكن الله تعالى يعلم بما سيفعله الإنسان فى حياته. ومن يتبع طريق الخير، يفتح الله قلبه للإيمان ولمزيد من العمل الصالح. ومن يتبع طريق الضلال ينغلق قلبه عن فعل الخير، ويسير فى طريق الشر إلا إذا تاب فإن الله يقبل توبته ويفتح صدره للإيمان والطريق المستقيم.

وفى خضم الفكر المعتزلى الذى أثار جدلا كبيرا بين المسلمين، ظهر الإمام الأشعرى، وهو مفكر إسلامى كبير لم يوافق على آراء المعتزلة، وإنما تبنى فكرا جديدا وهو فكر وسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة والجماعة وهى آراء تتضمن الكبيرة وصفات الله ورؤية الله يوم القيامة والشفاعة، ونصح باتباع آراء أهل السنة.

---

(١) سورة الشمس: ٧ - ١٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٧.

(٣) سورة الصف: آية ٥.

أثبت الأشعرى صفات الله كما وردت فى القرآن الكريم والسنة، وحسم هذه القضية الخلافية، فسمع الله ليس كسمع الأفراد، وبصره ليس كبصر الإنسان. وقدرة الله وسط بين الجبرية والمعتزلة، فالمعتزلة تقول بأن الإنسان خالق أفعاله، والجبرية تقول بأن الإنسان لا سيطرة له على أفعاله، وقال الأشاعرة بأن الإنسان قادر على الكسب ولا يستطيع إحداث شيء[1].

وللإمام أبى الحسن الأشعرى آراء خاض فيها المعتزلة وأهل الفرق الأخرى، وقال الأشعرى: علم الله واحد يتعلق بجميع المعبودات، المستحيل والجائز والواجب والموجود والمعدوم، وقدرته شملت كل الموجودات، وإرادته واحدة تتعلق بكل حركة الكون، وكلامه واحد ـ أمر ونهى ووعد ووعيد، وهى قديمة أزلية، متعلقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصة وأفعال عباده من حيث هى مخلوقة له؛ أراد الجميع خيرها وشرها ونفعها وضرها، وكل أفعال البشر مدونة فى اللوح المحفوظ؛ لأنه أراد وعلم العباد ما يعلم، والإنسان مكلف بما أمره الله به.

والعبد قادر على أفعاله، إذ الإنسان يفرق بين الخير والشر؛ لأن الحركات الاختيارية حاصلة تحت القدرة متوقفة على اختيار القادر. والإنسان يحرك أفعاله طبقا لقدرة الله الذى وهبه العقل يسيره فى حركة الحياة فى حدود قدرته البشرية[2].

يقول الأشعرى عن رؤية الله: إن كل موجود يصح أن يُرى، فيصح أن يُرى الله، وقد ورد أن المؤمنين يرون الله فى الآخرة **﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾**[3] وتوجد آيات وأحاديث أخرى تثبت رؤية المؤمن لربه.[4]

وصاحب الكبيرة عند الأشعرى إذا مات دون أن يتوب إلى الله، فحكمه عند الله تعالى، إما يغفر الله له، وإما يشفع له الرسول أو يعذبه الله فترة على قدر عقوبته ثم يدخله الجنة؛ لأنه المالك المطلق لا يتصور منه ظلم، ولا ينسب إليه جور، ووسعت رحمته كل عباده.

وللإنسان فى حدود التكليف شمله الله بعدله **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾**[5] والثواب والنعيم واللطف، كله فضل من الله، والعقاب والعذاب عدل،

---

(١) أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٥٦ ، ١٥٧.
(٢) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٩٥ ، ٩٦.
(٣) سورة القيامة: ٢٢ ، ٢٣.
(٤) الشهرستانى: المصدر السابق ص ١٠٠.
(٥) سورة الإسراء آية ١٥.

والإيمان والطاعة بتوفيق الله، والكفر والمعصية بخذلانه. والتوفيق عنده خلق القدرة على الطاعة، والمعصية خلق القدرة على المعصية.

وما ورد عن القلم واللوح والعرش والكرسى والجنة والنار، وسؤال القبر والثواب والعقاب والميزان والحساب والصراط. **﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾** حق يوجب الاعتراف به، فلا استحالة فى وجودها(١).

وقال الأشعرى عن صفات الله إنها صفات تليق بذاته ولا تشبه الصفات التى تسمى بها، فسمع الله ليس كسمع الناس، وبصره وكلامه ليس كبصر وكلام الناس وبذلك خالف الأشعرى المعتزلة الذين نفوا الصفات عن الله، ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية، وقالوا: صفات الله كالقدرة والسمع والبصر ليست شيئا إلا الذات.

والأشعرى اتفق مع آراء أهل السنة والمحدثين فيما شجر بينهم وبين المعتزلة من خلاف، واعتمد على القرآن والسنة فى إبراز آرائه. لذلك جاءت آراؤه وسطا بين المعتزلة والغلاة والفرق الأخرى من ناحية وأهل السنة والجماعة من ناحية أخرى. ولم يأخذ من آراء الفلاسفة إلا ما يتمشى مع القرآن والسنة. وفيما عدا ذلك أخذ بآراء الفقهاء(٢).

قال المعتزلة: الله لا يُرى يوم القيامة. وقال الأشعرى أنه يُرى من غير حدود ولا حلول. وقال المعتزلة: القرآن مخلوق حسب الحوادث. وقال أهل السنة: القرآن قديم قدم الله، وقال الأشعرى قولا وسطا القرآن كلام الله غير مخلوق ولا حادث ولا مبتدع، وقال المعتزلة عن مرتكب الكبيرة: إذا تاب عفا الله عنه. وقال الأشاعرة: إن مرتكب الكبيرة إن شاء الله عفا عنه، وأدخله الجنة. وإن شاء عاقبه، ثم عفا عنه. وأدخله الجنة(٣).

وقال المعتزلة: لا شفاعة عند الله. وقالت الشيعة: يشفع الإمام لأنصاره وذويه. وسلك الأشعرى مسلكا وسطا وقال: الشفاعة للرسول بأمر الله لمن شاء من عباده.

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ١٠١.

(٢) أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٥٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٥٧، ١٥٨.

والخلاصة أن الأشعرى سلك فى الاستدلال على العقائد مسلكا اعتمد فيه على القرآن والسنة، واعتمد فى آرائه على الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، ورفض تأويل النصوص وإنما فسرها تفسيرا عقليا ومنطقيا، واعتمد فى ذلك على الفلسفة لأنه لا يستطيع هدم آراء المعتزلة الفلسفية إلا إذا كان مزودا بالدراسات الفلسفية والمنطقية، واتبع المنهج الفلسفى كذلك فى دحر آراء القرامطة والباطنية.

وقد نال الإمام أبو الحسن الأشعرى تقديرا كبيرا فى العالم الإسلامى، وتقدير العلماء والحكام. ونجح هو وأنصاره فى إضعاف المعتزلة والملاحدة والتقليل من آرائهم وأفكارهم.

وهذه الدراسات التى أجراها المفكرون المسلمون فى ذات الله والوجود والإنسان والنفس وما صحبها من انقسامات فى الرأى والفكر، تدل دلالة واضحة على النشاط الذهنى والتقدم الفكرى عند المسلمين. وهذا النشاط الفكرى اشتمل على تأليف كتب وعقد مناظرات وندوات ومحاضرات فى المساجد والقصور والدور(١).

ومن الفرق الإسلامية، الجهمية أصحاب جهم بن صفوان قُتل فى أواخر العهد الأموى، وعاش فى ترمد، وافق المعتزلة فى أشياء، وزاد عليهم. وقال: لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه؛ لأن ذلك معناه التشبيه وفى كونه قادرا فاعلا خالقا، لا يوصف شىء من خلقه بهذه الصفات.

والكرامية أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام قالوا بالتجسيم والتشبيه، أى أن صفات الله كصفات البشر، وما ورد عن جسم الله مثل يد الله هى كصفة جسم البشر(٢).

وهذه الفرق المنحرفة عن الدين تصدى الأشعرى ـ بعد المعتزلة ـ لهم. لذلك نالوا احترام وتقدير المسلمين واعتبر البعض الأشعرى إمام أهل السنة، وتوفى سنة ٣٣٠ هـ وانقسم المسلمون إلى أحزاب، كل حزب له أفكاره الدينية والسياسية، ومن هذه الأحزاب الخوارج والشيعة.

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٨.

أما الشيعة فهم شيعة علي. ومنذ فجر الإسلام التف الشيعة حول على بن أبى طالب، واتخذوا سياسة خلاصتها أن الإمامة يجب أن تنحصر فى آل بيت رسول الله، وعارضوا بنى أمية وتعرضوا للاضطهاد والقتل والتنكيل. وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسي، انحصرت الإمامة عند العلويين فى جعفر الصادق، وأتباع جعفر الصادق سُموا الإمامية. وقالوا: إن الإمامة يجب أن تنحصر فى سلالة الحسين، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين. وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ، انقسمت الإمامية إلى قسمين: الإمامية الموسوية، وسُميت هذه الطائفة بالاثنى عشرية. والإسماعيلية هم أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق[١] ويروى أن جعفر الصادق عزل ابنه إسماعيل فى حياته لعدم اطمئنانه له، وولى بدلا منه ابنه موسى، ولم يعترف أنصار إسماعيل بتحويل الإمامة إلى ابنه موسى، انطلاقا من مبدأ الإمامية الذى يرفض نقل الإمامة من أخ إلى أخ، إنما تنتقل إلى الأولاد. وانتقلت إلى محمد بن إسماعيل وهو الابن السابع عندهم تمييزا عن الاثنى عشرية وهم أبناء موسى بن جعفر الصادق الذى تعاقب أبناؤه وآخرهم محمد المنتظر الذى دخل سردابا ويعتقد أنه سيعود إلى الدنيا.

والإمام جعفر الصادق ذو علم غزير فى الدين، وزهد بالغ فى الدنيا. ومن أقواله: من أنس بالله، توحش عن الناس. ومن استأنس بغير الله، نهبه الوسواس ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط[٢].

والإسماعيلية، قالوا بالإمام المستور وبالظاهر والباطن والتأويل، وقالوا بضرورة انتساب الإنسان إلى إمام. ومن قال بعدم وجود إمام مات ميتة جاهلية وقالوا: لكل حاكم من أحكام الشريعة ظاهر وباطن، وتمادوا فى تأويل آيات الله لصالح عقيدتهم حتى حرفوها عن حقيقتها. وبذلك أدخلوا الناس فى الضلالات. والإمام المعصوم عندهم من حقه فقط تأويل آيات الله التى تدعو إلى طاعة الإمام المعصوم وانفراده عن سواه بعلم التأويل والظاهر والباطن. والإمام له الحق الكامل

(١) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠.
(٢) الشهرستانى: الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٦.

فى تأويل الشرع لأنه انفرد بعلم موروث من الرسول؛ لأن هذا العلم الموروث من الوديعة التى أودعها الله لأئمة آل البيت من بعده. وعليهم أن يفسروا النصوص ويوضحوها، ومن الطبيعى أن يكون لهذا الإمام المعصوم كرامات وبالإمام يعبد الله، وبه يطاع الله. وجعلوا للإمام صفات إلّهية. فالإمام وجه الله ويد الله، وجنب الله. وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة وهو «الصراط المستقيم» و«الذكر الحكيم» وأولوا بعض الآيات لتتمشى مع آرائهم(١).

وآمنوا بالباطن فلكل أساس من أسس العقيدة ظاهر وباطن. والظاهر واضح للناس، يشاهد بالعين. أما الباطن فهو مجهول لا يعرفه إلا الإمام. والظاهر يدل على الباطن. فجسم الإنسان ظاهر وباطنه النفس وهكذا، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية، ومعانى آيات الله يفهمها العامة وأهل السنة والفرق الشيعية الأخرى بظاهرها، ولكن باطنها ينفرد الإمام بفهمها.

الشهادة معرفة الله عن طريق الإمام، والطهارة وهى أن يتجاوز الإنسان عن قواعد أهل السنة. ويعتبر أن كل ما يقوله الإمام حقا، والصلاة وهى طاعة الله ورسوله وخليفته ـ وهو الإمام ـ والصوم إنذار أعضاء الجسد فى الظاهر والباطن لأمر الله. والجهاد جهاد النفس ويجب على الإنسان التطهر من علم الظاهر والتمسك بالباطن. والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام، وبالغوا فى شأن على ابن أبى طالب، وارتفعوا بمنزلة سلمان الفارسى، وجعلوه بابا من أبواب الجنة(٢).

وأفكار الإسماعيلية هذه واجهت معارضة شديدة من أهل السنة والجماعة، لأنها بعدت عن العقيدة، وتأثرت بالفرس والديانات الهندية والبوذية والمسيحية، وقالوا برجعة بعض الأئمة. وانبثق من الإسماعيلية فرق ضالة كالقرامطة وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام، والدروز الذين يقولون بأن الحاكم بأمر الله سيعود إلى الدنيا ليملأها عدلا، وتأثروا بذلك بما ورد فى الآثر عن المسيخ الدجال الذى سيظهر فى آخر الدهر، وكل هذه معتقدات باطلة بعيدة عن الإسلام الصحيح. لذلك انعزل الإسماعيلية بعقيدتهم الضالة بعيدا عن المجتمع الإسلامى. وفكرهم ما هو إلا مجموعة من الأساطير والخرافات، سيطروا بها على عامة الناس.

---

(١) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص ١٦٥.

(٢) عصام الدين الفقى: الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ص ٢٩٦.

والشيعة عموما والإسماعيلية بصفة خاصة سيطر على فريق منهم الأفكار الإلحادية منذ فجر الإسلام، وقالت السبئية عن على بن أبى طالب: الرعد صوته والبرق تبسمه. وبالغوا فى شخص على بن أبى طالب والأئمة من بعده، ونسبوا إلى الإمام على صفات إلّهية، وبذلك خرجوا عن الدين والعقيدة، ونسوا أن الرسول أكد صفاته البشرية أمام قومه. بل تأكد ذلك فى القرآن الكريم **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلّهكم إلّه واحد﴾**(1) وذهب بعض الشيعة فى تطرفهم إلى تكفير الصحابة. ولكن القرآن والسنة مثبت فيهما سوء وجهل ما ذهبوا إليه **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾**(2) وقال الرسول: عشرة من أصحابى فى الجنة.

وقالت السبئية: إن عليا لم يمت، ولكن الناس رأوا قتيلا، واعتقدوا أنه علىّ. وقالوا: إن عليا مستقر فى السحاب. وسيعود إلى الدنيا ليملأها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا(3).

ورأى الكيسانية وهم أتباع كيسان ـ مولى محمد بن على بن أبى طالب الملقب بابن الحنفية، بأن محمدا هذا مستقر فى جبل رضوى وأنه سيعود إلى الدنيا.

ومن غلاة الشيعة النصيرية الذين قالوا: لم يكن بعد رسول الله أحد أفضل من على وبعده أولاده خير البرية، ظهر الحق بهم، ونطق بلسانهم، وأخذ بأيديهم. لذلك أطلقوا اسم الإلّهية عليهم، وعلى مؤيِّد من الله تعالى فيما يتعلق بباطن الأسرار، قال الرسول: أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، ونسبوا إلى الرسول إشراكه لعلى بن ابى طالب فى الرسالة قال الرسول: فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله. وبالغوا فى الحديث عنه وقالوا هو الذى ظهر الإلّه بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه. وكان موجودا قبل خلق السماوات والأرض.

---

(1) سورة الكهف آية ١١٠.

(2) سورة التوبة آية ١

(3) البغدادى. الفرق بين الفرق ص ٢٢٣

وقالوا عن مقدرة على فى مكالمة الجن وقلع باب خيبر، وقالوا إنما تم ذلك ليس بالقوة الجسمانية لعلى، ولكن بقوته الإلّهية.

فالنصيرية تقول بأن عليا فيه قوة إلّهية وأنه مشارك للرسول فى نبوته[1]. وعلى ذلك فإن هذه الطائفة من أكثر الفرق تطرفا فى العقيدة، وهى فرقة إلحادية كافرة جاهلة بحقيقة الدين وحقيقة الله.

وتوجد فرقة النصيرية فى بعض البلاد السورية، وقد شاهدهم ابن بطوطة، وذكر أنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يتطهرون. ولما أمرهم الملك الظاهر بإقامة مساجد فى قراهم، أقاموها، وتركوها دون أن يعمروها أو يقيموا فيها الصلوات[2].

قالت المشبهة أقوالا أشبه بالخيال عن تجسيم الله. قالوا: الله جسم محدود عريض عميق طويل، طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، نور ساطع له مقدار فى طوله وعرضه، ويتحرك ويسكن ويقوم ويقعد. والله يشبه الأجسام التى خلقها. ولولا ذلك ما دلت عليه[3].

وقال بعضهم: إن معبودهم الفضاء، وهو جسم تحل الأشياء فيه ليس بذى غاية ولا نهاية، وله جوارح، ولا يشبه أحدا ولا أحدا يشبهه. ومما لا شك فيه أن أقوال هذه الفرقة تنم عن الجهل والضلال وتدل على جهلهم الشديد بالدين، ولو فهموا قول الله ﴿ليس كمثله شىء﴾ لما ذهبوا إلى كل هذه الأفكار الجاهلية[4].

تطور الفكر الإسلامى بتطور هذه المذاهب. ومن بين هذه المذاهب، الخوارج الذين خرجوا على علىّ، وأسسوا مذهبا يقوم على أساس أن الخلافة يجب ألا تنحصر فى بيت معين، وإنما حق لكل مسلم حر يقع عليه اختيار المسلمين. وانقسموا إلى أباضية وأزارقة وصفرية، ولهم آراء فى العقيدة.

ومن الجماعات التى اتخذت من الفكر أداة للتعبير عن آرائها، جماعة إخوان الصفا التى نشأت فى البصرة، كرد فعل للأحزاب السياسية التى اتخذت من الدين

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ١٨٨.
(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٩٨.
(٣) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٢٥٧.
(٤) المصدر السابق ص ٢٥٨ ، ٢٥٩.

برامج لها ويسمون إخوان الصفا وخلان الوفا وأهل العدل، وهم جماعة تألفت بالمحبة والصداقة، واجتمعت على الطهارة والنصيحة، ووضعوا برامج لهم فى القرن الرابع الهجرى، واعتقدوا أن الشريعة داخلها الجهالات. والشريعة السليمة يجب أن تتحلى بالفلسفة اليونانية. وما بها من أخطاء وحشو بسبب بعدها عن الفكر الفلسفى[١].

وكانت هذه الجماعات تهدف إلى الوصول إلى السلطة السياسية، ويرددون رسائلهم على لسان أنبياء ورد ذكرهم فى التوراة والقرآن. ليخفوا حقيقة ما بها من فلسفة وثنية. واعتقدوا أن الكواكب والنجوم لها عقول ويجب على الناس التمكين لهذه العقول بإقامة دولة العدل وقسموا جماعتهم إلى أربع طبقات حسب العمر، والتقدم فى الفكر. ما دون الثلاثين يتعلم من أساتذته، وتنقاد هذه الفئة من الشباب إلى أساتذتهم، الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين. وما بعد الأربعين حتى الخمسين يرتقى العالم منهم إلى الطبقة العليا، وهم يدركون المعرفة صحيحة تماما. وما بعد الخمسين يشهد حقائق الأشياء على ما هى عليه[٢].

اتخذت هذه الجماعة من البصرة مقرا لها. وأسموا أنفسهم «إخوان الصفا» لأن مقاصدهم إسعاد أنفسهم الخالدة بتضافرهم فيما بينهم، وخصوصا عن طريق العلوم التى طهرت نفوسهم، وأنتجت هذه الجماعة رسائل رُتبت ترتيبا جامعا لمختلف العلوم، ونُشرت أبحاثهم فى منتصف القرن الرابع الهجرى. وكانوا يعبرون عما فى أنفسهم بأسلوب غير صريح.

ويعتقدون أن النفوس الفردية هى جزء من النفوس الكلية، تعود إليها مطهرة بعد الموت، كما ترجع النفس الكلية إلى الله بعد الموت يوم البعث الأكبر، وقد أوَّلوا القرآن تأويلا رمزيا، لكى يتمشى مع التصور الروحى للأديان، كما أوَّلوا بعض القصص غير الدينية تأويلا رمزيا مثل قصص كليلة ودمنة، ويظهر فى هذه الرسائل روح الحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق، وإن كانت تتضمن الحشو والتكرار.

---

(١) الغزالى: المنقذ من الضلال ص ١٤ ـ ١٦.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٥٩.

وتتضمن هذه الرسائل علوما مختلفة فى المنطق والرياضيات والسحر والتنجيم والتصوف وعلم النفس والطب وغير ذلك من العلوم الطبيعية، وتزيد الرسائل عن خمسين، وإن كانت الرسالة الخامسة والأربعون تتضمن تنظيم الجماعة وطبيعة تكوينها(١).

وواضح من رسائل إخوان الصفا، أنها جماعة إسماعيلية مضطهدة حطم الاضطهاد آمالهم، لذلك نادوا بالتسامح والصبر على الظلم والبلاء. والتمسوا من كتابة هذه الرسائل السلوى لنفوسهم الممزقة، وخلاصا وتطهيرا لها. ويرون فى العلم والاستغراق فيه تعويضا عما يلاقونه من جور. ومن مبادئهم الإخلاص للجماعة حتى الموت. والغنى يجب أن يساعد الفقير. ولهم فروع فى المدن الإسلامية مثل بغداد، وبلغت الجماعة أوج نشاطها فى عصر بنى بويه الشيعة وبرز دورهم مما مكنهم من إصدار رسائلهم(٢).

بحث إخوان الصفا فى الله والعالم وفلسفة الدين والنفس والأخلاق والرياضيات والطب، وأثرت رسائلهم على رجال الفكر وعلى الباطنية والإسماعيلية والدروز. غير أن أهل السنة اعترضوا على آرائهم وأفكارهم، وأمر الخليفة المستنجد بإحراق رسائلهم، ويرى الإمام الغزالى أن رسائلهم خليط من حق وباطل، وأنها فى جملتها فلسفة ركيكة، وأنها حشو فلسفة(٣).

كتب إخوان الصفا عن الأعداد وخواصها، فى العدد الصحيح والعدد المربع وفى خواص العدد المجذور، وكتبوا عن الغرض من العلوم وأنواع الخط، وأسماء الخط المستقيم، وأنواع الزوايا، الزوايا المسطحة وأنواع الخطوط القوسية، والأشكال المستقيمة والخطوط وأنواعها وفى بيان المثلث وفى المساحة وفى الهندسية العقلية وفى توهم المساحة وفى خواص الأشكال الهندسية وبيانها.

وفى الرسالة الثانية كتبوا عن علم النجوم والفلك، وكتبوا فى الرسالة الرابعة عن الجغرافيا، وصفوا الأقاليم والربع المسكون من الأرض، وكتبوا عن وقوف الأرض فى وسط الهواء، وصفة الأرض وقسمة أرباعها، ووصفوا الأقاليم السبعة، وحثوا على النظر فى الأرض للاعتبار، وكتبوا عن خواص الأقاليم.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٦٣ ، ١٦٤.

(٣) الغزالى: المنقذ من الضلال ص ١٣ ، ١٤.

والرسالة الخامسة عن الموسيقا، وكتبوا عن إدراك القوة السامعة للأصوات، وامتزاج الأصوات وتنافرها، وتأثر الأمزجة بالأصوات وأصول الألحان وقوانينها، وصناعة الآلات[1].

والرسالة السادسة فى النسبة العددية والهندسية فى تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، والرسالة السابعة فى الصنائع والغرض منها، كتبوا عن الجسد والنفس والعلم والتعلم وأجناس العلوم.

والرسالة الثامنة فى الصنائع العملية والغرض منها، والرسالة التاسعة فى بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها وطرائف من آداب الأنبياء وأقوال الحكماء، والرسالة العاشرة فى المنطق، والرسالة الحادية عشرة حتى الخامسة عشر فى المنطق والفلسفة والقياس، وكتبوا فى الرسائل التى تلت ذلك فى إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق وكيفية تكوين الحيوانات وأصنافها، وكيفية تركيب الجسد وأخلاط البدن ومزاج الطبائع، والجو كالدار، والنفس كالساكن فى الدار، وكتبوا عن الحساس والمحسوس، وتطور الجنين، وفى قول الحكماء: إن الإنسان عالم صغير، وكتبوا عن فضيلة جوهر النفس، واعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك، وتعداد قوى النفس[2].

وكتبوا عن مختلف فروع العلم كالطب والفيزياء والكيمياء.

وفى كلام إخوان الصفا عن النفس الإنسانية «أن الله لما خلق الجسد وسواه ونفخ فيه من روحه وأحياه، ثم أسكن فيه النفس وأولاه وكان مثل أساس بنية الجسد وتركيب أجزائه وتأليف أعضائه كمثل أساس بناء مدينة بُنيت من أشكال مختلفة كالحجارة والطين والآجر والرمال والخشب والأجزاع والحديد وما شاكلها، فأحكم بنيتها وشيد بنيانها، وحصن سورها، وخُططت شوارعها، وقُسمت محالها وزينت مجالسها، ورُتبت منازلها، ومُلئت خزائنها، وأُسكنت دورها، وسلكت طرقاتها، وأجريت أنهارها، وفُتحت أسواقها. . . أى أن تكوين الإنسان من روح وجسد، والجسد يتكون من أعضاء وأجهزة، وقوة جاذبة وماسكة ودافعة ونامية

---

(١) انظر رسائل إخوان الصفا المجلد الأول.

(٢) رسائل إخوان الصفا المجلد الثانى.

وغازية ومصورة وحواس كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس، وعمودان هما الرجلان، وجناحان، أى اليدان، ونفس قد تكون شهوانية أو حيوانية وناطقة، والرئيس الواحد لكل هذه المكونات هو العقل[١].

الفكر الصوفى

ظهرت نزعة الزهد بين المسلمين منذ فجر تاريخهم؛ لأن بعض الآيات القرآنية ترغب فيه ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[٢] ﴿والآخرة خير وأبقى﴾[٣] ولما اشتد الثراء فى الدولة العباسية خشى بعض الصالحين من الانغماس فى ملاذ الدنيا ونعيمها، فأقبلوا على الزهد، واتجهوا إلى الله، وصفت نفوسهم ورأوا أن النفس إذا نالت ما أرادت، انقادت إلى المعاصى، ففضلوا التغلب عليها. واعتقدوا أن التقرب إلى الله يعصمهم من الوقوع فى المعاصى، حتى قال محمد بن واسع: يعجبنى أن يصبح الرجل، وليس له عشاء، وهو مع ذلك راض عن الله، صرفوا نفوسهم عن الشهوات، وأكثروا من ذكر الموت والحياة الآخرة، وتعففوا عن محاولة طلب المال من ذويه، وقنعوا بالقليل[٤]. وكان الشاعر أبو العتاهية يمثل نزعة الزهد فى أشعاره فى قوله:

«لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس ـ إذا تسترت بالأبواب والحرس

واعلم بأن سهام الموت قاصدة ـ لكل مدرع منا ومترس

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها ـ إن السفينة لا تجرى على اليبس»[٥]

ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تبيت فى القبر لم تبت قبلها ليلة. ورفض أموال المنصور لأنه يزهد فى المال والحياة[٦].

والإمام أحمد بن حنبل كان من الزهاد، فاقتنع بالدخل القليل وكان صابرا محتسبا، ولما أرسل إليه الخليفة المتوكل عشرة آلاف درهم، فرقها الإمام

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٣٨١ ـ ٣٨٣.

(٢) سورة النساء آية ٧٧.

(٣) سورة الأعلى آية ١٧.

(٤) الأصفهانى: الأغانى جـ ٤ ص ١٠٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٢٤.

(٦) المصدر السابق.

أحمد على المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من المحتاجين حتى لم يبق ظمنها درهما.

ورُوى عن الرشيد أنه طلب من الزاهد ابن السماك أن يعظه، فقال له: اعلم أنك واقف بين يدى الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار. فبكى الرشيد بكاء شديدا(1).

وقالوا عن الزاهد: من لم يغلب الحرام صبره ولا الحلال شكره. وقال بعض الزهاد: يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا. وإذا ما رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم فى الشر فابتعد عنهم(2).

وشمل الزهد طبقات المجتمع حتى سلكه بعض أبناء البيت الأموى مثل عمر ابن عبد العزيز، وبعض أفراد البيت العباسى مثل أحمد بن هارون الرشيد، الذى انصرف عن الدنيا مع القدرة ولم يتعلق بشىء من أمورها، وأبوه خليفة الدنيا، وآثر الانقطاع والعزلة، بل كان يتكسب من عمل يده، بعمل يؤديه يوم السبت، ومن دخل عمله المحدود ينفق على نفسه بقية الأسبوع ويتفرغ للاشتغال بالعبادة (ت ١٨٤ هـ)(3).

وقال عمر بن عبد العزيز: ذقت حلاوة الدنيا، فوجدتها مرة، فصغر فى عينى زهرتها وحلاوتها، واستوى عندى حجرها وذهبها، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا. وأن الناس يساقون إلى الجنة وإلى النار. فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت له ليلى(4). وقال الرسول ﷺ: «... قلوبهم مصابيح الهدى إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يُعرفوا، يخرجون من كل غبراء مظلمة».

دعا الإسلام إلى العمل والإنتاج، واستغلال الثروات فى الأرض وتعميرها. والإسلام دين الوسطية، فالمسلم يعمل لدنياه ويتمتع بما اكتسبه من عمل يده فى حدود ما أحل الله. وفى نفس الوقت يعمل لآخرته **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**(5). وفى نفس الوقت لا تشغل الدنيا الإنسان ولا تغره عن التطلع إلى

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٣.

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٢٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١ ص ١٨٤.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٥٢.

(٥) سورة الأعراف آية ٣٢

اليوم الآخـر الذى هو الغاية. والدنيـا هى الطريق الآخرة ﴿**اعلموا أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفـاخر بينكم**﴾[1]. وهذا ما دعـا ماسينيـون إلى القول بأن فى القرآن بذور التصوف.

والتصـوف الإسلامى، تـطـور للزهد والتقـشف والإعراض عن زينة الحـياة الدنيا. وخطا بعض الصالحين خطوات كبيرة فى الزهد والتقشف. ولـم يطلق على أحد منهم كلمة «صـوفى» إلا فى أواخر القرن الثانى للهجـرة. ومازال هذا الاتجاه ينمو ويزداد أنصاره إلى أن انبثق منه الفكر الصوفى.

ولقد ظل الزهاد فـى زهدهم حتى ظهرت الفـرق الإسلاميـة كل فرقـة لها فلسفتها ومعتقداتها، فانفرد أهل السنة من الزهاد باتخاذ مذهب لهم هو التصوف. وقوام المتصوفة سلوك يـقوم على ضبط النفس وكبح جماحها، ومـجاهدة ميولها، وصرف النفس عن متع الدنيا، لتطهير النفس، وتصفيتها من براثن الجسد مع تأمل فى الخلوة يقوى النفس ويقـربها إلى الله. ويتدبر الصوفى فى آيات الله، مـنصرفا بكليته عن الدنيا إلى أن يفنى عن نفسه، ويفنى فى الله[2].

واختلف الصوفى عن غـيره بورعه وفقره وزهده عن زخارف الدنيـا وزينتها وإغـراء المال، وحرص الصـوفيـون على تناول مـعتـقـداتهم من نصوص القـرآن والحديث.

واعتـمدت آراء الصوفيـة على منهجهم الروحى، وخـالفوا القراء والفقـهاء وأهل العلم السنيين والمتكلميـن. وبدأ التصوف فى العصور الإسلامـية الأولى نقيا سليما. ولكن فى العصـور الإسلامية المتأخرة شابه الانحـطاط، مما أعطى للفقهاء مجـالا للتحـامل عليهم وعلى آرائهم فى الأوليـاء والكرامات، على أن التـصوف عرف طريقـه إلى الفلسفة بأسـلوب عقلى، فالفـارابى يقول: إن الحرمـان من متع الدنيا ومـباهجـها والتأمل فى ملك الله والإقـلاع عن الشهـوات، وطهارة النفس والتعمق فى مـعرفة الله توصِّل الإنسان إلى السعـادة، فينكشف له سر الكون وإذا تجاوز عالم الحس بلغ عالم الشهادة الحقيقية.[3]

---

(١) سورة الحديد آية ٢٠.

(٢) توفيق الطويل: فى تراثنا العربى الإسلامى ص ١٧١.

(٣) إبراهيم بيومى مدكور: فى الفلسفة الإسلامية جـ ١ ص ٣٥ ـ ٣٨.

ومن خصائص التصوف الإسلامى

الترقى الأخلاقـى برياضة روحية لتصـفية النفس وتكون بالرياضـات البدنية والمجاهدات الروحية، والزهد والتقشف والحرمـان من متع ومباهج الدنيا، والتأمل فى ملك الله، والعزلة والانقطاع للعـبادة، حتى يفنى الصوفى عن نفـسه، ويبقى بالله وعندئذ يقـول بالحلول أو وحـدة الوجـود، وهذا يؤدى إلى رقى الصـوفى، وصفـاء روحه حتى يدرك حقـائق الأشياء، ويشعـر الصوفى بالسعـادة والاطمئنان النفسى بعد أن يتخلص من ماديات الحياة ومغرياتها،(١) ويتجرد من الشهوات.

ومن أوائل المتصوفين فى الإسـلام، الحسن البصرى (ت ١١٠هـ) الذى كان يخشى عقاب الله، وكأن النار خلقت له، ورابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) التى قالت: إن طاعة الله ليست خوفا منه أو رغبة فى جنته بل حـبا فيه وابتغاء مرضاته، وهى التى وجهت الصوفية إلى الحب الإلّهى.

ويذكر نيكلسون(٢) أن أول من تسمى صـوفى فى الإسلام أبو هاشم الكوفى (ت ١٥٠هـ)، وأن أول خانقاه بنيـت للصوفية فى الرملة بفلسطين. وأن الصـوفية الأُول استمدوا فكرهم عن الله من الإسـلام وليس من معتقدات مسـيحية، لذلك كانوا مـعتـدلين فى آرائهم وأفكارهم، وأحـبوا الله، وإن كـان خوفهم مـنه أقوى وأشد. لذلك لم يكن لديهم مغالاة. وقـد أدى ذلك إلى الاستسلام المطلق لإرادة الله وإلى المعرفة الكاملة بوجوده، فهم وسط بين الزهد والرضا.

ووضع متصوفو القرن الثالث الهجرى أسس التصوف فى الإسلام. وقالوا: مـحبـة الله شىء لا يكتسب بالتـعلم، وإنما هو هبـة من الله، وقالوا بأن الله قـد يكشف للعارف وهو نائم عن السر، ويفيض عليه من النور، ما لا يكشفه للقائم، والعارف لا يرى سوى الحق. والمعرفة أقرب إلى الصمت منها إلى الكلام، ويقول ذو النون: عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى. ليس من احتجب عن الحق بالخلوة كـمن احتجب عنـه بالله. وقال عن التصـوف: إنه علم باطن قـاصر على الخواص. وهو أول من وضع تعريفات الوجد والسـماع والتوحيد. وذو النون كان له أكبر الأثر فى تشكيل فكرة التصوف، وواضع أسسه ومبادئه(٣).

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

(٢) فى التصوف الإسلامى ص ١٤١.

(٣) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى ص ٢٤٥.

نشأ ذو النون فى أخميم، وكان له علم بالسحر والكيمياء وربما توصل منها إلى الباطن، وكان فصيحا بليغا، ونسب الناس له تهمة الزندقة بسبب آرائه المتطرفة. ولكن بعد موته قدروا فكره، ونسبوا إليه الكرامات، والكشف عن أسرار العلوم(١).

وتطور التصوف إلى نظرية الفناء التى مهدت لظهور نظرية الاتحاد على يد أبى يزيد البسطامى(٢) «اتحاد الناسوت باللاهوت»، أى الطبيعة الإنسانية بالطبيعة الإلّهية(٣). والحلاج (ت ٣٠٩ هـ) صاحب نظرية الحلول، أى حلول الله فى مخلوقاته الحسين بن منصور الحلاج، كان يظهر الزهد والتقشف، ونسب إليه الناس الكرامات، وقالوا: إنه يخرج للناس فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء، ويخبر الناس بما أكلوه، وما صنعوه فى يومهم، وما فعلوا فى بيوتهم، ويتكلم بما يخفون فى نفوسهم، وافتتن به الناس حتى نسبوا إليه حلول قوى إلّهية فيه. وقالوا: إنه من أولياء الله تعالى، وإن ما نُسب إليه من كرامات الصالحين، ومن قائل: بأنه ساحر له صلة بالجن. قدم الحسين من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة، وكان يصوم الدهر، ولا يأكل إلا قدرا ضئيلا فى العشاء، وكان يجلس على صخرة فى جبل أبى قبيس فى مكة مكشوف الرأس، حافى القدمين يجاهد نفسه بالصوم والتقشف. وعاد الحسين إلى بغداد، ونُسب إليه أنه أحيا جماعة من الموتى، وأن الجن يخدمونه، ويأتمرون بأمره، وأمر الوزير بالقبض عليه، وأمر بمحاكمته فى مجلس من القضاة والفقهاء. ونفى ادعاءه الربوبية أو النبوة. وأمر الوزير بقتله، فقال لهم: لا يحل لكم دمى واعتقادى الإسلام، ومذهبى السنة ولى فيه كتب موجودة. فالله الله فى دمى. وقُتل وأحرقت جثته(٤).

ومن كبار صوفية القرن الثالث الهجرى الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) والمحاسبى (ت ٢٤٣ هـ)، والتسترى (ت ٢٧٣هـ).

وتطورت الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين وظهرت الطرق الصوفية، أى التفاف المريدين حول شيخ تبنوا طريقته، وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته.

وارتقى الفكر الصوفى فى هذه الفترة بسبب ترجمة الفلسفة من اليونانية إلى العربية، واستفاد منها الصوفيون فى بلورة أفكارهم ونظرياتهم.

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٥٣.

(٢) القفطى: أخبار الحكماء بأخبار العلماء ص ١١١.

(٣) توفيق الطويل: فى تراثنا ص ١٧٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى تاريخ حوادث سنة ٣٠٩ هـ.

وظهر فى هذه الفترة من الصوفية الأعلام، الجنيد البغدادى (ت ٢٩٧ هـ) وهو أول من صاغ المعانى الصوفية وشرحها كتابة، وكان يعلم الصوفية سرا فى سراديب وفى بيوت خاصة، بعيدا عن أعين بنى العباس، وتطور الأمر حتى علَّم الشبلى (ت ٣٣٤ هـ) التصوف علنا، وهذا يدل على أن أهل السنة كانوا أكثر تسامحا مع الصوفية من المعتزلة؛ لأن المعتزلة سيطروا على الفكر الإسلامى فى عصر الجنيد، بينما سيطر السنة فى عصر الشبلى(١).

ويقول يحيى بن معاذ الرازى (ت ٢٥٨ هـ): إذا رأيت الرجل يعمل الطيبات، فاعلم أن طريقه التقوى، وإذا رأيته يحدث بآيات الله فاعلم أنه على طريق الأبدال، وهم فريق من الصوفية يتبعون القطب، وإذا رأيت الصوفى يحدث بآلاء الله فاعلم أنه على طريق المحبين. وإذا رأيته عاكفا على ذكر الله فاعلم أنه على طريق العارفين(٢).

وظهرت فى هذا العصر فرق الصوفية، ومتصوفو القرنين الثالث والرابع يعنون بالنواحى النظرية والعملية ولكنهم لم يكونوا فلاسفة، ولم يعنوا بالمشكلات الفلسفية إلا فى القليل من القضايا(٣).

والمريد إذا أخلص فى عبادته، وجاهد نفسه تنشأ له مقامات، ولا يزال يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهى إلى التوحيد، والمعرفة هى الغاية المطلوبة للسعادة، والمريد لا يزال يترقى فى هذه الأدوار، وهى الطاعة والإخلاص والتوحيد، ويتقدمها ويصاحبها الإيمان، وينشأ عنها الأحوال، وما زالت نفسه فى الترقى إلى مقام العرفان والتوحيد، وعلى المريد محاسبة نفسه على الأعمال.

وللصوفية اصطلاحاتهم وعباراتهم التى استعملوها واختصوا بعلم انفردوا به دون سواهم، ومنهم من كتب فى محاسبة النفس مثل الإمام القشيرى والسهروردى فى كتابه «عوارف المعارف» وشرح الغزالى مذهبهم واصطلاحاتهم.

وهذه المجاهدة والذكر والخلوة، يتبعها غالبا كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم فى علم الله ليس لصاحب الحس إدراك شىء منها.

ولاتزال الروح فى الترقى حتى تقترب من الأنوار الإلّهية والعلوم الدينية، والفتح الإلّهى(٤).

---

(١) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى ص ٢٠.
(٢) تذكرة الأولياء جـ ١ ص ٢٦١.
(٣) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٢١.
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٩.

وهذا الكشف يتعرض له أهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود، ما لا يدركه سواهم، ويدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها، والمتأخرون من الصوفية وجهوا جهودهم إلى الكشف وإدراك ما وراءه. ولابد من الخلوة، حتى تنكشف الحقائق وتظهر الكرامات[1].

وذهب الصوفيون المتأخرون إلى الكشف وما وراء الحس، وإلى الحلول والوحدة مثل الهروى فى كتابه المقامات، وابن عربى وابن سبعين وتلميذيهما ابن الفارض وابن العفيف، وتأثروا بآراء الإسماعيلية فى الرجعه وأوّلوا الآيات القرآنية والحديث حتى يتمشى مع آرائهم، وتكلموا عن القطب، وهو رأس العارفين الذى لايدانيه أحد فى المعرفة وإذا مات حل محله من أمر الله به، وأنكر أهل السنة والأشاعرة آراء الصوفية.

وخلاصة آراء الصوفية، أن مجاهدة النفس، والتغلب على شهواتها، والعزلة والاعتكاف للعبادة، يطهر النفس، وينقلها إلى مقامات توحد بين الصوفى وبين الله فيعلم الغيب، وتظهر لهم الكرامات.

ومعتقدات الصوفية باطلة ومنحرفة عن الإسلام، فلا رهبانية فى الإسلام. وما يسمى بالاتحاد بالله وانكشاف الغيب وأسرار الكون بعد تطوره فى مقامات الصوفية فهذه معتقدات باطلة ضالة، وأضلوا العوام، وصدقوا ادعاءاتهم فى الكرامات، بل نسبوا إليهم كرامات من وحى الخيال، وأصبح الولى تبعا لانتشار الصوفية تحاط به الأساطير والأوهام، وتقام له الموالد، وتقدم له النذور، وتنسج القصص حول كراماته. وبذلك تسبب المغالاة فى التصوف فى انحراف الناس عن عقيدتهم وضلالهم بل تسببوا بأفكارهم هذه إلى ما يشبه شرك مخالفيهم بالله، وبعدهم تماما عن الإسلام، ولكن من التصوف ما هو جدير بالتقدير مثل تطهير النفس ونقاوتها والزهد فى الدنيا.

وللصوفية شطحات ـ أبرزها الدكتور عبد الرحمن بدوى بالشطح قيد تشعر به النفس حينما يتحد الصوفى بالله ونتيجة وجد عنيف لا يمكن كتمانه، فينطلق لسانه بالإفصاح على لسان الحق، لأنه والحق شىء واحد، ويتحول إلى عاشق لمعشوقه وهو الله. ومن العناصر الرئيسية لشطحات الصوفية هذه، شدة الوجد والاتحاد والصوفى فى حالة سكر، ويسمع فى نفسه هاتفا إلّهيا يدعوه إلى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٠.

الاتحاد، فيستبدل دوره بدوره، ويتم ذلك والصوفى فى حالة عدم الشعور، فيعبر عما طاف بنفسه، وكأن الله هو الذى ينطق بلسانه[1].

ومن مظاهر الشطحة الصوفية الاضطراب والانفعال ويزيد هذا الاضطراب درجة شوقه التى تتناسب مع مكانة معشوقه وهو الله. إذ إن الشطحة وجد غايته الاتحاد بالله، أى يصير المحب والمحبوب شيئا واحدا.

وحالة السكر معناها، انتعاش الروح بمكاشفة الحق لها، وبأنه هو حى وهو هو، فيضطرب الصوفى ويسعد ويهنأ، لانكشاف هذه الحقيقة، وهو أن وجود الصوفى هو وجود الله أو أنه هو الله[2].

وهذه المنزلة التى يبلغها الصوفى، هى منزلة التوحيد وهى أن وجوده هو وجود الله، وجود واحد، وماعداه غير موجود، فتفنى أنت عن وجود ذاتك، وبالتالى عن وجود كل موجود آخر سوى الله، وتخرج من جميعك[3].

وبذلك يبلغ الصوفى، صفة العارف، أى أن المعرفة تصدر عن الشطح. والشطح شرط أساسى لبلوغ الصوفى مرتبة العارفين، والشطح يتم عادة فى حالة من اللاشعور المصاحبة للسكر[4]، ويحرمون على أنفسهم الزواج، والطعام الطيب والملابس الحسنة، والنظافة، ويطيلون أظافرهم وشعورهم، وقد يختلط الرجل بامرأة فى كوخ واحد مستحلا ذلك فى نفسه ومبررا لنفسه بأنه فى حالة غير الحال الذى يعيش فيه الناس العاديون.[5]

ونلاحظ أن الصوفية يسخرون من التعلم بالورقة والقلم وفى الكتاب ويسخرون منهم، ويعتبرون شرط المعرفة، هو صفاء القلب والنفس.

وكتب ابن الجوزى ساخرا من الصوفية، الذين سخروا من العلم: إنهم جالسون على بساط البطالة، قد عدو التصوف تعطلا، وغرقوا فى ظلمات هواجس النفس واجتهدوا فى ذم أهل العلم، وزعموا أن الاشتغال بالعلم هو

---

(١) عبد الرحمن بدوى: شطحات الصوفية ص ١٠ وما بعدها.

(٢) ابن الجوزى: تلبيس إبليس ص ١٧٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٨١.

(٤) بدوى: المصدر السابق ص ١٠ وما بعدها.

(٥) ابن الجوزى ص ١٨٥.

إتلاف للوقت، وادعوا أن علوم الصوفية، تتحقق بلا واسطة، وأنها إفاضة من المنبع الفياض[1].

وقد أتلف الصوفية كتبهم، وقالوا لا حاجة إلى الكتاب والدفتر، ودفنوها فى التراب أو أحرقوها أو ألقوها فى الماء.

ويعتقد الصوفى أن السالك ينبغى أن ينقطع قلبه عما سوى الله، ومذموم عنده كل ما يمنعه من التقدم والإسراع خلال سفره الروحانى أو يكون شاغلا لقلبه[2].

والصوفى لا يرفض العلم تماما، بل هو واسطة لا غاية ومقدمة لا نتيجة، وبعد أن يستغنى السالك عنه، يجب عدم الالتزام به وبمصطلحاته، فليس العلم غاية.

والعلم الذى يرفضه الصوفى تماما، ويعده غيركاف للوصول إلى الحقيقة، هو العلم الذى يبحث فى معرفة الله، ويحكم معرفة الله عن طريق تصفية القلب أو الفناء فى الله، أى أن الصوفية يذمون العلم، ويطعنون العلماء الذين يريدون الوصول إلى المعرفة والحقيقة بالمنطق الناقص البشرى والفلسفة والحكمة[3]. ورأس كل العلوم معرفة النفس، والجاهل هو الذى لا يعرف شخصه جيدا ولا يحيط بنفسه، ويعتقد أنه يعلم كل شىء مستندا إلى العلوم المدروسة فى الكتب.

ومن مؤلفات الصوفية:

١ ـ يحيى بن معاذ الرازى: «كتاب المريدين».

٢ ـ ابن الجنيد: كتاب المحبة ـ وكتاب الخوف ـ كتاب الورع.

٣ ـ الجنيد: كتاب أمثال القرآن ـ كتاب الرسائل.

٤ ـ حسين بن منصور الحلاج: كتاب علم البقاء والفناء ـ كتاب اليقين ـ كتاب التوحيد.

٥ ـ كتاب طبقات الصوفية: تأليف عبد الله بن محمد الأنصارى (ت ٤٨١هـ).

---

(١) ابن الجوزى: تلبيس إبليس ص ١٠١ وما بعدها.

(٢) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام ص ٧١٩.

(٣) المصدر السابق ص ٧٢٢.

٦ ـ تذكرة الأولياء: تأليف فريد الدين العطار (ت ٦٢٠ هـ) بالإضافة إلى مؤلفات الغزالى والسهروردى وابن عربى.

والغزالى واضع أسس وأصول التصوف السنى، وحدد طرقه ووسائله فى كتاب إحياء علوم الدين واعتمد عليه المتصوفون المتأخرون، ورغم دراساته العميقة للفلسفة وعلم الكلام، إلا أنه يقول بأن علم القلوب لازم لزوم علم المرئيات والملموسات؛ لأن هناك عالمين عالم ظاهر وعالم باطن، أما عالم الظاهر فهو الذى نتناوله بالدراسة، ونعرفه بالتجربة والمشاهدة والملاحظة، وعالم الباطن نعرفه بالصفاء والحب الإلهى. ويقول: إن التقشف والزهد والفضائل العملية، سبيل إدراك الحقائق الخفية والإلهامات التى تجاوز عالم السمع والبصر.

فالمعرفة إذن هى غاية التصوف السامية، وأنكر نظرية اتحاد العبد مع الرب. فهذه قضية غير مقبولة عقلا(١). لذلك لم يستطع أحد أن يوفق بين التصوف والدين الإسلامى مثل الغزالى، وأضفى على العرفان صفة المذهب. وكتاب «إحياء علوم الدين»، ينقسم إلى أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات.

وقد راعى الغزالى فى كل ما كتب طريقة التوفيق بين الشرع والعرفان(٢)، ورفض نظرية الحلول، التى نادى بها الحلاج وقد أثيرت نظرية السعادة عند الفارابى فى الصوفية.

وسيطر الغزالى على الحياة الروحية فى عصره، إذ كان تصوفه يقوم على كتاب الله والسنة، وينفر من مناهج العقل التى دعا إليها الفلاسفة والمتكلمون، واتخذ من التصوف طريقا إلى الخلوة والعبادة ومعرفة الله، وبعد تطهير النفس وتنقيتها من ماديات الحياة، وعلائق البدن، وسبيلا إلى السعادة الحقيقية، ورحب بذلك كله أهل السنة(٣).

وحينما درس الغزالى كتابه «المنقذ من الضلال» ذكر أنه درس الفلسفة، فلم يعرف منها ما تصبو إليه نفسه من كشف للحقيقة، ومعرفة لليقين، وقد وقع فى

---

(١) إبراهيم بيومى مدكور: فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٦٣.
(٢) المصدر السابق ص ٧٢٣.
(٣) مدكور جـ ١ المصدر السابق ص ٦٣.

شك وحيرة، ودرس علم الكلام ولكنه وجد فى التصوف الذى يعتمد على القلب فى إدراك الحقائق الإلّهيــة، تصفية للنفس وانطلاقا منها إلى الحــصول على السعادة والمعرفــة عن طريق الكشف، ويحصل الإنســان على إلهامــات، لا يدرى الإنسان مصدرها فتصل نفسه إلى السعادة والمعرفة[1].

ومن خصائص التصوف فى العصور المتأخرة المغالاة والمبالغة فى الموضوعات المذهبية بكثير من المغــالاة، وبحثوا فى مقامات الأولياء، وصبغوا مــذهبهم بصبغة دينية حتى لا يتعــرضوا لاضطهاد الفقهاء، وأضفوا على التــصوف والعرفان ظاهرة دينية، تستند إلى القرآن والسنة، وصاغوا أفكارهم بصيغ يتقبلها العوام[2].

وظهر الصوفية بمظهر دينى وأخلاقى نال تقدير الحكام والعلماء والعوام، ومما أظهر شيــوخ الصوفية بمظهــر طيب ماتحلوا به من كبح جمــاح النفس، والإعراض عن حطام الدنيــا، واجتناب التلوث بمفــاسد الدنيا، وعــزة النفس وعدم الاهتــمام بالحكام والأغنياء وأصــحاب الجاه، والأمر بالمعــروف والنهى عن المنكر، والزهد، واجتناب الخطايا والذنوب. وظهــروا أمام الناس وكأن لهم أسرار خــاصة، وغالى مريدوهم فى بيان المقامــات الروحية لمشايخهم، ونسبــوا الكرامات إليهم، وخوارق العادات.

وصوفية القرن الخامس الهــجرى، لم يكن لهم صلة بالفلسفة وعلم الكلام، ويحاول الصوفى إبراز أقواله بترتيب وعمق بعــيدا عن الفلسفة، إنما يستند تارة إلى الآيات القرآنية، والأحاديث، وأحيانا إلى الأشعــار والذوقيات وحينا إلى المكاشفة والوجد والحال، لذلك اتجهت أنظار الصوفية إلى الشعر[3].

وفى القــرن السادس الهــجــرى اعتــمد المتصــوفون على الــفلاســفة مــثل الســهروردى (ت ٥٨٦ هـ)، وابن عــربى (ت ٦٣٨ هـ) صــاحــب مذهب وحــدة الوجود، وابــن الــفارض، وســايــرهم فى هــذا بـــعض شعــراء الــفــرس مثــل ابــن الرومى (ت ٦٧١ هـ)، فنشــأت على أيديهم نظريات فلسفــية فى تفســير الوجود والمعرفة.

---

(١) توفيق الطويل: فى تراثنا ص ١٧٧.

(٢) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام ص ٦١٧.

(٣) المصدر السابق ٦٨٦ ـ ٦٨٩.

وتدهورت الصوفية فى القرن السابع الهجرى وما بعده وتفشى بين شيوخها الجهل، واستغلال سذاجة العوام، وأوّلوا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لتتمشى مع خرافاتهم وأوهامهم.

ونختتم كلامنا عن الصوفية بدراسة لثلاثة من علمائهم، وهم ابن الفارض، وابن عربى وجلال الدين الرومى.

وُلد عمر بن الفارض فى القاهرة فى أوائل القرن السادس الهجرى (٥٧٦هـ ـ ١١٨٢م) وتوفى سنة (٦٣٠هـ ـ ١٢٣٥م)، وترك قصيدة أوضح فيها فكره الصوفى الذى وصل به إلى مقام الاتحاد، ووصل بعد معاناة شديدة إلى الحب الإلّهى.

ويقول: لأنت مُنى قلبى وغاية بغيتى وأقصى مرادى واختيارى وخيرتى

ويقول: هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا من الحب فاختر ذاك أو خلّ خُلّنى

ويذكر ابن الفارض ثلاثة أحوال للنفس فى معراجها الروحى: الأولى، عادية طبيعية. والثانية، غير عادية وغير طبيعية. والثالثة فوق العادة وفوق الطبيعية. ويشعر الصوفى فى هذه الحالة ببقائه لا بفنائه. ولكنه بقاء بالصفات الإلّهية، لا بصفاته هو وأعماله ويظهر للناس بصفاته الإنسانية، ويحتفظ لنفسه بصفاته مع الله ويشعر أنه متحد به

وابن الفارض يمدح الرسول ويتكلم كلاما متمشيا مع عقيدة الإسلام[١].

تتمثل صورة التصوف بأسمى معانيها فى شخصية محيى الدين بن عربى، الذى نشأ فى الأندلس،وتعلم علوم الدين واللغة، ثم جال فى الدنيا، ومارس حياة التصوف مع شيوخ كثيرين، ولقى بعض الصوفية فى المغرب، واستقر فى فاس سنة (٥٩١هـ)، وانصرف إلى الرياضة الروحية، وغادر المغرب إلى الشرق، ووضع قبل رحيله كتاب «مواضع النجوم» أوضح فيه الطريق الذى يجب أن يتبعه الصوفيون، وتوجه إلى مصر، ومنها إلى مكة المكرمة سنة (٥٩٨ هـ)، ورحل إلى الموصل سنة (٦٠١ هـ)، وعاد إلى القاهرة سنة (٦٠٣هـ)، وظهرت له كرامات، وتعرض لهجوم

---

(١) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

الفقهاء لأنه يقول بوحدة الوجود، ثم رحل إلى قونية فى دولة سلاجقة الروم، ووضع كتابين «مشاهد الأسرار» و «رسالة الأنوار»، وعاد إلى بغداد سنة (٦٠٨هـ)،وتتلمذ على يده كثيرون، وعاد إلى مكة حيث كتب «ذخائر الأعلاق».

أبرز ابن عربى فى كتبه العشق الروحى، وهو بعيد كل البعد عن العشق الجسدى، وعاد إلى دولة سلاجقة الروم، ثم توجه إلى حلب، ورحب به السلطان الظاهر غازى ـ صاحب حلب ـ واستقر فى دمشق حتى وفاته سنة (٦٢٠هـ).

كتب ابن عربى أربعمائة كتاب ورسالة، وأعظم كتبه «الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المكية والملكية» جمع فيه كل ما أورده فى كتبه الأخرى.

جمع ابن عربى خلاصة آراء الصوفية فى كتبه من حيث العشق ووحدة الوجود، ونسق كل آراء الصوفية هذه، ويرى أن الدواء الذى يشفى الإنسان من أفكار الفلاسفة، هو التصوف والزهد.

كان ابن عربى يتصل بالشيوخ والعلماء من الصوفية، وبأرواح الموتى منهم. وبعد أن تدرب على العمل الصوفى ومجاهدة النفس، وآثر العزلة، وترك المشايخ، وخلا إلى المقابر، يقضى النهار بطوله فيها يتصل بأرواح الموتى، كان يجلس على الأرض باكيا، متأملا فى قدرة الله وقوته، وقضية الحياة والموت. وبذلك اشتد إيمانه بخوارق العادات، وشاهد كرامة قدمها صوفى، وهى عدم احتراق الجسد بالنار، واتصل بالصوفية رجالا ونساء، وعاش مع الصوفية فاطمة فى كوخ لمدة سنتين، وشاهد عن قرب الظواهر العجيبة التى كانت تصدر عن فاطمة. ثم جال فى الأرض.

ورأى الصوفية فى دولة الإسلام فى منامه، واشتهر أمره بين المسلمين، ولجأ إليه المريدون من كل مكان، وأينما حل وارتحل، وفى زيارة ابن عربى لتونس، تجلى له الخضر فى ليلة قمرية.

وفى مصر أقام ابن عربى مع بعض الصوفية فى زقاق القناديل يقضون نهارهم فى التأمل، وليلهم فى العبادة فى الظلام، وتجلت لابن عربى فى هذه الظلمات كرامات، وتوصل إلى وحدة الوجود.

وعارض فقهـاء مصر والشام آراء وأفكار ابن عربى واتهمـوه بالكفر وطالبوا الملك الكامل بمحـاكمـته، ولكنه رفض. ووجـد ابن عربى حـياة هادئة فى آسـيا الصغرى، وصنف فيها معظم مؤلفاته، وعاد إلى بغداد، واتصل بالصوفى الكبير، السهروردى، وكان صاحب مدرسة في الوعظ والمجاهدات الصوفية، والتف الناس حول ابن عربى فى بغـداد، وكان يمشى فى شوارعـها محاطا بتلامـيذه ومريديه. وعلت مكانته على مكانة الخليفة الناصر.

لقى ابن عربى حفـاوة من ملوك عصره، فاستضافـه الملك الظافر ـ صاحب حلب ـ وأفرد لابن عربى بيتا خاصا، وزاد نفوذه فى حلب، وكان الملك لا يرد له طلبا. وفى نهاية حيـاته استقر فى دمشق وكثرت تجليـاته، ووضع فى أواخر حياته كتـابه «فصوص الحكم» وقـال بأن الرسول ظهر له فـى المنام، وذكر أنه وضع هذا الكتاب على لسان الرسول، وفى هذا الكتاب أبرز فيه آراءه فى وحدة الوجود وفى التصوف، وهذا الـكتاب على شكل إلهامات مـوزعة بين السبع وعشريـن نبيا من أنبياء الله من آدم إلى محمد. وعاش ابن عربى يصنف الكتب، ويقضى الوقت مع تلاميذه ومريديه حتى وفاته سنة (٦٣٠ هـ).

وتمثل كتب ابن عربى القواعد العلمية والنظرية فى التصوف. وخلاصة فكرة التـصـوف عند ابن عـربى، أن إدراك وحدة الـوجود خـلاصـة المطلب الأسـمى للتـصوف، فالـنفس بالطهارة والنقـاوة تعود إلى الله لأنهـا صدرت عنه. يشـاهد الصوفى محبـوبه بالقرب منه، ويشعر بلذة الوصول إليـه بتجربة ألطف وأوسع من الوصال الجسمانى؛ لأن الله روح محصن، فلا يمكن للإنسان أن يتصل به إلا عن طريق المجاهدات والعزلة والزهد والعبادة والتخيل[1].

وُلد جلال الدين الرومى فى مدينة بلخ سنة (٦٠٤هـ)، وانتقلت الأسرة إلى نيسابور بسبب اقـتراب الغزو المغولى، والتقى الطفل جلال الدين بـالصوفى الكبير فريد الدين العطار، وتعلم منه بعض الدروس عن الصوفية، وهاجرت الأسرة إلى بغداد ومنهـا إلى مكة ثم إلى فلسطين، وعاد إلى قونيـة فى آسيا الصغـرى حيث مارس عـمل والده فى الوعظ والتـدريس، وكان واعظا بليـغا قـوى التأثيـر على

( ) بلاثيوس: ابن عربى حياته ومذهبه ص ٢٥٢.

تلاميذه وبعد سنوات من ممارسة الوعظ تحول إلى الصوفية حتى أصبح شاعرا من أعظم شعراء الصوفية، وتأثر بالصوفى الكبير، التبريزى، وجد فيه الإنسان الكامل والمثل الأعلى، وانقطع إلى الصوفية، وترك الوعظ، وعاش مع شيخه لا يكاد يفارقه، وأقبل عليه التلاميذ من كل مكان، وكان أكثر جلوسه مع الفقراء، وكان يدعو الناس إلى العمل والإنتاج، ومصاحبة الصالحين. وتوفى سنة (٦٧٢هـ).
وتصوف جلال الدين يغلب عليه النزعة الدينية:
- التصوف هو أن تحب الله وتكره العالم.
- التصوف هو أن تفنى عن نفسك وتبقى بربك.
- التصوف هو التخلى عن صفات العبودية والتحلى بصفات الربوبية[١].
يا من هو عزاء النفس فى ساحة الحزن والغم فأنت علة أفراحى وأحزانى
ماذا عسى أريد غير ما تريد،
لو أردت أن أكون كذا لكنت كذا.

كانت لدى جلال الدين الرومى المقدرة على التعبير واختيار الأسلوب، وجلال الدين يكتب للصوفية وحدهم. والغزالى يرى أن معرفة الله ليست قاصرة على الأنبياء والأولياء والصوفية وحدهم، ففى مقدرة أى إنسان أن يعرفها عن طريق قراءة القرآن، والتأمل فى عظمة الكون وقدرة الخالق. وقال: إذا لم تر الشيطان، فاستح من ذنبك، واعترف به أمام ربك، واطلب منه العفو والمغفرة، واترك المعاصى حتى تعود إلى الله وتنال رضاه.[٢]

ومن أشعار ابن الرومى
«يا من هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحَزَن.
يا من فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز.
يا من نحوه أُولِّى وجهى فى عبادتى، لِمَا يطوف
بى منه من طائف لا يلحقه الخيال ولا يدركه العقل.

... ...

لو أننى حُبِيتُ ملكا لا يبلى،
أو أن كنزا خفيا تفتَّح لى عن كل ما فى الوجود،

---

(١) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى ص ١٥٣.
(٢) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى ص ١٥٥ وما بعدها.

ويقول فى العشق الإلهى:

إياك أوثر على كل ما فى الوجود

فهل يرضيك قعودى على الهم والألم؟

وقلبى فى يديك كالقلم.

فأنت علة أفراحى وأحزانى.

ماذا عسى أن أريد غير ما تريد؟

وماذا عساى أن أرى غير ذلك الذى ترينى؟

لو قضيتَ بأن أكون كيت لكنت كيت.

ولو أردتَ أن أكون كذا لكنت كذا.

ويقول:

هلم هلم فإنك غير واجد صديقا مثالى.

وأين بمثلى حبيبا فى جميع الوجود؟

هلم هلم ولا تقض العمر فى حيرة.

فليس لِمَالِكَ سوق غير ذاك!.

كأنك واد مقفر ماحل وكأننى المطر.

بل كأنك بلد خراب، وكأننى البنَّاء.

لولا عبادة الإنسان إياى ما أحس للسعادة طعما.

فإن العبادة مطلع شمس السعادة.[1]

كان من نتيجة ازدهار حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية فى العصر العباسى، أن أصبحت فلسفة اليونان فى متناول رجال الفكر المسلمين. لذلك فإن الفلسفة عند المسلمين هى اقتباس من فلسفة اليونان، ومحاولة الاستفادة من علومهم.

وكثر علماء الفلسفة المسلمين، وأقبلوا على دراستها والتأليف فيها ومن فلاسفة المسلمين، الكندى فيلسوف العرب كما يقولون عهد إليه المأمون بترجمة كتب أرسطو، وعكف على طلب الحكمة، ينظر فيها، التماسا لكمال نفسه.

---

(١) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى.

ومن أقواله: العاقل من يظن أن فوقه علما، لأن العلم بحر واسع، كلما سعى إليه الناس، أدرك حاجته إلى المزيد.

ومن أشهر علماء الفلسفة المسلمين، الفارابى وابن سينا وابن رشد، والفارابى هو محمد بن طرخان بن فاراب، نشأ فى بلاد ما وراء النهر، وقد أطلق عليه المعلم الثانى للبشرية، على اعتبار أن أرسطو المعلم الأول، انتقل إلى حلب، وأقام فى رعاية سيف الدولة يعلم طلابه الحكمة فى الحدائق المحيطة بحلب وقد صحب سيف الدولة عند فتحه دمشق، وتوفى بها سنة (٣٣٩هـ) والفارابى من أسبق المفكرين المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم الإسلام، وله عدة رسائل فى علم النفس والمنطق والأخلاق والسياسة المدنية، وآراء أهل المدينة الفاضلة، كما ألف أيضا فى الموسيقا والفلك(١).

رسم الفارابى نموذجا للمدينة الفاضلة، لها رئيس لا يرأسه إنسان آخر، وهو الإمام، وهو رئيس الأمة الفاضلة ومن صفاته سلامة الأعضاء، ولابد أن يكون جيد الفهم، جيد الفطنة ذكيا، طلق اللسان، محبا للعلم، مقدرا للعلماء يبغض اللذات، متعاليا على الأمور التافهة، معتزا بكرامته، ولا يتكالب على المال، عادلا، منصفا، يقدر أهل العدل، ويبغض الظلم، وأهل الجور، ينصف المظلوم من الظالم، ويعطى كل ذى حق حقه، لا يكون طموحا يتطلع إلى الحسن والجميل، يصعب حمله على الجور والقبيح، يقدم على اتخاذ القرارات الرئيسية بحزم وبلا تردد(٢).

وعلى رئيس أهل المدينة الفاضلة أن يتحلى بهذه الشروط والتى يكتسبها منذ صباه، وهى الحكمة والعلم بالشرائع والسنة ويجب أن يسير سيرة السلف الصالح، وأن يجتهد، ويدبر ما فيه صلاح الرعية، ويستنبط من الشريعة والسنة ما فيه صلاح الرعية، ويحسن توجيههم وإرشادهم، وعليه تقديم الموعظة للناس التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة، يتقن أساليب الحرب والقتال، وقيادة الجيوش، ووضع الخطط والاستعدادات التى تكفل له ولأهله النصر على الأعداء، ودرء خطرهم وإذا

---

(١) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢٣١.
(٢) أبو نصر الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٢٩.

لم تتوافر هذه الشروط فى واحد، وتوفر شرط الحكمة فى واحد آخر، كان الاثنان حاكمى المدينة(١).

والمدينة الفاضلة يقابلها المدن الجاهلة والفاسقة والضالة. والجاهلة هى التى لم يعرف أهلها السعادة. وهذه المدينة تتفشى فيها الرذيلة والبؤس والفقر والحرمان، والمدينة الفاسقة التى تعرف خصائص أهل المدينة الفاضلة ولكن أهلها يعيشون فى جهل وجهالة(٢).

والمدينة الضالة، كانت تعيش فى سعادة، وتعتقد فى الله واليوم الآخر، بشكل خاطئ وبخيالات غير صحيحة وركب رئيسها الغرور والتعالى، واعتقد أنه يوحى إليه. وملوك المدن الجاهلة والضالة والفاسقة أعداء لملك المدينة الفاضلة، وأهل المدينة الفاضلة أعداء لأهل المدن الفاسقة والضالة والجاهلة، وأهل المدينة الفاضلة اكتسبوا صفات حاكمهم، واكتسب كل واحد منهم من أفعاله صورة نفسية جيدة فاضلة، وكلما داوم عليها أكثر، صارت هيئته أقوى وأفضل، وتزايدت قوتها وفضيلتها، وتزيد قوتها وفضيلتها باستمرار أفعالها السليمة، وتلك حال التى ينال بها أهلها السعادة، وتتجه بنفوس هؤلاء الناس إلى الكمال. وتتصل الأنفس الطاهرة بعضها ببعض، الحاضر منها والماضى، فتجد هذه النفوس فى ذلك لذة ومتعة(٣).

وأما سائر المدن أصحاب الأفعال الرديئة، أكسبتهم خصائص نفسانية رديئة. وأحوالهم النفسانية مريضة، ويستلذون بالرذائل، ويتأذون بالأشياء الجميلة الفاضلة أو لا يتخيلونها أصلا. ورغم أمراضهم النفسية، فإنهم لا يشعرون بها، ولكن يشعرون بأنهم فضلاء أصحاء(٤).

ويذكر الفارابى أن الإنسان لا يصل أبلغ كمالاته إلا فى المجتمع وأفضل المجتمعات الإنسانية التى تنتظم فى المدينة الفاضلة، وهى تشبه الجسم الكامل الذى تتعاون أجزاؤه لتحقيق الحياة الكريمة والمحافظة عليها. وكما أن أجزاء الجسم

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٣.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٣.
(٣) المصدر السابق ص ١٣٤.
(٤) المصدر السابق ص ١٣٥.

تخضع لجزء واحد وهو القلب، فهو أول ما يتكون فى الجسم، يليه سائر الأعضاء ويديرها القلب. كذلك رئيس المدينة، هو إنسان تحققت فيه كل الصفات الفاضلة للإنسان[1].

والإنسان إرادة حرة بجانب العقل، وظيفته تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة. والسعادة البشرية هى أن تبلغ النفس درجة من الكمال تجعلها تقوم بدون مادة فتصبح جوهر أفكارها. وأنفس أهل المدينة الفاضلة تكتسب الخلود، وتُخلَّد فى السعادة، أما أهل المدينة الضالة والفاسقة والجاهلة، فمصيرها البؤس والشقاء والزوال.

وسعادة الأنفس بتأملها للحقائق، وتتصل أنفس أهل المدينة الفاضلة بعضها ببعض، وتصير كنفس واحدة، وكلما اتصلت الأنفس الفاضلة بعضها ببعض، تصير كنفس واحدة وزادت سعادتها، وأما إذا جهلت هذه الحقيقة، يكون مصيرها الزوال. وسعادة الأنفس يكون بتأملها الحقائق الأزلية وهى سعادة عقلية محضة[2].

واستفاد الفارابى من أفلاطون ومن الفلسفة اليونانية ومن آراء الإسماعيلية التى تقول بالإمام المعصوم.

كان الفارابى يعيش فى عالم العقل، ويقنع بالقليل من الدنيا ويحب التأمل فى جمال الطبيعة وعظمة الكون، ولم تكن فلسفته ترمى إلى إشباع الرغبات المادية، وكان يعارض الخيالات التى تقع بين الحس والعقل، والتى تظهر فى الفنون[3]. أجل الفارابى تلاميذه من عشاق الفلسفة، بينما كفره رجال الدين لما يظهر من آراء فلسفية تتمشى مع نظرية وحدة الوجود، والفارابى يفترض فى رئيس المدينة الفاضلة أن يتصل بربه ليلهمه الحكمة وفصل الخطاب، ويجب عليه أن يندمج فى عالم الروح ويحيا بروحه أكثر مما يحيا بجسمه، وبهذا الاتصال يجب عليه أن يجذب مرءوسيه نحوه بحكم اتصاله بالله، ويقوم على تهذيب أرواحهم،

---

(١) المصدر السابق ص ١٤١.

(٢) المصدر السابق ص ٥٩.

(٣) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٢٥.

ويصعد بهم إلى مستوى النور والإشراق، فنحن إذن أمام مدينة سكانها قديسون، ورئيسها نبى ملهم[1] وهى مدينة لا يمكن أن يتحقق وجودها؛ لأنها تتناقض مع طبائع النفوس البشرية التى تختلف تماما من شخص إلى آخر ولا يمكن لحاكم أن تتوافر فيه هذه الصفات، لأن الكمال لله وحده. والحاكم حتى ولو كان فاضلا، فلا يستطيع أن يحقق الفضل والحكمة والفضيلة لأهل مدينته؛ لاختلاف طبائع النفوس بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة. وهذه المدينة لا يمكن تحقيقها إلا فى خيال الفارابى نفسه.

ويقول العقاد: إن فلسفة الفارابى فلسفة إسلامية لم ير فيها جمهور المسلمين من الباحثين فى الفكر الإسلامى حرجا ولا موضع ريبة، ولا تغضب المسلم المتمسك بدينه.

ينتمى الفارابى إلى أسرة غنية، نشأ فى فاراب ببلاد ما وراء النهر، واشتغل بالقضاء، وكانت نفسه تتطلع إلى معرفة الحقيقة والكشف عن المجهول فى هذه الدنيا، ورحل إلى بغداد ـ ملتقى الثقافة والفكر ـ وتعلم بها الفلسفة، وكان يعرف أكثر من لغة، العربية والفارسية والتركية. وكان يخرج إلى الأماكن التى بها أشجار وبساتين وزروع، ليقرأ ويعزف الموسيقا، ودرس فلسفة أرسطو وأفلاطون وجالينوس.

بلغت مؤلفات الفارابى ١١٧ مؤلفا فى المنطق وعلوم التربية والعلم الطبيعى والعلم الإلهى والأخلاق والفلسفة والحساب والهندسة والمناظر والنجوم والرياضيات والطب وغيرها. من أهم موسوعاته الجامعة «إحصاء العلوم» وهى من الموسوعات العربية فى هذا المجال. ومن مؤلفاته الفلسفية «الجمع بين الحكيمين أفلاطون وأرسطو» ـ «السياسات المدنية» «آراء أهل المدينة الفاضلة» ـ «الأخلاق والسياسة» «التنبيه على سبيل السعادة» ـ «الموسيقى الكبير» وهو من أفضل كتب الموسيقا العربية ـ «كلام فى الموسيقا»[2].

ابن سينا

كانت مشكلة القضاء والقدر مثارة فى أيام ابن سينا، وتجلى ذلك فى رسائله، ووضع فيها عدة رسائل، وتجلى من ذلك معاناته فى السجن والعزل.

---

(١) مذكور، فى الفلسفة الإسلامية جـ ١ ص ٧٢.

(٢) عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفى فى الإسلام جـ ٢ ص ١٧١.

والطرد من الوظائف، ومن البلاد التى كان يقيم فيها، والهرب من بطش الحكام. لذلك جاءت رسائله قطعا أدبية رائعة فى الخيال، وهو يسلم بأن للعبد إرادة.

وفلسفة ابن سينا إما نظرية أو عملية، وتشمل الطبيعيات والإلٓهيات والرياضيات وفروعها. وتشمل الثانية، الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل. وتأثر بفلسفة أرسطو وأفلاطون. وحاول التوفيق بين فلسفة أرسطو والعقيدة الإسلامية.

يقول: المادة مكان الوجود، والخلق توالى الوجود وتحققه بالفعل بعد أن كان بالقول، وليست الماهية والوجود شيئا واحدا إلا فى الله. أما فيما هو خارج عنه، فالوجود عارض على ماهيته، ويسمى توال هذا الوجود «خلقا» وهذا الخلق قديم. والله واجد الوجود، وهو الخلود.

كانت الفلسفة الأرسطية المصطبغة بالفلسفة الأفلاطونية معروفة عند الشرقيين فى الصورة التى عرضها ابن سينا. وفى سنة (٥٤٤ هـ) أمر الخليفة العباسى المستنجد بإحراق كتب ابن سينا، لما تتضمنه من كتب فلسفية، اعتبرها خارجة عن الدين، وكانت عند أحد القضاة[1].

وظل الفلاسفة المسلمون يخوضون فى أبحاثهم عن الله والوجود وقدم العالم والنفس الإنسانية وما وراء الطبيعة، إلى أن ظهر الغزالى ودرس الفلسفة، وتعمق فيها ووضع كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» هاجم الفلسفة والفلاسفة، وعرض بدقة وموضوعية آراء الفلاسفة، وفند آراءهم حجة حجة، وجملة المسائل التى عالجها عشرين مسألة أثنى عليهم فى سبعة عشر وكفرهم فى ثلاث، ورد على المسائل التى تناقض مذهبهم، لذلك تصدى ابن رشد - الفيلسوف الأندلسى - فى الرد عليه، وقال: لا شك أن هذا الرجل أخطأ فى الشريعة كما أخطأ فى الحكمة، ثم فند آراءه.

وتعرض الغزالى للشكوك، ولبريق الدنيا، ولكن طموحه كان أكبر من الدنيا، وفى مرض أصابه أدرك قوة الله وقدرته فانعزل عن الدنيا، ونصَّب نفسه مدافعا عن الإسلام، مصلحا للدين من الآراء والأفكار التى داخلته، وقضى الفترة

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٤٤هـ.

الأخيـرة من حـياته مـتنقلا بين المدن الإسـلاميـة. وفى هذه الفتـرة كتب مـعظم مؤلفاته، مثل كـتاب «إحياء علوم الدين» وقضى أواخر أيامه فى العبـادة ومجالسة أرباب القلوب، ومجالسة أهل العلم[1].

درس ابن رشد فلسفة أرسطو، ورد على الغزالى فى كتابه «تهافت التهافت» أورد فيـه المسائل الـتى كتب عنهـا الغزالى، ويأتى بالمسـألة، ويرد عليـها، مبـرئا الفلاسفة والفلسـفة من الاتهامات التى وجهها الغزالى ضـدهم، وكانت مهمة ابن رشد صعبة؛ لأن المسلمين درسوا فلسفة الغزالى واقتنعوا بالحجج التى دافع بها عن الدين، وتجنبوا المسائـل التى تبعدهم عن الدين؛ لذلك كان عليـه أن يلتزم بالحذر الشديد فى دفاعه عن الفلسفة.

وقد ألحق ابن رشد فى كتابه التهافت، كتابين آخرين، هما «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال «الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة».

والمسائل التى كفَّر فيها الغـزالى الفلاسفة، أقوالهـم فى قدم العالـم ـ علم الله للكليات دون الجزئيات فقط.

ومن فلاسفة الإسلام ابن طفيل

(ت ٥٨١هـ)، ويرى البعض أنه تلميذ لابن باجة، وكان طبيبا فى غرناطة، وعمل كاتبـا لبعض الأمـراء، وارتـفـع شأنـه حتى أصـبح طبيبا لخليـفة الموحدين أبو يعقوب يوسف المنصور وله مصنفات فى الطب، وله آراء قيمة فى الفلك، ولم يبق من مؤلفاته إلا رسـالة حى بن يقظان، أو أسرار الفلسفة الإشـراقية، وبدأ ابن طفيل رسالته بموجز مفيد هام عن تاريخ الفلسفة فى الإسلام، يمتدح ابن طفيل فيه ممن تقدمه من الفلاسفة، ابن سينا وابن باجة والغزالى، والأساس الفلسفى لرسالة ابن يقظان، هو الطريق الذى كان عليه فلاسفة المسلمين، الذين نهجوا على مذهب الأفلاطونية الحـديثة، وقد صور ابن طفيل الإنسان الذى هو رمـز العقل فى صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ورمى ابن طفيل من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة، وهو موضوع شغل أذهان المسلمين جميعا.

---

(١) السبكى: طبقات الشافعية جـ ٤ ص ١٠٩.

وكان ابن طفيل فيلسوفا وطبيبا، وله رسالة (حى بنى يقظان) تدل على براعة فى تشريح الأجسام الميتة والحية فقد شرح ظبية حية وشق عن قلبها، فذكر أن فيه تجويفين، أحدهما إلى اليمين وثانيهما إلى اليسار، وكان فيه هواء حار، وذكر أن هذا الدم الموجود فى القلب هو كالدماء الموجودة فى الجسم كله فى جميع الأعضاء، وأن الدم متى سال من الجسم جمد.

يتخيل ابن يقظان جزيرتين بإحداهما العرف والتقاليد والأديان والعادات والثانية تنشأ وتنمو على الفطرة، ويعتقد أهلها ببعض المعتقدات البدائية ويظهر فى الجزيرتين فتيان من أهل الفضل، يسمى أحدهما سلامان أو سلمان والآخر آسال، يسموان بعقليهما إلى المعرفة والتغلب على الشهوات وأحد الولدين ينزع بعقله نزعة عملية، فهو يساير دين العامة، حتى يسوده والثانى ينزع إلى النظر العقلى الصوفى، إذ يرتحل إلى الجزيرة المقابلة لجزيرته، ظنا منه أنها غير مسكونة. وفى هذه الجزيرة ينعزل هذا الفتى ويتفرغ للدرس والزهد[1].

ولكن حى بنى يقظان ترعرع فى هذه الجزيرة حتى صار فيلسوفا كبيرا وكان قد قذف بها إلى أرضها طفلا، أو تولد من اختلاط بعض العناصر، وأرضعته ظبية واستطاع حى بالتفكير أن يتوصل إلى حاجاته الخاصة، ثم توصل بفطرته إلى معرفة خلق السماوات والأرض، ومن هنا عرف الله وعرف نفسه، وظل فى تأمل لقدرة الله حتى وصل إلى ما وصل إليه الصوفية من الفناء فى الله، عند ذلك لقيه آسال ولم يكن حى يعرف اللغة فى أول الأمر، ولكن بعد أن استطاع كل منهما أن يتفاهم مع صاحبه، تبين أن فلسفة حى وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة، ولكنها عند الأول أكثر وضوحا. ولما عرف حى أن بالجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها لا تزال تتخبط فى ظلام الخطأ اعتزم الوصول إلى هؤلاء القوم، لتوضيح الحقيقة لهم، فأدرك أن العامة لا قدرة لهم على فهم الحقيقة مجردة، وأدرك أن محمدا أصاب الحقيقة حين ضرب لهم الأمثال من واقع الحياة الحسية، ولم

---

(١) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٧٦ ، ٣٧٧.

يكاشفهم بالنور الكامل. وبعد أن انتهى إلى هذه النتيجة، عاد مع صديقه آسال إلى جزيرتيهما، ليقضيا فيها ما تبقى لهما من عمر.

ومن خلال هذه القصة يصور ابن طفيل حياة الإنسان والأطوار التى يجب أن يتطور فيها حتى يصل إلى الكمال، على أن ابن طفيل يرى أن الفرد لا يستطيع وحده منعزلا عن المجتمع أن يبلغ الكمال، وأن يصل إلى الحقيقة، وإذا استطاع فرد بطريق التصوف والعزلة أن يصل إلى معرفة الله، فذلك لا يتاح لكافة الناس، ومن هنا بعث الله الرسل إلى الناس. وكانت الرسالة المحمدية التى بعث الله بها إلى الناس كافة.

وتتمثل فى قصة حى بن يقظان الأطوار التى مر بها الدين، كما يتمثل تطور الحكمة الهندية والفارسية واليونانية[1].

الطب

استفاد العرب من خلاصة تجاربهم الطويلة فى علاج المرض بالأعشاب والعلاج بالكى إلى غير ذلك من الطرق البدائية. وفى صدر الإسلام فى عصر الرسول ظهر ما يسمى بالطب النبوى، وهو عبارة عن أحاديث للرسول تتضمن نصائح بتجنب أسباب المرض مثل «النظافة من الإيمان» - «المعدة بيت الداء» - «ما ملأ ابن آدم وعاء قط شرا من بطنه» - «إذا كان طعام أحدكم فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» - «فر من الطاعون كما تفر من الأسد»[2] - «إن لبدنك عليك حقا» - «جوعوا تصحوا» ويقول ابن خلدون عن الطب النبوى: (فلا يصح أن يُحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا أُستعمل على وجه التبرك)، والرسول بُعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعليم الطب» وهذه النصائح وإن كانت لا تعد فى صميم الطب، وإنما نصائح مفيدة، تنفع المؤمن. على كل حال هى حكم خلاصتها نصائح طبية من خبرة الرسول ومن خلاصة إيمانه فيها النفع للمؤمن.

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى جـ ٤ ص ٥٤١.
(٢) ملحوظة: أذكر هذه الأحاديث بمعناها وليس بنصها.

وفى العهد الأموى استفـاد العرب من الرهبان الذين درسوا الطب اليونانى، ونسـمع عن ابن آثال ـ طبيـب معـاوية ـ وأبو الحكم النصـرانى وكان عـالما بأنواع الأدوية وسرجون اليهودى(١).

ومن الأطبـاء الذين ظهروا فى القـرن الثالث الهـجرى حنين بن إسـحاق ـ صـاحـب العـشر مـقـالات فى طـب العـيـون (ت ٢٦٠ هـ)، وثـابـت بـن قـرة (ت ٢٥٨هـ)، ألف فى الطب كـتاب الذخـيـرة، وكتـاب أوجاع الكلى والمثـانة ـ وكتـاب فى المولود ابن سبعـة أشهر، وترجم لجـالينوس كتاب الأمـراض الحادة، وكتاب تشريح الرحم، ومن الأطباء قسطا بن لوقا البعلبكى (ت ٣٠٠هـ)(٢).

يعتبر أبقراط المعلم الأول لمهنة الطب، وهو أول من رتب الطب وبوبه وذلك فى القرن الخامس قبل الميلاد، ولقـد درس الطب على أسس علمية سليمة، ورفع من آداب المهنة، وأرسى تقـاليـدها، وحـررها من الخـرافـات، وجعل التـجـربة الصحيحة أساسا له، وخلف سبعا وثمانين كتابا ورسالة فى شئون الطب(٣)، ونقل العرب عددا من كتبه، كما نبغ فى الطب عدد من أساتذة جامعة الإسكندرية وكان جالينـوس من أشهرهم ـ مـات فى صقليـة ـ ويمثل جـالينوس المركز الثـانى بعد أبقراط، وترجم المسلمون كتبه أيضا(٤).

شجع الخلفاء العـباسيون الأطبـاء على تأدية رسالتهم الإنسانيـة، فمنحوهم الرواتب الكبيرة، وكافأوهم أحسن مكافأة، وشـجعوهم على الترجمة والتصنيف، وأسسوا المدارس الطبية.

اعتمد العبـاسون الأوائـل على أطبـاء جـنـديـسابـور فـى الـعـلاج ونبـغ من آل بختـيشوع الكثـير من الأطباء، ودخلوا فى خـدمة الخلفاء العـباسيـين، وعين الخليفة الرشيد بختيشوع رئيسا للأطباء، وله كتب منها «التذكرة»(٥).

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٣٠ ـ ٣٨.

(٢) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ ١ ص ١١٦ ، ١١٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٤.

(٤) ابن أبى اصيبعة: عيون الأنباء جـ ٢ ص ١٢٥.

(٥) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ ٢ ص ١٢٥.

أما جبريل بن بختيشوع فكان مشهورا بالفضل، جيد المداواة جعله الرشيد رئيسا لأطباء بغداد. وكان رجال الدولة يقصدونه للعلاج لأنه نجح فى علاج الرشيد ووزراءه وكتابه. وكان الخليفة الأمين لا يأكل ولا يشرب إلا بأمره، واعتمد عليه المأمون فى علاجه من مرض عجز الأطباء فى علاجه[١]، والخلاصة أن آل بختيشوع أجل أهل زمانهم، بما خصهم الله من شرف النفوس، ونبل الهمم، والبر والمعروف، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بيد المنكوبين[٢].

ومن أبرز أطباء العصر العباسى يوحنا بن ماسويه وهو من أصل سريانى، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، وله تصانيف قيمة، وكان يجتمع إليه الكثير من تلاميذه. ومن الأطباء سهل بن سابور وجبريل الكحال. ومن أطباء المعتصم سلمويه وكان على حد قول المعتصم يمسك حياته، ويدير جسمه[٣].

وكان طبيب المعتصم ينصحه بتجنب الأطعمة العسيرة الهضم. وكان الأطباء يعتمدون على التجربة، وقسموا التجربة إلى قسمين قسم طبيعى، وهو ما تفعله الطبيعة فى الصحيح والمريض، وقسم عرضى وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل، وقسم إرادى وهو خاص بالنواحى النفسية والعصبية التى تصيب الإنسان، وحرصوا على تشخيص الأمراض بدقة واستعمال الدواء المناسب من مرض إلى مرض يشبهه، ومن عضو إلى عضو يشبهه، ومن دواء إلى دواء يشبهه، وكل ذلك يحتاج إلى التجربة، وحددوا وظائف الأعضاء وعرفوا أن الضدين لا يجوز اجتماعهما فى حال، وأن وجود أحدهما ينفى وجود الآخر، وعرفوا أن السبيل إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية، منها معرفة الأبدان فى الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها والأعمال والصنائع والعادات والأطعمة والأشربة، ومعرفة قوى الأمراض[٤].

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٣.

(٢) المصدرالسابق.

(٣) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ص ٢٢٦.

(٤) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ٢٩٥.

وكما تختلف الحيوانات فى صورها وطباعها، كذلك أعضاء الحيوان مختلفة فى صورها وطباعها، وأن الأحياء الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها، وبالحركة والسكون والأغذية والنوم واليقظة وسهولة الهضم والأعراض النفسية من الغضب والحزن، وأثبتوا أن خير دواء هو الذى يظهر تأثيره الصحيح فى الجسم(١).

وحنين بن إسحاق من أعظم مترجمى التراث اليونانى فى الطب، ومن أهم كتبه فى الطب «العشر مقالات فى العين» ذكر فيه أن روح الأبصار تنقل من العقل إلى العين إلى عدسة العين وتخرج بعد ذلك إلى الهواء الخارجى، فتحدث فيها تغيرات مماثلة لما يحدثه ضوء الشمس، ويعد هذا الهواء المتغير وسيطا بين العين والشىء المرئى(٢).

وكان حنين من أكبر المترجمين فى عصره، وساعده فى ذلك على ترجمة كتب الطب ودراستها، ومن كتبه «المسائل فى الطب».

وكان حنين جليلا فى زمانه، وهو الذى أوضح معانى كتب أبقراط وجالينوس، ولخصها أحسن تلخيص، وتعرض لكثير من المحن التى جلبها عليه حساده(٣)، لما كثرت ترجماته من اليونانية إلى السريانية والعربية، ومن السريانية إلى العربية وتشمل أكثر من تسعين مصنفا. ومن مؤلفاته تفسير كتب جالينوس وتبلغ خمسة عشر كتابا(٤)، ودس له الدساسون لدى الخليفة، وزعموا أن بهذه الكتب عبارات إلحادية، فسُجن، ولكن الخليفة المتوكل أدرك قدر هذا العالم، فأفرج عنه، وله مائة كتاب فى الفلسفة والطب والمنطق والنحو والتاريخ. ذكر حنين بن إسحاق فى كتابه «العشر مقالات فى العين» أن روح الأبصار تنتقل من العين إلى العقل، إلى عدسة العين، وتخرج بعد ذلك إلى الهواء الخارجى،

---

(١) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٨٥.
(٢) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ١ ص ١٩٨.
(٣) القفطى: إخبار العلماء ص ١٧١.
(٤) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ ١ ص ١٩٨.

فتحدث فيها تغيرات هائلة بسبب ضوء الشمس، ويعد هذا الهواء المتغير، وسيطا بين العين والشيء المرئى، وكتب عن كليات الطب والأمراض والأدوية المفردة والمركبة والنبض والحمى والبول[١].

ازدهرالطب فى بلاد الإسلام بعد ازدهار حركة الترجمة وأصبحت كتب اليونان فى الطب فى متناول الأطباء المسلمين، يدرسونها، ويستفيدون منها، ويضيفون إليها خلاصة تجاربهم وأفكارهم، وظهر منذ بداية القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى - أطباء رفعوا من شأن المهنة، ومستوى الأداء وتوصلوا إلى أساليب جديدة وصحيحة فى علاج المرض، وصنفوا الكتب القيمة فى هذا المجال.

ومن أبرز الأطباء المسلمين أبو بكر بن زكريا الرازى، ولد فى الرى بالقرب من طهران سنة (٣١١هـ)، وهو طبيب وصيدلى وكيماوى. ومن كتبه (سر الأسرار) يتضمن تجارب توصل إليها، وتوصل إلى معرفة واختراع بعض العقاقير، أطلق المسلمون عليها (عجائب المخلوقات) وعلى الطبيب أن يعرف هذه العقاقير، وطريقة ومبررات استعمالها، واستفاد المسلمون فى دراستهم عن العقاقير من فلاسفة اليونان أمثال Dioskredes ديوسقرديس وجالينوس.

يعتبر الرازى - بحق - شيخ أطباء المسلمين، وقيل: إن الطب كان مجهولا حتى أحياه جالينوس، ومتفرقا حتى جمعه الرازى، وناقصا حتى أكمله ابن سينا. واعتمدت أوربا على دراسات الرازى فى الطب حتى القرن السابع عشر.

اعتمد الرازى على التجربة، واستنبط من تجاربه حقائق علمية جديدة، وأثبت البحث الحديث صحة ما توصل إليه. وقد اختاره الخليفة الرشيد رئيسا للبيمارستان الذى أقامه فى المدينة ضمن امتحان أجرى لخمسين طبيبا، وعهد إليه الخليفة ببناء بيمارستان، فاختار منطقة صحيحة بتجارب أجراها فى أنحاء بغداد، ووضع قطعة لحم فى كل ناحية من نواحى بغداد، والقطعة التى لم تفسد، تأكد من صحة هوائها وعدم تلوثه. لذلك اختار هذه المنطقة، لتكون بيمارستانا.

وكان الرازى يجلس إلى تلاميذه يعلمهم بإخلاص، ويقدم المعونات للمحتاجين منهم[٢].

---

(١) حنين بن إسحاق: المسائل فى الطب ص ٢٤.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٤١٧ - ٤١٩.

نبغ الرازى فى الطب الباطنى والنفسى، ودرس أسباب كل مرض وأعراضه، وطرق علاجه واحتمالات العلاج، وميَّز بين الحميات وحدد أعراض كل منها، وميَّز بين التهاب القولون والمغص الكلوى، وحدد أعراض الحصبة، وميزها عن الجدرى. ووضع فى وصف الجدرى والحصبة رسالة من ١٤ فصلا، وهى ذات قيمة علمية كبيرة[١].

والرازى أول من استخدم مركبات الرصاص فى صنع المراهم ونبَّه إلى ضرورة فحص القلب والنبض والتنفس عند الكشف على المريض، واستخدم خيطا من أمعاء الحيوان فى خياطة الأنسجة فى العمليات الجراحية، وأجرى تجارب على الحيوان، واستخدم الجبس فى تجبير الكسور.

١ ـ ومن أهم مؤلفات الرازى «الحاوى فى الطب والتداوى» وينقسم إلى قسمين: القسم الأول، خاص بتركيب الأدوية[٢] ويقابلها اليوم Farmcology والقسم الثانى مجرد ملاحظات جمعها تلاميذه من سجلات المستشفى العضدى ومن تذكراته ويقع الحاوى فى ١٠ أجزاء و ٢٤ مقالا[٣]، وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، فرج بن سالم اليهودى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م وأصبح هذا الكتاب فى متناول الأوربيين.

٢ ـ رسالة فى الجدرى والحصبة، وهى أفضل ما كتب فى الطب العربى، وتُرجمت إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوربية.

٣ ـ الكتاب المنصورى، كتبه الرازى للأمير منصور حاكم خراسان ـ وهو عشرة أقسام، أكثر توضيحا وترتيبا من كتاب الحاوى[٤]. وبقى هذا الكتاب، الكتاب المدرسى لطلاب الطب فى أوربا حتى القرن السابع عشر، وطُبع عدة طبعات إلى اللغات الأوربية.

٥ ـ الكتاب الجامع، جمع فيه الرازى العلوم الطبية قديمها وحديثها، مضافا إليها خبرته وتجاربه الواسعة.

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء.
(٢) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨ وما بعدها.
(٣) القفطى: إخبار العلماء ص ١٧٩ ـ ١٨١.
(٤) المصدر السابق.

٦ ـ كتـاب طب الفقـراء، وهو خاص بالإسـعافـات العاجلة ولمن يسـتطيع الاتصال بالطبيب، وأدويته متوافرة مثل حالات الزكام.

٧ ـ الفصول، وتتضمن خلاصة آراء الرازى التى يقدمها للمرضى وآراء طبية دقيقة.

٨ ـ المجريات، ألفه فى بداية حياته فى بغداد.

٩ ـ المرشد، عرض فيه لآراء أبقراط.

تتلمذ الرازى على البلخى، ودرس الطب على أبى الحسن الطبرى ونبغ فى الطب، وذاع صيته، حتى أصبح رئيسا لبيمارستان الرى ثم انتقل إلى بغداد، وآلت إليه رئاسة البيمارستان العضدى ت ٣٢١هـ / ٩٢٤م[١].

صنف الرازى بالإضـافة إلى الطـب، كتـبا فى المنطق والـفلسفـة والفيـزياء والفلك والرياضيات، أهمهـا كتاب الحاوى، وهو كتاب ضخم شـامل، جمع فيه بين دراسـات الهـنود فى الطب ودراسـات اليـونان، ثم أضـاف إليـهـا تجـاربه وملاحظاته.

وصف الرازى أمراض الرأس كـالسكتة والفالج وأوجاع العـصب وأمراضه، ووصف الصـرع والكابوس والتشنج وأمـراض العيـون والأنف والأذن والأسنان. ويصف أعراض كل مرض والعلاج المناسب له، ويؤكد صحـة علاجه بأمثلة كثيرة من تجاربه. وكتاب المنصورى الذى أشرنا إليه موجز لكتاب الحاوى.

ويحذر الرازى من استخدام المسكنات للألم، ولكن يجب علاج الألم بدقة، لأن تسكين الألم لا يعنـى ذهاب المرض، ويحذر العـوام من اسـتـعمـال الأدوية المسكنة التى يصـفها بعض الأطبـاء. وينصح الطبيب بالتـخفـيف من شأن المرض وآلامـه بالنسبـة للمريض حـتى لا يتـوهم شرا؛ لأن مـزاج الجسم تابع لأخـلاق النفس. ويجب على المريض أن يعالج عند طبيـب واحد، ولا يتردد على عدد من الأطباء، لأن أوصـافهم للمـرض والعلاج قـد تتضـارب وتتناقض، مما يؤثر على صحة المريض.

---

(١) القفطى: إخبار العلماء ص ١٧٩.

والرازى أول من نادى باستقلال الصيدلة عن الطب ونصح بعدم اللجوء إلى الأدوية المركبة، وأكد أهمية التجربة فى تركيب الأدوية والمراهم، وجرب الأدوية على الحيوانات وعلى نفسه، قبل إقرارها.

ومن مؤلفات الرازى «منافع الأغذية»، ويقع فى ١٩ بابا بحث فيه منافع ومضار الخبز والماء والأشربة المسكرة وغير المسكرة، وألف الرازى فى الطب الروحانى رسالة أهداها إلى حاكم الرى، المنصور بن إسحاق[١].

وكان الطبيب المسلم يفحص المريض فحصا دقيقا، فينظر إلى وجه المريض وإلى عينه وأظافره ولسانه، ويجس النبض، ويفحص البول، واستعملوا البنج فى العمليات الجراحية، أى إعطاء المريض مادة مخدرة قبل العملية الجراحية، وعرف الأطباء المسلمون شكل الأظافر للمسلولين، واستخدموا الكى فى الجراحة واستعملوا الأفيون فى معالجة المجانين، وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصاة، وأقاموا مستشفيات لعلاج المجذومين مع عزلهم فيها منعا للعدوى، وأول من أقام مستشفى لعلاج المجذومين الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك.

وعرف المسلمون التخصص فى الطب، فمنهم الجراحون والكحالون، أى أطباء العيون، وأطباء الأسنان والمجبرون لعلاج الكسور فى العظام، ومن أهم الأطباء الجراحين، ويسمى الواحد منهم جرائحى. ويجب على الجراح أن يكون عالما بوظائف الأعضاء ومواضعها، ليتجنب عند العملية الجراحية، قطع الأعصاب أو الأوردة والشرايين، أو إصابة أعضاء أخرى.

ووضع على بن عيسى المجوسى (ت ٣٨٣ هـ) كتابا فى الطب يتضمن عشرين مقالا فى الطب النظرى، والبعض الآخر فى الطب العملى، وتكلم عن المواد التى تدخل فى تركيب الأدوية وعن الولادة وحركة الجسم أثنائها، وأوضح أهمية قياس النبض لمعرفة الأمراض.

وعرف الكحالون أمراض العين، وأجروا العمليات الجراحية فى العين كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء. ووصف الكحالون العين وتركيبها، وعرف أطباء الأسنان، تركيب الأسنان وتنظيفها وخلعها، وإزالة التسوس عنها.

وكان عمار بن على الموصلى (ت ٣٨٦هـ) كحالا فى مصر أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى، كان يعمل عمليات العين كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء.

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٤١٨.

ومن أشهر الكحالين المسلمين، حنين بن إسحاق، وتلميذه على بن عيسى، صنف كتابا فى علاج العين، وعمار الموصلى مؤلف كتاب «طب العيون» وفيه تشريح مفصل للعين وأمراضها، والشاذلى وابن عزوز المراكشى، صاحب كتاب «أمراض العيون».

أخذ الأطباء منذ أيام الرازى يفحصون المريض جيدا، ويعرفون تاريخ المرض والعلاج الذى يأخذه، ونشأت مدارس للطب فى الدولة الإسلامية، تتبع منهجين: النظرى، وفيه يدرس الطلاب وظائف الأعضاء وتركيبها، والأمراض وأعراضها وأساليب علاجها، والعملى، وفيه يدرس الطلاب عمليا علاج الأمراض ويتعلمون من أساتذتهم علاج المرض، فإذا أتموا دراستهم حصلوا على شهادة تجيز لهم ممارسة الطب تحت إشراف رئيس الأطباء فى المدينة التى يقيمون فيها.

وحرصت الدولة على الرفع من مستوى مهنة الطب، فقد عالج طبيب رجلا مات بين يديه، فأمر الخليفة المقتدر بإجراء امتحان للأطباء، ومن يرسب فى الامتحان يُمنع من ممارسة المهنة. والطبيب قبل أن يمارس المهنة، يقسم بأن يلتزم بعهد أبقراط فى الطب، وهو الأمانة فى معالجة المريض، وإنقاذه والتخفيف عن آلامه، ومتابعة حالته حتى الشفاء.

ومن أشهر الأطباء المسلمين أبو على الحسن بن عبد الله بن سينا وُلد فى قرية فى فارس سنة (٣٧٠هـ)، وتوفى سنة (٤٢٧هـ)، حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه وعلوم الدين، وشُغف بدراسة الطب، وانتهى من دراسته وهو فى السادسة عشرة من عمره ثم درس عددا من العلوم كالفلسفة والرياضيات والفيزياء والموسيقا، واشتغل بتحصيل الكتب من النصوص والشروح حتى درس معظم علوم عصره، وحاول فهم كتاب «ما وراء الطبيعة» لأرسطو فقرأه أربعين مرة، ولم يفهمه إلا بعد قراءة كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو، ونال شهرة كبيرة فى الطب بعد أن عالج نوح بن منصور - أمير الدولة السامانية - وسمح له بالاطلاع والقراءة فى مكتبته الكبيرة، ولما اضطربت الدولة السامانية، انتقل ابن سينا إلى خوارزم، ونسب أعداء ابن سينا إليه إحراق المكتبة الكبيرة، والتحق ابن سينا ببلاط على بن مأمون - حاكمها - والتقى هناك بأبى ريحان البيرونى، وبعض العلماء، وقد دس حساد ابن سينا إلى السلطان محمود الغزنوى، بأن ابن سينا شيعى، وكان محمود الغزنوى يحارب الشيعة وأعداء السنة، فطلب من الأمير الخوارزمى بأن يرسل إليه

ابن سينا، فهـرب ابن سينا فى رحلة شاقـة، واجتاز الصحـراء ـ التى بين خوارزم وأبيـورد ـ وتـوجه إلى جـرجـان وعالج ابن أخت قـابوس بن وشمكيـر ـ حاكم الإقليم ـ وبعد فـحصه علم أن قضـيته هى العـشق فتجول مع المريض فى أحـياء المدينة، واضعا يده على نبض المريض وزاد نبض المريض أمام بيت معين، فقص له المريض قصـة عشقه لفـتاة فى هذا البيت، ويريد أن يتزوجـها ولا يستطيع مـفاتحة السلطان فى هذا الموضـوع[1]. وتدخل ابن سـينا لدى السلطان لـعـلاج المريض بواسطة زواج الفـتاة، ولمـا تزوجهـا شُفـى المريض، عظمت مكانة ابن سـينا عند قابوس بن وشـمكير، وظل موضع رعايتـه، حتى ساءت الأحوال الاقتـصادية فى جرجان، فـرحل إلى بغداد، وفى طريقه إليها توقف فى الرى لعـلاج مجد الدولة البويهى ـ أميرها ـ من مرض شديد ألم به ـ وعالجه وشُفى على يديه.

انتـقل الشيخ من الـرى إلـى قزوين إلى همدان، حيث عـالج شمس الدين ابن مجد الدولة مـن مرض الالتهاب الكبدى، وولاه الوزارة، ولكـن الجند، قاموا بثورة كبـيرة، واعتزموا قـتل ابن سينا، فاختفى عن الأنـظار، ولما تم القضاء على ثورة الجند، عاد إلى الوزارة ثانية[2].

كان ابن سينا يكتب فى كل يوم خـمسين صفحة، بل كان يمـلى كتبه على مرافقه الجوزجانى أثناء رحيله من الذاكرة، وكان يضع خطة لكتابه قبل إملائه.

ونجح فيما أخفق فيه أطباء بخارى، وهو أول من توصل إلى الطب النفسى، وربط بين أمراض المعدة وبعض الأمراض العضوية، وبين المتاعب النفسية. وتوصل كذلك إلى حـقيـقة الدورة الدموية. وهـو أول من اكتشف مـرض الإنكلستـوما، وأجرى جراحات لعلاج الأمراض الخبيثة، وأثبت أن المريض إذا اكتُشف مرضه فى أوله يمكن شفاؤه. ومن أهم مؤلفات ابن سينا:

ـ **«القانون فى الطب»** اعتمد فى تأليفه على خلاصة ما توصل إليه اليونان فى الطب، بالإضافة إلى تجاربه الخـاصة. ويتضمن الكتاب الأمراض المستـعصية، من حيث أسـبابهـا وطرق علاجـها، ووصف النبـاتات الطبيـة، واستـخداماتـها فى

---

(١) خواندمير: دستور الوزراء ص ٢٢٦.

(٢) خواندمير: دستور الوزراء ٢٢٧.

العلاج، ووصف أمراض الرئة والمعدة، والأمراض الجنسية، ودرس أمراض الحميات، وأساليب الجراحة، وتحدث عن العناية بالشعر والجلد وكتب عن تراكيب ٧٦٠ عقارا.

بدأ ابن سينا كتابه «القانون» بدراسة مستفيضة عن الأدوية، بدأها بالقوانين الطبيعية للأدوية، وتتضمن هذه الدراسة أمزجة الأدوية المفردة، والتعرف على أمزجتها بالتجربة والقياس، وفى تعرف قوى أمزجة الأدوية وفى التقاط الأدوية من الخارج.

ورتب الأدوية المفردة ترتيبا أبجديا، ثم تناول بالدراسة الأمراض المختلفة، وعلاج كل منها. وكتب عن أمراض الرأس والدماغ وأسباب الصداع الكائن من سوء المزاج، والصداع الذى سببه ورم فى الدماغ، وتكلم عن أمراض الرأس وأورامها، وأمراض الدماغ التى تؤثر فى حركة الإنسان الإرادية، وتتسبب فى الدوار والكابوس، والصرع والسكتة والاستعداد لها[1].

وكتب عن الأمراض العصبية، وما تسببه من الفالج والتشنج وكتب عن العين وتشريحها وأمراضها كالرمد، وينصح ابن سينا بتقليل الغذاء، والاعتدال فيه، وتجنب الغبار والدخان والأهوية الباردة والحارة ورياح السموم. ويجب على الإنسان أن يتجنب كثرة البكاء، ولا يطيل النوم على القفا، ويجب عدم الإكثار من الجماع؛ لأن ذلك يضر العين. ويجب عدم الإكثار من تناول السكريات. والمأكولات التى تسبب الغازات كالكرنب والعدس. وكثرة النوم والسهر يضران العين، وكذلك الملح الكثيف فى الطعام[2].

وكتب ابن سينا عن أحوال الجفن وما يليه، والأذن والأنف والأسنان واللثة والحلق والرئة والصدر والتنفس والسعال وأمراض القلب وتشريحه وأمراضه، والمرىء والمعدة، وأمراض الثدى والرحم، وأمراض الكبد وأورامه، والمرارة والطحال وأمراض الأمعاء، وأمراض الكلى والبواسير، والحصو فى الكلى والمرارة، وأمراض البول، وحصوة المثانة، وتحدث عن البول الطبيعى، وآفات البول

---

(١) ابن سينا: القانون فى الطب جـ ٢ ص ٨٠٠.

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٠٠.

من حيث الحرقة والقلة[1]، واحتباس البول. وكتب عن الأمراض التناسلية وعلاجها، وكتب عن الأدوية المركبة، وطرق استعمالها، وأسباب استخدامها.

وأمراض الدماغ ـ كما ذكرها ابن سينا ـ تكون لأسباب خلقية، فإما أن يكون حجم الدماغ أكبر أو أقل من الواجب، وإما أن يكون شكله متغيرا عن المجرى الطبيعى، فيعرض عن ذلك آفة فى أفعاله وتكون مجاريه وأوعيته منسدة، والسدد إما فى البطن المقدم، وإما فى البطن المؤخر، وإما البطنين معا، وإما فى الأوردة والشرايين، وإما فى منابت الأعصاب، وإما أن تنخلع رباطات حجبه، أو يقع افتراق بين جزأين. ويتعرض مثل هذا الدماغ للأورام[2]. أو السكتة الدماغية، لتأثر بعض الأعضاء بهذا المرض، وورم الدماغ يضعف العين، ويؤثر ذلك على الإبصار، وتُشوَّش الرؤية، ويتخيل المريض ما ليس له وجود من خيالات مثل الدخان، فإن لم تكن من العين فلابد وأن تكون من الدماغ. وكذلك يضعف السمع، ويسمع المريض ما ليس له وجود ويؤثر فى الشم، ويشم روائح لا وجود لها، بسبب خلط محتبس فى مقدمة الدماغ، ويؤثر ذلك على الذوق واللمس[3].

وتحدث ابن سينا عن أمراض العين، ومنها المياه البيضاء، وهى رطوبة تتجمع على عدسة العين، فتشوش الرؤية، وربما تكثر حتى تسد عدسة العين، فيبصر المريض درجة أقل من إبصاره الطبيعى، وربما أكثر، وربما لا يبصر شيئا، وقد يرى من كل شىء جوانبه وبعضه رقيق صافى لا يحجب الضوء والشمس، وبعضه غليظ وفى لون الرؤية، وبعضه رقيق صافى أبيض اللون أو لؤلؤى، أو يميل إلى الزرقة، وبعضه أصفر، وبعضه أغبر، والأبيض يمكن علاجه وتوضع على العين قطنة، وينفخ فيها نفخا شديدا.[4]

ويقول عن فقدان البصر، بأن سببه الضعف الشديد، ويصيب العين الجفاف أو الورم.

ويقول ابن سينا: قد يخرج الدم كثيرا من الفم أو القصبة أو من المرىء أو فم المعدة، أو المعدة أو الكبد، وقد يخرج بسبب السعال. والذى من الصدر ليس

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٨٠٠.

(٢) ابن سينا: القانون فى الطب جـ٢ ص ٨٠٩.

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨١٠.

(٤) ابن سينا: القانون فى الطب جـ ٢ ص ١٠٠٨.

فيه خوف، والذى من الرئة يدل على وجود قروح فيها. والجراحة هى الحل، وقد يكون بسبب إسهال حاد أو أغذية حادة كالثوم والبصل أو خوف وغم، وقد يكون بسبب كثرة الأغذية وعدم الرياضة وعسر الهضم تبعا لذلك أو بسبب البواسير أو احتباس وقطع عضو. وإذا تعرض الإنسان لامتلاء دموى فلابد أن تقذفه الطبيعة، وإذا كانت العروق قوية احتبس الدم ومات الإنسان.

والسبب فى أمراض القلب سوء المزاجات، وقد يتعرض لأورام وانسداد فى بعض شرايينه، والورم الحار الحاد للقلب قاتل، والبارد يؤدى إلى حدوث رخوة فى عضلات القلب وفى غلافه[1].

ووصف ابن سينا حقنة تقوى الكلية.

وحرقة البول بسبب مزاجى أو اختلاط البول بالأملاح أو الرطوبة التى قد تخرج من مجرى البول بسبب كثرة الجماع، وقد يختلط البول بالدم بسبب قروح فى المثانة. وقلة البول بسبب الإسهال وقلة الشرب أو لضعف الكلية عن الجذب والكلية عن التمييز[2]. ويؤدى إلى عسر البول واحتباسه، وكتب عن الأدوية المركبة، وطرق وأسباب استعمالها.

وعلى ذلك فإن كتاب «القانون فى الطب» فيه تشريح لجميع أعضاء البدن، ووصف لوظائف الأعضاء، ووصف أقسام العظام والعضلات، بعد أن تدرب على دراسة عظام وعضلات الحيوان ووصف الأمراض وعلاجها بدقة علمية، أثبت العلم الحديث صحة الكثير منها، ووصف مرض السل ومراحله الثلاث، ووصف العلاج. ويفضل لبن الأم لغذاء الطفل عن غيره، وإذا لم يتيسر يجب البحث عن مرضعة.

ومن كتب ابن سينا الطبية كتاب «الأدوية» وكتاب «دفع المضار الكلية من الأبدان الإنسانية» وله رسالة فى سياسة البدن و«فضائل الشراب» ورسالة فى تشريح الأعضاء ورسالة فى الأغذية والأدوية.

---

(١) ابن سينا: القانون فى الطب جـ٢ ص ١٥٦٨.

(٢) المصدر السابق.

كان ابن سينا يقضى جزءا من الليل فى التدريس والاطلاع والتأليف، وفى آخر الليل يقضى الوقت بين الموسيقيين والمغنين.

حامت حول ابن سينا الشبهات بالاتصال بعلاء الدولة كاكويه - أمير أصفهان - فزُج فى السجن. وفى السجن كتب أهم مؤلفاته «القانون» و «الشفاء» و«منطق الشفاء».

يتضمن الشفاء موضوعات فى الطبيعيات والإلهيات ولما تم الإفراج عنه، رحل إلى أصفهان، وأكرم علاء الدولة كاكويه - أميرها - وفادته، وأنزله فى بيت فخم. وهنا أكمل كتابه «الشفاء» ولما هاجم محمود الغزنوى أصفهان، لجأ الشيخ إلى نيسابور(١).

وبذلك كانت حياة ابن سينا فيها الكثير من المعاناة، بسبب اتصاله بحكام مختلفين مع بعضهم البعض، وانعكس ذلك عليه، فتعرض للسجن والاضطهاد(٢).

واشتد المرض بالشيخ، وكان يعالج نفسه، ويصف الأدوية لعلاجه، ولما يأس من الشفاء، أوقف العلاج وتصدق بكل أمواله، وأعتق غلمانه، وظل يقرأ القرآن ثلاثة أيام متوالية حتى وفاته سنة (٤٢٧هـ)(٣).

يعتبر ابن سينا أول من اخترع التخدير فى الجراحة، واخترع العلاج بالحقن، وابتكر أول جراحة للأعصاب المقطوعة وميَّز بين شلل الوجه وشلل الدماغ، ووصف الأمراض العضوية التى تنجم عن التوتر العصبى.

ينصح ابن سينا الطبيب بحسن معاملة المريض ومراعاة حالته النفسية، وأن يبتسم فى وجه المريض، ويرفع روحه المعنوية، وأن يبشره بالصحة والشفاء «فإن للعوامل النفسية تأثيرات عظيمة»، ويفرد فصلا فى كتاب القانون عن تراكيب الأدوية يشرح كيفية إعداد الأقراص والمعجونات والحبوب والسوائل.

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨.

(٣) خواندمير: دستور الوزراء ص ٢٢٩.

أشار ابن سينا إلى علاج الأمراض الفصلية كالإنفلونزا ويوصى بتهوية البيوت، وتجديد الهواء والنظافة وتجنب مخالطة المريض، ويوصى بعلاج الأعضاء المريضة؛ لأنه الطريق إلى علاج البدن، ويوصى بتجنب التلوث. وهو أول من وضع المصطلحات الطبية.

يقول ابن سينا عن نفسه: ثم رغبت فى علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه. وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب، يقرءون على علم الطب،وتعهدت المرضى، فانفتح علىَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف. ويقول: كنت أقضى الليل ساهرا بين الكتب وأمامى السراج وأتغلب على النوم بشتى الطرق[1].

صنف ابن سينا كتبا فى مختلف العلوم، منها الفلسفة والمنطق والطب والنفس وماوراء الطبيعة والأخلاق والفلك والكيمياء وتزيد مؤلفاته على المائة، جمع فيها خلاصة ما توصل إليه العلماء فى الحكمة ومختلف العلوم، وأضاف إليها إضافات قيمة، لذلك لقبه العلماء بألقاب مختلفة، منها أرسطو الإسلام.

ويرى دانتى أنه وسيط بين جالينوس وأبقراط؛ لأنه ساهم مساهمة فعالة فى العلوم النفسية والفلسفية والطبية. ويقول سارتون: «ابن سينا من أعظم علماء الإسلام، ومن أشهر مشاهير علماء العالم». ويقول دى بور[2]: ويعد ابن سينا عند أهل المشرق ـ أمير الفلاسفة ـ وكان تأثيره فى أوربا واسع النطاق وقد جعله دانتى بين أبقراط وجالينوس، والبعض يرى أنه قرين جالينوس فى الطب، وأنه أعلى منه قدرا فى الحكمة».

رُوى أن أميرا أصيب بمرض نفسى شديد، وامتنع عن الطعام وتوهم أنه بقرة، وكان يصيح: اذبحونى أنا بقرة، وأطعموا الناس لحمى، وفشل الأطباء فى علاجه حتى تصدى له ابن سينا، فأحضر ابن سينا سكينا كبيرا، وزعم أمام المريض أنه سيذبحه، ولكنه تدارك وقال: إن لحم المريض هزيل، ولن ينتفع الناس بلحمه. ووصف له غذاء مكثفا، حتى يمتلئ جسمه لحما، ويأكل الناس منه،

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ص ٥ ، ٦.

(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٧٢.

وأطاع المريض ابن سينا. وفى خلال تغذية المريض، كان ابن سينا يضيف دواء للمريض. ولما تغذى المريض جيدا، امتلأ جسمه، وعاد إلى وزنه الطبيعى، فشُفى المريض من مرضه، وعاد سيرته الأولى[1].

ولُقب ابن سينا بأمير الأطباء ـ الشيخ الرئيس ـ أعظم علماء الإسلام[2]ـ وهو بحق من أعظم العقليات العلمية فى العصور الوسطى، وعُلقت صورته فى كنائس كثيرة فى أوربا، وهى لا تزال تزين كبرى قاعات كلية الطب فى باريس.

وعُقدت المؤتمرات الدولية عن ابن سينا فى إيران وأوربا وأمريكا وروسيا.

ومن كبار أطباء الإسلام فى الأندلس الزهراوى، وكان قد برع فى الجراحة، وله كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» يذكر جميع المعلومات الجراحية فى زمانه مع رسم آلاتها، واكتشف مرآة خاصة لتوضيح المهبل، وآلة لتوسيع باب الرحم أثناء العمليات الجراحية، وأشار باستخدام ممرضات ونساء فى حالة إجراء عملية جراحية لامرأة. وقدرته أوربا واعتمدت على أبحاثه ودراساته. وفى كتدرائية ميلانو بإيطاليا صورة مصنوعة من الزجاج القديم تتضمن رسما للزهراوى مع الطبيبين المسلمين الرازى وابن سينا، تخليدا لذكراهم وتقديرا لجهودهم فى خدمة الطب[3].

ونبغ من آل زهر عدد من الأطباء. وكان ابن زهر ينقد آراء ابن سينا فى الطب؛ لأنه يعتمد على الفلسفة والمنطق. والطب يعتمد على التجربة، ومن أشهر كتبه «التيسير فى المداواة والتدابير» أهداه لتلميذه ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) ويحوى وصفا للأمراض خاليا من النظريات الفلسفية. وقد وصف ابن زهر أعراضا دقيقة لبعض الأمراض مثل: السرطان والتهاب غشاء القلب، واشتغلت بعض نساء هذه الأسرة بالطب والتوليد. ويمثل ابن زهر هذا (ت ٥٥٧هـ) الجيل السادس من أطباء هذه الأسرة.

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ٢ ص ٣.
(٢) القفطى: إخبار العلماء ص ٢٦٩.
(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ٢ ص ١٠ ـ ١٨.

نصح ابن زهر باستخدام الجراحة فى بعض الأمراض وعرف التغذية الصناعية لمن يعجز عن البلع، وإدخال الطعام من فتحة المرىء أو عن طريق المستقيم. ونصح باجتناب الهواء الملوث الذى يهب من المستنقعات.

ويرى ابن رشد أن الطب صناعة علمية فنية، وحدد ابن رشد غايتها ووسائلها، وجعل كتابه هذا مدخلا لمن يرغب فى العمل بهذه الصناعة، وتذكرة لمن مهر فى هذه الصناعة، وحذق فيها. وغاية صناعة الطب، حفظ بدن الإنسان، وإبطال المرض. وعلى الطبيب أن يعتمد على المشاهدة والتجربة، وعلى الإلمام بكل ما وصل إليه العلم الطبيعى بمعرفة التشريح ووظائف الأعضاء التى شرحها.

وكتاب الصحة من مصنفه «الكليات» حيث ذكر أن الطبيب يجب أن يتطور علميا، ويصل إلى ما لم يصل إليه السابقون والمعاصرون له، ويجب أن يبذل كل جهد للوصول إلى الحقيقة. ويذكر ابن رشد أن تفاوت الأطباء فى المهارة، يعود إلى تفاوتهم فى الذكاء والعلم. ويرى أن تجربة الأدوية لا يتفق فيها الوقوف على اليقين فى جميع أجزائها؛ لذلك ينبغى على الطبيب أن يراعى ما توصلت إليه العلوم الأخرى[١] لأن صناعة الطب تجريبية لا يدرك فيها القياس إلا فيما ندر.

لذلك يذكر ابن رشد أن الطبيب يجب أن يعرف الكليات، والكليات تؤدى إلى مقدمات تجريبية.

بدأ ابن رشد كتابه بفصل عن الغرض من صناعة الطب وعن تشريح الأعضاء والقول بمنافع الأعضاء البسيطة، ومنافع الغذاء، وأعضاء التناسل، ومنافع آلات القوى الحساسة، والسمع والشم، ومنافع أعضاء الحركة الإرادية، وآلات التنفس. وكتابه فى المرض، أوضح فيه أسباب الأمراض، وخصوصا أمراض المعدة والأمعاء والكبد والمثانة والأعضاء التناسلية والتنفس والسعال، وعلامات الأمراض المختلفة وأعراضها وطرق علاجها والوقاية منها[٢]. وله كتاب فى الأدوية والأغذية وكتاب فى حفظ الصحة. يتضمن نصائح وعلاجات فى غاية الأهمية.

ونقد ابن رشد فى كتابه «الكليات» آراء ابن زهر وابن سينا، (ت ٥٩٥ هـ).

---

(١) ابن رشد: الكليات فى الطب ص ٦.
(٢) المصدر السابق ٤٢٩.

ومن أطباء الأندلس ابن وافد (ت ٤٦٠هـ) وهو طبيب وصيدلى، وكان لا يرى التداوى بالأدوية، ما أمكن التداوى بالتغذية، إذا دعت الضرورة التداوى بالأدوية، لجأ إلى التداوى بالأدوية البسيطة، وإذا اضطر إلى تركيب الأدوية، لم يكثر التركيب[١].

ومن أشهر الأطباء المسلمين ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ) وُلد بدمشق، وتوفى بالقاهرة، درس الطب فى دمشق، وقدم إلى القاهرة فى عهد الملك الكامل الأيوبى، وبلغت شهرته فى الطب مبلغا كبيرا، حتى أن الملك الكامل عينه رئيسا للمارستان الناصرى، وظل كذلك حتى وفاته[٢].

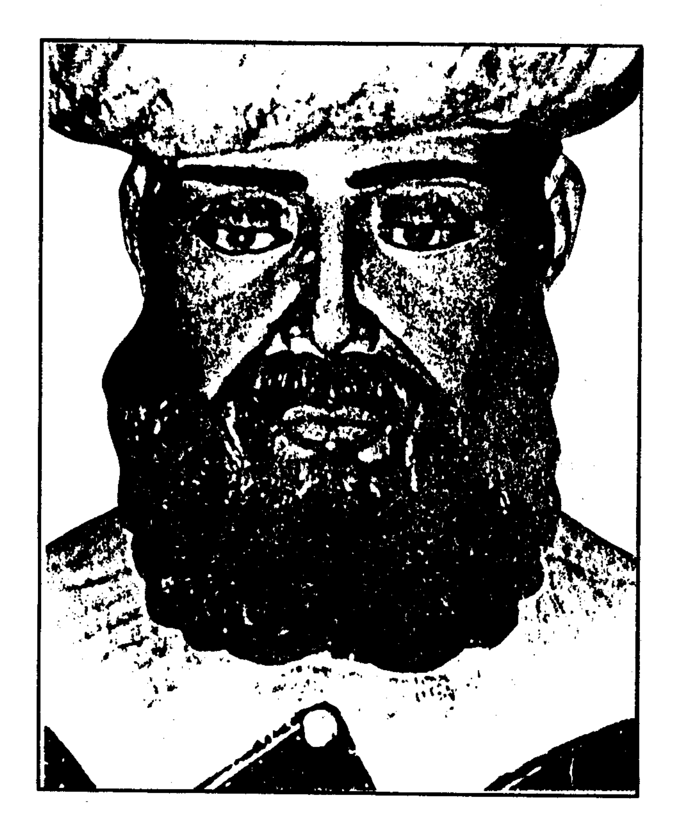
اتبع فى دراسته المشاهدة والتجربة، وكانت داره منتدى أهل الطب، يناقشهم ويناقشونه، وكان لا يصف دواءً ما أمكنه أن يصف غذاء، ولا يصف دواء مركبا مادام هناك بديل عن الدواء المفرد. وحفظ كتب ابن سينا وجالينوس، وصحح فيها ما رآه خطأ. وتوصل إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى، مما مهد للعالم الإنجليزى هارفى اكتشاف الدورة الدموية الكبرى. وهو أول من كتب فى أصول علم الطب وهو أول من ألَّف فى علم وظائف الأعضاء.

من مؤلفات ابن النفيس «الشامل فى الصناعة الطبية» - «موجز القانون» وحظى بشروح كثيرة وتفاسير العلل والأسباب - «شرح كليات القانون» - «شرح مفردات القانون» - «مقالة فى النبض» «شرح مسائل حنين بن إسحاق» ومؤلفات أخرى فى التغذية زادت على الأربعة وعشرين مؤلفا.

وفى كتابه «المسائل» وصف للأعضاء الرئيسية - القلب والدماغ وأعضاء الحواس، وبيان الحاجة إلى الغذاء، ووصف بقية أعضاء التناسل، والشعر وسبب الشيب وخواص الإنسان والاستدلال على أخلاقه من بقية أعضائه، ودرس العوامل المشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات، وذكر أشياء تشترك فيها الحيوانات[٣].

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٧٧.
(٢) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى ذكر من ذهب جـ٥ ص ٤٠١.
(٣) ابن النفيس: رسالة الأعضاء ص ١٩٤.



ابن سينا



ابن النفيس

علاء الدين على بن أبى الحرم القرشى
المتوفى ٦٨٧ هجرية

عرف المسلمون منذ فجر تاريخهم المستشفيات لعلاج المرضى وتسمى البيمارستانات - وهى كلمة فارسية تتكون من - بيما معناها مريض، وستان، معناها بيت، أى بيت المريض أى مستشفى. وأول خيمة أقيمت فى الإسلام أقامها الرسول فى غزوة الخندق، وهى خيمة لعلاج المرضى والجرحى المصابين فى الغزوة، وتضميد جراحهم، وتعددت البيمارستانات فى العصر الأموى، وأقام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ دارا لعلاج المجذومين، وأعد لكل ضرير مرافقا، وجعل فى بيمارستانه أطباء، وأجرى على المجذومين والعميان الأرزاق(١).

وأقيمت البيمارستانات بعد ذلك، وكان المريض يعالج بالمجان، وإذا دخل البيمارستان، تُنزع ثيابه فى غرفة الاستقبال، ويرتدى ملابس نظيفة، ويظل مقيما فى البيمارستان للعلاج، وإذا شُفى من مرضه، تقدم له دجاجة، وإذا أكلها اطمئن الطبيب على شفائه، ويُسمح له بمغادرة المستشفى(٢).

وكانت هناك مستشفيات لعلاج المرضى عقليا، وأخرى للرجال، وأخرى للنساء. وهناك مستشفى متنقلة بين القرى والمدن الصغيرة التى ليس فيها أطباء أو اجتاحها الوباء، ويعالج الأطباء فى هذه المستشفيات المتنقلة المرضى ويقدمون لهم الدواء، ويتنقلون من بلدة إلى بلدة وهكذا، ويدرس طلاب الطب علوم الطب فى البيمارستان عمليا على المرضى، فضلا عن الدراسة النظرية.

وهناك مستشفيات عسكرية تنتقل مع الجيش فى مسيرته على الجمال والخيول والبغال، ويقدم الأطباء العلاج للمرضى من المصابين من الجند.

ورُوى أن الوزير على بن عيسى بن الجراح، أمر رئيس الأطباء، سنان بن ثابت بتدبير العناية الطبية للمقاتلين وكتب فى ذلك كتابا جاء فيه (فكرت - أمد الله فى عمرك - فى أمر من فى الجيوش، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون من التصرف فى منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم، فينبغى أن نفرد لهم أطباء، يدخلون إليهم فى كل

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨٥.

(٢) المصدر السابق ٣٨٦.

يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفونها فى سائر الجيوش، ويعالجون فيها المرضى(١).

وأُلحق بالمساجد مستشفيات لعلاج المرضى، فألحق بجامع ابن طولون ميضأة وخزانة أدوية، وطبيب مقيم يوم الجمعة لعلاج ما قد يلم به مرض(٢).

انتشرت البيمارستانات فى الدولة الإسلامية، ففى العصر العباسى الأول، أقام الخليفة الرشيد بيمارستانا فى بغداد فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى الجانب الغربى من بغداد، تولى رئاسته جبريل بن بختيشوع، وتولى العمل فيه أطباء من جند يسابور، ورأسه يوحنا بن ماسوية(٣).

وأسس البرامكة بيمارستانا فى بغداد، وأسند رئاسته إلى الطبيب الهندى، ابن دهن(٤). وعلى غراره أسست البيمارستانات فى المدن الإسلامية(٥).

وفى سنة ٣٠٢هـ أسس الوزير على بن عيسى بن الجراح فى حى الحربية - غربى بغداد - مارستانا وأنفق على إنشائه أموالا طائلة، وأسند رئاسته إلى عثمان ابن سعيد بن يعقوب(٦).

وأنشأ بدر - غلام المعتضد، بيمارستانا فى الجانب الشرقى من بغداد، وأنفق عليه الكثير من الأموال، وأوقف أموالا لعلاج المسجونين تقدر بخمسة آلاف دينار فى كل سنة(٧).

ومن أهم بيمارستات بغداد، وأكثرها تطورا، البيمارستان العضدى الذى أسسه عضد الدولة البويهى فى موضع قصر الخلد وفى الأراضى المحيطة به، واستغرق تشييده ثلاث سنوات ٣٦٨هـ - ٣٧١هـ، وأوقف عليه الأوقاف التى تكفى للنفقة عليه، ورتب له الأطباء والخدم والخزان، وأعد له ما يكفى من الأدوية والعقاقير، وكلف عضد الدولة البويهى، أبو بكر الرازى - أشهر أطباء العصر -

---

(١) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٣٢.

(٢) خطط المقريزى ص ٣٨٥.

(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء جـ ٢ ص ١٧٨.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٣٤٢.

(٥) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٥.

(٦) المصدر السابق ص ٢٨٢.

(٧) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ص ١٨٦.

بالإشراف على تشييد هذا البيمارستان، وأجرى عدة اختبارات على تشييد البيمارستان في مكان نقى الهواء، خال من التلوث ومن الميكروبات والجراثيم.

ورُشح للعمل فى هذا البيمارستان مائة طبيب، أجرى الرازى لهم امتحانا، واختار منهم أربعة وعشرين طبيبا فقط(١).

وأنشأت أم الخليفة المقتدر بيمارستانا فى بغداد سنة ٣٠٦هـ، والنفقة عليه فى كل عام سبعة آلاف دينار(٢).

وأنشاء الخليفة المقتدر بيمارستانا فى بغداد سنة ٣٠٦هـ وأول من تولى رئاسته سنان بن ثابت، وكان ينفق عليه من ماله الخاص مائتى دينار شهريا(٣).

وحرص وزراء بغداد على تشييد البيمارستانات، فأقام الوزير ابن الفرات بيمارستانا سنة ٣١٣هـ فى بغداد، وكان يسمح للموظفين والعاملين فيه بالتداوى بالمجان(٤).

وأنشأ الأمير أبو الحسن بجكم بيمارستانا على ربوة تطل على نهر دجلة فى موضع قصر من قصور الرشيد فى سنة ٣٢٩هـ جدده عضد الدولة البويهى سنة ٣٧٢هـ، وزوده بالأطباء والخزان والبوابين والوكلاء(٥). وأسس معز الدولة البويهى قبل عضد الدولة بيمارستانا سنة ٣٥٥هـ، وتعددت البيمارستانات فى بغداد حتى بلغت ستة فى القرن الرابع الهجرى(٦).

وكان يصحب الحجاج فى رحلتهم إلى الحجاز بعثة طبية لعلاج المرضى من الحجيج، وبحوزتها العقاقير الطبية والأغذية.

وانتشرت البيمارستانات فى المدن الإسلامية، وحرص حكامها على العناية بصحة الرعايا، وكتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله يقول: «وانصب لمرضى المسلمين دورا تقيهم وقواما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم».

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ص ٤١٦.
(٢) القفطى: إخبار العلماء ١٩٤، ١٩٥.
(٣) القفطى: إنباء العلماء بأخبار الحكماء ص ١٣٢.
(٤) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ص ١٨٤.
(٥) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ص ٣٠٤.
(٦) المصدر السابق ص ٣٢٤.

وأُنشئت بيمارستانات لعلاج المجانين والمجذومين، وتضمنت هذه البيمارستانات قاعات لتدريس الطب، تخرج منها أطباء موهوبون، وتتضمن مكتبات يطلع عليها المرضى والأطباء.

ومن أشهر البيمارستانات، العضدى فى بغداد، والنورى فى دمشق، والمنصورى فى القاهرة، وتسابق على إنشاء البيمارستانات فى المدن الإسلامية الخلفاء ونساؤهم والوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة.

والمارستان العضدى يعطينا صورة حية عن المارستانات فى الإسلام، أُسس سنة ٣٧٢هـ له ناظر، أى رئيس وله مشرف على الأشربة والأدوية والعقاقير والمواد الغذائية، وبه الفرش والأغطية والعطور والمواد المطهرة والأسرَّة والثلج والمراهم، وبه الأطباء والمستخدمون والفراشون، ويعمل به ثمانية أطباء ونساء طباخات وبوابون وحراس وبه حمامات، وبستان ملحق يُزرع فيه الفواكه والخضراوات والبقول، وبه مخازن لحفظ المواد الغذائية كالقمح والأرز والشعير والبقول والسكر، وبه عربات لنقل المرضى الضعفاء، ويناوب الأطباء ومساعديهم المبيت لرعاية المرضى، والقادمين فى حالات حرجة، وبه قدور كبار وصغار وأدوات جراحية وآلات ومعدات طبية وأكفان لتكفين من قد يموت من المرضى، وأوانى للشرب والطعام، وبه أربعة وعشرن فراشا.

وأقيمت فى مصر الإسلامية البيمارستانات، فأسس الأمويون بيمارستانا فى الفسطاط، وأقام الوزير الفتح بن خاقان فى عهد الخليفة المتوكل بيمارستانا فى الفسطاط سنة ٢٤٧هـ، ثم شيد أحمد بن طولون فى حاضرته الجديدة - القطائع - بيمارستانا أوقاف، وكان يتفقد بنفسه إدارة المارستان، وأحوال المرضى(١).

وفى سنة ٣٤٦هـ أقام كافور الإخشيدى البيمارستان الأسفل، ولما شيد الفاطميون القاهرة أسسوا بيمارستانا بجوار الجامع الأزهر، وأقام الأيوبيون البيمارستان الناصرى، وبيمارستان الإسكندرية وبدمشق بيمارستانان واحد قديم وواحد جديد، وبه عمال معهم دفاتر يدونون بها أسماء المرضى، ومخازن بها

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨٦.

الأدوية والأغذية والأكسية للمرضى. ويقوم الأطباء بعلاج المرضى وتقديم ما يلزمهم، وللمجانين جناح للعلاج[1].

ومن أشهر البيمارستانات، المارستان المنصورى أُسس بقواعد منظمة ولوائح تنظيم إدارة العمل فيه. وله وقف لعلاج المرضى والأدوية ومرتبات الأطباء والعاملين فيه. ووقف لنظافته والمواد الغذائية والأدوات الطبية، ووقف لتكفين ودفن الموتى. هذا المارستان كان قاعة ست الملك أخت الخليفة الحاكم بأمر الله وانتقلت إلى حوزة السلطان المنصور قلاوون، وأمر بتشييد مارستانا فى هذا الموضع، وأنفق الأموال الكثيرة فى بنائه، وكان سبب بنائه أن الملك المنصور ـ وهو أمير ـ لما توجه إلى غزو الروم سنة ٦٧٥ فى أيام الظاهر بيبرس، مرض فى دمشق، فعالجه الأطباء فى دمشق بأدوية أخذوها من مارستان نور الدين محمود، وشاهد المارستان بنفسه، وأُعجب بأسلوب عمارته، ونذر إن أتاه الله الملك أن يبنى مارستانا فلما ولى السلطنة أمر ببناء المارستان فى المكان المذكور سابقا، ولما تم بناء المارستان، أوقف السلطان قلاوون من الأملاك ما يقارب ريعها ألف ألف درهم فى كل سنة، ورتب مصاريف المارستان، والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام وجعل وقف المارستان على الملك والمملوك والجندى والأمير الكبير والأمير الصغير والحر والعبد الذكر والجارية الأنثى، ورتب فيه العقاقير والأطباء، وسائر ما يحتاج المريض إليه[2].

وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم الأرزاق، ونصب الأسرة للمرضى، وفرشها بجميع الفرش وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء[3].

وجعل الماء يجرى فى كل مواضع المارستان، وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال، ومكانا لتخزين المواد الغذائية، ومكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٩٨.
(٢) خطط المقريزى ص ٣٨٧.
(٣) المصدر السابق ص ٣٨٨.

لإلقاء دروس الطب. ولم يخص عدد المرضى، بل جعل المارستان سبيلا لكل من يرد عليه غنى أو فقير ولم يحدد مدة لإقامة المريض به، بل يرتب للمريض فى داره سائر ما يحتاج إليه[1].

وجعل النظر فى الوقف له ثم لأولاده، ثم لحاكم المسلمين الشافعى، وكتب وثيقة الوقف الثلاثاء الثالث من صفر سنة ٦٨٠هـ.

ورتب فى المارستان موظفين، ما بين أمين ومباشر، وجعل مباشرين للإدارة وهم الذين يثبتون ما يشترى من الأصناف، وما يحضر منها إلى المارستان، ومباشرين لاستخراج مال الوقف، ومباشرين فى المطبخ، ومباشرين فى عمارة الأوقاف التى تتعلق به[2].

والخلاصة: أن المفكرين المسلمين حرصوا على دراسة الطب من المصادر اليونانية والهندية، وأضافوا إليها خلاصة تجاربهم، وعالجوا المرضى علاجات صحيحة من الأمراض المختلفة، وأجروا العمليات الجراحية، وأقيمت المارستانات لعلاج الأمراض الخطيرة، ووجد المرضى عناية كبيرة وعلاجا سليما من أطباء المسلمين الذين نبغوا فى علم الطب، وتوصلوا إلى الدواء الصحيح للعلاج وصنفوا الكتب القيمة فى الطب، ونظرياتهم فى الطب أثبت العلم الحديث صحة الكثير منها.

(١) المقريزى: الخطط ص ٣٨٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٩.

الصيدلة عند المسلمين

كان الطبيب فى فجر الإسلام صيدليا فى نفس الوقت، يصف الدواء ويعطيه للمريض، ثم تطورت العلوم وتنوعت الدراسات، وأصبح الطبيب يختلف عن الصيدلى، واقتضى التوسع فى دراسة الصيدلة، دراسة النباتات والمعادن والحيوان والكيمياء؛ لأن الأدوية نباتية أو معدنية أو حيوانية، وتحتاج إلى نسب فى التركيب، ونقل إسحاق بن حنين (ت ٢٦٠هـ) كتاب ديسقوريدس فى الأدوية المفردة، أى النباتات التى تستعمل دواء، وبرع المسلمون فى تركيب الأدوية بنسب معينة، وكان الطبيب يأخذ ثمن الدواء من المريض، وتطوع بعض الصيادلة بتقديم الدواء مجانا لمرضاهم.

ومن أقدم الصيادلة فى الدولة الإسلامية، سرجون اليهودى، الذى صنف كتاب «قوى العقاقير ومنافعها ومضارها»(١). ومن أبرز علماء الصيدلة، كوهين العطار اليهودى الذى وضع كتاب الصيدلة، شرح فيه العقاقير شرحا وافيا، وأوضح طريقة المشروبات والجرعات والمساحيق والحبوب وغيرها(٢).

يقسم الرازى الأدوية إلى نباتية ومعدنية وحيوانية، النباتية ستة أنواع من الغازات، الزئبق والنوشادر والكبريت والزرنيخ، ثم أجساد معادن كالفضة والذهب والنحاس والحديد، ثم حجارة كالكحل والزجاج، ثم زاجات أملاح كالزجاج الأسود والزجاج الأصفر والشب، ثم الأملاح بأنواعها.

وأشار البيرونى إلى الأدوية ووضعها بين السموم والأغذية، وقال: ما يطعم به الإنسان، مُقسم إلى أطعمة وسموم، والأدوية بين الاثنين، وحدد نسبها الأطباء حتى تخلو من السموم الضارة بالإنسان.

والأدوية المفردة هى العقاقير الأصلية سواء كانت نباتية أم معدنية أم حيوانية، فإذا ما جمعنا عقارين أو أكثر، حصلنا على الأدوية المركبة التى سماها العلماء المسلمون الأقراباذين وقالوا: إنها أكثر فائدة للإنسان، وصنفوا منها المراهم والشراب والمعاجين والحبوب وغيرها.

والصيدلانى هو المسموح له بصنع الأدوية، مفردة أو مركبة، ووُضعت كتب فى تصنيف الأدوية، تسمى «الدستور البيمارستانى» ويتضمن هذا الدستور عدم السماح للصيدلانى بوصف دواء إلا بتذكرة من الطبيب أى روشتة، وأول من ألف فى الأدوية المفردة فى دولة الإسلام، يوحنا بن ماسويه، ثم سابور بن سهل من

---

(١) القفطى: إخبارالعلماء بأخبار الحكماء ص ٢١٣.

(٢) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية الكبرى ص ٢٩٥.

مستشفى جنديسابور[1]، ثم ابن التلميذ ـ عميد أطباء بغداد ومؤلف الأقراباذين الكبير، وتعرض لهذا البحث أكثر الأطباء المسلمين مثل على بن ريحان الطبرى (ت ٢٤٦هـ) فى كتابه «فردوس الحكمة» والرازى فى كتابه «الحاوى»، وابن سينا فى كتابه «القانون».

وأوجد المسلمون طرق التقطير والترشيح والتحويل والتبخير والتذويب والتبلور، وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر وملح البارود والزرنيخ والزاج (حامض الكبريتيك) والبوتاس وروح النوشادر.

واكتشف العرب أدوية جديدة مثل الكافور والمسك والمر والتمرهندى والحنظل وجوز الهند والقرفة، وهم الذين اخترعوا الأتربة والكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية واستعملوا الأفيون وبعض النباتات المخدرة فى التخدير.

والصيادلة كالأطباء لا يمارسون المهنة إلا بعد اجتياز اختبار والحصول على إجازة الممارسة للمهنة، ولهم رئيس يتفقد أعمالهم.

ومن كتب الصيدلة الهامة، كتاب البيرونى الذى ذكر فيه أنواع الأدوية وخصائصها، واختلاف آراء المتقدمين فيها وآراء الأطباء فى هذه الأدوية، وهو مرتب على حروف المعجم[2].

أطلق المسلمون على العقاقير، تعبير «عجائب المخلوقات» ويقصدون بذلك أن الله الذى وسعت قدرته كل شىء، قد خلق هذه العقاقير ليستعملها الإنسان، وتعود عليه بالنفع والخير، وعلى الطبيب أن يعرف طرقها وكيف تشفى من العلل، وكيف تعالج.

أخذ المسلمون فن العقاقير من ديسقوريدس وجالينوس وأضافوا خلاصة تجاربهم إلى ما اقتبسوه.

ومن أشهر الصيادلة المسلمين، ابن الرومية (ت ٥٦٢هـ)، درس النباتات، وتجول فى دراستها حول البحرين الأحمر والأبيض، ورحل إلى الشام ومصر والعراق، وتتلمذ على يديه الكثير، من بينهم ابن البيطار، ومن مؤلفاته «أسماء الأدوية المفردة» وله مقالات فى تركيب الأدوية، وله دراسة فى الرحلة النباتية تضم الكثير مما قابله من نباتات فى رحلاته.

وضع ابن البيطار كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية وهو معجم علاج طبى حسب حروف الهجاء، ذكر فيه أسماء الأدوية ومنافعها وطرق استعمالها،

---

(١) القفطى ص ١٤١.

(٢) عصام الدين الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى ص ٢٨٣.

وذكر أكثر من ألف وأربعمائة دواء، بين معدنى ونباتى وحيوانى، بينها أكثر من ثلاثمائة دواء جديد، لذلك يعرف فى أوربا «أبو علم النبات» (ت ٦٤٦هـ)(١).

اتبع المسلمون المنهج العلمى فى الدراسة، كالوصف والتعريف والاعتماد على التجربة والقياس، والملاحظة والمشاهدة لبيان آثارها ومفعولها. وأخذ الأوربيون الكثير من الأدوية والتراكيب الدوائية من المسلمين، ويحمل بعضها اسما عربيا، بلغت ثمانين دواء !

برع المسلمون فى معرفة الأدوية وخصائصها وتركيبها ونسبها وطريقة استعمالها، ومراقبة مفعولها، ومدى استجابة المريض لها، ومدى التأثير الذى يحدثه الدواء فى جسم المريض من مضاعفات جانبية وغيرها، وأجروا التجارب على الأدوية فى الحيوانات وفى القرود وعلى أنفسهم قبل إعطائها للمرضى.

وأضافوا إلى الأدوية العسل والسكر حتى يصبح طعمها مقبولا ، وغالبا ما جعلوا الأدوية المكونة من الحبوب مغلفة لإخفاء رائحتها، حتى لا يعافها المريض. ومن هذه الأدوية القرفة والكافور والمسك والعنبر والتمرهندى والصندل.

وعرف الأطباء والصيادلة أن الدواء سلاح ذو حدين، لذلك قرروا أن العلاج بالأغذية أفضل من الأدوية، وطالبوا بالاستغناء عن الأدوية بالأغذية، وعند الضرورة الأدوية البسيطة، وقالوا بعدم الاستمرار فى تعاطى دواء لمدة طويلة، فيبطل مفعوله، وتألفه طبيعة الجسم. وإذا لم يكن العلاج بالأدوية المفردة، فالأدوية المركبة، ونصح الرازى بذلك، وطالب ابن سينا بأنه إذا كان ولابد من الأدوية المركبة فبنسبة قليلة.

ومن الصيادلة المسلمين، الغافقى (ت ٦٨٤هـ)، من مؤلفاته كتاب «الأدوية والمفردات» - «جامع المفردات» اختصرهما ابن العبرى «منتخب الغافقى فى الأدوية المفردة» - «كتاب الأعشاب والنباتات الطبية» ويتضمن ٣٨٠ رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات ومعادن طبية، ونبذا عنها.

سمى علماء المسلمين تراكيب الأدوية بالأقراباذين، وحذرت بيع العقاقير والسموم الضارة، فقد كان بعض الصيادلة يغشون الأدوية أو يصفون أدوية غير

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى جـ ٤ ص ٣٨٨.

حقيقية لذلك أمر الخليفتان المأمون والمعتصم بامتحان الصيادلة، ولا تعطى رخصة مزاولة المهنة إلا لكل من اجتاز الامتحان.

ولما كانت الأدوية من النباتات الطبية، فقد زرعها المسلمون بشكل منتظم وعنوا بزراعتها، وجلبوا البذور لهذه النباتات من أماكن زراعتها فى آسيا وأفريقيا.

وتولى الصيادلة تركيب الأدوية بنسب معينة وأوزان معلومة بموازين معينة وحساسة لهذا الغرض، وعرفوا تركيب الشراب الحلو للسعال والأمراض النفسية، ودهان البلسان لتضميد الجروح وماء الورد للصداع والكافور للأعصاب، والزرنيخ لأمراض الدم، والتمرهندى وجوز الطيب والقرفة وبعض الأشربة الأخرى.

وركب الصيادلة المراهم والدهانات والمياه المقطرة والأدوية المعروفة فى ذلك العصر.

وبذلك استطاع المسلمون التوصل إلى الأدوية المتنوعة لعلاج المرضى بعد أن اطمأنوا إلى صحتها وسلامتها وأجروا التجارب عليها، وصنفوا الكتب فى الأدوية، وخصوصا الأعشاب التى هى علاج بسيط لا يؤدى إلى مضاعفات.

الفيزياء

استفاد المسلمون من اليونان فى علم الفيزياء، واعتقد النظام - أحد شيوخ المعتزلة - أن الأجسام تتكون من العناصر الأربعة وأنها تستميل بعضها إلى بعض، ورأى أن أفعال الأجسام كالاحتراق والحرارة والبرودة، كانت فيها بطبيعتها، وهى لا تظهر مادام الجسم فى حالة التوازن الطبيعى، ولكن إذا أخل عامل ما بهذا التوازن، ظهر فعل الجسم الذى كان كامنا فيه، فالحطب مثلا مركب من عناصر أربعة، وهى النار والدخان والماء والرماد، فعند حصول الاحتراق يتحلل الحطب إلى أركانه الأساسية.

ويقول النظام: إن الماء لا لون له، وإنما يعتريه لون ما يقابله أو يحيط به.

ويرى إخوان الصفا أن العناصر الأربعة اختلطت فى باطن الأرض، فتكون منها الزئبق والكبريت أولا، ومن امتزاج هذين المعدنين وبنسب متفاوتة، تكونت فى أوقات مختلفة جميع المعادن كالذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس.

وقد تأثر ابن سينا بآراء إخوان الصفا فى الفيزياء، وقال بأن العلم الطبيعى يتكون من الأجسام الموجودة من حيث هى متغيرة ومتحركة، ويقول بأن وجود الأجسام ناتج من تلازم المادة والصورة.

وقدر العلماء المسلمون الثقل النوعى للعديد من الأجسام غير القابلة للذوبان فى الماء تقديرا يتلاءم مع تقديرات العلم الحديث، على الرغم من عدم وجود الآلات، واستندوا فى ذلك إلى قاعدة أرشميدس «كل جسم يغمر فى الماء يتلقى ضغطا عموديا من أسفل إلى أعلى، ويوازى وزن الماء الذى يحل محله».

والبيرونى أشهر من عمل فى هذا المجال، واستخدم التجارب لحساب الوزن النوعى أو الكثافة بالنسبة للماء، وتوصل بهذه الطريقة لحساب الوزن النوعى إلى معرفة وزن الأحجار الكريمة والعناصر(١).

وفسر البيرونى ظواهر صعود مياه النافورات والعيون إلى أعلى، وتجمع المياه الجوفية فى الآبار. وتحدث عن الضوء وقال بأن الأشعة تخرج من الجسم المرئى إلى العين(٢).

ومن أبرز علماء الفيزياء، الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) وهو بحق مؤسس علم الضوء، نشأ فى البصرة، وتنقل فى البلدان لطلب العلم، واستقر به المقام فى مصر، وبلغ علم الفيزياء درجة كبيرة من التقدم بفضل هذا العالم، واعتمد عليه العلماء فى الشرق والغرب وعلى خلاصة دراساته فى البصريات. ومن أهم كتبه «المناظر» وهو من أكثر الكتب استيفاءً لبحوث الضوء وأرفعها قدرا.

اطلع الحسن بن الهيثم على كتب العلماء الذين سبقوه فى الفلك والرياضيات والفيزياء والفنون، وذهب إلى مصر، واشتغل بنسخ كتب إقليدس وجالينوس وبطليموس فى الجامع الأزهر، وبيعها لعشاق الكتب، وكان يتكسب من هذا العمل، ويرضى رغبته فى الاطلاع والدراسة.

---

(١) محمد جمال الدين الفندى: الله والكون ص ٨٦ ، ٨٧.
(٢) المصدر السابق ص ٨٧.

توصل الحسن بن الهيثم إلى اختراع عدسة مكبرة، اعتقد ابن الهيثم أنه يستطيع أن يعمل فى نيل مصر عملا يحصل به النفع، فاستدعاه الحاكم بأمر الله لتنفيذ نظريته، وزوده بالأموال والصناع، فذهب إلى منطقة الجنادل، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل، فعاينه وباشره[1]، واختبره من جانبيه، فتحقق استحالة تنفيذ نظريته، وعاد إلى القاهرة، واعتذر للحاكم بأمر الله، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، وأقام بها منقطعا، واشتغل بالتصنيف والنسخ[2].

تحتوى مؤلفات ابن الهيثم على ست عشرة مقالة فى البصريات:

١ ـ كتاب لخص فيه علم المناظر من كتابى إقليدس وبطليموس. ٢ ـ مقالة فى المرايا المحرقة. ٣ ـ مقال فى جوهر البصر وكيفية وقوع الإبصار. ٤ ـ كتاب المناظر فى سبع مقالات. ٥ ـ مقالة فى ضوء القمر. ٦ ـ مقالة فى قوس قزح. ٧ ـ مقالة فى رؤية الكواكب. ٨ ـ مقالة فى المرايا المحرقة بالدوائر. ٩ ـ مقالة فى المرايا المحرقة بالقطوع. ١٠ ـ مقالة فى المناظر على طريقة بطليموس. ١١ ـ مقالة فى كيفية الأظلال. ١٢ ـ مقالة فى أضواء الكواكب. ١٣ ـ مقالة فى الأثر الذى فى القمر. ١٤ ـ مقالة فى الضوء. ١٥ ـ مقالة فى الكرة المحرقة. ١٦ ـ مقالة فى صورة الكسوف.

ومن أهم مصنفات ابن الهيثم «كتاب المناظر» فى البصريات، وقد اتجه فى كتابه «المناظر» اتجاها جديدا يختلف عن كتب الإغريق وصار كتابه مرجع الباحثين فى الشرق والغرب وفى العصور الوسطى وتفصيل ما أورده ابن الهيثم فى كتابه على النحو الآتى:

ـ كيفية إدراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الثقيلة.

ـ فى أغلاط البصر فيما يدركه بالانعكاس وعللها.

ـ فى كيفية إدراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشفة المخالف لشفيف الهواء[3]

---

(١) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٦٦، ٦٧.

(٢) ابن صاعد الأندلسى: طبقات الأمم ص ٦٠.

(٣) ابن الهيثم: كتاب المناظر ص ٣٤، ٣٥.

كتب ابن الهيثم عن ضوء القمر الذى شاع بين الناس أنه مستمد من الشمس، أثبت أن الانعكاس لا يتفق وما يشاهد من أمر ضوء القمر، أى أن إشراق الضوء من القمر على الأرض ليس على طريق الانعكاس، وإنما على طريق إشراق الأضواء العرضية من سطوح الأجسام الكثيفة المستضيئة من الأجسام المضيئة بذاتها.

ولابن الهيثم نظرية فى الفجر والشفق، تحدث عن ضوء الصباح، فقال: إنا نجد الأرض مضيئة فى أول النهار وآخره قبل طلوع الشمس وبعد غروبها. ليس شيء من المواضع المضيئة فى هذين الوقتين مقابلا لضوء الشمس، وليس لضوء النهار علة غير الشمس، وإن طلعت الشمس، وصارت فوق الأرض، فإنا نجد البيوت والغرف والجبال والأودية المستترة عن الشمس، يشملها ضوء النهار. ويتحدث عن تدرج ضوء الصباح، ويقول: إنا نجد ضوء الصباح يبتدئ من آخر الليل وقد يبقى قطعة من الليل، فيمتد من أفق المشرق ذاهبا نحو وسط السماء كالعمود المستقيم، ويوجد ضعيفا، ويوجد مع ذلك وجه الأرض مظلما ظلمة الليل، ثم يقوى هذا الضوء ويزيد مقداره ويقوى نوره، فيضيء حينئذ وجه الأرض المقابل لذلك الضوء المنكشف له، بضوء ضعيف دون الضوء الذى يظهر فى الجو فى ذلك الوقت، ثم لا يزال الضوء فى الجو يقوى وينكشف إلى أن يملأ أفقه المشرق، ويبلغ إلى وسط السماء، ويمتلئ الجو ضوءا، وحينئذ يقوى الضوء الذى على وجه الأرض ويشرق ويصير نهارا واضحا، والشمس مع ذلك تحت الأفق وغير ظاهرة ثم تطلع الشمس بعد ذلك، فيزداد النهار وضوحا، وكذلك نجد الضوء فى آخر النهار، وبعد أن تغرب الشمس، وتختفى تحت الأفق[1].

والإبصار فى رأى ابن الهيثم نوعان: الإبصار بالتأمل، وهو إبصار المبصرات التى لم يدركها البصر من قبل، وليس يذكر إدراكا لها إذا تأملها فى حال إدراكها. والإبصار بالتأمل مع تقدم المعرفة هو إبصار جميع المبصرات التى قد أدركها البصر من قبل وهو ذاكر لإبصارها يعرفها واستقرأ المعانى التى فيها.

إذن الإدراك بالتأمل يتميز عن الآخر بالانتباه، أما الإدراك بالمعرفة، وهو إدراك بالبديهة، أى الإحساس المجرد الذى لا يكون إلا بما هو ضوء أو بما هو

(١) ابن الهيثم: المناظر ص ٢٧٠.

لون، وإنما يقصد به شعورا مجملا بشيء لوجود عينى فى الخارج أو العلم بجملة المبصر ككائن موجود أى التنبه(١).

ويقول ابن الهيثم عن البصر: إنه أى البصر يدرك صور المبصرات التى هى الأجسام، وصور المبصرات، إنما هى مركبة من المعانى الجزئية التى تقدم بيانها، فالبصر إنما يدرك كل واحد من المعانى الجزئية من إدراكه لصور المبصرات التى هى مركبة من المعانى الجزئية، والبصر يدرك من كل صورة من صور المبصرات جميع المعانى الجزئية منفردا؛ لأنه ليس بمنفرد بمعنى واحد من هذه المعانى دون غيرها، فالإدراك بطبيعته أمر معقد، كأن كيفيته تدور حول حلقة مغلقة، فلكى تدرك صورة المبصر يجب أن تدرك المعانى الجزئية التى تألفت منها(٢).

يقول ابن الهيثم: إدراك البصر للمبصرات، يكون على ثلاثة أوجه، بالحس والمعرفة والقياس، والتمييز فى حال إدراك المبصر وإذا أخطأ بالحس يكون ذلك الغلط فى المعرفة والقياس. والذى يدركه البصر بالحس، هو الضوء بما هو ضوء، واللون بما هو لون، فأما المعانى التى يدركها البصر بالمعرفة والصور التى يدركها البصر بالمعرفة، فهى جميع المبصرات المألوفة، التى قد تكرر إدراك البصر لها ولأنواعها، وألفها البصر لكثرة إدراكها، فمنها ما أصل إدراك البصر لها بالحس، ثم لكثرة تكررها على البصر، صار البصر يعرفها فى حال إدراكه لها، كأنواع الأضواء وأنواع الألوان، فإن البصر يعرف ضوء الشمس لكثرة تكرره عليه، ويفرق بينه وبين ضوء القمر وبين ضوء النار، وأصل إدراكه لضوء الشمس. وكل نوع من الأضواء بمجرد الحس ويعرف كل واحد من الألوان المألوفة، ويفرق بينهما بالمعرفة لكثرة تكرار الألوان المألوفة على البصر وأصل إدراكه لكل لون من الألوان إنما هو بالحس، لأن أصل إدراكه، إنما هو إدراك ما هو لون(٣).

أما إدراك البصر بالتمييز والقياس، صار البصر يعرفها فى حال إدراكه لها، صار البصر يدركها ببعض الأمارات الدالة عليها كصور الحيوانات المألوفة والنباتات

---

(١) المناظر: ص ٢٧٥.

(٢) ابن الهيثم: المناظر ص ٢٧٧.

(٣) ابن الهيثم: المناظر ص ٣٨٦.

والمأكولات والآلات والأفراد وجميع الأشكال الجزئية التى تتكرر رؤيتها كالدوائر والمستقيمات والمثلثات والمربعات، والظل المخصوص والظلمة المخصوصة.

وهذه المبصرات الجزئية والمبصرات الكلية، مثل شكل الإنسان أو الحيوان وهيئة الشجرة أو الفرس، ويعرف الإنسان هذه المعانى الكلية من غير قياس أو تمييز. وكذلك الصور المركبة التى يكثر تكررها على البصر، إنما يدركها البصر فى أول رؤيتها بالتمييز والقياس، ثم إذا تكرر إدراكها، وألفها البصر، صار إدراكه لها فى أول رؤيتها بالتمييز، وإذا تكرر رؤيتها، أدركها البصر بالمعرفة من غير قياس فى حالة الإحساس بها.

أما المعانى الذى يدركها البصر بالقياس والتمييز فى حال الإحساس فهى جميع الصور المركبة التى تتكرر على البصر، وجميع المعانى الجزئية فى الأشخاص الجزئية، تدرك بالتمييز والقياس(١).

وأنواع أخطاء البصر ثلاثة: غلط فى الإحساس، وغلط فى المعرفة، وغلط فى التمييز والقياس، وبعد مسافة المرئيات تكون فى حدود الإبصار العادى، وهذا البعد المعقول يؤدى إلى الإدراك السليم للمرئيات، والعكس إذا كان البعد أكثر من المعتاد؛ لأن الموضع المتيقن إنما يدرك من تيقن مقدار البعد، أما موضوع سفوح المبصرات عند البصر، يكون البصر فى خط مستقيم بين العين والمرئيات، فتبدو الصورة معتدلة، والسطح المائل يؤدى إلى رؤية مائلة بالنسبة إلى نوع الميل(٢).

ووصف الانكسار والانعكاس عند وقوع الضوء على شبكة العين ودرس تركيب العين، ووصف تشريحها، وسمى مكوناتها، ودرس خواص المرايا المقعرة، وأثبت أنها تعمل على تجمع ضوء الشمس فى نقطة واحدة، يحدث بها حرارة شديدة. وقد عيَّن ابن الهيثم المبدأ العلمى الذى يعمل به الصندوق المظلم ذو الثقب الذى كان ولا يزال يستخدم كآلة للتصوير(٣).

---

(١) ابن الهيثم: المناظر ص ٣٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٨.

(٣) ابن الهيثم المناظر: ص ١٧٥.

ولقد نال كتاب «المناظر» لابن الهيثم شهرة فائقة فى أوربا فى العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة فقد تُرجم إلى اللاتينية، وسُمى «كنز البصريات».

ولابن الهيثم رسائل كثيرة فى الضوء، مثل رسالة فى الشفق - رسالة فى ضوء قوس قزح والذى يحدث بسببه انكسار فى الضوء بموجاته المختلفة بسبب قطرات الماء فى الجو[1].

وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات، وتبلغ مؤلفاته ٢٠٠، لم يبق منها سوى خمسون، والباقى اندثر.

مضى زمن طويل لم يعرف العالم فيه مؤلفات ابن الهيثم فى الضوء، ثم تنبه إليها قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازى (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، وعلل نشأة قوس قزح تعليلا دقيقا بقوله: ينشأ قوس قزح من سقوط وقوع أشعة الشمس على قطيرات ماء فى الجو.

وكمال الدين بن الحسن الفارسى - تلميذ الشيرازى - شرح كتاب المناظر، واختصره، وشرح انعكاس الضوء وانكساره عند ملاقاته لجسم كروى، ومنها تعليله لقوس قزح، ومنها الغرفة المظلمة السوداء.

عنى الحسن بن الهيثم بالتحصيل والفلسفة فى علوم عصره، ونقل ما استطاع نقله من علوم الإغريق فى الطبيعيات والرياضيات والفلك إلى العربية، ويقول: سأظل طوال حياتى باذلا جهدى، ومستفرغ قوتى، لأفيد طلاب الحق والمعرفة فى حياتى وبعد مماتى، وجعلت العلم والتحصيل ارتياضا لى فى إثبات ما أتصوره وأتقنه فكرى، وهذا التحصيل ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم.

بلغت مؤلفات ابن الهيثم فى الفلسفة والعلم الطبيعى ثلاثة وأربعين كتابا. وبذلك أعد نفسه إعدادا كاملا لتأليف كتبه القيمة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٣.

علم الحيل:

عنى المسلمون بصناعة المزاول لمعرفة المواقيت، وخصوصا مواقيت الصلاة ووضع فى ذلك الكندى كتاب «استخراج الساعات على نصف كرة بالهندسة» وصنف ثابت بن قره كتاب «آلات الساعات التى تسمى رخامات» وكتاب «المخروط المكافئ» وهذا يدل على أن ثابت بن قره كان يصنع المزاول من قطوع المخروط(١).

وفى القرن السابع الهجرى يصنع أبو الحسن على الساعات الشمسية التى يسرت تحديد الوقت، ووضع التقاويم الفلكية. ابتكر العرب الساعة الشمسية الدقاقة، أى ذات الرقاص الدقاق (البندول) والبندول سبق العرب فيه جاليليو الإيطالى، وعلى وجه التحديد أول من اخترعه ابن يونس فى مصر، واستعمل المسلمون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد(٢).

وأسهم نصير الدين الطوسى بدور كبير فى هذا المجال، فابتكر المحلقة ذات الخمس حلقات، الأولى تشير إلى خط الطول، والثانية إلى خط الاستواء، والثالثة إلى الخط الإمليلجى، والرابعة تشير إلى خط العرض، والخامسة تشير إلى دائرة الانقلاب الشتوى والصيفى. ومن مبتكراته إحداث ثقب فى قبة المرصد، تنفذ منه أشعة الشمس بحيث يعرف منها حركتها اليومية، ودقائقها وارتفاعاتها فى مختلف فصول السنة، وتعاقب الساعات.

وتوصل المسلمون إلى الثقل النوعى، وقدروا بعض الأجسام تقديرا دقيقا، وتوصلوا إلى النسب الحقيقية بين وزن الأجسام المعدنية المختلفة وبين وزن الماء، ووضعوا لذلك جداول دقيقة لبعض المعادن والأحجار الكريمة.

ومن العلماء المسلمين الذين ساهموا فى هذا العمل أبو الطيب سند بن على (ت ٢١٨هـ)، وأبو سهل الكوهى، وللخازنى كتاب «ميزان الحكمة» بحث فيه وزن الهواء وكثافته، والضغط الذى يحدثه. وبحث العلماء المسلمون فى الروافع والجاذبية، وكان لدى المسلمين عدد من الروافع(٣).

---

(١) محمد الصادق عفيفى: تطور الفكر العلمى عند المسلمين.

(٢) محمد الصادق عفيفى ص ١٣٢.

(٣) سيديو: تاريخ العرب العام ص ٣٥٥.

واستخدم البيرونى التجارب لحساب الوزن النوعى أو الكثافة بالنسبة للماء، وتوصل بهذه الطريقة لحساب الوزن النوعى إلى معرفة وزن الأحجارالكريمة والعناصر[1]. وكانت موازين العرب الكيماوية توضع فى صناديق زجاج حتى لا تؤثر فيها تموجات الهواء، وبتكرار الوزن مرارا، يمكن معرفة الميزان بدقة، وهذا يدل على أن المسلمين كان لهم اهتمام بالحركة والسكون ومركز الثقل، وجر الأثقال بالقوة اليسيرة.

الرياضيات

أخذ العرب عناصر فلسفتهم الطبيعية من مؤلفات إقليدس وبطليموس وبقراط وجالينوس، ومن بعض كتب أرسطو بالإضافة إلى كتب ترجع إلى المذهبين الفيثاغورثى والأفلاطونى[2].

أما الرياضيات بالذات ـ موضوع دراستنا ـ فقد أخذه العرب عن فيثاغورث ـ حقيقة استفاد العرب من الهنود فى هذا المضمار ـ لكن من الثابت أن المسلمين تأثروا بالدرجة الأولى بفيثاغورث الذى يعتبر أستاذهم بحق.

عرف العرب الأعداد قبل الإسلام، ولكنهم لم يعرفوا العمليات الحسابية. وفى تجارتهم وحساباتهم، يستخدمون العد بأصابع اليد، وعبر القرآن الكريم عن الأعداد فى آيات كثيرة **﴿ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾**[3] **﴿إن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾**[4] ونبى الله نوح **﴿فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما﴾**[5] **﴿خمسة سادسهم كلبهم﴾**[6] ـ **﴿تسعة وتسعون نعجة﴾**[7] إلخ.

ذكر القرآن الكريم الأعداد الطبيعية والكسور فى حسابات المواريث مما عمل على ازدياد اهتمام العرب بالحساب، فقد استخدم العرب الحساب فى حسابات المواريث، والزكاة وجباية الأموال والمساحة والبناء وغير ذلك.

---

(١) عصام الفقى: الهند فى العصر الإسلامى ص ٢٨١.
(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١١٠.
(٣) سورة الكهف آية: ٢٥.
(٤) سورة التوبة آية: ٣٦.
(٥) سورة العنكبوت آية: ١٤.
(٦) سورة الكهف آية: ٢٢.
(٧) سورة ص آية: ٢٣.

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال: «تعلموا الفرائض فإنها من دينكم، وهى أول ما ينسى» رواه ابن ماجة، والفرائض معناها قسمة المواريث. يقول تعالى:

﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما * ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم﴾[1].

استمر استعمال الأسماء اللغوية للأعداد فترة طويلة من الزمن فى كتب الحساب والجبر والطبيعة وغير ذلك من العلوم.

وكان أبرز تطور فى اتجاه التدوين الرمزى للأعداد استخدام العرب الحروف الأبجدية للتعبير عن الأعداد، ولتوضيح ذلك نبدأ أولا بالحروف الأبجدية المفردة وما يناظرها من الأعداد ثم نبين بأمثلة أخرى طريقة التعبير عن الأعداد بحرفين أو أكثر.

آحاد	أ	ب	جـ	د	هـ	و	ز	ح	ط
	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
عشرات	ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠
مئات	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ
	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠
ألوف	غ								
	١٠٠٠								

(١) سورة النساء: الآيتان ١١ ، ١٢.

مـثـال: م جـ تـعنى ٤٣، س ز تعنى ٦٧، خ ع تعنـى ٦٧٠، خ هـ تعنى ٦٠٥.

مثال: ض س ح تعنى ٨٦٨، غ ذ ع ط تعنى ١٧٧٩.

أما عن الجبـر فبمطالعة تاريخ الجـبر والحساب نجد أن للـعلماء العرب دوراً بارزاً فى إرساء دعائم هذين العلمين، وكما اقـترنت الهندسة باسم إقليدس، فمن الضرورى أن يقترن الحـساب والجبر باسم محمـد بن موسى الخوارزمى؛ لأنه أول من نظم المعرفة الحسابيـة والجبرية بطريقة منطقية، كما فـعل إقليدس بالنسبة لعلم الهندسة، وابتكر الأساليب الجديدة فى الوصـول إلى المجهول بدلالة العلوم ليحقق طريقـة ثابتة وعـامـة لحل المعادلات الجـبرية من الدرجـة الثـانية، إلا أن طريقـة الخوارزمى فى العـرض تختلف عن الطريقـة التى وصل لها علم الجـبر حـاليا فى التعبير عن المعادلات بالطريقة الرمزية. وسنذكر هنا بعض القواعد الجبرية الموجودة فى كتاب الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى الخوارزمى(١).

* قاعدة التوزيع فى الضرب

يقول الخوارزمى: «إذا كانت عـقود ومعها آحاد أو مستـثنى منها آحاد فلابد من ضربـها أربع مرات، العـقود فى العـقود، والعـقود فى الآحـاد، والآحاد فى العقود، والآحـاد فى الآحاد» ولتوضيح هذه العبـارة فإننا إذا أردنا أن نضرب على سبـيل المثال ١٢ × ١١ فإن كل عـدد منها يتحلل بالنسـبة للخوارزمى إلى عـقود وآحاد ويضرب بالطريقة الآتية:

(١٠ + ٢) (١٠ + ١) = ١٠ × ١٠ + ١٠ × ١ + ٢ × ١٠ + ٢ × ١

ولم يقتـصر تطبيق هذه القـاعدة على الحساب بل عـمل على تطبيقـها على عمليات الجبر.

ولدراسة العـمليات الرياضـية عند العـرب ارجع إلى كتـاب الجبر والمـقابلة للخوارزمى.

---

(١) محمد بن موسى الخوارزمى: كتاب الجبر والمقابلة.

أخذنا من الهند الأعداد ١، ٢، ٣.. إلخ كما ذكرنا سابقا، بينما أخذ العرب من الهنود الأعداد المسمـاه بالغبارية، وهى إلخ 4-3-2-1 ولم يستعملوها، ولكنها استـعملت فى المغـرب والأندلس، وانتقلت إلى أوربا، وتسـمى الأرقام العـربية. ويسرت هذه الأرقـام للعرب والأوربيين العمليـات الحسابيـة، وكانت العـمليات الحسـابية معقـدة كل التعقيـد، وقابلة للخطأ الشديد لصـعوبة الأرقام وتعقـيدها، وخصـوصا الأرقـام الرومـانية فـاستـفاد العـرب والأوربيون من تقـدم الهنود فى الرياضيات[١].

كان أبو يعـقوب بن إسحاق الكندى من قـبيلة كندة العربية ولُقب فـيلسوف العرب، تمييزا له عن أقرانه من المتوفريـن على دراسة الحكمة من غير العرب. ولقد درس الكندى الثقافـة الفارسية واليـونانية فى البصرة وبغـداد، وبعض مدن العراق واشتغل بتـرجمة الكتب اليونانية إلى العـربية، وتهذيب ما ترجمه غـيره، وكان له تلاميذ يـترجمون تحت إشرافـه، واشتغل فى قصـر الخلافة منجمـا. وكان الكندى واسع الاطلاع على جميع العلوم لذلك صنف فى عدة علوم مثل الجغرافيا والتاريخ والطب وعلم الكلام الذى يظهر فـيه ميله إلى المعتزلة، وكـان ملما بالمذاهب والملل المختلفة؛ لذلك برع فى المقارنة بعضها ببعض[٢].

على أن الكنـدى قـد نبغ فى الدرجـة الأولى فى الرياضـيـات والفلسـفـة والطبيـعية. ويرى أن الإنسـان لا يكون فيلسوفـا إلا إذا درس الرياضيات المركـبة. وللكندى نظريات فلسفية تتعلق بالله والنفس والـعقل والعالم، فيرى أن كل ما يقع فى الكون يرتبط بعـضه ببعض علة بمعلول. والعـقل مرد كل شىء، والمادة تتـخذ الصورة التى يشاء العقل إقامتها[٣].

عُنى المسلمـون بالهندسة، وتُرجم فى عـهد المنصور كـتاب إقليـدس المسمى «الأصول» وكـتاب الأركـان، ويشتمل على خـمسـة عشر مـقال، منهـا أربعة فى السطوح وثلاثة فى العدد وخمسة فى المجسمات، وقد ألف العرب كتبا على نسقه، وأدخلوا تمارين جديدة لم يعرفـها القدماء، والهندسة اهتم بها المسلمـون لأنها تفيد أصحابها إضاءة عقليـة، واستقامة فى فكره،[٤] ولأن براهينها كلهـا بينة الانتظام،

---

(١) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم عند العرب ص ٩٢، ٩٣.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٣٨ ـ ١٤٢.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٣.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٦.

جلية الترتيب، لا يكاد يدخل الغلط أقيستها لترتيبها وانتظامها، على كل حال وضع المسلمون أسس الهندسة التحليلية، ومهدوا لنشأة علم التفاضل والتكامل(١).

ومن أبرز علماء الرياضة المسلمين أبناء موسى بن شاكر ولهم أبحاث فى الميكانيكا، وألفوا فى مراكز الثقل، وكتبوا فى الآلات(٢).

أدخل المسلمون الخط المماس على حساب المثلثات، وتوصلوا إلى حل المعادلات المكعبة، وأنشأوا النظريات الأساسية لحل مثلثات الأضلاع، واخترع المسلمون الكسور، وتعرفوا على الكسور التربيعية والتكعيبية، وأحلوا الأرقام الهندسية محل الحروف لبساطتها(٣).

ومن أشهر علماء الرياضيات البيرونى الذى توصل إلى تقدير الوزن النوعى بدقة، وتوصل إلى الرقم العشرى الرابع(٤).

ويعتبر البتانى من أشهر علماء المسلمين فى الرياضيات.

ووضع ثابت بن قرة كتبا عديدة فى الرياضيات، ومن أشهر كتبه «حساب الأهلة» ـ «استخراج المسائل الهندسية».

ومن الرياضيين المسلمين، محمد بن عنبسة وسنان بن ثابت والحسن بن الهيثم وغيرهم.

ونبغ المسلمون فى علم الميكانيكا، وهم أول من طبق الرقاص على الساعة، وابتكروا الساعة المائية الرقاقة التى تسقط كرة نحاسية على قرص معدنى كل ساعة لتوضيح الوقت، وأسمى المسلمون علم الميكانيكا (الحيل) وقسموه إلى قسمين: أحدهما فى آلات الحركات وصناعة الأوانى، وثانيهما فى رفع الأثقال بالقوة، ودرسوا فى هذا العلم الكثير من الأدوات الميكانيكية كالرافعة.

ووضع البيرونى قاعدة رياضية لحساب طول محيط الأرض ونصف قطرها سميت «قاعدة البيرونى» وألف الدينورى «البحث فى حساب الهند»(٥).

---

(١) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم عند العرب ص ٩٢ ، ٩٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) عصام الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى ص ٢٨١.

(٥) عصام الدين الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى ص ٢٨٠.

ووضع الحسن بن الهيثم كتاب «تحليل المسائل الهندسية» و«المساحة والأشكال الهلالية» وأورد براهين على الأصول الهندسية، استمدها من المحسوسات.

وكتب أبو الوفا البوزجانى كتبا قيمة، تحدث فيها عن المساحات وأصول الرسم الهندسى بالآلات، ومهد بذلك إلى ظهور الهندسة التحليلية.

وتوصل الرياضيون المسلمون إلى تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام وحساب نسبة محيط الدائرة إلى قطرها، ووضعوا أصولا لرسم المضلعات المنتظمة.

علم الفلك

هو علم ينظر فى حركات الكواكب الثابتة أو المتحركة، ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع الأفلاك، لزمت عنها الحركات المحسوسة بطرق هندسية، وكان اليونانيون يعنون بالرصد كثيرا، ويتخذون له الآلات التى توضع لترصد بها حركة الكواكب بقصد معرفة عملها، والبرهنة على مطابقة حركتها بحركة الفلك[1].

عنى المسلمون برصد الكواكب والنجوم، والخليفة المنصور وضع أساس مدينة بغداد فى الوقت الذى حدده له المنجمون وبشروه بطول بقائها، وازدياد عمرانها، وقرب إليه المنجمين وعهد إلى علماء الفلك بترجمة كتب اليونان والهند والسريان عن الفلك، فتُرجم له كتاب «السند هند الكبير» وظل هذا الكتاب أهم مرجع فى العصر العباسى حتى عهد المأمون، فاختصره الخوارزمى، وأضاف إليه إضافات من مراجع فارسية ويونانية وضم إليه أبوابا مفيدة، واعتمد العرب على جداوله الفلكية فى كتاباتهم عن الفلك[2]، وكتب يحيى بن البطريق كتاب «الأربع مقالات لبطليموس فى أحكام النجوم»[3]. وشغُف الناس فى العصر العباسى بمعرفة الأخبار عن طريق النجوم.

صحح علماء الفلك المسلمون الكثير من المعلومات الإغريقية وقالوا بدوران الشمس والقمر والنجوم حول الأرض، وأن القمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، ويليه الكواكب الأخرى، كما قاسوا أجرام الشمس والقمر والنجوم بطرق هندسية وأقام المسلمون المراصد فى المدن، وأجريت حسابات دقيقة فى الفلك. وتتضمن المراصد آلات الإسطرلاب الذى يقيس ارتفاعات الكواكب من الأفق،

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٨٢.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٥.

(٣) العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٢.

وتغيير الزمن، وحل كثير من المسائل الفلكية، ووضعوا الجداول الفلكية، وتتضمن قوانين رياضية فيما يختص بكل كوكب[1].

وكانت أبحـاث يعقوب الكندى فى الفلك، تسيـر على أساس علمى، ولم يؤمن بالتنجـيم، وقد لاحظ أوضاع الكـواكب والنجوم وخاصـة الشمس والقـمر بالنسبة للأرض، وما ينشأ عنـها من ظواهر يمكن تقديرها من حيث الكم والكيف والزمـان والمكان، وربط بين ذلك وبين نشـأة الحـيـاة على الأرض فى آراء توضح مقدرته العلمـية الفائقة، ووضع كـتابا فى زرقة السماء، وأوضح فـيه أن نشأة هذا الكون من الأضواء الناتجة عن ذرات الغبار وبخار الماء الموجود فى الجو، وله رسالة فى المد والجزر[2].

ومن علمـاء الفلك جابر بن حـيان، اهتم بدراسـة الفلك، وتوصل إلى أن الكواكب السبعة تخـتلف فى مقدار الحرارة التى تستمـدها من الشمس، باختلاف قـربها أو بعـدها عنها، فـالشمس هى التـى تمد الكواكب كلها بالحـرارة والنور. والشمـس وسط بين الكواكب. فتـصل حرارتهـا إلى الكواكب كلها، وعلـى قدر القرب أو البعد من الشمس، تكون حرارة الكواكب، ودرس كل كوكب من حيث ظواهره الطبيعية وخصائصه، كما درس خصائص النجوم[3].

وصنف الخوارزمى كتابين فى الإسطرلاب، تناول فيهما مسائل فى التنجيم، وأعد مجموعة من صور السماوات والعالم ومن هذه الصور، صورة الأرض[4].

ومن علماء الفلك جعـفر بن عمر البلخى صاحب «إثبـات العلوم» ـ «هيئة الفلك» وتمكن أبو الوفا الفلكى الذى عاش فى بغـداد فى القرن الرابع الهجرى من مشاهدة سمة الشمس فى ربع دائرة يبلغ نصف قطرها ٢١ قدما.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٣.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق ص ٣١٠.

(٤) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٣٨٨.

وأقام الخلفاء والأمراء في الدولة الإسلامية المراصد الفلكية في المدن الإسلامية، وساعدت المراصد والإسطرلاب علماء الفلك في دراسة موضوعاتهم.

وتمكن العلماء المسلمون من ضبط الأبعاد، وتحديد حركات النجوم بدرجة دقيقة. ولاتزال معظم مجموعات النجوم تحتفظ بأسمائها العربية، ونجح العرب في تحديد طول السنة المدارية والفصول ومدار الشمس وتقديرهم للدرجة العرضية بمسافة طولها $\frac{٢}{٣}$ ٥٦ ميل، وبذلك توصلوا إلى معرفة محيط الكرة الأرضية ونصف قطرها، وعرف المسلمون مقياس خط النهار، وكشفوا الاختلاف الثالث في سير القمر، واستدركوا الكثير من الأخطاء التي وقع فيها اليونان. وقاس ثابت بن قرة محيط الكرة الأرضية بتكليف من الخليفة المأمون، وكان يعمل في مرصده.

ومن علماء الفلك ابن يونس من أهل القرن الرابع الهجري وكانت لأرصاده أهمية خاصة لدقته العلمية، واتخذت أساسا لتحديد جاذبية الأرض، ومن أعماله حساب دائرة البروج والتوصل إلى حل بعض مسائل حساب المثلثات، واعتمد عليه الفلكيون، وهو الذي اخترع بندول الساعة الدقاقة، وله أعمال كثيرة في دراسة الفلك.

تولى ابن يونس رئاسة بيت الحكمة في القاهرة (ت ٣٥٠هـ) واتخذ مرصده على جبل المقطم، وهناك رصد كسوفين للشمس وأنشأ المرصد الحاكمي، نسبة إلى الحاكم بأمر الله، ووضع زيجا أي جدولا فلكيا من أهم الأزياج، وزيج ابن يونس مراجعة للأزياج التي سبقته، وتحقق بنفسه من أرصاد من سبقوه، وما قالوه في الظواهر الفلكية كالخسوف والكسوف، واقتران الكواكب مولد الأهلة، ويتضمن الزيج جداول فلكية يستدل بها على حركة الكواكب السيارة. واتخذت أرصاد ابن يونس أساسا لتحديد جاذبية القمر، واعتمد الفلكيون على أزياج ابن يونس لدقتها[١].

والبيروني من أبرز علماء الفلك المسلمين، أشار إلى دوران الأرض حول محورها، ووضع نظرية فريدة لاستخراج طول محيط الأرض، وكذلك حسب

---

(١) الفندي: الله والكون ص ٩٣.

طول نصف قطر الأرض من قانون استنبطه بنفسه ويعرف «قانون البيرونى». وكتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» فيه جداول مفصلة للأشهر الفارسية والهندية والروسية وطريقة استخراج التواريخ المختلفة عن اليونان والفرس والهنود وغيرهم، ويتضمن الكتاب وصفا كاملا لجميع التوقيتات والأعياد المعمول بها عند الشعوب وفى الأديان المختلفة(١)، ويوضح فى الكتاب أصول الرسم على سطح الكرة الأرضية ومبادئ الفلك الكروى. وفى كتابه المجسطى قدم اثنى عشرا فصلا موجزا لعلم الفلك مع حساب التوقيت وحساب المثلثات والرياضة والجغرافيا والتنجيم، ويعتمد على أرصاد جديدة(٢).

ومن علماء الفلك محمد بن جابر البتانى (ت ٣١٩) وضع الزيج الصابى الذى أثبت فيه الكواكب الثابتة. ومن أشهر كتبه «معرفة مطالع البروج فيما بين أزياج الفلك»(٣).

وكان فى كل قصر من قصور الخلفاء والأمراء منجم يعتمدون عليه فى التنبؤ بالأحداث على الرغم من كذب المنجمين ولو صدقوا، لأن الإنسان يحب معرفة المستقبل بكل الوسائل المتاحة.

ومن أبرز المنجمين عمر الخيام، وكان فيلسوفا ورياضيا وعالما فى الفقه واللغة والتاريخ، وهو واضع الزيج الجلالى، نسبة إلى ملكشاه - السلطان السلجوقى - وذاع صيته فى الشرق والغرب بسبب رباعياته، وكان نديما للسلطان ملكشاه، ويعظمه الأمراء فى المشرق الإسلامى(٤).

وعلى الرغم من تنبؤات عمر الخيام عن طريق النجوم، إلا أنه كان لا يؤمن بالتنجيم، ولا يطبق التنجيم على نفسه، وعلق صاحب كتاب «جهار مقاله»(٥) على التنجيم بقوله: إنه لا يجوز الاعتماد على التنجيم، ولا ينبغى للمنجم أن

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان.

(٢) الفندى: الله والكون ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) ابن النديم: الفهرست ٣٩٠.

(٤) حسن إبراهيم حسن: الإسلام السياسى جـ٤ ص ٥٢٦.

(٥) نظامى عروضى السمرقندى ص ٧٠.

يمعن فى التنجيم، وهناك فارق بين دراسة الفلك، وهى دراسة علمية والتنجيم الذى لا يستند على أساس علمى، وهو محاولة للتنبؤ بالغيب الذى لا يعلمه إلا الله.

ومن علماء الفلك محمد بن محمود الخليلى (ت ٨٠٠هـ)، نشأ فى دمشق، وتعلم بها الفلك، ونبغ فيه، ألف جداول الميقات وميز مواعيد الصلاة، وتوصل إلى طريقة حسابها. وعلم الميقات هو الذى يعرفنا بالوقت عن طريق الشمس والنجوم، ومن أهم إنجازاته سلسلة من الجداول عمَّ استعمالها، وهى جداول لمعرفة مواقيت الصلاة وجداول لحل مسائل الفلك الكروى لكل خطوط العرض، وجداول لتحديد القبلة كإشارة لتحديد خطوط الطول والعرض، واعتمد عليه أهل مصر والشام وتركيا فى تحديد أوقات الصلاة ومعرفة القبلة[١].

ومن كبار علماء الفلك المصريين نجم الدين المصرى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى، ونبغ فى علم الميقات وجداول الزيج وتمكن من تعيين الوقت بدقة من رصد ارتفاع الشمس نهارا أو النجوم ليلا فى أى بقعة على الأرض، أى أن تلك الجداول بمثابة الجداول العالمية التى صُنفت وحُسبت ليستفيد منها أهل الأرض جميعا[٢].

وكان السلاطين والأمراء يتخذون فى قصورهم منجمين يخبرونهم بتنبؤاتهم عن الأحداث الهامة، فكان فتلمش السلجوقى فى حروبه مع منافسيه يستطلع آراء المنجمين وتنبؤاتهم، ولا يخرج إلى الحروب فى أيام النحس، وكان نظام الملك يثق فى منجمه عمر الخيام - وهو من أشهر منجمى عصره - وعلى الرغم من تحريم التنجيم فإنه ظل عقيدة راسخة، واستطلع هولاكو رأى المنجمين حين شرع فى غزو بغداد، وحين اعتزم المسير إلى مصر.

والخلاصة: إن علم الفلك بلغ عند المسلمين درجة كبيرة من التقدم والدليل على ذلك أن المصطلحات الفلكية وأسماء الكواكب والأرياح لاتزال تحمل الاسم العربى.

---

(١) الفندى: الله والكون ص ٧٥، ٧٦.

(٢) الفندى: الله والكون ص ٧٩.

عرف المسلمون الكيمياء منذ فجر تاريخهم، وينسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية فى القرن الأول الهجرى، اهتمامه بعلم الكيمياء، وقد استعان براهب من دمشق يدعى مريانس فى تصنيف كتبه فى الكيمياء(١).

كما أن جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) كان مولعا بدراسة الكيمياء وازدهرت دراسة الكيمياء فى العصر العباسى الأول، ومن أشهر علماء الكيمياء، جابر بن حيان، وُلد بخراسان سنة (١٢٠هـ)، درس الكيمياء على يد أستاذه جعفر الصادق، وأقام فى بغداد، واتصل بالبرامكة ونال حظوة عندهم، وغادر بغداد بعد نكبة البرامكة. ويعتبر جابر بحق واضع علم الكيمياء، اعتمد على التجربة فى وضع نظرياته وتحقيق ما كتب، وألف كتبا فى الرياضة والفلسفة والفلك بالإضافة إلى ذلك(٢).

وقد توصل جابر من خلال أبحاثه إلى تكوين الزئبق والكبريت وله أبحاث فى التفاعلات الكيميائية والمعادلات، فمثلا حدد العناصر التى تكون الذهب. وكان جابر ينصح تلاميذه دائما بالتجربة، وعدم الاعتماد على الدراسات العلمية مع التدقيق فى الملاحظة والاحتياط والتأنى فى الاستنتاج؛ لأن التجربة طريق المعرفة، ولقد عرف جابر الكثير من النظريات الكيماوية كالتبخير والتقطير والترشيح والتبلور والتصعيد والإذابة، وحضر الكثير من المواد الكيماوية، وعرف خواصها مثل نترات الفضة وحامض الأزونيك، وهو أول من لاحظ أن محلول نترات الفضة يكون مع محلول ملح الطعام راسبا أبيض، وأن النحاس يكسب اللهب لونا أخضر، وميز بين التقطير والترشيح(٣).

ونظرية جابر فى طبيعة المعادن تشير إلى أنه كان أكثر تقدما من نظريات اليونان العلمية، ومن نظريات مدرسة الإسكندرية، فالمعادن عنده مقومان دخان أرضى وبخار مائى، وتكثيف هذه الأبخرة فى جوف الأرض ينتج الكبريت

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٥٤.
(٢) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم عند العرب ص ١٦٢.
(٣) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٢٩٦.

والزئبق، واجتماع هذين يكوّن المعادن. والفروق بين المعادن الأساسية، يرجع إلى الفروق فى النسب التى يدخل فيها الكبريت إلى الزئبق نسبة تعادل بين هذين العنصرين وفى الفضة يكون العنصران متساويين فى الوزن، أما النحاس ففيه من العنصر الأرضى أكثر مما فى الفضة والحديد والرصاص، والقصدير فيها من ذلك العنصر أقل مما فى الفضة. ولما كانت المعادن مكونة من مقومات مشتركة، فإن تحويل بعضها إلى بعض يصبح أمرا مستطاعا، وعندما يقوم الكيميائى بهذا التحويل، فإنه يؤدى فى وقت قصير ما تؤديه الطبيعة فى وقت طويل[1].

ولقد توصل جابر إلى نظريات تثبت عبقريته، منها النظرية التى تقول بأن الاتحاد الكيميائى يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة مع بعضها البعض، ونظرية جابر هذه لا تختلف كثيرا عن النظريات الذرية التى وضعت بعد ذلك بألف عام.

لقد تُرجمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلت أهم مرجع فى علم الكيمياء زهاء ألف عام، وكانت مصنفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، ومنهم من أنصف جابر، وأشاد بأعماله، ومنهم من أثار الشك والريبة حول جهوده، بل أنكر وجوده أصلا، وقالوا لا يمكن أن تكون كتب جابر وما تحويه من معلومات قيمة من وضع رجل عاش فى القرن الثانى الهجرى[2].

والحق أن جابر - كيميائى العرب الأول - فهو أول من بحث فى علم الكيمياء، ونال التقدير والمكانة اللائقة به وبعمله وقال عنه القفطى[3]: كان متقدما فى العلوم الطبيعية بارعا فيها وفى صناعة الكيمياء. وله فيها تآليف كثيرة، ومصنفات مشهورة لا يقبل تعليم أحد الكيمياء إلا إذا اطمأن إليه اطمئنانا كاملا على مقدرته العلمية وحسن استعداده، وعلى حد قوله: اعلم أن من المفترض علينا كتمان هذا العلم، وتحريم إذاعته لغير المستحق من بنى نوعنا، وألا نكتمه

(١) زكى نجيب محمود: جابر بن حيان ص ٢٤٧.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية.
(٣) إخبار العلماء ص ٢٢٠.

عن أهله[1]؛ لأن وضع الأشياء فى مجالها من الأمور الواجبة؛ ولأن فى إذاعته خراب العالم وفى كتمانه تضييعًا له. ويذكرون أن الكيمياء عناء الدهر[2].

وينسب إلى جابر بن حيان عدد كبير جدا من الكتب والرسائل يدور كثير منها حول الكيمياء والوسائل التى يستطيع بها الكيماوى أن يبدل طبائع الأشياء تبديلا يحولها بعضها إلى بعض. وذلك إما بحذف بعض خصائصها أو بإضافة خصائص جديدة إليها؛ لأنه إن كانت الأشياء كلها ترتد إلى أصل واحد، كان تنوعها راجعا إلى اختلاط فى نسب المقادير التى دخلت فى تكوينها، فليس الذهب مثلا يختلف عن الفضة فى الأساس والجوهر، بل هما مختلفان فى نسبة المزج، فإما زيادة هنا أو نقصان هناك. وواجب الكيميائى تحليل كل منهما تحليلا يهديه إلى تلك النسبة، كما هى قائمة فى كل منهما[3].

وكان ابن حيان يرى أن العالم فى استطاعته أن يجاوز الطبيعة إلى ما وراءها بالبحث العلمى المجرد، وهذا ييسر له استخراج كوامن الطبيعة، ففى وسع الباحث العلمى أن يلتمس طريقه إلى تحقيق غايته فى الوصول إلى الحقيقة العلمية[4].

والواقع أن جابر ينفرد أو يسبق غيره فى المنهج العلمى، فهو حريص على أن يقصر نفسه على مشاهداته المستندة إلى التجربة التى تثبت صحتها، وكان لا يعتمد على أقوال الغير إلا إذا كانوا معتمدين على التجارب العلمية، أو مشهود لهم بالأمانة العلمية.

ويرى جابر أن العالم يجب أن يكون مثابرا فى جهوده العلمية التى تهدف إلى الكشف عن الحقيقة مهما كلفه هذا البحث من عناء وجهد، ويؤكد ابن حيان أنه لا نجاح فى عمل علمى إلا إذا كان مسبوقا بعلم يتبعه التجربة ثم التطبيق[5].

---

(١) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم عند العرب ص ١٦٣ ، ١٦٤.
(٢) زكى نجيب محمود: جابر بن حيان ص ٤٥ ، ٤٦.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية.
(٤) القفطى: إخبار العلماء ص ٢٢٣.
(٥) القفطى: إخبار العلماء ص ٢٢٣.

ويرى جابر أن أول ما كان فى الأزل، هو العناصر الأولية الأربعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، فهذه هى أوائل الأمهات البسائط، كما يسميها، ثم طرأت على هذه البسائط حركة وسكون، فتكوَّن منها تراكيب منوعة ولولا الحركة والسكون لظلت تلك الأصول الأولى مستقلا بعضها عن بعض، كل منها خالص لنفسه.

ومن هذه الأصول الأربعة الأولى الحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة، نشأت أربعة عناصر، وذلك باجتماع تلك الأصول بعضها ببعض، اثنين اثنين. اجتماع الحار واليابس تنشأ النار، واجتماع الحار والرطب ينشأ الهواء، واجتماع البارد واليابس تنشأ الأرض، واجتماع البارد والرطب ينشأ الماء. وفصول السنة أربعة تقابل تلك العناصر الأربعة، فالصيف يقابله النار، والربيع يقابل الهواء، والشتاء يقابل الماء، والخريف يقابل الأرض[1].

وجابر بن حيان تظهر ميوله الشيعية فى مؤلفاته، فيشير إلى أن مفاتيح العلم اليونانى فى أيد الأئمة المعصومين من ذرية على بن أبى طالب.

وبعد دراسته لتاريخ الدين يتناول الكيمياء ثم الطب ثم الفلك ثم السحر (الطلسمات) وعلم الخواص، أى القوى الباطنة فى بطون الأشياء الطبيعية، وعلم الكون، أى تكوين الأحياء بطرق صناعية.

وترجع أهمية كتب جابر إلى أنه يأخذ من كتب علماء اليونان التى اندثرت مثل أفلاطون وأرسطو وجالينوس وإقليدس وبطليموس وأرشميدس وغيرهم، ويأخذ عن ترجماته حنين بن إسحاق وأبيه وتلاميذهما.

وفى أسواق بغداد كان جابر يملى على تلاميذه ما يجب للأستاذ على التلميذ، وهو أن يكون التلميذ لينا متقبلا لجميع أقواله من جميع جوانبه، لا يعترض فى أمر من الأمور، فإن ذخائر الأستاذ العالم لا يظهرها للتلميذ إلا عند السكون إليه، ولست أريد بطاعة التلميذ للأستاذ أن تكون فى شئون الحياة الجارية، بل أريدها طاعة فى قبول تعلم الدرس.

---

(١) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٢٩٩.

وما يجب على التلميذ للأستاذ أن يمتحن الأستاذ توجيه المتعلم، أى جوهر المتعلم الذى طُبع عليه، ومقدار ما فيه من القبول والإصغاء وقدرته على حفظ ما تعلَّمه، فإذا وجد الأستاذ من تلميذه قبولا، أخذ يسقيه أوائل العلوم التى تتناسب مع قدرته على القبول ومع سنه، وكلما احتمل الزيادة زادت مع امتحانه فيما كان قد تعلمه، فإذا بلغ التلميذ مرتبة الأستاذ أصبح من واجبه أن يعلمه، فإذا لم يفعل ذكَّر أستاذه ويقول: ويجب أن نذكر فى كتبنا خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو ما قيل لنا وقرأناه بعد أن امتحناه وجربناه، فما صح أوردناه، وما بطل رفضناه.

وكان الكيميائى صيدلانيا، ولكن جابر تخصص فى الكيمياء فقط، وهو الواضع للقواعد العلمية لعلم الكيمياء، وله تلاميذ عديدون، كتبوا كل أقواله فى كتب، ونسبوها إليه ومن نصائحه:

تجنب المستحيل وما لا فائدة منه.

اختر للتجربة الوقت الملائم.

كن صبورا ومثابرا ومتحفظا وصامتا.

لا تصادق إلا من تثق به.

لا تغتر بالظواهر التى قد تؤدى إلى فشل تجاربك.

من أهم كتب جابر «نهاية الإتقان ـ الرحمة ـ التجريد ـ الميزان ـ رسالة فى الأقران».

ويعتقد جابر أن لكل عنصر روح كالإنسان والحيوان والنبات، وأن طبائع العنصر قابلة للتبديل، وإذا كان العنصر أقل صفاء، كلما كان أقل تأثيرا، وكذلك يمكن جعل العنصر قوى التأثير بتصفيته من العناصر الممزوجة به، ويرى أن الذهب والفضة من أصفى المعادن، لذلك عندما تستخرج روح أى منهما، وتعالج بها أى معدن آخر، ينقلب هذا المعدن إلى ذهب أو فضة.

ومن الكيميائيين المسلمين، أبو بكر الرازى الذى قسم المواد الكيماوية إلى أربعة أقسام أساسية، هى المواد المعدنية والمواد النباتية والمواد الحيوانية، والمواد المشتقة، كما قسم المعادن إلى ست طوائف هى الأرواح، وهى المواد المتبخرة

والأجساد وهى الفلزات والأحجار وهى الشب والجص والزجاج وغيرها، والزاجات مثل الزجاج والبوارق وهى النطرون وأخيرا الأملاح، وتكلم عن خواص هذه المواد وتفاعلاتها مع بعضها البعض. وهو أول من قال: إن زيت الزاج يستخرج بتقطير كبريت الحديد، وأن الكحول يستخرج بتقطير المواد السكرية أو اللبنية المختمرة.

وكان لاكتشاف الزاج (حامض الكبريتيك) والكحول أثر كبير فى تقدم علم الكيمياء، بل وفى الصناعة كلها؛ لأنه لا غنى عن الواحدة للأخرى. ومن كتبه «الأسرار» واختصره فى كتاب «سر الأسرار».

ويعتبر الكندى أول من اتخذ موقفا سلبيا من تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة، وقال باستحالة ذلك، ووضع رسالة فى هذا الصدد.

ويرى إخوان الصفا أن العناصر الأربعة اختلطت فى باطن الأرض، وتكوَّن منها الزئبق والكبريت أولا، ومن امتزاج هذين المعدنين بنسب متفاوتة تكونت فى أوقات مختلفة جميع المعادن كالذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس[١].

ومن علماء الكيمياء التميمى: أبو عبد الله محمد بن أحمد أميل بن سعيد، نشأ فى بيت المقدس، وقيل إنه أخذ علوم الكيمياء القديمة والنبات والصيدلة فيها على راهب مسيحى، يدعى الأب زكريا، ثم قدم إلى مصر، فعمل بالصيدلة والطب، واشتهر بتركيباته الصيدلية التى تناولها فى كتبه.

من مؤلفاته «ترياق مخلص النفوس» ألفه فى القدس ضد شرور السموم المشروبة والمصبوبة والأفاعى والثعابين وأنواع الحيات المهلكة بالسم[٢].

---

(١) القفطى: إخبار العلماء ص ٧٤.
(٢) رسائل إخوان الصفا جـ ٢ ص ٨٧.

علم الحيوان والنبات

اهتم علماء اللغة منذ صدر الإسلام برواية أسماء النبات والحيوان وأقسامها، ورواية أسماء أعضاء الإنسان على أنها أبواب من اللغة. والأصمعى (ت ٢١٦هـ)، كتب كتاب «خلقة الإنسان» وكتاب «خلقة الفرس» وكتاب: «الإبل والشاة» «الوحوش» «النبات والشجر».

ومن أفضل الكتب فى الحيوان والنبات، كتاب «الحيوان» للجاحظ، وصف فيه الكثير من أنواع الحيوان، ومن طير ووحش وأسماك وحشرات وزواحف وثدييات وما إليها، ولقد اهتم علماء الحيوان المسلمين بالشكل العام للحيوان أو ما نسميه سلوك الحيوان.

واعتمد الجاحظ فى كتابه على القرآن والأحاديث وأشعار العرب وصحح وناقش آراء أرسطو. يقع كتاب الحيوان فى سبعة أجزاء: قسم الحيوان، إلى حيوان يمشى ويطير ويسبح، والحيوان منه الفصيح كالإنسان، والأعجمى كالبهائم والسباع والحشرات، وقال: إنه ليس كل ما يعوم من الأسماك، وضرب المثل بكلاب الماء وعنز الماء وخنزير الماء والضفادع والسلحفاء، وذكر أثر الحضارة فى الإنسان والحيوان، وتكوين البيضة فى الفروج، وسبب بناء الطيور للأعشاش، وحقيقة النوم فى الحيوان.

وألف فى النبات «الزرع والنخل وكتاب المعادن، وتناول فيه التربية والآفات الزراعية».

وصف الجاحظ صفات الحيوانات والعداوات التى بينها، فمثلا يقول عن خرطوم الفيل، هو أنفه ويده، وبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شىء بين الخرطوم واللحم والعصب وبه يقاتل ويضرب ومنه يصيح، وليس صياحه فى مقدار ضخامة بدنه، ويضرب به الأرض ويرفعه فى السماء، ويصرفه كيف يشاء، هو مقتل من مقاتله. والهند تربط فى طرفه سيفا شديد المتن، فيقاتل به، وفى خلال حديث الجاحظ عن الحيوان[1] يتحدث عن الإنسان فيقول: الرجل الفاضل لا يُرى إلا فى مكانين ولا يليق به غيرهما، إما مع الملوك مكرما وإما مع النساك متبتلا، كالفيل إنما بهاؤه فى مكانين إما فى تربة متوحشا، وإما مركبا للملوك[2].

---

(١) عبد السلام هارون: تهذيب الحيوان للجاحظ ص ٢٦٥.

(٢) عبد السلام محمد هارون: تهذيب الحيوان للجاحظ ٢٦٣.

وقال: ومن لم يرض بالدنيا بالكفاف الذى يغنيه، وطمحت عيناه إلى ما فوق ذلك، ولم ينظر إلى ما يتخوّف أمامه، كان مثله مثل الذباب الذى ليس يرضى بالشجر والرياحين حتى يطلب الماء الذى يسيل من أذن الفيل المغلتم (أى الملتهية)، فيضر به فيهلك[1].

ومن العجب فى قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله، ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها وكذلك صنيعه فى الحيات، والحية تصيد العصفور فتأكله، والعصفور يصيد الجراد فيأكله، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها[2].

والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها، فبعضها يعمل الشمع، وبعضها يعمل العسل، وبعضها يبنى البيوت، وبعضها يستقى الماء ويصبه فى الثقب، ويلطخه بالعسل، وإذا طارت ملكة النحل تتبعها باقى النحل فى الخلية ومنها ما ينقل العسل من أطراف الشجر، ومنه ما ينقل الشمع الذى تبنى به، فلا تزال فى عملها حتى إذا كان الليل آبت إلى مقر نومها[3].

والعصفور لا يستقر ما كان خارجا من وكره. وله فى هذه الحالة صوت حاد مؤذ، والعصفور يغم بحدة صوته من يقترب منه، وبين الحمار وعصفور الشوك عداوة؛ لأن الحمار يدخل الشجر والشوك، فربما زاحم الموضع الذى فيه وكره، فيبدد عشه، وربما نهق الحمار، فسقط فرخ العصفور أو بيضه من جوف وكره. لذلك إذا رآه العصفور رنّق فوق رأسه وعلى عينيه، وآذاه بطيرانه وصياحه[4]. وأظهر الجاحظ فى كتابه ميلا نحو دراسة الحشرات والمخلوقات المتناهية فى الصغر وفى هذا الكتاب نظريات علمية وأدب ونقد اجتماعى، وهو من كتب علم الأخلاق[5] الذى أوجده الجاحظ.

ومن علماء النبات والحيوان: زكريا بن محمد بن محمود القزوينى، نشأ فى قزوين، وهو عربى الأصل من سلالة مالك بن أنس، رحل القزوينى فى طلب العلم، وحل بدمشق ثم العراق وولى القضاء فى بعض مدنها، وعاصر الخليفة

(١) المصدر السابق ص ٢٦٤.
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥.
(٣) المصدر السابق ص ٢١٦.
(٤) المصدر السابق ص ١٩٤.
(٥) عصام الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٣٠١.

المستعصم - آخر الخلفاء العباسيين - وتوفى سنة (ت ٦٨٢ هـ) وهو عالم فى التاريخ والفلك وعلم النبات والحيوان، وصف فى هذا الكتاب الذى قسمه قسمين: القسم الأول فيه الكائنات العلوية عرض الشمس والقمر والنجوم والكواكب وحركاتها، وقسم تناول فيه الكائنات السفلية من طبيعة ومناخ وبحار وجزر وحيوانات وجماد ومعادن ونبات، ورتب ذلك بحسب حروف المعجم. وقسم هذا الكتاب المخلوقات حسب أفضليتها ثم تكلم عن الغرائب، والموجودات، ويلحق القزوينى دراسته دائما بالاستشهاد بالقرآن والحديث ويذكر أن لكل نبات خلقه الله فوائد، ولا يذكر الخرافات والأوهام. ويقول فى الحيوانات المركبة التى تتولد من حيوانين مختلفى النوع، يتكون شكل عجيب بين هذا وذاك، فالبغل مثلا ما من عضو فيه إلا وهو دائر بين عضو الفرس وعضو الحمار، فإذا كان الذكر حمارا، كان للفرس أشبه، وإن كان الذكر فرسا كان بالحمار أشبه، ومنها المتولد من الضبعان والناقة والبقر الوحشية وهو الزرافة، فإنه متولد بين هذه الثلاثة، ومنها المتولد من الخيل وبقر الوحش، بغلة فى غاية الحسن.

وكان لكسرى أردشير - كما يقول القزوينى - حصان اسمه أجدر توحش ولحق بالغابات، وضرب فيها، فأتت بنوع من الحمير يقول له الأجدرية، ومنها المتولد من الإبل الفالج هو الذى له سنامان، ومنها المتولد من الإنسان والدب وجميع أعضائه كأعضاء الإنسان، ومنها المتولد بين الذئب والضبع، وهو شكل عجيب، إن كان الذكر ضبعا يقال له السمع، وإن كان الذكر ذئبا يقال له العسبار. والمتولد بين الكلب والذئب يقال له الديسم(١).

وأما كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى فهو كتاب كبير جامع شامل، ذكر فيه عددا من النباتات باللغات الآرامية والفارسية والعربية، وذكر أوصافها، وكان يشرح الألفاظ والمصطلحات شرحا لغويا، وذكر بعض النباتات فى بعض البلدان، وأوضح خصائصها وفوائدها، وما قيل عنها وما جاء عنها فى كتب اللغة.

وقد اعتمد الأطباء والعشابون على هذا الكتاب، واعتمد عليه علماء اللغة، والكتاب مفقود، إلا أن مادته محفوظة فى كتب اللغة والأدب.

ومن كتب النبات الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والأزهار والحيوانات والمعادن وتوضيح أسمائها

---

(١) القزوينى: عجائب المخلوقات ص ٤٠٨ ، ٤٠٩.

بالسريانية واليونانية والبربرية والفارسية والعربية للشريف الإدريسى بالأندلس (ت ٤٦٠هـ).

ويتكلم ابن طفيل على تطور أشكال الحياة على الأرض فقال على لسان حى ابن يقظان: كان ينظر إلى أنواع الحيوان كالظباء والخيل والحمر وأصناف الطير، صنفا، صنفا، فكان يرى أشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الأعضاء الظاهرة والباطنة وفى الإدراكات والحركات والنزعات، ولا يرى فيها فرقا إلا فى أشياء يسيرة، ودرس أنواع النباتات، وكان يرى أن بعضها يشبه بعضا فى الأغصان والورق والزهر والثمر ولكن الحيوان يختلف عن النبات فى الحس والحركة والإدراك.

اهتم المسلمون بدراسة النبات، لأن معظم العقاقير التى كانت تستخدم فى العلاج من النبات أو خلاصات نباتية، حتى أن الأطباء كانوا يعرفون بالعشابين(١).

ولقد درس جابر بن حيان الحيوان والنبات، وقسم الحيوان إلى أربعة أقسام: وكل من هذه الأقسام مؤلف من نفس وجوهر وحرارة وبرودة ورطوبة محصورة كلها فى مكان وزمان. والإنسان يزيد عن أنواع الحيوانات الأخرى بما خصه الله من العقل(٢).

ويقول جابر بن حيان عن النبات: إنه يختلف عن الحيوان فى شيئين وهما: النفس والعقل، ويقارن بين الحيوان و النبات من حيث تركيب كل منهما، وكذلك يوازن بين الحيوان والنبات من حيث الطبائع ويجد هنا تشابها بينهما فى أن كلا منهما ينقسم ثلاثة أقسام فى مراحله التطورية، وهى الأول والبليد والذكى المرحلة التى تتمثل فى النبات، ومرحلة الشعور تتمثل فى الحيوان، الذى يشعر ويكون على وعى بأنه شاعر(٣).

ويرى القزوينى (ت ٦٨٢هـ) فى كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» ما من حيوان صغير أو كبير إلا فيه من العجائب ما لا يحصى، وإن ما فى هذا الكتاب إما عجائب من صنع البارى من محسوس أو معقول لا ميل

---

(١) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٣٠١.
(٢) زكى نجيب محمود: جابر بن حيان ص ١٧٨.
(٣) القفطى: إخبار العلماء ص ٢٢٥.

فيها ولا خلل، وإما خواص غريبة لا يفى العمر بتجربتها، وتكلم القزوينى عن أصناف النبات وخصائصه وأوصافه.

ومن كبار علماء النبات، ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ)، نشأ فى الأندلس وتتلمذ فى أشبيلية على الأشبيلى النباتى. غادر الأندلس ورحل إلى المشرق يجول فى العالم المعروف، دارسا للنباتات من الأندلس إلى المغرب إلى مصر إلى الشام إلى آسيا الصغرى، ودخل فى خدمة الملك الكامل الأيوبى فعيَّنه رئيسا للعشابين، ودخل فى خدمة الصالح ابن الملك الكامل فى دمشق، وظل بها حتى وفاته، وهو من خيرة علماء النبات المسلمين. درس أنواع النباتات التى شاهدها خلال رحلاته فى البلدان الكثيرة، وتتلمذ عليه ابن أبى أصيبعة فى معرفة النباتات وكتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» كتاب جليل القدر، وصف الأدوية من النباتات، وأهميتها لكل مرض، وهذا الكتاب من أفضل كتبه. وقال عنه ابن أصيبعة أنه أجل كتاب فى علم النبات(١).

رتب كتابه على حروف المعجم، وسرد أسماء الأدوية باللغات الأجنبية ويقول إنه جمع مادته من مؤلفات الأغارقة.

ووصفه المقرى بأنه أوحد زمانه فى معرفة النباتات، واستفاد منه الزهراوى والغافقى.

وكتابه الثانى «المغنى فى الأدوية المفردة» سلك فى هذا الكتاب طريقة العلاج على أساس علاج عضو كل جسم كالعين والأذن والرأس، وضع كتابه الجامع فى أربعة أجزاء، بناءً على تعاليم الملك الصالح نجم الدين أيوب عُنى فيه بذكر ماهيات الأدوية وقوامها ومنافعها ومضارها، وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل منها للعلاج وعصارتها، والبديل لها إذا نفذت.

وعُرف عن ابن البيطار الأمانة العلمية، فيذكر ما أخذه من اليونان مثل جالينوس وديسقريدس أو العلماء المسلمين، ويذكر الدواء المفيد ويحذر من الدواء الضار، وينسب كل قول إلى صاحبه، والأدوية التى أشاد بصحتها بعد أن أجرى التجارب عليها، وشاهدها ولاحظ صحتها ويذكر الأدوية بعدة لغات(٢). واعتمد فى دراسته على بحوثه وتجاربه فى كل ما يختص بالنباتات الطبية التى يتخذ منها عقاقير لعلاج الأمراض، وكذلك العقاقير التى كانت تتخذ من بعض الحيوانات أو المعادن.

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٠٢.

(٢) صادق عفيفى: تطور الفكر العلمى عند المسلمين ص ٢٢٥.

ويقول ابن أبى أصيبعة: لقد شاهدت معه فى ظاهر دمشق كثيرا من النباتات فى مواضعها، وقرأت عليه أيضا تفسيره لأسماء أدوية كثيرة فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئا كثيرا جدا، وكنت أقرأ معه عددا من الكتب المؤلفة فى الأدوية المفردة مثل كتاب الفن، فكان يذكر أولا ما قاله ديسقريدس فى كتابه باللفظ اليونانى على ما قد صححه فى بلاد الروم، ثم يذكر جملة ما قاله ديسقريدس من لغته ووصفه وأفعاله، ويذكر أيضا ما قاله جالينوس من لغته ومزاجه وأفعاله، وما يتعلق بذلك. ويذكر فى ذلك جملا من كلام المتأخرين، وما اختلفوا فيه وموضع الغلط الذى وقع فيه بعضهم فى وصفه. فكنت أراجع تلك الكتب معه، ولا أجده يخطئ فى شيء مما فيها[1]. ونظم ابن البيطار قصيدة فى الزراعة وفلاحة البساتين.

ومن علماء النبات، ابن الرومية وُلد فى أشبيلية سنة (٥٦٠هـ)، يلقب بالنباتى، وطاف فى الشرق والغرب، ووصف رحلاته ومشاهداته وأول من درس النبات بطريقة مباشرة. ومن تلاميذه ابن البيطار.

اعتمد الدميرى (ت ٨٠٨هـ) على الجاحظ فى دراسته للحيوان، ورتب أنواع الحيوانات فى البر والبحر والجو على حسب حروف المعجم، ذاكرا معلومات مفيدة عنها، وقد يستطرد إلى روايات أدبية ـ كالجاحظ ـ وهو يذكر حيوانا بعينه، مما قد يصرف الإنسان عن الموضوع الذى يتحدث عنه، ويذكر أجناسا من البشر مثل يأجوج ومأجوج، ويذكر الجن والحيوانات الخرافية ويخلط أحيانا الحقائق بالخرافات[2]. ولما كانت الخيل من أهم وسائل الحرب فى الإسلام فقد صنف المسلمون كتبا فى علاج الخيل، أهمها كتاب «قرابيذين الخيل» لمحمد العربى وسعد الدين الأعجمى.

ويذكر ابن خلدون علم النبات ويسميه الفلاحة، وهى النظر فى النبات من حيث تنميته والعناية به والسقى والعلاج، واهتم المسلمون بغرسه وتنمية خواصه، وترجم من كتب اليونان «الفلاحة النبطية» ويتضمن استعمال بعض النباتات فى السحر ولما كان السحر محرما فى الإسلام، فقد استبعد المسلمون هذا السحر وأخذوا من الكتاب ما يتعلق بنمو النبات والعناية به، وصنفوا كتبا كثيرة فى هذا المجال، وكتبوا كتبا كثيرة عن النبات من حيث حفظه من الآفات، والعمل على نموه ونضج ثماره[3].

---

(١) ابن أبى أصيبعة: ص ٦٠١.

(٢) الدميرى: حياة الحيوان الكبرى.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٩٤.

اهتم المسلمون بالموسيقا، وساعد على تقدم الموسيقا والاهتمام بها الاختلاط بالفرس، وكثرة الجوارى اللاتى مارسن الغناء بأطيب الألحان وأقبل كبار رجال الدولة والناس عموما على الاستماع إلى الغناء والموسيقا.

ويساعد الفنانون الكبار فى الغناء الآلاتى والقيان، ويتعلمن الغناء على أيدى كبار الملحنين، وكان إسحاق الموصلى يدرب القيان على الغناء من ألحانه بأثمان باهظة.

وأول من كتب الرسائل العلمية فى الموسيقا، الخليل بن أحمد - وهو من أشهر علماء عصره - ومن كتبه «النغم» - «الإيقاع» ومن أهم كتب الموسيقا «رسائل الكندى» وينسب إليه ما لا يقل عن سبع رسائل. وتوضح رسائل الكندى دقة فنانى العصر، النظرية والعملية فى الموسيقا، وفيها نظريات مأخوذة من الموسيقيين اليونانيين. وكتب جامعوا الأغانى مثل يحيى المكى، وأحمد بن يحيى المكى كتبا عديدة فى الموسيقا(١)، وجمع إسحاق الموصلى ما يقرب من ١٢ من سير الموسيقيين البارزين.

وكثرت المناقشات بين كبار الفنانين وعلماء الموسيقا فى الموسيقا والإيقاعات واستعمال الآلات والأصابع على الآلات وابتداع الألحان وتطبيقها، وشاع استعمال الأعواد فى ذلك العصر والطنبور والمزامير والطبل والدف(٢).

وأصبح إبراهيم بن المهدى زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية (الرومانتيكية) الفارسية، وحدث صراع بين هذه المدرسة الحديثة ومدرسة إسحاق الموصلى التقليدية العربية، وكان صوت إبراهيم بن المهدى رائعا ذا قوة هائلة، وكان عالما موسيقيا وعازفا على الآلات ومن أعلم الناس بالوتر والنغم والإيقاعات.(٣)

---

(١) فارمر: تاريخ الموسيقا العربية ص ١٢٧ ، ١٢٨ - ١٤٢.

(٢) الأصفهانى: الأغانى ج ٦، ص ٢٢٠.

(٣) المصدر السابق.

على أن إسحاق الموصلى كان أعظم الموسيقيين فى الإسلام عالما فى الموسيقا، عازفا رائعا، أخضع نظريات الفن الموسيقى المتضاربة لنظام واضح.

ويحتمل أن حنين بن إسحاق ترجم بعض الكتب الإغريقية فى الموسيقا إلى العربية، وللكندى رسالته الكبرى فى الموسيقا، وكتاب رسالته فى الإيقاع - والمدخل إلى صناعة الموسيقا ومختصر الموسيقى فى تأليف النغم - وصفة العود.

وكان أبناء موسى بن شاكر من أشهر علماء عصرهم، وألفوا كتبا عن الموسيقا منها، كتاب الآلات الموسيقية الآلية.

* * *

وألف ابن خرداذبة كتابا فى اللهو والأغانى، وألف الفارابى كتاب الموسيقى الكبير، وكذلك ابن سينا، وتعددت مؤلفات الموسيقا. ويتضمن كتاب الأغانى لأبى فرج الأصفهانى الألحان التى كانت معروفة عند العرب.

لم يترك مفكرو الإسلام فى العصور الوسطى الإسلامية علما إلا ودرسوه وصنفوا فيه المؤلفات القيمة، وبينما كان العالم الإسلامى يؤدى دوره كاملا فى مجال الحضارة الإنسانية، ويضيف إلى العلم الجديد، كانت أوربا تعيش فى العصور الوسطى المظلمة، وحينما تطلعت إلى العلم، اعتمدت على علوم العرب فى نهضتها الحديثة، وتسربت إليها علوم العرب عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية، وأرسلوا البعثات إلى الأندلس وصقلية لدراسة كتب الإسلام، وشرائها وترجمتها، وكانت كتب المسلمين فى الطب والهندسة والضوء والرياضيات والفلسفة والكيمياء والفيزياء تدرَّس فى جامعات أوربا قرونا عديدة.

وترك المسلمون تراثا علميا ضخما يملأ مكتبات العالم على الرغم مما فُقد منه فى الحروب؛ ولذلك فإن فضل العرب والمسلمين على أوربا كبير جدا وكذلك على الحضارة الإنسانية.

وصفوة القول أن العصور الوسطى الإسلامية شهدت مفكرين نبغوا فى كل علم وفن، ففى القرن الثانى الهجرى ظهر من الفقهاء الإمام أبو حنيفة والقاضى أبو يوسف والإمام مالك بن أنس، ومن الأدباء الخليل بن أحمد وسيبويه وابن المقفع، ومن الشعراء بشار وأبو نواس.

وفى القرن الثالث برز الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل، ورجال الحديث البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى، ومن الأدباء الجاحظ وابن قتيبة

الدينورى والمبرد، ومن الشعراء البحترى وابن الرومى وابن المعتز، ومن المؤرخين ابن قتيبة والبلاذرى واليعقوبى، ومن علماء الكيمياء جابر بن حيان، ومن الأطباء إسحق بن حنين، وظهر المتصوف ذو النون المصرى.

وفى القرن الرابع ظهر العديد من المفكرين، من الأدباء ابن عبد ربه وأبو فرج الأصفهانى وأبو سعيد السيرافى وبديع الزمان الهمذانى، ومن المؤرخين الجهشيارى والمسعودى والطبرى، ومن الجغرافيين المقدسى وابن خرداذبة والإصطخرى، ومن الأطباء أبو بكر الرازى، ومن الشعراء المتنبى، وبرز الفيلسوف الفارابى، والأشعرى والصوفى ابن الحلاج.

وفى القرن الخامس ظهر من الأدباء ابن حزم وأبو حيان التوحيدى والثعالبى وابن سيده، ومن الأطباء ابن سينا، ومن العلماء ابن الهيثم والبيرونى، ومن الفلاسفة الغزالى وأبو العلاء المعرى، ومن المؤرخين مسكويه. وفى القرن السادس الزمخشرى ومن المؤرخين والأدباء ابن الجوزى وابن عساكر، ومن الأطباء ابن زهر وابن رشد والإمام الغزالى.

وفى القرن السابع ظهر من المؤرخين ابن الأثير وسبط بن الجوزى وابن خلكان، ومن العلماء ابن أبى أصيبعة والقفطى، ومن الرحالة ياقوت والبغدادى وابن جبير، ومن الأطباء ابن النفيس وابن البيطار من العلماء والصوفى ابن عربى والواعظ الشاعر المتصوف جلال الدين الرومى.

ذكرنا بعض العلماء فقط، وهذا يشير إلى أن القرون الوسطى الإسلامية شهدت فكرا إسلاميا رائعا بحيث أصبحت الدولة الإسلامية مصدر نور وفكر للعالم أجمع، وأعطت العالم الكثير من العلوم والفنون.

الشاعر ينشد أشعاره الرائعة، والفقيه يدرس لطلابه فى المسجد، والصوفى فى صومعته يضرب المثل الأعلى للزهد والتقشف والتطلع إلى الله وتصفية نفسه من ماديات الحياة، والفيلسوف يدلى بآرائه وأفكاره، والمؤرخ يكتب عن الأمم الغابرة، والرحالة يجول فى البلدان لوصف كل مشاهداته، والكيميائى والفيزيائى يجريان تجاربهما فى صمت، والطبيب يصنف ويعالج مرضاه، والعلماء عموما يبرزون للدنيا الفكر الإسلامى فى أسمى صوره، ويضيفون إلى الحضارة الإسلامية فكرا وعلما.



المزهرية الفخارية: يبلغ ارتفاعها (١٠٣) سم وقد صنعت سنة ١٨١٦ فى سرفس. ولها قاعدة مربعة وعلى جسم المزهرية توجد صورة ٨ أزهار بألوان مختلفة. وفى فوهتها أيضا صورة أزهار والتى تشبه أسنان المنشار. وللمزهرية مقبضين فى جانبها العلوى ومصنوع من البرونز ومزينة بالأوراق والأغصان



مزهرية يلدز الفخارية: يبلغ ارتفاعها (٦٦) سم ويعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر وقد صنعت فى إستانبول وشكلها وصنعها على الطراز القديم وقد رسم على اللون الأبيض صور غصون وأوراق باللون الأخضر.



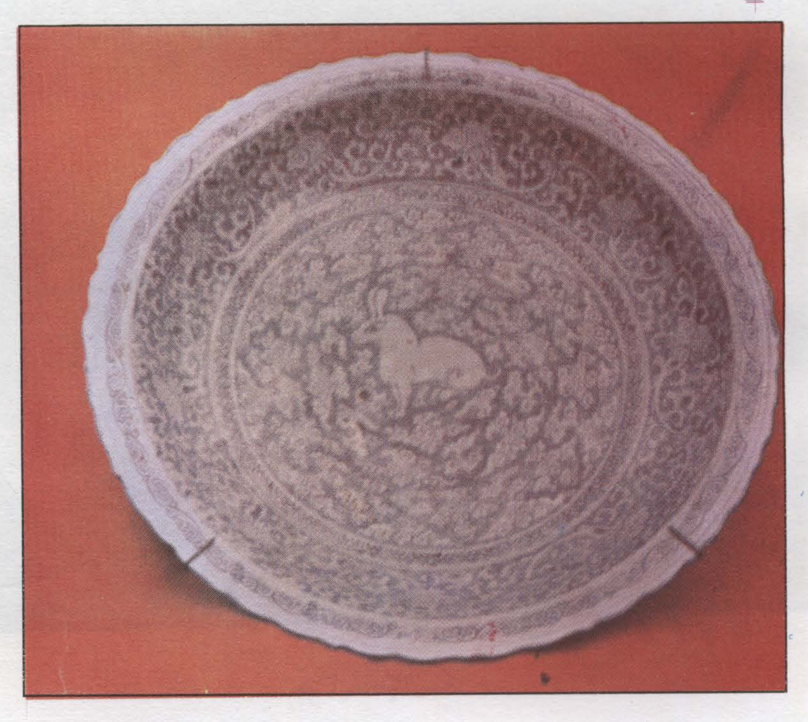
صحن (الصنف الأخضر): يبلغ قطره (٥٢) سم ويعود تاريخه إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر وقد صنع فى عهد جينك كانك سى. وإن الصحن المزين باللون الأزرق والأخضر والوردى وفى داخل الصحن صورة إنسان ومناظر. وأن وسط الصحن مزين بالأوراق والأزهار بألوان سوداء وخضراء ....



أبريق: يبلغ ارتفاعه (٣١) سم ويعود تاريخه إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر وقد صنع فى عهد جينك كانك شى. ولسبب تغلب اللون الأخضر فى الأبريق كان يعد من صنف أخضر. وقد زين الأبريق بصور أزهار وحيوانات. وبجانب اللون الأخضر هناك [illegible] باللون الوردى



صحن: (أزرق ـ أبيض): يبلغ قطره (٥٣) سم ويعود تاريخه إلى القرن السادس عشر وقد صنع فى عهد مينك، والصحن مزين بصورة خمسة أرانب باللون الأزرق. ومحيط الصحن مزين بصور أوراق.



الصحن الصينى النحاسى: يبلغ قطره (٥١) سم ويعود تاريخ صنعه إلى القرن السادس عشر وقد صنع فى عهد مينك. وأن وسط الصحن مزين بأزهار ذات ألوان أزرق، أحمر، أصفر وأخضر وصور فواكه مختلفة. ومحيطه مزين بالأزهار أيضا ...

المسلم فى عصر ازدهار دولة الإسلام فى العصور الوسطى مفكر، ابتكر نظما سليمة هيأت لدولته الكبرى الاستمرار قرونا تتصدى لحركات التمزق والانحلال، وللأعداء المتربصين لها فى الخارج، وابتكر نظما إدارية ومالية، هيأت للناس الاستقرار والأمن وللدولة السيطرة على تقاليد الأمور، وسيطروا على الحياة الاقتصادية وطوروها مما أدى إلى انتعاش الحياة الاقتصادية، وتدفق الثروات على الناس، والمعيشة فى أمن ورخاء واطمئنان، ونظم المسلمون حياتهم الاجتماعية، وقويت الروابط بين الناس، واتخذ المجتمع الإسلامى وضعه الصحيح، وانتشرت المؤسسات الاجتماعية والمرافق التى تيسر سبل الحياة الميسرة للناس.

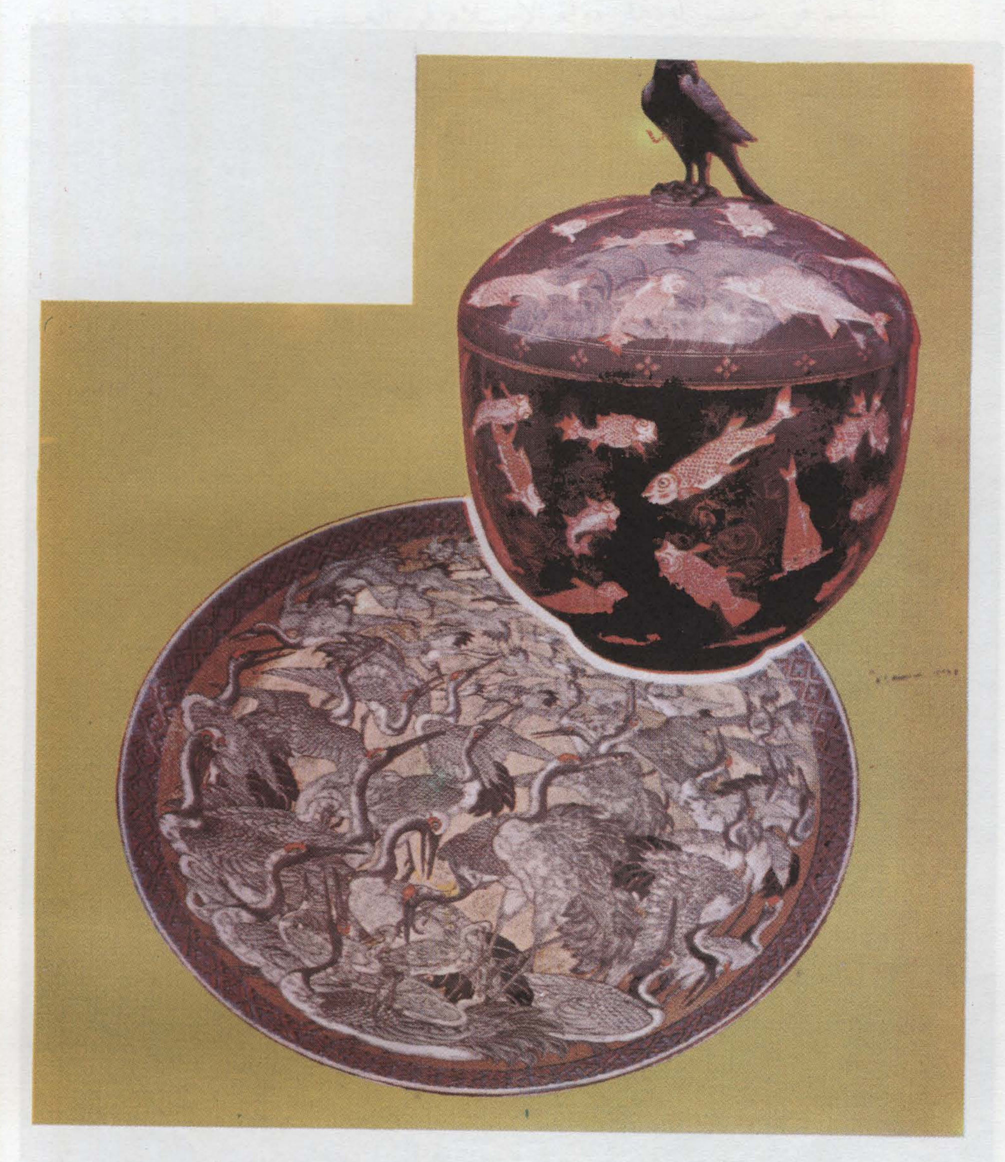
ومن مظاهر الإبداع للمواطن المسلم التقدم الفكرى الذى بمقتضاه، كتب المسلمون فى كل علم وفن، وصنفوا الكتب القيمة، التى شكلت مظهرا قويا فى الحضارة الإنسانية، واستفاد الأوربيون من تراث المسلمين الفكرى، وبنوا حضارتهم مستفيدين من علوم الإسلام.

ومما لاشك فيه أن كل هذه الإبداعات مستمدة من الإسلام الذى أعطى لأهله الطاقة والقوة والانطلاقة للدراسة والبحث والإبداع، ومن مظاهر الإبداع عند المسلمين الفنون التى نبغوا فيها، فشيدوا المدن، وأصلحوا المدن القديمة، وأنشأوا المساجد والمدارس والمارستانات والسبل والأبنية والقصور الجميلة، وتجلى فنهم على العملة وعلى الملابس والنقود، وفى الخطوط البديعة.

أنشأ المسلمون حوالى خمسا وعشرين مدينة، وهو ما يسمى بتمصير الأمصار، أى إنشاء مدن على طراز إسلامى، وأما المدن القديمة مثل دمشق فقد مصروها أيضا، أى عدلوا فيها مما يجعلها مدينة إسلامية المظهر، ومن أبرز هذه المدن فى مصر الفسطاط والقطائع والقاهرة.

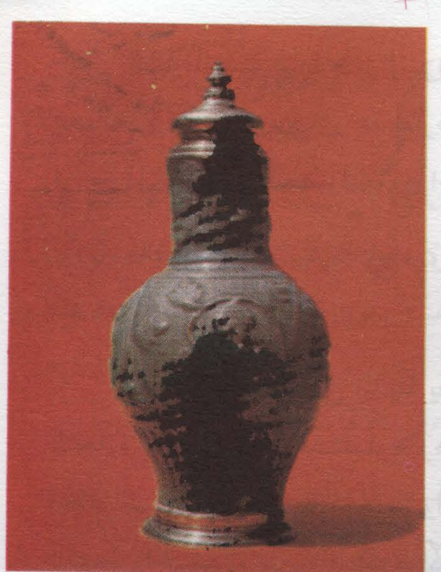


ظهر الإسطرلاب

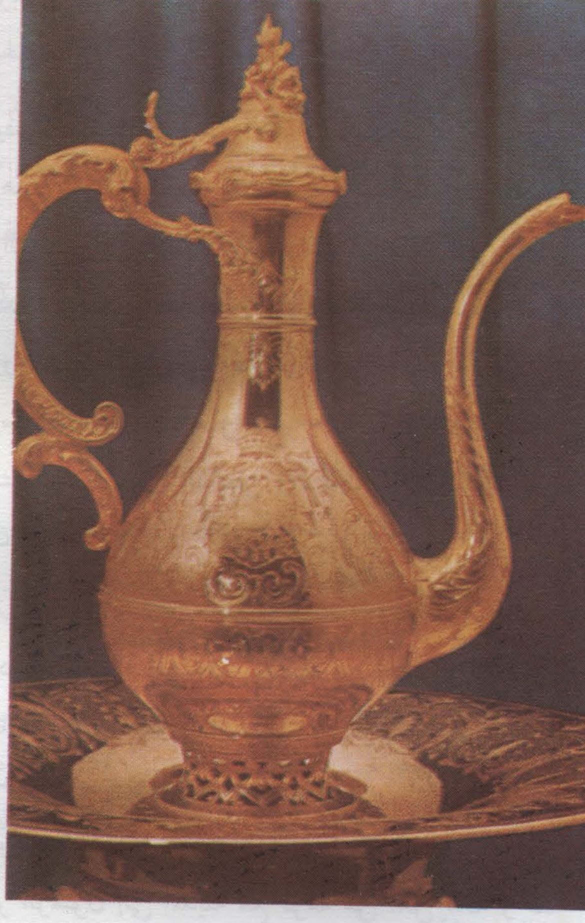


صحن يبلغ قطره (٩٣) سم وقد صنع من قبل اليابان فى القرن التاسع عشر. وأن الصحن مزخرف بالذهب الخالص وعليه صور اللقالق.. ويقال بأن هذا الصحن هو أوسع صحن فى العالم.

الكأسة ذات الغطاء: يبلغ ارتفاعها (٧١) سم ويعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر و.. صنعت من قبل اليابانيين. وقد زينت بصور أسماك حمراء على لون أزرق غامق وتوجد على فوهتها وقاعدتها ذهب خالص على عرض ١٢ سم. وتوجد فوق الغطاء هيكل نسر بارتفاع (١٧) سم مصنوع من النحاس.



مزهرية سلادون: يبلغ ارتفاعها (٤٧) سم ويعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر وقد صنعت في عهد اليونان، وتتزين المزهرية بورود الشقائق والأوراق والغصون وأن محيط فوهتها وغطائها مصنوعة من الذهب.



الأبريق الذهبى: الأبريق من قاعدته مصنوع من الذهب وأنه ذات قيمة كبيرة. يبلغ ارتفاعه ٣٣ سم وقطر القاعدة ٣٧ سم يعود إلى السلطان عبد الحميد الثانى ...

تنشأ المدينة عادة بعد القرية، لأن القرية تجمع فيها بعض الناس يرتبطون بمصالح مشتركة مثل زراعة الأرض وريها، ولابد أن ينشأ التعاون بينهم لتنظيم توزيع المياه وجنى المحصول، وزراعة الأرض.

فالقرية إذن مركز إنتاج، وبمرور الزمن تقوى الصلة بين أهل القرية بسبب المصاهرة.

والمجتمع الكبير فى المدينة يضم عددا كبيرا من الأفراد، عندهم مواهب فى التجارة والصناعة والاستثمار، وهذا المجتمع الكبير يعتمد فى صناعته على المواد الخام التى تنتجها القرية كالحرير والقطن والأخشاب، وتستهلك منتجات القرية من القمح والخضراوات والفواكه. إذن القرية وحدة إنتاج والمدينة وحدة استهلاك. تستهلك وتسوِّق منتجات القرية. وهذا التجمع الكبير لا بد له من حاكم أو قاضى ينظم العلاقات بين أفرادها، ويرسى التقاليد والأسس لمنع الجرائم والتجاوزات، وفى الأمم القديمة سُمى هذا الحاكم ديَّان، أى القاضى والتجمع الذى يحكمه يسمى مدينة. ومن هنا نشأت المدن.

وكلمة مدينة وردت فى القرآن الكريم بالمعنى الذى نقصده، وهو مجتمع متحضر أو منظم فى شئونه، ﴿**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها**﴾[(١)] وفى الإسلام أول ما سُمى مدينة هى مدينة رسول الله وكانت تسمى يثرب، وهى عبارة عن أحياء، كل قبيلة تعيش فى حى خاص بها، ومستقلة تماما عن الحى الآخر، مثل الأوس والخزرج. وقبائل اليهود، كل قبيلة مستقلة عن غيرها مثل بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ولما هاجر الرسول إلى المدينة مع قومه من أهل مكة وحد بين العرب من المهاجرين والأنصار، وأصبحت يثرب موحدة يحكمها الرسول، وسميت المدينة المنورة، ولما طرد الرسول اليهود من المدينة، وانضمت أحياؤهم إلى المدينة واتسعت، واتخذ الرسول فور هجرته إلى المدينة مسجدا فى وسطها فى

---

(١) سورة القصص: آية ١٥.

المربد، وأصبحت حاضرة الدولة الإسلامية الكبرى فى عهود أبى بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.

وأنشأ المسلمون الحواضر فى كل بلد فتحوه. وشدد عمر بن الخطاب على ولاته بأن تكون الحاضرة بعيدة عن البحر. وذكر ابن خلدون عن الشروط الواجب توافرها فى الحاضرة فقال: إما أن تقع على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها، ليحصل الناس على الأقوات(١).

أقيم فى مصر أربع حواضر إسلامية: الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة.

ولما عاد عمرو بن العاص من الإسكندرية، بعد فتح مصر، نزل موضع الفسطاط، وتجمعت القبائل العربية وجند جيشه حول فسطاطه، أى مخيمه وتنافسوا فى المواضع، فعهد عمرو بن العاص إلى رجال من قبله بتحديد خطط القبائل سنة ٢١هـ، ومنها خطط أهل الراية، وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وأشجع وغفار وجهينة وثقيف وعبس، وسموا بذلك، لأن عدد كل من رجال هذه البطون كان محدودا لا يكفى للانفراد بخطة، فجمعهم عمرو بن العاص فى خطة محيطة بالجامع من جميع جوانبه.

يلى خطة الراية، خطة مهرة وهى قبلى خطة الراية من قضاعة تلى خطة مهرة، خطة تجيب وأفرادها من بنى عدى. وخطة لخم وخطة جذام وراشدة ـ بطن من لخم ـ وهى متاخمة للخطة التى قبلها خطط أهل الظاهر، وينزل بها العتقاء، وكانوا أسرى عند الرسول فأعتقهم، ونزل بها جماعة من العراق أُبعدوا من البصرة(٢).

يلى ذلك خطط الفارسيين، وهم بقايا جند باذان ـ عامل كسرى على اليمن ـ وقد أسلم بعد أن دعاه الرسول إلى الإسلام.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٣.
(٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٩٧.

خطط مذحج ـ خطط غطيف ـ خطط وعلان ـ خطط يحصب ـ خطط رعين ـ خطط ذى القلاع ـ خطط المغافر ـ خطط سبأ ـ وخطة الرحبة ـ خطة السلف بن سعد ـ خطط بنى وائل ـ خطة القبض ـ خطط الحمراوات الثلاث[1].

سُميت مدينة الفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص، أو نسبة إلى مدينة يونانية قديمة فى هذا الموضع يسمى فسطاطم. واتخذ الأمير العربى حاضرته فى موضع هام جدا فى مصر، يتوسط الوجهين البحرى والقبلى، وتجنبوا ثغر الإسكندرية التى تقع على البحر المتوسط، والمعرضة لغزو البيزنطيين المسيطرين على البحر المتوسط، ويحاولون استرداد مصر، وشن الغارات على شواطئها.

والفسطاط فى طريق الصحراء يسهل الاتصال بالمدينة المنورة. أقامت القبائل فى الخطط التى حددها عمرو بن العاص لهم، وبنوا الدور، وشيد عمرو بن العاص داره بجوار مسجده. وموضع الفسطاط مجاور لحصن بابليون، ويقيم فيه أصلا بعض أهل مصر من الأقباط، وامتدت حول الجامع نحو الشرق والشمال والجنوب، ويمر بها نهر النيل، واتسعت هذه الخطط لبعض العرب المهاجرين إلى مصر بعد الفتح، وأقام بين هذه الخطط وحولها الأقباط الذين كانوا فى هذه المواضع قبل الفتح، أو الذين اجتذبهم عمران المدينة الجديدة، وأقبلوا عليها، واشتغلوا بالزراعة والصناعة، وأبقى العرب على الكنائس والأديرة التى كانت فى موضع الفسطاط.

وموقع الفسطاط حصين تحميه التلال من الشرق والشمال ويحميه من الغرب نهر النيل الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب، وسمح عمرو بن العاص لبنى وهدان ومواليهم بالإقامة على الضفة الغربية للنيل فى الجيزة لتأمين مدينته الجديدة.

أحاطت بيوت الفسطاط بجامع ومنزل عمرو بن العاص، والمساحة الواقعة بين الفسطاط والنيل الذى يقع غربها، كانت تتسع تدريجيا كلما انحرف مجرى النيل إلى الغرب. وشُيدت العديد من الدور فى هذه الأرض الواسعة. وللفسطاط ميناء على النيل، حيث ترسو فيه السفن الآتية من الجنوب والشمال، وأنشئ لها مصنع فى جزيرة الروضة الذى يربط الفسطاط بالروضة بواسطة جسر.

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٩٨.

وفى سنة ٦٩هـ أقيمت على الخليج قنطرة كانت تُفتح عند فيضان النيل ومكانها (المشهد الزينبى وقنطرة السد). وتعرضت الفسطاط للخراب والدمار فى أحداث متوالية أدى إلى زوالها فى النهاية، منها مطاردة العباسيين لبقايا الأمويين فى مصر، واقترن ذلك بتخريب الجانب الشمالى من الفسطاط مما يلى جبل يشكر سنة ١٣٥هـ. ومنها تدمير الحاكم بأمر الله الفسطاط لأنها عارضت دعوى ألوهيته، ونظر من فوق جبل المقطم إلى المدينة وهى تحترق مثلما فعل نيرون أثناء حريق روما، وتعرضت للحريق والدمار فى أيام الشدة المستنصرية ٤٥٧هـ بعد أن انخفض ماء النيل، وحدثت مجاعة فى مصر استمرت سبع سنين، ومات بسببها الكثير من الناس، ولما قدم بدر الجمالى وجنده سنة ٤٦٦هـ إلى مصر لإعادة الأمن إليها أباح لجنده نهب مدينة الفسطاط الخربة والتى مات أهلها، فازدادت دمارا وخرابا، وفى أواخر العصر الفاطمى قام السودان بعدة ثورات، وانتهت بدمار الفسطاط وزوال أيامها.

وفى الجانب الشمالى من الفسطاط الذى أصبح أرضا فضاء، وزال عنه العمران، أقام العباسيون حاضرة جديدة لمصر، أسموها العسكر، نسبة إلى عسكرهم، وشُيدت فيها الدور والعمائر حتى اتصلت بالفسطاط، ظلت العسكر حاضرة لمصر حتى أسس أحمد بن طولون حاضرة جديدة لدولته سنة ٢٥٧هـ تسمى القطائع.

وموضع القطائع من قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون، وجنوب القلعة مشهد زين العابدين، وبحذاء الجامع دار الإمارة.

والقطائع عدة قطع يسكن فيها عبيد وموالى أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه، وسُميت بذلك؛ لأنه أقر لكل فريق من جنده ورعيته قطيعة يعيشون فيها، فقطيعة السودان، وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين، وسُميت كل قطيعة باسم من سكنها مثل الروم، وبنى القواد فى مواضع متفرقة، فعمرت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبُنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران، وسُميت أسواقها مثل سوق العيارين وسوق العطارين وسوق البزازين وسوق الجزارين وسوق البقالين وسوف الصيارفة والخبازين والحلوانية.

ولكل صنف من أصناف التجارة سوق حسن عامر وصارت القطائع مدينة كبيرة عامرة، وبنى ابن طولون قصره ووسعه بين قلعة الجبل ومسجد السيدة نفيسة، وبنى مسجده فوق جبل يشكر ووسع قصره وجعله فى وسط ميدان كبير، يضرب فيه بالصوالجة، وسمى القصر كله بالميدان، وعُمل للميدان أبواب، لكل باب اسم، يُسأل الخارج والداخل من الباب عن اسمه، وسبب قدومه أو خروجه. ومن الميدان كان يدخل ويخرج الجيش.

وباب الخاصة لا يدخل أو يخرج منه إلا خاصة القوم. وباب الصوالجة. وباب الجبل، لأنه مما يلى جبل المقطم. وباب الحرم ولا يدخل أو يخرج منه إلا حرم الأمير أو خصيانه وخدمه. وباب الدارمون يجلس فيه خادم أسود عظيم الخلقة. وباب دعتاج، نسبة إلى الخادم الذى يجلس به، وباب الساج لأنه عُمل من خشب الساج، وباب الصلاة؛ لأنه كان فى الشارع الأعظم، ومنه يصل الفرد إلى الجامع، ويعرف أيضا بباب السبع لأن به صورة سبعين من جبس. والباب الذى يخرج منه ابن طولون مقسم إلى ثلاثة أبواب؛ ويخرج من الباب الأوسط بمفرده دون أن يختلط به أحد من الناس.

والأبواب المذكورة تُفتح فى يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة. وما عدا ذلك لا تُفتح إلا فى أوقات معلومة مراعاة للأمن والأخطار الخارجية.

وكان الناس يدخلون من باب الصولجة، ويخرجون من باب السباع. وعلى باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع، ليرى حركات جنده وتصرفهم في حوائجهم ويتعرف على أحوالهم، ويشرف منه على النيل، وعلى باب مدينة الفسطاط[1].

وأنشأ خمارويه حديقة للحيوان كان فيها السباع والنمور والفيلة والزرافات والطيور، وجهز بيوتا صحية لها. ولم تزل القطائع قائمة حتى دمرها محمد بن سليمان الكاتب سنة ٢٩٢هـ ـ قائد الخليفة العباسى المستكفى ـ ولم يُبق منها غير المسجد.

(١) خطط المقريزى ص ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦.

القاهرة

قامت الدولة الفاطمية فى المغرب، واتخذ الفاطميون المهدية، حاضرة لدولتهم ولكن الفاطميين تعرضوا لحركات معارضة لحكمهم، وشعروا بعدم الاطمئنان فى مقرهم الجديد، وبعدهم النسبى عن قلب العالم الإسلامى، وتأثر دعوتهم تبعا لذلك. وتطلعوا إلى فتح مصر، والاستقرار فيها، حتى تتوسط دولتهم فى العالم الإسلامى، ويقتربوا من الحرمين الشريفين، ويتمكنوا من النيل من الخلافة العباسية السنية فى بغداد، فضلا عن الازدهار الاقتصادى لمصر، ولأن شعب مصر يحب آل البيت وبالتالى لن يعارضوا حكمهم.

فتح جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨هـ وأمره الخليفة المعز لدين الله باتخاذ حاضرة جديدة لدولة الخلافة الفاطمية؛ لذلك أسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة، وأسماها بهذا الاسم، لتقهر الأعداء، وتقهر الدنيا، وانتهى جوهر الصقلى من تخطيط القاهرة فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ، واختط لكل قبيلة خطة عُرفت بها مثل خطة زويلة، وخطة أهل برقة أو الحارة البرقية، واختط الروم حارتين وأنشأ المسجد الجامع فى وسط حاضرته الجديدة، وشيد قصرا للخليفة وحفر خندقا فى الجهة الشمالية للمدينة، لمنع الأعداء مثل القرامطة من غزو الحاضرة.

أما أبواب المدينة: الجهة القبلية إلى مدينة مصر بابان زويلة بحذاء المسجد، ويؤدى إلى مدينة الفسطاط - والجهة البحرية إلى عين شمس بابان - باب النصر أمام الجامع الحاكمى، والباب الآخر من الجهة البحرية باب الفتوح، والجهة الشرقية من القاهرة، تؤدى إلى جبل المقطم، لها بابان المحروق وباب البرقية. والجهة المطلة على الخليج، باب سعادة وباب الفرج وباب خوخة.

وشيد جوهر داخل القاهرة قصرين للخليفة، القصر الشرقى الكبير يقيم فيه الخليفة وحرمه. وبه مجلس يلتقى فيه بجنده وقواده ورجال دولته، وفيه الدواوين، وبيت المال، وخزائن السلاح، وزاد فيه المعز ومن جاء بعده، والقصر الثانى تجاه القصر الأول، ويعرف بالقصر الغربى، ويشرف على البستان الكافورى، ويتحول إليه الخليفة فى أيام فيضان النيل للنزهة على الخليج، حيث البساتين التى تمتد إلى أرض اللوق (باب اللوق حاليا) ويقال لمجموع القصور الفاطمية، القصور الزاهرة.

والقصر الشرقى الكبير به عدة أبواب منها باب الذهب، وتعلوه منظرة، وباب العيد أمامه رحبة متسعة، يقف بها الجنود فى العيدين وتعرف برحبة العيد. وباب الديلم. وأسس الخليفة العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك، وبها الأثاث الفاخر، ومن باب الذهب يشرف الخليفة من طاقات معينة من المنظرة التى عليه، وباب الديلم موضعه المشهد الحسينى. ومن باب الديلم إلى تربة الزعفران، أرض الخليلى (خان الخليلى) به مقابر الفاطميين ويقابل باب الديلم، الجامع الأزهر، وغربى الجامع الأزهر، حارة الديلم وحارة الروم، وحارة الأتراك. وهذه الحارات بها خزائن القصر، الكتب والغلال والسروج والخيم والفرش والكسوات هذا فى الجهة الشرقية[١].

أما فى ناحية الغرب، القصر الغربى، موضع المارستان المنصورى وبحذاء الرحبة التى تحدثنا عنها، البستان الكافورى المطل من غربه على الخليج الكبير. وهذه المواضع يقال لها حارة برجوان، وبجوار البستان الكافورى، حارة زويلة.

أسس جوهر الصقلى القاهرة لتكون حاضرة ملوكية، بمعنى أن المقيمين فيها فقط الخليفة وأولاده ونساؤه ورجال دولته وقادته، أما عامة الناس من أهل مصر فظلوا فى مدينتهم الفسطاط، لذلك بقى النشاط التجارى والصناعى مركزا فى مصر، بل بقى فقهاء وعلماء مصر فى جامعهم العتيد، عمرو بن العاص، مركز السنة، على حين اتخذ الفاطميون من الجامع الأزهر مركزا لنشر الدعوة الشيعية أو الإسماعيلية، وبذلك كان معظم فقهاء هذا المذهب من المغاربة المقيمين فى القاهرة الجديدة[٢].

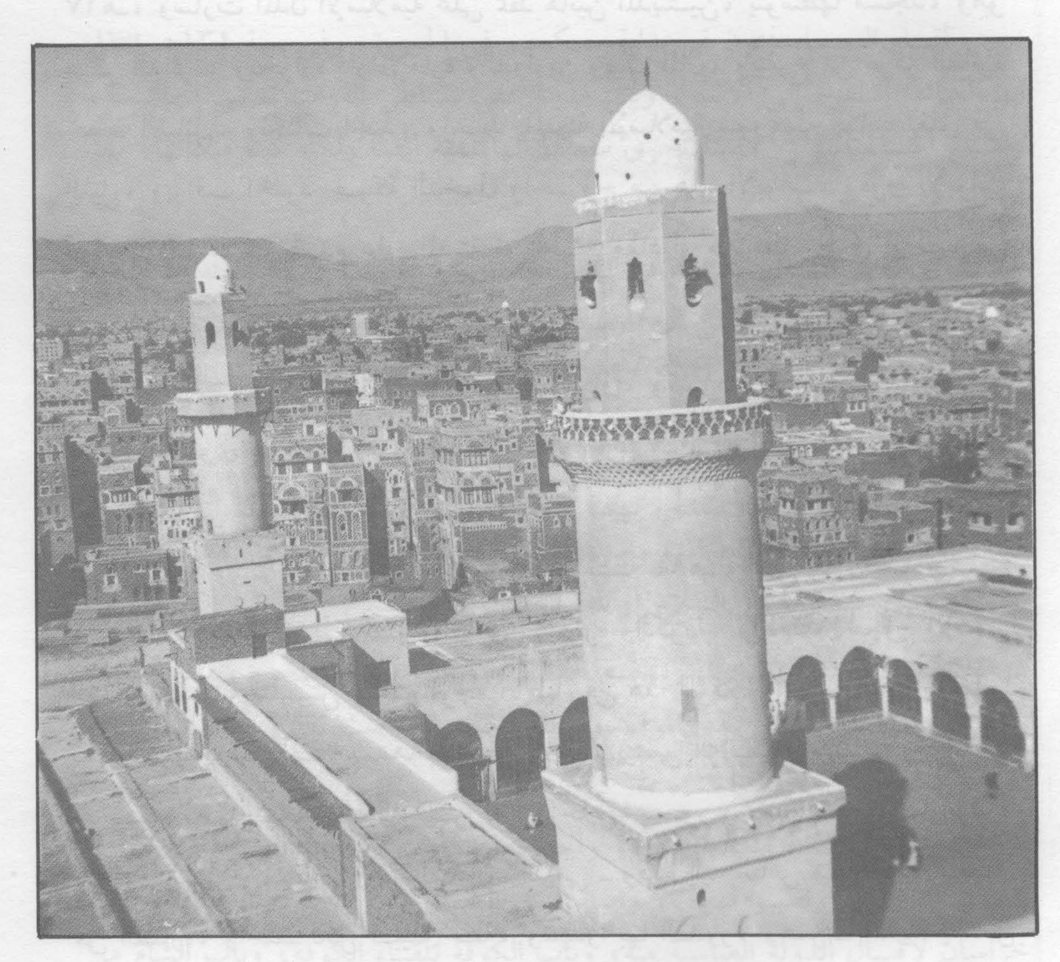
اتخذت القاهرة شكلا جديدا فى عصر بنى أيوب، فلم تعد مدينة ملوكية، ولكن صلاح الدين أباح لجنده وعامة الناس بالإقامة فيها وتعميرها، وإقامة الدور فيها، وهُدمت بعض أجزاء من مبانى القصور الفاطمية، وتغيرت معالم القاهرة، واختلفت خططها وأزقتها وشوارعها، ونزل السلطان فى قلعة الجبل، وتزايدت العمائر، والأسواق، وأقام الناس الأبنية الكبيرة على ضفتى الخليج وامتدت العمائر

---

(١) خطط المقريزى جـ ١.

(٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣١٨.

إلى جامع ابن طولون إلى المشهد النفيس، وامتدت العمائر من الريدانية حتى باب الفتوح، ووصلت القاهرة إلى اللوق إلى المقس إلى الدكة إلى ساحل النيل، واتصلت عمائر القاهرة إلى الجيزة إلى المقطم وعمرت القاهرة بأسواقها ومساجدها وعمائرها وحماماتها ومدارسها ومنتزهاتها(١).



الجامع الكبير بصنعاء

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣٢٠.

الحواضر الإسلامية فى العراق

أسس المسلمون فى العراق حواضر إسلامية متعددة، ومن أوائل هذه الحواضر، مدينة الكوفة ومدينة البصرة، أمر عمر بن الخطاب بتأسيسها عامى ١٦، ١٧هـ، وسارت المدن الإسلامية على نمط هاتين المدينتين، يتوسطها مسجد، وهو مركز الدائرة، وبجواره دار الإمارة والدواوين وبيت المال، ويتفرع من مركز الدائرة خطط القبائل، وثكنات الجند، ويحيط بالمدينة الإسلامية سور، له أبواب تغلق فى الليل، ويراقب الجنود حركة الدخول والخروج من هذه الأبواب، وفوق الأبواب أبراج لمراقبة ما قد يقدم على المدينة من جيش معاد أو من قطاع طرق أو لصوص أو غرباء.

لما ولى الحجاج بن يوسف الثقفى العراق، وكثرت فيه حركات المعارضة للحكم الأموى من الخوارج والشيعة والموالى وغيرهم، استأذن الخليفة عبد الملك ابن مروان فى تأسيس حاضرة جديدة، يأمن فيها وجنده من الأعداء المتربصين به فى العراق، وشرع فى تأسيس مدينة واسط سنة ٨٤هـ وانتهى من عمارتها سنة ٨٦هـ، وأسماها واسط، لتوسطها بين البصرة والكوفة. واتخذ الحجاج الأسس العلمية السليمة لتأسيس مدينته فوجه الأطباء فى هذا الموقع، وتجولوا فيه، وشهدوا بنقاوة هوائه وشق نهرا يمدها بالماء من دجلة، يسمى الزاب، وأحيا الأرض على جانبيه، وشيد بها مسجدا وقصرا له، وأحاطها بسور وخندق وجعل لها أبوابا، وأخرج النبطيين منها - وهم السكان القدامى - وقدم إليه الناس من أنحاء العراق من أنصاره، واختط لكل قبيلة خطة، وشيدوا بها الدور، وعمرت المدينة بالناس والأسواق، وتنوعت السلع ورخصت الأسعار، لأن المدينة تقع فى بقعة زراعية خصبة.

بغداد

كان من الطبيعى ومن المنتظر أن يؤسس العباسيون حاضرة دولتهم فى العراق بدلا من الشام التى بها أنصار بنى أمية. والعباسيون بذلك يقتربون من أنصارهم الفرس، كما أن العراق غنية بمواردها الاقتصادية(١).

أقام العباسيون فى بداية حكمهم فى الحيرة. وفى سنة ١٣٤هـ انتقل أبو العباس السفاح إلى الأنبار، وبنى مدينة على شاطئ الفرات تسمى الهاشمية، وأسس الخليفة المنصور مدينة أخرى سماها الهاشمية أيضا ولكنه كره سكانها، بعد أن ثار عليه الراوندية.

وتجول فى سائر العراق، واختار موضع مدينة بغداد، لأهميته التجارية والطرق من بغداد إلى الصين إلى أرمينيا إلى الجزيرة والشام، ييسر وصول كل ما يحتاجه أهل بغداد من سلع، كما أن بغداد يسهل الدفاع عنها ودجلة والفرات وروافدهما خطوط دفاعية لها.

تقع بغداد على الشاطئ الغربى لدجلة، وكلمة بغداد معناها عطية الله أو هبته، لأن باغ بستان، وداد اسم معبود قديم فى هذا المكان. وأطلق المنصور عليها تسمية عربية، فسماها دار السلام «والله يدعو إلى دار السلام».

تأسست مدينة بغداد فى موضع عدة قرى، منها بغداد والمحزم وبستان القس والعتيقة، واختبر المنصور هذا الموقع بواسطة رجاله من حيث نقاوة هوائها، وطيب موقعها.

جعل المنصور مدينته مدورة، وأحاطها بسورين، وجعل لها أربعة أبواب للسور الداخلى، ونظير لهذه الأبواب بالسور الخارجى وأبواب هذه المدينة، باب خراسان لإقبال الدولة العباسية منه، وباب الكوفة تلقاء الكوفة، وباب الشام من ناحية الغرب، والرابع باب البصرة لقربه من دجلة، وعلى أبواب القباب طاقات يقيم فيها جند المراقبة تمكنهم من رصد الحركة المتجهة إلى بغداد من مسافات بعيدة. وبين السورين فصيل يشبه الخندق، وحول السور الخارجى خندق يجرى فيه الماء. وهذه الوسائل تؤمن وسائل الدفاع عن المدينة.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٩.

وشيد المنصور المسجد والقصر فى مركز الدائرة التى تمثل مدينة بغداد وأسمى قصره، قصر الذهب أو قصر السلام وبجواره قصور الأمراء العباسيين ومماليكه وبيت المال وخزانة السلاح ودواوين الدولة، وشيد العباسيون عدة قصور فى بغداد.

اشتملت مدينة بغداد على أربعة شوارع رئيسية، تفرعت من أبواب السور الداخلى، وأقيمت على جانبى الشوارع الأبنية الفخمة، وتفرعت من هذه الشوارع سككا وأزقة ودروبا، وبهذه السكك والدروب المساجد والحمامات والأسواق.

قسم المنصور مدينته إلى أربعة أرباض أى نواحى وبكل ربض سوق ومسجد وحمام. ولتيسير تزويد المدينة بالماء أمر المنصور بشق قناة تأخذ من نهر كرخايا، وتسير فى وسط بغداد، وقناة أخرى تأخذ من دجلة مباشرة، وأدى توفير الماء إلى زراعة البساتين فى بغداد وضواحيها، على أن المنصور عاد ونقل الأسواق إلى حى خاص يسمى الكرخ خارج بغداد، لكل تجارة سوق خاص بها، وبنى بالسوق مسجدا واتسع الكرخ بعد رواج التجارة فى بغداد، وأسس المنصور مدينة أخرى على الجانب الشرقى تسمى الرصافة، حتى يلجأ إليها إذا هاجمه أهل بغداد واتسعت بغداد والرصافة، وكثر العمران فيهما، وازداد سكانها، وأقبل عليهما الناس من كل مكان، وكثرت القصور والدور فى الرصافة وبغداد واتخذ المأمون حيا خاصا له، يسمى المأمونية، يقيم فيه أولاده وعبيده وغلمانه.

وصارت بغداد حلقة الاتصال بين العنصرين العربى والإيرانى، قوام الجماعة الإسلامية، وصارت بغداد من أمهات المدن الإسلامية، ومركز العلم والثقافة، ومن أهم المراكز التجارية فى العالم، وكثرت ثرواتها وازدحمت بالناس؛ لأن كل من يريد عملا أو تجارة رابحة أو علما ينتفع به يجد كل ذلك فى بغداد.

على أن بغداد لم تنعم بالاستقرار طويلا، فقد تعرضت للفتنة التى حدثت بين الأمين والمأمون، وأدت إلى خراب بغداد ولما استعان المعتصم بالترك، أساءوا إلى أهل بغداد، ونكلوا بأهلها، فنقل المعتصم حاضرة دولته من بغداد إلى سامرا. وبذلك فقدت بغداد أهميتها التجارية والعلمية، حيث انتقل ذلك كله إلى الحاضرة الجديدة سامرا.

وعاد المستعين إلى بغداد بعد حروب مع الترك، أدت إلى تدمير بغداد، وتعرضت بغداد لفتن كثيرة من العيارين وبعض الغارات العدوانية ودخلها البويهيون، وثار بها البساسيرى، وفرض الدعوة الفاطمية على أهل بغداد، وأخرجه السلاجقة من بغداد وقتلوه، واقترن عودة الخليفة العباسى إلى بغداد بأعمال تخريبية.

وظلت بغداد تواجه محن الزمان حتى دخلها هولاكو سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٤م ودمر جنده بغداد وقتلوا أهلها، ودمروها، وفقدت كل ما فيها من مظاهر العمران[١].

سامرا

لما اشتد بطش الجند الترك بأهل بغداد، وشكوا إلى الخليفة المعتصم من إيذاء جنده، رأى أن يختار حاضرة جديدة لدولته، يقيم فيها جنده الترك، فاختار سامرا وتقع على دجلة، وكانت تسمى سر من رأى فاختصرها الناس إلى سامرا، وبناها المعتصم سنة ٢٢١هـ، وبنى قصره بها، وأمر جنده بالبناء فى سامرا، وبنى الناس بيوتهم حول قصر الخليفة، وشيد بها مسجدا، واتسعت سامرا وعمرت، وكثر بها الدور والأسواق والحمامات، وشق من دجلة قناتين تزودان المدينة بالماء.

وعُنى المتوكل بمدينة سامرا، وبنى فيها أروع القصور مثل قصور العروس والوحيد والجعفرى والغريب والبرج والمليح والجوسق.

ولم يزل العمران يزداد فى سامرا حتى اشتدت إساءات الترك إلى الخليفة العباسى، فعاد المعتضد إلى بغداد. وبذلك فقدت سامرا عمرانها وهجرها الناس[٢]. ولم يعد بها إلا السرداب الذى يزعم الشيعة أن الإمام محمد المنتظر دخله، وسيعود إلى الدنيا ليملأها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.

---

(١) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ١١٢ وما بعدها.
(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧٣ ـ ١٧٧.

حواضر المغرب العربى

القيروان

لما فتح عقبة بن نافع أفريقيا، رأى بناء حاضرة جديدة يقيم فيها جنده والعرب المهاجرون إلى المدينة، وتكون عزا للمسلمين حتى آخر الدهر، ويتركز فيها المسلمون بعيدا عن البربر المعارضين للفتح العربى وكان موضع القيروان آجام وغابات ونباتات برية مليئة بالحيات والسباع، فطهرها المسلمون، وأزالوا عنها الحيوانات والحشرات، وجاء اختيار المسلمين متمشيا مع قرار عمر بن الخطاب الذى يشدد على اختيار الحاضرة بعيدا عن البحر، واختط عقبة مسجدا ودارا للإمارة وأعطى العرب خططا يقيمون فيها أبنيتهم، وعمرت القيروان، سنة ٥٥هـ[1]. ومدينة القيروان الجديدة اتخذها عقبة بن نافع مقرا لقيادته وجنده، منها تخرج الحملات لشن الغارات على البربر المعارضين للحكم الإسلامى، وأمر الفقهاء والوعاظ بالجلوس فى مسجد القيروان لتفقيه البربر فى الدين وتعليمهم مبادئ الإسلام، واللغة العربية.

وأسس حسان بن نعمان مدينة تونس، وبها دار لصناعة السفن، وبنى عبد الرحمن بن رستم مدينة تاهرت سنة ١٥٠هـ، وهاجر إليها العلماء والطلبة من جميع بلاد الإسلام، وازدهر الفكر فيها حتى سُميت العراق الصغير.

المهدية

لما أسس الفاطميون دولتهم فى المغرب وبالتحديد أفريقيا، رأوا ضرورة تأسيس حاضرة مدينة جديدة لدولتهم، فأسس عبيد الله المهدى مدينة المهدية، وجعل لها مرسى يسع لثلاثين مركبا، وأقام بها مسجدا وقصرا، وقنوات لتزويد المدينة الجديدة والمسجد بالماء، وعمرها بالدكاكين وأرباب المهن، كل طائفة فى سوق، والمهدية مدينتان الأولى مدينة ملوكية يقيم فيها الخليفة والأمراء والموالى ورجال دولته، والمدينة الثانية يقيم فيها أرباب الحرف والصناعات، وبين المدينتين ميدان فسيح، وسماها زويلة. وأمر التجار بأن يدعوا أموالهم فى مدينة العامة وقال: فإن أرادونى بكيد وهم فى زويلة كانت أموالهم عندى. وإن أرادونى بكيد وهم عندى فى المهدية، خافوا على حريمهم فى مدينتهم زويلة. وعمرت المدينة بالأسواق والبناءات الفخمة. ولما أتم المهدى تأسيسها قال: اليوم آمنت على الفاطميات[2].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٢٠.

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٣٠.

ومن المدن التى أُسست فى المغرب مدينة فاس، غزيرة الماء، وهى مدينتان متفرقتان مسورتان، عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين، أسس عدوة الأندلسيين إدريس الثانى سنة ١٩٢هـ.

وبكل عدوة جامع، العدوة الأولى من أهل المغرب الأصليين، أما العدوة الثانية عدوة الأندلسيين، وهم فريق طردهم الحكم الربضى من الأندلس بعد ثورتهم ضده، واستبقاهم إدريس الثانى؛ لأنه فى حاجة إليهم عند تأسيس مدينته.

بكل عدوة جامع. ونساء عدوة الأندلسيين أجمل من نساء عدوة القرويين. ورجال الأندلسيين أشجع من القرويين، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين.

مراكش

أسسها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ، وكانت أرضا فضاء، ينتشر فيها اللصوص وقطاع الطرق للإغارة على القوافل، وتبعد عن البحر، وكانت القوافل إذا وصلت إلى هذا المكان الخطير، نادى المنادى «مراكش» أى أسرعوا فى المشى تجنبا للصوص، وأصبحت حاضرة دولة المرابطين فى المغرب. ولما قامت دولة الموحدين عنى عبد المؤمن بن على بعمارتها، وشيد بها البساتين وكثر بها الدور والأسواق والقصور(١).

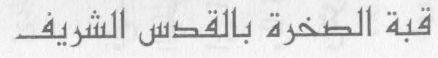
المسجد فى الإسلام

من الأسس الرئيسية لاستقرار المسلمين فى حاضرة ما اتخاذ مسجد يؤدون فيه شعائرهم الدينية خمس مرات كل يوم، وقراءة القرآن، وتدارس الدين، وتفقد الحاكم لأحوال الناس ومطالبهم وشكواهم، والنظر فى المظالم، والشورى التى هى من مبادئ الإسلام، وتعليم المسلمين الجدد مبادئ الدين، والإجابة عن استفسارات المسلمين عن أمور دينهم.

اتخذ الرسول أول مسجد له فى قُباء التى مر بها أثناء هجرته إلى المدينة المنورة ولما هاجر إلى المدينة نزل فى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار، واشتراه

---

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ ٥ ص ٩٤.



قبة الصخرة بالقدس الشريف

منهما وبنى فيه مسجده، وفى هذا المسجد النبوى تعلم المسلمون عن الرسول القرآن الكريم وسمعوا الحديث الشريف، وتفقهوا فى الدين، وأعدوا أنفسهم للجهاد ضد الكفار، ووضعوا الخطط لتوسيع رقعة الدولة الجديدة حتى شملت الجزيرة العربية. وفى هذا المسجد تكونت الجماعة الإسلامية الأولى التى تفقهت فى الدين، وتوارث الأجيال عنها أسس ومبادئ الدين الحنيف.

وكان لزاما على المسلمين اتخاذ مسجد فى كل بلد نشروا فيه الإسلام فلما وصل معاذ بن جبل إلى صنعاء يدعو اليمانية إلى الإسلام، دعاهم إلى إقامة مسجد، فأسسوا المسجد الكبير؛ لأن أهم شىء يميز المدينة الإسلامية - المسجد الجامع - فإنشاؤه يظهر طابعها الإسلامى.

أمر عمر بن الخطاب حين قدم إلى الشام سنة ١٨هـ ألا يتخذ فى المدينة سوى مسجد جامع واحد، وأراد عمر بذلك المسجد الذى تقام فيه الجمعة، ولم ينه عن اتخاذ المساجد التى لا تقام فيها الجمعة.

اكتفى العرب بعد فتح دمشق بمسجد متواضع كان يوجد إلى جوار كنيسة القديس يوحنا، وتركوا الكنيسة كلها للنصارى، يؤدون فيها شعائرهم الدينية. وضاق هذا المسجد بالمصلين بعد أن ازداد العمران فى دمشق، وأقبل عليها العرب، ودخل الكثير من أهلها فى الإسلام. لذلك وجد الوليد بن عبد الملك أن المسلمين فى دمشق فى حاجة إلى مسجد كبير، بعد أن أصبح المسجد القائم لا يتسع للمصلين، فدفع لنصارى دمشق تعويضا ماليا كبيرا، وتنازلوا عن كنيسة القديس يوحنا، وشرع فى بناء مسجد دمشق - الذى يتضمن المسجد القديم والكنيسة - سنة ٨٧هـ، وأتمه سليمان بن عبد الملك ٩٦هـ، أى أن بناء المسجد استمر تسع سنين.

كان للمسجد الأموى فى دمشق ثلاث مقصورات، الأولى مقصورة معاوية، وتعرف بالمقصورة الصحابية، بناها وقاية لنفسه من المتآمرين، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة محلاة بالرسوم فيها المصحف الذى وجهه عثمان بن عفان إلى أهل الشام - والمقصورة الثانية - فيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة. وفى الجانب الغربى من المسجد توجد مقصورة صغيرة.

زينت جدران المسجد بالفسيفساء المذهب والملون، وغُطيت أرضه بالمرمر، أما عمده فكانت من الرخام المختلف الألوان، ورصع محرابه بالجواهر الثمينة، ونُقش على جدرانه آيات قرآنية وينسب إلى الوليد بن عبد الملك المئذنة الشمالية المعروفة بمئذنة العروس، والمسجد يضاء بكثير من القناديل المصنوعة من الذهب والفضة، وكُتب على حائط المسجد بالذهب: ربنا الله لا نعبد إلا الله. «أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أميرالمؤمنين فى ذى الحجة سنة ٨٧هـ».

كان لمسجد دمشق ستة أبواب، منها أربعة أبواب رئيسية، وهى باب فى الناحية القبلية من المسجد، وكان قصر معاوية الخضراء إلى يسار الخارج منه. وباب الساعات فى الناحية الشرقية من المسجد، وفى الناحية الغربية باب البريد، وفى الناحية الشمالية باب الناطفين(١).

وقد جلب الوليد بن عبد الملك العمال من كل مكان من بلاد الإسلام ومن الروم، وأنفق على بنائه أموالا طائلة حتى استاء بعض العرب وقالوا: أينفق فيؤنا فى نقش الخشب وتزويق الحيطان؟ ولكن الوليد طمأنهم على أرزاقهم فى المستقبل.

وفى الحق يعد مسجد دمشق آية من آيات الفن العربى والبيزنطى ويقول ياقوت فى وصف هذا المسجد: «هو جامع المحاسن، كامل الغرائب، معدود إحدى العجائب، قد تزود بعض فرشه بالرخام، وأُلف على أحسن تركيب ونظام... يكاد يقطر ذهبا ويشتعل لهبان»(٢).

ظل هذا المسجد قائما إلى يومنا هذا، وأجريت فيه الكثير من التجديدات والإصلاحات، وظل طوال التاريخ يمثل عظمة ما خلفه الأمويون من آثار وجلس فيه العلماء والفقهاء يدرسون للناس والطلاب علوم الدين واللغة، ومن أشهر من تصدى للتدريس فيه ابن عساكر وابن تيمية والذهبى والعز بن عبد السلام.

جامع عمرو بن العاص

لما فتح العرب مصر، واتخذ عمرو بن العاص الفسطاط حاضرة للولاية الجديدة كان لابد وأن يؤسس بها مسجدا، فأسس الجامع الذى يحمل اسمه إلى

---

(١) عصام الدين الفقى: الحواضر الإسلامية ص ٣٩ ـ ٤١.

(٢) معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٦٦.

اليوم، ويسمى الجامع العتيق، وتاج الجامع، واختط عمرو مسجده سنة ٢١هـ، وحدد القبلة والمحراب، وكان طوله خمسون ذراعا، وعرضه ثلاثون، وله بابان يقابلان داره، اثنان فى بحريه، واثنان فى غربيه، وركن المسجد الشرقى يحاذى ركن دار عمرو بن العاص الغربى، وكان سقفه مطاطا، ولا صحن له، وإذا كان الصيف جلس الناس فى فنائه من كل ناحية، وبينه وبين دار عمرو بن العاص، سبعة أذرع، واتخذ عمرو بن العاص منبرا للمسجد، فكتب إليه عمر بن الخطاب يؤنبه على ذلك ويطلب منه كسره ويقول: أما يحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت قدميك. فكسره عمرو بن العاص(١).

وزاد فى هذا المسجد، مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ٥٣هـ - أمير مصر - من قبل معاوية بن أبى سفيان، فزاد فيه من شرقيه مما يلى دار عمرو بن العاص، وزاد فيه من بحريه، وجعل له رحبة فى الجهة البحرية منه كان الناس يجلسون فيها صيفا، كما دهن جدران وسقوف المسجد وزخرفه، وأنشأ له منارا يؤذنون فيه، وجعل مسلمة بن مخلد - أمير مصر - للمسجد فى أركانه الأربع، أربع مآذن، وفرشه بالحصر بدلا من الحصاه، وزاد فيه من ناحية الغرب عبد العزيز بن مروان - والى مصر - وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه، ولم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه به. وأمر الوالى عبد الله بن عبد الملك بن مروان برفع سقف الجامع وإعادة بنائه سنة ٨٩هـ وجدد قرة بن شريك والى مصر المسجد سنة ٩٣هـ، ونصب للمسجد منبرا جديدا(٢) سنة ٩٤هـ.

وزاد فيه عبد الله بن طاهر - أمير مصر - من قبل الخليفة المأمون سنة ٢١٢ ونشب فيه حريق فى عهد أحمد بن طولون، خرَّب بعض جوانبه، وأعاده خمارويه بن أحمد بن طولون إلى ما كان عليه، ونُقشت أكثر العمد فى العصر الإخشيدى، وطوقت بأطواق من الفضة، وفى القرن الرابع الهجرى كان المسجد مزخرفا وفى حالة جيدة من نقش وتطويق للعمد.

كما عُنى يعقوب بن كلس - وزير العزيز بالله الفاطمى - بالمسجد فقلع المنبر القديم، وأقام مكانه منبرا مذهبا كبيرا، وأقيمت فى المسجد فوارة وسقف خشب

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٤٦.

(٢) خطط المقريزى جـ٢ ص ٢٤٦.

سنة ٣٨٧هـ فى أوائل العصر الفاطمى، وأرسل الحاكم بأمر الله بعمل رواقيه فى صحن المسجد، ولموقف الإمام فى الصيف مقصورة خشبية ومحراب من خشب الساج الهندى المنقوش به عمودان من خشب الصندل، وتقلع المقصورة فى الشتاء. ويصلى الإمام فى الشتاء فى المقصورة الكبيرة(١).

وجدده صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٨هـ بعد التخريب الذى حدث فيه من الحريق الذى نشب فيه، وأعاد صلاح الدين إصلاح الجامع والمحراب الكبير ورسم عليه اسمه، وجدده سلاطين المماليك فى سنوات ٦٦٦هـ، على أيدى بيبرس، والمنصور قلاوون، واستداره جاشيكير سنة ٦٨٧هـ، وأعاد عمارته الأمير سلار فى عصر الناصر قلاوون سنة ٧٠٣، وجدده أحد التجار سنة ٨٠٤هـ، وجدده مراد بك قبل الحملة الفرنسية(٢).

قام جامع عمرو بن العاص بدور كبير فى الفكر الإسلامى، فجلس فيه منذ فجر تاريخه علماء وشيوخ الإسلام للتدريس، ونشر فكرهم الإسلامى، ومن أبرز شيوخ الإسلام الذين جلسوا فيه الإمام الشافعى وتلاميذه من بعده الذين تبنوا مذهبه وفقهه، ووفد عليه العلماء وطلاب العلم من جميع أنحاء الدولة الإسلامية مثل الليث بن سعد وأسد بن الفرات ومحمد بن إسحاق بن يسار والطبرى وبعض علماء الحديث والسنة، ودارت مناقشات كبيرة فى هذا المسجد، وحافظ هذا المسجد على المذهب السنى فى العصر الفاطمى وواجه بكل قوة المذهب الإسماعيلى فى الجامع الأزهر، وثار علماء وطلاب هذا المسجد فى وجه الدعوة الدرزية التى تدعو إلى ألوهية الحاكم بأمر الله بل تعقبت دعاة الدرزية حتى أخرجوهم نهائيا من مصر.

وتخرَّج من حلقات الدرس فى هذا المسجد العتيق الكثير من مفكرى الإسلام. ولا يزال هذا المسجد قائما حتى اليوم يمثل مظهرا رائعا من مظاهر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فى مصر.

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧.

(٢) سعاد ماهر: مساجد مصر جـ ١ ص ٦٢.

جامع ابن طولون

وفى حديثنا عن مساجد مصر يجب أن نفرق بين المسجد والجامع، فالمسجد للصلاة فقط، أما الجامع فهو الذى يجتمع فيه الناس لأداء الجمعة ويجلس فيه الحاكم للنظر فى المظالم وفى أمور الناس والشورى، لما حكم العباسيون مصر، اتخذوا العسكر - حاضرة جديدة لمصر، وشيدوا بها مسجدا، واستقل أحمد بن طولون بمصر، واتخذ حاضرة جديدة اهتم بإنشائها حتى تضفى على حكمه البهاء والازدهار، واتخذ مسجدا جامعا فى القطائع - حاضرته الجديدة - لذلك فهو ثالث مسجد فى مصر الإسلامية، واستغرق بناؤه ثلاث سنوات (٢٦٢ - ٢٦٥هـ) وبُنى هذا المسجد على جبل يشكر، ويُنسب إلى قوم حضروا إلى مصر وقت الفتح مع جيش عمرو بن العاص، ونزلوا مع بنى الأزرق الجبل الذى سُمى باسمهم - جبل يشكر(١).

عُنى أحمد بن طولون بتشييده مسجدا وقال: أردت أن أبنى بناءًا، إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى.

وفى مؤخرة المسجد ميضأة وخزانة فيها الماء البارد للشرب والأدوية لعلاج المرضى. وبالمسجد قبة مشبكة من جميع جوانبها وهى مذهبة على عشر عمد رخام وجوانبها مفروشة كلها بالرخام وتحت القبة مئذنة رخام بها فوارة ماء، أعاد العزيز بناءها، ومساحة المسجد $\frac{1}{2}$٦ فدان. والمسجد به صحن مربع، وتحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، ويوجد حول المسجد زيادة تحيط بثلاثة من جوانبه، أما الجانب الرابع فهو الجانب القبلى أو الجنوبى الشرقى، ويقع خلفه دار الإمارة(٢).

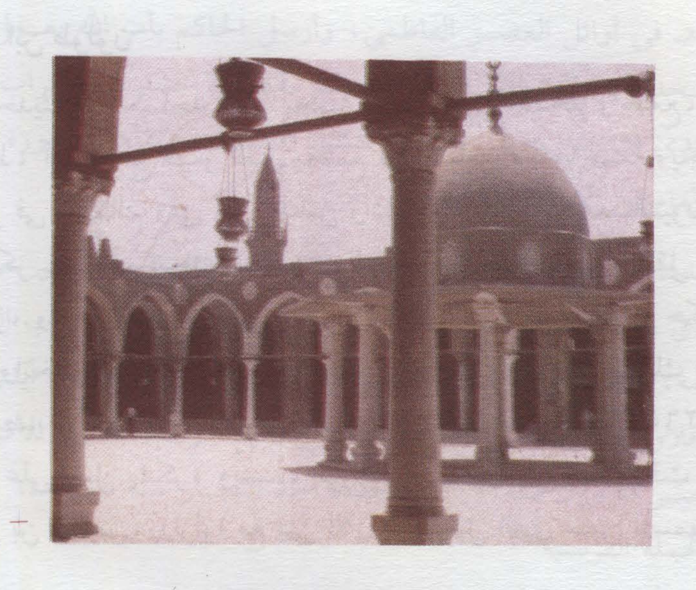
والمسجد مبنى بالطوب المحروق، وتغطى جدرانه طبقه سميكة من الملاط، تعلوها طبقة بيضاء من الجص المزخرف بزخارف محفورة وعقود المسجد من الطراز المدبب، وتتركز على دعائم ضخمة مستطيلة المسقط فى أركانها أعمدة مندمجة. وأعلى الدعائم فتحات. وللمسجد شرفات مسننة وفى جدران المسجد نوافذ بها زخارف جميلة محزمة(٣).

---

(١) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٤ ، ٥.

(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

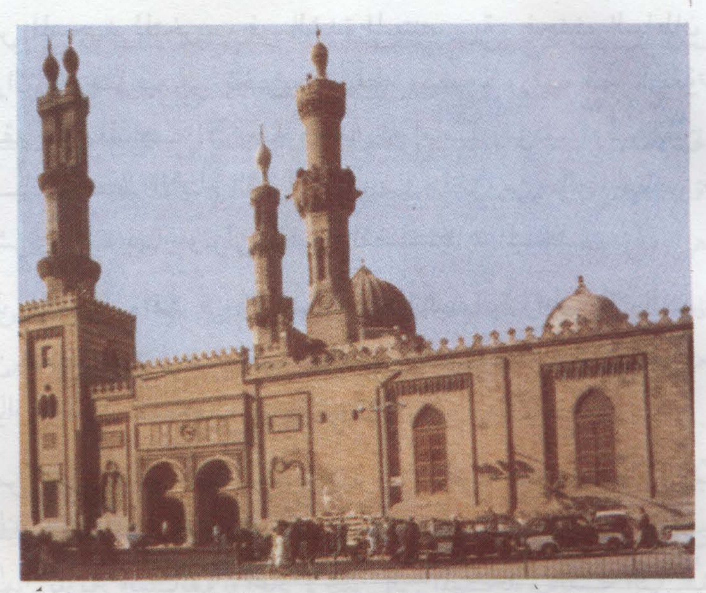
(٣) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١١٩.



مسجد عمرو بن العاص



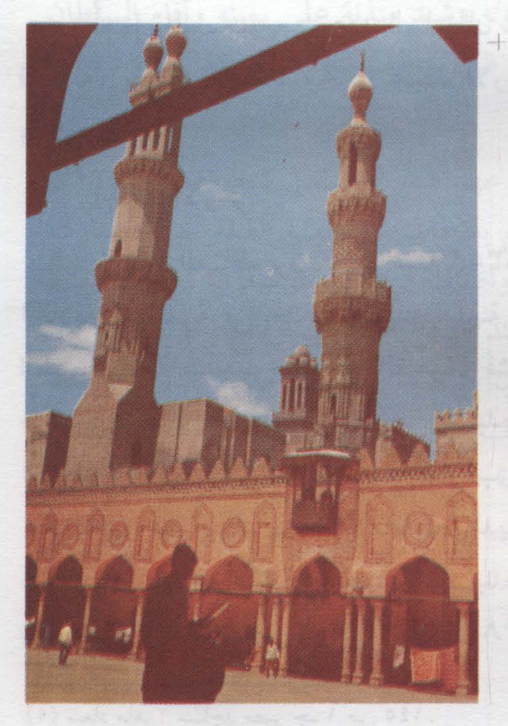
مسجد أحمد بن طولون



الجامع الأزهر أنشأه الفاطميون مع إنشاء مدينة القاهرة، وسمى الأزهر لازدهار العلوم فيه



أقام محمد على مسجده فى قلعة الجبل



الجامع الأزهر

تعرض المسجد للتخريب فى الشدة المستنصرية، فجدده السلطان المملوكى لاجين، وأزال كل ما فيه من تخريب وبلطه وبيضه، ورتب فيه أربعة مجالس لدراسة الفقه على المذاهب الأربعة وجعل له إماما ومؤذنين وفراشين، وأسس بجواره مكتبا لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم، وأنفق من ماله الخاص فى تجديد المسجد، عشرين ألف دينار وتولى قاضى القضاة نظارة المسجد.

يحيط بالمسجد رواقان فى كل من جهاته الشمالية والجنوبية والغربية وتتكون الأروقة من دعائم، فى أرجاء كل منها أعمدة متصلة نُقشت بأسلوب متنوع جديد، ورواق القبلة يتكون من خمسة أروقة.

يتضمن إيوان القبلة خمسة محاريب غير مجوفة عدا المحراب الرئيسى الذى يتوسط جدار القبلة المجوف، وتعددت المحاريب بتعدد المذاهب. وعلى المسجد لوحة تتضمن تاريخ إنشائه، وأعاد لاجين إلى المسجد، القبة التى هُدمت سنة ٦٩٦هـ، وتتكون المئذنة من أربع طبقات[١].

أُهمل المسجد بعد عهد السلطان لاجين، واتخذ دارا لإقامة الغرباء من المغاربة، يقيمون فيه، وتجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر، وبذلك فقد رونقه وبهاءه.

الجامع الأزهر

لما فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨هـ، واتخذوا مصر دارا للخلافة تنافس الخلافة العباسية فى بغداد، وشيدوا مدينة القاهرة كحاضرة لدولتهم الجديدة ومن الطبيعى إقامة مسجد جامع فى القاهرة، فشيد جوهر الصقلى جامع القاهرة، الذى عُرف بعد ذلك بالأزهر، وانتهى من تشييده سنة ٣٦٠هـ وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول، وهى على ميمنة المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة [أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة من الهجرة][٢].

---

(١) سعاد ماهر: مساجد مصر جـ ١ ص ١٤٥.
(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥.

والمسجد يتألف من صحن يحف به ثلاثة أروقة، أكبرها رواق القبلة ـ والرواقان الآخران فى الجنبين. وجدد فيه الخليفة العزيز سنة ٣٨٧هـ، وجدده المستنصر والحافظ، وأنشأ به مقصورة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات، عُرفت بمقصورة فاطمة، وتعهده أمراء المماليك بتبييضه وإصلاح سقوفه والواهى من جدرانه.

ولما كان المسجد مقرا للدعوة الفاطمية، فقد عطل فيه صلاح الدين الأيوبى صلاة الجمعة مائة عام، وأعيدت الجمعة إلى المسجد فى عهد الظاهر بيبرس، وتولى الأمير سلار عمارة الأزهر سنة ٧٢٥هـ، وتتبع جدرانه وسقوفه بالتصليح، وبيَّض الجامع وبلَّطه.

وفى سنة ٨٠٠هـ هُدمت منارة الأزهر، وأعيد بناؤها، وعُلقت القناديل فيها ليلة الجمعة، وأوقدت حتى إشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها، وأقيم الصهريج فى وسط الجامع، وغُرس بصحن الجامع أربع شجرات، وعُملت له ميضأة[١].

وجدد قايتباى مدخل الجامع الأصلى، وشيد مئذنة على يمينه وأقام السلطان قنصوه الغورى، مئذنة الغورى بالقرب من الزاوية الغربية لصحن المسجد، وتتميز بقمتها ذات الرأسين.

أما الإضافات الكبيرة، فكانت فى عهد عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ ـ ١٧٥٣، إذ أضاف إلى رواق القبلة، أربع بلاطات من جهة القبلة حتى صارت أرضيتها أعلى من أرضية المسجد الأصلى وأضاف إلى المسجد محرابا ومنبرا، وبنى قبة تتقدم المحراب، وبنى لنفسه ضريحا عند الركن الجنوبى، وفتح بالقرب منه بابا سُمى باب الصعايدة، وأقام جنوب الباب مئذنة، وأضاف خلف جدار المسجد الجنوبى الغربى رواقا، سُمى رواق الصعايدة، وفتح باب الشربة خلف جدار القبلة، شرقى المحراب، وأقام خلفه مئذنة، وأُطلق على الواجهة الرئيسية الحالية للجامع الأزهر والمدخل الذى أطلق عليه باب المزينين، حيث يحلق الطلاب والشيوخ شعورهم عند المزينين الذين يجلسون أمام هذا الباب وهذا يرجع إلى عصر الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٨[٢].

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥.

(٢) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٢٠ ، ١٢١.

واتخذت كل طائفة رواقا فى المسجد يعرف بهم، مثل رواق المغاربة ورواق الصعايدة، ورواق الشراقوة إلخ. وعمر المسجد بالعلماء والطلاب الذين يفدون إليه من جميع أنحاء العالم، وتدفقت الأموال على طلاب وشيوخ العلم، ونُظمت الدراسات فيه حتى اتخذ شكل جامعة لها لوائحها وتقاليدها، ويفد إليها الطلاب من أنحاء العالم وأصبح الأزهر بذلك أقدم جامعة فى العالم.

المسجد الجامع فى بغداد

من الطبيعى أن يؤسس الخليفة المنصور أثناء عمارته لمدينة بغداد المسجد الجامع الذى يعطى للمدينة الطابع الإسلامى، وقد أقام المنصور المسجد الجامع مجاورا لقصر باب الذهب، وكان بابه منحرفا عن القبلة وبناه المنصور باللبن، ولكى يكون وضعه متناسبا مع وضع القصر، أصبح منحرفا محرابه عن القبلة، وكان سقف المسجد قائما على أساطين من خشب، ولكل أسطوانة تاج مدور مصنوع من قطعة خشب. وبقى هذا الجامع بهذه الصورة حتى ولى الرشيد الخلافة، فجدده سنة ١٩٢هـ فأمر بهدمه وأعاد بناءه بالجص والآجر، وكتب عليه اسم الرشيد وذكر أسماء بنائيه ومشيديه وتاريخ البناء، وتم ذلك سنة ١٩٣هـ وصار يعرف هذا الجامع بالصحن العتيق، وتوالت أعمال التجديد بهذا المسجد عبر السنين[١]، حتى هُدم فى الغزو المغولى لبغداد.

شهد هذا المسجد حلقات علمية لكبار شيوخ الإسلام، ووفد عليه طلاب العلم من كل مكان للدراسة والالتقاء بالمشايخ. ومن أبرز شيوخه أبو حنيفة وأبو يوسف والشافعى وابن حنبل والأئمة الستة، ونظام الملك. وابن الجوزى وغيرهم ممن يصعب حصره.

المسجد الجامع فى سامرا

أما مسجد سامرا فكان موقعه فى وسط المدينة، ومساحة هذا المسجد أوسع بكثير من مساجد الإسلام، ومئذنة هذا المسجد ملوية، يُصعد إليها بمنحدر يلف حولها من الخارج، ومئذنة جامع ابن طولون مشابهة لها، لأنها أقيمت على غرارها. ولم يبق هذا المسجد طويلا بل تطرق إليه الخراب والدمار مع هجر مدينة سامرا وخرابها.

---

(١) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٦.

المسجد الجامع فى قرطبة

اتخذ العرب بعد فتح الأندلس، قرطبة حاضرة لولاية الأندلس، وطبعوها بالطابع الإسلامى، وشيدوا بها مسجدا جامعا، وشيده الأمير عبد الرحمن سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م، واتخذ له صحنا مكشوفا، ورواقا للقبلة ولم يقم فيه مئذنة، وفى سنة ١٧٧هـ شيد هشام بالمسجد مئذنة ارتفاعها أربعين ذراعا، كما أعد له حوضا للوضوء(١).

وفى سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م أضاف عبد الرحمن الثانى إلى رواق القبلة من ناحية الجنوب مساحة قدرها ١٥٠/ ٥٠ ذراعا. وفى سنة ٢٥٥هـ / ٩٦٦م قام الحكم بتوسيع رواق القبلة فى الجنوب بمساحة طولها ٩٥ ذراعا، وبنى فيه المحراب، وفى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م فى عهد المنصور بن أبى عامر أضيف إلى المسجد من جهة الشرق مساحة جديدة، أدت إلى اتساع المسجد ورواق القبلة. وحدثت تجديدات فى المسجد فى عصور مختلفة(٢).

جامع القرويين فى فاس

وهو من أشهر مساجد الإسلام فى بلاد المغرب، وهو أشبه بالجامع الأزهر، حيث قامت فيه جامعة لدراسة علوم الإسلام. وله طراز معمارى فريد فى نوعه بالنسبة لمساجد بلاد المغرب.

أنشأت هذا المسجد فاطمة القروية أم البنين ابنة محمد الفهرى سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م فى عدوة القرويين.

والمسجد يتألف من الصحن ورواق القبلة، وعرض المسجد حوالى ثلاثين مترا، ومئذنته قليلة الارتفاع على الواجهة الشمالية للمسجد فى محور المحراب، كما هو الحال فى جوامع دمشق وقرطبة والقيروان(٣).

وأضيف إلى المسجد زيادة كبيرة، وهُدمت الصومعة القديمة وأقيم بدلا منها الصومعة الحالية، والزيادة فى رواق القبلة من جهاته الشرقية والغربية والشمالية،

---

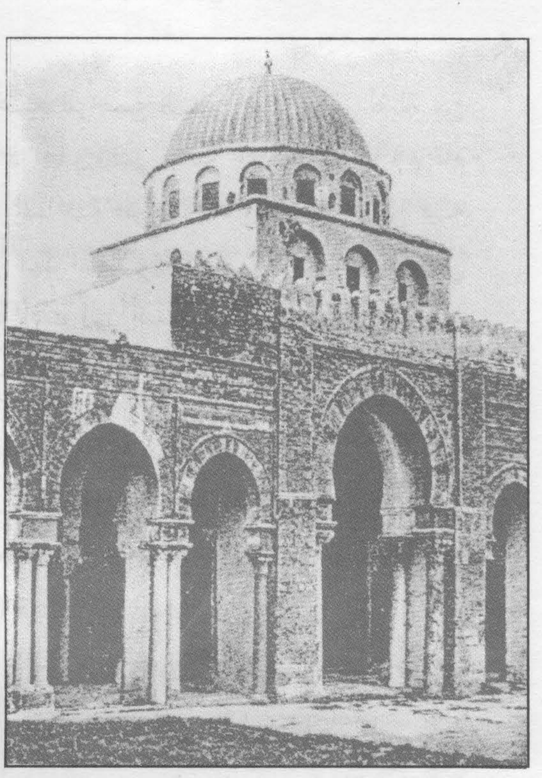
(١) حسن الباشا: الآثار الإسلامية ص ١١٤.

(٢) المصدر السابق ١١٤ ، ١١٥.

(٣) حسن الباشا: الآثار الإسلامية ص ١١٥ ، ١١٦.

فضلا عن توسيع الصحن بحيث يتمشى مع رواق القبلة، وأقيمت المئذنة عند منتصف الرواق المطل على الصحن من الجهة الغربية، وهى من طراز مآذن المغرب والأندلس.

وفى وسط المسجد حوض من الرخام الأبيض والنافورة المصنوعة من النحاس الأحمر المطعم بالذهب، أقيمت سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م وبالجامع قبة كبيرة بُنيت سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م[١].



مسجد سيدى عقبة فى القيروان.

الواجهة وتبدو

إحدى قبتى المسجد فوقها.



مسجد قايتباى ـ القاهرة،

طراز مملوكى

(١) المصدر السابق ص ١١٥ ، ١١٦.

نبغ المسلمون فى مجال الفنون والزخرفة، وعناصر الزخرفة عند المسلمين تتمثل فى صور آدمية وحيوانية ورسوم هندسية وزخارف نباتية وخطية، وأتقن الفنانون المسلمون الزخارف النباتية والهندسية على الأحجار والأخشاب والأقمشة والمعادن، وازدهرت الزخرفة فى مصر والشام أيام الفاطميين والمماليك، وامتد إلى صقلية، وتدين القاهرة بمظهرها الإسلامى الفنى الرائع إلى جهود المماليك فى مجال الفن.

كما نبغ المسلمون فى زخرفة السجاد بالصور النباتية ولاسيما الزهور، ورسوم الإنسان والحيوان والطيور على مختلف التحف الفنية، وعُنى الفرس بالمناظر الطبيعية من رسوم نباتية، وتكون الفن الإسلامى من اختلاط العرب بالصين والشعوب التى اندمجوا فيها بعد الفتح العربى.

وتميزت العمائر الفارسية بكسوتها بألواح القاشانى البديعة الصنع، وتتميز بالعقد والجهة المستطيلة التى يحف بها من الجانبين مئذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف فى أعلاها حيث تقوم شرفة تجعلها كالفنار[١].

ولنناقش الآن روائع الفن الإسلامى المتمثل فى صناعة المنسوجات والمعادن والزجاج والخزف والسجاد والخشب.

تأثر المسلمون بالصين فى صناعة المنسوجات، وصلة العرب بالصين قديمة، فقد اقتربت فتوحات المسلمين فى بلاد ما وراء النهر من حدود الصين، وانتشر التجار العرب فى الصين، وأقامت جاليات التجار فى مدن الصين، وأرسل الحكام المسلمون بعثات دبلوماسية إلى الصين، ووفد بعض أهل الصين على بلاد الإسلام، وأقاموا فيها. كل ذلك أدى إلى تأثر المسلمين بفنون الصين.[٢]

(١) زكى حسن: فى الفن الإسلامى ص ٢٠.
(٢) بدر الدين الصينى: العرب والصين ص ٢٦٠.

عرف المسلمون عن الصين الديباج وهو نوع من الحرير المنسوج بخيوط الذهب أو الفضة المرسوم من أشكال مختلفة من زهور وطيور وعنقاء، ورسوم لأوراق نباتية، وعرف المسلمون من هذا الفن واتخذوه على منسوجاتهم، وازدادت معرفة المسلمين بالفن الصينى بعد أن أسس المغول إمبراطورية فى الصين والشرق الإسلامى، وقلد الإيرانيون صناعة الصين فى الرسوم والزخارف، وتتضمن صور الحيوانات والطيور والزهور والنباتات، وكتابة عربية مزخرفة قد تكون عبارة كاملة أو كلمة واحدة أو زخارف من حروف لكلمة لا معنى لها، وتضمنت بعض قطع النسيج السلجوقى، حكم وأشعار[1].

ونقشت على المنسوجات الحريرية النجوم، وصور طيور طائرة بين الأغصان، وعلى أجنحتها عبارات عربية، يراد بها التفاؤل وألوان مثل هذه القطع فيه الخضرة والزرقة والصفرة والحمرة المتحدة التشكيل المناسبة للرسوم، وظهر أثر الصين فى زخرفة المنسوجات الحريرية يتمثل فى لون أخضر مع لون برتقالى وحلقات مكونة من سرب طيور، وقطعان الحيوان الخرافى متوازية الصفوف بين أوراق النخيل، ونُسج على بعض قطع النسيج اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بخيوط الذهب والفضة، وتوجد قطع من النسيج عليها زوجين اثنين من الببغاء مع لقب الناصر منسوجة بخيوط الجلد المذهبة على أرض الحرير السوداء[2].

كان من الطبيعي أن تزدهر صناعة السجاد، لتوافر المواد الخام، واستخدام سجادة الصلاة، والتأنق فى صناعتها.

وبرع الفنان المسلم فى إيران وتركيا بالذات فى صناعة السجاد، وبدأت صناعته فى العصر السلجوقى، وازدهر فن زخرفته فى العصر الصفوى واستخدم

---

(١) زكى حسن: الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ٢١١ ـ ٢١٥.
(٢) بدر الدين الصينى: العرب والصين ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.

فى صناعة السجاد والصوف ويليه الحرير والكتان والقطن وقد يدخل فى صناعته خيوط الذهب والفضة. ومن نماذج السجاد الإيرانى صُنع من الحرير ومُحلى بخيوط من الفضة، وتشتمل مساحتها على عُقد يمثل محرابا، ويزخرفها رسوم نباتية وكتابات بالخط الكوفى المربع والمثلث عبارة عن آيات من القرآن الكريم، ويرجع تعليق هذه السجادة بدلا من وضعها على الأرض للصلاة، نظرا لنقش آيات قرآنية عليها(١).

وتظهر على السجادة صور لبعض النباتات والحيوانات الخرافية، وقد تدخل الصور الآدمية والحيوانية على أرضية من الزهور والنباتات، وتوجد أوراق نخيل وسحب وزهور وكتابات فارسية، ويغلب على سجادة الصلاة استخدام اللون الأحمر فى ساحة المحراب، فى حين ينعدم اللون الأصفر، وعليها آيات قرآنية منسوجة بخيوط الديباج والزخارف النباتية موضوعة بشكل معين على هيئة المحراب.

وتظهر على السجاد المصرى الزخارف الهندسية التى تشبه الفسيفساء الرخَامية، وتظهر على أركانه وفى وسطه أشكال هندسية رائعة وأشكال نباتية، ويغلب استخدام اللون الأحمر مع اللون الأخضر الناصع وقليل من اللون الأزرق، أما صوف السجادة من اللون اللامع المخلوط بالحرير(٢).

وسجادة الأرابيسك يُرسم عليها فروع نباتية وعلى بعضه وحدة زخرفية، تشبه الزهريات، ولا يتوسطها شىء وتظهر هذه الرسوم وتتقابل حول محورها الأصلى.

وبعض السجاد، زخرفته من الأشجار وبعض النباتات والطيور والحيوانات تنتقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى شجرة، ويُرسم على هذا السجاد أحواض ماء، وازدهرت صناعة السجاد والبسط فى إيران وتركستان، وفى المغرب فرش من الصوف تسمى بالزرابى.

صناعة الفخار والخزف

يظهر أثر الصين فى صناعة الفخار والخزف بعد الكشوف الأثرية فى مدينة سامرا البائدة، وعُثر فيها على خزف مختلف الأنواع، وفخار أبيض، ضارب إلى

---

(١) حسن الباشا: دراسات فى الحضارات الإسلامية ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) المصدر السابق.

الصفرة، وصناعات زجاجية مزخرفة بالنقوش وزخارف متنوعة، ومن الصناعات الخزفية التى عرفها المسلمون الأباريق ذات الفم الصغير ومقبض عليه نقوش.

وظهر أثر الصين فى الصناعات الزجاجية والخزفية فى دولة الإسلام فى الألوان والأشكال والزخرفة والنقوش، وظهرت صور لسمكة وطيور ونباتات. وظهرت أطباق وخزف عليها نقوش وزخارف لنباتات وزهور وطيور وإنسان وعليها زخارف بيضاء وزرقاء[1] أنتج صناع الزجاج فى دولة الإسلام كالأوانى الزجاجية الكئوس والقوارير والأكواب وصنج العملة والحلى والنوافذ وفصوص الفسيفساء، والمصابيح المسماة بالمشكاة التى تشبه الزهريات، وتزخرف بالمينا الحمراء والخضراء والبيضاء[2].

والبلُّور الصخرى، يضع بواسطة القطع، ويزخرف بالحفر، وبرع المسلمون فى صناعة التحف البلُّورية ومن أجملها أبريق تتألف زخارفه من شجرة محورة يتفرع منها على الجانبين أشكال متماثلة من مراوح نخيلية، كما يحف بها من كل جانب رسم ببغاء، وفوق الرسم كتابه بالخط الكوفى يتضمن دعاء، والإبريق يرجح أنه صناعة مصرية، وصنعوا من الزجاج الأبواب والكئوس والأبواق غاية فى الدقة، ملون ومنقوش، وأتقنوا صناعة الخزف ذى البريق المعدنى، ومربعات القاشانى عليها رسوم ونقوش.

وازدهرت صناعة الزجاج فى سورية، بسبب وجود الخامات الضرورية لصناعة الزجاج، حتى أصبح يضرب المثل بالزجاج السورى لرقته وصفائه، واتخذ صناع الزجاج طرازا خاصا بهم فى زخرفة الزجاج وتفوقت سوريا فى صناعة الزجاج المطلى بالميناء[3]، وصنعوا البلُّور (الكريستال) الصافى الأبيض الملون، وصنعوا منه الأكواب والأباريق.

وحافظت سورية على شهرتها فى صناعة الخزف فى العهد الأموى، وقلد صناعها الخزف اليونانى الأسود ذا البريق المعدنى، ثم حل محله نوع من الخزف

---

(١) بدر الدين الصينى: ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦.
(٢) دراسات فى الحضارة الإسلامية ١٨٨ ، ١٨٩.
(٣) الثعالبى: لطائف المعارف ص ١٥٧.

الأحمر ذى بريق معدنى أيضا، وازدهرت فى سورية صناعة الزهريات، وأصبحت من مستلزمات البيوت، كذلك ازدهرت صناعة الزجاج فى الفسطاط، وتنوعت الأطباق والأباريق ومنافذ البيوت وغيرها، وعليها زخارف جميلة، وبلغ من كثرة هذه الصناعة أن البقالين كانوا يقدمون مبيعاتهم للناس فى أطباق من الزجاج.

وازدهرت صناعة الجلود فى الدولة الإسلامية، وتجلى ذلك فى تجليد المصاحف تجليدا فاخرا، وتجليد المخطوطات، وقد حفظ ذلك المخطوطات من التلف.

ومن الصناعات الجلدية السروج وأدوات ركوب الخيل والدفاع فى الحروب، وكان للولاة وكبار رجال الدولة خزائن للسروج، وتضمنت أسواق المدن الإسلامية، أسواق خاصة لبيع اللجم، وزُخرفت النعال بالذهب، ورُصعت بالدر والجوهر، ومطرزة بالخيوط الملونة(١).

الخشب والعاج

تحتاج صناعة الخشب إلى إعداد حرفى وهندسى، ويقوم بهذا العمل العديد من الحرفيين فى تخصصات النجارة، والصناعات الخشبية مرتبطة بالعمائر والأسقف والأبواب والمشربيات والأفاريز وطبالى الأعمدة والوسائد والتوابيت والأثاث كالكراسى والمناضد وصناديق وشكمجيات لحفظ الحلى والجواهر وكذلك المنابر ودكك المبلغ.

ومن أروع الصناعات الخشبية منبر مسجد المؤيد، وهو من الخشب المطعم بالسن والزرنشان، وبعضه مزخرف بالتذهيب، ويتألف من حشوات مختلفة من الأشكال تؤلف أطباق نجمية تتنوع أسماؤها.

ويرتبط بصناعة الخشب أو صناعة العاج، الذى استخدم فى كثير من الأحيان فى تطعيم الخشب، وعُنى فى العالم الإسلامى بصناعة المشغولات العاجية الكاملة وانتشرت المصنوعات العاجية فى بلاد العالم الإسلامى، ومن آثار الإسلام

---

(١) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٩٠.



صفحة من مخطوط عثر عليه في سوريا

تحف عاجية مثل قطع الشطرنج والدمى والعلب وأدوات الصيد.[1] وفى غرناطة عثر على لوحات ملونة تسمى بلوحات الملوك العرب فى القرن الرابع عشر الميلادى، بها صور أشخاص ومناظر طبيعية.

ومن التحف العاجية، علب لحفظ الحلى والجواهر، بعضها أسطوانى الشكل، ذات غطاء مقبب، وزخارفها محفورة حفرا بارزا وعلى هيئة أشكال نباتية وطيور وحيوانات، تمتزج معا فى وحدة زخرفية وحول أسفل غطائها كتابة بالخط الكوفى المزخرفة هاماته بما يشبه المثلثات. وتطور النحت عند المسلمين فى صور زخارف بارزة على الخشب والعاج وتماثيل صغيرة لحيوانات من العاج والمعدن، وخصوصا فى عصور الفاطميين والمماليك، وفى الأندلس.

وبعض أبواق الصيد العاجية على هيئة قرن قليل التقوس ويكسو سطحه زخارف محفورة حفرا بارزا على شكل عروق نباتية محورة تؤلف مناطق شبه دائرية بها رسوم حيوانات وطيور وكائنات خرافية[2]. ولعل خير ما أخرجه الترك تحف الخزف والقاشانى فى القرنين ١٦ ، ١٧ وامتازت بألوانها الجميلة، وما فيها من رسوم النباتات والزهور.

وأهم ما يميز الفن الإسلامى، الزخرفة، والفنان المسلم يبدع فى اختيار أشكال الآنية والتحف التى تستخدم فى الحياة اليومية، فيتخذ المبخرة أو الأبريق أو غطاء الإناء على شكل حيوان أو طائر، وحرص الفنان المسلم على التنسيق بين الألوان.

تعددت الصناعات المعدنية، واستخدمت النقود الذهبية والفضية والفلوس النحاسية عليها نقوش تتضمن عبارات دينية أو اسم الخليفة والأمير وسنة ضرب العملة، وصنعت من المعادن الأوانى وأنواعها وكراسى العشاء والمباخر والثريات والمقلمانات والشمعدانات وأغشية الأبواب والصناديق، وعُرف صناعها بالصفاريين، نسبة إلى النحاس الأصفر، الذى يصنع منه عادة الأوانى والقدور، وقد يقال لهم النحاسون. وكان بالقاهرة سوق النحاسين وكذلك فى المدن الإسلامية، وكان يعقوب بن الليث الصفار، صفارا أو صانع نحاس.

---

(١) حسن الباشا: دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٨٥.
(٢) المصدر السابق ١٨٦.

تعددت المصنوعات النحاسية والبرونزية، منها أباريق وأطسات بديعة الصنع وكذلك ثريات من النحاس، وتطعم الأوانى النحاسية بالذهب والفضة.

ومن الصناعات المعدنية، صناعة الحلي من الذهب والفضة، وتتمثل فى العقود والأساور والأقراط والمكاحل وقماقم العطور والمرايا وتحفظ الحلى عادة - كما قلنا - فى شكمجيات من الخشب أو فى علب من العاج[1].

وصنع المسلمون كذلك الإسطرلاب، وفى متحف لندن كرة من النحاس عليها رسم الأرض والماء مؤرخة سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م.

ولعل خير ما أخرجه الترك، تحف القاشانى والخزف التى كانت تصنع فى آسيا الصغرى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وامتازت بألوانها الجميلة، وما بها من رسوم الزهور والنباتات.

انصرف الفنان المسلم إلى إتقان أنواع من الزخرفة بعيدا عن تجسيم الطبيعة الحية أو تصويرها، فأبدعوا فى الرسوم الهندسية، واتخذوا من العناصر النباتية، رسوما جردوها من أصولها الطبيعية، وأصبح لها خصائص مميزة عُرفت بفن الأرابيسك، أى الزخارف العربية.

وتحرج الفنانون المسلمون من تصوير الكائنات الحية، واكتفوا بالرموز إلى الطبيعة دون تقليدها تماما تمشيا مع آراء بعض الفقهاء فى تحريم التصوير؛ لذلك لم يوفقوا فى رسم الجسم الإنسانى أو الحيوانى وفى توزيع الضوء والظل، وعوضا عن ذلك أفرطوا فى استعمال الألوان وتوزيعها على الصور، بحيث يكسبها بريقا لامعا. وغلبت على الفن الإسلامى الزخرفة المسطحة ذات البروز[2].

وأصبح تبعا لذلك تفوق المسلمين فى الزخرفة، وتطور فن النحت فى صور زخارف بارزة على الخشب والعاج وتماثيل صغيرة لحيوانات من العاج والمعدن.

وتطور فن الرسم على المصاحف والكتب الأدبية مثل مقامات الحريرى وكتاب كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة ورباعيات الخيام والشاهنامة حتى تكون جذابة

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢.

للقراء. وبرز فن التصوير فى أصفهان وتبريز وهراة، وتطور فن التصوير عند المغول. وعُثر على مخطوط عليه صورة إبليس وبعض الكفار مثل أبى جهل، ورسوم ترمز إلى الرسول دون صوره ومعه بعض الصحابة الأجلاء.

وتفنن الخطاطون المسلمون فى كتابة المصاحف بالخط الجميل. وفى تزويق غلافها بخط بارز بماء الذهب، كما كتبوا المخطوطات بخطوط جميلة، وبرسوم جذابة، وزينوا بعض صفحات المخطوطات بالرسوم النباتية.

التصوير فى الإسلام

اكتشف الأثريون استراحة فى الصحراء فيها حمام، بناها الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٢م، وسقف هذا القصر والأجزاء العليا من جدرانه، تزدان بالكثير من الأشكال الزخرفية الرمزية، والمناظر التى تمثل الحياة اليومية، وصور بعض الحيوانات والنباتات وهى خليط من التعبيرات اليونانية والهندية والإيرانية(١).

وازداد وضوح التأثير الإيرانى فى العصرالعباسى، وعثر الأثريون فى سامرا على آثار تنطق بروعة الفن الإيرانى والإسلامى عموما ووُجد بجناح الحريم مناظر تضم راقصات وموسيقيين وحيوانات وطيور مرسومة فى داخل صور نباتية أو فى دوائر.

كذلك تضمنت أطلال مدينة سامرا من القصور البائدة ألواحا خشبية عليها رسوم لنباتات ملونة، الأبيض والأزرق والأحمر والأصفر وتحدها خطوط باللون الأسود(٢).

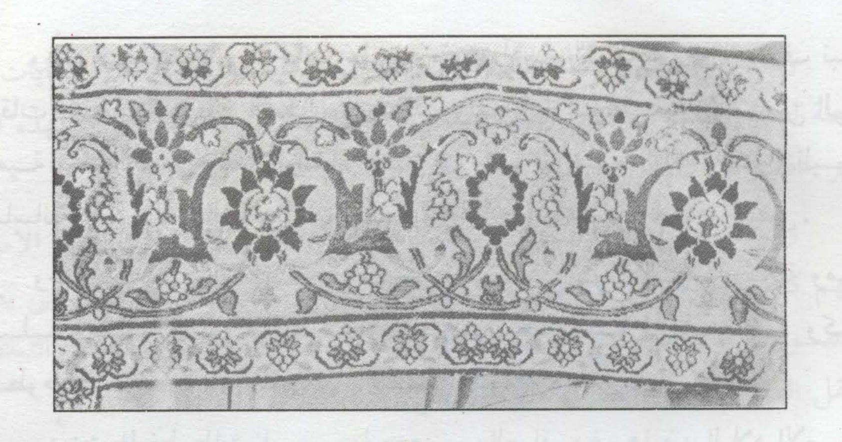
وعثر الأثريون على نماذج فنية رائعة، حُفظت فى متحف إيران، منها ما هو مرسوم بلون مائى يمده خط أسود، عبارة عن صياد يرتدى ملابس قيمة، وفى وسطه حزام وعلى رأسه خوزة، ومعه سيفان ودرع مستدير، وربط الصياد فى سرجه غنيمته وهى أرنب برى وواضح فى الصورة منظر الفرس وهو يعدو وملابس الفارس.

---

(١) ديماند: الفنون الإسلامية ص ٣٧.
(٢) المصدر السابق ص ٣٨.



اجتماع الملك والغربان - تصوير من كتاب كليلة ودمنة



سجادة صلاة بها زخارف نباتية



وعُثر كذلك على لوحات عليها رسوم آدمية وشيطانية، وزخارف نباتية، وطاقات جصية مزدانة بأشكال الزهريات والمراوح النخيلية، وتتضمن الرسوم الآدمية رسوم صور رجال ونساء ويبدو فى هذه الرسوم التأثر بالفنون اليونانية والساسانية(١). والرسوم بألوان مختلفة أزرق وأحمر وأصفر وأسود وأبيض.

وعُثر فى مصر الفاطمية على لوحات تتضمن صورا حيوانية ونباتية ومراوح نخيلية وصور طيور وأشخاص يحملون كئوسا فى أيديهم، وكانت المخطوطات ـ كما يروى المقريزى ـ تتضمن صورا رائعة.

وزُينت المخطوطات فى سوريا ومصر والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية بصور رائعة، وحُلى الغلاف بماء الذهب، وخصوصا المصاحف، وتضمنت الصور على المخطوطات ما يناسب موضوع الكتاب، ففى الكتب الطبية تظهر صورة طبيب يقدم الدواء لمريض أو جراح يقوم بالجراحات، فضلا عن صور جميلة مستمدة من الطبيعة مثل رسم شجرة أو شجرتين بأسلوب زخرفى وبألوان زاهية براقة: أصفر وأحمر وأزرق وذهبى وأرجوانى، وتتضمن مقامات الحريرى صورا آدمية لأفراد المقامة، مثل العرب فى المسجد أو الحقل أو الصحراء أو الخان أو المكتبة، وبعض الصور توضح مظاهر الاحتفال بالعيدين. وعُثر على صور بها تجمع لأشخاص. وللخيول والملابس واضحة فى هذه الصور. وفى مخطوط «كليلة ودمنة» فى حوالى سنة ١٢٣٠، اتبع الفنان المسلم الأسلوب الساسانى فى صور الحيوانات، وهى تعبر عن الطبيعة بصدق، ورسوم الحيوانات والنباتات والأشجار، ومخطوط كليلة ودمنة يمثل مجموعة زخرفية رائعة.

وفى مدينة الرى وقاشان فى العصر السلجوقى، عُثر على نقوش حائطية، عبارة عن صور آدمية، وفى قطع من الخزف عليها أشكال آدمية مفردة، وموضوعات أسطورية ومناظر البلاط، وتشكل هذه الصور الآدمية تطورا فى رسم الآدميين، إذ إنها أكثر وضوحا من الصور السابقة، وتؤكد أن الفنان المسلم فى العصر السلجوقى لم يعد يجد حرجا فى رسم الأشكال والصور الآدمية، وعُثر على صورة السلطان طغرل الثالث كاملة وواضحة(٢).

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ ـ ٤٥.

وكان الرودكى ـ الشاعرالفارسى ـ قد عـمل نسخة نظمية من حكايات كليلة ودمنة لهذا الأميـر، فكلف بعض الفنانين الصينيين بتزيينها بالصـور ولهذه الصور تأثير عظيم فى التصوير الإسلامى.(١)

والواقع أن التأثير الصينى فى التصوير كان له تأثير واضح فى الفن الإسلامى فإنهم كانوا يحبون تزيين كتبهم الأدبية بالتصوير، وكان المسعودى والثعالبى يعجبان بالتصـوير الصينى، وبرع الصينيـون فى التصوير بالألـوان والأسلوب والتخطيط، وينقل الفنان الصينى الصورة طبق الأصل.

وللروم كذلك مـقدرة على التـصوير، صـورة منقوشة على الحـيطان وعلى الكواغـد، وأدت حملـة المغول بالصـين وسـيطرتهم على إيران وبغـداد إلى نقل التصـوير الصينـى إلى البلاد الإسـلامية، وتزينـت الصور بمناظر الطبـيعـة وصور الحيوان. وعُثر فى كتاب «منافع الحيوان» لوحة من نسور ومناظر طبيعية مثل الغمام والنباتـات والأزهار، وفى كتاب «جـامع التواريخ» لرشـيد الدين ونجـد صورا من الفنون الصينية والإيرانية والمغـولية من خواص الأساليب والألوان والمناظر، وصوراً للأشجـار والطيور والأزهار والحيـوانات والثمـار والإنسان فى مخـتلف الأوضاع والأشكال على حـالها الطبيـعى، فتظهـر ناطقة بالقـوة نابضة بالحيـاة، وتجلى أثر الصين واضحا فى المخطوطات وفى الغلاف الجلدى(٢).

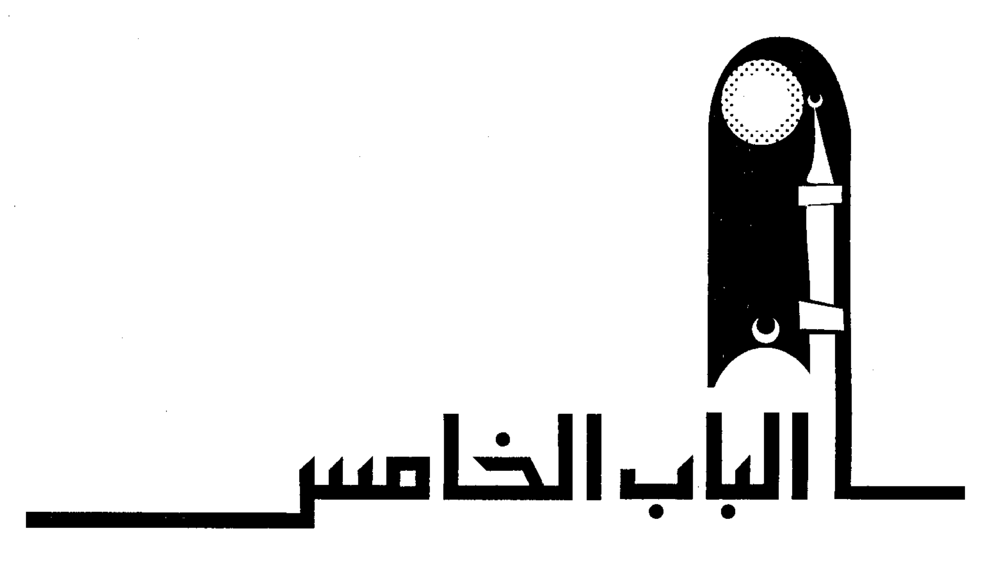
---

(١) بدر الدين الصينى ص ٢٦٩.

(٢) بدر الدين الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧٥.



سجادة صلاة كلها زخارف تركية
لرسوم نباتية



١ - أزمة الفكر الإسلامي.

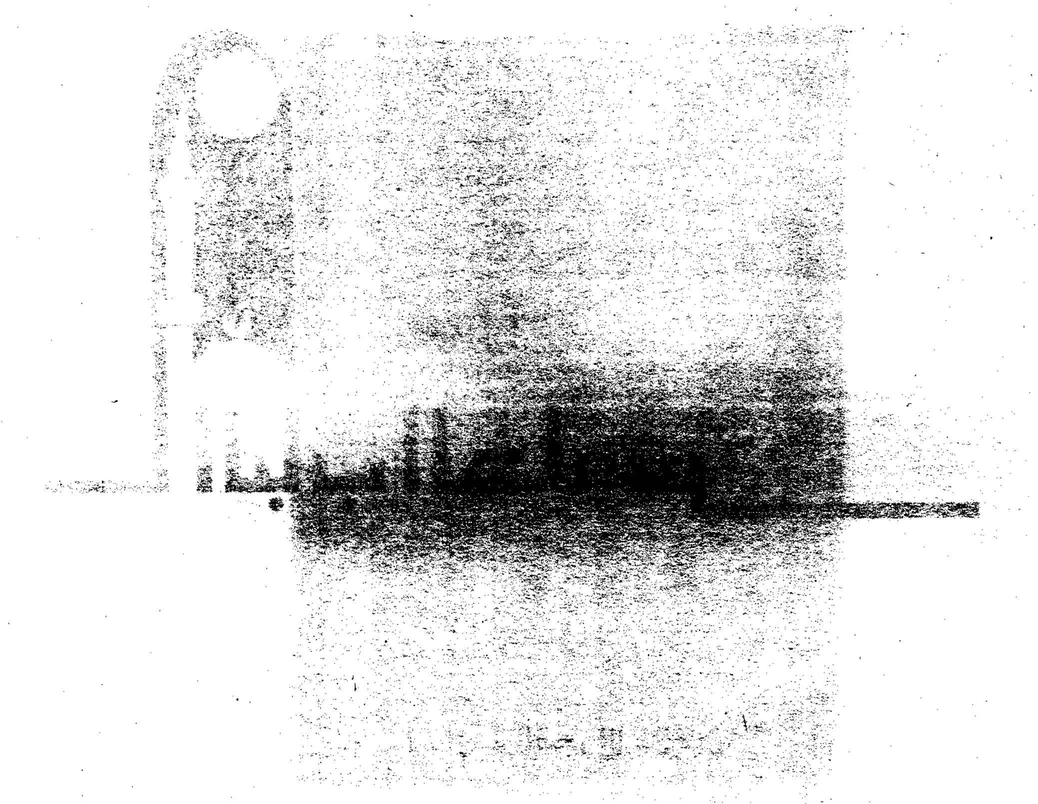
٢ - ظهور الحركات المضادة للإسلام.

٣ - اليقظة الإسلامية.

٤ - الثورة الإيرانية.

٥ - الأقليات الإسلامية.

٦ - الاستشراق والمستشرقون.



بدأ الإسلام قويا، وترجمت كل مبادئه إلى علوم، ساهم العرب وغير العرب فى دراستها وشرحها، وألفوا فى ذلك الكتب القيمة، وعُقدت الندوات والمناظرات العلمية العديدة حول علوم الإسلام وأسسه وقواعده.

ولكن الشعوب التى دخلت الإسلام حديثا ـ وخصوصا الفرس ـ كانوا لا يزالون متأثرين بعقائدهم الوثنية القديمة، وحاولوا إدخالها على الإسلام.

ومن معتقداتهم القديمة تناسخ الأرواح، وهو أن الروح تنتقل بعد وفاة الإنسان من بدن إلى بدن، فزعمت طائفة الراوندية: أن أحق الناس بالإمامة بعد الرسول، عمه العباس بن عبد المطلب، وعارضوا بيعة أبى بكر وعمر بن الخطاب، وأجازوا إمامة على بن أبى طالب، وزعموا أن روح آدم انتقلت إلى أحد من خيارهم، وأن ربهم الذى يطعمهم هو الخليفة المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) وأحاطوا بقصر المنصور فى الهاشمية قائلين: هذا قصر ربنا، يا ناصر يا منصور أنت أنت. ولكن المنصور قاتلهم، وأحبط محاولتهم الإلحادية(١).

وحاول أستاذ سيس سنة ١٥٠هـ إعادة المزدكية بدلا من الإسلام، وهى عقيدة تبيح الفوضى، وترفض الملكية الخاصة فى النساء والمتاع، ولكن المنصور قضى على هذه الطائفة(٢).

وادعى المقنع الخراسانى الألوهية فى خراسان سنة ١٥٠هـ، وانضم إليه أهل خراسان وبخارى وسمرقند وبلاد الترك، ومن أسباب نجاح دعوته الباطلة أن المسلمين فى تلك البلاد كانوا حديثى عهد بالإسلام، ولم يتمكن منهم الدين الجديد، ورأوا فى مبادئ مزدك ـ التى نادى بها المقنع ـ فرصة للسلب والنهب والخلاص من متاعبهم الاقتصادية، والقيود الاجتماعية التى تحدد سبل معيشتهم. وفشلت هذه الثورة، وقُتل زعيمها بعد جهود مضنية من الخليفة العباسى المهدى(٣) (١٥٨ ـ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥م).

---

(١) عصام الفقى: الدولة العباسية ص ٣٩.
(٢) المصدر السابق ص ٤٠.
(٣) المصدر السابق ص ٤١.

تأثر الفرس رغم إسلامهم بدياناتهم القديمة، وهى الزرادشتية وتقول بوجود إلّهين للنور والظلمة، وتتجاذب القوتان الإنسان وينتصر إلّه النور فى النهاية على إلّه الظلمة، أى ينتصر الخير على الشر. ولكن هذه الديانة تدعو الإنسان إلى العمل والإنتاج، وترفض الرهبنة والزهد.

والديانة المانوية تقول بوجود إلّهين للنور والظلمة، ولكنها تدعو إلى الرهبنة، وتتعجل فناء العالم، لذلك تدعو هذه الديانة إلى عدم الزواج والنسل، وتدعو إلى التقاعس عن العمل والإنتاج والتعجيل بفناء العالم. والمزدكية تدعو إلى إلغاء الملكية الخاصة، وترفض الزواج.

ومن هذه المعتقدات نشأ بين الفرس الزندقة، وهى كلمة تطلق على أصحاب مانى، ثم استعملت للتعبير عن الإلحاد، ونقل الفرس آراء الزنادقة إلى العرب المسلمين فى العصر العباسى الأول وهى تدعوهم إلى عدم التقيد بتعاليم الإسلام، ودعوة الناس إلى الفجور والاستهتار، وأطلقوا أقوالا فيها سخرية من الإسلام وتعاليمه. وبعبارة أوضح تدعو الزندقة المسلمين إلى شرب الخمر وترك الصلاة والصيام والحج، والاتصال بالنساء بطرق غير شرعية ولعب الميسر، ومباشرة كل المحرمات والرذائل التى نهى عنها الإسلام، ومن الطبيعى أن تلقى هذه الأفكار الواردة من الفرس التأييد من الشباب المسلم الذى يلذ له الانحراف عن الدين.

وظهر شعراء يتغنون بهذه الرذائل مثل بشار بن برد وأبو نواس، وانتشرت الزندقة بين الشباب بشكل أصبح يُخشى منه على الإسلام.

واجه الخلفاء العباسيون حركة الزندقة التى أفسدت الشباب المسلم، وشككت المسلمين فى عقيدتهم ـ وبكل قوة وحزم، وأسس الخليفة المهدى ديوان الزندقة لملاحقة الزنادقة، والتنكيل بهم، وأمر بعقد المناظرات لدحض معتقداتهم، وأمر المهدى بتصنيف الكتب للرد على الزنادقة.

ويرجع الفضل إلى خلفاء العصر العباسى الأول، المهدى والهادى والرشيد والمعتصم فى ملاحقة الزنادقة، والقضاء عليهم، كما أن علماء الكلام مثل واصل

ابن عطاء وابن الهذيل نجحوا فى دحض آراء الزنادقة. وفى النهاية فشل الزنادقة فى تحقيق أهدافهم(١).

وادعى بابك الخزمى الألوهية، وكثر أنصاره، وادعى أن روح الله حلت فى الرسل على التوالى، ثم حلت فى على بن أبى طالب والأئمة العلويين إلى أن حلت فيه. والتف حوله الكثير من الأنصار، وازداد خطره حتى قضى عليه وعلى حركته الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢م).

وظهرت آراء وأفكار أخرى للنيل من الإسلام، مثل الشيعة الغلاة الذين قالوا بألوهية على بن أبى طالب وألوهية الحاكم بأمر الله ـ وهم الدروز ـ وقام القرامطة بقتل حجاج بيت الله الحرام وسلب أمتعتهم، وسرقوا الحجر الأسود من الكعبة، وقطعوا الطريق إلى مكة، حتى توقف الحج بضع سنين، أى أبطلوا بجهلهم وكفرهم ركنا من أركان الإسلام. كما أن الإسماعيلية قالوا بوجود الإمام المعصوم، وقالوا بالظاهر والباطن، وحرفوا العقيدة الإسلامية وأعطوا للإمام الحق فى تحريف آيات كتاب الله.

وتحول الخوارج من جماعة معارضة للنظام الوراثى فى الحكم أى تولية خلفاء بنى أمية بشكل وراثى، وطالبوا بعودة الشورى واختيار الخليفة ممن يقع عليه اختيار المسلمين، تحولوا إلى جماعات تخريبية، تقول بأن السلطان وعسكر السلطان وكل ما يتعلق بالسلطان من مال وممتلكات حلال لهم، وقاموا بأعمال تخريبية من القتل وسفك الدماء ونهب الأموال وتخريب القرى والمدن.

واتخذ شيخ الجبل الحسن الصباح قلعة ألموت فى فارس وكوّن مجموعات فدائية من الشباب لاغتيال الخلفاء والأمراء والوزراء والسلب والنهب وترويع الآمنين.

وهذه الجماعات التخريبية الملحدة الخارجة على الإسلام ـ والتى شوهته، وصورته فى أسوأ صورة ـ تحولت من مجموعات من الأقليات الجاهلة بحقيقة الدين، والمنقادة إلى ملاحدة منحرفين عن الدين، والباحثين عن زعامة ومكانة مرموقة على حساب الإسلام، فشلت فى النهاية أو تجمدت، لأن أهل السنة

(١) عصام الفقى: المصدر السابق ص ٤٥.

والجماعة وهم المسلمون الحقيقيون الذين يلتزمون بقواعد الإسلام من القرآن والسنة واجتهاد الفقهاء، تصدوا لهؤلاء الجهلاء الكفرة، واستطاعوا حماية الدين وأهله والمحافظة عليه من كل تحريف. وللإنصاف يجب أن نقول بأن العرب بدأوا واستمروا حماة للإسلام، وظلوا مدافعين عنه من كل تحريف أو إلحاد، وهذه الحركات الإلحادية كانت تأتى دائما من غير العرب، وخصوصا «بعض الجماعات الفارسية الذين لا يفهمون الإسلام تماما. ولم ينفصلوا عن معتقداتهم البائدة».

واصل الإسلام مسيرته رغم كل هذه التحديات، ونشطت طائفة الفقهاء فى كل الأقطار الإسلامية يدافعون عن الإسلام، ويتصدون لأعدائه، حتى واجه الإسلام ودولته الكبيرة محنا أثرت فى الفكر الإسلامى، وأضعفت من شأن المسلمين.

وأول هذه المحن هى الحروب الصليبية، شنها الصليبيون على بلاد الإسلام بهدف تأمين طريق الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس والأراضى المقدسة المحيطة به، والتى كان يمتلكها المسلمون.

دعا البابا أربان فى مؤتمر كليرمونت فى جنوب فرنسا إلى إنقاذ الأراضى المقدسة من ويلات المسلمين، فأقبل الأوربيون على الدعوة الصليبية بحماس شديد. وفى الحملة الصليبية الأولى كوَّن الصليبيون أربع إمارات - الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس، وأحدث الصليبيون فى المسجد الأقصى مذبحة مروعة قتلوا فيها الكثير من أئمة المسلمين وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف، واستولوا على التحف والنفائس والأموال التى وجدوها فى القدس سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م. ولم يستطع المسلمون إنقاذ إخوانهم فى الدين، بل تركوهم لسيوف الصليبيين واستمرت الحملات الصليبية على بلاد الإسلام، وانشغل المسلمون فى محاربتهم، واسترداد أراضيهم، وقام صلاح الدين الأيوبى بدور كبير فى هذا المجال، واسترد بيت المقدس، وبفضل جهود المسلمين تضاءلت الممتلكات الصليبية فى أرض الإسلام، وفى سنة ٦٧٥هـ / ١٢٨٥م حاصر السلطان قلاوون اللاذقية واستولى عليها، كما استرد طرابلس، وفى سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م هاجم السلطان خليل بن قلاوون عكا واستردها من الصليبيين

واسترد حيفا وصور وبيروت، وكان عام ٦٩٢هـ / ١٢٩١م نهاية أمر الصليبيين فى الشرق، إذ تم طردهم نهائيا من آخر معاقلهم فى بلاد الشام، وبذلك تخلص المسلمون من الخطر الصليبى الذى استمر فى الشرق قرابة قرنين من الزمان(١).

وتعرض المسلمون لأخطار أخرى أشد هولا وأكثر قسوة وهوالغزو المغولى لبلاد الإسلام.

قويت إمبراطورية المغول فى عهد جنكيزخان، ونشب القتال بين المغول والدولة الخوارزمية المجاورة فى بلاد ما وراء النهر وإيران وأذربيجان وجورجيا وخراسان وخوارزم سنة ٦١٧هـ، واستولى المغول على أرمينيه وأفغانستان وبذل السلطان الخوارزمى محاولات مستميتة لمقاومة الزحف المغولى دون جدوى، وظل جلال الدين منكبرتى يقاوم المغول حتى مقتله سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م.

اقترنت غزوات المغول بالتخريب والتدمير، فدمروا المدن والقرى، وقتلوا الألوف من الناس، وألحقوا الخراب والدمار فى كل بلد ملكوه أو اجتازوه، ثم زحف المغول إلى العراق، واستولوا على بغداد، ودمروها تدميرا، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم، وبذلك زالت الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٤م، وانتقلوا إلى بلاد الشام، ودمروا المدن الشامية وخربوها، ولكن زحفهم توقف عند عين جالوت حيث هزمهم المماليك فى مصر فى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

وتوالت المحن والكوارث على المسلمين، فدخل النصارى الأسبان مع المسلمين فى الأندلس فى حروب متعددة، أسموها حرب الاسترداد انتهت بطرد المسلمين من الأندلس، وسقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس فى أيدى النصارى. وبذلك زال الوجود الإسلامى فى الأندلس الذى استمر ثمانية قرون، بعد أن أعطى المسلمون للأندلس فكرا وعلما وحضارة وذلك سنة ١٤٩٢م. ولجأ المسلمون الفارون من اضطهاد النصارى لهم إلى المغرب الذى تدهور أيضا بسبب تدهور الأندلس.

وهذه المحن التى لحقت بالإسلام سواء الحروب الصليبية أو حروب المغول وسقوط الأندلس، أضعفت المسلمين، وتدهورت الأحوال الاقتصادية

---

(١) عصام الدين الفقى: معالم التاريخ الإسلامى ص ٣٤٠.

والاجتماعية، فهجر الناس أوطانهم إلى بلاد أكثر أمنا، وهذا التدهور السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى حل بالمسلمين أوقف الحركة الفكرية وجمدها، وبذلك توقف الإبداع، والابتكار واقتصرت جهود المسلمين على تلخيص كتب العلماء فى عصور الازدهار أو نقلها فى كتب نسبوها إلى أنفسهم.

هذا التدهور الذى حل بالمسلمين، وأضعفهم وجمَّد تفكيرهم وأشاع بينهم الجهل والخرافات، أنعشه وأيقظه قيام الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى، وأقامها عثمان بن أرطغرل (١٢٨٠ ـ ١٣٣٥م) ونجحت الدولة العثمانية فى السيطرة على آسيا الصغرى ومنطقة البلقان واليونان والمجر وألبانيا.

وولى السلطان محمد الفاتح الذى لُقب بالفاتح، واستولى على القسطنطينية العاصمة البيزنطية سنة ١٤٥٣م. وبذلك سقطت قلعة المسيحية فى الشرق التى صمدت قرونا عديدة تقاوم دولة الإسلام منذ عصر هرقل وعمر بن الخطاب، وصمدت فى وجه الأمويين، وبعد أن كانت عاصمة الروم والمسيحية فى الشرق، تحولت إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية باسم الآستانة أو استانبول، أى دار الإسلام.

وضمت الدولة العثمانية، آسيا الصغرى واليونان والمجر وشرق أوربا عموما، ووصلوا إلى أبواب فيينا، واستولوا على البوسنة ورودس، وأصبحت الدولة العثمانية القوة الأولى فى مواجهة أوربا. وبذلك استعاد الإسلام مجده وقوته على أيدى هؤلاء الأتراك العثمانيين، وكانت أحوال المسلمين فى ذلك العصر فى تدهور وضعف وانهيار حتى دولة المماليك التى بدأت قوية فى مصر والشام، انهارت اقتصاديا بعد تحول طريق التجارة عن مصر والبحر الأحمر إلى الهند وتحولت التجارة العالمية عن طريق رأس الرجاء الصالح. وعم الفقر والبؤس فى مصر والشام واليمن والموانئ الواقعة على البحر الأحمر عموما.

اتخذت الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليم الأول سياسة الاتجاه شرقا حيث المسلمين فى ضعف وتفكك، وزحف السلطان سليم الأول إلى الشام ومصر، واستولى عليهما فى عامى ١٥١٦، ١٥١٧م وضمت الدولة العثمانية الحجاز واليمن والعراق بعد ذلك، وامتد نفوذ العثمانيين إلى المغرب العربى.

شملت السيطرة العثمانية معظم بلاد الإسلام، ولكن العثمانيين أحاطوا العالم الإسلامى بسياج من العزلة الشديدة فى القرن السادس عشر، فبينما كانت أوربا تزداد تقدما وتنهض علميا وفكريا، كان المسلمون يزدادون جهلا، وانتشرت الخرافات وتجمد الفكر وساءت أحوال الناس الاقتصادية والاجتماعية، وانتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق فى البوادى وعلى أطراف المدن.

وضعفت الدولة العثمانية عسكريا منذ القرن الثامن عشر، بينما دخلت أوربا فى عصر الانقلاب الصناعى، أى استخدام الطاقة والأساليب المتقدمة فى الصناعة، وبذلك زاد الإنتاج، وتقدمت صناعة الأسلحة، وبحث الأوربيون عن أسواق جديدة، ومن ثم ظهر عصر الاستعمار الأوربى وأكبر دولتين استعماريتين، إنجلترا وفرنسا، وبدأ الاستعمار بغزو فرنسا لمصر بقيادة نابليون للاستفادة من موقع مصر، وضرب مستعمرات إنجلترا الكبيرة فى الهند. وهذا حدث فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر.

أدت حملة نابليون الاستعمارية على مصر إلى إفاقة المسلمين من عزلتهم، وفتح النوافذ إلى الحضارة الأوربية، والفكر الحديث فى أوربا وقاوم المصريون حملة بونابرت على مصر، وتطلع الإنجليز إلى الاستفادة من موقع مصر واقتصادها، وتطلعوا إلى السيطرة عليها.

وحكم محمد على مصر، واعتزم إقامة دولة عصرية، لذلك أرسل البعوث إلى أوربا، وفتح النوافذ لإخراج مصر من حالة الجمود الفكرى الذى تعيش فيه والانفتاح على الحضارة الأوربية والفكر الحديث، ومن بين هؤلاء المبعوثين رفاعة الطهطاوى، واستقدم الخبراء إلى مصر فى مجالات الطب والهندسة والقانون والاقتصاد، وأعد جيشا قويا حديثا كاد أن يستولى على أملاك الدولة العثمانية فى الشرق بل ويقضى على الدولة العثمانية نهائيا لولا تدخل أوربا فى إضعافه. وعادت مصر إلى ما كانت عليه من ضعف وجمود فكرى، وانتشرت الخرافات وفهم الناس الدين فهما خاطئا، وتبركوا بالأولياء، واتخذوهم وسطاء لله، والتمسوا البركة والغفران من أضرحة الأولياء، أى أن المسلمين تحولوا إلى عبدة للأصنام، وعجز علماء الأزهر عن التصدى لهذه الجهالات؛ لأن الجمود الفكرى

قد شل تفكيرهم وأصيبوا بالانغلاق الفكرى، والجهل التام بالإسلام، وتعرضت بلاد الإسلام للاستعمار الأوربى، فاحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢م وإمارات الخليج والعراق وإيران وأفغانستان، واحتلت فرنسا الجزائر وتونس ومراكش، واستولت إيطاليا على ليبيا والصومال، وتقاسمت إنجلترا وفرنسا النفوذ والسيطرة على البلاد الأفريقية.

الدعوة الوهابية

كان من الطبيعى بعد أن عمَّ الجهل بلاد المسلمين، أن تنشأ حركات دينية لدعوة الناس إلى التمسك بالدين الصحيح، وترك الأباطيل والضلالات.

وأهم الدعوات الإصلاحية فى القرن التاسع عشر، الدعوة الوهابية وتُنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأبوه الشيخ عبد الوهاب من علماء نجد وكان الشيخ محمد يحضر دروس والده، وشُغف بالعلم والدراسة، ودرس بعمق الفقه الحديث وكتب ابن تيمية رسائله.

رحل الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى طلب العلم إلى مكة والمدينة وبغداد والبصرة، وشاهد الشيعة الغلاة، الذين يقدسون الأولياء ويزورون قبورهم وأضرحتهم للبركة والدعاء، واعتبر الشيخ أن هذه العادات إشراك بالله، ودعا إلى تنزيه الله من كل شرك، ونبذ هذه الضلالات.

تأثر الشيخ بابن تيمية وفتاويه، ودرس كتبه ورسائله وتأثر بها، واعتنق آراءه التى تدعو إلى الالتزام بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، ومقاومة البدع والخرافات الدخيلة على الإسلام، لذلك فدعوة شيخنا ابن عبد الوهاب امتداد لدعوة ابن تيميه(١).

وأسس الدعوة الوهابية تتمثل فى التوحيد، أى الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، وإقرار العبادة كلها له، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة، واجتهد الشيخ فى تعريف أهل نجد بأسلوب التوحيد وألف كتاب «التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» سنة ١٧٤٠م وانتشر هذا الكتاب بين أهل نجد، ونال تقدير الناس ولكن العلماء عارضوه؛ لأنه ينتزع مكانتهم، فى الدعاء وكتابة الأحجبة.

---

(١) عبد الرحمن عبد الرحيم: الدولة السعودية الأولى ص ٣٧ - ٣٩.

صمد الشيخ أمام أعدائه، وراسل العلماء والأمراء موضحا لهم أهداف دعوته التى يريد بها الرجوع إلى الإسلام الصحيح ونبذ الشرك والعادات التى شوهت الدين. ودعا الشيخ إلى هدم الأضرحة وشواهد القبور، وهدم بنفسه قبر زيد بن الخطاب فى الجبيلة. وأعلن الشيخ أن زيارة الأضرحة والقبور بدعة، ونادى بعدم وجود شفاعة بين العبد وربه؛ لأن ذلك يتناقض مع حقيقة التوحيد[1].

ودعا الشيخ إلى الاجتهاد فى حدود الالتزام بالقرآن والسنة وآثار السلف الصالح وأعلن الشيخ الحرب على أهل البدع، وأحل دماء مخالفيه.

وكثر أنصار الشيخ وتلاميذه، وهدم كثيرا من القباب والمساجد التى كانت قائمة على القبور، وأمر أتباعه بقطع الأشجار التى كانت ترمز إلى بعض الصالحين، قدسها سكان نجد.

وتعاليم ومبادئ الشيخ تتمشى مع تعاليم الإسلام، ولكن أهملها المسلمون وأحياها الشيخ. وتطبيق هذه الدعوة اقترن بالمغالاة كتكفير كل من يخالف الدعوة وتحليل دمه وماله، وهذه الدعوة كانت نموذجا لدعوات إصلاحية أخرى نشأت فى العالم الإسلامى[2].

اتخذ الشيخ من الدرعية مقرا له، وتحالف مع الأمير محمد بن سعود ١٧٤٥م، وكان الاتفاق بين الأمير والشيخ النواة الأولى فى إقامة الدولة السعودية الأولى، وتألق نجم آل سعود وحاولوا السيطرة على الجزيرة العربية، ومهدت الدعوة لإقامة المملكة العربية السعودية.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧.

ساءت أحوال المسلمين فى القرن التاسع عشر، حيث ضعف المسلمون، وسيطر الاستعمار على بلادهم، وازدادوا تخلفا، بينما تزداد أوربا تقدما، وشهد الفكر الإسلامى جمودا وتدهورا، وكانت الدولة العثمانية هى صاحبة الحق الشرعى فى حكم المسلمين، على الرغم من سيطرة الاستعمار الأوربى على بلاد الإسلام.

وحاول السلطان العثمانى عبد الحميد توجيه جهود المسلمين إلى الوحدة فى مواجهة الاستعمار الأوربى، وزيادة قوته ومهابته فى العالم الإسلامى، وفى مواجهة الحركات المعارضة لنظام حكمه، ورفع شعار: «يا مسلمى العالم اتحدوا».

ظهرت فكرة إحياء الوحدة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لمواجهة الاستعمار الأوربى الذى نهب ثروات المسلمين، وسلبهم حرياتهم وفى خضم ذلك ظهر مفكر إسلامى كبير هو جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) وتزعم فكرة الوحدة الإسلامية، وتقوم على دعامتين:

١ - إصلاح أحوال المسلمين ليأخذوا بأسباب المدنية الحديثة.

٢ - العمل على تحرير الشرق من سيطرة الغرب، والارتقاء بمستوى شعوبه إلى مستوى الأمم الحرة.

وواصل جمال الدين الأفغانى دعوته إلى الوحدة الإسلامية التى تمكن المسلمين من مواجهة الاستعمار الذى استغل ثرواتهم، ودعاهم أولا إلى نشر العلم بين أبنائهم، والأخذ بأساليب الحياة الحديثة، ونبذ التخلف والسعى قدما للتخلص من الاستعمار، لأنه لم يعد فى مقدور الدولة العثمانية مواجهة الاستعمار الأوربى.

وتبنى مفكرو الإسلام أفكار الشيخ الأفغانى، بل إن الشيخ محمد عبده - أبرز تلاميذه - دافع عن الجامعة الإسلامية، ونفى عنها صفة التعصب الدينى، ودافع عن السلطان عبد الحميد، ووصف دولته بأنها دولة الإسلام العظمى، وأن سلطانها رمز الإسلام والمسلمين، واعتبرت فكرة الجامعة الإسلامية رد فعل أهل الشرق ضد أفكار الغرب.

وكان من نتائج الحركة الفكرية الإسلامية - التى أحياها المفكرون المسلمون وشجعهم عليها السلطان عبد الحميد - تأسيس الجمعيات العلمية، والأندية الأدبية،

وظـهـور الـصـحـف والمجلات التى قـامت بدعاية كبيـرة ناجحة لوحدة المسلمين أمام الاسـتـعـمار الأوربى، ودعـوة المسلمين إلى التخلص مـن التخلف والجـمود الـفـكـرى.

ومحمد عـبده ـ كما قلنا ـ من أبرز تلاميذ جـمال الدين الأفغانى، وُلد فى إحدى قرى البـحيرة، ونال تعليمه فى الأزهر، ورأى مـن خلال تعلمه فى الأزهر تـخلف نـظام التعليم فيه، إذ يقدم الشيخ لطلابه نصوصا جامدة بأسلوب عقيـم، لا يفهمهـا الطلاب، ولكن يحفظونها دون فهم، فتصاب بهم العـامة، فتعظم بهم الرزية، لأنهم يزيدون الجـاهل جـهالة ويـضللون من يعـمل بالدعوة والإرشـاد، ويؤذون بدعـاويهم من يكون على شـىء من العلم، ولا ينـتـفع الناس بعلمـه[1]. والهدف من الدراسة ليس البحث أو الفهم، وإنما ترديد ما قاله الأقدمون بالنص.

اتصل الشيـخ محمـد عبده بجـمال الدين الأفـغانى الذى تجـول فى العالم الإسلامى وأقـام فى مصـر فتـرة يدعو إلى فكرة الوحـدة الإسلامـية، والتـصدى للإصلاح والتـجرد الكامل للدفاع عن الإسـلام. والدعوة إلى تحريـر المسلمين من الجهل، والتسلح بالفلسفة والفكر للرد على أعداء الإسلام.

كان جـمال الدين الأفـغانى يهدف إلى نـهضة العـالم الإسلامى وتقـويته، وتقوية الروابط بين المسلمين حتى يتخلصوا من الاستعمار الأوروبى البغيض؛ لأن الدول الغربـية تهدف إلى إذلال الدول الإسـلامـيـة، والادعاء بأن هذه الدول غـير قادرة على حكم نفسـها وتحتلها وتستغل ثرواتها، وتسـتعمل فى تحقيق سيـاستها، الحـديد والنار وتحارب كل الوسـائل التى تدعو إلـى تقدم المسلمـين؛ لذلك يجب على المسلمين تعليم أبنائهم، والاستفادة من الحضارة الغربية، وتكوين رابطة تجمع بينهم؛ لتتمكن من الاستقلال والتصدى للاستعمار.

ورفض جمال الدين الأفـغانى، التعصب بين المسلمين وغـير المسلمين السنة والشيعة، لأن التعصب يضعفهم، وظل يواصل رسالته حتى وفاته فى الآستانة سنة ١٨٩٧ بعد أن تركت تعاليمه آثارا كبيرة فى العالم الإسلامى.

تبنى الشيخ محمد عبده تعاليم أسـتاذه الأفغانى، فدعا إلى التعليم، وتحرير المرأة، وتنشئة المسلم النشأة السليمة ومحو الأمية.

شغل محـمد عبده وظيفة مـدرس فى كلية دار العلوم، وتدرج فى المناصب حتى عينه رياض باشا ـ رئيس النظار ـ مستشارا.

---

(١) مصطفى عبد الرازق: تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٢١.

واتهم محمد عبده بالاشتراك فى تدبير الثورة العرابية، والتصدى لخديوى مصر توفيق الذى جلب الاستعمار الإنجليزى إلى مصر، لذا نُفى من مصر ثلاث سنوات عاش خلالها فى سوريا ولبنان، وسافر إلى أوربا، واشترك مع أستاذه الأفغانى فى إصدار جريدة «العروة الوثقى» التى عبر فيها عن كل أفكاره، وكانت تتسرب إلى الشرق.

عاد الشيخ إلى سوريا، وكان بيته منتدى لطلاب العلم، وألف خلال إقامته كتبا قيمة، وتبنى أهل الشام آراءه وأقواله، وكان يلقى هناك المحاضرات.

عاد محمد عبده إلى مصر، وعهد إليه الخديوى بالقضاء، وتولى عضوية مجلس شورى القوانين، وشغل منصب مفتى الديار المصرية، وكان له فتاوى سبق عصره بها، مثل عدم تحريم فوائد البنوك وتدل فتاواه على الملاءمة بين روح الإسلام، ومتطلبات وواقع العصر الجديد، وشغل وظيفة التدريس بالأزهر، وكثر مريدوه، وأقبل عليه الطلاب من كل مكان للاستماع إليه.

دعا الشيخ إلى إصلاح وتطوير المناهج وطرق التدريس فى الأزهر والتعليم العام، وفى سنة ١٩٠٥م أخذ الإمام يدعو إلى إنشاء جامعة أهلية، وأقنع أحمد المنشاوى باشا بالتبرع بقطعة أرض لإنشاء هذه الجامعة التى تفتح الطريق أمام شباب مصر بالتزود بعلوم العصر.

وفى قيادته للجمعية الخيرية الإسلامية، دعا الشيخ إلى الإصلاح الاجتماعى والأخلاقى، يذكى فى النفوس روح التعاون بين الأفراد ونادى بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات، وبذلك أيقظ الشيخ محمد عبده بتعاليمه المسلمين من الجهل والجمود والتدهور، وأحيا فيهم روحا جديدة تتمثل فى الجمع بين تعاليم الإسلام، والأخذ بمميزات حضارة أوربا وأساليب التقدم فى الحياة الحديثة، وحمل على كبار العمائم الذين تمسكوا بالأساليب القديمة الجامدة.

الإلحاد والملحدون فى العالم الإسلامى

كان للاستعمار الذى تعرضت له الأقطار الإسلامية أثر سيئ ليس فقط فى إهدار كرامة الشعوب الإسلامية ونهب ثرواتها، بل فى صميم العقيدة الإسلامية، فوفد على البلاد الإسلامية أجانب واندمجوا مع المسلمين وأثروا فى عاداتهم وتقاليدهم، وأثروا فى معتقداتهم.

ومن هؤلاء الناس ـ البهائيين ـ وهى طائفة ملحدة كافرة ـ اندمجت فى الجماعات الإسلامية، وزينت لضعاف العقيدة الانتماء إليها، ووجدوا ما تتضمنه هذه العقيدة من انحراف عن الدين وسيلة للتحرر من القيود الدينية، والاندماج فى الحياة المنحلة التى تتضمنه هذه العقيدة.

مؤسس الديانة البهائية على محمد، وُلد فى شيراز، وتعلم اللغة العربية واللغة الفارسية، وكان خطاطا ماهرا، واشتغل بالتجارة، ونال من خلالها شهرة كبيرة.

ورغم انشغاله بالتجارة إلا أنه عكف على دراسة العلوم الدينية والرياضيات، وفرض على نفسه التقشف والعزلة والتفكير والتأمل، حتى اعتلّت صحته من المجاهدات التى فرضها على نفسه ورحل إلى كربلاء، ودرس على علمائها الشيعة علوم الظاهر والباطن، ثم عاد إلى العزلة والتفكير، وكانت تصدر منه أقوال غريبة، وآراء تتعارض مع قواعد الدين، وتظاهر بالزهد، فالتف حوله العامة، ووجد أنصارا كثيرين من الجهلاء وضعاف العقول، وكان يردد الآية الكريمة: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾[1] ويردد الحديث المشهور: «أنا مدينة العلم وعلى بابها» وكان يقول: أنا «الطريق الذى يوصل الإنسان إلى الله، وكما أن دخول أى بيت لا يكون إلا من الباب، فأنا ذلك الباب» لذلك سُمى بالباب[2] وسُمى أنصاره «البابية».

بدأ الباب دعوته سنة ١٨٤٤م، وكان أول المؤمنين بدعوته الملا حسين بشرونى من خراسان وسماه باب الأبواب، وأسموا يوم دخوله فى هذه الدعوة، يوم المبعث، وهذا اليوم ٢٣ مارس ١٨٤٤م يعتبره البابيون يوم عيد، ويحتفلون به.

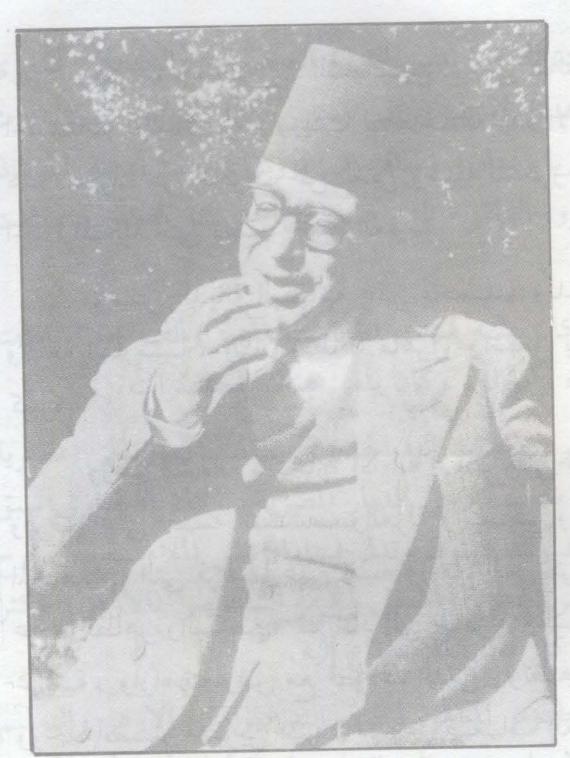
بذل الملا حسين جهودا مضنية فى سبيل نشر الدعوة البابية فسافر إلى خراسان وأصفهان وكاشان وإلى كربلاء والنجف، وسافر زملاؤه الذين أدخلوا الدعوة إلى أنحاء إيران، وأمرهم بأن يدونوا اسم كل فرد يدخل الدعوة.

أعلن الباب دعوته فى جمادى الأول سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م وأقبل عليه أنصاره مؤيدين ومبايعين، وهاجم رجال الدين والفقهاء الدعوة البابية المخالفة

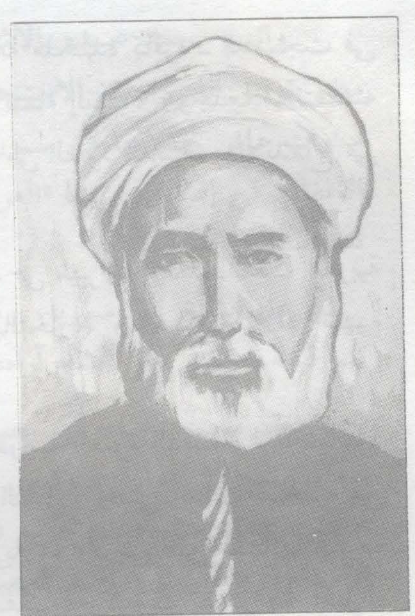
---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

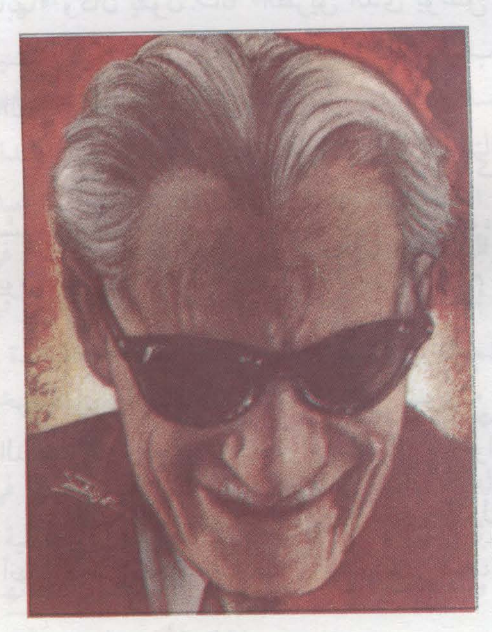
(٢) الملل والنحل جـ ٢ ص ٤٢.



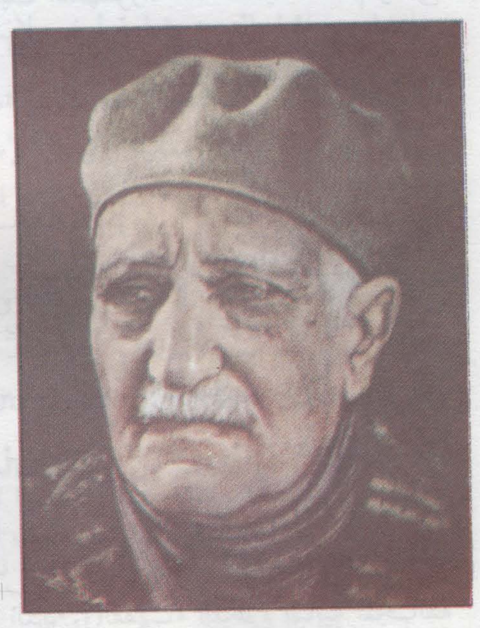
الدكتور محمد حسين هيكل



الشيخ محمد عبده

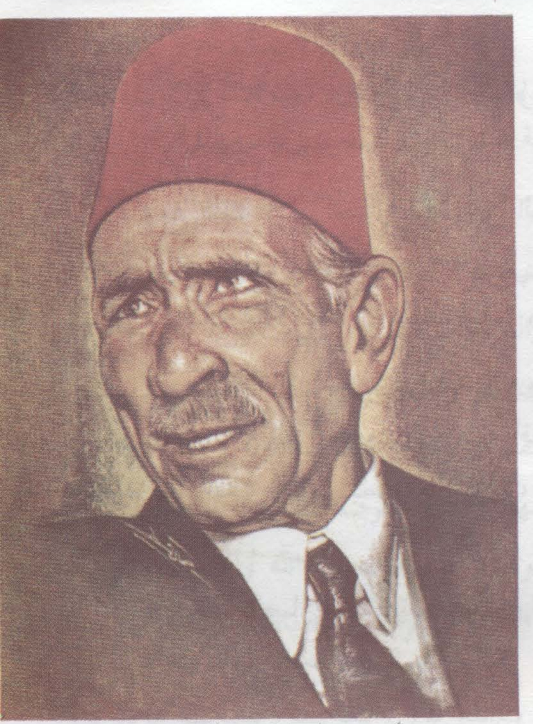


طه حسين



عباس محمود العقاد

من كبار مفكري الإسلام في العصر الحديث



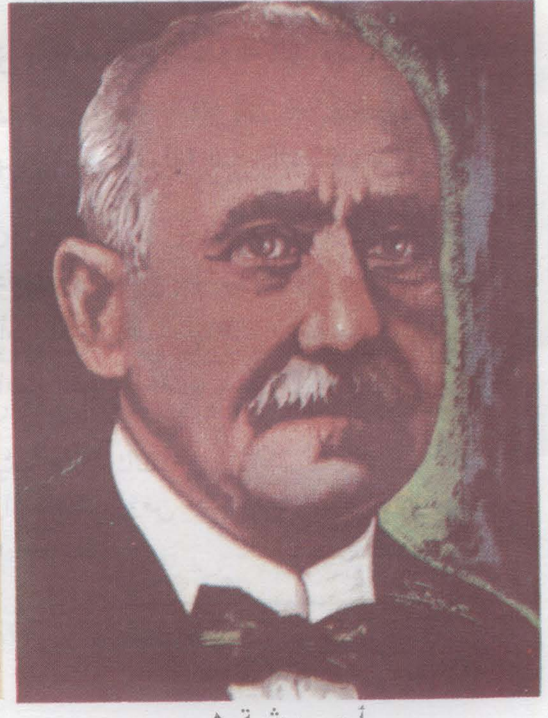
أحمد لطفى السيد
من أعلام التنوير والفكر



سعد زغلول باشا
قاد وطنه نحو الاستقلال



جمال الدين الأفغانى
من رجال الفكر الإسلامى فى العصر الحديث



أحمد شوقى
الشاعر والأديب

للعقيدة الإسلامية، وطالبوا الحكومة والمسئولين بالتخلص من هؤلاء الكفرة والمارقين.

ومع ذلك كثر أنصار الباب من العوام والجهلة، وأعلن أنه المهدى المنتظر، وقال: إن جسم المهدى اللطيف قد حل فى جسمه المهدى، وأنه يعود الآن إلى الدنيل ليملأها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا(١).

وأدخل أفكارا غريبة فى دعوته، فزعم أنها أرقى من الدعوة المحمدية، وزعم أن تعاليمه التى جمعها فى بيانه أفضل من تعاليم محمد فى قرآنه، وإذا كان محمد قد تحدى الناس بسور من قرآنه، فإن الباب تحدى الناس «بباب من أبواب بيانه العظيم»(٢).

وتعرض أنصار الباب للتعذيب والعقاب، وقبض والى شيراز على الباب، وناظر العلماء، فادعى إيمانه، وأنكر ما نُسب إليه وأعلن إيمانه بوحدانية الله وبرسوله محمد وشريعته. ولما هدأت الأمور بعض الشىء عاد دعاته إلى نشر الدعوة فى أصفهان، وثارت الفتن بين أنصار الباب والمؤمنين من أهل إيران فأمر الشاه بالقبض على الباب سنة ١٨٤٧، واعتقاله فى قلعة «ماه كو» فى ولاية أذربيجان. ولكن هذا الاعتقال أدى إلى زيادة حماس أعدائه، وواصلوا الدعوة جهرا، فنفاه الشاه إلى قلعة «جهريق» وأوصى الباب بخلافته إلى ميرزا يحيى نور، وسُمى صبح أزل ولكن أخاه ميرزا حسين «بهاء الدولة» انتزع السيادة من صبح أزل.

وحاول أنصاره الإفراج عنه، وازدادت ثوراتهم، وأشاعوا الاضطرابات فى البلاد، ونادوا بتعاليمه ومبادئه، حتى أمر الشاه بعقد مناظرة بينه وبين العلماء، فأثبتوا كفره وإلحاده، وجهله فأمر الشاه ناصر الدين بإعدامه سنة ١٨٤٩م(٣).

وكان لمقتله وقع سيئ على أنصاره، فازدادوا حماسا لدعوته ولكنهم اختلفوا فى آرائهم، حتى شملت الضلالات والمنكرات. ومن أهم كتب الباب: البيان

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ٤٩.

العربى، والبيان الفارسى، والاثنين صورة واحدة. قسم الباب بيانه الضال المضلل إلى تسعة عشر واحدا كل واحد تسعة عشر بابا، فخص نفسه بباب وأنصاره الثمانية عشر بثمانية عشر بابا.

وتزعم البهائية أن الأحاديث النبوية لا تنطبق مع روح القرآن، وتأثرت البهائية بالبوذية التى تدعو إلى التأمل والتركيز الباطنى، والبهائيون حرفوا أركان الإسلام الأساسية، وهى الصلاة والصيام والحج والزكاة، . وأنكر البهائيون الآخرة، ورفضوا الثواب والعقاب، ويلحقون بالبهاء صفات الله، وجنة البهاء هى الشعور بالفرح الروحى للمؤمن من البهائيين، وحّرف البهائيون معانى الآيات القرآنية لتتمشى مع ضلالاتهم، والبهائيون لا يفرقون بين الله والإنسان، ويزعم البهاء أن بعثه إلى العالم هى الدعوة إلى اتحاد البشر فى الله بالله، وتبنى البهائيون مذهب الحلول، فالبهاء يتحد بذات الله. ويدعى البهائيون أن البهاء له صفات غير موجودة فى الله؛ لأنه مصدر أفعال الله[١] ولا علم لله بأفعاله. لذلك يزعم البهائيون أن دينهم هو الدين الكامل.

والسنة عند البهائيين تسعة عشر شهر، أى ٢٦١ يوما كل شهر تسعة عشر يوما والشهر التاسع عشر هو شهر الصوم، وبقية أيام السنة تسمى أيام البهاء، يقضونها فى تبادل الزيارات ورعاية الفقراء واليتامى والضعفاء، وآخر شهر الصوم عيد النوروز أى ٢١ مارس. والصيام من الشروق إلى الغروب، ويعفى منه من له عذر ولا يقضيه، والصلاة ثلاث مرات فى الشروق والزوال والغروب ويعفى منها من لا قدرة له، ومن لم يبلغ الحلم، ويتجهون فى صلاتهم صوب مدينة عكا حيث دُفن بهاء الدولة. والحج إلى الدار الذى وُلد فيها زعيمهم الروحى على محمد فى شيراز وليس هناك وقت معين للحج. والزكاة كما هى فى الإسلام للفقراء والمعوزين[٢].

---

(١) أحمد محمد عون: خفايا الطائفة البهائية ص ١٢٧.

(٢) الملل والنحل جـ ٢ ص ٥٣.

ومن تعاليم البهائية:

١ ـ تحريم التسول، وعلى كل فرد أن يعمل وينفق على نفسه من جهده.

٢ ـ تحريم المخدرات. ٣ ـ إصلاح أحوال الفلاحين فى القرى والزواج من واحدة فقط ويمكن من اثنين بشرط العدل ويجوز الزواج من غير أفراد الملة. ولا يفرقون فى الميراث بين الذكر والأنثى.

ومن الطبيعى والمنتظر أن البهائية لم تنجح فى بلاد الإسلام، لذلك اتجه أتباعها وأنصارها إلى نشر عقيدتهم فى أوربا وأمريكا، وقد زار عبد البهاء عباس ابن حسين على الملقب بالبهاء ـ الذى خلف أباه ـ إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا، وتجول فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد نجحت دعوته نجاحا محدودا فى أمريكا الشمالية.

وانقسم البهائيون على أنفسهم فرقا يكفر بعضهم بعضا، وتباغضوا وتنافروا؛ مما أضعف دعوتهم.

ويهمنا من هذا كله أن البهائية تسربت إلى ديارالإسلام، وآمن بها ـ بكل أسف ـ بعض المسلمين، ووجدوا فيها متنفسا لإرضاء نفوسهم التى نفرت من الإسلام بتأثير الاحتكاك بأوربا. وبكل أسف دخل هذا الدين بعض المثقفين رغم ما فيه من ضلالات وأفكار تافهة خاطئة وساذجة، وأثار ذلك بلبلة واضطرابات بين المسلمين، مما حمل حكومة محمود فهمى النقراشى باشا إلى إصدار قرار بتحريم المذهب البهائى سنة ١٩٤٨م.

ونشأت فى بلاد الهند الطائفة القاديانية، نسبة إلى مدينة قاديان فى الهند، وتسمى أحيانا الأحمدية نسبة إلى مؤسسها غلام أحمد، وهو من مواليد سنة ١٨٣٥، وانكب على دراسة الحديث والفقه والتفسير، وكان يقضى وقته دارسا ومفكرا ومتأملا فى شئون الدين، ولكنه تأثر بأفكار الشيعة، وما يسمى بالمهدى المنتظر وعودة المسيح فى آخر الدهر، وادعى أنه المسيح الموعود، وهو النبى الذى يظهر فى آخر الزمان، وقال بأن محمدا خاتم الأنبياء وأن رسالته آخر الرسالات، وادعى النبوه، وزعم أن مهمته إقامة العلاقة بين الإنسان وخالقه، وأنه بعث لتفسير القرآن وتعاليم الإسلام والحياة الإسلامية الكاملة، وأن له وحيا إلّهيا.

وللقاديانية رئيس يلقبونه أمير المؤمنين، وخليفة المسيح الموعود والمهدى المنتظر.

وقد نجحت هذه الدعوة القاديانية بين الجهلاء بتعاليم الإسلام مثل بعض البلاد الأفريقية، وبعض الجهات فى أوربا وأمريكا وآسيا، وأسسوا المساجد فى أوربا، ولكنهم فشلوا فى البلاد الإسلامية العريقة(١).

أدى تخلف المسلمين والجهل الذى تفشى بينهم وانتشار البدع والخرافات، وجمود الفكر الإسلامى، وعدم مسايرته التطور الحضارى الهائل الذى انبعث من أوربا إلى طرح قضايا كثيرة شغلت الرأى العام الإسلامى، واختلفوا فيه، ودارت المناقشات الجادة بين الذين تأثروا بالفكر الأوربى والمحافظين على الفكر الإسلامى كما هو دون تجديد أو إعادة النظر فى اجتهادات العلماء، بحيث تتمشى مع روح العصر. ومن هذه القضايا تحرير المرأة، وخروجها من البيت للتعلم، حتى تنتج أسرة ناجحة قوية، ونشأت قضايا أخرى مثل مفهوم الربا فى الإسلام؛ لأن الربا فى العصر الحديث يختلف تماما عنه فى فجر الإسلام، وتغيرت المعاملات المالية، وظهرت البنوك التى تتعامل بفوائد وليس بالربا كما يعتقده المحافظون.

وكان لابد من تطوير الفكر الإسلامى بحيث يتمشى مع متغيرات العصر. وقال الشيخ محمد عبده: القرآن والحديث لا نقاش فى أحكامهما ولكن الاجتهاد، قام به رجال مثلنا فيجوز إعادة النظر فيه بما يتمشى مع فلسفة العصر. وجدد الشيخ محمد عبده الفكر الإسلامى وحرره من الجمود.

ودعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة، ونجحت دعوته بعد أن واجه رجال الدين وعلماء الأزهر - حصن الإسلام الحصين - متاعب كثيرة من الاستعمار الذى تأثر به العوام، وأصبحوا فى نظر العوام والمثقفين القادمين من أوربا، وبهرتهم الحضارة الأوربية، وعادوا إلى البلاد الإسلامية المتخلفة، فاعتقدوا أن الإسلام هو السبب وسخر العوام برغم جهلهم من رجال الدين، وسخروا من العمائم التى هى الزى الرسمى للشيخ الأزهرى، أما العلماء الذين قدموا من أوربا وتعلموا فيها، فاعتبروا أن الإسلام مسئول عن هذا التخلف، ولابد من مسايرة الحضارة الأوربية، بل قرأوا كتب المستشرقين التى تحمل عبارات مناهضة للإسلام، وتبنوا آراءهم، بل كتبوا كتابات فى ازدراء وسخرية من الإسلام ومن هنا ظهر الفكر العلمانى.

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٦٣.

كتب منصور فهمى بعد حصوله على الدكتوراه، وعودته إلى مصر عن زوجات النبى وعن الوحى وعن العقيدة كلاما ينم عن السخرية من الدين ومن النبى ومن الإسلام. على أن منصور فهمى انتهى من فترة الشك، بل أوصله الشك إلى اليقين وإلى العقيدة الصحيحة، ولقد شاهدته وهو فى خريف العمر، يؤدى الصلوات الخمس فى المسجد، ويقضى الكثير من وقته بين العلماء، ويقرأ القرآن وكتب التفسير والحديث.

أما طه حسين درس فى الأزهر، وهو شيخ أزهرى سافر إلى فرنسا، وحصل على الدكتوراه، وعاد إلى مصر، ونشر كتابه «فى الأدب الجاهلى» الذى تأثر فيه بأفكار المستشرقين المنافية للإسلام، وأثار كتابه ضجة كبرى بين رجال الأزهر. ونسبوا إليه الإلحاد، ولكن طه حسين لم ينسلخ عن جلده كأزهرى متمسك بدينه وعقيدته، فكتب كتبا إسلامية من روائع ما كُتب، مثل «على هامش السيرة» ـ «دعاء الكروان». ومن أعظم كتبه «الفتنة الكبرى» وهى أهم وأجل مصدر عن عصرى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وما حدث فى هذه الفترة من خلافات بين المسلمين، كتب طه حسين كتابه كمفكر محايد يأتى بكل الأقوال التى قيلت حول هذا الموضوع من المصادر الأصلية، ويترك للقارئ الحكم؛ لأنه لا يفرض عليه رأيه ولا فكره. وبذلك رسم للباحثين منهجا قيما فريدا فى نوعه فى الفكر الإسلامى.

وانتشرت الآراء الإلحادية، وكانت حركة كمال أتاتورك حركة مناهضة للإسلام، وتدعو فيما تدعو إليه إلى الإلحاد، ومن هؤلاء الملحدين إسماعيل أحمد أدهم، الذى قدم من تركيا إلى مصر، وحاول نشر أفكاره الإلحادية، وألف رسالة صغيرة موضوعها «لماذا أنا ملحد؟» وأسس جمعية لنشر الإلحاد تسمى «المجمع الشرقى لنشر الإلحاد» وكان إسماعيل مظهر فى سنة ١٩٢٨ يصدر مجلة العصور فى مصر، ويمثل حركة معتدلة فى نشر حرية الفكر والدعوة للإلحاد[١]. وكان محمود عزمى من دعاة الإلحاد فى مصر فكتب مقالا فى الأهرام يقول بأن الأديان تعوق التقدم والفكر السليم، ونشر مقالات فى مجلة المصور، أبرز فيها آراءه

---

(١) الملل والنحل ص ٩١.

الإلحادية. وظهر فى تركيا كتاب «مصطفى كمال» للكاتب قابيل آدم حمل فيه على الأديان، وخصوصا الإسلام، وذكر أن الإسلام سبب فى تخلف الأمم الإسلامية، وجمود العقلية الإسلامية ودعا إلى التحرر من تعاليم الإسلام. وقد لخص إسماعيل مظهر هذا الكتاب فى مجلته، وقدم له مقدمة مؤيدة لكل ما تضمنه الكتاب من آراء(١). وحمل على الكتب المقدسة، وخصوصا القرآن الكريم، وعاونه فى تحرير المجلة بعض الملحدين.

ورجع إسماعيل مظهر ورفاقه عن إلحادهم، وعادوا إلى الإسلام، ودافعوا عنه فى مقالات كتبوها فى بعض المجلات.

على كل حال فالأفكار الإلحادية التى آمن بها بعض المثقفين فى تركيا ومصر وغيرها من بلاد الإسلام، لم تستمر طويلا، بل رجع عنها كل مروجيها من الملحدين، وعادوا إلى دينهم الصحيح؛ لأن الإسلام قوة وفكر صحيح ونور، فإذا كفر به الإنسان فترة ما، فلابد وأن يعود إلى الواقع الصحيح والطريق المستقيم والنور الساطع.

وعلى الرغم من هذه التيارات الإلحادية، إلا أن الإسلام ظل صامدا قويا أمام هذه التيارات يقاومها ويتصدى لها. وقام الأزهر بدوره خير قيام، فتبنى شيوخه وعلماؤه الدعوة بكل إخلاص وصدق، وأقبل عليه الطلاب من كل أنحاء العالم، حتى أصبح أفضل جامعة إسلامية فى العالم، وبرز من شيوخه الشيخ محمدعبده والشيخ مصطفى المراغى والشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ عبد الرءوف الفقى وعبد الحليم محمود والشيخ الغزالى ومحمد أبو زهرة والشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم كثير.

وكان ظهور حسن البنا المفكر الإسلامى الكبير إفرازا لكل هذه التحديات التى تعرض لها الإسلام.

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٢.

وُلد حسن البنا عام ١٩٠٦م فى محافظة البحيرة، وكان أبوه من رجال الدين، وأنشأ فى السنوات الأولى فى دراسته «جمعية الأخلاق الأدبية» ثم انتقل حسن البنا إلى مدرسة المعلمين فى دمنهور ١٩٢٠م وتخرج منها مدرسا ابتدائيا، ولكن طموحه لم يقنعه بهذا العمل، بل التحق بكلية دار العلوم، وتخرج منها سنة ١٩٢٧م.

وقد تأمل حسن البنا فى أحوال المسلمين، وما أصابهم من تخلف أدى إلى استعمار بلادهم، وانحلال خلقى أتى مع الاستعمار أضعف عقيدة المسلمين، لذا قرر الدعوة إلى الإسلام وتطهير نفوس المسلمين من التيارات الاستعمارية التى أفسدتهم، وأضعفت عقيدتهم.

بدأ الشيخ دعوته من الإسماعيلية، وانضم إليه ستة رجال.

كانت عقيدة شيخنا تتركز فى أن الإسلام دين ودولة، ومصحف وسيف وعبادات ومعاملات، وتربية وأخلاق، وسياسة واقتصاد، واجتماع وقضاء، وكل شيء فى هذه الحياة، نظام شامل وقانون كامل فى تنظيم الحياة فى كل تفاصيلها، ودخلت الدعوة الإخوانية فى قلوب الشباب الطلاب والعمال والفلاحين وسائر طبقات الشعب، ورأى الناس فى هذه الدعوة تعبيرا صادقا عما تتوق إليه نفوسهم إلى تجديد الدعوة الإسلامية وتقويتها، وتخليصها من براثن الاستعمار.

انتقل حسن البنا إلى القاهرة بعد انتشار دعوته سنة ١٩٣٢م وكان يجول فى القرى والمدن يدعو إلى الإسلام، بل نشر دعوته فى العالم الإسلامى، وتعددت مراكز الدعوة الإخوانية فى مصر وخارجها وانتشرت دعوة الإخوان المسلمين، وانضم إليهم الألوف من الناس من مختلف المهن والدرجات العلمية.

قامت دعوة الإخوان تنادى بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله، ودعا الإخوان إلى محاربة من يخالف الكتاب والسنة بالقلم واللسان وليس بالحرب والسلاح ولكن بالموعظة الحسنة، ولا يقبل الإخوان الاعتداء على المسلم بالقتل، ولكن الاعتداء على غير المسلم فقط من أعداء الإسلام. ودعا المفكر الإسلامى الكبير

حسن البنا إلى تطبيق شرع الله فى كل ناحية من نواحى الحياة، ورفض الدكتاتورية، ودعا الشيخ إلى أن جماعته لا تبدأ بشر مع أحد، إلا إذا اعتُدى علينا.

وأعلن الشيخ دعوته، وهى دعوة سلفية تعتمد على القرآن والسنة وتدعو إلى الصوفية، أي تطهير النفس، والمواظبة على العمل، والإخوان هيئة سياسية تطالب بإصلاح الحكم فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها، وتربية الشباب تربية رياضية، تعدهم إلى التربية العسكرية، حتى يتمكنوا من الجهاد ضد أعداء الإسلام، الاستعمار، والصهيونية، الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى، ومنع الفساد الذى لحق بالمجتمع، والتصدى لأمراض المجتمع.

أنشأ حسن البنا الأسر، وهى جماعة إسلامية لها رائد مسئول عن تطوير أعضائها أخلاقيا وبث الروح الدينية فيهم، وتثقيفهم من حيث تحفيظهم القرآن الكريم وكتب الدين الأصلية، الحديث والفقه وتنيمة الشباب رياضيا. ودعا الشيخ الشباب بأن يدعم كل فرد نفسه فى مهنته، الطبيب والمهندس والصيدلى والمدرس يجب على كل واحد أن يقوى نفسه فى مجالات تخصصه، وقد أوضح حسن البنا «أن الرجولة تظهر بالصبر والمثابرة والعمل الدائب». لذلك أصبحت تعاليمه مدرسة يتتلمذ عليها الملايين من الشباب الراغب فى الدعوة إلى الله.

ولم يكتف حسن البنا بدعوة الشعوب إلى التمسك بالعقيدة الصحيحة بل دعا حكام البلاد الإسلامية إلى تحرير شعوبهم وحماية الأقليات وصيانة حقوق الأجانب والتمسك بالإسلام والأمل والعزة القومية والقوة والجندية والصحة العامة والعلم والخلق والاقتصاد ونظم الإسلام العامة. ودعا إلى حكومة تتضامن مع المحكومين عن طريق العقيدة، فالإسلام دين ودولة، فالحكومة ترعى الدين وتسوس الناس.

نشأت جماعات سرية فى الإخوان المسلمين، تقاوم أعداء الإسلام وحمل أعضاؤها السلاح، وشاركوا فى بعض الاغتيالات السياسية. وانحرفوا عن الدين بأعمالهم العدوانية، وقتلوا القاضى الخازندار، ونسفوا بعض المؤسسات، وحاولوا نسف قصر مصطفى النحاس باشا، ولكن الإخوان المسلمين بلغوا أقصى درجات

نجاحهم حينما اشتـركوا فى حرب فلسطين، وحارب كل منهم بروح الإسلام التى تتمثل فى الجهـاد، وحب الشهادة تقربا إلى الله، وأحرزوا نجاحا لم تحـققه القوات المنظمة من قـوات الجيش المصرى. وفى أحضـان الإخوان المسلمين ترعـرع علماء كبار، ومجاهدون حكموا مصر بعد ذلك، مثل: جمال عبد الناصر وأنور السادات.

ولكن بعض شباب الإخوان انحرف عن مبادئ الإخوان، وساهم بدور كبير فى الاغتيالات السياسية، حتى حل محـمود فهمى النقراشى باشا جماعة الأخوان المسلمين، فاغتالوا النقراشى، وولى الوزارة إبراهيم عبد الهادى - رفيق الكفاح مع النقراشى - لذلـك انتقم من الإخوان كل انتـقام، واعتـقل معظمـهم، وعُذبوا فى المعتقلات، وحرض إبراهيم عبد الهـادى رجال مخابراته على قتل حسن البنا وهو من أعلام الفكر الإسـلامى. وقد ترك مدرسة تدين بمبـادئه وأفكاره، وترك رجالا يحفـظون القرآن الكريم والسنة النبـوية والفقـه الإسلامى وعلوم الـدين الأخرى، ويتميزون بالاعتدال وفهم الدين فهما واقعيا يقوم على أسس الدراسة والبحث.

ولم يهدأ الإخـوان المسلمون ولم يضـعفـوا بقتل إمامـهم، ولكنهم واصلوا دعوتهم، وانتقدوا بشدة الحكم الفاسد الذى سبق الثورة، وعارضوا الملك وحاشيته والخلاعة والمجون التى كانتا سمـة رجال الحكم فى ذلك العصر، وكانت لدعواتهم أكبر الأثر فى ضعف نظام الحكم القائـم وضعف الملك كل ذلك أدى وعجَّل بقيام ثورة ٢٣ يوليـو التى تربى زعمـاؤها - كمـا قلنا - فى ظل تعاليم حـسن البنا وفى مدرسته الكبيرة.

لما حكم جمـال عبـد الناصر مصـر حكما دكتـاتوريا، رفض كل معـارضة لشئون حكمـه ولسياسته المستبـدة، لذلك اصطدمت سياسته مع جـماعة الإخوان المسلمـين ودبر مؤمـراة للتخلص منهم، فـزعم أنهم حاولـوا اغتيـاله فى المنشـية بالإسكندرية، لذلك أمر بحل جـماعة الإخوان المسلميـن، وزج بهم فى السجون وتعرضوا لألوان التـعذيب الوحشية، وبـعد محاكمـات صورية تم الحكم بالإعدام على كل من الأستاذ عبد القادر عودة والشيخ مـحمد فرغلى وسيد قطب وغيرهم من رجال الإخوان المسلمين.

وضعف الإخوان المسلمـون على أثر ذلك، واحتضنت البلاد الإسـلامية كل من لجأ إليها. وتخرج من مدرسة الإخوان المسلمين، سيد قطب، الذى تخرج من

كلية دار العلوم، وكان واسع الاطلاع، سافر إلى أوربا وأمريكا، وشاهد الحضارة الغربية وما فيها من نقائص، وتوصل إلى حقيقة الإسلام، وقوته ونوره، واشترك مع الإخوان المسلمين فى الدعوة، وأصبح من أكبر دعاتها. ومن أهم كتبه «معالم فى الطريق» دعا فيه المسلمين إلى معارضة هذا المجتمع الكافر وهجرته، واستحل أموال ودماء المسئولين فى هذا المجتمع، ورأى فى ذلك رأى الخوارج الذين يعتبرون أموال السلطان وعسكره حلال، وله عدة كتب منها كتابه المشهور «فى ظلال القرآن» فى تفسير القرآن وعدة كتب كفَّر المجتمع الذى ينقاد إلى حكام ظلمة لا يحكمون بدين الله. وتعرض للسجن والتعذيب وحكم عليه بالإعدام ٢٩/٨/١٩٦٩، ولما ولى أنور السادات حكم مصر أفرج عن الإخوان المعتقلين، وتطور الفكر الإسلامى إلى جماعات تختلف فى منهجها عن الإخوان المسلمين، فنشأت جماعات التكفير والهجرة وهى جماعات سلبية، تدعو إلى هجرة المجتمع والبعد عنه، والعيش فى الصحارى والقرى المهجورة؛ لأن المجتمع فى نظرهم كافر، ويعتمدون على أنفسهم فى العمل بالتجارة والرعى والزراعة، وللجماعة أمير هو مشرع الجماعة، وهو واضع سياسة الجماعة وحاكمها والمتصرف فى شئونها حتى إن عقود الزواج تتم بمعرفته، لأنه لا يعترف بمحاكم الدولة وقوانينها.

ونشأت جماعة الجهاد منبثقة من أفكار الإخوان المسلمين، ولكنها تختلف عنها، فالإخوان المسلمون أصحاب فكر معتدل، أما الجهاد والتكفير والهجرة فأفكارهما متطرفة قد تتنافى مع تعاليم الإسلام، تعتقد جماعة الجهاد أن فريضة الجهاد هى الطريق الوحيد لتقوية الإسلام وتعزيزه وتمكينه فى الأرض، والإسلام يبدأ بالدعوة والموعظة الحسنة، ولكنه يواجه العناد والغرور والإيذاء والعنت والكبرياء هنا يشرَّع الجهاد لفتح الطريق عنده فتهزم الجاهلية. والجهاد هو الحل الوحيد لكسر عناء وجمود هذه الجماعات المكذبة للدين، والواجب على المسلمين العودة إلى دينهم حتى يكون الإسلام هو المنهج الذى يخلف كل هذه المناهج الباطلة. ويصحح العقائد الضالة. وشر ما يخشاه الإنسان هو الموت. والموت حق لابد أن يذوقه كل إنسان وإن طالت سلامته. واستنكر أعضاء الجهاد تسميتهم بالإرهابيين لأنهم يدافعون عن الإسلام وعن إخوانهم فى الدين الذين تعرضوا للظلم والاضطهاد.



حسن البنا

سيد قطب

أثرت الشيوعية بمبادئها الهدامة على المسلمين تأثيرا كبيرا، ووجد المنحرفون عن العقيدة الإسلامية فى مبادئ الشيوعية أفكارا يتبنوها ويعتنقونها ويرجعون لها، فأبعدتهم عن الدين؛ لأن الشيوعية تقول بأن الدين أفيون الشعوب، واضطهد الاتحاد السوفيتى المواطنين المسلمين، واقترنت الشيوعية بالإلحاد والإباحية، وانحاز بعض العلماء المسلمين للشيوعية لأنهم رأوا فيها وسيلة للخلاص من السيطرة الأمريكية، وأفسدت الأفكار الشيوعية الشباب المسلم، فانحرفوا عن الدين، واستباحوا المحرمات، وسخروا من الإسلام. وظهر مفكرون فى بلاد الإسلام ينادون بأفكار كارل ماركس، واشتراكية الدولة، ومحاربة الرأسمالية، والانتقام من الأغنياء. وهؤلاء انتهازيون يسيرون فى فلك دولهم المؤيدة للشيوعية نفاقا وانتهازية، ويعملون فى نفس الوقت على جمع الثروات، وفسد اقتصاد الدول التى اتخذت من الاشتراكية مبدءا لها، وتبنى الفكر رجال أسموا أنفسهم باليساريين.

على كل حال أضعفت الشيوعية العالم الإسلامى، وأفسدت الشباب المسلم. وأصبحت البلاد الإسلامية تنقاد لإحدى الدولتين العظميين أمريكا أو الاتحاد السوفيتى حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار.

وانقاد شاه إيران لأمريكا التى حرصت على اتخاذ إيران منطقة لنفوذها لحصر الشيوعية، والحد من نفوذها.

وحرصت الحكومة الإيرانية بزعامة الشاه على ضرب التيار الإسلامى وملاحقة المجاهدين، وكانوا كالشيوعيين تماما أعداء الشاه وحكومته الموالية لأمريكا، وسيطرت حكومة الشاه على الجيش، واتخذته أداة لتنفيذ سياستها الموالية لأمريكا، والمناهضة للإسلام والشيوعية ولم يأل نظام الشاه جهدا فى إفساد كل طبقات الشعب الإيرانى، وأدخل نظام الشاه فى البلاد كل ما هو مفسد للشباب، مثل إباحة الدعارة وأفلام الجنس، الصور العارية فى الصحف والمجلات، ومحاولة إضعاف رجال الدين. ولكن كل ذلك لم يقلل من أهمية دور رجال الدين فى التصدى لهذه المفاسد الأخلاقية التى تمس العقيدة بل قوى سلطان رجال الدين، وأفرزت هذه التحديات للدين آية الله الخومينى، وظهر كمرجع أعظم وقائد

سياســى فى نفس الوقت ومن هنا بدأت المعارضــة من رجال الدين لنظام شاه إيران.

وقوى التيار الإسلامى فى إيران، وأصبح أكبر قوة تتصدى لنظام الشاه بزعامة الخومينى من ١٩٦١م حتى ١٩٦٤م.

وفشل التيار اليسارى فى إيران، والقوى الأخرى فى تزعم المعارضة، ولكن أحرز علماء الدين بزعامة الخومينى نجاحا كبيرا فى التصدى لنظام الشاه فى الداخل والخارج.

قامت السلطات الإيرانية باعتقال ونفى وتعذيب معارضيها، ونجحت السلطات الإيرانية فى تحويل آية الله الخومينى إلى زعيم عالمى، فكان التضييق عليه فى العراق وملاحقته، وعدم قبوله لاجئا فى الكويت وهجرته مجبرا إلى فرنسا سببا فى تحوله إلى زعيم سياسى ودينى كبير. تنتشر خطاباته وكلماته فى شرائط تسجيل، ويقبل على استماعها الإيرانيون، وشكلوا جماعات منظمة فى الداخل والخارج للنيل من النظام الإيرانى الحاكم، ووجد الخومينى فى فرنسا، رعاية كاملة، وأقبل عليه المراسلون من أنحاء العالم ومريدوه، وانتشر أمره كزعيم عالمى مناضل[1].

ومن أهم أبعاد شخصية الخومينى أنه عالم دين ومرجع واجب الطاعة والاقتداء،ومن ثم ففتاويه وتوجيهاته أوامر، وتصرفاته مجال للاقتداء، ومن أهم أسباب نجاح ثورة الخومينى، وجوده على رأسها، فقد أعطاها طابعا مقدسا، لذلك يسر لها السبيل للانتشار فى أنحاء إيران، ومن (١٩٦٠م - ١٩٧٩م) كان الإمام يمهد للثورة بفتاويه، أطلق الصيحة الإسلامية العظيمة التى نُسيت عندما نُسى الإسلام[2].

واشتعلت الثورات فى كل أنحاء إيران، ونادى الثوار بالإمام الخومينى زعيما لهم، وعجز الشاه وحكومته عن السيطرة على البلاد، فتنازل الشاه عن الحكم، وهجر البلاد، وعاد الخومينى من باريس إلى وطنه بعد غياب استمر خمس عشرة سنة. وبذلك نجحت الثورة الإيرانية، وقامت فى إيران حكومة إسلامية أعادت إلى الإسلام قوته وأمجاده الغابرة وأعادت الثورة الإسلامية إلى الإسلام كرامته.

---

(١) إبراهيم شتا: الثورة الإيرانية ص ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩.

والإمام الخومينى هو الزعيم الروحى للثورة الإيرانية، ولكن حسب معتقدات الإيرانيين الشيعة الاثنى عشرية، أن الإمام هو محمد المنتظر الذى اختفى فى سرداب سامرا، يعتقد أنصاره الاثنى عشرية أنه سيعود إلى الدنيا ليملأها عدلا، كما ملئت ظلما وجورا. إذن الإمام الخومينى إماما أى زعيما، ولكنه فى حقيقته قائم مقام الإمام المنتظر الذى تحدثنا عنه.

على كل حال سعد المسلمون بإقامة دولة إسلامية، أعادت إلى الإسلام هيبته، وظهر مفكرون مسلمون فى الدولة الإسلامية الكبرى، وصمدت هذه الدولة الإسلامية أمام العقبات التى واجهتها، ولكنها انحرفت عن رسالتها.

* * *

تزعم حركة الفكر رجال مصر من أمثال أحمد لطفى السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومحمد حسين هيكل وغيرهم.

صنف المفكر الإسلامى الكبير العقاد كتب العبقريات، عبقرية محمد - عبقرية الصديق - عبقرية عمر - عبقرية على - الحسين أبو الشهداء - عبقرية خالد - معاوية فى الميزان، إلخ. وهذه المؤلفات يحلل فيها كل عبقرى ويتحدث عن إنجازاته ويغلب عليه المنهج الفلسفى ومنهج علماء النفس، أما محمد حسين هيكل فوضع كتاب حياة محمد وهو من أروع كتب السيرة، وناقش فيها آراء المستشرقين، والكتاب قيم وتم إعداده بأسلوب علمى.

وعلى الرغم من القيادة الفكرية لمصر فى العالم الإسلامى. إلا أن المسلمين ابتلوا برجال أسموا أنفسهم مفكرين، ونادوا بالبعد والانحراف عن الدين مثل فرج فودة وهو رجل جاهل فى الدين واللغة، ولا يملك سوى المقدرة الكلامية فى أى شىء شاذ حتى يثير الناس حوله وانحرف عن الدين فى كثير من أقواله، ودفع الثمن غاليا.

ومن الجهلاء الملحدين سلمان رشدى وهو رجل مغمور معقد نفسيا وهندى مسلم عاش فى إنجلترا وكتب كتابا وضيعا أسماه «آيات شيطانية» عبر فيه عن إلحاده برواية ذم فيها الرسول والصحابة ووجدت هذه الرواية رواجا كبيرا فى أوربا؛ لأنها تعبر عن كراهيتهم للإسلام وأهله.

تتركب كلمة الماسونية من: ماسون أى البناء وكلمة Free بمعنى حر، أى البناء الحر،وحرف الشرقيون الكلمة من فرى ماسون أو فرانك ماسون إلى ماسونية ووحدة ال،تنظيم فى الماسونية تتمثل فى التنظيم الذى يرأسه أستاذ، ويتدرج الأعضاء فى مراتب وتنقسم المحافل الماسونية إلى المحفل البريطانى والمحفل الفرنسى.

واستطاعت الماسونية بالمبادئ الإصلاحية التى أعلنتها أن تضم إليها المفكرين والعلماء ورجال السياسة والصحافة، ومن المبادئ التى أعلنتها أنها جمعية خيرية لا تتدخل فى الدين والسياسة، وأنها مؤسسة حرة للبناء العملى والبناء الفكرى، تحقق الخير للإنسانية، والتحرر للشعوب التى تتعرض للظلم[1] والاستعمار، وهى توجه جهودها لتحرير فلسطين.

ظاهر الماسونية أنها جمعية أدبية خيرية تحوى رجال العلم والفكر وأصحاب الأعمال، على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ومذاهبهم، ولا يُقبل فيها إلا كل حر حسن السيرة، طيب السمعة، دمث الأخلاق، ولا تقبل من ينحدر من أبوين غير شرعيين. ويكون من الميسورين، ويكون مؤمنا بالله الواحد، واجد الوجود، يؤمن بالبعث واليوم الآخر، ولا تفرض عضويتها على أحد، ولا يقبل إلا كل من هو معروف باسمه واسم أبيه، وجده، وعمره، ومهنته، ومكان ولادته، ومحل إقامته، ولم تصدر ضده أحكام، وتتم مراجعة البيانات فى المحافل الماسونية. ويجب أن تنال عضويته ثقة وموافقة الأعضاء.

وقبل قبوله يأخذ عليه المحفل الماسونى العهد، وهو الانتظام فى الجماعة، والخضوع لها تماما، ويتعهد باتباع القواعد الماسونية والمشاركة للإخوان، ويسأله الحاضرون أسئلة عن علمه وفكره، كل هذا يحدث وهو عارى الجسد فى غرفة مظلمة. ويؤدى اليمين من الكتاب المقدس. حينئذ يعطى أسرار ورموز الدرجة التى

---

(١) إبراهيم فؤاد عباس: الماسونية تحت المجهر ص ١١.

دخل فيها، وبعد أن تؤخذ عليه العهود والمواثيق يتسلم أدوات البناء وهذه وضعت فى المحافل كرموز وتذكار لجماعة البنائين القدماء المؤسسين للماسونية.

وتقوم الماسونية على أسس مقدسة، منها: اتباع إبراهيم إرادة الله، وعدم رفضه تقديم ابنه اسحاق[1] قربانا له، ففُدى بذبح عظيم. والثانى دعاء الملك داود الذى رفع الله عنه الهلاك الذى كان يفقده قومه - والثالث القرابين التى قدمها سليمان - ملك بنى إسرائيل للهيكل، وتقديمه لخدمة الله وعبادته، فهذه تجعل أرض الميعاد مقدسة إلى الأبد[2].

ومحافل الماسون توضع من الشرق إلى الغرب؛ لأن الشمس تشرق من الشرق، وتغرب من الغرب.

ومحافل الماسون أو البنائين الأحرار تحمل ثلاثة أعمدة عظيمة فى الحكمة، أما سقف المحفل الماسونى فمساوى لمختلف الألوان مستوٍ كالسماء ويمكن الوصول إليه بواسطة سلم، يسمى سلم يعقوب.

يتركب محفل الماسون الأحرار من زينات وأثاث وجواهر نفيسة والزينات هى الأرضية الملونة بمختلف الألوان، وتدل على اختلاف أنواع المخلوقات الحيوانية، والنجم المضىء فى المركز رمز للشمس التى تسطع فى الصباح، فيعم نورها أرجاء الأرض.

والعلامات المميزة للبناء الحر - الفضيلة والشرف والشفقة، والفضيلة هى الطريق الوحيد والمنهج الأول للشرف. والشرف روح الفضيلة والتقوى والإيمان. وهذا يؤدى إلى سعادة الإنسان ومعيشته الطيبة ورفائه، والفضيلة تؤدى إلى تهذيب الإنسان والتزامه بالعدالة والقانون. والشفقة تطهر الإنسان من الحقد والأنانية، والعنف. كل هذه القيم تجعل الإنسان يعيش نزيها حسن السمعة رفيع المكانة.

---

(١) الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق.

(٢) شاهين مكاريوس: الماسونية ص ٢٥.

وذكر أنبياء بنى إسرائيل بالصورة التى ذكرناها، والتأكيد على الماسونى باحترام آراء الحاخامات تؤكد أن الماسونية تسير بتوجيه من الصهيونية العالمية. لذلك فالمحافل الماسونية تقوم بدور القناع الذى يحجب مطامع اليهود. ويجب زعزعة أسس الأديان ليحل محلها الحياة المادية، واحتكار ثروات غير اليهود حتى يسيطر اليهود على الاقتصاد العالمى، تحطيم جميع السلطات الحاكمة، ليسود بين البشر شعار الحرية والإخاء والمساواة، وعلى الماسونى أن يقطع صلته بحكومته وأهله وكنيسته[1].

والماسونية تحمل شعار الثورة الفرنسية، مثل الحرية والإخاء والمساواة، واتخذ أتباع الماسونية شعارا يعترفون به على بعضهم البعض، مثل خاتم له طابع مميز. وطريقة معينة فى السلام على بعضهم البعض.

وللماسونية مراتب يتدرج أصحابها فيها، ودرجاتها ٣٣، يترقى فيها الماسونى غير اليهودى فى درجات هذه المرتبة، والذين يبلغون أعلى درجات هذه المرتبة يسمون «العميان»؛ لأنهم يخدمون الماسونية بإخلاص وانقياد أعمى.

والمرتبة الثانية: الماسونية الملوكية، وهذه الطائفة من أنصار الصهيونية العالمية، وهدفها احترام اليهود، والعمل على بناء هيكل سليمان، وإقامة وطن قومى لليهود؛ لذلك فإن أكثر أفراد هذه الطبقة من اليهود؛ أما الطائفة الثالثة فهم «الرفاق» وهؤلاء أرقى طبقة فى المرتبة الأولى[2].

أما المرتبة الكبرى (الماسونية الكونية) فلا يصل إليها إلا اليهود المتمسكين بعقيدتهم. وهذه الطائفة مهمتها تدبير الانقلابات، والاضطرابات السياسية، وحوادث العنف فى البلاد التى تناهض الصهيونية العالمية.

والماسونية ظهرت فى العصور القديمة والوسطى، وتطورت بنظمها وأهدافها فى العصور الحديثة، وأقدم وثيقة عن مبادئ الماسونية فى العصر الحديث محفوظة فى المتحف البريطانى، يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٣٤م وتتضمن أن الأخ الماسونى

---

(١) شاهين مكاريوس: الأسرار الخفية فى الجمعية الماسونية ص ٥٠ ـ ٥٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٤.

يجب أن يحب الله والكنيسة المقدسة وسيده الذى يصحبه، ويحفظ المبادئ الثلاثة كما يحفظ حياته، ولا يخطو خطوة دون رأى سيده الذى يجب أن يتبعه فى المقاصد النبيلة ولا يكشف أمره، ولا يبيح لأحد بسره، وينقاد انقياد أعمى لمبادئ الماسونية، وعُقدت المحافل الماسونية فى أوربا فى القرن الثامن عشر(١).

وقد لعبت الماسونية دورا كبيرا فى خلع السطان العثمانى عبد الحميد الذى رفض هجرة اليهود إلى فلسطين، وإقامة وطن قومى لهم فيها، لذلك ساعدوا فى إنشاء جمعية الاتحاد والترقى سنة ١٩٠٨م، واعتقال السلطان العثمانى وخلعه فى سالونيك سنة ١٩٠٩م.

أول محفل ماسونى أُسس فى القاهرة سنة ١٧٩٨م فى عهد نابليون فى مصر، ويسمى محفل إيزيس، وفى سنة ١٨٣٨م، أُسس فى القاهرة محفل ممفيس، ومحفل الأهرام سنة ١٨٤٥م. وفى سنة ١٨٦٣م أُسس محفل اليونان، ومحفل النيل سنة ١٨٦٨م. ثم محفل نور مصر، يتحدث أعضاؤه لأول مرة باللغة العربية، وكان أغلب أعضاء المحافل الماسونية فى مصر من الأجانب، ثم سُمح للمصريين بعضويته. وفى سنة ١٨٧٦م تم تشكيل «الهيئة المصرية الماسونية الجديدة» على الطريقة الأسكتلندية، وانضمت إليه جميع المحافل الماسونية المصرية، وكان رئيسه رجل إيطالى، وفى سنة ١٨٨٧م انتخب الخديوى توفيق باشا رئيسا للمحفل، وبلغت المحافل الماسونية مكانة كبيرة فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر، حيث انضم إليها كبار رجال الفكر والسياسة والأدب(٢).

وكان للماسونية مجلة فى مصر تسمى «اللطائف» تكتب عن أخبارها وأهدافها، ويصدرها شاهين مكاريوس وظلت هذه المجلة فى الصدور حيث توقفت سنة ١٩١٠م بوفاة مكاريوس.

وفى سنة ١٨١٥م أصدر ألكسندر ابن مكاريوس مجلة «اللطائف المصورة» التى استمرت فى الصدور أكثر من عشر سنوات، وقد وضع شاهين مكاريوس عدة كتب فى آداب الماسونية وأفضالها وتاريخها وأسرارها الخفية.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤.

(٢) على شلش: الماسونية ص ١٤.

وفى سنة ١٩٤٢م صدرت فى مصر مجلة ماسونية أخرى هى مجلة «الأيام» ورئيس تحريرها، حسين شفيق المصرى، وكان يرأس مجلتى الاثنين والفكاهة.

وانتشرت الجمعيات الماسونية فى مصر، وانضم إليها كبار الشخصيات من الباشوات ورجال الفكر، ولا صحة لما يقال بأن الشيخ محمد عبده أو سعد زغلول انضما إليها، فكيف يقضى هذان الرجلان حياتهما مجاهدين ضد الاستعمار وتحرير البلاد من التخلف، فى الوقت الذى ينتميان فيه إلى جمعية تناصر الاستعمار والصهيونية.[1]

على كل حال انتشرت الماسونية فى الوطن العربى فى مصر والشام والعراق، وعززها انضمام المثقفين إليها، لأنهم تأثروا بالحضارة الأوربية وزخرفها، وأثر ذلك على عقيدتهم. ولكن رجال الدين فهموا أهدافها ومقاصدها، وتصدوا لها، حتى أصبحت كلمة ماسونى فى البلاد العربية من الشتائم وألفاظ السباب، وتعنى الكافر أو الزنديق أوالملعون.

ظلت الماسونية تتمتع بمكانة رفيعة فى مصر حتى أمر جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٤م بإغلاق المحافل الماسونية، ولكن الماسونيين هربوا وثائق ومراسم وأسرار الماسونية إلى لندن بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، وحذت البلاد العربية حذو مصر فألغت الحكومة العراقية الماسونية سنة ١٩٥٨م.

ولعبت الماسونية دورا كبيرا فى تأييد دوز الاستعمار الأوربى فى مصر والشام والعراق والأردن وإمارات الخليج، وكان الماسونيون أنصارا مخلصين للاستعمار يؤيدونه ويعززونه، وفى الجزائر أيدت الماسونية الاستعمار الفرنسى، وسيطرت فرنسا على الجزائر لغة وثقافة.[2]

كما عززت الماسونية وناصرت الصهيونية العالمية، وهى الواضعة لبروتوكولات «حكماء صهيون»، وفيها وعد للأعضاء الماسونيين، بأنه بعد إقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين، سيحاولون مضاعفة خلايا الماسونية الأحرار

---

(١) على شلش: الماسونية ص ١٦.

(٢) شاهين ماكريوس: تاريخ الماسونية.

فى جميع أنحـاء العالم. وهذه الخلايا هى التى ستزودنا ـ أى اليهـود ـ بالأخبار، وستكون أفضل مراكز للدعاية، وسنوحد قـيادة الماسونية، ويقودها علماؤنا. وقال أحـد الحاخـامات عن الماسـونية أنهـا «مؤسـسة يهـودية»، وتاريخهـا ودرجاتهـا وتعاليمها، وكلمات السر فيها وشروطها أفكار يهودية من البداية إلى النهاية[1].

وفكرة الأممية فكرة أساسية فى الماسـونية، فالعالم كله أمة واحدة، والأصل فى الأفراد، هو التـشابه بينهم، والناس جمـيعا أصولهم واحـدة من آدم وحواء، وتبلغ الإنسانية قـمة تقدمها وأزهى عـصورها، حينما يتحـد الناس وينتظمون فى مدينة واحدة عالمية، يرأسها ملك من نسل داود يكون إمبراطورا على العالم كله.

وأيد الماسونيون فى العالم العربى والخارجى قـيام دولة إسرائيل، وقدموا لها كل المساعدات.

وقامت الماسونية بـدور فعال فى إشعال الثورات فى العالـم، فَـأشعلوا الثورة الفرنسية والثـورة الأمريكية، والثورة فى الدولة العثمانية، وإقـامة دولة علمانية فى تركيا، وساهموا بدور كبير فى مناصرة الصهيونية العالمية وإقامة دولة إسرائيل.

والماسونيـة تحيط مبـادئها بالسرية والكتـمان، وتعمل عـلى تقديس الجنس، ونشر الإباحية، وعبر عن إباحة الماسونيـة للجنس والتحرر من القيود الزوجية ليون بلوم رئيس وزراء فـرنسا السـابق سنة ١٩٣٦م فى كتـابه «الزواج» أباح فى كتـابه العلاقـات الجنسية غـير المشروعـة، وأبـاح للرجل والمرأة ممارسة الجنس دون قـيد زوجى. ونشـر فى كتـابه تفاصـيل عن الجنس تدل على الإباحـية عند الماسـون، وتُرجم هذا الكتاب إلى عـدة لغات، كما تدعـو الماسونية إلى الإلحاد وتسـخر من الأديان، وتؤكد أن الدين هو سبب تخلف الناس، وهو قيد لا مبرر له.

ضعف أمـر الماسون، وانكشف دورهم الأخلاقى، والسـياسى، ودورهم فى الاضطرابات السياسية فى أنحاء العالم، فـاتخذوا عدة أسماء مضللة مثل الإليانس والروتارى والليونز، لتكون بدائل للماسونية، حـسب تقاليد كل مجتمع وكل هذه

(١) إبراهيم فؤاد عباس: المصدر السابق ص ٣٨.

الجمعيات ترتبط بالاستعمار أو الصهيونية العالمية أو البهائية أو القاديانية، أو الجماعات الإسلامية الخارجة على الدين.

ويهمنا هنا الإشارة إلى «الروتارى» التى يعود نشاطها إلى سنة ١٩٠٥م حين أسسها المحامى بول هاريس فى شيكاغو، وانتشرت نوادى الروتارى فى أنحاء العالم بفضل شيرلى برى. وانتشرت نوادى الروتارى حتى بلغت ٦٨٠٠ ناد فى ٨٠ دولة، تضم حوالى ثلاثة ملايين عضوا فى ١٤٧ دولة.

ولا أوافق بعض الذين كتبوا عن الماسونية فيما ذهبوا إليه من أن بعض شيوخ الأزهر زاروا نادى الروتارى، وصور بعضهم شيخا جليلا فى النادى، وقالوا أول الخبر ولم يكملوه. فتكملته هو أن هذا الشيخ الجليل ألقى محاضرة عن أسس ومبادئ الإسلام. إذن أدى هذا الشيخ دوره فى مكان مناسب جدا، بين رجال ضعاف العقيدة، وقد يجدون فى حديث هذا الشيخ الجليل ما يهديهم إلى الإسلام الصحيح.

واجبات الماسونى

إنشاء المدارس من تبرعات الإخوان لتحقيق أهداف اليهود من خلال مناهجها التعليمية، وسيطرتها على الفكر والثقافة، وإنشاء النوادى وتشكيل لجان كثيرة، تتبع المحافل لمختلف الأفراد، وتشكيل لجنة من الأطباء والممرضين تتبع كل محفل على حدة، ولجنة لمعاونة كل من يتعرض لشدة أو مكروه، ولجنة لقراءة الصحف الأجنبية، ودراسة كل ما يكتب عن الماسونية، ولجنة تحريات عن العضو قبل انضمامه إلى الماسونية. نددت الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية بالماسونية، واعتبرت كل مسيحى ينضم إليها خارج على الكنيسة، وأغلقت الدول الشيوعية المحافل الماسونية، وندد بها هتلر، وأغلق محافلهم، وجمدها جمال عبد الناصر ونددت بها الحكومة الإسلامية فى إيران، وأغلقت نواديهم واعتبرتهم عملاء للصهيونية وخارجين على الإسلام.

والماسونية تتصدى بكل قوة لمن يقف ضد اليهود، ولها شعارات جذَّابة - كما قال جمـال الدين الأفغانى - تخفى نوايا خـبيثة وأهدافـا صهيونيـة، ومن شعارها «ساعـدوا الضعيف والمظلوم والعـاجز والحزين، وارفـعوا من شأن الضعـفاء - أى اليهود كما يقصدون».

يجب أن تسود المحبة بين البنائين الأحرار، والاستعداد للقتال لمناصرة الحق، وإعادة بناء هيكل سليـمان، ورفع الظلم عن اليهود ومقـاومة الملوك ورجال الدين الذين اضطهدوهم.

دساتير الماسونية توجب فى مـراحلها الأولى احترام الأديان والولاء للعروش والدساتير المنشورة والقوانين والقوميات. وبالوصول إلى المرحلة الثامنة عشرة تدعو الماسونية إلى الثورة على العروش والكراسى الدينية.

ومن الطبيعى أن يدعـو هرتزل مؤسس الصهيونية إلى الماسـونية والإكثار من جمعياتها، وازدياد نشاطها.

ازداد عدد الماسونيـين فى العالم حتى بلغ ما بيـن ٤٠ ، ٥٠ مليون فرد فى العالم، وتعددت نفـقات الماسونية، منها نفـقات للترفيه والتبنى والإحـسان وإعانة المديونين، وإقامة حفلات زواج وتعازى ومشروعـات التعمير. وبالمحفل الرفيع فى برن فى سويسرا، نفق يؤدى إلى سـرداب مشحون بالذهب، ومجهـز بأشياء تحول دون القدرة على سرقته[١].

ومن أهداف الماسونية إقامـة حكومة عالمية، وإلغاء القوميات والحـياة العائلية والأديان. بحيث تحل الجمـاعة الماسونية مـحل الدين والوطن والعائلة. وهذا يدل على أن الذين اعتنقوا الماسونية انحرفوا عن الإسلام.

وهكذا انتـشرت الأفكار الإلحادية فى الـبلاد الإسلامـية، وكلهـا وافدة من الغرب للتـقليل من شأن الإسلام والمسلـمين. وبكل أسف آمن بها بعض ضـعاف العقـيدة من المسلمين الذى بهـرتهم الحضارة الأوربيـة وآمنوا بالفكر الأوربى الذى

---

(١) الزغبى: الماسونية فى العراء ص ١٠٥.

يسخر من الإسلام ومن تخلف المسلمين، ويدعو إلى أن الإسلام دين تخلف ويجمد الفكر والتقدم.

كما أن الاستعمار الأوربى الذى تعرض له العالم الإسلامى، قد ناصر ورفع من شأن أعداء الدين وتحالف مع المسيحية واليهودية على حساب الإسلام، وساندت الحكومات فى البلاد الإسلامية - الملوك والأمراء - الاستعمار، وكان بقاؤها مرهونا برضاء الاستعمار عنها. وعاش المسلمون فى معاناة من الحكام والاستعمار وخبائثه التى نشرها فى البلاد الإسلامية عن طريق الجمعيات التى أشرنا إليها أو الجاليات الأجنبية التى تمتعت بامتيازات حكومية، وساندها الاستعمار ودافع الأزهر بكل ما يستطيع عن الدين وأهله، بل انبعثت ثورة ١٩١٩م من الأزهر الشريف، وتحالف شيوخ الأزهر مع كبار رجال الدين المسيحى فى التصدى للاستعمار حتى لا ينفذ الاستعمار بين الفريقين ويبث سمومه بين عنصرى الأمة.

وسعى الإنجليز لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين حتى تكون شوكة فى جبين العالم العربى، وتكون جسرا للاستعمار الأوربى إذا ترك البلاد العربية.

فى خلال هذا الضعف الشديد الذى حل بالمسلمين، وضعف العقيدة، وانتشار الرذيلة، وجهل الناس بشئون دينهم، وضعف دور علماء الأزهر إزاء كل هذه التيارات الاستعمارية والحكومات العميلة ظهر فريق من المتشددين أرادوا لشرع الله أن يعلو ولحكمه أن يسود فوق أحكام وضعية من صنع البشر تجافى الحق والعدل. وهم فى اعتقادهم يؤيدون المرأة التى لا تختلط بالرجال، وتتزىّ بالزى الإسلامى، ويرفضون انقياد الشباب المسلم إلى الحضارة الغربية، ويرفضون تخلفهم عن نصرة الإسلام، ويدعون الشباب المسلم إلى الالتزام بدينه، ويضربون المثل والقدوة للناس وأن يرفقوا بالجماهير، ويحاولوا جاهدين نقلهم من ميدان العصيان والفجور إلى حدائق الطاعة والإحسان، والإسلام فى رأيهم محاصر وله أعداء يريدون النيل منه وإطفاء نوره، ودعوا أى أفراد هذه الجماعات الإسلامية أعضاءهم إلى الوقوف وقفة رجل واحد اعتزازا بهذا الدين واعتصاما بهدى نبيها المصطفى.

إن الحركة الإسلامية المعاصرة تحب الخير للمسلمين كافة، وتسعى إلى إنقاذ الأمة الإسلامية من براثن الجاهلية. ودعا المجاهدون إلى نصرة دين الله.

وهذه الجماعات الإسلامية الأخيرة تسلل إليها الجهل، واعتقد بعض شبابها أن القتل هو السبيل الوحيد للدفاع عن عقائدها، وأحلوا لأنفسهم أعمال الاغتيالات وسفك الدماء، لذلك قتلوا الكثير من الناس فى البلاد الإسلامية، وقاموا بثورة أسموها إسلامية فى الجزائر، تحولت إلى عصابات لصوص للقتل والسلب والنهب. مع أن الله عزز النفس الإنسانية ودعا إلى حفظها **﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾**.(1)

(1) سورة المائدة: آية ٣٢.

مفهوم الاستشراق

الاستشـراق هو دراسة علوم الشرق من قبـل غيرالشرقيـين. ويسمى هؤلاء الدارسـين بالمستـشرقـين، درسوا علـوم الشرق ولغـات الشرق وحـققـوا الكتب والمخطوطات الشرقية وفهرسوها، وأعادوا طباعة بعض كتب الشرق، وصنفوا كتبا قيمـة استفاد منها الشـرقيون، واتبعوا المنهج العلمى الحـديث فى دراساتهم لعلوم الشرق؛ لذلك أفادوا الشرقيين كثيـرا فى وقت أصيب فيه الفكر الإسلامى بالجمود والتدهور، ولا يصح المغالاة والإعـراض نهائيا عن قراءة كتب المستـشرقين بدعوى أنهم كتبـوا هذه الكتب للنيل من الإسلام. حقيقة لهم آراء فى الإسـلام لا يقبلها المسلم، ولهم افتراءات كثيرة على الإسـلام، كقولهم عن الرسول بأنه كانت تنتابه حالات من الصرع، زعم أنها وحيا، وصدقه المصدقون. وقال آخرون بأن الإسلام جذام انتشر بين النـاس الذين سموا بمسلمين. وأنه حوَّل المسلمين إلى مـتوحشين يقتلون الناس ويقتل بعضهم بعضا.

وحاول بعض المستشرقين التقليل من شأن الإسلام وثقافته وحضارته. وهذه الآراء أبداها بعض المستشرقين، ولا يصح أن نشغل أنفسنا بالرد عليها، لأنهم غير مسلمين، ينظرون إلى الإسلام على أنه دين ابتدعـه محمد، ويشنون حملات على الإسلام ونبيه، ولقـد سمعت داعيا إسلاميـا كبيرا يعمم القول على المسـتشرقين، ويقول: إن نعال الصحـابة أفضل من رقاب المستشرقين. وكـلام هذا الداعية كلام غيـر علمى، لأنه عمم القول على المسـتشرقـين، ونسى أفضال الكثـير منهم على الدراسات الإسـلامية، بل إن بعضـهم أدى خدمات للفكر الإسـلامى، لم يستطع المفكرون المسلمـون أداءها. ولا ننسى أن بعضـهم أنصف الإسلام ودافع عنـه مثل كارل بروكلمان وتولستوى وتوماس أرنولد وغـيرهم، ولا أتفق مع الأستاذ الدكتور شوقى أبو خليل على ما ذكره فى كتابه «أضواء على مواقف المستشرقين» ذكر فقط أقوال من تحامل على الإسلام وأسماها إسقاطات، وبدلا من أن يرد الحجة بالحجة والدليل القاطع يرد على افتراءاتهم بذم المسيحية. فكأنه عالج الخطأ بخطأ مثله.

لذلك يجب أن نأخذ من المستشرقين كتاباتهم العلمية الدقيقة والقيمة فى الدراسات الإسلامية، ونهمل ونحتقر كل افتراءاتهم على الإسلام ونبى الإسلام.

بدأت ظاهرة الاهتمام بعلوم الشرق منذ الحروب الصليبية، حيث كانت أوربا متخلفة علميا، وتعيش فى ظلام دامس، واطلعوا على علوم الشرق، فوجدوا أن المسلمين توصلوا إلى دراسات علمية كبيرة فى شتى المجالات، فحصلوا على الكتب الإسلامية، وأقبلوا على دراستها.

ونحن نعرف أن الوجود الإسلامى فى الأندلس، استمر ثمانية قرون، انتقلت خلالها علوم الشرق إلى الأندلس، ولما استعاد الأسبان الأندلس، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢م، وجدوا أن المسلمين خلفوا تراثا علميا ضخما فأخفاه الرهبان فى سراديب حتى انتهت موجة الاضطهاد للمسلمين، واستفاد الأوربيون من الكتب الإسلامية، وترجموها إلى اللغة اللاتينية.

كما أن التراث الإسلامى، انتقل إلى أوربا عن طريق جزيرة صقلية، التى استردها النورمان من المسلمين.

وأدت حملة نابليون بونابرت على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر إلى اطلاع أوربا على كتب ودراسات المسلمين، فقد صحب نابليون فى حملته فريق من العلماء، فأقبلوا على دراسة علوم الشرق. ومنها كتاب «وصف مصر» وما قام به شامبليون من فك رموز اللغة الهيروغليفية المنقوشة على حجر رشيد، وغير ذلك من الدراسات.

ولما قام الأوربيون بحملاتهم الاستعمارية على بلاد الشرق، واحتلوا مصر والشام وبلاد المغرب والجزائر وليبيا والعراق وإيران وأندونيسيا وبعض البلاد الأفريقية، رأى علماء أوربا ضرورة دراسة الشرق من جميع نواحيه التاريخية والجغرافية واللغوية والأدبية والفلسفية وغير ذلك مما يتصل بالتعريف بالشرق.

وأسست الدولة الأوربية كراسى للدراسات الشرقية فى جامعاتها وزودوا مكتبات الجامعات بالكتب والمخطوطات الشرقية، وأقبل الأساتذة والطلاب على دراسة لغات وعلوم الشرق والتأليف فيها.

الاستشراق فى فرنسا

اهتم الفرنسيون بالدراسات الشرقية منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر فأنشأت مدارس القار الشرقية، ومدارس خاصة بدراسات الشرق فى أديرة الرهبان، وأوقفت عليها الأوقاف للإنفاق عليها وعلى طلابها، وأُنشئ فى فرنسا فى أواخر القرن الثالث عشر معهدا لتعليم اللغات الشرقية وتلا ذلك إنشاء كراسى اللغات العربية والعبرية والفارسية والكلدانية فى العواصم الأوربية، وأنشئ كرسى للدراسات الإسلامية فى جامعة باريس، تتمة للقسم العربى فى السوربون، وتعددت معاهد الدراسات الإسلامية فى فرنسا، وأقبل عليها الطلاب[1].

وأنشئت المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية فى باريس أواخر القرن الثامن عشر للسفراء والقناصل والتجار.

وتعددت الدراسات الإسلامية والشرقية فى جامعات ومعاهد فرنسا، بل أنشأت فرنسا معاهد من هذا النوع فى مصر وتونس والجزائر والرباط ودمشق وطهران وغيرها من بلاد الشرق.

وتتضمن مكتبة باريس الوطنية سبعة آلاف مخطوط عربى من بينها نفائس علمية وأدبية رائعة، جمعها القناصل من بلاد الشرق، أو كانت فى حوزة الرهبان، ومنها مصحف يرجع إلى القرن الثالث أوالرابع الهجرى مكتوب على الرق، ومنها كتب البيرونى وابن سينا وابن الهيثم ومقامات الحريرى، وكتب فى الفلك للبلخى، وضمت المكتبة بالإضافة إلى المخطوطات القيمة نوادر النقود والأوسمة والأختام والخرائط وصنف الدارسون فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة باريس، وطُبعت بعض الكتب، عقب اختراع فن الطباعة.

يضاف إلى الكتب الموجودة فى المكتبة الوطنية بباريس، كتب قيمة تعد بالآلاف فى المكتبات الخاصة التى يمتلكها المستشرقون والرحالة وما حصل عليه السفراء والقناصل والتجار من نوادر الكتب والمخطوطات العربية والإسلامية. ولا يزال العرب عاجزين عن الوصول إليها.

---

(١) نجيب عفيفى: المستشرقون جـ ١ ص ١٣٩.

وأصدر الفرنسيون مجلات متخصصة فى دراسة الشرق، منها «صحيفة العلماء» التى يصدرها مجموعة العلماء الفرنسيين فى باريس، ومنها المجلة الأفريقية التى كانت تصدرها الجمعية التاريخية فى الجزائر، ومنها مجلة «تاريخ الأديان» والمجلة التونسية والمخطوطات المغربية ومجلة الدراسات الإسلامية التى صدرت فى باريس عام ١٩٢٧م تحت إشراف ماسينيون. ومنها نشرة المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية فى دمشق. وغير ذلك من المجلات العلمية العديدة.

درس الفرنسيون علوم الشرق فى اللغة وفقه اللغة والنحو والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والآثار والفنون والديانات والنظم الإسلامية واعتمدوا على المخطوطات العربية والفارسية والتركية.

والبارون دى ساسى[1] - شيخ المستشرقين (١٧٥٨ - ١٨٣٨م)، أنشأ المجلة الأسيوية، وهى من أهم المجلات الاستشراقية، وألف كتاب النحو العربى، وهو من أهم الكتب فى هذا المجال، وحقق مقامات الحريرى، وكتاب كليلة ودمنة وحقق كتاب «الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار» تأليف عبد اللطيف البغدادى.

والمستشرق كاترمير - تلميذ دى ساس. كتب عن عبد الله بن الزبير، وحقق مغول الفرس لرشيد الدين فضل الله. وتفصيل جغرافية مسالك الأبصار للعمرى، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى متنا وترجمة مع تعليقات تاريخية ولغوية وجغرافية فى أربعة أجزاء، و «تقويم البلدان» لأبى الفداء، وحقق مقدمة ابن خلدون فى ثلاثة أجزاء، وحقق جزءا من الروضتين لأبى شامة، ووضع كتابا بعنوان اللغة العربية وآدابها وجغرافيتها فى مجلدين، واشترك مع دى ساس فى الإشراف على طبع التوراة باللغة العربية. وكتب عن الأقباط والهنود والأقباط والبربر، والمسعودى وآثاره وكتب عن الأفارقة، والسامريين. وقام بلاشير وشومى ودينزو مع ساس بنشر القاموس العربى الفرنسى الإنجليزى، ودرس جوليان «تاريخ شمال أفريقيا».

---

(١) ساس سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها فى الدراسات الإسلامية ص ١٢٠.

ومن تلاميذ دى ساس، كاترمير (١٧٨٢ ـ ١٨٥٢م) شغل وظيفة أمين المخطوطات العربية فى مكتبة باريس، وله دراسات قيمة من التحقيقات والترجمات والمصنفات عن العرب قبل الإسلام وبعده تاريخا وجغرافية وثقافة عامة، وأصبح إمام الاستشراق بعد أستاذه دى ساس[1].

ومن المستشرقين الفرنسيين، بلوشيه ـ أمين المخطوطات الشرقية فى المكتبة الوطنية بباريس (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧م) وضع فهرسا للمخطوطات العربية والفارسية والتركية لمجموعة شيفر، وفهرس المخطوطات التى حصلت عليها المكتبة الأهلية بباريس. ومن دراساته «التصوف الشرقى» نقود المغول، وأثر النصرانية والبوذية فى الإسلام، والباطنية الإسلامية والسر فى العقيدة الإسلامية، وإدراك الجوهر وصفاته فى الإسلام والقبور الإسلامية الصينية[2].

وقام العلماء الفرنسيون بتغطية كاملة لبلاد المغرب العربى من ناحية التاريخ والجغرافيا والحياة الاجتماعية والوضع الاقتصادى والفلكلور واللغة البربرية. ومن أبرز المستشرقين الذين كتبوا عن شمال أفريقيا جورج مارسه (١٨٧٦ ـ ١٩٦٢م) عُين أستاذا للآثار الإسلامية فى كلية الآداب بالجزائر، ومديرا لمعهد الدراسات الشرقية فى الجزائر، صنف كتاب «الأبنية العربية فى تلمسان» «تاريخ العرب فى بلاد البربر من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر» و «قبة جامع القيروان الكبير وسقوفه» وله «الفن الإسلامى والعمارة» ـ «العمارة الإسلامية فى المغرب وتونس والجزائر والأندلس وصقلية» ـ تاريخ المغرب الدينى ـ وله دراسات عن الفن الإسلامى فى قرطبة وبلاد المغرب. وكتب عن الصور فى الفن الإسلامى وجوامع القاهرة، وله دراسات عن العمارة الإسلامية فى مصر فى عصر الإخشيد والفاطميين.

ومن أبرز المستشرقين الفرنسيين ليفى بروفنسال (١٨٩٤ ـ ١٩٥٦م) وُلد فى الجزائر، وعُين أستاذا فى كلية الآداب بها، ومديرا لمعهد الدراسات العليا المغربية فى الرباط، وكان يدرس فى الرباط والجزائر والسوربون تاريخ الغرب والأندلس،

---

(١) نجيب عفيفى: المستشرقون ص ١٧١ ، ١٧٢.

(٢) نجيب عفيفى: المستشرقون ص ٢٤٤.

وفى سنة ١٩٣٨ دعته جامعة القاهرة أستاذا زائرا وعُين أستاذا للعربيـة والحضارة الإسلامية فـى جامعة باريس، ووكيلا لمعـهد الدراسات السامية، ومـديرا للمطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية، وأنشأ مجلة أرابيكا للدراسات الإسلامية.

أخـرج ليفى المجـلد الأول من المخطوطات العـربية فى الربـاط وبحثـا عن المصـحف الشـريف ترجع للقـرن الرابع عشـر، وكـتب بحـثا قـيـما للأشـراف السجلمـاسيين والعلويين، ودرس بعض المخطوطات القـيمة، ووضع فهـرسا عن المخطوطات العربية فى الإسكروبال يكمل به فهرس درنبورج.

وفى دراسته لتاريخ الأندلس يعتمد علـى أبحاث غير منشورة، ونشر العديد من الأبحاث فى تاريخ المغرب والأندلس.

أما المستشرق لامانس، كتب كتـبا قيمة عن الدولة الأموية، وتاريخ الإسلام فى الشام، وفى تعـرضه للحقبـة الأولى من تاريخ الإسلام يتحـامل على الرسول والإسلام عوما.

دور الإيطاليين فى الاستشراق

لإيطاليا علاقات قديمة مع الشرق، نشأت مع سيطرة الإمبراطورية الرومانية على البلاد الشرقـية التى تقع على البحر المتوسط، كـما أن المدن الإيطالية ـ وهى جمـهوريات مسـتقلة ـ كـان لها نشاط تجـارى كبيـر مع بلاد الشرق وفـور ظهور الاستشراق، أنشأ البابوات فى روما كـراسى للغات والدراسات الشرقية، ومكاتب لعلوم الشرق، ومطابع، ومدارس لتعليم اللغات العربية والعبرية والسريانية.

وأنشأت إيطاليا معهدا للدراسات الشرقية ملحقا بكلية الآداب بروما وفيه فقه للغات السامية والآثار المصرية واللغـة والآداب العربية والعلوم الإسلامية، وأنشأت فصولا لتعليم اللغات العربية والفارسيـة والتركية، ومركزا للدراسات السامية، وله نشرات ومحاضرات ومـجلة للدراسات الشرقية، وفيها تعريف بأعمـال المستشرقين وجهودهم، وقام المستـشرقون الإيطاليون بفهرسة المخطوطات العـربية والشرقية فى جامعات إيطاليا، ونشر وتحقيق الكتب العربية والإسلامية والتعريف بها. كل ذلك هيأ للإيطاليين الاطلاع على علوم الشرق والاستفادة منها والتأليف فيها.

ومن أشهر المستشرقين الإيطاليين، الأب مارينى (ت ١٨٠٦م) والأب جريجوريوت (ت ١٨٠٩م)، والأب بينشيات (ت ١٨٣٩م)، وروزلينى (ت ١٨٤٣م)، وميشيل أمارى (ت ١٨٨٩م)، وتعلم العربية وأجادها، وُلد فى بالرمو، وكتب عن تاريخ صقلية، وتعددت طبعاته فى عدة لغات، وعُين أستاذا للقانون فى جامعة بالرمو فى صقلية وترجم فصلا عن رحلة ابن جبير إلى الفرنسية، وحقق المسالك والممالك لابن حوقل، وصنف كتاب «المسلمين فى صقلية» وكتاب فى المكتبة العربية بصقلية، وهو تاريخ صقلية، أوضح فيه تاريخ وجغرافية صقلية والكتب التى درست صقلية، وتراجم لمؤلفيها، ونشر خريطة الإدريسى عن صقلية، ونشر دراسة هامة عن المعاهدات الرسمية بين سلاطين مصر المماليك ورؤساء الجمهوريات الإيطالية. وكتب عن النقوش العربية فى صقلية ونشر رسالة فى مشاهير ممالك عباد الصليب لابن فضل الله العمرى.

والخلاصة أن كتابات أمارى وبحوثه تعتبران المصدر الرئيسى لكل من يريد الاطلاع على تاريخ وآثار وجغرافية صقلية.

ومن أبرز المستشرقين الإيطاليين إغناطيوس جويدى (١٨٤٤ ـ ١٩٣٥م) درَس اللغة العربية فى روما، وقارن بينها وبين اللغات السامية، ودرَس تاريخ الحبشة ولغاتها، وانتدبته مصر أستاذا للأدب العربى فى الجامعة المصرية، وتخرج على يديه الكثير من المصريين، وكان يلقى محاضراته باللغة العربية الفصحى، وعاد إلى روما، وبرزت مكانته العلمية، حتى اعتبر شيخ المستشرقين فى اللغات السامية. ومن دراساته دراسة نص «كليلة ودمنة»، وقصيدة كعب بن زهير الذى اعتذر للرسول عن هجائه له ومطلعها «بانت سعاد..» وفهرس كتاب الأغانى، وله فهارس للمخطوطات العربية فى إيطاليا، وألقى محاضرات عن الإسلام فى الجامعة المصرية القديمة. غير أنه قال: إن قصص القرآن قصص شعبية توارثها العرب عن بنى إسرائيل ونقحها محمد وكتبها بأسلوب أدبى، وضمها إلى كتابه القرآن. وكان ينكر وجود كل أعلام الأدب العربى قبل الإسلام. وقد تأثر به بعض تلاميذه المصريين[١].

---

(١) نجيب عقيقى: المستشرقون ص ٤٢٥ ، ٤٢٦.

ومن المستشرقين بيتزى إيطالو وسانتيلا وكانتيانى توفى سنة ١٩٢٦م - ومن دراساته تاريخ الإسلام من العام الهجرى الأول حتى قيام الدولة العثمانية - نمو الشخصية الإسلامية - انتشار الإسلام وتطور الحضارة، وفهرس مجموعات من المخطوطات، وشرع مع بعض العلماء بعمل معجم الأعلام عن شخصيات العالم الإسلامى، وتتضمن ترجماتهم ومؤلفاتهم، والمصادر التى تناولت الحديث عنهم، ولكن الموت حال بينه وبين تكملة مهمته(١). ومما يجدر ذكره أنه أنفق معظم أمواله فى شراء المخطوطات والكتب العربية حتى أفلس تماما.

نلليون كارلو (ت ١٩٣٨م)، حاضر فى الجامعة المصرية القديمة فى الفلك والأدب العربى، وتاريخ العرب قبل الإسلام. ومن كتبه «منتخبات من القرآن» و«تكوين القبائل العربية فى الإسلام» ونشر بعض الكتب الجغرافية، وفهرس وصنف المخطوطات العربية فى المكتبة الوطنية لمجمع العلوم فى تورينو، وحقق ونشر بعض الكتابات العربية على القبور الإيطالية، ودوّن بالعربية «تاريخ الفلك عند العرب» و «الأدب العربى منذ فجره حتى نهاية الدولة الأموية».

ومن المستشرقين الطليان إغناطيوس جويدى (١٨٤٤ - ١٩٣٥م) عالم بالعربية والحبشية والسريانية، من أعضاء المجمع العلمى العربى، وكان شيخ المستشرقين فى عصره، وُلد فى روما، وعُهد إليه بتعليم العربية فى جامعاتها ١٨٨٥م، وعُين أستاذا فى الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨م. - وقد أشرنا إليه - وكان يلقى محاضراته بالعربية ومن كتبه العديدة محاضرات أدبيات الجغرافيا - التاريخ واللغة عند العرب، وتتضمن أربعين محاضرة ألقاها فى الجامعة المصرية.

ومن كتبه «جداول كتاب الأغانى» يحتوى على فهارس الشعراء والقوافى والأعلام والأمكنة، ومن كتبه «المختصر» رسالة فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة، ونشر كتابى «الاستدراك على سيبويه» للزبيدى ونشر «الأفعال وتصاريفها» لابن القوطية(٢).

---

(١) نجيب عفيفى: المستشرقون ص ٤٣٠.

(٢) الزركلى: الأعلام جـ ١ ص ٣٣٦.

الاستشراق فى إنجلترا

أسس السير توماس آدمز، كرسى للدراسات العربية فى جامعة كمبردج سنة ١٦٣٢م، وكرسى آخر للعربية فى جامعة أكسفورد، وتولاه وليم جونز.

تناول الاستشراق الإنجليزى ألوان المعرفة العربية من لغات وآداب وعلوم وفنون وعقائد وتاريخ وجغرافيا وآثار.

ومن الطبيعى أن تهتم إنجلترا أكثر من غيرها من دول أوربا بالدراسات الشرقية والإسلامية، لصلاتها القوية فى الشرق، حيث استعمر الإنجليز الكثير من دول الشرق مثل الهند ومصر والعراق وعدن وبعض الدول الآسيوية الأخرى والأفريقية، دفعهم ذلك إلى الرغبة فى المعرفة عن الشرق من جميع نواحيه التاريخية والجغرافية والعمرانية، والاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛ لذلك أقبل العلماء الإنجليز بشغف كبير على دراسة علوم الشرق، خدمة للأهداف الاستعمارية الإنجليزية أولا، وللعلم ثانيا.

تولى سيمون أوكلى تدريس اللغة العربية فى جامعة كمبردج وألف كتابه الشهير «تاريخ المسلمين» تناول التاريخ السياسى والثقافى للإسلام حتى القرن الرابع عشر الميلادى، وترجم جورج سيل القرآن ترجمة دقيقة، وأصبحت هذه الترجمة المرجع الأساسى للدارسين فى أوربا، وكتب بموضوعية عن الرسول والإسلام.

عمرت المكتبات فى إنجلترا وجامعاتها بكتب الشرق والإسلام، مثل المكتبة التابعة لجامعة أكسفورد، ومكتبة جامعة كمبردج، ووضع إدوارد جرانفيل، فهرس المخطوطات الإسلامية فى ٤٤٠ صفحة، ومن المكتبات، مكتبة جامعة لندن، ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وغيرها، وتكونت الجمعيات للدراسات الإسلامية، وأُسست المجلات العلمية، وبها بحوث فى علوم الشرق، ومنها مجلة الجمعية الآسيوية فى جاوه، وأخرى فى البنغال وفى بومباى والجمعية الآسيوية الملكية لبريطانيا وأيرلندا[١].

ومن أبرز أساتذة الدراسات الشرقية، إدوارد وليم لين (ت ١٨٧٦م) تعلم العربية، وزار مصر، وتجول فى أنحائها، حتى عرف عادات وتقاليد المصريين، وتعلم العربية جيدا، الفصحى والعامية، وألف كتاب «طبائع المصريين وعاداتهم» وترجم إلى الإنجليزية كتاب ألف ليلة وليلة بدقة بالغة، وألف المعجم العربى الإنجليزى، وهو من أهم المعاجم الأجنبية.

ومن المستشرقين الإنجليز مارجليوث (ت ١٩٤٠م) أستاذ العربية فى جامعة أكسفورد عمل فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية والمجمع اللغوى البريطانى، ورئيس تحرير المجلة الآسيوية البريطانية، نشر كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الحموى، وكتاب منشأ الشعر الجاهلى، وترجم رسائل أبى العلاء المعرى إلى الإنجليزية ونشر حماسة البحترى، وفهرس ديوان أبى تمام وتأثر به طه حسين فى كتابه «فى الأدب الجاهلى» الذى يثير الشكوك فى شعر وشعراء الجاهلية، ونشر كتاب «نشوار المحاضرة للتنوخى» وتحامل فى كتابه على الإسلام.

ومن أفضل المستشرقين الإنجليز، نيكلسون (ت ١٩٤٥م)، وهو حجة فى التصوف الإسلامى، وحدد نشأة التصوف فى الإسلام، وهو مأخوذ من الزهد والرهبنة والبوذية، وترجم لبعض متصوفى الإسلام، وأوضح آراءهم وأفكارهم مثل ذو النون والحلاج وابن الفارض وجلال الدين الرومى وابن عربى وغيرهم. ويعتبر كتابه «فى التصوف الإسلامى» من أروع ما كتب فى هذا المجال. ودرس رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، واشترك فى نشر «تذكرة الأولياء» للعطار، وكتب عن الأدب العربى ووضع فهرس المخطوطات الشرقية فى مكتبة براون، ودرس متصوفو الإسلام وشعراء الإسلام، والأدب الشعبى العربى والفارسى.

ألف السير صمويل بيكر (ت ١٨٩٣م)، «حوض النيل الكبير» «قصة حملته إلى أواسط أفريقيا للقضاء على تجارة الرقيق».

---

(١) الظاهرة الاستشراقية ص ١٤٠ ، ١٤١.

وألف السير وليم تمبل ميور (ت ١٩٠٥م) «سيرة النبى والتاريخ الإسلامى» شرح فيه تاريخ الرسول وتطور الإسلام بموضوعية ودقة وإنصاف. وله كتاب الخلافة: قيامها وقوتها وسقوطها - تتبع فى هذا الكتاب تطور الدولة الإسلامية فى عصرى الخلفاء الأمويين والعباسيين. والكتاب يشمل تطور سياسى ودراسة حضارية لهذه الفترة الطويلة من تاريخ الإسلام، واعتمد على المصادر الأصلية. لذلك أفاد هذا الكتاب الأوربيين والعرب على السواء، وله كتاب «مصادر الإسلام» و «دولة المماليك فى مصر» وله بحوث ومقالات فى حضارة الإسلام.

وكتب السير رتشارد برتون (ت ١٨٩٠م) ثلاثة كتب عن الهند والحكمة نقلا عن السنسكريتية. وله كتاب «الحج إلى مكة والمدينة» وهو من أهم المراجع عند الأوربيين، وله دراسات عميقة عن أفريقيا(١).

وأما بالمر إدوارد هنرى (ت ١٨٨٣م)، تجول فى جزيرة سيناء على صهوة جواده، وكوّن علاقات بالبدو، وأتقن اللغة العربية تماما، حتى كان يقول الشعر العربى، وأسمى نفسه الشيخ عبد الله. ومن كتبه «التصوف الشرقى» - قواعد اللغة العربية - فهرست المخطوطات العربية والفارسية والتركية والهندية - رحلة فى شبه جزيرة سيناء - ترجمة القرآن ودراسة عنه. ونشر بعض الدواوين الشعرية وشروحها وعلق عليها.

والمؤرخ هورث (١٩٢٣م)، تخصص فى دراسة المغول. وكتابه تاريخ المغول من أهم الكتب فى هذا الموضوع، ويقع فى خمسة أجزاء.

وألف اللورد كرومر المندوب السامى فى مصر، كتاب «مصر الحديثة» و«عباس الثانى خديوى مصر».

تخصص لى سترانج (ت ١٩٣٤م) فى الدراسات الشرقية، وأتقن اللغات العربية والفارسية والتركية، ومن آرائه القيمة بأن دراسات تاريخ شعب من الشعوب لابد أن يصحبه دراسة جغرافية البلد الذى يعيش فيه هذا الشعب. ومن أهم كتبه «بلدان الخلافة الشرقية» وهو مرجع رئيسى لكل دارس لحضارة المشرق الإسلامى،

---

(١) نجيب عقيقى: المستشرقون جـ ٢ ص ٦٠.

وخصوصا النـظم الإدارية ومواقع المدن والبلدان، وحقق كتاب «أحسن التقاسيم للمقدسى» ووصف فارس فى مطلع القرن الرابع عشر، وله كتاب «فلسطين فى عهد المسلمين» - «بغداد فى عصر الخلافة» - «العراق وفارس تحت حكم المغول» و«خطط البلاد العربية» وهو جغرافيا تاريخية لفارس وأرمينية وآسيا الوسطى.

وإدوارد جرانفيل براون (١٩٢٦م)، درس اللغات الشرقية، وعُين محاضرا للفارسية فى كمبردج ثم أستاذا لكرسى اللغة العربية، وأتقن اللغتين العربية والفارسية، ودرس تعاليم الإسلام، وكان يجمع الطلاب العرب والفرس فى محاضراته لكى ينطقوا ويقرأوا اللغة الصحيحة، وكوّن لجنة جب التذكارية، وتضم خيرة العلماء، واختاروا بعض الكتب الإسلامية لتحقيقها ونشرها، ولما بلغ الستين أهداه ثلاثة وأربعون أستاذا من إحدى عشرة دولة كتابا يتضمن أبحاثهم، وألف طلابه ومريدوه فى إيران كتاب «عجب نامه» به قصائد لشعراء إيران[1]. وله كتاب تاريخ الأدب الفارسى، ومن المستشرقين الإنجليز لين بول، كتب عن تاريخ مصر فى العصور الوسطى، وكتب عن الأسرات الإسلامية الحاكمة، وكتب عن صلاح الدين الأيوبى، وله كتابات فى تاريخ الإسلام فى الهند، وله دراسات إسلامية أخرى فى النقود والآثار الإسلامية.

الاستشراق فى ألمانيا

على الرغم من أن الألمان لم يكن لهم دور فى الاستعمار لبلاد الشرق إلا أنهم احتكوا بالشرق عن طريق تحالفهم مع الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، ودرسوا علوم الشرق بدقتهم المعهودة.

ويعتبر رايسكه مؤسس الاستشراق فى ألمانيا، وتوفى سنة ١٧٧٤م تعلم اللغة العربية بجهوده الخاصة، واشترى ما تيسر له من الكتب العربية رغم فقره الشديد، ونشر المقامة ٢٦، من مقامات الحريرى، بعد أن ترجمها إلى اللاتينية، ولما انتقل إلى جامعة لندن أوقف دراسته على المعلقات ودرسها دراسة علمية نقدية دقيقة، وقام بفهرسة المخطوطات العربية الموجودة فى مكتبة ليدن، واستنسخ مؤلفات ابن قتيبة وأبى الفداء وابن أبى أصيبعة[2].

---

(١) نجيب عفيفى: المستشرقون جـ ١ ص ٨٦.

(٢) ساسى سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية ص ١٤٧.

ويعتبر هذا المستشرق المؤسس الحقيقى لدراسة اللغة العربية فى ألمانيا وأوربا، ومات فقيرا، بعد أن أُطلق عليه «شهيد الأدب العربى» وازدادت المكتبات العربية فى ألمانيا، وكثر عدد كراسى اللغة العربية فى جامعات ألمانيا، وامتلأت المكتبات الشرقية فى ألمانيا بالمخطوطات العربية، وأنشئت المجلات المتخصصة للدراسات الشرقية، ومجلة الإسلام وأسس فيشر مجلة إسلاميات.

وترجم المستشرقون الألمان أشعار الصوفية، مثل أشعار جلال الدين الرومى والحافظ الشيرازى، وترجموا قسما من القرآن الكريم ومقامات الحريرى بدقة بالغة.

ومن كبار المستشرقين الألمان فلوجل، وقد أنجز إنجازا هائلا فى الفكر الإسلامى، وهو المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ويسر للناس بهذا المعجم التوصل إلى الآية الصحيحة من خلال وضع كل لفظ فى الفهرس، ونشر فلوجل كتاب «كشف الظنون فى أسماى الكتب والفنون» لحاجى خليفة، وكتاب «الفهرست» لابن النديم، ووضع فهرس المخطوطات العربية الموجود فى جامعة ڤيينا.

ووضع إهلفارت ـ الذى تعلم العربية وأتقنها ـ فهرس مكتبة برلين عن المخطوطات العربية والذى بلغ عشر مجلدات، وأمضى فى تصنيفه عشرين عاما.

أما يوليوس فلهوزن، فهو باحث فى الكتاب المقدس، الجديد والقديم وباحث فى التاريخ العربى، وُلد سنة ١٨٤٤م، عمل أستاذًا للاهوت ولكنه اقتنع بأن الكتاب القديم لا يمكن أن يكون من عند الله، فتخلى عن عمله، وشغل وظيفة أستاذ للغات الشرقية فى بعض جامعات ألمانيا وتوفى سنة ١٩١٨م.

وترجع شهرة فلهوزن إلى دراسته النقدية فى ميدان دراسة العهد القديم وتاريخه، وهو مفكر متحرر، يعتد بالعقل، ويعنى فى دراسته بالنقد وفى دراسة الكتاب المقدس، وجد أنه ينقصه الوحدة والانسجام سواء من حيث الفكرة أو من حيث الأسلوب والعبارة، فلا يمكن أن يكون من عند الله، بل كتبه الناس. وبذلك فتح الطريق أمام الدراسات النقدية للكتاب المقدس.

واجه فلهوزن انتقادات حادة من المتمسكين بالكتاب المقدس فتفرغ إلى الدراسات العربية والإسلامية، ودرس الوثنية العربية قبل الإسلام وترجم كتاب «المغازى» للواقدى بعنوان «محمد فى المدينة» وألف كتابه القيم «تاريخ الدول العربية» الذى يعتبر مرجعا أساسيا للدولة الأموية، اتبع فلهوزن فى دراسة هذا الكتاب الأسلوب العلمى السليم، فقرأ كل الروايات والمصادر عن الدولة الأموية، وحلل هذه الروايات تحليلا دقيقا وأخضعها لمنهجه النقدى، ودرس الشعر واستخرج منه معلومات قيمة عن سير الأحداث فى العهد الأموى، لذلك فإن كتابه من أهم الكتب التى كتبها الأوربيون وغير الأوربيين عن الدولة العربية.

جمع فلهوزن بين الجدية العلمية والعمق والعدالة، وجمع بين روح العالم وموضوعيته، وبين روح الفنان وذاتيته، وهو يستوعب ما قرأ من المراجع جيدا، وهو يحسن اختصار الموضوعات، ولا يخل بالجوهر.

أما آدم متز فهو من أوائل المؤرخين الذين كتبوا فى الحضارة الإسلامية، وتوفى سنة ١٩١٧م، كان أستاذا للغات الشرقية بجامعة بازل فى سويسرا، ويدل كتابه «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» على سعة اطلاع مؤلفه وتعمقه فى الدراسات الإسلامية[١].

كتب عن الحضارة الإسلامية من جميع جوانبها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وكتب عن النظم الإسلامية. ولم يترك مخطوطا ولا مصدرا ولا مرجعا يتناول هذا الموضوع إلا درسه واعتمد عليه. وبعض هذه المخطوطات لم ينشر حتى الآن. ومما لا شك فيه أن الترجمة كانت عسيرة وشاقة. وقد تصدى لهذا العمل الشاق بكل قوة وصبر. وأصبح هذا الكتاب من أهم كتب التاريخ، كان أستاذا للغات الشرقية بجامعة بازل فى سويسرا. ويدل هذا الكتاب على سعة اطلاع المؤلف فى مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية العربية وغير العربية. ورجع إلى المخطوطات فى جامعات باريس ولندن وبرلين وليدن وليبزج وميونخ وڤيينا، ورجع إلى المجلات العلمية المتخصصة فى نشر بحوث عن الإسلام والتى تصدر فى أوربا. لذلك أحاط المؤلف بجوانب الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة

---

(١) محمد عبد الهادى أبو ريدة: مقدمة كتاب فلهوزن الدولة العربية.

وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع. وكشف فى دراسة غامضة عالجها فى صبر وأناة حتى أوضحها. وكان يجمع النصوص ويرددها دون أن يتدخل فى تفسيرها وتحليلها.

وأحيانا يخطئ فى فهم بعض النصوص، وأحيانا يذكر جزءا من النص ولا يكمله غير أن الكتاب يعلمنا طرق البحث. والكتاب يكشف لدارس التاريخ الإسلامى عن جوانب غامضة فى الحضارة الإسلامية، ويعطيهم مادة غزيرة فى هذا المجال.

جولدتسيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١م)

حياته حافلة بالبحث والدرس والتأليف، ومجال نشاطه العلمى فى بودابست عاصمة المجر، وتزيد أبحاثه على بضع مئآت. ومن أهم كتبه «الظاهرية ومذهبهم وتاريخهم» وظهر عام ١٨٨٤م ثم «دراسات إسلامية» ـ «محاضرات فى الإسلام» ويعرف «العقيدة والشريعة فى الإسلام» ومن أبرز مؤلفاته «مذاهب المسلمين فى تفسير القرآن».

وهو من كبار المستشرقين الذين فهموا بقدر ما وسعهم الإسلام وروحه وتعاليمه ومذاهبه، والعوامل التى أثرت فى ذلك كله، ووجهته وجهات مختلفة. وكتابه «مذاهب المسلمين» دراسة تفصيلية للإسلام من جميع نواحيه، من ناحية رسوله والشريعة ونموها والعقيدة وتطورها والزهد والتصوف ونشأتهما والعوامل التى أثرت فيهما، والفرق الإسلامية المختلفة، ثم الحركات الإسلامية فى رأى أصحابها.

والكتاب بالغ القيمة فى الدراسات الإسلامية، ولكن يؤخذ على المؤلف بعض الآراء التى تتعارض مع الإسلام، وقد رد عليها الدكتور على حسن عبد القادر فى ترجمته لهذا الكتاب.

تيودر نولدكه (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠م)

تخصص فى علوم القرآن، وألف كتاب «نشوء وتركيب السور القرآنية» وكتاب «تاريخ القرآن» ويعتبر بحق واضع أسس البحث العلمى للدراسات القرآنية.

وُلد فى هامبرج، وهو من أسرة عريقة، تعلم اللغات السامية والفارسية والتركية والسنسكريتية، ورسالته «أصل وتركيب سور القرآن»، وشغل وظيفة أستاذ اللغات السامية والتاريخ الإسلامى ووظيفة أستاذ التوراة واللغات السامية والسنسكريتية ثم الأرامية فى بعض جامعات ألمانيا.

أعاد النظر فى رسالته «نشوء وتركيب السورالقرآنية» وكتبها فى كتاب «تاريخ النص القرآنى» عالج بدقة بالغة موضوع تاريخ سور القرآن وله فكرة عامة عن حياة محمد - و «فى سبيل فهم الشعر الجاهلى» - و «قواعد إحدى اللغات الآرامية» - «تاريخ الفرس والعرب فى عهد الساسانيين» - «قواعد اللغة السريانية» - «تاريخ الشعوب السامية» واللغات السامانية.

وكتب بالعربية مختارات من الأغانى العربية القديمة (العصر الأموى) وهو من أكبر المستشرقين الألمان، وُلد فى هامبرج فى ألمانيا، وتعلم فى جامعات نموتنجن وليدن وبرلين، وانصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامى، وعُين أستاذا فى جامعة نموتنجن ١٨٦١م فجامعة كيل ١٨٦٤م ثم جامعة ستراسبورج ١٨٧٢م، وله كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، منها تاريخ القرآن - دراسات لشعر العرب القدماء - النحو العربى - خمس معلقات ترجمها إلى الألمانية وشرحها، ونشر فى مجلات الغرب بحوثا كثيرة، منها رسالة فى أمراء غسان. وله بالعربية منتخبات الأشعار العربية، واشترك فى الإشراف على طباعة تاريخ الطبرى، وترجمته إلى الألمانية. كان يحسن اللغات الشرقية كالعربية والآرامية والعبرية والحبشية والصائبية وغيرها. وله تصحيحات وتحقيقات فى هذه اللغات.

ويؤخذ على نولدكه أنه أساء إلى الإسلام، فزعم أن آيات القرآن مكررة ومتناقضة وذكر أن جميع القرآن حدث فيه أخطاء كثيرة لاعتماده على الحفظ وعلى كتابات يصعب قراءتها. وتبنى الرأى الخاطئ الذى يزعم أن الرسول كانت تحدث له إغماءات، يفيق منها فيحدث صحابته عن الآيات التى اخترعها من عنده[١] وهذه مزاعم باطلة وغير معقولة، ولكنها لا تقلل من قدر هذا المستشرق فى الدراسات الإسلامية.

---

(١) الزركلى: الأعلام جـ ١ ص ٩٦.

من أبرز المستشرقين الألمان كارل بروكلمان من أبناء بروسيا الشرقية، وُلد سنة ١٨٦٨م، اتجه إلى دراسة التاريخ واللغتين اليونانية واللاتينية وعندما انتقل إلى جامعة ستراسبورج - على ضفاف نهر الراين - تتلمذ على نولدكه - من كبار أساتذة اللغات السامية والعربية فى ألمانيا - ودرس السامية وأصبح من أقرب الطلاب إليه، وفتح له مكتبته وأوراقه وأبحاثه، وحصل على الدكتوراه سنة ١٨٩١م فى الدراسات السامية، وموضع رسالته «العلاقة بين تاريخ الطبرى وابن الأثير» مكنت هذه الرسالة بروكلمان من التعمق فى الروايات التاريخية العربية والإسلامية.

اتجهت ألمانيا فى عهد القيصر فلهلم الثانى إلى تكوين مستعمرات فيما وراء البحار محاكاة لإنجلترا وفرنسا، فعزز هذا القيصر أقسام الدراسات الشرقية فى جامعات ألمانيا، وأغدق عليها الأموال. وسيطرت ألمانيا على تنزانيا، وأنشأت ألمانيا معهدا للدراسات الشرقية فى برلين، وأسندت إدارته إلى بيكر، وكان متحمسا لألمانيا، واشتد العداء بينه وبين بيكر.

بدأ كارل بروكلمان حياته الجامعية مدرسا فى جامعة برسلاو، ثم أستاذا مساعدا فى معهد الدراسات الشرقية فى برلين سنة ١٩١٠م عُين أستاذ كرسى بجامعة كوتجزبرج، واشتد شغفه بالدراسات الشرقية، وزار الأستانة سنة ١٨٩٥ - ١٨٩٦م، وزار الجزائر، وجمع فيها كتاب ابن خلدون ودرسه، وكتب بعض أجزائه، وكان يدرس علوم الشرق بعيدا عن السياسة، وعاد إلى برسلاو يعمل ويؤلف حتى وفاته، وله باللغة التركية مؤلفان قيمان(١).

كان بروكلمان قويا فى اللغة التركية، وقد عرف المفكرون المصريون قدره وقويت الصلة بينه وبين طه حسين والعقاد، وأمر طه حسين بترجمة كتابه فى الآداب العربية إلى اللغة العربية. وبسببه انتقلت دراسة اللغة العربية إلى أقسام اللغات الحية، واشتغل بعد الانتهاء من كتابه المذكور، بكتابات تاريخ الشعوب الإسلامية، وهو كتاب قيم لا غنى عنه للباحث فى تاريخ الإسلام، وتوفى سنة ١٩٥٦م. وتُرجم كتابه هذا إلى العربية. ويجدر بنا أن نشير إلى كتابه «تاريخ الأدب العربى».

---

(١) حسين مؤنس: العدد ١٣٩ يونيو ١٩٧٠ - كارل بروكلمان.

كارل بروكلمان، يغلب عليه الاتجاه الإنسانى العالمى الشامل، فهو ينظر إلى الحياة العربية كجزء من الحياة فى هذا العالم، واتخذ منهجا خاصا به فى تاريخ الأدب، فبحث فى أصل الأمة العربية التى ظهر فيها هذا الأدب ووصف شعوبها وأجناسها، وبيئتها المحيطة بها وأسلوب حياتها ونظام معيشتها، ثم وصف اللغة العربية وخصائصها، ونظر فى أولوية الشعر ومصادر معرفته، ثم تناول مشاهير الشعراء، وما بقى من آثارهم.

وسلك هذا المسلك فى صدرالإسلام والدولة الأموية؛ لأن حياة العرب فى تلك العصور لم تختلف تماما، وتناول آثار القرآن الأولى فى تاريخ الأدب، وبعث الثقافة وإحياء العلوم.

وحرص على عرض آثار القرآن الكريم فى العالم المعروف فى ذلك الوقت، لذلك درس عدة لغات، ودرس عدة ثقافات.

وينتقل بروكلمان إلى العصر العباسى، حيث أصبحت اللغة العربية لغة التأليف، وكتب بها العلماء العلوم المختلفة، لذلك درس سير رجال الفكر، ومن العلماء والكتاب والأدباء، مستفيدا بما حصل عليه من مادة علمية ودراسات عن مكتبات الشرق والغرب، وأوضح تأثير الفكر الإسلامى فى الحضارة الإنسانية، وأوضح بجلاء دور الفكر الإسلامى فى تربية العقول وزيادة المعرفة(١).

بدأ بروكلمان دراسته بدراسة التراث الأدبى العربى تفصيلا، وتأتى أهمية دراسة بروكلمان إلى المقارنة التى قارن بها الأدب العرب بالآداب العالمية. وأضفى بروكلمان على كتابه روح العصر الحديث. وعلى غرار كتابه ظهرت كتب فى الأدب العربى فى الشرق والغرب، وتبنت وجهة نظره فى تناول تاريخ الأدب من النواحى العقلية والعلمية البحتة مع شرح مفرداتها «قواعد اللغة العربية الفصحى» وله دراسات كثيرة فى اللغات الشرقية وآدابها(٢).

---

(١) مقدمة تاريخ الأدب العربى د. عبد الحليم النجار.
(٢) نجيب عفيفى: المستشرقون جـ ٢ ص ٣٧٩ ـ ٣٨١.

ومن المستشرقين الألمان فان فلوتن (١٨٦٦ ـ ١٩٠٣م) ومن كتبه «العباسيون وخراسان» ـ ونشر مفاتيح العلوم للخوارزمى، وكتاب النبات للدميرى، والمحاسن والأضداد للجاحظ، ودراسات عن: تاريخ الطبرى والأمويون والإسرائيليات، وترجمة الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن.(١)

وتتميز المدرسة الاستشراقية الألمانية بصفة عامة، بعدم التعصب ضد الإسلام، والحياد التام فى الدراسة، والتزام الموضوعية والدقة العلمية فى البحوث التى تناولها المستشرقون الألمان، وعدم اتخاذ الاستشراق وسيلة للدعاية للمسيحية والتقليل من شأن الإسلام، وأضفى الألمان على دراساتهم الإسلامية الأسلوب العلمى الدقيق والإضافة والجديد، لإتقانهم الشديد لدراساتهم والدقة والنقد الموضوعى. وإذا ظهر فى دراساتهم ما يتنافى مع العقيدة الإسلامية، فهذا ناشئ من عدم إيمانهم بالإسلام، ولكنهم أفادوا بالنصوص القديمة التى نشروها وأفادت دارس الحضارة الإسلامية، فضلا عن نشرهم للمصادر العربية الأصلية، وجعلوها فى متناول الدارسين الغربيين، فضلا عن تصنيفهم العديد من المعاجم العربية وفهرسة المخطوطات العربية. ودرسوا الموضوعات المختلفة فى الحضارة والفكر الإسلامى.

اهتمت النمسا كذلك بالدراسات الإسلامية، وأنشأوا كراسى اللغات الشرقية، فضلا عن أن مكتبة ڤيينا الوطنية احتوت على آلاف من المخطوطات العربية الهامة، وصنف فلوجل فهرس مخطوطاتها العربية والفارسية والتركية فى ثلاثة مجلدات. ووضع كرافت فهرس مخطوطات مدرسة اللغات الشرقية فى فيينا، وهى مخطوطات عربية وفارسية وتركية، وصنف ماير «المرجع فى نقود الإسلام» بجميع اللغات(٢).

وظهرت فى النمسا مجلات الدراسات الشرقية.

ومن المستشرقين النمساويين، فون كريمر (١٨٢٨ ـ ١٨٨٩م) تولى مناصب القنصلية فى مصر وبيروت. واستفاد من عمله فى الشرق حيث تعلم اللغة العربية، ودرس كتب الإسلام.

---

(١) نجيب عفيفى: المستشرقون جـ ٢ ص ٢٧٢.
(٢) المصدرالسابق ٢٨٤.

ومن مؤلفاته. نشر «الاستبصار فى عجائب الأمصار» ونشر «الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب» لابن الشحنة، ونشر المغازى للواقدى والأحكام السلطانية للماوردى، ونشر مقالات فى شعراء الإسلام. ومن كتبه «آثار اليمن» وتاريخ الفرق فى الإسلام. وتاريخ الحضارة فى الشرق تحت حكم الإسلام.

ومن أبرز المستشرقين النمساويين فون زامبور، توفى ١٩٤٩م. من أهم كتبه بل ومن أهم كتب الحضارة الإسلامية، كتاب «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى الإسلام» وقد اعتمد على المصادر العربية، والنقود وذكر الأسر الحاكمة فى الإسلام وسنوات حكم ووفاة حكامها من الخلفاء والأمراء فردا فردا، وترجمه الأستاذ الدكتور زكى حسن وآخرون. وله دراسات فى النقود للخلفاء والمغول.

ومن المستشرقين النمساويين أودلف جروهمان، أستاذ الثقافة الإسلامية واللغات السامية فى جامعة أنسبروك فى النمسا، وشغل وظيفة أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى فى جامعة القاهرة، وقد عُنى بدراسة أوراق البردى، وعهدت إليه مصر بدراسة أوراق البردى فى دار الكتب المصرية، فحققها، وأقام بها الفهارس فى عشرة أجزاء. وتعتبر هذه الدراسة من أروع الدراسات فى التاريخ الإسلامى، وأمدت الدارسين بمعلومات اقتصادية واجتماعية فى غاية الأهمية عن مصر الإسلامية. وترجع أهمية هذه الدراسة، إلا أنها مصادر مادية لتاريخ مصر الإسلامية وترجم بعض أجزائها إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن.

الاستشراق فى هولندا

اهتمت هولندا بالدراسات الشرقية، فأنشأت عددا من كراسى اللغات الشرقية فى كل من جامعات ليدن وأمستردام، وأسست معاهد متخصصة للغات السامية كالعبرية والعربية والسريانية والدراسات الإسلامية، وأهمها المعهد الملكى للغات والجغرافيا والسلالات البشرية، والمعهد الشرقى لدراسة الشرق والإسلام، وزخرت هولندا بالمكتبات الغنية بالتراث الإسلامى والشرقى، مثل مكتبة جامعة ليدن، التى تضم المخطوطات والمؤلفات العربية والشرقية.

فنسنك واضع الأساس الأول للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث وتولى تحرير دائرة المعارف الإسلامية بلغاتها الثلاث. وله فيها مقالات قيمة تناولت القضايا الإسلامية، وتناولت مؤلفاته علاقة الإسلام باليهودية، واهتم بالحديث النبوى

اهتماما خاصا، ووضع مفتاح كنوز السنة مرتبا حسب الحروف الأبجدية. وصنف بالإنجليزية المعجم المفهرس لألفاظ الحديث عن الكتب الستة المشهورة تصنيفا لغويا لجميع الألفاظ الهامة من الكتب الستة، وأتبع دراسته تذييلا للأعلام والأماكن والاستشهادات القرآنية وله غير ذلك كتب فى الدراسات الإسلامية.

اهتم الهولنديون بالاستشراق بعد اتصالاتهم بالشرق عن طريق الاستعمار فى أندونيسيا والهند وبعض البلاد الأفريقية، ولكنهم تميزوا بالإنصاف للإسلام، وتوسعوا فى الاستشراق فدرسوا لغات الهند وأندونيسيا وغيرها من البلاد، وتميزت دراستهم بالمعاجم الحديثة ودراسة الدين الإسلامى وخاصة فيما يتعلق بعقيدته والمذاهب المتفرعة عنه وأعلامه الذين ساهموا فى خلق حضارته وثقافته الرفيعة والاهتمام بالحديث النبوى، وجمعه فى معجم واحد وفهرسه، وساهمت مطبعتا ليدن وبريل فى طبع العديد من الكتب، وأتقن العديد منهم اللغات السامية.

أتقن ونسنك (١٨٨٢ ـ ١٩٣٩م) اللغات السامية، وتخصص فى أديان الشرق وعُين أستاذا للعربية فى جامعة ليدن، عُنى عناية خاصة بدراسة الحديث من كتب الأئمة الستة، وبدأ بفهرسة ألفاظ الحديث وانضم إليه فريق من المستشرقين، وأصدر أكثر من عشر ملازم قبل وفاته، وواصل المستشرقون عمله، وانضم إليهم محمد فؤاد عبد الباقى، وانتهوا من عملهم هذا، وأخرجوا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث فى سبعة أجزاء.

ومن مؤلفاته «موقف الرسول من يهود المدينة» ـ الإسرائيليات فى الإسلام ـ قيمة الحديث فى الدراسات الإسلامية ـ ذيل الحدث ـ مفتاح كنوز السنة، مرتبا بالأبجدية، ومنها فهرسة مكتبة المجمع الملكى فى أمستردام التى تضم المخطوطات العربية ومكتبة جامعة أوترخت. وساعدت هذه المكتبات على ازدهار الدراسات الشرقية. وأدت كثرة المطابع إلى كثرة طباعة الكتب العربية والإسلامية، مثل مطبعة ليدن ذات الشهرة الواسعة، وطبعت أكثر من خمسمائة كتاب. تناولت إنتاج المستشرقين بعدة لغات شرقية. ومن أهمها المطبوعات العربية، وطبعت ومازالت تطبع دائرة المعارف الإسلامية بطبعتها القديمة والحديثة. وطبعت المعجم المفهرس لألفاظ الحديث فى سبعة مجلدات ضخمة.

ومن أبرز المستشرقين الهولنديين سكاليجر - أستاذ العربية فى جامعة ليدن - والأستاذ إربانيوس، نهضت المدرسة الاستشراقية فى عهده، وأنشأ مطبعة بريل، التى طبعت أمهات الكتب العربية، ووضع قواعد العربية واللاتينية.

ومن المستشرقين الهولنديين جوليوس، الذى عمل فى السفارة الهولندية فى المغرب، وحصل على العديد من المخطوطات العربية ونشر أمثال على بن أبى طالب وأمثال الطغرائى، ووضع معجما عربيا لاتينيا، ظل مرجع المستشرقين حتى ظهر معجم متأثر به، يسمى قريتاخ.

والمستشرق Relandus ريلاندوس، ألف كتابه القيم «العقيدة الإسلامية» رد فيه على ادعاءات بعض المستشرقين الذين هاجموا الإسلام، ودافع عن الإسلام، وأوضح بجلاء وبساطة وواقعية العقيدة الإسلامية، وحقق العديد من المخطوطات.

ومن أشهر المستشرقين الهولنديين دوزى، درس معظم اللغات السامية، وألف وحقق العديد من الكتب العربية والإسلامية. ومن أهم كتبه «تاريخ المسلمين فى أسبانيا» فى أربعة أجزاء ونشر كتاب «البيان المعرب فى أخبار المغرب» لابن عذارى المراكشى.

ومن تلاميذ دوزى، دى خويه، نسخ كتاب أساس البلاغة للزمخشرى - «المسالك والممالك» لابن حوقل - غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام.

ومن المستشرقين الإنجليز

سير توماس أرنولد ١٩٣٠م

شغل وظيفة محاضر فى بعض جامعات الهند، وعُين أستاذا لكرسى الدراسات الإسلامية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن، ثم اختير عميدا لها، وزار مصر فى أوائل سنة ١٩٣٠م، وحاضر فى التاريخ الإسلامى فى كلية الآداب. وكان يقدر الإسلام، ويدافع عنه، وعن نبى الإسلام.

ومن أهم كتبه «الدعوة إلى الإسلام» وهذا الكتاب فريد فى بابه أوضح المؤلف فيه عوامل نشر الإسلام فى كل بلد من بلاد العالم، ويدل هذا الكتاب على أن المؤلف اعتمد على كثير من المصادر والمراجع بلغات مختلفة، والمؤلف يتقن عدة لغات شرقية وأوربية. وفى كتابه أبرز مدى قوة وواقعية العقيدة

الإسلامـية، وارتفاع مسـتواها عن الأديان الأخرى، مما تسبب فى نشـر الإسلام، ودحض الديانات الأخرى مـسيحـية ووثنية، وترجم الكتـاب إلى العربية الأسـتاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن. وأقبل الدارسـون على قراءة هذا الكتاب والاستفادة منه.

ومن كتبـه «الخلافة» وهى تطور سياسى للدولة الإسـلامية منذ قيامـها حتى سقوط الخلافة. وله بحوث فى الإسلام والعقيدة.

تخـصص هنرى فـارمـر (المولود ١٨٨٢م) فى الموسـيـقا الـعربيـة، وقـرأ مخطوطات عن الموسيـقا العربية، وحقق بعـضها، ووصف آلات الموسيقـا العربية والفن عند العرب. وأعلام الموسيقا العربية ومؤلفاتهم، ونشر كتاب الإيقاع والنغم للخليل بن أحمـد، كما ألف كـتابا فى تاريخ الموسيـقا العربيـة، ترجمه الأسـتاذ الدكـتور حـسين نصـار. وكـتب عن الألحان الموسـيقـيـة التى ذكرها أبو الفـرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى، ورسم الآلات الموسيقـية العربية. ويعتبر كتابه فريدا فى بابه وبجهوده أُنشئت مدرسة الموسيقا الشرقية، وأهدى إليها مكتبته عن الموسيقا العربيـة، وتتضـمن مخطوطات نادرة فى الموسـيقـا. وكتب كـذلك عن الموسيـقا التركية.

السير هاملـتون جيب (١٨٩٥ ـ ١٩٧١م) من مواليد الإسكنـدرية فى مصر ومن أعلام المستشرقين، شغل عضوية المجمع العلمى فى دمشق، والمجمع اللغوى فى مصـر، وعضوية جـماعة المـستشـرقين، وكان يكتب ويتكـلم العربية جـيدا، ويحفظ النصـوص، وعمل فى مدرسة اللغـات الشرقية، وتتلمـذ على يد توماس أرنولد، وأخذ عنه تقدير الإسلام وتميزه على المعتـقدات الأخرى، وعُين أستاذا فى جامعات لندن وأكسفورد وهارفارد، ومديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط «ورحل إلى البـلاد العربية، واجـتمع بكبـار الأدباء العرب، وكـتب عن تاريخ الأدب فى مصرالحديثة، وكتب عن فتوح العـرب فى آسيا الوسطى، وعلاقتها بالصين، وذيَّل تاريخ دمشق لابن القلانس» وترجم كتاب «تركستان حتى الغزو المغولى» لبارتولد، وله دراسة بعنوان «ماهو الإسلام؟» وحـقق رحلة ابن بطوطة. وأوضح فى دراسته عن الإسلام أنه حقق التوازن بين فوضى الحضـارة الأوروبية وفوضى الشيوعية. وله كتـاب «المجتمع الإسلامى فى الغـرب» «الوحدة فى الإسلام» ـ «والأدب الشـعبى

العربى» - «أبو ريحان البيرونى» - و«تاريخ الإمام البخارى» و «الإسطرلاب» وكتاب «معانى الشعر» لابن قتيبة» و«فى الشعر الجاهلى» بالإضافة إلى العديد من تحقيق المخطوطات والتراجم والمؤلفات(١).

ودرس ألفرد غيوم، أستاذ اللغة العربة فى معهد الدراسات العربية الأفريقية، كتب «تقاليد الإسلام» - «تأثير اليهودية على الإسلام» - «النبوءة والكهانة» - «الوحى والعقل فى الإسلام».

الاستشراق فى أسبانيا

لأسبانيا علاقات قديمة مع العرب، فقد حكم العرب الأندلس ثمانية قرون، ولما ترك العرب أسبانيا، وسقطت غرناطة فى أيدى النصارى سنة ١٤٩٢م، استولى النصارى على ما تركه العرب من تراث غنى يتمثل فى الكتب والمخطوطات العربية. وأخفى الرهبان الكتب الإسلامية فى سراديب حتى انتهت فترة الاضطهاد لكل ما هو مسلم. وأقبل الأسبان بعد إخراج هذه الكتب إلى ترجمتها والاستفادة منها ودراستها وتحقيقها.

ومن أبرز العلماء الأسبان باسكوال جينجوس (ت ١٨٧٩م) وكوَّن جيلا من المؤرخين، وأُسند إليه وظيفة أستاذ كرسى الدراسات الشرقية فى جامعة مدريد، وأهم إنجازاته «فهرسة المخطوطات العربية الموجودة بمكتبة الأسكوريال»، وصنف كتابا عن تاريخ المسلمين فى أسبانيا، ونشر قسما من كتاب «نفح الطيب» وترجمه إلى الإنجليزية فى مجلدين، وقام بفهرسة المخطوطات الأسبانية فى المتحف البريطانى، وله دراسات عربية وإسلامية.

ومن المستشرقين الأسبان فرانسيسكو كوديرا فى النصف الأول من القرن العشرين، وجوليان ربيرا Ribera وميخائيل آسلين بلاسيوس، الأول أستاذ اللغة العربية فى جامعة سرقسطة، وجامعة مدريد - ألف «الملاحم الشعرية عند المسلمين الأسبان» «التعليم عند المسلمين الأسبان» - «الموسيقا الأندلسية فى العصور الوسطى».

---

(١) لمزيد من التفاصيل اقرأ كتاب «المستشرقون» للأستاذ نجيب عفيفى ص ٩٧ - ٩٩.

أما بلاسيوس، بلغت المدرسة الاستشراقية أوج عظمتها بفضل دراساته، درس الفلسفة والتصوف والدين والتاريخ والأدب واللغويات، ومن أهم رسائله العلمية «الأخرويات الإسلامية فى الكوميديا الإلّهية» والذى برهن فيها على تأثر الشاعر دانتى بأفكار المسلمين عن اليوم الآخر، ووصف الجنة والنار، ودرس الغزالى وابن رشد وابن حزم وابن ماجه وابن عربى، وتابع باهتمام شديد التأثيرات الإسلامية فى الفكر الأوربى[1].

يتجاوز عدد المستشرقين الأسبان، المئات، لغزارة المادة العلمية التى خلفها لهم العرب، ولكن يظهر فى استشراقهم التعصب للمسيحية، والكراهية للإسلام. ولكن من ناحية أخرى يمتاز الاستشراق الإسلامى بالتخصص فى الحضارة الإسلامية، ولكنه يدور حول أسبانيا الإسلامية وبلاد المغرب والجزر المحيطة بها ويمتاز بالمادة الغزيرة.

الاستشراق فى روسيا

أسس القيصر بطرس الأول قسما خاصا فى أكاديمية العلوم لدراسة حضارة الإسلام، وأنشأ كراسى للغات الشرقية فى الجامعات الروسية وكان للشيخ طنطاوى الذى عمل فى جامعة بطرسبرج فى أوائل القرن التاسع عشر أثر كبير فى تكوين جيل من المستشرقين، ومن أبرزهم الروسى المسلم كاظم بك. واهتم الروس بدراسة التاريخ الإسلامى والآداب العربية.

ولقد أدى احتكاك روسيا بتركيا أو بالدولة العثمانية، وقربها النسبى من الشرق، وانضمام بعض الولايات الإسلامية التى ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية أدى ذلك كله إلى حصول الروس على العديد من كتب العرب والإسلام. المستشرق كراتشكوفسكى، وتدور أبحاثه حول الشعرالعربى، وأدب النصارى العرب ـ تاريخ الأدب العربى المعاصر ـ وله العديد من البحوث فى الحضارة الإسلامية حتى بلغت ٤٥٨ بحثا.

وُلد فى ليتوانيا، وكان والده رئيسا لمدرسة المعلمين فيها، ثم رئيسا لمدرسة المعلمين فى طاشقند. وكان لدى والده مكتبة كبيرة فى فروع العلم المختلفة،

---

(١) من يريد التوسع فى دراسة الاستشراق والمستشرقين فعليه قراءة كتاب الأستاذ نجيب عفيفى، وهو كتاب قيم يقع فى ثلاثة أجزاء من أفضل الكتب فى هذا المجال.

واطلع على كثير من الكتب، وكان يحب العزلة، وتعلم العربية كي يطلع على كتب العرب. ومن أشهر المستشرقين الذين عاصرهم سنكوفسكى المعلم الأول للغة العربية فى جامعة لننجراد، وتواريف عضو أكاديمية العلوم، ومؤسس الأبحاث فى قدماء المصريين فى روسيا وقوتوفتش أستاذ اللغة المغولية فى كلية لووف.

وانجذب إلى العلم والبحث وهو فى السادسة عشرة من عمره، وخصوصا علوم الشرق والتحق سنة ١٩٠١م بقسم اللغات الشرقية فى جامعة لننجراد فرع لغات الشرق الإسلامى، ودرس خلال أربع سنوات اللغات العربية والفارسية والتركية والمغولية وبعض اللغات السامية كالعبرية والحبشية ودرس تاريخ المشرق الإسلامى على أيدى العلامة بارتولد، وحبب إليه دراسة فلسفة التاريخ والحضارة الإسلامية، ودرس علم اللغات العام على العالم ميليورانسكى.

ودرس العلوم العربية على أيدى العلامة ميدنيكوف Midinikov مؤرخ فلسطين المشهور، . وأكبر أستاذ تعلم على يده العربية، فيكتورفون روزن، وأرسلته حكومته إلى الشرق، فزار مصر وفلسطين وسوريا ولبنان، وزار مكتباتها وجامعاتها، مثل الجامع الأزهر، وجلس مع العلماء وخالط البدو فى صحارى مصر، واتصل بالناس فى الوطن العربى، وتعلم اللغة العربية الفصحى، واللغة العامية، وتعرف على عادات الشرق، وأحب الشرق من خلال تلك الزيارة، ثم زار أوربا، واستفاد من مكتباتها، وخصوصا ليدن التى ذاعت شهرتها، واطلع على المخطوطات.

وفى سنة ١٩٢١م انتخب عضوا عاملا فى أكاديمية العلوم الروسية فى قسم التاريخ واللغات، ثم انتخب عضوا مراسلا فى المجمع العلمى العربى فى دمشق، وكان فخورا بهذه العضوية.

وله أكثر من مائتى بحث فى علوم وحضارة وثقافة العرب، وفهرستها، وظل يواصل التدريس فى الجامعات والأكاديميات العلمية، وكتابة البحوث ونشرها. وهو مؤلف أهم البحوث فى الآداب العربية. وأول من عرف الروس بآداب وثقافة وعلوم العرب.

وتوفى سنة ١٩٥١م، ووضعت الأكاديميات الروسية، كتابا تذكاريا يتضمن بحوثه ودراساته.

ومن أهم كتب كراتشكوفسكى، كتاب تاريخ الأدب الجغرافى، واستمر فى تأليفه أعواما طويلة، ونشره تلاميذه بعد وفاته فى كتابه التذكارى، وترجم هذا الكتاب الضخم إلى العربية الأستاذ الجليل صلاح الدين عثمان هاشم.[١]

بارتولد:

ولد ڤاسيلى فلاديميروفتش بارتولد ١٣/ ١١/ ١٨٦٩ بمدينة سان بطرسبرج من أسرة روسية ألمانية الأصل، وعاشت أسرته فى رخاء مكنه من الدراسة والبحث، وشَغُف بدراسة المشرق الإسلامى، لذلك التحق بكلية اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبرج، ودرس فيها اللغات العربية والفارسية والتركية، وتعمق فى دراسة هذه اللغات، وتتلمذ على روزون (١٨٤٩ ـ ١٩٠٨) رائد الاستشراق فى روسيا، واتصل بعلماء اللغات الشرقية ومؤرخى آسيا الوسطى، وأخذ عنهم.

حصل العالم الكبير على إجازة دراسية فى عام ١٨٩١، وقد لاحظ روزون نبوغ تلميذه، فنصحه بالتوسع فى دراسته، فرحل إلى أوربا على نفقته الخاصة، وزار فنلنده وألمانيا وسويسرا وشمال إيطاليا والنمسا والمجر، واستفاد من كبار المستشرقين مثل نولدكه وهاله، وعاد إلى روسيا بعد أن تزود بعلوم الشرق، والتحق بجامعة سان بطرسبرج كأستاذ لكرسى الدراسات الشرقية وله محاضرات فى علوم الشرق لها قيمتها العلمية، وشغل بارتولد وظيفة أمين غرفة المسكوكات بجامعة سان بطرسبرج.

وواصل بارتولد دراساته فى علوم الشرق، حتى أخرج كتابه القيم «تركستان فى فترة الغزو المغولى» ونال بهذا البحث درجة الدكتوراه فى تاريخ الشرق.

تدرج بارتولد فى سلك المناصب الجامعية، حتى شغل وظيفة (أمين لكلية اللغات الشرقية)، وأصدر مجلة عالم الإسلام، وتعددت بحوثه فى الدراسات

---

(١) صلاح الدين هاشم مترجم كتاب تاريخ الأدب الجغرافى.

الشرقية، وخصوصا تـاريخ إيران وبلاد ما وراء القوقاز، والأقطار العربية، وتاريخ الشعوب التـركية والمغولية والدراسات الإسـلامية، وزار بنفسه تركسـتان، وأشرف على الاكـتشـافات الأثرية بهـا، واتصل بأهلهـا، ودرس الأحوال الاجـتمـاعيـة والاقتصادية لتركستان، حتى صار، بحق، أكبر عالم فى تاريخ الشرق فى العصور الوسطى.

وعقب الثـورة الشيوعـية، عُيِّن رئيـسا دائما للـجنة المستشـرقين بأكاديمـية العلوم، وتعددت محاضـراته فى جامعات روسيا وأوربا عـموما، وواصل دراساته بعمق بعـد الثورة الروسـية ومنها «الإسـلام» «الحضارة الإسـلامية» «تاريخ الحـياة الثقـافية بتـركسـتـان» - «التركمـان» وترجمت أبحاثه التـى تعد بالمئات إلى جـميع اللغات، وله فى دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٠ مقالة.

كـان بارتولد مخلصـا لزمـلائه وتلاميـذه يمدهم بكـل ما يطلبـون منه من معلومـات ودراسات، وامتازت دروسـه وبحوثه بالأصالة، ووفـرة الشواهد والمادة المستقاة من المصادر الأصلية.

توفى بارتولد فى لينينجراد سنة ١٩٣٠.

* * *

على الرغم من أن الاستـشراق شهـد نشاطا كبيـرا فى القرنين الثامن عـشر والتاسع عشر، وتـركوا لنا دراسات قيمة فى الفكر الإسـلامى، إلا أن الاستشراق ضعـف فى النصف الثانى من القـرن العشـرين ولم تصلنا من علمـاء هذه الفـترة دراست بالعمق الذى تميزت به دراسات أسلافهم. إما لعدم الاهتام الكافى بالشرق بعد زوال عصر الاستعمار، وإما لقلة الاهتـمام بالعلوم النظرية، وظهر مستشرقون لا يفهمون النصوص العربية جيدا وانصرفوا عن دراسات اللغات الشرقية.

أدى تعصب أوربا ضد الإسلام الذى ازداد قبل وأثناء وبعد الحروب الصليبية إلى إرسال الكنيسة البعثات التبشيرية، إلى الشرق لنشر المسيحية. وإغراء الناس بدخولها، وجاء منشور البابا يوحنا بولس الثانى يطالب الولايات المتحدة الأمريكية بدعم مالى، كى يضاعف التبشير جهوده، فالإسلام هو الدين الوحيد الذى يتحدى انتشار المسيحية. وأبدى تخوفه من تزايد الإقبال على الإسلام وخصوصا من المسيحيين، ودعت الكنيسة إلى ضرورة تعلم اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى، حتى يعرف المبشرون ما يمكنهم من أداء واجبهم التبشيرى. وعلى المبشرين دراسة لغات وثقافة الشرق، والتسلح بسلاح الجد والمناظرة المبنية على البرهان واليقين. وأمر البابا سنة ١٢٤٨م رئيس جامعة باريس بإنشاء كرسى للدراسات الشرقية.

وتخرج من الجامعات الأوربية اللاهوتية العديد من الرهبان والمثقفين وأوقفوا معارفهم على التبشير، وحاولوا استمالة المسلمين إلى عقيدتهم.

ومن مظاهر التبشير، الخدمات العلمية وتقديمها إلى أهل الشرق، والسخرية من عقائد المسلمين، وإقناع المسلمين بضعف عقيدتهم، ومحاولة رد المسلمين عن دينهم وهدم الإسلام فى عقائده وعبادته ونظمه، والتفرقة بين المسلمين، وتشويه صور المسلمين فى الماضى والحاضر، وتصوير الإسلام بأنه دين تخلف، وعدم صلاحيته لمواجهة الحضارة الحديثة.

وتقدم البعثات التبشيرية الخدمات التعليمية والصحية والغذائية والاجتماعية التى تتناسب مع مستوى الجماهير. مثل مدارس الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الدراسية الأخرى، وإنشاء المؤسسات الخيرية كالمستشفيات، والعلاج فيها بالمجان، وتأسيس دور الملاهى والضيافة للكبار، ودور الأيتام، والدعاية الواسعة عن طريق الطباعة والنشر والأعمال الصحفية.

وحاولت بعثات التبشير استمالة البنات والشباب والنساء الفقراء وتقديم المعونات لهم، واستمالتهم إلى المسيحية بأساليب الترفيه، واللهو والعبث والمجون والخلاعة والاختلاط والجنس.

دخل الإسلام إلى بورما عن طريق التجار العرب فى القرن السابع الهجرى وبلغ تعداد المسلمين فى بورما سبعة ملايين نسمة سنة ١٩٨٣م، أى ١٠٪ من إجمالى السكان. والمسلمون فى بورما محرومون من ممارسة حقوقهم السياسية، ومن تقلد الوظائف العامة.

وفى تايلاند بلغت نسبة المسلمين بالنسبة لمقدار السكان ٤٪ سنة ١٩٩٠م. واختلفت الروايات فى تعدادهم بسبب التعمية الإعلامية لحكومة تايلاند عن عددهم؛ بغية تذويبهم فى مجتمعهم البوذى، ويحرص المسلمون فى فطانى المركز الرئيسى للإسلام فى شبه جزيرة الملايو على الزى الإسلامى، ويحفظون القرآن الكريم، ويكتبون لغتهم الملاوية بحروف عربية. وفطانى تتمتع بثروة كبيرة من الزراعة والنفط وأخشاب الغابات، وقد تدخلت حكومة تايلاند فى تغيير التركيبة السكانية لمسلمى فطانى، فنقلوا إليها آلاف البوذيين، وتدخلوا فى مناهج الدراسة حتى لا تطغى الدراسات الإسلامية على مقررات الطلبة، ومنعوا المسلمين من ممارسة حقوقهم السياسية، وسعوا إلى إضعافهم.

يرجع دخول الإسلام فى تايوان إلى سنة ١٩٤٩م حينما هاجر إليها ٢٠ ألف مسلم من الصين الشعبية، فرارا من الشيوعية المخالفة والمعادية للإسلام، وللمسلمين فى تايوان (فرموزا) مكانة مرموقة فترجموا معانى القرآن الكريم باللغة الصينية، واشتركوا فى المجالس التشريعية والحكومة والجيش، وشاركوا فى النشاط الاقتصادى دون قيود، وتحسنت أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، ويصدرون مجلة إسلامية شهرية بعنوان «المسلمون فى الصين»(١) ويوجد بتايوان مساجد ومدارس دينية.

دخل الإسلام إلى سيرلانكا عن طريق التجار، الذين قدموا إليها من سواحل الهند، ويسمون المورز، وواجه المسلمون اضطهادات كثيرة من البرتغاليين

---

(١) المملكة العربية السعودية ودعم الأقليات المسلمة فى العالم ص ٧٠ ـ ٧٤.

والهولنديين والإنجليز ولكنهم احتفظوا بمدارسهم الدينية. وأثر هذا الاضطهاد فى تخلفهم وضعفهم، وتبلغ نسبتهم ٧٪ بالنسبة للسكان، ويتعرضون لهجمات مستمرة من التاميل الذين يحرقون المساجد والكتب الإسلامية.

يرتبط دخول الإسلام فى سنغافورة بالتجار العرب الذين قدموا عليها من الهند فيما بين القرنين الثالث عشروالرابع عشر ونسبة المسلمين إلى تعداد السكان ١٦٪.

وقوى أمر المسلمين فى سنغافورة بعد استقلالها سنة ١٩٦٥م، حيث انتخب أول رئيس مسلم لها. ويمارس المسلمون فى سنغافورة شعائرهم الدينية بحرية كاملة. وتوجد فى المدارس مناهج تتضمن دراسة الدين الإسلامى.

وفى الصين يوجد بها حوالى ٢٠ مليون مسلم، وعندما وصل ماجلان إلى الفلبين كان الإسلام ينتشر فى جزرها، وكان حاكم مانيلا مسلما ولما احتل الأسبان الفلبين سنة ١٥٧٠م نشروا المسيحية فى الجزر، واضطهدوا المسلمين، كما فعلوا فى أسبانيا، وزرعوا بذور الكراهية بين مسلمى الفلبين والمسيحيين فيها، ورغم الاضطهاد الذى حل بالمسلمين، فقد حافظوا على دينهم وتقاليدهم وثقافتهم، رغم التضحيات الكبيرة فى الأموال والأرواح، وتصدوا لكل محاولات الحكومة لإضعافهم.

لما سيطر الفيتناميون على دولة تشام، هاجر ملكها ومن تبعه من الكمبوديين إلى فيتنام، وانتشر هؤلاء التشاميين المسلمين فى أنحاء كمبوديا، ولم يكن قد وصلها الإسلام حتى القرن الثامن عشر الميلادى، وتعرض المسلمون فى كمبوديا لأنواع الاضطهاد مثل حرق المساجد والإبادة الجماعية، والاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم.

عرف الإسلام كوريا الجنوبية فى القرن الثالث الهجرى، وانتشر فيها فى القرن الخامس مع رحلات التجار، وفى الحرب الكورية شكل مجلس الأمن قوة دولية لفض الاشتباك بين الكوريتين، وأقام فريق من الترك مسجدا ونشروا الإسلام بين الكوريتين، وتزايد عدد المسملين حتى تكون الاتحاد الإسلامى الكورى فى عام ١٩٦٣م واعترفت به الحكومة الكورية. وتعزز الإسلام فى كوريا بتقوية الروابط

السياسية بين كوريا الجنوبية والدول الإسلامية. ويواجه الإسلام فى كوريا صعوبات بسبب قلة الدعاة، وطغيان الديانتين البوذية والمسيحية وقوة تأثيرهما على الناس.

ودخل الإسلام لاوس فى القرن الرابع عشر والخامس عشر بواسطة التجار والدعاة، كما دخل منغوليا بعد الغزو المغولى لديار الإسلام وهجرة المسلمين إليها من أنحاء الدولة العباسية.

وعرفت نيبال الإسلام فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين عندما فتح حاكم البنغال شمس الدين إلياس نيبال فى سبتمبر ١٣٤٩م وانتشر التجار والدعاة المسلمون فيها، وزاد عدد المسلمين بها. وينتشر الإسلام فى كل مناطق نيبال، وبها مسلمون من كشمير والهند والتبت، وتنتشر المساجد فى نيبال، وكذلك المدارس الإسلامية[1].

وصل الإسلام إلى هونج كونج فى فجر الإسلام وفى القرن الأول الهجرى بالذات عن طريق التجار الذين قدموا إلى شمال شرق الصين، ثم تزايد عدد المسلمين الذين هاجروا إليها من جزر الهند الشرقية والملايو ولجأ إلى الجزيرة الكثير من الصينيين المسلمين بعد دخول الشيوعية فى الصين.

دخل الإسلام متأخرا فى اليابان وفى القرن التاسع عشر على أيدى الدعاة الذين قدموا إلى اليابان من روسيا والصين والهند، وأقيم أول مسجد فى طوكيو سنة ١٩٣٨م. ولكن عدد المسلمين لا يزال قليلا يبلغ حوالى ٧٠ ألف مسلم.

---

(١) المملكة العربية السعودية ودعم الإقليات المسلمة فى العالم ص ٨٨ ـ ٩٤.

تشير آخر الإحصاءات إلى أن نصف عدد سكان أثيوبيا من المسلمين، أى حوالى ١٧ مليون مسلم. وعانى المسلمون فى أرتيريا التى كانت تابعة للحبشة من اضطهاد الإمبراطور هيلسلاسى ومن الحكومة الشيوعية التى أطاحت به، وتعرضوا للقتل والتشريد والعزل من الوظائف حتى استقلت أرتيريا نهائيا عن أثيوبيا.

عرفت تنزانيا الإسلام منذ عصر مبكر عن طريق التجارة مع أهل اليمن وحضرموت والدعاة، وخضعت زنجبار لحكم السلاطين العمانيين، ويتركز المسلمون فى تنزانيا فى مناطق عديدة وتبلغ نسبة المسلمين ٩٠٪، ويتركز المسلمون فى المناطق الساحلية.

ويضم عدد المسلمين فى أوغنده نحو ٦٪ من إجمالى السكان وينتشر المسلمون فى سواحل كينيا وفى داخلها وتبلغ نسبة المسلمين ٣٥٪ من عدد السكان، وتقدر نسبة المسلمين فى غانا بنحو ١٣٪ وتبلغ نسبة المسلمين فى ليبريا ٢٠٪، ولكن عدد المسلمين فى جنوب أفريقيا لا يزيد عن نصف مليون نسمة.

بدأ الإسلام ينتشر فى ساحل العاج بعد القرن السادس الهجرى عن طريق تجار القوافل (الماندية) والتجار العرب، وازداد انتشار الإسلام فى هذه البلاد فى القرن التاسع عشر الميلادى، وازدادت نسبة المسلمين بعد الاستعمار الفرنسى حتى بلغت ٦٠٪، وانتشرت المساجد والمدارس الدينية لتحفيظ القرآن ومبادئ الإسلام واللغة العربية.

وتبلغ نسبة المسلمين فى موزمبيق ٢٥٪ وتبلغ نسبة المسلمين في زائير ١٠٪ وتعترف الحكومة الزائيرية بالإسلام كدين من ديانات بلادهم على أن نسبة المسلمين فى بوروندى ضئيلة لا تتجاوز ١٪.

ويبلغ عدد المسلمين فى بريطانيا واحد ونصف مليون نسمة، وهم مهاجرون من المستعمرات الأفريقية ومن الهند وبعض البلاد الشيوعية، وازداد عدد المهاجرين إلى بريطانيا للبحث عن عمل أو للتعليم، ويتمتع المسلمون فى بريطانيا بحرية العمل وحرية العقيدة.

الإسلام فى البوسنة والهرسك والصرب

دخلت الصرب فى حوزة الدولة العثمانية سنة ١٣٨٩م، وامتلك الأتراك العثمانيون كافة جزيرة البلقان سنة ١٣٩٤م، وانتشر الإسلام على أثر ذلك فى الصرب والمجر. وتعرض المسلمون فى المجر للاضطهاد، ففى سنة ١٣٤٠م أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه من المسلمين بالعودة إلى المسيحية أومغادرة البلاد. وكان لهذا العمل وقع سيئ على مسلمى الصرب الذين وجدوا أن المسلمين الأتراك يكفلون لهم وللمسيحين من أبناء بلدهم حرية العقيدة. وواصل الإسلام انتشاره فى الصرب حتى ازداد عدد المسلمين فى القرن الثامن عشر.

وبعد انضمام الصرب إلى الدولة العثمانية عقب موقعة كسوفو كانت هضاب الجبل الأسود الموحشة ملجأ لهؤلاء الصربيين الذين أبوا الخضوع للأتراك، وتمسكوا باستقلالهم، وتمسكوا بعقيدتهم. وفى سنة ١٧٠٣م جمع دانيال بيروفتش الأسقف الحاكم فى ذلك الحين القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر فى القضاء على المسلمين الذين يعيشون بينهم، وأثمرت هذه الدعوة، وأقيمت مذبحة بين المسلمين فى ليلة عيد الميلاد وأدى ذلك إلى خلو الجبل الأسود من المسلمين.

وفى البوسنة كانت أحوال الشعب الدينية والاجتماعية فى هذه البلاد قبل الفتح العثمانى، وكان المسيحيون فى البوسنة يقفون من الكنيسة الكاثوليكية موقفا عدائيا، ودعا البابا حكام البوسنة إلى استئصالهم، ولما قدم العثمانيون بقيادة السلطان محمد الثانى إلى البوسنة سنة ١٤٦٢م، رحب به البوسنيون وانضمت البوسنة إلى الدولة العثمانية، ودخل أهلها فى الإسلام، وغادر البوسنة كل من تمسك بمسيحيته.

قدم الأتراك العثمانيون المميزات الكثيرة لكل من اعتنق الإسلام، وسمحوا للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، وأعفوا من الضرائب، واحتفظ المسلمون البوسنيون بقوميتهم، وظل أغلبهم يحمل الاسم العربى، وتبوأ قادة البوسنة مكانة عظيمة فى البلاط العثمانى(١).

وفى فرنسا تزايد عدد المسلمين بتزايد عدد المهاجرين إليها من المسلمين وخصوصا من المغرب العربى والبلاد الأفريقية. وفى بريطانيا ثلاثة ملايين مسلم، أى ٥٪ من سكان بريطانيا، واعتنق بعض الفرنسيين الإسلام بعد دراسة لتعاليمه وعقائده.

وتتكون الجالية الإسلامية فى الدانمارك من المغاربة واليوغسلاف والترك والباكستانيين، وزاد اعتناق الدنمارك للإسلام وبلغ عددهم ٤٥ ألف فرد، والمسلمون فى الدانمارك على اتصال ببعضهم البعض.

وتتركز المؤتمرات الإسلامية فى إنجلترا وفرنسا والدانمارك والنرويج والسويد، وتقدم للمسلمين الكتب والمصاحف والوعاظ والخدمات الدينية، ودخل الإسلام فى بلجيكا بسبب هجرة المغاربة والأتراك إليها.

وبعد اختلاط الألمان بالأتراك العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى انتشر الأتراك المسلمون فى ألمانيا، وانتشر معهم الإسلام حتى بلغ عدد المسلمين فى ألمانيا الغربية ٢ مليون ونصف، ويواجه المسلمون فى ألمانيا تحديات عنصرية لإضعافهم وطردهم من البلاد.

وانتشر الإسلام فى سويسرا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث استقر فيها بعض المسلمين، كما هاجر مسلمون آخرون إلى سويسرا بحثا عن حياة أفضل واعتنق بعض السويسريين الإسلام، وتوجد فى سويسرا جمعيات إسلامية لتعليم المسلمين وتبصيرهم بشئون دينهم ومساعدتهم وحل مشكلاتهم.

والأقليات الإسلامية فى أسبانيا والبرتغال - هم بقايا المسلمين الذين احتفظوا بإسلامهم بعد سقوط غرناطة.

---

(١) ارنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٢٧ وما بعدها.

ويبلغ عدد مسلمى النمسا ١٢٠ ألف نسمة، لجأوا إليها أيام الإمبراطورية العثمانية.

دخل الإسلام فى إيطاليا عن طريق جزيرة صقلية التى كانت تابعة لدولة الأغالبة، كما دخلها عن طريق مستعمراتها فى أفريقيا وليبيا، وهاجر إليها بعض المسلمين من البلاد الإسلامية للعمل والتعليم والتجارة، حتى أصبح عدد المسلمين يقدر بعشرات الألوف.

ودخل الإسلام اليونان فى عصر مبكر، فكانت جزيرة رودس وجزيرة كريت تتبع دولة الإسلام فى العصور الوسطى، كما أن اليونان انضمت إلى الدولة العثمانية، وأقامت بها جالية تركية، ونشر الأتراك والبلغار والألبان الإسلام فى اليونان، وزاد عدد المسلمين على ربع مليون مسلم، وأقيمت فيها المساجد والمدارس الدينية.

وفى شرق أوربا سيطر العثمانيون على المجر ويوغسلافيا ورومانيا، وانتشر الإسلام فى ألبانيا والبوسنة والهرسك، وأصبحت الكيانات الدينية فى القرن العشرين فى شرق أوربا مستقرة وتتمتع بالحرية والتقدير. وبلغ عدد سكان ألبانيا، ٣ مليون فرد ٧٠٪ منهم مسلمون، وأغلقت الشيوعية المساجد، واضطهدوا المسلمين.

وعدد المسلمين فى يوغسلافيا ٥ مليون نسمة بنسبة ١٧٪ من عدد السكان، وهم من بقايا الأتراك والعثمانيين، وتعرضوا للاضطهاد من قبل الحكومة الشيوعية، ويبلغ عدد المسلمين فى رومانيا ٢٧٠ ألف فرد وتعرضوا للاضطهاد فى ظل النظام الشيوعى، وفى بولندا عشرين ألف نسمة وهم بقايا الأتراك المسلمين، وكانت لهم المساجد والمدارس أغلقتها السلطات الشيوعية، ويبلغ عددهم سبعة آلاف نسمة. ويبلغ عدد المسلمين فى تشيكوسلوفاكيا أربعة آلاف نسمة.

ويتعرض المسلمون فى أوربا لألوان الاضطهاد منها محاولة إغلاق المساجد والمدارس الدينية، وانتشار جماعات التبشير بالنصرانية، واضطهاد بعض الشباب المتعصب للمسلمين والدعاية ضد الإسلام ولكن الدولة الإسلامية

والهيئـات الدينية والأزهر بصفة خاصة حـاولوا بكل ما يستطيعوا إرسـال البعوث الدينية إلى أوربا لنشـر الفكر الإسلامى بين المسلمين، وإمـدادهم بالكتب، وإنشاء المساجد والمدارس والجمعيات لتحفيظ القرآن والحديث وتعليم اللغة العربية، وإعانة من يستحق العون من شباب المسلمين ومـساعدتهم، وتقديم المعونات المالية والزكاة لفقراء المسلمين، وتوثيق الروابط بين مسلمى أوربا وبلاد الإسلام فى الشرق. ومن ثمرة جهودهم أن أقبل الأوربيون على اعتناق الإسلام.

وفى أمريكا انتـشر الإسلام عن طريق الهجـرة من بعض بلاد الإسلام وفى ظل الحرية التى يتمتع بها المواطن، يعيش المسلمون فى حرية كاملة لهم مساجدهم ووعاظهم ومدارسهم الدينية، والجمعيات التى تحل مشاكل المسلمين، وتوثق الصلة بيـنـهم.

وصل الإسلام إلى أمريكا الشـمالية، مع الكشف الأسبانى لسـواحلها حيث ضم المستكشفون الأوائل بعض المسلمين. والموجـة الثانية ممثلة فى وصول المسلمين الأفارقة، الذين اسـتقدمهم تجار الرقيق الأوربيـون من غرب أوربا. وعندما وصلوا إلى الولايات المتـحدة الأمريـكية، أجبـروا على التخـلى عن أسمائـهم وثقافـتهم ولغتـهم وعقيـدتهم. ولم يكن فى استطاعـتهم بناء المسـاجد أو إنشاء المؤسـسات الإسلامية كالمدارس والجامعات، ونشأ جيل جديد من هؤلاء الأفارقة، نسوا دينهم وثقافتهم ولكن لم تنس الأجيـال التى تنتمى لهؤلاء الرقيق المسلم الذين جلبوا من أفريقيا جـذورها القديمة، وعاد كثير منهم إلى اعـتناق الإسلام، وفى الهجرة إلى أمريـكا فى القرن التـاسع عشـر من العالم الإسـلامى مثل تركـيا ولبنان وسـوريا وفلسطين ويوغسلافـيا وروسيا وألبانيـا وبولندا ومصر، كان مـعظم المهاجرين من المسلمـين، غـيـر أن هؤلاء ذابوا فى المجـتـمـعـات الأمـريكيـة، وتزوجـوا من الأمـريكانيات، وانـقطعت صلاتهـم بأوطانهم؛ لذلك لم يكن لهم دور فى نشـر الإسلام.[1]

(١) ملحوظة: استفدنا من هذه الدراسة من كتاب «المملكة العربية السعودية ودعم الأقليات المسلمة فى العالم» هيئة التحرير: أحمد أبو الحسن حلمى، عبد المجيد فهمى عبد المجيد، فتحى حسن عطوه، سمير محمد عبيد.
إشراف: د. عبد الجليل كاشكندى.

خاتمة

فى هذا الكتاب شاهدنا كيف أن الإسلام أحيا فى العرب طاقاتهم الكامنة ووحد شملهم، وكون منهم لأول مرة دولة قوية دينها الإسلام، ودستورها القرآن، وأدت قوة العرب إلى انطلاقهم فى الفتوح شرقا وغربا حتى تكونت دولة قوية لها نظمها وتقاليدها المنبثقة من الإسلام.

اندمجت الثقافة الإسلامية بثقافات الشعوب التى اندمجت فى دولة الإسلام مكونة الفكر الإسلامى الذى عبر عنه علماء الإسلام فى مختلف فروع العلوم الدينية واللغوية وعلوم التاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب والهندسة والرياضيات إلخ، وترك المسلمون لنا تراثا يملأ مكتبات العالم، وأفاد المسلمون بعلومهم أوربا ونهضت بفضل الفكر الإسلامى.

غير أن الفكر الإسلامى شهد ضعفا وجمودا وتخاذلا من غزوات الصليبيين والمغول، وغزوات الأسبان للأندلس والاستعمار الأوربى وقيام دولة إسرائيل وشهدت بلاد الإسلام تيارات متضاربة، بعضها إلحادية للنيل من الإسلام وأهله وتيارات تريد العودة إلى الإسلام، وتنهض به، وتذكر المسلمين بماضيهم الغابر.

على كل حال أسفر هذا الصراع عن ظهور فكر إسلامى معتدل يدعو إلى دراسة علوم الإسلام بموضوعية والاستفادة من الدراسات الأوربية الحديثة التى قام بها المستشرقون بموضوعية ومنهجية حديثة والاستفادة من الحضارة الأوربية عموما.

عل كل حال سيظل الإسلام قويا صامدا أمام التيارات المضادة له، ولكن الفكر الإسلامى سينتصر على كل هذه التيارات إذا التزم بدراسة علوم الإسلام مستفيدا من التقدم الهائل الذى شهدته أوربا فى المناهج والأدوات التكنولوجية الحديثة.

والله متم نوره ولو كره الكافرون.


المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية :

١ - ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٣٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم **«الكامل فى التاريخ»**.

٢ - أحمد أمين : **«فجر الإسلام» - «ضحى الإسلام» - «ظهر الإسلام»**.

٣ - أرنولد : «The preaching of Islam» ترجمة الأستاذ : حسن إبراهيم حسن باسم **«الدعوة إلى الإسلام»**.

٤ - الأصفهانى : (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) أبو الفرج **«كتاب الأغانى»**.

٥ - الاصطخرى: (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع) أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى **«المسالك والممالك»** تحقيق : د. محمد جابر عبد العال.

٦ - ابن أبى أصيبعة : (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجى، موفق الدين **«عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»**.

٧ - الألوسى، السيد محمود شكر البغدادى **«بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب»**.

٨ - أمير على، سيد : «A short hist. of the saracens» نقله إلى العربية : رياض رأفت باسم : **«مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى»**.

٩ - أنتونى ناتنج : **«العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام»** ترجمة راشد البراوى.

١٠ - ابن إياس (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) محمد بن أحمد **«بدائع الزهور فى وقائع الدهور»**.

١١ - بارتولد، ف : **«تاريخ الحضارة الإسلامية»**.

١٢ - بروكلمان، كارل : **«تاريخ الآداب العربية»**، **«تاريخ الشعوب الإسلامية»**.

١٣ - البكرى (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٧م) أبو عبيد الله بن عبد العزيز **«معجم ما استعجم»** حققه الأستاذ مصطفى السقا.

١٤ ـ البلاذرى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر **«أنساب الأشراف»** **«فتوح البلدان»**.

١٥ ـ ترتون، أ. س : **«أهل الذمة فى الإسلام»** نقله إلى العربية : د. حسن حبشى.

١٦ ـ الثعالبى (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) أبو منصور عبد الملك **«لطائف المعارف»** **«يتيمة الدهر»**.

١٧ ـ الجاحظ (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) أبو عثمان عمرو بن بحر **«البيان والتبيين»**، **«التاج فى أخلاق الملوك»**، **«الحيوان»** ، «رسائل الجاحظ».

١٨ ـ ابن جبير : (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) محمد بن أحمد بن جبير **«رحلة ابن جبير»** تحقيق د. حسين نصار.

١٩ ـ الجهشيارى : (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٣م) أبو عبد الله محمد بن عيدروس **«الوزراء والكتاب»** حققه : مصطفى السقا وآخرون.

٢٠ ـ ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١) أبو الفرج عبد الرحمن على بن الجوزى **«مناقب عمر بن عبد العزيز»**، **«المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم»**.

٢١ ـ حتى، فيليب : **«تاريخ سورية ولبنان»**، **«تاريخ العرب المطول»**.

٢٢ ـ ابن حجر (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى **«الإصابة فى تمييز الصحابة»**.

٢٣ ـ الحريري : **«المقامات»**.

٢٤ ـ حسن إبراهيم حسن **«تاريخ الإسلام السياسى»**، **«النظم الإسلامية»** **«انتشار الإسلام فى أفريقيا»**.

٢٥ ـ حسن أحمد محمود « **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا»**، **«قيام دولة المرابطين»**، **«العالم الإسلامى فى العصر العباسى»**.

٢٦ ـ حسن الباشا : **«الآثار الإسلامية»**، **«دراسات فى الحضارة الإسلامية»**.

٢٧ ـ حنين بن إسحاق : (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) **«العشر مقالات فى العين»**، **«المسائل فى الطب للمتعلمين»** تحقيق ودراسة الدكتور : محمد على أبو ريان، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٨.

٢٨ ـ ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله **«المسالك والممالك»**، **«مختارات من كتاب اللهو والملاهى»**.

٢٩ ـ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد **«مقدمة ابن خلدون»** **«العبر وديوان المبتدأ والخبر»**.

٣٠ ـ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٧١م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى **«وفيات الأعيان»**.

٣١ ـ الدميرى (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) محمد بن موسى كمال الدين **«حياة الحيوان الكبرى»**.

٣٢ ـ دى بور : **«تاريخ الفلسفة فى الإسلام»** نقله إلى العربية: محمد عبد الهادى أبو ريده.

٣٣ ـ الدينورى : (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) أبو حنيفة أحمد بن داود **«الأخبار الطوال»**.

٣٤ ـ الذهبى : (ت ٧٩٤هـ/ ١٢٤٨م) : **«تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام»**، **«سير أعلام النبلاء»**.

٣٥ ـ الرازى (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م) أبو بكر : **«الحاوى فى الطب والتداوى»**، **«الكليات فى الطب»**.

٣٦ ـ زكى محمد حسن : **«الرحالة المسلمون فى العصر الوسيط»**، **«فنون الإسلام»**.

٣٧ ـ زكى نجيب محمود **«جابر بن حيان»**.

٣٨ ـ ابن الساعى : (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) على بن أنجب. **«نساء الخلفاء»**.

٣٩ ـ سعاد ماهر : **«مساجد مصر وأولياؤها الصالحون»**.

٤٠ ـ ابن سعد : (ت ٢٣٠هـ/ ٨٣٥م) محمد **«الطبقات الكبير»**.

٤١ ـ السخاوى (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧) شمس الدين **«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»**.

٤٢ ـ سعيد بن البطريق المعروف باسم أوتيخا (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) **«التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»**.

٤٣ ـ ابن سيده (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى **«كتاب المخصص»**.

٤٤ ـ سيدة إسماعيل كاشف : **«مصر فى فجر الإسلام»**.

٤٥ ـ ابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) أبو على الحسين بن على **«القانون فى الطب»** ٤ أجزاء، تحقيق : إدوار القش، مؤسسة عز الدين، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ـ **«الشفاء»**.

٤٦ ـ السيوطى (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلا الدين **«تاريخ الخلفاء» ـ «حسن المحاضرة»، «الشماريخ فى علم التاريخ»**.

٤٧ ـ شاهين مكاريوس : **«الماسونية»**.

٤٨ ـ شوقى ضيف : **«التطور والتجديد فى الشعر الأموى» ـ «الأدب فى العصر العباسى»**.

٤٩ ـ ابن طباطبا (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م) محمد بن على بن طباطبا **«الفخرى فى الآداب السلطانية»**.

٥٠ ـ الطبرى : (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير **«تاريخ الأمم والملوك»**.

٥١ ـ ابن طيفور (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٤م) أحمد بن طاهر الكاتب **«مناقب بغداد»**.

٥٢ ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح : **«الحضارة الإسلامية»، «الحركة الصليبية»، «عصر المماليك فى مصر والشام»**.

٥٣ ـ عبد الرازق، أحمد **«الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى»**.

٥٤ ـ عبد العزيز الدورى «مقدمة فى صدر الإسلام»، **«التاريخ الاقتصادى للعراق فى القرن الرابع الهجرى»**.

٥٥ ـ عبد المنعم ماجد : **«الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى»**.

٥٦ ـ ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٦٨م) أبو الفرج ابن هارون **«مختصر تاريخ الدول»**.

٥٧ ـ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م) أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله **«تاريخ دمشق»**.

٥٨ ـ عصام الدين عبد الرءوف الفقى : **«الحواضر الإسلامية الكبرى»، «الهند فى العصر الإسلامى»، «اليمن فى ظل الإسلام»، «الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق»**.

٥٩ ـ عطية القوصى : **«الحضارة الإسلامية»**.

٦٠ ـ العينى (ت ٨٥٥هـ / ١٥١٤م) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى **«عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان»**.

٦١ ـ أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) إسماعيل بن على، عماد الدين **«المختصر فى أخبار البشر»**.

٦٢ ـ فلهاوزن **«تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية»**.

٦٣ ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) أبو محمد عبد الله بن مسلم **«الإمامة والسياسة»، «عيون الأخبار»، «المعارف»**.

٦٤ ـ القرطبى (ت ٦٧١هـ/ ١٢٦١م) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى، التفسير **«الجامع لأحكام القرآن»**.

٦٥ ـ القفطى (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم **«إخبار العلماء بأخبار الحكماء»**.

٦٦ ـ القلقشندى (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أبو العباس أحمد **«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»**

٦٧ ـ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقى : **«البداية والنهاية»، «تفسير ابن كثير»**.

٦٨ ـ كرد على : **«الإسلام والحضارة العربية»، «أعلام الإسلام»**.

٦٩ ـ الماوردى : (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧م) أبو الحسن على بن حبيب **«الأحكام السلطانية»**.

٧٠ ـ المبرد : (ت ٣٨٥هـ / ٩٥٥م) أبو العباس محمد بن يزيد **«الكامل فى اللغة والأدب»**.

٧١ ـ متز آدم : **«الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»**، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

٧٢ ـ محمد جمال الدين سرور : **«تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق»**.

٧٣ ـ المسعودى (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين **«مروج الذهب» «التنبيه والإشراف»**.

٧٤ ـ المقدسى : (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٧م) : **«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»**.

٧٥ ـ المقريزى (ت ٨٤٤هـ/ ١٤١٤م) تقى الدين أحمد بن على **«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، «إغاثة الأمة بكشف الغمة»**.

٧٦ ـ المعرى (ت ٤٤٩هـ / ١٠٥٧) أبو العلاء **«سقط الزند»، «لزوم ما لا يلزم»**.

٧٧ ـ ابن النديم : (ت ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) محمد بن إسحاق **«الفهرست»**.

٧٨ ـ ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) علاء الدين على بن أبى الحزم : **«رسالة الأعضاء»** دراسة وتحقيق د/ يوسف زيدان، الدار المصرية

اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م - **«شرح فصول أبقراط»** دراسة وتحقيق د. يوسف زيان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م - **«الموجز فى الطب»** تحقيق د/ عبد الكريم الغرباوى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٧٩ - نيكلسون **«فى تاريخ التصوف الإسلامى»**.

٨٠ - ابن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ ١٠٩) الحسن **«كتاب المناظر»** تحقيق / عبد الحميد صبرة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٣م.

٨١ - الواقدى : (ت ٢٠٨هـ/ ٨٣٢م) أبو عبد الله محمد بن عمر **«فتوح الشام»**.

٨٢ - ياقوت : (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى **«معجم الأدباء»**، **«معجم البلدان»**.

٨٣ - اليعقوبى : (ت ٣٨٢هـ/ ٨٩٥م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر **«البلدان»**، **«تاريخ اليعقوبى»**.

الدوريات

مجلة التراث العلمى العربى.

دائرة المعارف الإسلامية.

الأبحاث المنشورة فى المجلات العلمية.

ثانيا : المراجع الأجنبية :

- Arnold, T. W : Arab Travellers and Merchants, A. D. 1000 - 1500. London 1926.

- Ashtor, E : Histoire des Prix et des salaires dans L'Orient Medieval, Paris 1969.

- Cahen, G : Economy, Society, Institutions, The Cambridge History of "Islam" Cambridge 1970.

- Goitein, S : A Mediterranean Society of the high Middle Ages. V.I, New York 1967.

- Heyd, W : Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age, T. II, Leipzig 1923.

- Pirenne, H: Histoire economie et social du Moyen age, Paris 1969.

- Rice, D. S : A drawing of the Fatimid Period, BSOAS, V. 21, London 1958.

- Rosental, F : A History of Muslim Historiography, Leiden 1968.

- G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.

- G. Le Strange, The Lands of Eastern Caliphate, Cambridge, 1930.

- Von Kremer, The Orient under the Caliphs, Trans. By Khuda Buksh, Beirut, 1973.

- Y. Wellhausen, The Arab Kingdom and Its Fall, Trans. by Weir, Calcutta, 1927.

- G. Wiet, Matériaux Pour un corpus inscryptionum arabicarum, Egypte, MIFAO, L 11 Le Caire, 1930.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الصفحة

الصفحة | الصفحة

الصفحة | الصفحة

مطبعة أميرة
عابدين - ت : ٣٩١٥٨١٧



أزمة الفكر الإسلامي



من أطلس العالم الإسلامى

إشراف د. حسين مؤنس ومشاركة المؤلف


المسلمون في العالم اليوم
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
أكثر من ٩٠ ٪ مسلمون
أكثر من ٧٠ ٪ مسلمون
أكثر من ٥٠ ٪ مسلمون
من ٣٠ ٪ إلى ٣ ٪ مسلمون
فرنسا
رومانيا
يوغسلافيا
بلغاريا
إيطاليا
ألبانيا
اليونان
إسبانيا
البرتغال
البحر الأسود
تركيا
سوريا
العراق
لبنان
فلسطين
قبرص
البحر المتوسط
الكويت
البحرين
قطر
الرياض
الإمارات العربية المتحدة
السعودية
مكة
المدينة
القاهرة
مصر
ليبيا
تونس
الجزائر
المغرب
الرباط
جزر كناريا
الساقية الحمراء
وادي الذهب
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
الخرطوم
السنغال
غامبيا
غينيا
بيساو
سيراليون
ليبيريا
ساحل العاج
فولتا العليا
غانا
توجو
بنين
نيجيريا
الكاميرون
أفريقيا الوسطى
إثيوبيا
أديس أبابا
الصومال
مقديشيو
جيبوتي
اليمن الجنوبي
اليمن الشمالي
كينيا
أوغندة
تنزانيا
زنجبار
دار السلام
الجابون
الكونغو
زائير
كنشاسا
رواندا
بوروندي
أنجولا
لواندا
زامبيا
ملاوي
موزمبيق
زيمبابوي
ناميبيا
(جنوب غرب إفريقيا)
بوتسوانا
جنوب إفريقيا
مدغشقر
المحيط الأطلنطي